

محمد عبد الهادي أبو ريذة

ميراث الترجمة

تاريخ الدولة العربية

من ظهور الإسلام
إلى نهاية الدولة الأموية

يوليوس قلهوزن

مراجعة: حسين مؤنس

تقديم: مصطفى لبيب عبد الغنى



الطبعة الثانية



تاريخ الدولة العربية

من ظهور الإسلام
إلى نهاية الدولة الأموية

إن للحفاوة بهذا الكتاب في ثقافتنا العربية المعاصرة مغزى عميقاً بلا ريب:
فقد أصدر العالم والمؤرخ الألماني الشهير يوليوس فلهوزن كتابه هذا عن تاريخ
ظهور الإسلام والدولة الأموية منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً، وقت أن كانت
الشعوب العربية تجاهد لاستعادة هويتها بعد فترة أفول طالت. ومنذ ما يقرب
من خمسين عاماً، وفي أعقاب اغتصاب الصهاينة لأرض فلسطين صدرت في
مصر عن إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة عربية للكتاب ضمن
المشروع القومي لترجمة ألف كتاب.

تاريخ الدولة العربية
من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٨٤٨ / ٢
- تاريخ الدولة العربية: من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية
- يوليوس قلهوزن
- محمد عبد الهادي أبو ريدة
- حسين مؤنس
- مصطفى لييب عبد الغنى
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

Das Arabische Reich und sein
sturz
Von
Julius Wellhausen

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية

تأليف: يوليوس قلهوزن

ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريذة

مراجعة: حسين مؤنس

تقديم: مصطفى ليبب عبد الغنى



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٧٠٤ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي: 1 - 395 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

تقديم

انعقدت الصلة بينى وبين أستاذنا الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده منذ التحاقى بقسم الفلسفة - بكلية الآداب - جامعة القاهرة ومطالعتى لأسفاره الممتعة ، المؤلفات والمحققة والمترجمة . وكان لى شرف الاستماع بعد ذلك إلى دروسه فى الفلسفة الإسلامية لطلاب السنة التمهيديّة للماجستير بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، وكانت بصحبة غالية لرفيق دربى الفيلسوف محمود رجب ، فوجدنا فى أستاذنا المثل الحى فى الحذب على طلابه والوفاء بحقوقهم ، مع سعة أفق ، ورحابة صدر ، وإخلاص للفكر ، واجتماع لفضائل العلماء الزهاد .

ولم يكن غريباً أن تأتى ترجماته وتحقيقاته عملاً أخلاقياً عماده الأمانة وتحري الإنصاف والصبر على التكاليف الواجبة مع الاعتراف بالحق لذويه ممن أعانه أو أسدى نصحاً إليه . وهو فى عكوفه على الأعمال الجادة، التى تتطلب الوقت والجهد العزيزين ، وفى التزامه الدقيق بقيم الثقافة الرفيعة ، يدرك ثقل الأمانة الملقاة على عاتقه راجياً ثواب الله عز وجل .

اختار أستاذنا للترجمة فى مستقبل حياته العلمية طائفة من الدراسات القيمة جاءت لازمة لزمانها كل الزوم ، منها : كتاب "دى بور" عن "تاريخ الفلسفة فى الإسلام" وكتاب "بينيس" عن "مذاهب الذرة عند المسلمين" - فى ميدان علم الكلام - وكتاب "آدم متر" عن "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى" - فى ذروة ازدهارها - ثم كتاب "يوليوس قلهوزن" - الذى نقدّم له اليوم - عن "تاريخ الدولة العربية" ، منذ بدايتها وحتى قيام الدولة العباسية . ويجمع هذه المصنّفات الجادة أنها تلقى ضوءاً ساطعاً على حضارة الإسلام التى تميّزت بقسماتها الواضحة فى التاريخ ، وتُظهر قيمتها الإيجابية وفضلها على الإنسانية . ومما هو جدير بالذكر أن المترجم كان حريصاً ،

بتعليقاته المستفيضة والدقيقة التي أثبتتها في الحواشي ، على سد ما يراه في هذه الدراسات من ثغرات وعلى رد ما يراه مستوجباً للرد من آراءٍ عرضت ، وذلك في اتزان ملحوظ .

وقد ألزم المترجم نفسه بمنهج دقيق هو أبعد ما يكون عن الترجمة الحرفية الشائعة؛ فكان لابد له من ترجمة المعنى ترجمة دقيقة وافية بالغرض . واجتهد في الاطلاع على جميع النصوص التي رجع إليها المؤلفون ، كما ذكر نصوصاً عند الحاجة سنداً لكلام المؤلف بغية توضيح فكرته أو تفصيلها أو إصلاحها ، كما كان يشير إلى المراجع التي لم يذكرها المؤلفون وإن كانوا قد رجعوا إليها ، وذلك إرضاءً لحاجات القارئ الباحث وتشويقاً لمواصلة الاستفادة من النصوص في دراسات أخرى ، في وقت كانت لاتزال تتشكل فيه تقاليد البحث في جامعاتنا ، ودعاه إلى ذلك أيضاً رغبته في تأكيد سلامة الترجمة أمام من قد يعترض عليها ، مع تصحيح الأخطاء حتى وإن لم تلزم الإشارة إلى ذلك تجنباً للفضول وتطويل الكلام . واقتضت أمانته ألا يسقط شيئاً مما يكون غامضاً أو صعباً ، كدأب الكثيرين ، وإنما يستنفر كل قواه متحدياً إياه كما يهيب باستشارة أهل الذكر من العارفين - العرب والأجانب ، متوخياً في ذلك أن يصل بترجمته إلى أكبر قدر من الدقة مؤثراً في تعبيرة عن المعانى الإحكام والتركيز الذي لا يصل على كل حال إلى الجفاف ، كما لا يجعل من رشاقة الأسلوب هدفاً في ذاته .

إن للحفاوة بهذا الكتاب في ثقافتنا العربية المعاصرة مغزى عميقاً بلاريب ؛ فقد أصدر العالم والمؤرخ الألماني الشهير "يوليوس قلّهوزن" Julius Wellhausen كتابه هذا عن تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً ، وقت أن كانت الشعوب العربية تُجاهد لاستعادة هويتها بعد فترة أفول طالت . ومنذ ما يقرب من خمسين عاماً ، ومع تصاعد مدّ القومية العربية في مواجهة الإمبريالية العالمية وفي أعقاب اغتصاب الصهاينة في مواجهة فلسطين صدرت في مصر عن إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة عربية للكتاب ضمن مشروع لترجمة ألف كتاب ،

واليوم يبادر المجلس الأعلى للثقافة بإعادة نشر هذه الترجمة ضمن "ميراث الترجمة".
 وإننا لنرى في هذا الكتاب مرآة صادقة تعكس مواطن القوة والارتقاء كما تعكس جوانب
 الضعف والانحلال لأمتنا العربية ، التي جاء عليها حين من الدهر لم تكن فيه شيئاً
 مذكوراً ، ثم ارتفعت هامتها بظهور الإسلام وانتشاره حتى أصبحت القوة الأولى
 المحركة لتاريخ العالم ، وكان حظها من الغلبة والرقى بقدر نجاحها في الاقتراب من
 الفكرة الإيمانية وبقدر اعتصامها بحبل الله فلا تتفرق بل تذكرُ نعمة الأخوة التي ينعم
 الله بها دائماً على مَنْ تأتلف قلوبهم ، وكذلك بقدر نجاحها المضطرد في مقاومة عوامل
 التحلل والفساد .

ولكم هو لازم وضرورى أن يقترن استرجاعنا لماضيها ورؤيتنا لنواتنا بإحساسنا
 بهول الأخطار التي تعصف بوجودنا (*) في عصر لا مكان فيه لضعف أو جهالة ،
 وبتطلُّعنا لمستقبل أفضل نصنعه بإرادتنا إن أخذنا بأسباب التقدم ووعينا سنَّة الله في
 خلقه فصدقت عزميتنا على أن نعمل معاً وبإخلاص من أجل أمتنا عمل الصادقين
 العارفين ، وأن نتحدد قيمة كل امرئ منا بما يُحسِنه .

(*) ما أشبه الليلة بالبارحة ! فالיום تصك أسماعنا بقوة صرخة "نصر بن سيار" أمير مرو من قبل بنى أمية
 وهو يستشرف الطوفان المؤذن بإيادة الدولة ، عندما قال :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها	أن يفضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
مما بالكم تُلحقون الحرب بينكم	كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلمكم	ممن تأنسب لا دين ولا حسبُ
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم	ولا حميم الموالى إن هم تُسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعتُ به	عن الرسول ولا جاءت به الكتبُ
فمن يكن سائى عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تُقتل العربُ

(أبو حنيفة الدينورى : الأخبار الطوال ، ص ٣٦٠) .

اختار المؤلف عنواناً دقيقاً لكتابه هو "الإمبراطورية العربية وسقوطها" Das Ara-bische Reich und Sein Sturz ، وهو إذ يتتبع نشأة دولة المدينة زمن البعثة النبوية واتساعها مع الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين وحكام بني أمية يُفرّق بين العروبة والإسلام : فليست كل دول الإسلام دولاً عربية تسودها قيم الحياة العربية ويسيطر فيها الجنس العربي على غيره من الأجناس .

ولعل دافعه في ذلك إدراكه الصحيح لنجاح العرب بعد الإسلام في تكوين إمبراطورية عالمية - من أقصى الصين شرقاً إلى الأطلسي وبعض ممالك أوروبا الجنوبية غرباً - وهم الذين لم يألّفوا من قبل شكل الدولة بمفهومها الدقيق وبنظمها المعهودة في التاريخ . ورأى المترجم أن في ذلك تساهلاً كبيراً من جانب المؤلف : ذلك لأن العباسيين كانوا عرباً ، ولأن الأمويين كانوا مسلمين ، كما أن دولة بني أمية قامت في الأندلس والمغرب من جديد ، ولم يزل للعرب منذ ظهور الإسلام دولة موحدة أو دول متفرقة ... وكانت قوة الدولة - أو الدول - العربية على قديم الأيام وحديثها تستند إلى دعامين أساسيتين : الإسلام كعقيدة ونظام في الحياة والعروبة العرقية الحضارية بالنسبة للعرب الخلص أو العروبة اللغوية والحضارية بالنسبة للأجناس التي استعربت . وقد أمتزج العرب على مرّ الزمان امتزاجاً كبيراً ، مما جعل للعروبة بمعناها التاريخي والحضاري بل والإنساني والسياسي معنى خاصاً ؛ لذلك اختار المترجم عنواناً للكتاب بحسب الموضوع المحدّد الذي اختاره المؤلف وهو تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بني أمية وقيام دولة بني العباس في المشرق الإسلامي ؛ فجاء على النحو التالي : "تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية" .

اشتمل الكتاب على مقدمة وفصول ثمانية عن : عليّ بن أبي طالب والحرب الأهلية الأولى ، وعن السفينيين والحرب الأهلية الثانية، وعن مروان الأولين ثم وقفة مع عمر بن عبد العزيز والموالي، وعن المروانيين المتأخرين ثم مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة وتناول الأوضاع القبائل العربية في خراسان ، وأخيراً سقوط الدولة العربية

" الأموية " وقيام الدولة العباسية . وذُيِّلت الترجمة بفهارس دقيقة للأشخاص والأماكن والمواضع والموضوعات والمواد .

ومؤلف الكتاب مفكر متحرر لا يذعن إلا لسلطان العقل ، ومؤرخ موضوعي ينطلق في تأريخه من المصادر الأصلية للفترة المعنية، حريص على نقد الروايات التاريخية ومعرضتها بعضها ببعض وتحليلها تحليلًا دقيقًا مرجحًا منها ما يستوجب الترجيح . وهو يفرّق - كشأن كبار المؤرخين - بين القصص المتحرر قد يداخله الخيال وبين التاريخ العلمى المستند إلى الوقائع (*) ، وعلى وجه العموم فإن تأريخ " قلهوزن " للدولة العربية مثال طيب على جودة إستيعاب المؤرخ وعلى تمثله الكامل لمصادره المتنوعة العربية منها وغير العربية ؛ فهو إلى جانب رجوعه إلى التواريخ المهمة عند أمثال الطبرى والبلاذرى وابن الأثير (وذلك فى الطبقات المختلفة لمؤلفاتهم إن وُجد بينها ما يستحق الذكر) يستعين أيضاً بدواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين(**) ، وبما ورد من أخبار فى الموسوعات الأدبية المهمة . وهو يتفوق على الكثيرين من أسلافه الذين كتبوا عن الدولة العربية فيعتمد أيضاً على مصادر غير عربية معاصرة للحوادث التى يتناولها وللأشخاص الذين يعرض لهم مثل كتاب " تيوفانىس " المؤرخ البيزنطى،

(*) وهذا ما جعله يقول - مثلاً - عن "أبى مخنف" فى روايته لواقعة يذكرها الطبرى : إنه " وإن لم يكن مؤرخاً عالماً كالواقدي فإنه فى هذه الحكاية لا بد أنه كان على علم بالأمر ، لأنه كان فى ذلك الزمان يعيش فى الكوفة شيخاً كبيراً ، أما أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ - ص ١٩١٤ فما بعدها) فهو يذكر أخباراً أخرى ، لكنه ليس أهلاً للثقة ، وهو وإن كان يعرف تفاصيل طريفة وتقصى قصصاً ممتازاً فإنه من حيث هو مؤرخ لاتصح مقارنته بأبى مخنف " .

(من حاشية قرب نهاية الفصل الثامن من الكتاب)

(**) علي أن هذا لم يمنع المؤلف من أن يبدي تحفظه أحياناً فلا يقبل أقوال الشعراء على علاتها ؛ فهو يصرح (فى الفصل الثامن من كتابه) بأنه لا يصح الاعتماد على ما يقوله الشعراء إلا مع الحذر ، وإن كانت أشعارهم فيما يتعلق بالحوادث المجردة فى ذاتها يمكن أن تعتبر شواهد تاريخية لها قيمتها الكاملة " .

وكتاب "الصلة لتاريخ إيزودور" ، لكنه يقف من الآراء الواردة فيها موقف الناقد الحصيف ، كما يعتمد على بعض ماكتبه المؤرخون السريان . وهو وإن استفاد من دراسات غيره من المستشرقين أمثال : "دوزي" و : "قون كريم" و "برونوف" و "أوجست مولر" و "قان فلوتن" ، إلا أنه كان مضطراً أحياناً إلى مراجعة الكثير من أرائهم وتصويبها أو إلى بيان تهاافتها أحياناً أخرى عندما تكون صادرة عن هوى يتنافى مع روح العدالة أو عن اندفاع يتجافى مع روح الدقة أو عن مشايعة لأحكام سابقة تفتقد إلى التمحيص .

إن هذا الكتاب - الذى يستنطق مؤلفه وثائق التاريخ بجدارة واقتدار - يثير فى الوعي جملة من القضايا المهمة : ومع أنه دراسة تاريخية أساساً ، فإنه قد نجح تماماً فى إبراز الصدع الذى حدث بين الفكرة الإسلامية وبين واقع حياة المسلمين الذى سيطرت فيه القوة على الحق ، واستبدت فيه الحكام بالمحكومين بحيث ظهرت الدولة الإسلامية ، بدءاً من سنة ٤٠ هـ ومع وفاة الخليفة الراشد على بن أبى طالب ، دولة دنيوية وإن تذررت برداء الدين ، وأدى الحاكم فيها دور الخليفة أو الإمام الهادى المهدى ! وبعثت نظرية "التفويض الإلهى فى الحكم" من مرقدتها وساندتها عصبية قبلية غلبت على مبدأ الأخوة الإسلامية بين العباد الذى لا اصطفاء فيه ولا تزكية ولا تفاضل بين الأفراد أو الطبقات إلا بالتقوى والعمل الصالح ؛ فها هو "معاوية بن أبى سفيان" ، وهو يأخذ البيعة ! من أهل المدينة قسراً لابنه "يزيد" ، يقول للناس : "أما بعد فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ... ولقد رُضت لكم نفسى على عمل أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً" (ابن عبد ربه : "العقد الفريد" ، ج ٤ - ص ١٧٠ - ١٧١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧) .

ولعل فى الصورة المأساوية التى يرسمها لنا "المطهر بن طاهر المقدسى" فى كتابه "البدء والتاريخ" ما يغنى فى هذه السبيل؛ حيث يثبت ما يلى : "قال عبد الملك بن عمر الليثى : دخلت قصر الإمارة بالكوفة وعبد الملك بن مروان قاعد فى الإيوان على سريريه وبيده ترس وعليه رأس مصعب بن الزبير فتبسمت؛ فقال: مم تبسمت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت عبيد الله بن زياد فى هذا الإيوان بين يديه رأس الحسين بن على، ثم رأيت المختار وبين يديه رأس عبيد الله بن زياد فى هذا الإيوان ثم أثبت مصعب بن

الزُبَيْر في هذا الإيوان وبين يديه رأس المختار بن أبي عبيد ، ثم أراك وبين يدك رأس مصعب ... قال : وكذلك لما بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد إلى محمد بن الحنفية لينصبهما في المسجد الحرام كان محمد بن الحنفية يأكل ، فقال محمد : الحمد لله أتى ابن زياد برأس الحسين وهو يأكل وأتىنا برأس ابن زياد ونحن على هذه الحالة " (البدء والتاريخ ، ج ٦ - ص ٢٣ - ٢٤ بتحقيق "كليمان هيوار") .

على أنه من الملاحظ كذلك أن الأفانية أو المصلحة الشخصية هي التي حكمت سلوك الحكام الأمويين على وجه العموم ؛ فلم تكن تحركهم التركة القبلية وكفى . وما هو عبد الملك بن مروان ، الذي تربى في مدينة الرسول (ﷺ) ، واجتهد في صباه في الدراسات الدينية ، وكان يُعتبر من العلماء القراء ، تغير لما تولى الخلافة . فكان لا يأبه إذا كان الأمر أمر خلافة لأي اعتبار ، فقتل بيديه ابن عمه عمرو بن سعيد لأنه تطاول للخلافة . وقد عارضه أخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة في أبنائه ، فلم ينقذه من بطش عبد الملك إلا الموت . وموقف عبد الملك يمثل موقف معظم الحكام .

ولقد ترتب على المصادرة الدائمة من جانب الحكام لإرادة الأمة . وعلى الرغبة المتأججة في توريث الحكم قهراً ، أن سادت بين الرعية روح اللامبالاة حتى تجذرت في تربة الحياة السياسية مقتربة بالخنوع والمقت وباليأس من الإصلاح . وخير ما يُعبر عن مشاعر الاغتراب السياسي قول بعضهم :

فإن تأتوا برملة أو بهند

نبايعها أميرة مؤمنينا

إذا ما مات كسرى قام كسرى

بنوه بعده متناسقينا

خشينا الغيظ حتى لو سُقينا

دماء بني أمية ما شُفينا

(البدء والتاريخ ، ج ٦ - ص ٢٨)

ومن الجدير بالنظر أن دراسة " قلهوزن " هذه جاءت محكمة بما عاينه من وثائق وشهادات الفترة المعنية ؛ غير أنه بالنظر إلى الاتساع الهائل لموضوعه زماناً ومكاناً لم يكن بالوسع أن تأتي رؤيته للوقائع شاملة تماماً . ومع أنه أفرد لحكم "عمر بن عبد العزيز" فصلاً كاملاً كان فيه مؤقفاً كل التوفيق ، بما هو مؤرخ ممتاز يلقى الضوء على كثير من غوامض هذه الفترة القصيرة والدالة ، فإنه يمر سريعاً على خلافة " معاوية الثاني " - وهو ابن يزيد بن معاوية ، والذي يمثل ، شأنه في ذلك شأن عمر بن عبد العزيز ، حالة استثنائية بين حكام بني أمية جميعاً . صحيح أنه يذكر (في الفصل الثالث) عن معاوية الثاني أنه " أسقط عند توليه الخلافة ثلث الخراج عن جميع أمصار مملكته " ، ولكنه مات بعد حكم قصير جداً . أما الواقدي فلا يذكر شيئاً من ذلك . والأغلب أن رواية تنازله ترجع إلى محاولة تغطية ما وقع من أن الفرع الأحدث من بني أمية ، وهو فرع المروانيين ، وقد أزال الفرع الأقدم ، وهو فرع السفينانيين ، عن الخلافة ظلماً وعدواناً ؛ وهذه المحاولة هي التي تُفسر لنا أن معاوية الثاني لا يذكر في كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء ، بل الذي يُذكر هو أن مروان جاء بعد يزيد مباشرة . ومثل هذا وقع في قوائم التاريخ في العهد القديم .

إلا أننا نرى أن هذه الفترة القصيرة من حكم معاوية الثاني كاشفة عن أزمة النظام السياسي، وأنها تجسيد للصراع القائم بين المثال والواقع أو بين الشورى والاستبداد ؛ فمعاوية الثاني ويروى هذا كان تلميذاً لـ "عمرو المقصوص" القدرى . ويروى أنه لما تمت البيعة لمعاوية الثاني قال لشيخه المقصوص : " ما ترى؟ " فأجابه : "إما أن تعتدل وإما أن تعتزل " ، بعدها خطب معاوية الثاني في الناس فقال : " إنا بلىنا بكم وابتليتكم بنا . وإن جدى معاوية نازع الأمر من كان أولى به وأحق فركب منه ما تعملون حتى صار مرتهاً بعمله ، ثم تقلده أبى ، ولقد كان غير خليق به فركب ردعه واستحسن خطاه . ولا أحب أن ألقى الله ببتبعاتكم فشائكم وأمركم ولؤه من شئتم ، فوالله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها خطأ وإن كانت شراً فحسب آل سفيان ما أصابوا منها " (" البدء والتاريخ " ، ج ٦ - ص ١٦ - ١٧) . وهنا يضيق المقدسى قوله : إن بني أمية وثبوا على عمرو المقصوص ، وقالوا أنت أفسدته وعلمته

فطمروه ودفنوه حياً " (ويراجع أيضاً : ابن تعزى بردى : "النجوم الزاهرة " ، ج ١ ، ص ١٦٤ ، ط - القاهرة سنة ١٩٢٥) .

ولكم كان "قلهوزن" محققاً فى ترسيمه للحدود المنهجية الفاصلة بين عمل المؤرخين وبين رؤية أصحاب الأيديولوجيات أو اليوتوبيات ، وكذلك بين عمل المؤرخين الذين يرصدون الوقائع وبين المشرعين الذى يُنظِّرون لما ينبغى أن يكون . وهو يضرب لنا (فى الفصل الخامس من كتابه) مثالين دالين على ذلك من التاريخ الأموى ، فيقول : "إذا أراد الإنسان أن يحكم على ما فعله الحجاج وعمر بن عبد العزيز حكماً صحيحاً فإن الواجب عليه أن يأخذ حذره من غلو الفقهاء فى إيمانهم بأن كل شىء كان موجوداً فى التاريخ السابق . والأجدر به أن يتمسك أول ما يتمسك بما يذكره المؤرخون على الحقيقة وبما يذكره أقدمهم بطبيعة الحال ؛ لأنهم كانوا أكثر احتراماً للوقائع ، ولأنهم اعتمدوا فى بعض ما قالوا على وثائق ولم يذكروا القواعد العامة التى وضعها الحكام بقدر ما ذكروا القرارات المتفرقة ، وهذه لا يصح أن يتسرع الإنسان فيعتبرها قواعد عامة من غير تفكير فيها ، وهو يستطيع بعد ذلك أن يزن ما يجده عند الفقهاء من مادة تاريخية تصلح للإثبات بهذا الميزان ؛ ففى هذه المادة كثيراً مما لا يدخل فى بضاعة الفقهاء ، ولا يتمشى مع منازعهم" .

ولم يتورط "قلهوزن" ، شأن الكثيرين ، فيخلط بقصد أو بغير قصد بين الإسلام وبين المسلمين، وإنما كان حريصاً على التفرقة بين دواعى السياسة وبين ما هو دين ، فنجدته يرد كثيراً من آراء المستشرقين الذين نظروا إلى واقع السياسة العربية على أنها تعبير عن قيم الإسلام ، كما نجده يردُّ بعض الأحكام الجائرة التى صدرت عن مؤرخى النصراني بشأن موقف الحكام المسلمين من رعاياهم من غير المسلمين ، كما يكشف المؤلف فى ثنايا الكتاب عن الموقف الثابت لبعض الحكام العرب فى استعانتهم لإدارة شئون الدولة بغير المسلمين من أصحاب الخبرة وأهل الدراية . وبالفعل ، لا تغيب فى

الكتاب صورة تلك الإنجازات الحضارية التي حققت بها دولة العرب العالمية ، ولا مشهد الإرادات القوية فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية واستخدام مختلف الوسائل اللازمة بما فيها المقاطعة الاقتصادية ؛ بحيث لا نعدم فى النهاية أن نقف على العظمة الكاملة من تأمل قيام هذه الدولة ومن تأمل محنة سقوطها ، والله المستعان .

د. مصطفى لبيب عبد الغنى

محتويات الكتاب

كلمة المترجم عن مؤلف الكتاب	ج
كلمة المترجم عن الكتاب	ز
كلمة تمهيدية للمؤلف	ق
الفصل الأول : مقدمة	١
الفصل الثاني : علي والحرب الأهلية الأولى	٧٠
الفصل الثالث : السفليانيون والحرب الأهلية الثانية	١٠٧
الفصل الرابع : بنو سهران الأولون	١٩٦
الفصل الخامس : عمر بن عبد العزيز والموالي	٢٥٩
الفصل السادس : المروانيون المتأخرون	٣٠٢
الفصل السابع : مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة	٣٥٦
الفصل الثامن : القبائل العربية في خراسان	٣٨٠
الفصل التاسع : سقوط الدولة العربية	٤٦٧
فهرس الأشخاص	٥٣٥
فهرس الأماكن والمواضع	٥٥٣
فهرس الموضوعات والمواد	٥٦٥
الاستدراكات	٥٨٩

كلمة عن مؤلف الكتاب

يوليوس فلهوزن : عالم ألماني مبرز في ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس ، بقسميه القديم والجديد ، وباحث محقق في ميدان التاريخ العربي .

ولد في مدينة هامبزن ، على نهر الفايزر (وستفاليا) في ١٧ مايو ١٨٤٤ ، ودرس اللاهوت في مدينة جوتينجن ، وفي هذه المدينة نفسها ، بدأ حياته الأكاديمية في سنة ١٨٧٠ ، مدرسا في ميدان تاريخ العهد القديم ، وفي سنة ١٨٧٢ صار أستاذا لللاهوت في جامعة جرايفسفالد ، لكنه استقال من هذه الوظيفة في سنة ١٨٨٢ ، بعد عشر سنين من البحث والتفكير في العهد القديم ، تبين له في أثناءها ، أنه لا يستطيع فيما بينه وبين ضميره أن يظل متمسكا بفكرة أن الكتاب المقدس وحى الهى . فصار أستاذا للغات الشرقية في مدينة هاله ، ثم انتقل في سنة ١٨٨٥ إلى جامعة ماربورج ، وفي سنة ١٨٩٢ إلى جامعة جوتينجن ، وتوفي في ٧ يناير ١٩١٨ .

وترجع شهرة فلهوزن إلى دراساته النقدية في ميدان دراسات العهد القديم وتاريخه . وهو قد كان مفكرا متحررا ، يعتمد بالعقل ويعنى في دراساته بالنقد . وقد نظر في الكتاب المقدس خصوصا الأسفار الأولى من العهد القديم ، متبعاً منهج النقد العلمى ، ودرسه كما يدرس النص ، فوجد أنه تنقصه الوحدة والانسجام ، سواء من حيث الفكرة أو من حيث الأسلوب والعبارة ، فلا يمكن أن تكون نسبتة إلى من يُنسب إليهم صحيحة ، أى أنه ليس وحيا الهيا أصيلا ، بل كتبه الناس . وبهذا وصل فلهوزن بالنقد إلى نهايته ، وفتح الطريق أمام الدراسات النقدية للكتاب المقدس . ورغم أنه قد عاداه وعارضه كثير من علماء وشراح الكتاب المقدس ، فإنه قد تبين ما في رأيه وطريقته من الصواب ، وعدل علماء

(د)

الكتاب المقدس عن التطرف في التمسك بالفكرة القديمة وميزوا بين المعنى والفكرة باعتبارهما الوحي ، وبين اللفظ والعبارة باعتبارهما للبشر .

ولما لم يستطع قلهوزن أن يظل أستاذاً لللاهوت ، تحول من الميدان الذي بدأ حياته بالتخصص فيه ، إلى ميدان الدراسات العربية ، فعنى بدراسة الوثنية العربية في كتاب قيم عنوانه : « بقايا الوثنية العربية »^(١) ، واعتمد فيه خصوصاً على ما كان معروفاً في ذلك الوقت من مقتطفات كتاب الأصنام لابن السكبي ، لكنه رجع أيضاً إلى مراجع كثيرة ، مكنته من جمع مادة غزيرة متنوعة في الميدان الذي أراد توضيحه ؛ وعنى بدراسة الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية ، فترجم كتاب المغازي للواقدي بعنوان : « محمد (عليه السلام) في المدينة »^(٢) ، ونشر بعض أشعار الهذليين ، وعمل دراسات أخرى كثيرة ، واهتم خصوصاً بتاريخ الدولة العربية ، فأثمر اجتهاده الكبير هذا الكتاب العظيم الذي نشره في مصر بالعربية ليكون في متناول المحصلين والباحثين العرب ، بعد أن ظل زماناً طويلاً في أصله الألماني وترجمته الإنجليزية ، مرجعاً أساسياً في تاريخ صدر الإسلام عند الأوروبيين .

برهن قلهوزن ، بهذا الكتاب ، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز . وقد أشاد العلماء بموهبته في كتابة التاريخ . والحق أن هذا العالم الألماني الفذ ، ظهر في ميدان تاريخ العرب مؤرخاً من نوع نادر وجديد ، فلقد كتب كثير من العلماء الأوروبيين في تاريخ صدر الإسلام ، أعنى تاريخ الفترة التي انتهت بسقوط دولة بني أمية ، لكن قلهوزن فاقهم جميعاً من وجوه كثيرة .

فهو بدلاً من أن يعتمد على مؤلفات المستشرقين الذين سبقوه ، رجع إلى

(٥)

المصادر العربية الأصلية ، فقرأها قراءة شاملة وتمثل مادتها تمثلاً كاملاً ، وهذا بالنسبة للمؤرخ ، كما لاحظ المستشرق الألماني بيكر (C.H.Becker) ، هو الطريق الوحيد الصحيح ، لا الطريق الوحيد الممكن .

وهو قد استقبل البحث من غير تعصب ، وخصوصاً من غير مجموعة الأفكار التي يقبلها بعض الباحثين مقدماً ، فتفسد عليهم تصوّر الوقائع وفهمها ، وتقديرها التقدير الصحيح ، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص ، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها في إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده ، كما فعل بعض من كتب في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام من المستشرقين . لكن ليس معنى هذا أن قله وزن أخذ النصوص على علاتها ، بل هو انتفع بها في كثير من التحليل والنقد ، وهو في الكلمة التي مهدّ بها لكتابه ، قد وصّف الروايات التاريخية العربية في شخص ممثليها الكبار وأبان عن طريقته ، ثم جرى في ثنايا كتابه على منهج النقد للروايات ، واختيار ما يطمئن إليه المؤرخ الحر يص على الحكم الصحيح .

وبما امتاز به قله وزن على أسلافه من المؤرخين الأوروبيين وغير الأوروبيين الذين كتبوا عن الدولة العربية ، أنه إلى جانب اعتماده على المراجع العربية ، رجع إلى مراجع غير عربية معاصرة للحوادث التي تناولها والأشخاص الذين تعرض لهم ، مثل كتاب تيوفانيس المؤرخ البوزنطى ، وكتاب الصلة لتاريخ ايزيدور ، وبعض ما كتبه المؤرخون السريان .

وهو وإن كان غير مولع بالنقد فإنه قد اضطر إلى نقد بعض أسلافه من المؤرخين الأوروبيين ، أمثال دوزى ، وفون كريمر ، و . مولر . ولو نظرنا فيما خالفهم فيه ، لتبين لنا الفرق واضحاً بين روحه وروحهم ، وطريقته وطريقتهم .

كان قله وزن عالماً يتمسك بروح البحث العلمى ويعتد بالوقائع ، وإذا كان بعض من شاركه في ميدان البحث قد جرى أحياناً وراء الخيال ، أو عمد إلى

التحويل بالألفاظ والأساليب المنمقة ، فإنه هو لم يلجأ إلى شيء من هذا الذي قد يحاول به البعض أن يستروا ما في علمهم من فجوات .

لقد أشار العالم الألماني ك . ه . بكر — في كلامه^(١) عن فاهوزن — إلى هذا الذي ذكرناه ، وزاد على هذا بأن عقد مقارنةً قصيرةً بين فاهوزن في كتابه عن الدولة العربية (الدولة الأموية) ، وبين الراهب اليسوعي ه . لامانس في كتاباته عن العصر الأموي ، ولاحظ بحق أن لامانس رغم حذقه قد فشل فيما نجح فيه فاهوزن : فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من « التمثيلات » ، أما كتاب فاهوزن فهو بناء ضخم ؛ ولامانس يلون شخصياته التي تكلم عنها خجراً جزءاً ، لكنه يقع على اللون غير الصحيح ، أما فاهوزن فهو يزهد في جمع القطع الملونة الأخاذة ، وكأننا نفتحت شخصياته من الحجر الأصيل .

والحق أن فاهوزن في كتابه الذي تقدمه اليوم لقراء العربية ، قد جمع بين الجهد العلمي والعمق والمدالة ، إذا قورن بغيره ، وهو كما لاحظ بكر ، قد جمع بين روح العالم وموضوعيته ، وبين روح الفنان وذاتيته . وهو يقرأ المراجع ويستوعبها استيعاباً تاماً ، ويدرك جملتها بحس عجيب ، وهو من أروع من عرفت في الاختصار الذي يلم بجوهر الموضوع ، وهو يكتب مستوحياً حدسه الكلي وسط المادة التي جمعها ، وهو بارع أيضاً في تصوير الأشخاص تصويراً دقيقاً لا يخلو من طرافة . كان فاهوزن طويل النفس في بحثه ، يسير بيانه للحوادث كما يسير النهر الكبير ، وأنت تحس تمام الإحساس ، وهو يأخذك معه أخذاً قوياً ، أنه حين يصل إلى نهاية النقطة التي يعالجها ، لا يكون قد بقي شيء لا تشمر أنه غير موجود ، وهذا صحيح ، سواء فيما يتعلق بوصف الحوادث أو بتصوير الأشخاص .

المترجم

محمد عبد الرهاري أبو ريرة

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم

الدين — وبعد :

فهذا كتاب في تاريخ دولة العرب ، من لدن ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بني أمية وقيام أسرة بني العباس في المشرق ، فهو يشمل ما يقرب من قرن ونصف من تاريخ العرب ، وهذه هي فترة مجدهم الخالد ، وفترة التجربة الكبرى في تاريخهم .

بين المؤلف في هذه الفترة كيف قامت دولة العرب العالمية على أساس الدين وقوة الإيمان به ، وعلى أساس قوة الجنس العربي وخصائصه وصفاته ، وكيف خالف سياسة العرب تلك المبادئ الاجتماعية والتنظيمية التي جاء بها الإسلام ، خصوصاً مبدأ المساواة بين المسلمين ، وكيف لم يستطيعوا التخلص من سلطان الانقسام القبلي والعصبية القبلية ، فتنازعوا ، ثم خرج منهم قوم على دولتهم ، واغتم أعداؤهم الفرصة فضربوا بعضهم ببعض ، وأسقطوا تلك الدولة المتيدة التي كان يمتد سلطانها من داخل أرض الصين في المشرق ، إلى الجنوب الغربي من فرنسا في المغرب .

على أنه رغم سقوط هذه الدولة لأسباب كثيرة بعضها ما ذكرناه ، فإن عهداً كان عهد تجربة تاريخية كاملة .

في تلك الفترة ظهر العرب بوصفهم أمة ، عماداً لدولة عالمية من الناحية الحربية

(ح)

والإدارية ، واستطاعوا بفضل شجاعتهم النادرة ، وبطولتهم الفائقة ، وتضحياتهم الهائلة في ميادين القتال المترامية ، أن يفتحوا الدنيا وأن يقهروا الأمم ، واستطاعوا بفضل مواهبهم الممتازة وهدى دينهم القويم ، أن يؤسسوا امبراطورية عالمية تكونت لها شخصيتها المتميزة ، ونظامها السياسي والإداري والاقتصادي ؛ وتحقق ذلك كله على يد خلفاء سياسيين ، وقادة عسكريين ، وحكام إداريين جديرين جميعاً بأن يدخلوا في التاريخ العالمي ، ويتبوؤوا أرفع مكان فيه ، وفي هذه الفترة نشر العرب دينهم وأسسوا الحواضر التي صارت حواضر الحياة الفكرية والدينية ، دون أن يحاولوا القضاء على دين أو استئصال أمة .

في هذه الفترة نجد التجربة كاملة فيما يتعلق بجميع مظاهر حياة الدولة : كيف تنشأ وتقوى على أساس مبادئ إن خالفتها لم تستطع البقاء ، وكيف تضطر اضطراراً إلى الخضوع للمقتضيات التي لا بد من مراعاتها إذا أرادت المحافظة على قوتها ، وكيف تقع الفتن والثورات والحروب الداخلية بسبب قوة العناصر وضرورة الصراع بينها ، وكيف يكون النجاح والفشل ، ويظهر الشر والنقص ، وتتجلى الخصال العالية ، وتبين الأبصار السليمة كوامن الأخطار المؤدية إلى الانهيار ، فلا يمكن تفاديها ، وتنفذ الفوائن التي تحكم حياة الدول ... وهكذا .

لا شك في أن الكفاح من مظاهر الحياة على هذه الأرض بإطلاق معنى الحياة ، وهو ظاهرة جوهرية في الحياة البشرية وحياة الإمبراطوريات الكبرى ، وهو في الإمبراطورية العربية الأولى ، قد كان بين الفكرة العليا وواقع الحياة الفارقة ، بين فكرة الدولة الدينية وواقع الدولة الدنيوية ، بين النزعات والمشاعر الخاصة وسلطة الدولة ، بين المصالح والاعتبارات القبلية أو الفردية ومقتضيات الواجبات العامة والاجتماعية ، بين القومية العربية والقوميات غير العربية التي اشتملت عليها الإمبراطورية . فلا غرابة أن يشتمل تاريخ الإمبراطورية العربية

على كثير من ضروب الفتن والمنازعات والثورات ، ومن ضروب الصراع الفردي والقبلي والإقليمي وصراع الأجناس والقوميات .

ولبكن كان لدولة العرب أعداء حاولوا الكيد لها من أول الأمر ، وتلبسوا لذلك بكل صورة ، واغتنموا له كل فرصة سانحة . وأشنع ما في الأمر أنهم استغلوا المواقف التي ما كانت تحتاج إلا إلى الإصلاح ، فجعلوها سبيلاً للثورة وسفك الدماء . واستغلوا الروح القبلية وما يترتب عليها من إحساسات ، فجعلوا منها وسيلة لتفريق كلمة العرب وصدع وحدتهم ، حتى تعذر عليهم الاتحاد ، وأظهروا العطف على من حسبوا أنفسهم مظلومين ، فانضوا تحت لوائهم بنية ضرب عناصر الدولة بعضها ببعض . وكانت هذه بالإجمال هي الصورة التي عليها سقطت إمبراطورية العرب الأولى ممثلة في دولة بني أمية في المشرق الإسلامي ، وقامت على أنقاض مجدها السياسي والحربي العظيم دولة بني العباس ، غير معتدة بالعرب ، بل يجند من الأعاجم صاروا مع مرور الأيام عماد الدولة ، وأصحاب الأمر فيها وفي الخلفاء أنفسهم .

لا شك أن في دراسة التاريخ وتأمله عظة وعبرة ، والعظة من تأمل تاريخ دولة بني أمية يجب أن تكون كاملة وبالغة ، لأن التجربة أو الحنة التي صرت بها هذه الدولة كانت كاملة أيضاً .

إن العرب أمة ، أراد الله لهم أن يكونوا وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وهم أيضاً أمة ، قد وضعت على كاهلهم رسالة ، هي رسالة الإيمان بالله الحق وبكرامة الإنسان الذي كرمه الله ، واستخلفه في الأرض ليعمرها بالحق والعدل والخير والرحمة . وهم لكي ينهضوا بهذه الرسالة ، لا بد لهم من أن يحافظوا على كياناتهم وقوتهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا الاعتصام بجبل النبوة والرسالة . والسبب في ضرورة هذا الاتحاد أن رسالة العرب لم ترق من أول الأمر — ولا ترق حتى اليوم — لكثيرين من الخلق ممن يكره العدل والحق ،

(ى)

فمادروا العرب من حيث هم أمة ، ومن حيث هم دولة ، ودأبوا على محاولة كسر شوكتهم بتفريق كلمتهم وإشغال نار الفتنة بينهم . وإذا كان أحد أصحاب النظر الصائب البعيد والإحساس العربى العميق^(١) ، فى أواخر أيام بنى أمية ، لما تكشف الخطار الداهم من جانب أعداء العرب ، وأفلح هؤلاء فى صدع بناء الوحدة العربية ، قد قال هذه الأبيات :

أبلغ ربيعة فى سرور وإخوتها	أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
ما بالكم تُلقِحون الحربَ بينكمُ	كان أهل الحبحى عن فعلكم غُيبُ
وتتركون عدوًّا قد أظلمكمُ	من تأشب لادينٌ ولا حسبُ
ليسوا إلى عربٍ منا فتعرفهم ،	ولا صميم الموالى ، إن هم نُسبوا
قومٌ ، يدينون ديننا ما سمعتُ به	عن الرسول ولا جاءت به الكتبُ
فمن يكن سائلى عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تُقتل العربُ

فإن فكرة هذه الأبيات ستظل — ولا بد أن تظل — أمام عقل العرب وأمام أبصارهم ، ماداموا يريدون المحافظة على كياناتهم كأمة ، وماداموا يحرصون على تحقيق رسالتهم فى التاريخ ، وسط الصراع بين الأمم ونظم الحياة والمثل العليا الروحية والإنسانية التى يتمسك بها الناس ، وما على العرب إلا الأخذ بأسباب الإصلاح الذى يجماهم منطقيين مع أنفسهم ، وعلى وفاق مع أساس شأنهم التاريخى ، ومع طبيعتهم وخصالهم وفضائلهم ومثاهم العليا المميزة لهم .

* * *

إن هذا الكتاب ، الذى يبين لنا كل ما تقدم ، هو من تأليف عالم أوروبى جليل اعتمد كل الاعتماد على المراجع العربية ، وهو فى بيانه المسائل قد تابع هذه المراجع متابعة دقيقة ، ونقل نصوصاً طويلة أو قصيرة وخلصها ، وفى بعض الأحيان

(١) هو نصر بن سيار حاكم خراسان من قبل بنى أمية .

(ك)

فهم للنصوص فهما إجماليا ، محيطا بمجهر الموضوع ، ثم عبر بعبارة المانية موجزة . وبحسب طريقة الألمان في التصور والتعبير . وقد يخيل للقارئ أحيانا أن تفكيره شخصي ، لكنه في الحقيقة يتضمن المعنى العربي . ولذلك لم يكن بدّ عند الترجمة من الرجوع إلى المصادر العربية في كل شيء ، ومن إعادة الكلام إلى وضعه الأصلي المباشر ، ومن اختيار العبارة في ضوء النصوص الأصلية . وكل ترجمة لهذا الكتاب لا تتابع النصوص أو لا تستنطقها وتستوحيها — كما فعل المؤلف نفسه في بيانه للمسائل — لا يمكن أن تعبر عن الحقيقة والواقع التعبير الصحيح ، بل ربما أدت إلى تحريف أو خطأ أو كانت غير مفهومة أصلا .

وأيضا قد عهد المؤلف في بعض المواضع من كلامه إلى الإيجاز الشديد ، وأغلب الظن أنه فعل ذلك مراعاة للقارئ غير العربي الذي قد لا يحتاج في بعض الأحيان إلى التفصيل ولا إلى تصور الموقف كله ، أو هو قد لا يسهل عليه تصويره ، ومن أجل هذا كان لابد المترجم في مواضع معينة ، من مراعاة القارئ العربي بذكر الشيء مفصلا بالقدر الذي لا بد منه ، لكي تتكون في ذهنه الصورة الكاملة الواضحة للحوادث والمواقف والأشياء . وهذه الطريقة التي جريت عليها هنا ، هي الطريقة التي جريت عليها من قبل ، في ترجمة كتاب العلامة الأوروبي آدم منز عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، والتي أعتقد أنها عادت على القراء والباحثين بمظيم الفائدة . وقد أشرت في العادة إلى التفصيل الذي قمت به ، لا من عندي ، بل معتمداً على النصوص التي أشار إليها المؤلف وأخذ منها كلامه الجمل الذي قدمه للقارئ غير العربي ؛ ومن غير هذا التفصيل قد لا يكون الكلام مفهوماً . وإذا كان هناك من قد يخطر له أن يقابل بين الترجمة والأصل الألماني ، فإنه في بعض المواضع سيجد الزيادة من نقطة معينة ، وما عليه إلا أن يمضي قليلا ليتصل كلام المؤلف بعد التفصيل .

وأسلوب قلهوزن في لغته الألمانية أسلوب علمي ، وإن كان ليس غير رشيق في نظري . وإنني لأعترف أنه قد جاء ملائماً لما أحبه من التعبير العلمي الذي لا يصل على كل حال إلى الجفاف . وهو أيضاً أسلوب صعب بعض الشيء بسبب علميته وإحكامه وتركيزه . ولم يكن بدّ في بعض الأحيان من ترجمة المعنى ترجمة دقيقة وأافية بالغرض ، دون تعنت في التمسك بالترجمة اللفظية ، وخصوصاً إذا كانت الألفاظ العربية المؤدية للمصطلحات الألمانية ، لم تتوطن بعد في أذهان غالبية القراء العرب ، لأنها لم تتوطن بعد كمصطلحات في اللغة العربية .

لكنّ هنا شيء أحب أن أتبه عليه : قد يلاحظ بعض القراء العرب غرابة في بعض الألفاظ أو العبارات أو صيغ التفكير والتعبير ، فليعلم القارئ أن بعض ذلك يرجع إلى النصوص العربية ، التي كانت أساساً اعتمد عليه كل من المؤلف والمترجم — ولم أشأ أن أبعد بالقارئ عن الجو الذي لا بد له عند المزيد من البحث والتحقيق من الرجوع إليه ؛ أما بعضه الآخر فهو تجديد في التصوير والتعبير دعت إليه ضرورة الترجمة الدقيقة ، وهو ليس عجزا عن الأخذ بالأسلوب العادي المألوف .

وأيضاً إذا كان القارئ ، في مواضع قليلة ، قد لا يتحرر أمامه وجه الكلام بسهولة ، فذلك مقصود من جانبي ، لكي تسمح العبارة العربية بما تسمح به العبارة الألمانية من احتمالات المعنى ، لأن المؤلف قد انتقل إلى جوار ربه ، وهو وحده القادر على تحديد معنى كلامه التحديد الدقيق ، فلم يكن بدّ من تفادي تصوير فكرته على وجه قد لا يكون صحيحاً .

وقد كانت الترجمة تقتضي الاجتهاد في الاطلاع على جميع النصوص التي رجع إليها المؤلف . وقد عزّ على أن يضع كل هذا الجهد سدى ، فدكرت النصوص حيث يحتاج إليها القارئ سنداً لكلام المؤلف ، ودكرتها أحياناً مكررة بغية توضيح الفكرة أو تفصيلها أو إصلاحها ، وأشارت إلى مواضع في

(م)

المراجع لم يذكرها المؤلف ، وإن كان قد رجع إليها^(١) . وقد أردت بذلك إرضاء حاجة القارىء الباحث ، وتوفير كثير من العناء الذى كان لابد أن يحتمله ، إذا أراد البحث عن النصوص ، كما أردت أيضاً تشويق القارىء لمواصلة الاستفادة من النصوص فى دراسات أخرى . وبما دعانى إلى ذكر النصوص أيضاً رغبتى فى تأكيد سلامة الترجمة أمام من قد يعترض عليها .

وفى أثناء هذا كله صححت كثيراً من الأخطاء دون الإشارة إلى ذلك تجنباً للفضول وتطويل الكلام ، وقد ذكرت أسماء الأعلام كاملة أو أكل مما ذكرها المؤلف على كل حال .

* * *

ومؤلف الكتاب مفكر متحرر ، لكنه يسرف فى تحرره أحياناً ، كما يسرف أحياناً أخرى فى تطبيق تصوره الشخصى ، فلم يكن بذًى من التنبيه على ذلك ، ومن الرد على بعض كلامه المجانب للحق . فعلقته على ما رأيت أن إحقاق الحق بدعوى إلى التعليق عليه ، لكن دون أن أسرف أو أبالغ فى ذلك ، تاركاً للقارىء أيضاً نصيبه من النقد والتعليق .

وكذلك أحسست بعد الاطلاع على النصوص بحاجة ملحة إلى تعليق يشبه التعليق التاريخى ، وإن كان إنما يمس بعض الأحكام المتعلقة بالوقائع أو الأشخاص . وكان هذا التعليق فى الغالب تحليلاً للموقف أو بياناً لعناصر الحكم الأقرب للصواب ، وكان بعضه إكالا وتفصيلاً للموضوع لابد منه للقارىء .

(١) على أنه رغم الاجتهاد البالغ فى البحث عن النصوص بقيت مواضع قليلة جداً أشار إليها المؤلف فجاءت الإشارة خطأ فى أغلب الظن ، فلم أمتد إليها .

العربي ، أو تصحيحها لا بد منه طبقاً للنصوص . وإنما أردت بهذا مساعدة القارىء على إدراك الموقف التاريخي أو الاتجاه التاريخي .

لقد تم طبع هذا الكتاب منذ أكثر من عام ، لكن سفرى للمخارج إلى جانب ضرورة إعادة طبع شطر كبير منه ، حال دون ظهوره قبل اليوم . وهذه الترجمة العربية أصح وأدق وأصدق تعبيراً عن الموضوع من الترجمة الإنجليزية ، لأنى استطعت مراجعة الأصول العربية ، وهو ما لم يكن أمراً سهلاً على صاحبة الترجمة الإنجليزية رغم جهدها المشكور .

وتفترق ترجمتى أيضاً عن ترجمة الزميل الأستاذ الدكتور يوسف المش التي ظهرت في سوريا . ولا شك أن أسلوب كل كاتب أمر شخصي لا معنى للمشاحة فيه ، وقد تم طبع ترجمتى قبل ظهور ترجمته ، ولكفى وجدت عند المقارنة كثيراً من الخلاف الذى ليس لفظياً في الغالب . على أن الزميل الفاضل قد ترجم عن الإنجليزية ، وهو وإن كان يراجع النصوص فقد كان أمام عقبة لم تكن أمامى ، ولا سبيل إلى معرفة حقيقة كلام المؤلف إلا بالرجوع إلى الأصل الألماني في ضوء النصوص العربية .

بين المؤلف كيف سقطت دولة العرب الأولى — وهى الدولة الأموية في رأيه — بسبب الصراع الداخلى والنزاع والقتال بين العرب ، وكيف كان أعداؤها — وهم الأعاجم — قد دأبوا من قبل على تأليب الشعوب على بنى أمية ، بدعوى أنهم حادوا عن مبادئ المساواة التى جاء بها الإسلام بين معتنقيه ، ففرقوا بين العرب والأعاجم ، وميزوا الأولين على الآخرين ، ثم جاءت مطامع العباسيين فاستغلوا الأعاجم ، وشقوا صفوف العرب بأن اجتذبوا قوماً منهم إلى اعتناق قضية

(س) .

المظلومين . وسقطت دولة بني أمية التي كانت تعتمد على العرب والعروبة ، وقامت دولة بني العباس التي اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم ، على أساس مبدأ المساواة الإسلامي . ويرى المؤلف بناء على هذا ، أن دولة العرب باطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بني أمية ، وهو لذلك عنون كتابه هكذا : « الإمبراطورية العربية وسقوطها » . ومعنى هذا أن دولة بني العباس ليست دولة عربية بل إسلامية فحسب ، لكن في هذا تساهلا كبيرا ، لأن العباسيين كانوا عربا ولأن الأمويين كانوا مسلمين ، هذا إلى أن دولة بني أمية قامت في الأندلس والمغرب من جديد ، ولم يزل للعرب منذ ظهور الإسلام دولة موحدة أو دول متفرقة . ورغم أن القيادة الحكومية ، العسكرية والإدارية ، في الدولة الإسلامية قد آلت إلى أجناس غير عربية ، كالترك على تنوعهم ، فإن العرب بوصفهم أمة لم يمتنعوا ، وظهروا كدول بمجرد تصدع الإطار الخارجي الظاهري للأجناس الأخرى . وكانت قوة الدولة — أو الدول — العربية ، على قديم الأيام وحديثها تستند إلى دعائمين أساسيتين : الإسلام كعقيدة ونظام في الحياة ، والعروبة العرقية الحضارية بالنسبة للعرب الخالص أو العروبة اللغوية والحضارية بالنسبة للأجناس التي استعربت . وقد امتزج العرب بغير العرب على مر الزمان امتزاجا كبيرا ، مما جعل للعروبة معناها التاريخي والحضاري ، بل والإنساني والسياسي ، معنى خاصا لا ندخل فيه هنا .

ونظرا لأن تعريب العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه تعريبا حرفيا ، يؤدي إلى اللبس ولا يتفق مع الواقع ، فلم يكن بد من اختيار ترجمة للعنوان بحسب الموضوع المحدد الذي اختاره المؤلف ، وهو : تاريخ الدولة العربية ، من ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بني أمية وقيام دولة بني العباس في المشرق الإسلامي ، وهذا ما راعيته من حيث المبدأ ، في ترجمة عنوان كتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » ، فقد كان عنوانه بحسب الترجمة

(ع)

الحرفية هو : « نهضة الإسلام » ، والمقصود هو العصر الذي يقابل من ناحية الحضارة والتنظيم عند المسلمين ، عصر نشأة الدول الأوروبية الحديثة أيام حركة إحياء العلوم والنظم القديمة .

ومن أجل هذا كله وبعد تفكير طويل ، اخترت للكتاب عنوان « الدولة العربية ، تاريخها من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ، وجعلت العنوان الألماني وترجمته الحرفية في ظهر الغلاف .

قرأتُ هذا الكتاب القيم في لغته الأصلية ، أيام دراستي في جامعة بازل بسويسره واستمعى إلى محاضرات أستاذي المحبوب الدكتور رودولف تشودي عن تاريخ العرب والأمم الإسلامية . وقد أعجبت بالكتاب في تلك الأيام لأنه أكثر من كتاب تاريخ بالمعنى العادى ، فهو قد جمع بين روح العلم والفن والفلسفة ، وبين العناية بحقائق التاريخ ووقائعه عناية موضوعية وتصوير الأشخاص والمواقف والأحداث تصويراً فنياً رائعاً ، وبيان القوانين المتنوعة والموامل التي تحكم ظهور الأحداث وتطورها من وجهة نظر كلية ، مع استقصاء العلل والأسباب وبيان النتائج التي تلزم عنها ، ومع الاهتمام البالغ بوضع المشكلات وتحديدتها ، مما هو جدير بأن يجعل كتابه تاريخاً بالمعنى العلمى ، دون أن تعوزه صبغة فلسفية من بعض الوجوه ، ومع أن اهتمام المؤلف كان متجهاً خصوصاً إلى الناحية السياسية ، فإنه لم يهمل الناحية الاقتصادية والإنسانية الاجتماعية .

ولذلك فإنه لما عرضت على إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة هذا الكتاب ، قبلت المهمة على ما فيها من مشقة ، وكان مما رغبتى في احتمالها ، قلة من يجمع بين معرفة اللغة الألمانية ، والصبر على متابعة المؤلفين الأوروبيين في انتقائهم بالمراجع العربية .

(ف)

وقد راجع الترجمة زميلي الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة ، ومع ذلك فإنني أعتبر إني المسئول الأول عن الترجمة ، وأنا المسئول الوحيد عن التعليقات لأنها من عملي وحدي .

وفيما يتعلق بترجمة ما في الكتاب من نصوص يونانية ولاينية ، استعنت بعالمين مختصين هما : السيد الدكتور هـ . فون دن شتينن ، بقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والسيد الدكتور أمين سلامة صاحب الخبرة الجيدة باللغتين القديمتين . وقد جمعت بين الاستفادة من خبرة هذين العالمين توخياً لليقين ، ومع ذلك فإنني إلى جانب الترجمة ، قد ذكرت النصوص بلغتها الأصلية ، لكي يرى فيها من يعرف اللغات القديمة ما يشاء .

وأيضاً فيما يتعلق بالنقط الملتبسة أو الصعبة من ناحية اللغة ، رجعت إلى الأستاذ فون دن شتينن وإلى أستاذنا الفاضل العلامة المتواضع الدكتور روبرت ران ، المستشار الثقافي بالسفارة السويسرية بالقاهرة .

فأحب أن أعبر عن شكري العميق لمؤلاء العلماء جميعاً ، اصدق معاوتهم ، وحسن إرشادهم ، وتضحياتهم بوقتهم الثمين .

وقد قرأ الكتاب بعد تمام طبعه زميلي الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ، فلاحظ ملاحظات قيمة ستكون موضع الاهتمام ، فله الشكر الجزيل .

هذا وقد اشترك معي أخى الأستاذ عبد الفتاح أبو ريبة في تصحيح شطر من تجارب الطبع ، وفي إعداد مادة الفهارس المتنوعة التي زودت بها الكتاب ، فله التقدير والشكر .

وأخيراً أحب أن أشير إلى أن المؤلف طوّل النفس ، قسم كتابه إلى أقسام رئيسية لها عناوينها ، ثم قسم كل قسم إلى أجزاء أعطاها أرقاماً ، وتكاد تكون

(ص)

الجل الأولى من كل جزء مشتملة على عنوانه وموضوعه . ولما كان الكتاب مرجعاً للبحث ، لا كتاباً دراسياً بالمعنى الخاص ، فقد تركت تقسيم المؤلف كما هو ، ولم أتدخل بينه وبين الباحث والقارئ بإضافة عناوين تفصيلية ، وإن كان ذلك قد خطر لى . وإنما أردت أن أترك الباحث والقارئ يسير كلاهما مع المؤلف ويأخذ من كلامه ما يشاء في الموضوع التفصيلي الذي يعنيه ، وهذا ما جرىت عليه أيضاً في كتب ترجمتها من قبل . والمهم أن الكتاب في ترجمته العربية مزود بفهارس مفضلة كافية .

أما المراجع العربية التي رجع إليها المؤلف واعتمدت عليها فهي بحسب الطبعات الأوروبية .

لقد بذلت جهدي في ترجمة الكتاب والتعليق عليه والإشراف على طبعه . ولكن نظراً لكثرة أسماء الأشخاص والأشياء وتشابهها ، ولضرورة الاستعانة بالإملاء في « تبليض » هذا الكتاب الطويل ، فقد وقعت أخطاء قليلة استدركتها في آخر الكتاب . وإني أبعد ما أكون عن أن أدعى لنقصي كلاً أو عصمة من الزلل ، فكل جهد إنساني دون الكمال ، والأعمال بالنيات والكل امرئ ما نوى . والله أسأل أن يحقق بعلمي النفع ، ويحسن به العظة ، ويجعله خالصاً لوجهه ، وهو ولي التوفيق ؟

الترجم

محمد هبة الزهراء أبو ريرة

بنغازي في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٧٧ هـ
٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

تقديم

إن مؤلف هذا الكتاب مؤرخ جليل معترف له بالفضل والنزاهة في الرأي والحكم على الأشياء . لكنه - كما أشرت إلى ذلك في كلمتي التي قدمت بها للترجمة (ص م) - يسرف أحياناً في تحرره الفكري أو في تطبيق حكم أو تصور ينتهي إليه . وهو لما كان ليس مسلماً فقد انحرفت نظراته في بعض المسائل شيئاً من الانحراف ، وقد تذهبت إلى الكثير من ذلك وعلقت عليه دون إسراف أو مبالغة .

وقد رأينا أن نوضح بعض النقاط هنا دفعاً لأية مظنة ، ولسنا في حاجة إلى أن نعيد أن آراء مؤلف هذا الكتاب تحسب عليه وحده ، وأنا ما نقلنا كتابه إلى العربية إلا ليطالع عليه الباحثون في التاريخ الإسلامي كمرجع فيه آراء جديرة بالمناقشة والرد .

ص ٢ س ١٢ - ١٥ : بمناسبة ما يقوله المؤلف عن بيان القرآن للصفات الإلهية وما يزعمه من أن ذلك يرجع إلى ما كان يشعر به النبي عليه السلام .

نعم ، يؤخذ من كلام المؤلف أن القرآن الكريم من تأليف النبي عليه السلام . ولا شك أن هذا مخالف للحق الذي يعتقده المسلمون ويعرفه عنهم غيرهم - وهو أن القرآن كلام الله تعالى وأنه وحى أنزله على رسوله . وكان يجب على المؤلف ، مراعاة لمقتضيات الواقع والبحث العلمي النزيه - أن يشير إلى ذلك بصراحة ثم يبحث عن الحكمة التي يرمى إليها القرآن من إشعار المؤمن بقدرة الله تارة وبعدله تارة أخرى ، وهي - كما يمكن أن يُقال - أن يشعر بأنه داخل في ميدان قدرة الله المطلقة. فيخشاه ولا ينساه ، ثم يشعر بعدله فتطمئن نفسه إلى صنع موله .

على أن إبراز القرآن لبعض الصفات الإلهية المتقابلة لا يقتصر على القدرة والعدل ، بل يشمل صفات أخرى مثل أنه تعالى شديد العقاب وأنه غفور رحيم ، أو أنه فعال لما يريد وأنه كتب على نفسه الرحمة ، أو أنه الجبار وأنه اللطيف . . . أما ما يزعمه المؤلف من تناقض في ذلك فهو شيء ليس له وجود إلا في ذهنه هو ! وأين التناقض في إضافة صفتي القدرة والعدل أو الجبروت والرحمة ! ؟ إن زعم المؤلف أن في هذا تناقضاً ليس إلا قصوراً عن إدراك أسرار كتاب الله الحكيم وحقيقة صفات رب العالمين .

أما ما يقوله المؤلف من أن محمداً عليه السلام لم يكن فيلسوفاً ولا من واضعي

المذاهب الاعتقادية فهو صحيح بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الذى فى ذهن المؤلف . فالما أن محمداً عليه السلام كان نبياً يتلقى علمه عن الله ولا ينطق عن الهوى ، فهو ليد من الفلاسفة الذين يعتمدون على عقولهم البشرية القاصرة المعرضة للخطأ ، ولا . المفكرين الذين ينظرون فى النصوص المنزلة أو ما يؤخذ منها ثم يجتهدون فى وضع مذاهب اعتقادية بحسب ما يمكنهم أن يصلوا إليه بالنظر الإنسانى غير المعصوم .

ص ٤ س ١٣ - ١٨ : بمناسبة ما يقوله المؤلف عن موقف النبي عليه السلام .
رابطه الدم :

مع أننا قد رددنا على ما يقوله المؤلف فى موضعه فإننا نحب أن نزيد هنا أ طريقة تعبيره غير موفقة ، ولو أنه أنعم النظر فى القرآن والحديث لأحس فى قلبه وذ عقله مقدار سعة الرابطة التى تربط بين البشر وهى التوحيد لله الذى خلقهم . وة سار النبي عليه السلام فى معاملة الخلق طبقاً لذلك وحارب العصبية الدموية محاربة شديدة .

ص ٨ س ٧ : كان الأحرى بالمؤلف أن يقول مثلاً :

« وكان من توفيق الله له أنه وجد بين المهاجرين معه فى مكة . . . رجالا يعتمد عليهم . . . »

ص ١١ س ١ - ٣ : بمناسبة كلام المؤلف عن مبدأ المساواة :

الحق أن المؤلف هنا يغفل عن أن المساواة من حيث المبدأ شىء وأن الفوارق شىء آخر . فالناس قد يكونون متساوين برغم الفوارق والأوضاع الاجتماعية .

ص ١٧ س ٣ فما بعده : يعتبر المؤلف أن ما قرره الإسلام من أشياء تميزه عن اليهودية والنصرانية تعريب له ، وما هو كذلك بل هو تعليم رب العالمين .

ص ١٩ س ٦ - ٧ : حول الأمان الذى أعطى لأبى سفيان :

يقول المؤلف إن الأمان أعطى سراً لأبى سفيان ، وربما لا يكون هذا التعبير دقيقاً . لكن الطبرى مثلاً يذكر فى أخبار فتح مكة (سنة ثمان للهجرة) أن العباس بن عبد المطلب جاء بأبى سفيان إلى النبي عليه السلام وهو فى طريقه إلى مكة وانتهى لقاء أبى سفيان للنبي

بإسلام أبي سفيان . ثم إن النبي أزال إكرام أبي سفيان على سبيل السياسة الحكيمة فقبل من العباس أن يجعل لأبي سفيان ما يحفظ مكانته فأعطى الأمان لمن يكون في دار أبي سفيان إلى جانب من يدخل البيت الحرام . ورجع أبو سفيان إلى مكة وأخبر القوم فيها بالأمان ، وليس في الأخبار ما يدل على أنه أعلمهم بذهابه للرسول قبل أن يذهب ، أو أنه أخبرهم بإسلامه بعد أن رجع مباشرة .

ربما يكون هذا هو الذي دعا المؤلف إلى رأيه .

ص ٢٧ س ٨ فما بعده : بمناسبة كلام المؤلف عن موقف غير العرب :

في وصف المؤلف لموقف غير العرب شيء من المبالغة :

ص ٣١ س ٤ فما بعده : كلامه عن التنظيم الإداري :

هنا أيضاً شيء غير قليل من المبالغة .

ص ٣٤ س ٨ : بمناسبة ما يقوله المؤلف من أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا

يعلمان أنهما توليا الخلافة من طريق الاغتصاب :

إن كلام المؤلف هنا لا أساس له ، لأن أبا بكر وعمر توليا الخلافة من طريق طبيعي بحسب ظروف الموقف . ولم تكن الخلافة في يد أحد حتى يقال إنهما اغتصباها منه ، ولا كان النبي عليه السلام قد نص نصاً صريحاً على من يخلفه ، لكنه عليه السلام بتكليفه أبا بكر يصلي بالناس قد أعرب عن العهد له بتولى شئون المسلمين من بعده . هذا إلى أن أبا بكر نظراً لأنه كان أول من آمن بالنبي عليه السلام فإنه قد كان له السبق في الإيمان وما ترتب عليه من الصحبة والكفاح والعلم بالله والأسوة برسوله والأهلية للخلافة . ثم إن أبا بكر قد عهد إلى عمر بالخلافة . وفي كلتا الحالتين بايعهما المسلمون ، فأين الاغتصاب ؟

لكن المؤلف يعبر عن رأي بعض غلاة الشيعة في الإمامة وفي أن علياً رضي الله عنه كان أولى بها ، لكن المؤلف لا يذكر الشيعة في هذا المقام .

ص ٤١ س ٧ - ٨ : مسألة الغنيمة وأنها كانت نهبا مستمراً :

إن هذا هو رأي المؤلف بلفظه ومعناه ، وهو ينظر من جهة نظر نقدية . لكن الحق أن قانون الحرب والغنيمة هو الذي كان معمولاً به في الفتوحات الإسلامية مع كثير من التسامح من جانب العرب الفاتحين . وإذا كان قد حدث في تاريخ الفتح أن بعض قادة الجيوش كانوا يرفضون عروض الصلح ويريدون فتح العنوة لأن فيه

غنيمة أكبر؛ فإن ذلك لم يكن هو القاعدة وهو لا يبرز القول بأن أخذ الغنيمة كان نهياً :

ص ٨٥ س ١٨ : الكلام الخاص بأبي موسى الأشعري :

إن كلمة « مغفل » التي وُصف بها أبو موسى قديماً لا يقصد بها التغفيل بالمعنى الجاري على الألسنة اليوم بل المقصود هو سلامة النية التي تسهل وقوع صاحبها في أشراك الخديعة والمكر .

ص ١٠٩ س ٣ ، ٤ : الكلام عن ورع المغيرة بن شعبه :

إن تعبير المؤلف تعبير تهكمي .

ص ١٦١ س ٩ ، ١٠ : بمناسبة كلام المؤلف عن الأنصار :

يصرح المؤلف قبل ذلك بأنه لا ينظر إلى الموضوع نظرة دينية بل سياسية . وهذا في الحقيقة هو السبب في أنه هنا يسرف أحياناً في نظراته السياسية إلى حد أنه قد يتصور الإنسان أن الاعتبارات الدينية لم يكن لها وجود عند المسلمين الأولين ، وهذا يخالف للواقع تماماً .

ص ٢٠٢ س ١٧ - ١٩ : بمناسبة انتقام الجحاف بن حكيم السلمي من تغلب انتقامه

الفظيع وقول المؤلف إنه لا الإسلام ولا النصرانية استطاعا

أن يحولا بين العرب وبين وضع القبيلة والتأرف فوق كل شيء :

إن قول المؤلف في الحقيقة قول مطلق وكان ينبغي تقييده ، لأن الذين الذين كانوا

يمارسون مثل هذا الانتقام الفظيع قلائل : أما معظم العرب فقد خضعوا لأحكام

الإسلام التي كفلت حقوق الضعفاء والمظلومين .

ومن الجائز على كل حال أن يتفعل بعض المظلومين فيرتكب جرائم انتقام

منكرة ، لكن لا يصح القول إن جميع الناس ينفعلون فعلتهم .

الترجم

محمد عبد الرزاق أبو ريرة

كلمة تمهيدية

إن الروايات القديمة المتعلقة بمصر بنى أمية توجد حتى اليوم على أوثق ما تكون عليه عند الطبري ، لأنها لم تختلط ولم تتناولها يد التوفيق والتنسيق ، وهي في القسم الجيد من كتابه ، أعنى الجزء الذي ظهر منذ ما يقرب من عشرين عاماً في السلسلة الثانية من طبعة ليدن . والطبري قد حفظ لنا خصوصاً قطعاً كبيرة جداً من روايات أبي مخنف ، الراوية المحقق ، فحفظ لنا بذلك أقدم وأحسن ما كتبه نائر عربي نعرفه . وكان أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف من أزد السكوفة ، ويدل نسبه الطويل على أنه كان ، من حيث نسب أبيه ، من أصل نابه . والأغلب أن مخنف بن سليم ، رئيس الأزد في موقعة صفين ، كان جدّه ، وأن محمداً وعبد الرحمن ابني مخنف كانا أخوين لجدّه . ونحن لا نعلم متى ولد أبو مخنف ، ولكنه لما قامت ثورة ابن الأشعث في سنة ٨٢ هـ كان في سنّ الزجال ، وكان صديقاً لمحمد بن السائب الكلبي (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٥ و ١٠٩٦) . ويرجع لابن الكلبي المشهور ، وهو ابن محمد بن السائب ، الفضل الأكبر في حفظ كتب أبي مخنف وروايتها وتوريثها للأجيال . والطبري في المادة يذكر روايات أبي مخنف بحسب رواية ابن الكلبي لها . وقد عاش أبو مخنف حتى شهد سقوط خلافة بني أمية في دمشق ، وآخر الروايات المسأورة عنه تتعلق بحوادث سنة ١٣٢ هـ .

على أن أبا مخنف يذكر في بعض الأحيان رواة آخرين أقدم منه أو معاصرين له ويعتمد على رواياتهم ؛ مثل عامر الشعبي وأبي الخارق الراسبي ومجالد بن سعيد ومحمد بن السائب الكلبي ؛ أما في الأغلب فإنه لم يأخذ ما رواه عن أقرانه من الرواة المتقدمين ، بل هو جمع رواياته من سمعه لها بنفسه ومن

(ر)

السؤال عنها في مختلف مظاهرها وعند كل من استقفاها من مصادرها أو حضرها
بنفسه من الناس . وعلى هذا فإن الإسناد الذي تقوم عليه رواياته كان لا يزال
عنده شيئاً حقيقياً ، ولم يكن مجرد صيغة أدبية ؛ وسلسلة الرواة الذين يذكرونهم
دائماً قصيرة جداً ، وهي أخيراً تنكشف انكشافاً تاماً ، نظراً إلى أن المسافة التي
تفصل بينه وبين الأحداث التاريخية التي روى أخبارها كانت لا تزال تقصر
شيئاً فشيئاً ، هذا إلى أن سلسلة الرواة تتنوع بحسب اختلاف الأحداث وتنوع
الروايات الخاصة بها ، بحيث نجد أمامنا طائفة كبيرة جداً من أسماء رواة مجهولين
جهلاً تاماً . وهؤلاء الرواة الذين شهدوا الحوادث لا يدركون ما يروونه
إدراكاً كلياً شاملاً ، بل هم يذكرون أقل الحوادث شأناً ولا يغفلون عند وصف
الحادثة ذكر الأسماء المتصلة بها ، وهم يجعلون الأشخاص في أفعالهم وأقوالهم
في المحل الأول ، كما أنهم لا يزالون في مختلف الروايات يذكرون الشيء نفسه من
غير اختلاف إلا في أشياء قليلة الشأن . ومن أجل ذلك صار التقدم في
الرواية بطيئاً جداً ، ولكن وفرة التفاصيل من شأنها أن تعوض هذا العيب
الذي في الرواية . وإلى جانب ذلك حفظ لنا الأثر المباشر التي أوجدته الحوادث
في النفوس وكذلك أول ما قيل عنها . ثم تجيء الصيغة الشعبية للرواية فتزيد
في حيويتها . وكل الروايات تذكر في صورة حديث بين الأشخاص الذين كانت
تدور حولهم الحوادث ، وكل الروايات وصفٌ لمسرح هذه الحوادث . وقد ذكرتُ
أمثلة تبين ذلك في بحث لي عن الخوارج والشيعة (بمدينة Göttingen سنة
١٩٠١) خصوصاً ص ١٩ و ٦١ فما بعدها^(١)

وقد قال مومسين (Mommsen) مرة إنه لا حاجة حتى بالنسبة لغير العلماء

(١) [يشير المؤلف إلى بحث يجد القارى عنوانه الكامل بعد قليل فيما يلي . والموضح
الذي يحيل القارى إليها في أثناء كلامه عن الخوارج والشيعة هي في البحث نفسه — المترجم] .

(ش)

إلى إثبات أن روايات الأحداث إذا أخذها الراوية عن الأشخاص الذين اشتركوا فيها ، هي في العادة روايات غير صحيحة ، ولكن ينبغي للإنسان أن يتقن ألا يسرف غير العلماء في استعمال العقل السليم . ولو أن أبا مخنف لم يكتب لخسر التاريخ خسارة كبيرة ، وكيف كان يمكنه أن يسلك فيما كتب طريقاً غير الذي سلكه ؟ فلم تقدم له المصادر المكتوبة مادة كبيرة يستطيع أن يعتمد عليها ، وهو قد انتفع بها ما كانت في متناول يده ، ولكن من غير أن يجتهد في البحث عنها وفي جعلها أساساً على نحو منظم ، وأكثر ما يرويه في معرض ذكر الشواهد التي تؤيد رواياته قصائد وأبيات من شعر الشعراء ، وأهم ما صنع من حيث تقدير قيمة الروايات هو أنه جمع طائفة كبيرة من روايات متنوعة ومن أخبار عن الشيء الواحد مختلفة في مصادرها ، بحيث يستطيع الإنسان أن يوازن بينها ويعرف الصحيح المؤكد منها من غيره . وأبو مخنف قد توصل بذلك إلى أن صارت الأشياء الثانوية تتوارى ، لأنها لا تظهر إلا مرة واحدة ، كما صارت الأشياء الأساسية لا تزال تزداد بروزاً ، لأنها تتكرر في جميع الروايات . وهو يرتب الروايات المختلفة التي تتناول الشيء الواحد ترتيباً ملائماً بحيث لا يزال ما بينها من ارتباط يزداد وضوحاً . على أنه في مثل هذا الجمع للروايات لا يمكن تفادي شيء من النخير لها والتوفيق بينها ، ولا يظهر هناك تناقض في النقط الجوهرية ، والروايات تتضافر حتى يخرج منها إجماع على ما فيها . والصورة الإجمالية التي تتكون عند الإنسان ثابتة متسقة ، وليس هذا فيما يتعلق بالوقائع فحسب بل فيما يتعلق بالأشخاص أيضاً . ورغم ما في مادة الروايات المختلفة من غموض واضطراب بادي بين فإنه ترفرف فوقها خطة المؤلف والفكرة الإجمالية التي كونها لنفسه . ومع ذلك فإن أبا مخنف لا يتناول برواياته فترة كبيرة من الزمان وهو لا يربط بين أجزائها ربطاً يراعى الوقائع كما هي ويراعى ترتيبها التاريخي ،

(ت)

ويعوزه ترتيب الحوادث ترتيباً تاريخياً مُطَرِّداً ، فهو لا يذكر إلا تواريخ متفرقة ، وفي كثير من الأحيان لا يذكر إلا اليوم الذي وقعت فيه الحوادث بين أيام الأسبوع من غير ذكر الشهر والسنة ؛ فهو لا ينظم الحوادث في خيط يصل بينها ، بل يصف كل حادث على حدته مستقلاً عما عداه ، ويسهب في ذلك أكبر الإسهاب من غير أن يهتم بالاختصار على ما هو جوهرى ، ويذكر ابن النديم صاحب كتاب الفهرست لأبي مخنف اثنين وعشرين كتاباً بعنوانينها .

ومما يتميز به أبو مخنف أن رواياته لا تبتدىء بصدر الإسلام ، بل هي لا تبدأ إلا بمصر الفتوحات ، وأنه يخبرنا في الأغلب عن فترة كان هو نفسه يعيش فيها ، وهي تبدأ بموقعة صفين . ويرجع إلى ذلك أن اهتمامه اقتصر على المكان الذي كان يعيش هو فيه ، أعنى على العراق وعاصمته الكوفة . أما فيما عدا هذه الفترة المحددة وهذا المكان المحدد فليس عنده علم صحيح يختص به . ونظراً إلى أن الكوفة والعراق كانت مقر الحزب المعارض لحكومة الدولة فإن أبا مخنف يتكلم خصوصاً عن ذلك ، والموضوعات التي يتناولها بتفصيل وشغف خاص هي ثورات الخوارج والشيعة ، التي كان على رأسها المستورد بن علفة التميمي وشبيب بن يزيد وحجر بن عدى والحسين بن علي وسليمان بن صرد والختار الثقفي ، وثورة أهل العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث . فأبو مخنف يمثل الروايات العراقية ، وهو أهو في جانب أهل العراق على أهل الشام وفي جانب علي بن أبي أمية ؛ ومع ذلك فإن الإنسان لا يلاحظ عند أبي مخنف شيئاً من الأغراض يستحق الذكر أو هو على الأقل لا يلاحظ أغراضاً من شأنه تزييف الوقائع تزييفاً إيجابياً . وكل ما يمكن أن يقال هو أن أبا مخنف ، فيما يظهر ، قد أغفل في بعض الأحيان شيئاً مما لا يعجبه . كما يقال مثلاً أن عقيل بن أبي طالب كان في موقعة صفين يحارب في صفوف أعداء أخيه علي بن أبي طالب .

(ث)

وقد اعتمدتُ على أبي مخنف خاصة في بحثي الذي كتبتُه عن أحزاب المعارضة الدينية — السياسية في صدر الإسلام^(١). أما في تاريخ الدولة العربية الذي هو موضوع هذا الكتاب فإن أبا مخنف لا يقدم المادة الغزيرة التي يستطيع المؤرخ أن يستفيد منها ، وليست الروايات الكوفية هنا هي أحسن مرجع ، بل أصدق مرجع هو الروايات المدنية ، فهي أم الروايات القديمة ، وهي من حيث أصولها أقدم من الروايات الكوفية ، غير أن أصحابها الذين وصلت إلينا عنهم روايات كافية أحدث عهداً من أبي مخنف ، وهم لم ينبغوا إلا في العصر الذي بدأت فيه حركة التأليف تنتقل من المدينة إلى بغداد . وأهم حملة هذه الروايات المدنية هم خصوصاً ابن إسحاق ، وهو مولى ، وأبو معشر ، وهو مولى أيضاً ، والواقدي ؛ وهم لم يكونوا يجمعون مادة الروايات من مصادرها الأصلية ، كما فعل الرواة قبلهم ، بل إنما وصلت إليهم الروايات من حفظ رواية العلماء لها ، وهؤلاء نظروا فيها ونخلوها وكتبوها من جديد ومنجوا بينها ؛ ولكنهم ، خصوصاً ، ربطوا بينها ربطاً أوسع وأدق مما كان قبلهم ، وهم في الوقت نفسه رتبوها ترتيباً زمنياً مطّرداً ، بحيث خرج على أيديهم من الروايات المفككة لأخبار الأحداث الكبرى المتفرقة تاريخ متصل . ويمكن أن يُعتبر ابن إسحاق مؤسس هذا التاريخ ، وهو يتميز ، هو ومن جاء بعده ، بكتابة التاريخ في صورة ذكر الأحداث التي وقعت في كل عام ، وهي الصورة التي أصبحت متبعة . أما ترتيبهم للأحداث بحسب تاريخ وقوعها فهو يقوم على بحث علمي وعلى موازنة . ولم يقصر علماء المدينة في ذلك ، بل وصلوا إلى نتائج ثبتت أمام التمهيع إلى درجة تسترعى النظر ، ويجوز أنهم قد استطاعوا

(١) [يشير المؤلف إلى بحثه بعنوان Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam ، وهو ضمن رسائل الجمعية الملكية للعلوم في مدينة جوتينجن ، القسم الفيلولوجي التاريخي ، السلسلة الجديدة ، مجلد ٥ عدد ٢ ، عام ١٩٠١ — المترجم] .

(خ)

في بعض الأحيان ، أن يعتمدوا على ما كتبه رهبان النصارى وخصوصاً السريان ، وذلك ، على سبيل المثال ، فيما يتعلق بذكر تاريخ الزلازل وغيرها من الأحداث الطبيعية . ويلاحظ الإنسان كيف ازداد شأن الاهتمام بوضع الحوادث موضعها في الترتيب الزمني . ثم جاء خلفاء ابن إسحاق فزادوا عليه في كمال الترتيب التاريخي (Vaqidi p. 15s.)^(١) . أما أبو معشر فيظهر أنه لم يكن له اهتمام ولا مقدرة إلا في معرفة التواريخ ، وهذا الاهتمام هو الغالب أيضاً على الواقدي . وليراجع القارئ فيما يتعلق بالصلة بين هذين المؤرخين الطبري (ج ٢ ص ١١٧٢ س ١٠ وص ١١٧٣ س ٦) .

وكانت المدينة نواة الجماعة الإسلامية وقلب الدولة العربية ، وقد كان ما المدينة من أهمية كبرى ، نظراً لما كان يتولد فيها من عوامل التطور في التاريخ العالمي هو الذي جعل للروايات التي نمت فيها طابعها الخاص . وكان أول ما اهتمت به الروايات المدنية بطبيعة الحال هو ذكرى أوائل ذلك العهد المجيد المقدس ، أيام كان الإسلام لا يزال وحدة غير منفصلة العرى من الناحية الدينية والسياسية ، وكان يطمح لأن يوحد العالم كله ، تحت رايته ، وكانت الموضوعات الكبرى التي يظهر أن ابن إسحاق قد اقتصر عليها من تلك الروايات هي السير والمغازي — أعني سيرة النبي عليه السلام وتأسيسه للأمة الإسلامية وتأسيسه هو وخلفاؤه من بعده للدولة الإسلامية في فترة الفتوحات . ولكن الروايات المدنية لم تغفل ما يتعلق بقلب الدولة وبسائر أمورها ، حتى بعد أن انتقل مركز الثقل في الدولة من المدينة إلى دمشق ، فلم تنتقل الروايات نفسها إلى دمشق ، بل بقيت في المدينة ، وظلت المدينة ، حتى في أيام بني أمية ، مقر الطبقة الأرستقراطية من العرب ، وليس هذا فحسب ، بل ظلت أيضاً المركز الروحي للثقافة الإسلامية إلى أن حلت بغداد من

(١) يقصد المؤلف كتابه بعنوان *Muhammed in Medina* ، وهو ترجمة مختصرة لكتاب المغازي للواقدي ، وقد ظهر في برلين ١٨٨٢ م .

(ذ)

هذا الوجه محلها . وقد استرعى اهتمام علماء المدينة تاريخ الدولة العربية ، حتى فيما يتعلق بتطوره السياسي الديوى الخالص ، وإن كان علماء المدينة لم يكونوا راضين عن الحكومة . ولقد كان اهتمامهم بالشام أكثر بكثير من اهتمامهم بالعراق أو حتى بخراسان ، ونجد أنه عند أبي معشر والواقدي لا تزال تتكرر بانتظام الأخبار الرسمية — إذا صح التعبير — كالمعلومات المتعلقة بتواريخ ولاية الخلفاء وتواريخ وفاتهم ، ومتى كان يُعين أم الولاية ومتى كانوا يُعزلون ، ومن الذى كان يحج بالناس فى كل عام . ومن الذى كان يقود الحملات الحربية التى كان يوجهها الخلفاء لمحاربة الروم . وهذه المعلومات تكون سدى كتب التواريخ المدنية التى تذكر حوادث السنين ، وإنما يزيد ما ينسج حولها من مادة الروايات إذا كانت هذه تتعلق ببعض الأزمات والأعمال الكبرى ، أما فى العادة فهذه المادة ليست غزيرة ، واهتمام العلماء متجه إلى الوقائع الجافة ، بحيث لا يجد الإنسان كثير شيء من الولوع بالتفاصيل ومن التحمس للحوادث ومن العطف على الأشخاص الذين تدور حولهم الروايات . ولم يكن فى المدينة ميل لبنى أمية ولا لأهل الشام ، فلا يستطيع الإنسان أن ينتظر منهم أكثر من الجسكاية الموضوعية .

ولا شك أنه قد كان هناك عند أهل الشام أيضاً ، أعنى عند عرب الشام ، مآثور من الروايات ، ولكن هذا المآثور ضاع ولم يصل إلينا . ويجد الإنسان آثاراً له عند البلاذرى ، وربما وجدها أيضاً عند عوانة الكلبي ، الذى كان يقطن الكوفة ، ولكن كانت له من طريق قبيلته صلات بالشام ، ويذكره الطبرى فى كثير من الأحيان عند روايته لأخبار الشام ، وذلك بحسب رواية ابن الكلبي عادة . أما روح هذا المآثور الشامى فبستطيع الإنسان أن يعرفه أحسن معرفة إذا رجع إلى كتب التاريخ النصرانية خصوصاً إلى كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (Continuatio des Isidor von Hispalis) . فالأمويون فى هذه الكتب

(ض)

النصرانية يظهرون في ضوء آخر مغاير كل المغايرة لما في الكتب الأخرى ، وهو يظهرهم على صورة أحسن بكثير من الصورة التي اعتدنا أن نراهم عليها . أما في كتب التاريخ العربي فقد كانت الكلمة الأخيرة لأعدائهم ، وقد ألحق ذلك بتاريخهم ضرراً كبيراً .

والمدائني يتبوأ ما يشبه أن يكون مكاناً وسطاً بين أبي مخنف وبين مؤرخي المدينة ؛ فهو مؤرخ عالم ، لكنه يُسهب في الرواية ، وله اهتمام إقليمي ظاهر فيما يتعلق بالبصرة وخراسان ، وتكاد كل الروايات المتعلقة بهما تكون مأخوذة عنه ، هذا إلى أنه يمثل وجهة النظر العباسية تماماً ، وهو يروي سقوط بني أمية وقيام الأسرة المباركة رواية تتمشى مع ذلك .

وإني أكتفي بهذا القدر من الكلام في بيان ما يختص به هؤلاء الرواة الكبار عند الطبري ؛ وهو في بعض أجزاء كتابه يروي عن كثيرين من الرواة الآخرين الذين ضاعت كتبهم ولم تصل إلينا ، ولكني لا أريد في هذا المقام أن ألمّ إلصاقاً وإفياً بأقدم تدوين كان للتاريخ العربي ، غير أنه قد بدا لي أنه لا بد من إرشاد القارئ إلى أصول هذا التاريخ ، وفي هذا يكفي ما قدمته ، وبستطيع القارئ إذا أراد الاستكمال ، أن يرجع إلى فهرس فوستنلد في المجلدين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من رسائل جمعية جوتينجن (Abhandlungen der Göttinger Societät)

وقد كانت مقصودي في أول الأمر أن أتناول عصر بني أمية على نحو ما تناولت عصر الفتوحات الكبرى في القسم السادس من كتابي (Skizzen und Vorarbeiten وأن أعنونه بنفس العناوين (وهو Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams = مقدمة لدراسة تاريخ فجر الإسلام) . ولكنني هناك استطعت أن أكتفي بأن أضع ما ذكره سيف بن عمر إزاء سائر

(ظ)

الروايات الأخرى المذكورة عند الطبرى ، وأن أبين أنه تموير مُغرض لهذه الروايات . وليكن ما يذكره سيف ينتهى عند موقعة الجبل ، ومنذ تلك الموقعة لا يمكن القيام بالنقد التاريخى طبقاً لوجهة نظر تظل ثابتة هى ، ولا يستطيع الإنسان منذ تلك المعركة أن يسير مهتدياً بما دُوّن من روايات ، بل يجب عليه أن يحكم على الحوادث حكماً يستند إلى أسس من الواقع ، مهتدياً من واقعة إلى واقعة غيرها ، كما يجب عليه أن يتعمق فى بحث قيمة ومبررات كل قضية وأن يسير على طريق فيه كثير من النقد والتخير بين الروايات وفيه أيضاً كثير من محاولة التوفيق بينها . على أن الرواة يتفاوتون دائماً فى مقدار استحقاقهم للثقة ، ولكنهم لا يختلفون فى رواياتهم إلا بين آونة وأخرى ولا يختلفون دائماً فى الاتجاه الواحد . وإذا أمكن التمهّيس ولم يكن منه بد فإنه يصبح أشد صرامة وأقل سماحة ، ولكنه ليس دائماً ممكناً ، لأن المادة التى تحت يد الباحث لا تكفى لذلك ، وهو أيضاً ليس دائماً ضرورياً ، لأن الرواة متفقون أو هم تكل رواية بعضهم رواية البعض الآخر . وفى كثير من الأحيان يمكن ، ويجب ، أن يستعاض بذكر الروايات كما هى عن التمهّيس لها . وإذا أردنا أن نقارن بين ما كتبناه أولاً وبين ما نكتبه الآن فإننا نقول إن ذكر الروايات كما هى هو الغالب فى هذا الكتاب ، أما إذا عيب علينا المزج بين طريقى الرواية والتمهّيس فإننا نقبل ذلك على أنفسنا ، فقد كانت ضرورة مراعاة ما فى الروايات من تنوع الخصائص هى السبب فى تنوع طريقتنا فى بيان الموضوع . على أنه فيما يتعلق بمعالجة كثير من المسائل لم تدعنى إلى ذلك مادة البحث بقدر ما حفزنى إليه ساقى من الكتاب ، ولم يكن لى بد من أن أجيب فى بعض المشكلات إجابة تختلف عن إجابتهم .

قِلْهُوَزِن

جوتنجن فى يولييه ١٩٠٢

الفصل الأول

مقدمة

١ — نشأت الجماعة السياسية في الإسلام من الجماعة الدينية . ويكاد أن يكون اعتداء محمد [عليه السلام] إلى طريق الحق^(١) قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة . نعم ، هو قد بدأ بنفسه ، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شيء واليقين بيوم الحساب . ولكن ذلك اليقين الذي ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها ، فلم يجد بداً من أن يرشد إخوانه إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم ، ليخرجهم من ظلمات الخيرة وينقذهم من متاهات الضلال ، ولم يلبث حتى أنشأ في مكة جماعة دينية صغيرة^(٢) .

وكان الذي يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الإيمان بالله واحد ، لا تدركه الأبصار ، خالق هذا العالم ، ومحاسب كل نفس بما كتبت ، كما كان يجمع بينها مبدأ خلقي يلزم عن ذلك ، وعماده أن يعبد الإنسان الله ، لا يشرك به شيئاً ، وأن

(١) [يستعمل المؤلف كلمة *Bekehrung* ، ومعناها الانتقال من عقيدة إلى عقيدة ، ويجوز أن يقصد شيئاً من قبيل ما جاء في القرآن من قول الله للنبي عليه السلام « ووجدك ضالاً فهدى » أو من قبيل ما يؤثر من النبي متعاقباً بكيفية بدء الوحي ، على أني لا أعرف من مصطلحات المؤلف الأخرى سوى اعتباره النبي عليه السلام أحد الحنفية الذين أعرضوا عن الشرك الجاهلي . أما الحق فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كالرسل قبله . ولا يوجد دليل على رسالة الرسل إلا وهو موجود على رسالته ، والقرآن هو الدليل على رسالته ، وهو مهما اشترك مع التوراة والإنجيل في بعض المادة فهو يختلف عنهما — المترجم] .

(٢) [وفي رأي المؤلف في كتابه عن الوثنية الجاهلية أن تأسيس جماعة دينية هو الفارق بين النبي عليه السلام وبين الحنفية . والحق أن الحنفية بحسب الشواهد التاريخية ، هم بقايا دين إبراهيم عليه السلام ، وهو الدين الذي كان لا يزال حتى عهد النبي موجوداً في مكة . والفرق كبير بين الحنفية وبين النبي ، كما أنه كبير بين اليهودية والنصرانية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى — المترجم] .

يسمى إلى نجاة روحه من شرور الدنيا ، زاهداً في حطامها ، وأن ينشد الحق والعدل والخير والرحمة ، ولا ينشد متاع الدنيا . وللتوحيد ، كما يتجلى في أقدم سور القرآن ، صبغة خلقية كاملة ، وهي لا تقل في قوتها عما نجده عند عاموس النبي أو في خطبة الجبل^(١) . والإيمان بالخالق لا يكاد يدخل القلب حتى يبعث فيه ، كما هو الحال في الإنجيل^(٢) ، فكرة أن كل إنسان ، بعد مفارقتها هذه الحياة ، مسئول عما كسبت يده . وهذا الإيمان من شأنه أن يستولى على الروح استيلاء تاماً ، وهو لا يكتفى بأن يبعث في نفس الإنسان الرضا بإرادة الله ، بل هو يدفعه أيضاً إلى العمل بما يريد الله . والإسلام الأول ليس استسلاماً (Fatalismus) بالمعنى السائر لهذه الكلمة ، وليس إلهة عبارة عما يسمى « المطلق » (Das Absolute) ، أعني أن الإسلام ليس إيماناً بشيء غير مفهوم ، هو إلى السلب منه إلى الإيجاب أقرب ، بل إله الإسلام هو الذات التي لها القدرة على كل شيء ، والخير والعدل في حقها ملازمان للقدرة ، لا ينفكان عنها . ويبرز في القرآن شأن القدرة الإلهية تارة وشأن العدل الإلهي تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يحس به [النبي عليه السلام] ، دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ، ولا يشعر محمد [عليه السلام] بما في ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفاً ولا واضحاً لمذهب نظري في العقائد (Dogmatiker)^(٣) .

(١) [كلام عاموس النبي موجود في التوراة ، وخطبة الجبل هي من كلام السيد المسيح عليه السلام ، وهي في الأناجيل — المترجم] .

(٢) [ويقصد المؤلف أن هذا في الإسلام ، لأن الكلام هنا عن الإسلام أولاً وقبل كل شيء — المترجم] .

(٣) [يقصد المؤلف أن الذات الإلهية في الإسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية ، وذلك في مقابل إله الفلاسفة الذي هو أشبه بمعنى مجرد — أما ما يقول عن رجحان الكلام عن القدرة في القرآن تارة ورجحان الكلام عن العدل تارة أخرى بحسب أحوال النبي النفسية فهذه نظرية بعض المستشرقين في الآيات المتشابهة في القرآن سواء آيات الصفات الإلهية أو الآيات المتعلقة بالمشيئة الإنسانية وعلاقتها بالمشيئة الإلهية (مسألة الجبر والاختيار) . والحق أن القرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه ، وهذا التشابه هو تفصيل الحكم ، ولو تأمل الإنسان القرآن تأملاً عقلياً فلسفياً لوجد أنه فيما يتعلق بذات الله يتكلم عنها في ذاتها أحياناً ، =

وكان يرتبط بين الجماعة الإسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة ؛ وإذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زميرهم هي تسميتهم بالصائين ، فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك^(١) . وتدل أقدم سور القرآن على وجود صلوات وركوع وسجود وتهجد في الليل ، غير أنها لم تكن قد حُدِّدت ونُظِّمت على النحو الدقيق الذي نَجده فيما بعد .

وكان أول من انبج محمدًا (عليه السلام) أفرادًا ، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالى والرفيق ، غير أنه كان يعتبرهم طلائع لاتباعه ، لأن طموحه كان منذ البداية متجهًا إلى ضم أهل مكة جميعًا إلى دعوته : عشيرته من بني هاشم وعبد المطلب ، وقومه قريش . ولقد كان محمد [عليه السلام] عربيًا ، فكانت له ، بحكم ذلك ، إحساسات بالعشيرة والقبيلة (أعنى ما يقابل الأمة) على النحو الذي نحس به نحن بما يرتبطنا بالأمرة في نطاقها الضيق . [أما الدولة من حيث هي] نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطانًا يخضع له الناس ، فلم يكن بعدُ قد وُجد بين العرب ، بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جملتها (Collectivum) ، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (Institut) ولا كانت لها أرضٌ مُحدَّدة . فلم يكن هناك في الحقيقة دولة (Staat) وإنما كانت هناك

== وهو أحياناً أخرى يتكلم عنها مجازاً للدلالة على صفاتها ، وهذا هو معنى الآيات التي فيها ذكر اليد والعين بالنسبة لله ، ولوجد أيضاً أن القرآن فيما يختص بأعمال الإنسان ومشيبته يتكلم من دخول ذلك في دائرة المشيئة والقدرة الإلهية — وهذا صحيح وهو الحق في أمر الخالق والمخلوق وإيس في القرآت مطابقاً ما ينفي مشيئة الإنسان وفعله ومسئوليته ، بل فيه ما يؤكد ذلك ، ولكن بحيث لا يشر المخلوق أنه مستقل عن خالقه في الفعل والمشية ، لأنه إذن لا يكون مخلوقاً ؛ فلا تناقض في القرآن بل فيه بيان للعلاقة بين المخلوق والخالق — راجع ما قلناه في هذا في تعليقنا على فكرة شبيهة بما يقوله المؤلف هنا — وذلك في كتاب « تاريخ الفلسفة في الإسلام » لدى بورس ٤٦ — ٦٦ من الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٤٨ — المترجم [.

(١) [ربما يكون قصد المؤلف الملاحظ من شبه بين بعض عبادات الصائين وبعض العبادات الإسلامية وما قيل من أن الصائين هم الحنفية أنماع دين إبراهيم عليه السلام — راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورس ١٩ (هامش) — المترجم] .

أمة (Volk) ؛ فلم يكن هناك نظام [سياسى] من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعى طبيعى بالغ درجة النماء ؛ لم يكن هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذى نعرفه فى الدولة ، وإنما كان هناك رؤساء العشائر والبطون والقبائل^(١) ؛ ولم تكن الأمة تتميز عن الأسرة إلا بأنها أكبر من الأسرة . أما اللحمة التى كانت تؤلف بين أفرادها فهى نفس اللحمة التى تربط بين أفراد الأسرة ، أعنى لحمة الدم ، فكانت وحدة الجماعة تقوم على لحمة الدم وعلى تقديس هذه اللحمة ، دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك . وكان للاشتراك فى النسب أو للاعتماد بهذا الاشتراك — وهما من حيث النتائج العملية شىء واحد — ما لادين من تأثير ، وكان هذا الدين بمثابة الروح التى تجعل القبيلة كالجسد الحى الواحد . وإلى جانب روابط الدم والنسب كانت هناك روابط الاشتراك فى شعائر دينية ظاهرة ، ولكن لم يكن هناك دين له من قوة الإلزام وتوثيق أواصر الوحدة بين الناس شىء يغاير ما لتأثير رابطة الدم والنسب . واقد كان فى وسع محمد [عليه السلام] ، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتقبيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم ، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذى جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها . ولكن محمداً [عليه السلام] لم يرد ذلك ، ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم^(٢) ، ولذلك فإنه لم يرَ أن رسالته هى أن

(١) ولا يزال أهل البادية حتى اليوم مبالين إلى أن يتصوروا الدولة ، أعنى الدولة التركية ، على أنها قبيلة وإلى أن يقيسوا قوتها بحسب ما تملكه من الإبل (Doughty 1, 230) . وكذلك الحال بالنسبة للمدن ، فلم تكن المدينة (Polis) هى الوحدة السياسية بل كانت القبيلة هى هذه الوحدة ، مثل قريش فى مكة وثقيف فى الطائف . وكان كل من الفرشيين والثقفين يشعرون بأنهم مرتبطون من الناحية السياسية ، حتى عندما كانوا يقطنون خارج مكة أو الطائف .

(٢) [هذا يخالف الواقع ، لأن الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة ولأن القرآن والحديث قد أعلن أن الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم كلهم أمة واحدة ومنشؤهم من أصل =

يضم إلى دعوته أنبعا متفرقين هنا وهناك . نعم ، كان لا بد له أن يبدأ بضم أفراد ، لكنه كان يرى إلى ضم الجماعة كلها ، فكان يطمح إلى أن يحمل أمته العربية كلها جماعة دينية له ، أما إنشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة (ecclesiola pressa) في مكة فهذا ما لم يكن يرغب طموحه .

فلما لم يوفق إلى هداية قومه قريش في مكة إلى الإسلام ، حاول أن يتصل بقبائل ومدن أخرى . وقد أتاحت له الأسواق والأعياد التي كانت تعقد حول مكة سبيلا إلى ذلك ، فعرض على شيوخ ثقيف في الطائف أن يدخلوا في الإسلام هم وقومهم جملة . وأخيراً وضع قدمه في يثرب ، أعنى المدينة ، وكانت هجرته إليها حادثاً جليلاً ، بدأ به عهد جديد ، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه الانفصال من الماضي تنصلاً مقصوداً ، لأن محمداً [عليه السلام] لما صار رئيساً سياسياً ، بعد أن كان مبشراً ونذيراً لم يتفكر لنفسه ، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرى إلى اجتذاب أفراد ، بل إلى ضم القبائل بجماعاتها ، وكان من أول الأمر أيضاً يرى أن النبي هو الرسول الذي يرسله الله ليكون على رأس قومه ، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية . وهو إذا كان قد أراد أن يظل في المدينة على ما كان عليه في مكة من قبل ، وهو أن يكون نبي الله ورسوله ، فلم يكن ذلك منه لعباً ولا نفاقاً ، لكنه في مكة لم يوفق . أما في المدينة فقد نجح وشق الطريق . هو كان في مكة نائراً على قومه مخالفاً لما هم عليه ، أما في المدينة فقد بان ما كان يرى إليه : وقد أحدث هذا تغيراً كبيراً ، لا مجرد فرق ظاهري ، وذلك أن

= واحد وأن أكرمهم عند الله أتقاهم ؛ وكان غرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق العصبية القبلية والجنسية إلى أفق الإنسانية الموحدة . وهذا ما صرح به القرآن والسنة . أما الاعتماد على مؤمنين يحملون الدعوة وينشرونها ويعتقونها من أعدائها بفضل ما يكون بينهم من النحام بالنسب وبفضل ما ينشأ عن ذلك من قوة فهو لا يتعارض مع الفاية الكبرى التي تحققت فعلاً . ومعنى المواطن في الدولة الإسلامية هو المؤمن بالله والاتباع لوصي أنزله الله سواء كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ، غير أنه في الدولة الإسلامية تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحدهم ، ولهذا فرضت الجزية على أهل الكتاب لأنهم معفون من الواجبات الحربية — المترجم [

المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرياسة^(١) وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي قامت عليها ، لأن تقديرها للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع . ولا نستطيع جماعة لها تاريخها أن تنفكر للأسس الموجودة التي تقوم عليها تفكراتها ، والقوة — إذا أرادت أن تحافظ على كيانها وأن تزداد — لا بد لها من أن تجرى على سنتها الخاصة بها ؛ وهذا هو الذي يفسر لنا أن النبي لما صار رئيساً سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحاً في الرياسة ، وأن الحكومة التيوقراطية (Theokratie) ، من حيث السياسة الفعلية ، تغيرت عنها لما كانت فكرة . وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزاً والطابع الديني يزداد تراجعاً ، ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبداً أن الدين والسياسة امتزجا وسارا يداً بيد ، وإن كان قد جعل تمييزاً بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية ، وبقي للتقوى إلى جانب ذلك مكانها في القلوب .

٢ — وكانت اليهودية والنصرانية قد مهدتا الأرض في المدينة لحمد [عليه السلام] ، فكان هناك كثير من اليهود ، وكانت المدينة تقع على حدود ذلك الجزء من جزيرة العرب المتعرض . للتأثير اليوناني — الروماني والنصراني — الآرامي . أما الأحوال السياسية فكانت موافقة له أكثر من ذلك ، ففي مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة تؤدي وظيفتها على نحو مرضٍ ، ولذلك أحسن المسكيون بأن الشيء الجديد الذي أراد النبي أن يدخله في مكة نظام يهود حياتهم ويكدر صفوها ، فعملوا على القضاء عليه . ولكن

(١) [إن المؤلف هنا وفيما يلي يسرف في القياس السياسي . ولقد كانت رسالة النبي عليه السلام أن يؤسس ديناً ويكون أمة وينشئ دولة ، وقد تم له ذلك كله . وقد كان لهذا بطبيعة الحال مقتضيات فرضتها طبيعة الأشياء وبطبيعة التطور في الدين وتشكوين الأمة وإنشاء الدولة ، وكل ذلك بإرشاد إلهي هو الذي نبهه من أول الأمر إلى آخره مسجلاً في القرآن . ولا يصح أن يسرف المؤرخ في اعتبار التطور تغيراً ونحو لا ولا وضع النظام السياسي طغياناً على الصيغة الدينية — المترجم] .

رباط الدم والنسب لم يكن له في جميع أجزاء جزيرة العرب من القوة ما كان له في مكة ، وهو لم يكن في جميع مراتب التلاحم في النسب بقوة واحدة ، بل كان في الدوائر الصغرى للنسب أقوى منه في الدوائر الكبرى ، فكان في الأولى طبيعياً وفي الثانية التزامياً ، ولذلك كان ما من شأنه أن يجمع الشمل يصبح سبباً من أسباب الانحلال ، إذا تعارضت مصلحة الأسرة مع مصلحة العشيرة أو مصلحة القبيلة ، وخصوصاً لم تكن الأسرة تستطيع أن تتخلى عما يوجبها الأخذ بالنار حتى من الأمر التي يجمعها النسب وإياها قبيلة واحدة ، وعند ذلك تتوارث القبائل إحن الترات وحروبها ، لأنه لم تكن هناك قوة فوق قوة المتخاصمين تستطيع أن تفرض السلم على الناس وتعاقب من يخلّ به منهم . وهذه الأحوال كانت قد طرأت في المدينة ، فانقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعادين ، هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئاً مألوفاً ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حبه دون أن يعرض نفسه للخطر ، وسادت المدينة حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسة إلى رجل يدخل في الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى . لكن كان لا بد أن يكون رجلاً محايداً ، لا تشوبه شائبة التورط في المنافسات الداخلية بين القبيلتين ، ولذلك جاء النبي من مكة في الوقت المناسب ، وكأنما نودي لذلك ، ولما كانت لجة الدم قد فشلت في أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس ، فقد أحلّ النبي محلها رابطة العقيدة ، وهو قد جاء ومعه قبيل من المؤمنين ، هم الذين هاجروا معه من مكة ، وقد كوّن في المدينة على أساس الدين جماعة موحّدة ، من حيث أنها « أمة الله » ؛ ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة ، ولا كان بدون مراحل متعددة ، بل هو تحقّق بخطى مستمرة ثابتة . ولم يكن محمد (عليه السلام) يستطيع أن يؤسس جماعة لها رياضة دينية^(١) ،

(١) [يقصد المؤلف إنشاء رئاسة دينية يتحدد موقفها إزاء الرئاسة السياسية التي تكون عند ذلك قائمة ، كما تحدت الرياسات الدينية الناشئة في داخل الدولة أيام انتشار النصرانية — المترجم] .

حتى لو أنه كان يريد ذلك ، لأنه لم تكن هناك دولة بعد [ولا رئاسة على الإطلاق] .
وكان الأمر اللازم إذ ذاك هو الواجب الأول الذي ينحصر في إقامة النظام والسلام
والقانون . ولما لم تكن هناك سلطة أخرى غير سلطته ، فقد أخذت السلطة الدينية
مكان الصدارة وصارت لها القوة وتوطدت أركانها بفضل أنها حققت ما كان
يرجى منها . وقد أبدى محمد [عليه السلام] مواهب شخصية ، وذلك بأن أثبت
في تديره للأمور جدارة كاملة . وكان إذا ارتاب في أمر ، يسأل أهل ذلك
الأمر ، وكان من حسن حظه أنه وجد بين المهاجرين معه في مكة ، وكانوا هم
أقرب دائرة محيط به ، رجالاً يعتمد عليهم ويستطيع أن يثق بهم .

وفي هذه الأحوال تجلت قوة الدين ، ولها طابع سياسي غالب ، فأنشأ جماعة ،
وأوجد فوقها سلطة مطاعة . وكان الله هو رمز رئاسة الدولة ؛ والشئ الذي يحدث
عندنا اليوم باسم الملك كان يحدث هناك باسم الله . وكان الجيش يسمى « جيش
الله » . وكانت النظم تسمى بأن تنسب إلى الله . وهكذا ظهرت بين العرب من
طريق الإيمان بالله فكرة الرئاسة بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن أذهانهم ،
وقد ظهرت بظهور ذلك فكرة أخرى ، هي أن الحق في السيادة لا ينبغي أن يكون
لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج ، بل هو إنما يكون لسلطة فوق
الإنسان ، يعترف بها الإنسان في قرارة نفسه . والحكومة التيوقراطية معناها إنكار
الملك [الديوي] الذي يوضع في يد الإنسان ؛ وليست السلطة المخولة للحاكم
قُنية خاصة يتصرف فيها صاحبها على النحو الذي يعود عليه بالنفع ، بل الملك
الله ، والسكن وكيله الذي يعرف ما يريد والذى ينفذه هو النبي ، فليس النبي
مجرد مُبلِّغ للحق ، بل هو أيضاً الرئيس السياسي الشرعي الوحيد على الأرض ،
ولا يوجد إلى جانبه مكان لملك ، بل ولا نبي آخر ؛ ولا يوجد في كل زمان سوى
نبي واحد . وفكرة النبي — الملك هذه ترجع إلى اليهود في عصرهم الأخير ، وهي
تجعل على نحو مميز في الفرق بين صموئيل وشاول ، كما نجد ذلك في الكتاب

المقدس : صموئيل الأول ، إصحاح ٨ و ١١ . فالنبي هو ممثل السيادة الإلهية في الأرض ، والله ورسوله يُذكران معاً دائماً ، وهما يدخلان معاً في العقيدة . وبستطيع الإنسان أن يُعرّف الحكومة التيقراطية بأنها الجماعة التي لا يكون على رأسها ملكٌ أو سلطةٌ منتصبةٌ أو مورثة ، بل يكون على رأسها نبي الله وشرعُ الله .

والذي كان راجحاً في فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة^(١) ، وكان معنى السيادة الإلهية هو سيادة الحق والعدل ، فكانت الحكومة التيقراطية من هذا الوجه هي حكومة العدل ، ولكن لا يصح أن يخطر ببال إنسان هنا [أن معنى سيادة الله هو] سيادة قانون نظري مجرد لا علاقة له بإرادة ذات حقيقة تريده ، ذلك أنه لم يكن هناك قانونٌ بعد ، وكان « الإسلام » موجوداً قبل نزول القرآن^(٢) . وأيضاً لم تكن الحكومة التيقراطية تشبه نظام الحكومة الجمهورية بأي وجه ، رغم القول بأن جميع رعايا الله يقيمون أمامه سواسية ، وذلك أن المميز الأكبر لنظام الجمهورية ، وهو الانتخاب والاقتراع من جانب الشعب ، لم يكن موجوداً بالسكينة ، ولم تكن قوة السيادة للشعب ، وإنما كانت للنبي ، فكان له وَحْدَهُ وظيفةٌ ثابتةٌ بل مقدسة ، وعن السلطة المخولة له كانت تتفرع أنواع السلطان التي دون ساططانه . ولكنه لم يكن يعين موظفين بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان يكلف من يشاء بمهام معينة يؤدونها ، وهم بعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم ، وكان مستشاروه أيضاً رجالاً ليسوا بموظفين ، بل أصدقاء اصطفاهم وجعلهم من خاصته .

(١) [لا يمكن أن يقصد المؤلف أن الله ليس مقدساً . بل المقصود هو أن تصور الناس له يغلب عليه الشعور بمدالة الله . ولكن لا يمكن أن يجد المؤلف من النصوص الإسلامية سنداً لما يقول — نترجم] .

(٢) [يقصد المؤلف غالباً ما جاء في القرآن من أن الإسلام لله دين الأنبياء جميعاً ومن أنبئهم وأنه دين السكائنات كلها — المترجم] .

وأبعد ما يمكن أن يُقال في وصف الحكومة الإسلامية الأولى أنها كانت حكومة قديسين (Hierokratie) ، فهي لم تأخذ طابع منظمة ذات قداسة خاصة ، ومن هذا الوجه لم تكن شبيهة بالحكومة الدينية اليهودية بعد نفي اليهود^(١) . ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان ، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم ولا بين الأمور الدينية والدنيوية . فكانت الكلمة لله في كل وظائف الجماعة ومنظمتها على حد سواء ، وكان للقضاء والحرب من القداسة ما للصلاة ، وكان المسجد يقوم مقام مكان الاجتماعات العامة ومقام ميدان التدريب العسكري ، وكانت الجماعة هي الجيش أيضاً ، وكان الإمام في الصلاة هو القائد . ولم تتمخض فكرة السيادة الإلهية عن أية صورة خاصة من صور الدستور^(٢) ، ولكن عنصر النظام الذي أدخله محمد [عليه السلام] وسط تلك الفوضى كان على كل حال سبباً في توحيد القوى والعناصر ، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين . وقد بدا كأنما قد ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة المقدسة القائمة على رابطة الدم ، ولكن تلك الجماعات بقيت في الحقيقة كما هي ، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التي كانت موجودة حتى ذلك الحين ، أعني القبائل والبطون والعشائر ، في الجماعة الكبرى الجديدة ، ولم ينشأ عن الإيمان بالله وسيلة من شأنها أن تُحِلَّ تحللها شيئاً

(١) إن حكومة القديسين عند اليهود بعد تفهم كانت نتيجة للسيادة الأجنبية عليهم ، ولم يكن لها استقلال سياسي ، فكانت لذلك تختار عن الدولة وإن لم يكن ذلك بدرجة اختلاف الكنيسة المسيحية في مرحلة البداية ، وذلك لأنها ، على الأقل ، كانت شاملة للأمة . ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هناك وجه للمقارنة بالدولة — الكنيسة ، لأن الكنيسة لم تكن دولة بل كانت لها دولة (W. Sichel) . والحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة هي وحدها التي تشبه الحكومة الدينية العربية شيئاً كبيراً ، رغم أن فكرة أن الرئيس الحقيقي في الحكومة الدينية هو النبي لا الملك كانت بعيدة عن الحكومة الدينية الإسرائيلية في مبدأ الأمر .

(٢) [إن الله بحسب القرآن هو الشارع والمهادي للإنسان ولكنه يقول في حق المؤمنين (وأسرهم شورى بينهم) ويقول للنبي : (وشاورهم في الأمر) — المترجم] .

آخر . ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين ، وهو المبدأ الذي يلزم عن فكرة الحكومة النيوقراطية ، لم يُطَبَّق على النحو الذي من شأنه أن يمحو الفوارق التي كانت موجودة بالفعل ، فبقى المكتتبون الذين جاءوا مع النبي (عليه السلام) ، وهم المسنون المهاجرة ، على حدتهم ، و بقيت إلى جانبهم قبائل العرب التي كانت تسكن المدينة ، وهم المسنون الأنصار ، على حدتها ، وكذلك بقيت قبائل اليهود في المدينة على حدتها ، وبقى التابع تابعاً والمولى مولى والنزيل نزيبلاً ، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام .

وقد حفظت لنا الأيام من العصر الأول بعد الهجرة ، قبل موقعة بدر ، كتاباً^(١) لمحمد [عليه السلام] يبين بعض النقط الكبرى في القانون الذي ينظم الحياة العامة والسياسية وكان معمولاً به في المدينة أول الأمر . ويتجلى من هذا الكتاب إلى أي حد قد تغيرت الأحوال القديمة ، وإلى أي حد لم تتغير ، وذلك إذا عرفنا أن المدينة قد أصبحت منذ ذلك الحين أمة واحدة . وكلمة « الأمة » هنا ليست اسماً للجماعة العربية القديمة التي تربطها رابطة النسب ، بل هي تدل على الجماعة بالمعنى المطلق . وهي تدل في العادة على جماعة تقوم على الدين ، ولم يكن ذلك منذ ظهور الإسلام فحسب ، بل كان قبل ذلك أيضاً ، (ديوان النابغة ، قصيدة ١٧ ، بيت ٢١)^(٢) . والأمة في هذا الكتاب صيغة دينية أيضاً^(٣) ، فهي

(١) [ويسمى أيضاً الصحيفة ، والكتاب موجود بنصه في سيرة ابن هشام بحسب رواية ابن اسحاق — المترجم] .

(٢) [إن البيت الذي يشير إليه المؤلف في قصيدة النابغة هو هذا :
خلفت فلم أنرك لنفسك ربية وهل يأتين ذو أمة ، وهو طائع
ولسكن كلمة : أمة ، هنا — وهي تضبط على أكثر من وجه — لا تدل على الأمة بالمعنى الذي نحن بصددده ، بل على الاستقامة والدين — المترجم] .

(٣) رأس الأمة هو الإمام ، ولكن كلمة الأمة وكلمة الإمام لا ترتبطان ارتباطاً مباشراً ، وربما لا يكون بينهما ارتباط على الإطلاق ، فالأمة مشتقة من الأم ؛ أما الإمام فن فعل أم بمعنى تقدم .

جماعة الله التي ترعى مبادئ السلام ومبادئ حماية الجار [ونصر المظلوم] والله هو الشهيد الذي يشرف عليها ، ومحمد [عليه السلام] يشرف عليها باسمه ، ولكنه مع ذلك لا يوصف قط بأنه نبي ^(١) . فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد ، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق التي يخولها لهم . وأيضاً فالأمة لا تشمل على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أى من كل أهل المدينة . والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية ، فكل جوف المدينة ينبغي أن يكون حرماً وأرض سلام ، لا يعتدى فيها أحدٌ على أحد . وكان بين الأنصار قومٌ مشركون ، لكنهم يُستبعدوا من الأمة ، بل أُذبحوا فيها بنص صريح . وكذلك اليهود شملتهم الأمة ، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماءً وثيقاً كاللهاجرة والأنصار ، وإن كان اليهود أيضاً لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق . وعلى هذا فليست درجة الانتماء للأمة واحدة ، بحيث بقي ما يشبه التمايز العربي القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع وتزيل . ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود ، فإنها لم تكن تتكون من أفراد ، وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمى إلى الأمة إلا من طريق العشيرة والقبيلة . فقد جاء في الكتاب الذي نحن بصدده أن تبقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي ، ولم يخطر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف ، وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ، ولم يحل محلهم موظفون دينيون .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصاً دفع

(١) [ولكن يوجد في أول الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من نبي بين المؤمنين والمسلمين من قرئش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم » ... — المترجم] .

الدية وفداء الأسرى ، ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة . وكذلك بقيت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى إلى مخالفة مولاه . بل إن حق الإجارة لم يُقَيَّد ، فلكل فرد الحق في أن يجير شخصاً غريباً ، وهو بذلك يُلزم الجماعة كلها ، وإنما حرمت [على أهل هذا الكتاب] إجارة قریش الذين كانوا الأعداء الألداء لمحمد [عليه السلام] .

ويعتضى ذلك أصبح واجباً على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالنار فيما بينها ، أعني من قبائل المدينة ، لأن أول غاية الأمة هي منع الحرب في الداخل ، فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء . وجاء في هذا الكتاب : « وأنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرجعه إلى الله وإلى محمد عليه السلام ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرجعه إلى الله وإلى محمد رسول الله صلعم » . فإذا تعكر السلام في الداخل بسبب القتل أو الفساد وجب لا على المجنى عليه أو على قبيلته وعلى الجماعة كلها فحسب ، بل على أقرباء الجاني نفسه ، أن يهبوا متسكتفين عليه وأن يسلموه إلى صاحب النار لكي يقتاد منه بالعدل . وعلى هذا أصبح لا يمكن أن يتحول الأخذ بالنار إلى نار يجر ثأراً ؛ بل انكسرت شوكتها الخطرة التي كانت تهدد السلام ، وهذب فصار عقاباً بالمثل ؛ وكان هذا العقاب بالمثل موجوداً قبل الإسلام ، ولكن الأخذ به كان نادراً ، وذلك أن جملة القبيلة كانت معادلة لأجزائها وملتبسة بهذه الأجزاء بحيث لم يكن لها قوة الفهر . أما في المدينة فقد نُفِذَ مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً ، لأن الله في المدينة فوق رابطة الدم ، وكان معترفاً له بسيادة حقيقية من حيث الفكرة على الأقل ، ولم يكن العقاب بالمثل قد صار عقاباً بالمعنى الحقيقي ، لأن تنفيذه كان متروكاً للمجنى عليه ، وكان له أن يثار لنفسه أو أن يتنازل عن النار ويأخذ الدية . ولكن العقاب بالمثل مع هذا صار نقطة الانتقال من الأخذ بالنار إلى الأخذ بمبدأ العقاب ؛ وذلك أنه بانتقال حق التأديب من الفرد إلى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل جعل الأخذ بالنار شيئاً

من شئون الدولة وجعله عقاباً من هذا الطريق . وكانت خطوة كافية لتفادي الترات الداخلية ؛ وذلك لكي يسود السلام في داخل منطقة المدينة ويكون شاملاً لا استثناء فيه . وعلى هذا لم تكن هناك جماعات تراعى السلام وحماية الجار ، متعددة بتعدد القبائل ، مما جعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة على الوجه المرصى خارج حدود القبيلة ؛ بل أصبح هناك سلام واحد شامل ، هو سلام الأمة .

أما الغرض الثاني للأمة فقد كان اتحاد القبائل لردّ العدوان من الخارج ، وعلى المؤمنين أن ينصرف بعضهم بعضاً دون « الناس » ، وهم يتماثلون بينهم ، وهم أمة من دون الناس ، يدم على من سواهم ، وهم على من بغى منهم . وليس واجب الأخذ بالنار من الأعداء واقفاً على كاهل الأخ ليثأر لأخيه بل على كاهل المؤمن ليثأر للمؤمن . والحقيقة أنه بذلك خرجت الحرب عن أن تكون داخله ضمن النار للدم ، بعد أن كانت من قبل هي والنار للدم شيئاً واحداً ، بل أصبحت الحرب حرباً لحسب . وكذلك صار السلام مع قوم أجنب ، شأنه شأن الحرب ، أمراً يعم المؤمنين جميعاً ، بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً لنفسه لا يكون سلاماً للجميع .

ورغم هذا فإنه لم يقض على حق العشيرة والقبيلة في الأخذ بالنار بمن سواها قضاء تاماً ، وأمر هذه المفارقة هو أمر مفارقة أخرى مقابلة لها ، وهي أن حق الإجارة أيضاً ، وهي التي تضمن للغريب حق التوطن في المدينة لم يكن قد نزع بعد من الفرد ، وإن كان يُلزم الجماعة كلها ويجب لذلك بطبيعة الحال أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها ، أعنى الإمام^(١) . وليس كل شيء واضحاً تماماً في هذه العلاقة بين الجماعة وأجزائها ، فلم تكن الأمة قد تكونت بعد تكويناً

(١) ومثل هذه المفارقات كان موجوداً عندنا إلى عهد قريب ، فقد منح الدكتور Schnelle بحكم ما كان له من حق أيام الاتحاد الألماني لهوفان فوق فلزليب (Hoffmann von Fallersleben) الذي طرد من كل مكان حق التوطن في ضيعته بوخهولتز التي كانت له باعتباره فارساً في مقاطعة ميكلينبورج . وبلاحظ الإنسان أن شيئاً كهذا له مزاياه .

تماماً ، ولكن كان المؤمنون وعلى رأسهم النبي هم روحها ، فكانوا هم الخيرة
والعنصر الروحي الأقوى الناهض ومنه كانت تصدر الحركة والدعوة ؛ وكلما كان
الدين ينتشر كانت أركان الأمة تتوطد أيضاً .

٣ - أما أعداء الأمة البارزون في هذا النظام الذي تكلمنا عنه لجماعة المدينة
فهم قريش الذين فرّ منهم النبي [عليه السلام] وأتباعه من مكة . وقد نشأت
من غارات صغيرة حربٌ لم تلبث قناتها . وهذه الحرب ساعدت أكبر مساعدة على
توطيد أركان الأمة في الداخل ، وانتهى أول اشتباك كبير عند بدر في السنة الثانية
من الهجرة بانتصار محمد [عليه السلام] انتصاراً لم يكن في الحسبان ، وأحسن
الناس أن هذا النصر المبين برهانٌ إلهي على صحة الدين ، فأحدث أثراً لا يُمحى ،
وكان له أكبر تأثير معنوي ، فساعد مساعدة غير مألوفة في زيادة نفوذ محمد
[عليه السلام] وفي كسر شوكة خصومه وفي تثبيت قدم الإسلام في الأمة تثبيتاً تاماً
وفي إدماج العناصر الأجنبية التي سُمح لها حتى ذلك الحين بالدخول في الأمة
الإسلامية أو في إخراجها منها . ولم يبق الإسلام على تسامحه ، بل شرع في الأخذ
بسياسة الإرهاب في داخل المدينة ، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك
التحول ؛ فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم ، كما كالم الحال
حتى ذلك الحين ، وكان لابد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام ،
والسكهم اعتنقوه بقلوب تتنازعها مختلف الإحساسات ، وكانوا لا يخفون شماتتهم
إذا بدا أن الحظ لم يستمر موائماً للنبي . ولكن موقف اليهود كان أسوأ من
موقف المنافقين ، فيقول الواقدي إنه تحول بعد وقعة بدر إلى غير مصلحتهم تحولاً
كبيراً ؛ وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد^(١) .

(١) [يؤخذ من كتاب المغازي للواقدي (ص ١٦٧ و ١٨١ من طبعة كاسكتة) أن
النبي عليه السلام لما قدم المدينة وادعته اليهود ، فسكتب بينه وبينهم كتاباً ألحق فيه كل قوم
بمخالفاتهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم ، وكان مما شرطه ألا يُظهروا عليه عدواً =

وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قفى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كلقبائل العربية . وقد التمس لذلك أسباباً واهية ، وأعطى ما كان لهم من مزارع النخيل المخصصة إلى المهاجرة الذين لم تكن لهم حق ذلك الحين أرض ولا ممتلكات ، بل كانوا يعتمدون على كرم الضيافة من جانب الأنصار باعتبارهم نزلاء . عندهم أو كانوا يعيشون من التجارة أو الغزو ، وبذلك أغنهم عن الأنصار وجعلهم مستقرين وأصحاب أرض في المدينة ، وبهذه الطريقة أيضاً زاد في قوته هو ، لأن المهاجرة كانوا أشبه بحرسه الخاص ؛ هذا إلى أن التوتر الذي لم تكن كل آثاره قد زالت بين قبائل الأنصار ، وهم الأوس والخزرج ، جعل للمهاجرة شأنًا راجحًا .

وبعد أن هُزمت قريش عند بدر جمعت قوتها وتوجهت ، تحت قيادة أبي سفيان بن حرب بن أمية ، في حملة للإنتقام من محمد [عليه السلام] . وقد انتصرت عليه بالفضل عند جبل أحد قرب المدينة ، ولكن قريشاً لم تستقد من هذا النصر ، بل اكتفت برد شرفها وقفلت راجعة ، ولذلك فإن هذه الهزيمة لم تضر النبي كثيراً ، فاستطاع أن يحتملها وأن يعيد إرهاب سلاحه ؛ ثم إن قريشاً فشلت في هجوم ثانٍ قامت به على المدينة وحالفت فيه المشركين واليهود . ثم أخذت قبائل صغيرة مجاورة للمدينة تنضم إلى الجماعة الناشئة فيها انضماماً سياسياً خالصاً في أول الأمر ، ثم انضماماً دينياً بعد ذلك ، وشق الإسلام طريقه ، وأخذ يخرج شيئاً فشيئاً من طور الدفاع إلى طور الهجوم ، وكانت الجزيرة العربية تتطلع

فلما انتصر عليه السلام في موقعة بدر حسده اليهود وأظهروا الفس ولاح منهم ما زلزل ثقة النبي في وفائهم له ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، واستمروا على إظهار العداء وبذو العهد . وحدث أن عبت يهودى بامرأة من الأنصار كانت جالسة عند صائغ ، فنقض درعها إلى ظهرها ، وهي جالسة لا تشمر بذلك ، فلما قامت بدت عورتها ، فضحك منها الناس . فقام رجل من المسلمين فقتل اليهودى ، فتجايش اليهود وقتلوا الرجل ، فحاصروهم النبي وأجلاهم وأخذ أموالهم — هذا ما وجدته عند الراوى في هذا الصدد — المترجم [.

باهتمام شديد إلى ما سينجلى عنه الصراع الكبير بين المشركين وبين المؤمنين بالله ، وهو الصراع الذى كان قائماً بين مكة والمدينة .

وفى أثناء هذه الصراع الذى كان دائراً فى الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلفت النظر تعريب داخلى للإسلام نفسه . وقد كانت نقطة البداية فى دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه ، فى أول الأمر ، بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية ؛ فكان ينتظر طبقاً لهذا الاقتناع ، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين . ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبي ، ولم يعترفوا بأن الوحي الذى أنزل إليه هو الوحي الذى عندهم ، وإن كان اليهود دخلوا فى أول الأمر ، من الوجهة السياسية ، فى الأمة التى أسسها محمد [عليه السلام] ؛ وعلى هذا خاب أملهم فى اليهود خيبة مريرة . ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام ، بل جعلوا منها خصماً له ، فإنه من جانبه جعل الإسلام خصماً لليهودية ، ثم خصماً للنصرانية أيضاً . فجعل لدينه علامة تبدو لنا غير ذات معنى وإن كانت فى الحقيقة عظيمة الأهمية ؛ وهى لا تعبر عن الاتفاق بين الإسلام وبين الشريعتين المؤاخيتين له ، بل تعبر عن تمايزه عنهما . فجعل يوم الجمعة ^(١) ، بدلاً من يوم السبت أو الأحد ، يوم الصلاة الجامعة ، وجعل نداء المؤذن بدلاً من الأبواق والأجراس ، وأبقى صيام يوم عاشوراء الذى هو يوم صوم الفجران عند اليهود ، وأحل صيام شهر رمضان محل صيام الأربعين (Quarantana) عند النصارى . وهو إذ جعل الإسلام يقوم على أسسه الخاصة مُتَعَمِّدًا نبذ المظاهر اليهودية والنصرانية ، قد أخذ يقترب بالإسلام فى نفس الوقت من دين إبراهيم اقتراباً إيجابياً ^(٢) ، وكان لا يزال من

(١) [جاء فى الحديث الشريف ما يدل على فضل يوم الجمعة وأنه اليوم المقدس الأصلى ، راجع مثلاً فتح البارى ج ٢ — كتاب الجمعة — المترجم] .

(٢) [كان دين إبراهيم معروفاً فى مكة حتى عهد النبى ، وتدل النصوص الكثيرة على ذلك ، كما يدل المأثور العربى الذى لا شك فيه على أن إبراهيم هو الذى أسس البيت الحرام ليكون بيتاً يعبد فيه الله ، ولا شك أن النوراة لم تتضمن كل تاريخ إبراهيم ، فليس فيها شئ يذكر عن إسماعيل . ومن غير المقول على كل حال أن يظل دين إبراهيم مقصوراً على الطرف الشمال من جزيرة العرب — المترجم] .

قبل يعتبر نفسه النبي المرسل إلى العرب خاصة الذي يتلقى الوحي الموجود في التوراة والإنجيل ويبلغه بلسان عربي^(١). ويظهر أيضاً أنه لم ينكر أبداً ميله الطبيعي للكعبة في مكة ولرب الكعبة ، أما الآن فإنه بحكم تأثير الظروف قد خطا خطوة حاسمة في هذا الاتجاه ، فغير القبلة وأمر الناس بأن يولّوا وجوههم في صلاتهم ، لا إلى بيت المقدس ، كما كان يفعل ، بل إلى مكة^(٢). وصارت مكة بدلاً من بيت المقدس تعتبر البيت المقدس حقيقة وبيت الله الحقيقي على الأرض ، وأصبح الحج إلى الكعبة ، بل تقبيل الحجر المقدس ، من الشعائر الدينية المفروضة . وبذلك دخل في الإسلام مركزاً للشعائر وعيد وثني شعبي ، وكان لا بد في تبرير هذا الصنيع من الاستشهاد بالتاريخ ، كما هي العادة ، فقبل إن البيت الحرام في مكة والشعائر الدينية المكية كانت في أول الأمر للتوحيد ، وإن إبراهيم هو الذي

(١) [إن الدعوة الإسلامية موجهة إلى الناس كافة ، وهذا ثابت بنص القرآن في سورة مكية — سورة ٣٤ (سبأ) آية ٢٨ . ومنذ أول الأمر يصرح القرآن بأنه جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، ولكنه يكمل الوحي السابق ويهيئ عليه — المترجم] .

(٢) [كان النبي عليه السلام وهو في مكة يصلي متجهاً إلى بيت المقدس ، وفي رواية ابن عباس أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس . فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة أمره الله أن يصلي متجهاً إلى بيت المقدس تألفاً لليهود ، كما يقول المفسرون ، ولبت على ذلك ستة عشر شهراً . وقبل وقعة بدر بشهرين أمره الله بالاتجاه في صلاته إلى البيت الحرام . وفي أثناء الفترة التي كان فيها وهو بالمدينة يصلي متجهاً إلى بيت المقدس لم يقبل اليهود الدعوة الإسلامية ، فكان في ذلك شيء من المخرج ، وخصوصاً أن اليهود كانوا يتمنون أن يظل النبي متجهاً إلى قبلتهم ، وكان النبي يقلب وجهه في السماء منتظراً الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام ، ولأن البيت الحرام أول بيت وضع للناس ، فنزل القرآن بتحويل القبلة إلى البيت الحرام . ورغم ما في هذا كله من سياسة إلهية حكيمة في التألف وفي الامتحن فإن البعض منذ عهد النبي عليه السلام تساءل ، في شيء من الاستنكار ، عن سبب تغيير القبلة ، فوصفهم الله بأنهم « سفهاء » ونههم إلى الحكمة في ذلك . والإسلام قد أراد جمع كلمة أهل الديانات المنزلة كاهم فلم يستجيبوا له ، فأراد تجاوز الخلاف بينهم بالتمسك بدين إبراهيم والاتجاه إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ، لأن أهل الديانات الثلاث ينتسبون إليه — راجع تفسير سورة البقرة آية ١٤٠ فما بعدها — المترجم] .

أسسها ، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية^(١) . وبذلك انتزع إبراهيم ، أبو التوحيد ، من اليهود وجُعل مؤسساً لإسلام عربي قبل الإسلام ، واعتُبرت مكة هي مركز هذا الإسلام . ومن هذا الطريق فصل الإسلام عن اليهودية فصلاً نهائياً وجُعل ديناً عربياً قومياً .

وهكذا أذبحت مكة في الإسلام من الناحية الروحية قبل أن تفتتح . أما فتحها فقد جاء بعد ذلك ، في العام الثامن من الهجرة ، وقد تم فتحها صلحاً ، بأمان أعطى سرّاً لأبي سفيان . أما ما كان هناك من خوف من أن تفقد مكة ، بسبب الإسلام ، جاذبيتها الدينية عند العرب ، وهي الجاذبية التي كانت مصدر حياتها الاقتصادية ، فقد زالت أسبابه مُقدِّماً . والحق أن مكة قد استفادت أكثر مما كانت تستفيد من قبل ، وذلك لأنها وحدها هي التي بقي لها بيتها المقدس عند العرب ولأنها احتفظت بالعيد الذي يقام قريباً منها ، على حين أنه قد قُضى على جميع الأماكن الأخرى التي كانت للشعائر الوثنية القديمة . وقد أُلحقت الحرب بين قريش وبين محمد [عليه السلام] أضراراً كبيرة بقريش ، فلما انتصر حرص على أن يثبت لهم كم من الخير لهم أن يكونوا له أصدقاء ، فوهب لسكبارهم عطايا كبيرة ،

(١) هذا رأى المؤلف ، وليس عليه برهان أصلاً . ومن أين عرف أن إبراهيم لم يؤسس البيت الحرام ، إذا كان العرب يعرفون ذلك قبل الإسلام . ولو فرض أن النبي عليه السلام هو الذي أخبر بذلك ، فلماذا لم يعارضه العرب على شدة حرصهم على معارضة الحق ! إن العرب هم وحدهم الذين يعرفون من الذي بنى البيت الحرام بمكة ، والمعروف أن المؤلف في كتاب آخر له يعال ظهور الإسلام تعليلاً طبيعياً ويجهل التوحيد العربي ثمرة للعرقية العربية ولتأثير يهودي نصراني ، وأين هذا كله بالنسبة للدين الجديد المبين في القرآن . إن الإسلام الذي جاء به محمد عليه السلام شيء آخر غير ما في اليهودية والنصرانية ، وإن كانت هناك وجوه شبه عامة وظاهرية بين الإسلام من جهة والديانتين السابقتين عليه من جهة أخرى . والتوحيد السامي لا يمكن أن يكون قد ظل مقتصرأ على شمال جزيرة العرب ، فلا بد ، بحكم جميع ظروف الجوار والاتصال من أن يتسرب التوحيد السامي من الشمال إلى الجنوب ، كما تسربت اليهودية والنصرانية بعد ذلك ، أما ما يسمى الوثنية العربية في مكة فهو التوحيد القديم شابهته شوائب وثنية ، ويمرّف مؤرخو العرب — وهذا ما يدل عليه القرآن أيضاً — أن العرب كانوا موحدين ، لكنهم كانوا يتقربون إلى الله بأصنام أو آلهة اتخذوها وسيلة لذلك — المترجم] .

وغمرهم بآيات كرمه ، وسمى هذه الطريقة لإقناعهم بالإسلام « تأثف القلوب » .
وكان حبّه الفطري لوطنه الذي وُلد فيه يلزم دوراً في ذلك ، وقد ذهب في سعيه
إلى تأثف القرشيين بإظهار رضاه عنهم بكل الوسائل إلى حد أن الأنصار خافوا
من أن يحمل مكة مقر الرياسة ويترك يثرب . ولكن هذا الإشفاق لم يكن له
ما يبرره ، فبقيت يثرب عاصمة الحكومة ، ولم ينتقل محمد إلى مكة ، بل هاجر
القرشيون الطامحون الذين أرادوا التقرب منه ومن الحكومة ، إلى المدينة ، وكان
أبو سفيان وبنو أمية من أول من هاجر إليها . ولكن هذا لم يكن في مصلحة
الأنصار ، لأن المهاجرة^(١) صاروا يزدادون باستمرار في مدينتهم ، آتئين لا من مكة
فحسب ، بل من جميع أنحاء جزيرة العرب ، وصارت المدينة جاذبية كبيرة أثرت في
ذوى الطبائع المتوثبة الذين أرادوا تجربة حظهم ، وقد رحب بهم النبي كما يرحب
بقبول ما تزداد به قوته ، دون مبالاة بما كانوا عليه ، ولو كان وراء أحدهم ماضٍ
غير نقي تماماً .

وقد انتظرت القبائل العربية حتى ذلك الوقت . وبعد فتح مكة وما أعقبه
بسرعة من إخضاع هوازن أذعنوا المنتصر قبيلةً بعد الأخرى واعتنقوا الإسلام .
ولم يكن الأفراد هم الذين فعلوا ذلك ، بل فعله أسراء العرب بالنيابة عن قبائلهم ،
وصالح رؤساء العرب وشيوخهم محمداً [عليه السلام] ، وحاولوا ما استطاعوا أن
يصلوا إلى شروط ملائمة لأقوامهم ولأنفسهم أيضاً . فإذا كانت إحدى القبائل
مثلاً قد انقسمت بسبب النزاع حول الإمارة فإن أحد الفريقين المتخاصمين كان
يحاول من طريق الدخول في الإسلام ، أن يتقوى على الفريق الآخر ، وكثيراً
ما عرضت هذه الفرصة للملائمة لمحمد [عليه السلام] . وعلى هذا كان الدخول في
الإسلام عملاً سياسياً وانضماماً إلى الأمة في المدينة ، وكان الأمر مقصوداً على قبول

(١) يستعمل المؤلف نفسه هذه الكلمة وهي موجودة في كتب التاريخ ، لكن الأشهر
هي كلمة المهاجرين ، وقد استعمالها القرآن — على أننا لم نغير ما اختاره المؤلف — المترجم .

مظاهر الإسلام وعلامات سيادته ، خصوصاً الصلاة والأذان ودفع الزكاة ، حتى إذا تمّ الاتفاق على دخول الإسلام بعث النبي إلى بلاد القبائل من يقيم الصلاة بينهم ويعلمهم أصول الدين وأحكام الشريعة ، فكان الاعتراف باللسان كافياً ، وكان الإيمان ، في أقوى درجاته ، إيماناً ضمنيّاً (*fides implicita*) .

وكانت خاتمة إدماج جزيرة العرب كلها في الإسلام تلك البراءة التي كانت في السنة التاسعة من الهجرة وأيضاً حجة الوداع في السنة العاشرة ، فأعلن أن الحج إلى مكة وأن العيد الذي يقام إلى جوارها أشياء إسلامية خالصة ، فلا يصح للمشركين أن يحجوا إلى مكة ، وبذلك أبعادوا عن ميراثهم الخاص ، وهو الميراث الوثني الخالص^(١) . ولم يكف هذا ، بل اعتبرت جزيرة العرب كلها أرضاً للإسلام وحده ، فأما جميع العرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك فقد أُنذروا بذلك وبأنهم لا عهد لهم ولا ذمة بعد أجل حدّد لذلك^(٢) ، وأما الذين دخلوا في الإسلام وحكومتهم التيوقراطية فلهم السلام من الله ، ولا يجوز أن تكون بينهم حروب . وكان الإسلام قد جرّ القلم على الماضي وعلى أسباب الحرب من قبل ، أما الآن فهو أعلن أن كل مطالبة بدم سابق أو بديّة سابقة يجب أن تكون تحت الأقدام^(٣) .

(١) [لا يزال المؤلف يتكلم على أساس نظريته ، وهي أن التوحيد العربي تطور عن الوثنية ، وهذا عكس الواقع في مكة ، فالتوحيد هو الأصل والوثنية ملارثة ، وكما قلنا من قبل لا يقل أن يبقى دين إبراهيم أو التوحيد السامي دون أن يتسرب إلى داخل جزيرة العرب في المصور القديمة ، كما أن اليهودية ، والمسيحية بعدها ، تسربت في عصور تالية ، هذا إلى أن في مأثور العرب أنفسهم ما يدل على أن الوثنية التي كانت في مكة جاءت قبل الإسلام بهرون قليلة ، بل أن اسم من جلب هذه الأصنام معروف . والمؤلف نفسه يعرف ذلك كما يدل عليه ما يذكره عن كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وهو قد ذكر ذلك في كتابه : بقايا الوثنية العربية ، والعرب هم الحجة في معرفة تاريخهم ، وكل الفروض والاستنتاجات مهما كان فيها من الخدق لا تقوم حجة على العرب — المترجم] .

(٢) [هذا ما تدل عليه الآيات الأولى من سورة براءة ، فليرجع إليها القارئ وإلى تفسيرها والروايات المذكورة في ذلك — المترجم] .

(٣) [يشير المؤلف إلى ما جاء في خطبة حجة الوداع من وضع أي النساء دماء الجاهلية وما كان فيها من ربي ، ومن تقرير بدء حياة جديدة ليس فيها نار ولا عصبية ، وهذه الخطبة =

وكان ذلك ضرباً من إسقاط الديون (Seisachtie) مغيراً كل المغيرة لما فعله سولون وأبعد منه أثراً وأوسع نطاقاً . ومن المدينة انتشر سلطان الدولة التيقراطية على كل جزيرة العرب ، وبقيت القبائل على حالها ، وبقي أشرفها على مأم عليه ، ولكن كان لأصحاب النبي الذين أرسلهم فيهم ضرب من الإشراف عليهم في كثير من الأحيان ، ودخلوا جميعاً في بناء دولة واحدة ، مقر حكومتها في المدينة . وكان تأسيس هذه الدولة التي قضت على الفوضى وأزالت الفرقة التي شملت جزيرة العرب ، وإن كانت دولة مفككة ، هي الحجر الأخير في البناء الذي شاده محمد [عليه السلام] . فهو لم يَمُتْ كما يموت شهيد مضطهد ، بل هو مات وهو في أوج النجاح ، وليس ثم ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق إنشاء مملكة الله [في الأرض] على الأساس الطبيعي الذي وجد أمامه فهو وإن كانت الضرورات العملية ، في كثير من الأحيان ، قد اضطرت له أو هي انجرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة ^(١) ، من غير أن يسند ذلك إلا إلى الله ، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقاً .

٤ — وقد حسبت قبائل العرب أنها إنما بايعت للنبي لحسب ، وساد بين العرب الرأي القائل بأن هذه البيعة لا تربط صاحبها إلا بشخص من أعطيت له . فبعد أن توفي النبي ارتدوا عن الإسلام ، ولكن ارتدادهم لم يكن عن الإيمان بالله ، بل هم أرادوا التنصل من حكومة المدينة . وكان الموقف في داخل المدينة نفسها موقفاً حرجياً ، ولكن الحكومة التيقراطية تغلبت على الموقف الحرج

== بما تضمنته من إعلان الحقوق وبيان الواجبات المتنوعة وثيقة من أهم الوثائق في تاريخ الإسلام ، فليراجع القارئ هذه الخطبة في كتب التاريخ والحديث والأدب — المترجم] .

(١) [كالحرب أو إخراج اليهود الذين خانوا في مكة في رأى المؤلف ، كأنما يعتبر ذلك وسائل غير مقدسة وغير صحيحة ، والحق أنها هي الوسائل التي لا بد منها في الدفاع عن الحق ودرء خطر الباطل عليه . ولا يوجد دين حق إلا وقد اضطر أن يدافع عن نفسه بالجهاد والاستشهاد . وينبغي ألا يفكر الإنسان في ذلك بقدر ما يفكر في عناد أهل الباطل ، وأنه لا يمكن درء شرهم إلا بالدفاع عن النفس بالقوة — المترجم] .

الذى نشأ على أثر تغير الحاكم ، وأرغمت جزيرة العرب على الطاعة مرة أخرى^(١) .
وبدا أن خير وسيلة لأب الصدع هي التوسع نحو الخارج ، هذا التوسع الذى
أعقب إخضاع التمرد الداخلى على الفور . وكان الجهاد ، وهو الحرب فى سبيل الله ،
وسيلة إلى جعل القبائل المنردة تَحَرَّص على مصلحة الإسلام وجعلها ترضى به .
ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلل للحرب^(٢) ، كما لم تكن دعوة
أعداء الله إلى الدخول فى الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية^(٣) ، لأنه لم
يكن يُنْتَظَر منهم أن يلبوا هذا الدعوة حقيقة ، أما فيما يتعلق بما عدا جزيرة العرب
فقد كانت هناك قاعدة غير القاعدة التى اتبعت بالنسبة للعرب ، ذلك أنه لم يُترك
للعرب مجال الاختيار ، بل كان لا بد لهم أن يدخلوا فى الإسلام . وكان المقصود
من هذه السياسة هو أن لا يكون فى جزيرة العرب كما دین إلى جانب الإسلام^(٤) .
وقد ذهب اعتبار الإسلام والعروبة شيئاً واحداً إلى حد أنه لم يكن من الممكن
أن يدخل أحدٌ فى الإسلام دون أن يلحق بقبيلة عربية أو يندمج فيها . أما غير
العرب فإنهم لم يُسَكَّرَوا على الدخول فى الإسلام ، بل كان أول ما يُظَن هو
فى الواقع أن يبقوا على دينهم السابق . وهم ، من حيث أنهم ليسوا عرباً ،
لم يكن ينطبق عليهم معنى العضو المواطن الأصل فى الدولة التيوقراطية ، ولا

(١) [يقصد المؤلف انتقال العرب بعد وفاة النبي عليه السلام وعصيانهم مما أدى إلى
حروب الردة — المترجم] .

(٢) [والسكن الاتجاه نحو الخارج كان مواصلة سياسة النبي نفسه عليه السلام ، فهو
قد ذهب إلى شمال جزيرة العرب ذرواً لغزو محتمل أو لمعرفة أحوال الحدود . ولو لم ينز العرب
من حولهم لغزاهم من حولهم — المترجم] .

(٣) [هذا لا يصدق على الفتوحات الأولى ، وقد حدث فيما بعد أن بعض القواد كان يؤثر
الفتح عنوة على الصلح لما يجره الأول من غنيمة ويوطده من سلطان — المترجم] .

(٤) أما تغلب التي سمح لها أن تبقى نصرانية ، فقد كانت تقطن أرض الجزيرة . [وفى
حديث عن النبي عليه السلام أنه قال : لا يبقى دينان فى جزيرة العرب . ولا شك أن هذا كان
لأجل حماية الإسلام فى موطنه الأول . ولذلك أجلى عمر بن الخطاب نصارى نجران لما خافوا
شروط الصلح التى كانت بينهم وبين النبي وصاروا خطراً يتسرب منه الفساد إلى المسلمين — المترجم] .

كان يجوز لهم أن يدخلوا أعضاء مواطنين فيها ، وإنما كان يجب أن يدعوا لسيادتها فحسب : وكان هذا هو الغرض من محاربتهم^(١) .

وهكذا نشأت من الدول العربية التي كان قد أسسها محمد عليه السلام إمبراطورية بعد موته ، أعنى دولة تيوقراطية سادت العالم . وكانت هذه الدولة تشمل على طبقتين من المواطنين ، متمايزتين من الناحية السياسية ومن الناحية الدينية . وكان سادة هذه الدولة هم العرب من حيث هم مسلمون ، وفي الوقت نفسه من حيث هم محاربون وفاتحون ؛ وتحولت الجماعة الحمادية إلى جيش تحولاً تاماً ، وصارت الصلاة والصيام وبقية الشعائر الدينية في المرتبة الثانية بعد الجهاد ، وأُشرف الإسلام في نفوس أهل البادية على هذه الصورة ، فكان بمثابة الراية التي تقودهم إلى النصر والغنيمة ، وعلى أسوأ الاحتمالات إلى الجنة . وفي الظروف والأحوال التي جاءت بعد ذلك بدأ تنظيم الدولة التيوقراطية في البلاد المفتوحة ، كما يُنظم الجيش تماماً ، فكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش ، وكانت القبائل والعشائر هي التي تؤلف فصائل الجيش وكتائبه ، ولم يكن جميع

(١) [هذا غير صحيح ، بل الصحيح الذي وقع وسبقوله المؤلف في أكثر من موضع في كتابه هو أن من أسلم صار عضواً في الدولة الإسلامية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن لم يسلم من أهل الكتاب فعليه الجزية في مقابل تتمتع بحريته في دينه وماله وإعفائه من الواجبات الحربية . أما غير هؤلاء فلا بد أن يدخل في الإسلام أو دين منزل آخر . والمؤلف يصور الإسلام على أنه دين العرب وحدهم ، مع أن القرآن والحديث صريحان في أن النبي عليه السلام أرسل إلى الناس كافة وأن آدميين من أب واحد وأم واحدة وهم سواء ، وأن القرآن دعا كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إلى الدخول في الإسلام ، وأن النبي عليه السلام جعل مولاة ، ولم يكن مريباً ، فائداً على كبار العرب ... الخ ، وإنما انزلت قدم المؤلف بسبب أنه نظر في مسألة فرض الإسلام على العرب فظن أن الإسلام = المروبة ، وأن الإسلام = دولة العرب على من عداهم ، والحق أن إلزام العرب الدخول في الإسلام كان لحماية الإسلام في داخل وطنه ، وأن الإسلام يعطى صاحبه الحق في أن يكون مواطناً في الدولة الإسلامية . أما إذا كان العرب لم يرضوا أن تكون الخلافة في غير العرب وانتقلوا عليها فهذا شيء طبيعي ، وكيف يكون الأمر طبعياً لو أن العرب حملوا الإسلام ودافعوا عنه وأسسوا دولته عشرات السنين ثم تولى أمرهم غير عربي لم يعرف الإسلام بعد ، مع أن الدولة دولة دينية — المترجم] .

العرب يقيدون في ذلك الديوان بل المقاتلة منهم فحسب ، وكان المقاتلة يسمون ، تمييزاً لهم عن يبقون في ديارهم « بالمهاجرة » أي الذين ينتقلون إلى المعسكرات الكبرى التي منها كانت تُنظَّم الحرب وتُوجَّه ، وذلك أن الهجرة لم يكن لها معنى الحرب بل الهجرة (بالأهل والولد) إلى المراكز السياسية الحربية لأداء أعمال^(١) . ولم يكن يستطيع الإنسان في الإسلام أن يتمتع بما للدواطن من حقوق كاملة إلا في الجيش وفي المدن ومعسكرات الجيش الكبرى . أما الأعراب الذين بقوا لا يعملون شيئاً ، في ديارهم ومع قطعانهم ، فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل ، وكادوا ألا يُعتبروا مواطنين على الإطلاق^(٢) . وكانت دار الهجرة الأولى أو دار الإسلام هي المدينة ، وإليها كان يسير فيض أهل التوابع والطموح ، ثم انضافت إليها عواصم الأقاليم (مصور ، جميع مصر) فكانت الهجرة إليها ، من حيث المعنى ، ممكنة . وكانت توجد في الشام من قديم مدن اختيرت لذلك . أما في غير الشام ، فقد بنيت مدن حربية ، كالفسطاط في مصر ، والقيروان في إفريقية الرومانية ، وخصوصاً البصرة والكوفة في أرض العراق .

ومن هذه المدن التي كان العرب قد تجمّعوا فيها فرض العرب طاعتهم على البلاد التي فتحوها ، وكان الأمر أمر سيادة حربية صرفة ، وكان الأمراء الذين

(١) نجد هذا المعنى للهجرة في كتاب الحاشية مثلاً ، ص ٧٩٢ بيت ٣ :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي * ولكن دعاك الخبز ، أحسب ، والنمر

نارن أيضاً ديوان القطامي . ق ٤ ، بيت رقم ٢٥ :

فليس من الأحياء إلا مسود * ربيعة ، أعرابيه ومهاجره

(٢) كتاب الخراج ليعني بن آدم ص ٥ س ١٨ ، ص ٥٩ س ١٥ — ٢٠ ، نازن مقال

عن الخوارج (في Göttinger Ges. der Wiss. 1901, p. 9) [في الموضع التي يشير إليها المؤلف من كتاب الخراج حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمر أعراب المسلمين أنه ليس لهم في النى والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فمن لم يجاهد ولم يكفيراً أو شغل بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شيء له في الغنيمة والنى ، إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل الحاجة — المترجم] .

تُفتح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يُعيّنون عليها . وكذلك كان من جاء بعدهم قواداً حاربين قبل كل شيء ، ولكن كما أن الجيش كان في نفس الوقت هو الأمة ذاتها ، فكذلك كان الأمير هو الإمام ، إمام الصلاة في المسجد ، خصوصاً يوم الجمعة ، وفيه كان يخطب خطبة الجمعة ؛ فكان يُعَيّن على الحرب والصلاة ، وكانت الحرب والصلاة معاً من اختصاصه ؛ وإلى جانب ذلك كانت له بطبيعة الحال السلطة التنفيذية ، ولحق بها الفصل الأعلى في أمور القضاء ، لأن من مقتضياته القوة القاهرة على فرض السلام . وكان الأمير يباشر القضاء بنفسه في أول الأمر ، ثم صار يعين قاضياً في العاصمة^(١)

وكان الأمير يترك الإدارة الداخلية ، والقضاء إلى حد ما ، لمن يليه في حكومة ولايته . وكذلك احتفظ العرب في الأقاليم التي فتحوها بنظامهم القبلي السابق ، غير أن فرقاً ظهرت بالنسبة لما كان الحال قبل . ففي الوطن العربي الأول لم يكن يتألف اتحاد حقيقي إلا من جماعة صغيرة نسبياً ، وهي الجماعة التي كانت تحمل لارعى معاً وترتحل معاً ، وكانت تمتد نفسها مع غيرها من القبائل تابعة لجماعات أكبر فأكثر ؛ ولكن هذه الجماعات لم يكن لها من هذه الناحية العملية كبير شأن . أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فقد تغير هذا الوضع ، ولم تكن القبيلة كلها تهاجر إلى الخارج وتقيم مجتمعة في مكان واحد بعينه ، وإنما كانت أجزاء من القبيلة تخرج إلى هنا وإلى هناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فكانت لذلك تنضم إلى أجزاء أخرى من قبائل قد هاجرت أيضاً وتشترك معها في نسب أعلى ، وذلك لكي يتسنى الوصول إلى الانسجام الذي لا بد منه في الجماعة . وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان

(١) لم يكن يوجد في عهد عمر الأول [عمر بن الخطاب] مثل هذا القاضي ، ويرى أنه في ذلك الوقت لم تحدث منازعات على الإطلاق ، وأول ما نسمعه عن وجود قاض في السكوة في عهد معاوية أو ابنه يزيد .

رحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معاً مجتمعين في معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصالاً وثيقاً ؛ ففي السكوة مثلاً ، كان هناك ما يشبه خريطة حقيقية تبين توزيع القبائل التي هاجرت من البادية ، على تفرعها الكبير ، وهذا يفسر كيف أنه من طريق نوع من أنواع الاندماج صار لبعض الجماعات القبلية الكبيرة شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد في جزيرة العرب نفسها . ولم يزل هذا الاتجاه إلى تكون جماعات من القبائل يزداد نطاقاً بتأثير ظروف أحوال أخرى ، حتى أصبح عاملاً خطيراً في التاريخ الداخلي للدولة العربية .

وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا^(١) الخاضعين ، وكانوا هم الدعامات المالية للدولة ، فكان لا بد لهم أن يهيئوا الحياة لسادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التي يدفعونها كرعايا والتي كانت تُشعرُ بالانضاضة وكانت وطأتها عليهم أشد من وطأة الزكاة التي كان يدفعها المسلمون . وكان تدخل الدولة العربية في شؤونهم الداخلية — إذا لم ندع إلى ذلك حاجة — أقل من تدخلها في شؤون القبائل أما في الجهات التي كانت من قبل تابعة للدولة الرومانية فكثيراً ما بقي الأساقفة رؤساء مدنيّين اطوائفهم الدينية ، كما كانوا من قبل . وفي فارس ظل الدهاقنة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء من أهل البلاد ، أينما وجدوا ، هم المسئولين عن الضرائب . ولم تكن الحكومة يهمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، وكان على الوالي أن يفرض الطاعة على الرعايا ، حتى يؤثتوا الخراج ، ثم صار يُضمُّ إليه في بعض الأحيان عاملٌ على الخراج مستقل بذاته ، ولم يكن ذلك مما يُسرُّ له الوالي ، لأن عمله عند ذلك كان يصبح مقصوراً على أن يمسك البقرة من قرونها حتى تسكن ، على حين يحلبها شخص آخر .

(١) إن استعمل كلمة رعايا (Untertanen) بهذا المعنى الضيق في مقابل العرب ، أصحاب السطآن الحقيقيين في الدولة .

وكان الأساس لفرض الضرائب على الرعايا والتنظيم مركزهم القانوني بوجه عام هو قانون الغنائم العربي القديم ، في الصورة المعدلة بعض الشيء والتي أقرها محمد [عليه السلام] بحسب القرآن . فكان إذا خضعت مدينة أو أرض للمسلمين صدحاً بغير قتال أصبح أهلها آمنين على حياتهم وحريتهم وما يملكون ، لكن كان يجب عليهم في مقابل هذا الأمان وفي مقابل الحماية من جانب الدولة أن يدفعوا إتاوة بمقدار معلوم بحسب قاعدة ينص عليها في كتاب الصالح (١) . أما إذا سلموه عنوة فإنهم يقومون تحت طائلة قانون الحرب ، أعني أنه يسقط كل حق لهم ، فكانوا يعتبرون هم وكل ما يملكون غنيمة للمنتصر ، وكان الخمس يؤخذ لله ، أي للدولة ، وكذلك كانت صوافي الملوك والضياع والقرى التي يتركها أهلها ويهربون عنها تصبح للدولة (٢) . أمّا ما عدا ذلك ، لا الممتلكات المنقولة فحسب ، بل الأرض والناس أيضاً ، فكان ينبغي ، طبقاً للقانون ، أن يُقسم ، لكن لا على جميع المسلمين ، بل على مقاتلة الجيش الذي قام بالفتح . ولكن هذا القانون لم يمكن تنفيذه ، لأن مثل هذا التغيير الهائل في الممتلكات كان مستحيلاً ، حتى لو لم يصب أهل الطبقات الدنيا إصابة كبيرة ، لأنهم لم يكونوا يملكون الأرض ، وإنما كانوا يزرعونها . ولم يكن العرب يستطيعون أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم ، إلا إذا كان يراد له أن يتحول إلى أرض خربة ، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا في تلك الأرض الواسعة لكي يزرعوها ، بل كان لا بد لهم أن يجمعوها في معسكرات إن أرادوا المحافظة على ساطنتهم . ويروي أن النبي عليه السلام قال (٣) « جُعِلَ رِزْقُ أُمِّي فِي سَنَابِكِ خِيَاهَا وَأَرْجَةِ رِمَاحِهَا ،

(١) وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بخدمة عسكرية على حدود الدولة ، وعند ذلك كانوا يدفعون من دفع الإتاوة لأن الإتاوة كانت تعتبر مقابلاً للإعفاء من الخدمة العسكرية وقيام العرب بها .

(٢) يحيى بن آدم ص ٤٥ .

(٣) يحيى بن آدم ص ٥٩ .

ما لم يزرعوا ؛ فإذا زرعوا كانوا من الناس . وفوق هذا كان لا بد للعرب أن يفكروا في المستقبل ، فلو أن كل شيء قُسم على الفور بين الفاتحين الحقيقيين ، لتبددت الغنيمة التي حصلوا عليها بالسرعة التي غنموها بها^(١) . ولذلك اعتبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت وأُعيرت للملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤثروا غلتها^(٢) . وهذه الغلة وحدها هي التي كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذرائعهم ، فهم لم يكن لهم رأس المال ، بل ما يخرج منه . وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التي فُتحت عنوة بأسوأ حالا ، في الحقيقة ، من المدن التي سلمت صلحاً ، وكذلك كان اسم الإتاوة في الحالين واحداً^(٣) ، غير أن الإتاوة في الحال الثانية كانت تحدد في شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على الهوى^(٤) .

وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفىء العصر الذي جاء بعد محمد [عليه

(١) [جاء في كتاب الحراج ليعقوب بن آدم من ١٣ - ١٢ - ١٧ ، أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد حين افتتح العراق : « أما بعد فقد باعني كتابك تذكر أن الناس سألوكم أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ؛ فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجاب الناس به إلى البسكرة من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعلها ، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء » — المترجم]

(٢) وكذلك نجد في سفر التكوين ، ٤٧ ، أن الضريبة التي كان على الزراع المصريين أن يدفعوها لفرعون علامة على أن أرضهم ملك لفرعون وأنهم عبيد له .

(٣) يقول يعقوب بن آدم (من ١١) أن كل أرض سقتها الأنهار أو سيق إليها الماء منها فهي أرض خراج ، راجع أيضاً : من ١٣ ، ٣٣ ، ٣٥ ، فابعدا .

(٤) لكن الآخرين أيضاً افعلوا لأنفسهم ، فيما بعد ، وثائق تسليم ، ولم يكن هذا عسيراً نظراً لقلّة المعرفة بالدبلوماسية والنفوس التاريخية الذي سرعان ما أحاط بعصر الفتوحات المضطرب [وفيما يتعلق بعدم جواز التغير فيما صولح عليه أهل الصلح الذين خلى بينهم وبين أرضهم ، راجع كتاب الحراج من ٦ و ٩ : على أهل الصلح أن يؤدوا ما صولحوا عليه ولا يوضع عليهم شيء ، ما أدوا ما عليهم ؛ فإن عجزوا عنه خفف عنهم ، وإن احتملوا أكثر مما يؤدون فلا يزداد عليهم شيء ، ولا يطرح عنهم شيء لو مات أو إسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بجملة ما عليهم من بقي منهم ، ما كانوا يطيقونه ويحتملونه . القاعدة هي أنه لا يزداد عن أهل الصلح شيء ، ولا يخفف عنهم شيء من خراج أو جزية إلا إذا عجزوا عنه . أما القاعدة العليا ، فهي ألا يكافوا فوق طاقتهم — المترجم] .

السلام ، فكانت الغنيمة هي الممتلكات المنقولة التي تُحمل إلى العسكر ، وكذلك الأسرى الذين كانوا يقسمون بين المحاربين كما كانت الحال من قبل . أما النِّئ فـكان هو ما يُغنم من أرض ثابتة هي ومن عليها من السكان ، وهي لم تُقسم بل تُركت لمالكها القدماء في مقابل إتاوة ، بحيث كان لا ينال مالكوها الحقيقيون بحسب قانون الحرب إلا غلتها^(١) . ولكن الدولة كانت

(١) كلمة النِّئ مأخوذة من القرآن (سورة ٥٩ (الحشر) آية ٦ و ٧ . لكن لم يكن يفرق فيه بين الغنيمة والنِّئ ، بل هذه التفرقة غير جائزة ، ومعنى الكلمة هو في الحقيقة معنى الكلمة اللاتينية : *reditus* أي : العائد المردود كرجع ... (يحيى ص ٣٣ — وابن هشام ص ٨٩٠ س ٧) . ولكن لا تستعمل في الدلالة على ما يرتفع من الغلة فحسب ، بل أيضاً على رأس المال الذي يأتي منه النِّئ ، والفقهاء المسلمون يعتبرون ، بطبيعة الحال ، أو الفرق بين الغنيمة والنِّئ فرق قديم ، ولا يسلمون بأنه لم ينشأ إلا فيما بعد ، عند التطبيق العملي ، خلافاً لما يؤخذ من القرآن . [وأهم الآيات التي ورد فيها ذكر النِّئ والغنيمة هي : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، وانقروا الله إن الله شديد العقاب » (سورة الحشر ٥٩) آية ٧) ؛ « واعدوا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » (سورة الأنفال ٨) ، آية ٤١) . فالآية الأولى تفصل بين أصحاب الحق في النِّئ ، والثانية تبين نصيب أصحاب الحق في الغنيمة على الإطلاق ، وهم أصحاب الحق في النِّئ تماماً . ومن الواضح أنه بحسب هاتين الآيتين لا فرق بين الغنيمة والنِّئ ، من حيث دلالة اللفظ . ويؤخذ مما جاء في كتاب الحراج ليعلي بن آدم (ص ٣ — ٥) أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، وهي جميع ما أصابوا من شيء ، قل أو كثر ، حتى الإبرة . أما النِّئ فهو ما صولح عليه المسلمون بغير قتال ، من جزية أو خراج ، وهو كله لمن سمي الله من المستحقين له ؛ والغنيمة فيها الخمس لله ، وهو محدود من الله على من ذكره من المستحقين له الذين هم أصحاب النِّئ أيضاً ، ولا يصح أن يوضع في غيرهم ، والإمام يعطيه لمن حضره منهم بعد اجتهد الرأي وتجرى المدل ، أما ما بقي بعد الخمس فهو ، من حيث المبدأ ، للذين غلبوا عليه من المسلمين وأوقفوا عليه ، راجلين أو بنجل وركاب .

أما الأرض التي تؤخذ عنوة ، فللإمام إما أن يأخذ الخمس منها ليكون فيئاً ويقسم الأربعة الأخماس الباقية على من ظهر على أرض العنوة من جيش المسلمين ، وإما أن يوقفها كلها على جميع المسلمين . ويروى أن النبي [عليه السلام] وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وأنه قسم بعض ما ظهر عليه ، فالإمام بحسب ما يرى من المصلحة أن يوقف أرض العنوة كلها فيجعلها فيئاً ، كما صنع عمر بن الخطاب بأرض السواد في العراق ، وإما أن يقسمها ، بعد أن يأخذ =

تجبي هذه الغلة بواسطة موظفيها ، ولم تكن بعد ذلك تعطى الغلة الكاملة في كل عام للمقاتلة أو لوارثيهم ، بل كانت تدفع لهم أعطيات وأرزاق ثابتة ، على حين يبقى ما يفضل عن ذلك في بيت مال الدولة .

وعلى هذا ظل التنظيم الإداري في البلاد المغلوبة جزءاً من نظام الاحتلال العسكري إلى حد كبير ، مما يؤدي إلى استغلال الرعايا . على أن ذلك لم يغير من الوضع الذي كانت عليه الأشياء حتى ذلك الحين إلا قليلاً . فتغيرت السيادة ولكن موقف سواد الشعب البائس الذي يحتمل عبء دفع المال (misera contribuens plebs) بقي كما كان تقريباً واقتصرت الإدارة العربية على التماحية المالية ، وكان ديوان إدارة الدولة ديوان حساب ، وقد احتفظ العرب بالكتب اليونان والفرس . وكان هؤلاء الكتاب هم الموظفين الفنيين الوحيدين الذين عندهم . وهم أيضاً قد احتفظوا في الجلة بأسماء الضرائب القديمة وأنواعها ، ولم يغيروا كثيراً في وضعها وجبايتها . ويروى ما كان من أمر الرجلين اللذين كانا قد قدما من المدينة لمسح أرض العراق وفرض خراجها أنهما كانا من الحسكة بحيث فعلاً أقل ما يمكن واقتصداً في استعمال مواهبهما كل الاقتصاد^(١) وفي كثير

== خمسها . ومن الواضح أن لكل من الاحتمالين سنداً في القرآن : قآية سورة الحشر تجمل التي في مستحقين بعينهم ضمناً لتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، وآية سورة الأنفال تجمل خمس الغنيمة — ويظهر أن المعنى هو المعنى المطابق — لأصحاب النبي أيضاً . أما بقية الغنيمة فهي للمسلمين الذين حصلوا عليها ، ويدخل في ذلك — إذا أريد الاستنباط الدقيق — كل غنيمة من أرض أو غيرها . ولكن عمر جعل أرض السواد فيئاً ، وقسم ما ليس أرضاً ، أعني الغنيمة بمعناها الضيق — وثم أشياء من أرض أو غيرها ، هرب أهلها وتركوها من غير قتال ، فهذه للإمام يضعها حيث يرى ، كما فعل النبي من قبل ، فيستطيع الإمام ، إن شاء ، أن يقيم فيها من يعمرها ويؤدي عنها شيئاً إلى بيت مال المسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أيضاً ، أن يستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أخيراً ، أن يقطعها رجلاً — المترجم] .

(١) [هذه ترجمة حرفية بقدر الإمكان لكلام المؤلف ، وهو لم يشير إلى أي مرجع يمكن الرجوع إليه لفهم ما يريد — المترجم] .

من الأحيان كان الخليفة بقر الإجراءات المؤقتة التي يتخذها قواده ، وكان هؤلاء يضطرون إلى الأخذ بالأوضاع المحلية .

وقد تمت معظم الفتوحات في عهد عمر ، وهو يعتبر المنظم لها . على أنه يتضح مما تقدم أنه لم يكن مُبدِعاً لنظام جديد ، لكن يرجع له الفضل في أنه نحى قانون الفئام العربي جانبا ، وأنه أدخل الدولة بين الجيش وبين الأمم المغلوبة ، فحى الرعية بعض الحماية ، واستند إلى تقوية الدولة على الجيش معتمداً على الخراج الذي كانت تدفعه هذه الرعية .

٥ — ولم يستطع القانون السياسي أن يلاحق في نموه خطى القوة السياسية المتزايدة ، ولم يكن في التراث العربي القديم ما يمكن أن يؤخذ منه قانون عملي لتنظيم الحياة العامة للدولة ، ولا كان يمكن أن يؤخذ هذه القانون من مجرد فكرة الحكومة التيوقراطية ، ولم يلبث أن أحس المسلمون بهذا النقص عند ما نشأت المشكلة الخطيرة ، مشكلة من الذي له الحق في الرئاسة العليا في الدولة الدينية .

ولم تظهر هذه المشكلة في حياة النبي [عليه السلام] ، فكان هو خليفة الله والرئيس الديني الحقيقي ، وكانت الحكومة التيوقراطية مرتبطة بشخصه ارتباطاً وثيقاً ، ولم يحدث ما كان يظن من أن ساعة القيامة ستجىء مع موته ، فلم تنته الدنيا ، وتوفى هو دون أن يكون قد تلافي ترك رعيته من غير راجع . نعم ، لقد ترك القرآن والسنة ، ولكن لم يرد في القرآن والسنة من الذي يُعيّن خليفة بعده . على أن ذلك لم يكن معناه إمكان الاستغناء عن خليفة بالكلية ، بل كان لا بد من إمام بعينه يؤم الناس في الصلاة ويرأس الحكومة ، ولم تكن توجد طريقة للانتخاب المنظم ولا كان هناك حق وراثية النبوة^(١) .

(١) [بعد أن قرر القرآن مبدأ المساواة بين المسلمين ، وقرر أن « أمرهم شورى بينهم » وأوصى النبي عليه السلام بأن يشاور أصحابه ، لم يكن هناك ما يدعو إلى النص على خليفة للنبي =

وقد بدا أن موت النبي [عليه السلام] معناه القضاء على الحكومة التيوقراطية ، وكان بين المؤمنين من لم يرد أن يصدق إمكان موت النبي ^(١) ، وارتدت قبائل العرب عن الإسلام ، وكان الانقسام يهدد المدينة نفسها . ولما لم يكن أمر الخلافة بعد النبي قد اتخذ له الأبهة من قبل فلم يبق في الإمكان إلا التصرف الحازم . وكان أقرب الناس إلى الحكومة في عهد النبي عليه السلام هم أتباعه وأصدقائه القدماء من أهل مكة ، وكانوا رجالاً قلائل ، وكانوا يحكم سابقتهم في الإيمان هم أشرف الحكومة التيوقراطية ، وكانوا أشرفاً من أصل إسلامي حقيقي ، وذوى روح إسلامية حقيقية . وهم وإن لم تكن لهم مناصب رسمية ، فإنه قد كان منهم في الحقيقة « مجلس » الرسول ، وكان لهم مكان كبير عنده . فلما زالت عنهم حماية النبي لم يدهوا أمر الحكومة يفلت من أيديهم ، بل قبضوا على أزمته بقوة عند ما وقعت من يديه . وكان رئيسهم وعقلهم المفكر هو عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الذي يمكن أن يعتبر مؤسس الحكومة التيوقراطية الثانية ، الحكومة التيوقراطية من غير نبي . وكان عمر آدم مشرفاً

= عليه السلام ، وما ذلك إلا لأن الإسلام يريد نظاماً ديمقراطياً ويريد أن يجعل اختيار الإمام من حق الأمة ، ولذلك لم ينص النبي عليه السلام نصاً صريحاً على من يخلفه ، ولكنه عليه السلام كأنما أراد أن يعرب عن رأيه هو في ذلك حينما عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس ، وهي الوظيفة الدينية الكبرى ، وكان من الطبيعي أن يخلفه أبو بكر بمنح سابقته في الإسلام وماول محبته له . ولقد كان من الحكمة السياسية البعيدة التي ينقل عنها كثير من النقاد أن النبي لم يعين له خليفة تاركا الأمر للمسلمين ، لأن الناس لا يخضعون لرئيس معين خضوعهم لرئيس يختارونه ، وهذا هو الذي يدعو إلى الاستقرار . هذا ولم يكن النظام الديمقراطي بمعناه المعروف في العصر الحديث شائماً في ذلك الزمان ، بل كان اختيار الرئيس باتفاق كلمة كبار الرجال ، وهم المسلمون « أهل الحل والعقد » ، وهذا ما قد حدث عند مبايعة أبي بكر رضي الله عنه ، فهو وعمر لم يكونا مفتصيين للخلافة ، بل حريصين على ما هما أهل له ، وقد رضى الناس بهما ، ماوعا من جانب من عرف قدرهما وكرها من جانب الحاسدين الظالمين فيما ليسوا أهلاً له . — المترجم] .

(١) [بشير الأوائف إلى ما يحكى من أمر عمر بن الخطاب وذهوله واضطرابه لما قيل له إن

النبي عليه السلام قد مات . — المترجم] .

على الناس من طوله ، كأنه راكب . وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع ، والروايات تصوره دائماً والدرّة في يده ، ولم يكن أينما ، ولا كان يتكلم ويبدأ ولا يقصد في مشيه كما يصنع النساك المتكفون ، ولكنه كان مع ذلك يخاف الله حقيقة ، ولم يكن غافلاً قط^(١) ؛ ولكنه قدم أبا بكر ، أخص أصحاب النبي . ولما توفي أبو بكر ، بعد فترة قليلة^(٢) ، تولى الخلافة عمر ، فصارت له الرياسة من حيث الاسم أيضاً^(٣) ، وقد عهد إليه أبو بكر بالخلافة في وصية له قبل موته^(٤) . ولكن هذه الوصية لم تكن من جانب أبي بكر أكثر من إقرار لشيء طبيعي . وكان أبو بكر وعمر يملكان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعي ، بل من طريق الاغتصاب ، وهما لم يستطيعا أن يسبقا على رياستهما ، التي كانت غير شرعية في أول الأمر ، ثوباً شرعياً إلا فيما بعد ، وذلك بأن سارا في الحكم على المبادئ التي تقضى بها الحكومة التيقراطية . ولما كانت حكومة النبي عليه السلام ، وهو الوكيل الحى لله والحاكم باسمه ، قد انتهت فإن أبا بكر وعمر أجملا الحكم لله بأن جملا مرجعهما في الحكم على الأشياء الأخذ بما في القرآن ، وهو كلام الله ، واتباع سنة النبي عليه السلام . فهما لم يريدوا سوى أن يكونا خليفتهين لرئيس الحكومة التيقراطية الشرعي الحقيقي الوحيد ، وهو النبي ، وقد عبّرا عن ذلك باللقب الذي اختاراه لأنفسهما ، وهو لقب الخليفة . وقد سمي أبو بكر نفسه خليفة رسول الله ، وسمى عمر نفسه خليفة خليفة رسول الله ، حتى بدا في ذلك

(١) [راجع صفات عمر وسيرته عند الطبرى مثلاً ج ٢ ص ٢٧٢٨ فما بعدها — المترجم]

(٢) [كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام — المترجم]

(٣) [يشير المؤلف إلى ما كان لعمر من نفوذ كبير في أيام أبي بكر — المترجم]

(٤) وصية الميت عند العرب قديمة ، وكان يجوز للأمر في الحرب ، بل كان يجب عليه ،

أن يعين خليفة له ليتولى الأمر بعد موته ، بل كان أحياناً يعين خليفة لخليفته وهكذا ، وكان المسلمون

يشعرون دائماً أنهم أشبه بجيش . فإرن كتاب Mommsen . Contin. Ispana ط

شيء من التكلف والتطويل في التسمية فصار لقب الخليفة ، مع إسقاط المضاف إليه ، لقباً قائماً بذاته ، وإلى جانب ذلك كانا يلتقيان بالقب : أمير المؤمنين ^(١) . وقد خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم ، فكان أهل عشيرتهم ، وهم قريش ، يشاركونهم فيما لهم من نفوذ ، ولم يكن ذلك مقصوداً على القرشيين الذي هاجروا إلى المدينة عام الهجرة ، أو على الأقل قبل فتح مكة ، بل كان يتمتع به القرشيون الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا مكرهين ، بعد أن كان قد تم له النصر . وعلى هذا احتفظ النسب والدم بقوتها إلى جانب الدين .

والقرشيون ، وإن كانوا قد عارضوا الإسلام ما استطاعوا ، فقد كانوا يشعرون بأنهم بمجملتهم أصحاب الحق في رئاسة الدولة التيوقراطية ، لأن محمداً عليه السلام منهم ، وقد شذّ أزرم فيما طمحوا إليه النبي نفسه بالفعل وأصحابه من بعده . ومن جهة أخرى كان العرب في الجيلة لا يرون بأساً في أن تبقى الرئاسة في المشيرة أو القبيلة ، وإن لم تبقى في أسرة بعينها ، معتبرين أن السيادة ملكٌ لهم جميعاً ، وإن كان لا يتولاها إلا شخص واحد . ولم يعارض في تقدم قريش إلى المرتبة الأولى معارضة جدية إلا الأنصار . فهم قد استقبلوا القرشيين في أول الأمر ، عند ما هاجروا إليهم ، استقبالا كريماً . وقد هيئوا لهم المقام والمأوى والحماية ، ولم يعارض الأنصار أيضاً في أول الأمر في أن يختص النبي أتباعه المسكتين من وجوه شتى ، ولا في أن يقع على كاهلهم هم العبء الأكبر في القتال ولا في أن يكون لأوائك نصيب الأسد من الغنيمة ، كما حدث مثلاً عند تقسيم أرض الجماعات اليهودية التي أُجِّلِيَتْ عنها . ولكن بمرور الأيام أخذ يزداد بينهم الشعور بأن هؤلاء القوم الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم ، فقاموا بمحاولات لكي يظهروا

(١) [جاء في الطبري ج ١ ص ٢٧٤٨ : لا ولي عمر نيل له :

يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال عمر : هذا أمر يطول ، كلما جاء خليفة قالوا : يا خليفة

خليفة رسول الله ؟ بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فسمى : أمير المؤمنين — المترجم]

أنهم سادة في ديارهم ، وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم ، وانفجر تذرهم في مناسبات كثيرة ، وقد أذكاه بنوع خاص سيد من قبيلة الخزرج كان له نفوذ كبير من قبل ورأى أنه بعد مجيء النبي عليه السلام ، قد نُحِّيَ جانباً . ولكن غيرة القبيلة الأخرى ، قبيلة الأوس ، لم تلبث أن تحركت ضده ، وذلك لأن الانقسام الخطير القديم بين القبيلتين لم يكن قد زال ، وكان مفيداً للطرف الثالث الذي كان فوق النزاع . وكان من السهل على النبي في هذه الظروف أن يهدي الأنصار دائماً ، وقد كانوا في الحقيقة أيضاً مدينين له بالشكر ، لأنه أنقذهم من إفتاء بعضهم بعضاً بما كان بينهم من تسافك ، فكانوا إذا عادوا إلى صوابهم يقرّون بأنهم ليس لهم عن النبي غنى^(١) . وقد أقلقهم كل الإقلاق ما كان يُظن من أن النبي بعد أن تم له فتح مكة سيترك مدينتهم ويعود إلى مكة . وهكذا سارت الأمور إلى أبعد مما ابتدأت به ، ولم تزل أقدام القرشيين تزداد في المدينة رسوخاً ، وازدادت قوتهم بفضل مهاجرين كثيرين جاءوا إلى المدينة من قبائل أخرى ، وكانوا يسمون أيضاً : مهاجرة . وأشرف الأنصار على فقدان السكينة العددية في المدينة ، وصاروا باستمرار ينزلون إلى المرتبة الثانية . وكانوا عند وفاة النبي عليه السلام قد تحركوا حركة قوية لكي يحصلوا على حقهم في السيادة في مدينتهم أو ليحافظوا على الأقل على استقلالهم فيها ، ولكنهم نسوا أن المدينة ، منذ زمان ، لم تعد مدينتهم ، بل صارت مدينة الرسول التي جعل منها الرسول شيئاً آخر غير ما كانت عليه من قبل ، فجعلها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام . وقد فوجئوا بحزم عمر وغيره من الصحابة ، ولم يلبثوا أن انقسموا بسبب ما كان بينهم من عداوة قديم ، وفقدوا الغالبية العددية ، بعد تدفق

(١) [راجع مثلاً سيرة ابن هشام ، ط. جوتجن س ٨٥٨ ترى كيف تدخل النبي عليه

السلام وأنه زعم من القائل - المترجم]

المهاجرين من أعراب المناطق المجاورة إلى المدينة ، وقد أخذ هؤلاء الأعراب جانب المهاجرين .

وكان من حسن الحظ أن بدأ في ذلك الوقت التمرد الكبير على سلطان المدينة من جانب قبائل العرب ، فاختلف الانقسام الداخلي بين أهل المدينة أمام الخطر الخارجي الذي كان يهددهم جميعاً . وكان الأنصار أوفياء لتقاليدهم ، فأخذوا صرة أخرى مكانهم في الطليعة في محاربة العدو ، وكان لهم أيضاً الفضل الأكبر في الفتوحات ، خصوصاً في فتوح الشام . ومنهم كانت تتألف نواة الجيش الإسلامي ، وإن لم يكونوا هم القواد . واقعد بقوا معارضين بعض الشيء للحكام ، ولكن معارضتهم اندمجت في التيار العام المعارض للحكومة القائمة بالحكم ، وهو التيار الذي كان يتزعمه أهل النقي من المتمسكين بسلامة نظام الحكومة النيوقراطية . وصارت المدينة مقر التراث الإسلامي وملاد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التي أزيلت عن مكانها . وكانت معارضة المدينة للحكومة تظهر فيما بعد ذلك معارضة إجماعية دائماً . ومن أكبر الخطأ أن يخطر الأنصار وحدهم على بال الإنسان في هذا المقام ، فإنهم في أثناء التمرد الكبير الذي انتهى بموقعة الحرّة^(١) كانوا يقاتلون إلى جانب المهاجرين لهزيمة بني أمية ، فهم قد اتبعوا أصحاب الحق من قريش ولم يظهروا حزباً خاصاً^(٢) . على أن سيادة قريش نالت اعتراف جميع العرب عدا الخوارج ، وإن كان اعترافاً غير برىء من التذسر . وقد وقفت قريش

(١) [يقصد المؤلف ارتداد بعض العرب عن الإسلام وامتناع بعضهم عن أداء الزكاة

مما أدى إلى حروب الردة التي انتهت بموقعة الحرّة — المترجم]

(٢) يقال إن الأنصار كانوا مصدر حزب المعارضة الذي كونه اليمينيون فيما بعد . ولأعرف

سند هذا القول . وقد كان بين الشام هم قبيلة كلب . أما في الكوفة فكانوا همدان ومذحج وكندة ، وفي البصرة وخراسان كانوا أزدي عمان . وكان هؤلاء أشدهم تذرماً ، ولم يكن للأنصار علاقة بهم جميعاً ، وكذلك لم تكن لهم مشاركة كبيرة في تكوين حزب الشيعة ، وإن كانوا قد تعلقوا بعلي في حياته ، أما أن العلويين كانوا يعتبرون المدينة ومنازلهم وكانوا فيها موضع الإجلال ، فهذا شيء آخر .

من التنافس بين القبائل موقفاً محايداً ، ومهما كان سحق القبائل العربية على سادة قریش العربيين في الرياسة والمحتكرين لها ، فإن حظ القبائل المتغالية في الحصول على حق الرياسة كان أقل من حظ قریش .

ولم تكن قریش في الحقيقة تؤلف وحدة متماسكة ، فلم يكونوا في أول أمرهم [في المدينة] سوى أصحاب النبي عليه السلام والرجال الذين يلونه في الأمر ويعتد بهم . ولم تبلغ قریش شأنها في الإسلام إلا بفضل هؤلاء الصحابة ، لأن قریشاً قبيلتهم وقراباتهم في النسب . ولكن نشأ بينهم ، بين أفراد هذه الأرستقراطية الإسلامية الحقيقية التي تتألف من الصحابة ، أخطر تنافس .

وحدث ذلك بعد موت عمر ، فقامت عند ذلك الوقت مشكلة الخلافة من جديد . ولم يكن عمر قد أوصى أعلی . وكان أعلی ، بحكم أنه ابن عم النبي وزوج ابنته ، مطامع في الخلافة ، بل هو كان يشمر من قبل أنه قد تُخُطِّي . أما الذي فاعله عمر فهو أنه أوصى بأن يكون تعيين الخليفة الذي يخلفه من طريق الاختيار ، ولكن أصحاب الشورى [الذين كان عليهم أن يختاروا الخليفة] لم يكونوا جماعة المسلمين ، ولم تدخل الأمصار في ذلك ، فسكانت المدينة وحدها هي المدينة الرئيسة التي تتقرر فيها أمور الدولة ، بل في المدينة نفسها أغفل شأن الأنصار إغفالاً تاماً . ومن جهة أخرى لم تدخل قریش بحملتها في الأمر ، وكان أصحاب الشورى هم أقدم ستة كانوا لا يزالون أحياء من أصحاب النبي : وكان عليهم أن يتفقوا على واحد من بينهم ، كأنهم مجلس من الكرادلة (Cardinalscollegium) أما بقية أهل المدينة فلم يكن لهم إلا الحق في المبايعة لمن يُنتخب ، أوهم بالأحرى كان يجب عليهم ذلك . فكان لا بد من أن تنجى البيعة بعد الانتخاب ، وكان لا بد أن تتم البيعة في المدينة .

وتختل أصحاب الشورى الستة ، هم أيضاً ، علياً ، لأنهم لم يشاءوا أن يمتدحوا له

بأنه صاحب الحق الأول ، فانتخبوا الصحابي المسنّ عثمان بن عفان ، من بيت أمية ، وكان أقل الستة تميزاً وشأناً ، وهو كأنما كان قد رشع نفسه لديهم عندما قال لهم : لأن تعينوا حَجَرًا خَيْرٌ من أن تعينوا نِسرًا أخرى رجلاً مثل عمر . ولكن النتيجة جاءت مُخَيِّبَةً لظنهم ، لأن ما كان عليه عثمان من ضعف لم يجيئ مفيداً لهم ، بل مفيداً لبيته ، لأنه خضع راضياً أو مجبوراً لتأثير بيته . وكان الأمويون ، شأنهم شأن أسرة النبي عليه السلام ، من بيت عبد مناف ، لكنهم كانوا أشد قوة وأكثر مالاً وأعظم نباهة من بني هاشم وبني عبد المطلب ، وكانوا منذ موقعة بدر قد احتلوا مكان قبيلة مخزوم ، بعد أن انكسرت قوتها في معركة بدر^(١) ، وكانوا أيضاً قد توصلوا إلى السيادة في مكة بفضل زعيمهم الماهر أبي سفيان ، وهم الذين ظلوا يتزعمون الحرب التي استمرت سنوات بين قریش من جهة والمدينة ومحمد عليه السلام من جهة أخرى ، وهم وإن كانوا قد هزموا في هذه الحرب ، فإنهم لم يفقدوا مكائدهم وما كان لها من نفوذ ، بل هم أنقذوها ودخلوا بها في الجاهة الجديدة التي اضطروا أن ينضموا إليها ، وقد يسر محمد عليه السلام لهم هذا الانتقال ، وحرص على أن يبين لهم أنهم لن يخسروا بذلك . ولما كانت مكة قد فقدت قيمتها السياسية ، فإنهم هاجروا إلى المدينة ، ولم يلبثوا فيها أن صاروا قريبين من دفّة تدبير الدولة . ونظراً لأنهم جروا مع ريح العصر وقبلوا الدين بحسب ما كانت تقتضيه الظروف ، فإنهم ارتفعوا عالياً بفضل قوة الموجة التي كانت توشك أن تبتلعهم . ومنذ عهد أبي بكر وعمر نجد يزيد بن أبي سفيان ، ونجد بعد موته أخاه معاوية أشخاصاً لهم شأنهم الكبير ، وإذا كان بروزهم لم يكن في المدينة فقد كان في الأمصار . فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن رئاسة عثمان كانت رئاسة بيته ، قائماً عليه مروان بن الحكم

(١) راجع فيما يتعلق بالمنافسة بين مخزوم وعبد مناف ، سيرة ابن هشام ص ٢٠٣

فأبعدها وص ٤٢٩

كاتباً له في المدينة ، وترك له الأمر ، فلا مروان كل مناصب الولاية بأهل قرابته ،
وبهذا أثار عثمان على نفسه زملاءه ، بقية أعضاء مجلس الشورى ، وكانوا خمسة :
على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن
أبى وقاص . أما سعد فلم يكن له طموح سياسى^(١) ، وأما ابن عوف فقد مات
قبل عثمان ، ولكن حلت محلهما السيدة عائشة أرملة النبی الشابة التي كانت تعتبر
نفسها من أكبر أهل الرأي في الإسلام ، وكانت تتمتع باحترام عظيم . وأحسن كبار
الصحابة أن ارتفاع شأن أسرة حاكمة ، [أعنى بيت بنى أمية] ، يهدد مكانتهم
التي كانت لهم حتى ذلك الحين ، وكان هذا هو سبب عداوتهم للأمويين^(٢) ،
فهل يرضون لأنفسهم ، وهم خلاصة المؤمنين في الدولة التیوقراطية وأصحاب القدم
الراسخة في الإسلام ، بأن تزيدهم عن مكانتهم أسرة من الأشراف الوثنيين
القدماء بعد أن كانت هي التي تزعمت قريشاً في حربها للإسلام؟^(٣) فحاول
كبار الصحابة ، في بادئ الأمر ، أن يبعدوا بين الخليفة وبين بطانته ، كما قالوا ،

(١) [فارن الطبرى مثلاً ج ١ ص ٣٣٥٥ — المترجم]

(٢) [كأن المؤلف لا يفترض أن هناك إسلاماً في قلوب هؤلاء الصحابة ولا حرصاً على
العمل بأحكامه من إقامة العدل والتمسك بالخير والحق ، فهم في الحقيقة لم يعادوا أحداً إلا حرصاً
على الدين وعلى الحكم العادل ، وإلا فكيف يفسر المؤلف الفكرة التي قام عليها كتابه وهي أن
الثورات التي قامت على الأمويين وانتهت بإسقاطهم كانت تستند إلى الدين . إن المؤلف مؤرخ لكنه
أحياناً ينظر للتاريخ نظرة سياسية أكثر مما ينبغي — المترجم]

(٣) [ينحى الطبرى مثلاً (ج ١ ص ٢٩١٩) أن أحد ثوار العراق الذين ذهبوا إلى
معاوية بالشام قال له في أثناء المناقشة : إنا نأمرك أن تعزل عمك ، فإن في المسلمين من هو أحق
منك ؟ قال : فن ؟ قال : من كان أبوه أحسن قدماً من أباك ، وهو بنفسه أحسن قدماً منك ،
في الإسلام .

فارن أيضاً رأى على بن أبى طالب في معاوية وأبيه أبى سفيان عند الطبرى ج ١
ص ٣٢٧٨ — ٣٢٧٩ . وهذا يدل على الأساس الذي عليه كان الصحابة يعارضون بنى أمية ،
ولم يكن الطموح السياسى وحده هو السبب في المعارضة ، كما يؤخذ من كلام المؤلف
فيها سبق — المترجم] .

فلما لم يصلوا من هذا الطريق إلى غرضهم انقلبوا عليه هو ، فتمددوا تقويض
هيئته في المدينة ، وغذوا سخط الساخطين عليه من العرب في الأمصار

٦ - ومهما يكن من شيء فقد بدأ التحفز للثورة في الأمصار^(١) ، أعنى في
المدن التي كان يسكنها العرب . وكانت الظروف ، بعد أن توقفت حروب
الفتوحات الكبرى ، قد تغيرت ، وجاء المدوء بعد الهياج ، والتفكير المأزى بعد
الاضطراب ، وتنفس المحاربون العرب بعد أن كانت الحروب المتواصلة لا تترك
لهم إلى الراحة سبيلاً ، فوجدوا فراغاً للتفكير . وطالما كانت الغنيمة ، وكانت
في الحقيقة نهباً مستمراً ، تتدفق من غير انقطاع إلى أيدي الجند من طريق الحملات
الحربية المتواصلة ، فإنهم كانوا لا يبالون ولا يهتمون أن تضع الحكومة يدها على
النفي وعلى الداس وعلى الممتلكات الثابتة في البلاد المغلوبة ، لأن الجند ما كانوا
ليمروا ما يصنعون بذلك . أما الآن فقد أدركوا أنهم ، من غير أن يشعروا ، قد
تركوا غيرهم وسط الهياج والاندفاع في ذلك العصر ، يستحوذ على خير ما في الغنيمة .
فلو أنهم أعطى لهم ، على الأقل ، كل مال النفي ، أعنى جملة مال الخراج الذي
يدفعه المغلوبون كل عام ، لرضوا بذلك . ولكن حتى هذا لم يحدث ، كما رأينا ،
فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجري كله ، مع بقية أنواع دخل الدولة ،
إلى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطى للمعار بين العرب من ذلك سوى
أعطيات فرضتها لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة
من نصيب الجيش . واستطاعت الحكومة بفضل الفتوحات التي تمت على يد
الجيش ، والتي هي ، بحكم القانون ، غنيمة له ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص
من سلطانه ، وذلك لأنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين ، بل استولت

(١) [يستطيع القارىء أن يتتبع تاريخ الثورة على عثمان عند الطبرى مثلاً ج ١

ص ٢٩٠٧ فما بعدها إلى شطر كبير من الكتاب - المترجم]

على الخراج الذى يرتفع من الأرض والناس ، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها من طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنعها بالمقدار ، وإلى المدى ، الذى تشاؤه ، وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً . فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش ، أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة ، فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وعزتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها وأنها تستند إلى الخزانة ، فتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعموا أن المال الذى يجتمع من الخراج ، إنما هو لهم وليس للدولة ، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله (الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ وما بعدها)^(١) ، وتمسكوا بدعوى أن أموال النعم يجب أن تقسم ، وفي بعض الأحيان نهبوا بيوت المال فى الأمصار . وهم على أى حال لم يرضوا بأن يحمل ما يفضل عنها إلى بيت المال الكبير للدولة ، وكانت غيرتهم من الدولة سبباً فى إثارتهم بطبيعة الحال على عمالها الذين كانوا يتصرفون فى سلطان الدولة ومالها ، ورأوا أن العمال يبعدونهم عن الخوان ، فسخطوا ذلك^(٢) .

(١) [هذه قصة أبى ذر القارى مع معاوية فى الشام وقصته فى المدينة أيضاً ، من دعوة الناس إلى الزهد ومن نهيه عن اقتناء الأموال ، وحضه الأغنياء على الخروج عن أموالهم إلى الفقراء . والذى يؤخذ مما حكاه الطبرى أن ابن السوداء وهو عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أظهر الإسلام وأحدث الفتن بين المسلمين هو الذى أوحى إلى أبى ذر بما فعل فقال له يوماً : يا أبا ذر ، ألا تعجب لمعاوية ! يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين . وكان هذا بحسب رواية الطبرى ، نقطة البداية فيما فعله أبو ذر فى الشام وفى كلام معاوية هناك وفى ولوع الناس بكلام أبى ذر حتى لحق الأغنياء من الفقراء شيء من العنت . ويجد القارى قصة ذهاب أبى ذر إلى المدينة ، إلى عثمان ، بعد أن شكوا إليه معاوية أمره ، وأمر عثمان بتوجيه أبى ذر إليه فى المدينة ، وكذلك ما كان من تطور حياة أبى ذر ، كل ذلك عند الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ — ٢٨٦٢ . — المترجم]

(٢) إن الاسم الدينى للحكومة أو للرياسة أو للدولة هو كلمة سلطان ، أما فى نظر الدين فالسلطات والملك لله . وكلمة « سلطان » ذات أصل آرامى ، ومعناها فى الحقيقة هو : $\kappa\upsilon\rho\iota\sigma$ لا $\kappa\upsilon\rho\iota\acute{o}\tau\eta\varsigma$ ، $\epsilon\acute{\xi}\nu\sigma\tau\alpha$ فى اليونانية .

وكان هذا في الواقع اعتراضاً موجهاً إلى النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، لأن عمر هو الذي كان قد انتزع النقيض من يد الجيش من حيث لا يشعر الجيش ، وجعله للدولة ، مخالفاً للقرآن في ذلك ، وإن كان متفقاً مع اتجاه في النظام المالي اتبعه النبي عليه السلام إلى حد كبير^(١) . أمّا إن المعارضة لذلك لم تظهر في عهد عمر نفسه ، ولم تشتدّ وبعلو صوته إلا في عهد عثمان ، فلا يمكن تفسيره بمجرد تغير ظروف العصر ، بل بتغير شخصية الحاكم أيضاً . ولقد قال عثمان بحق إن الشيء الذي ما كان أحد يجزؤ على أن يعييه على عمر أصبح يعييه عليه^(٢) .

ولقد كان يعوز عثمان ما كان لعمر من هيبة السلطان ، ولذلك تجلّى سلطان الأسراء والعمال في عهده وتجلّى جزئهم وراء مصلحتهم الخاصة على نحو أكثر سفوراً مما كان في عهد عمر ، لأنهم كانوا يخشون بأس عمر^(٣) . وقد كان أثر

(١) وكان النبي من قبل قد جعل بيت المال ما يقع في يد المسلمين من غير حرب ، وهو قد سبق عمر أيضاً في مصادرة الأسماء (جمع حمى) القديمة وفي المنع من جعل أسماء جديدة تكون مراعى لإبل الصدقة وخيلها ، وبذلك أعطى النبي مثالا لمصادرة الأراضي ، راجع كتابنا Reste arabischen Heidentums (١٨٩٧) ص ١٠٧ فما بعدها .

(٢) [راجع ما قاله عثمان لعمر بن العاص بعد أن بدأ هذا في التشيع على عثمان — الطبري ج ١ ص ٢٩٦٦ وفارن ص ٢٩٣٩ — ٢٩٤٠ . قال عثمان لعمر ومثلا : والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستغمت ، ولكنني لنت لك فاجترأت عليّ — المترجم]

(٣) [لما كلم علي بن أبي طالب عثمان في استعماله ألقابه ، احتج عثمان بأنه إنما وصل رحماً وسدّ خلة وآوى ضائماً وولى شبيها بمن كان يوليهم عمر ، فقال له علي : إن عمر بن الخطاب كان كل من وليّ فإيما يظأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبة ... وأنت لا تفعل ، ورفقت على أقربائك . فلما قال عثمان إن عمر عين معاوية قال له علي : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ ، غلام عمر ، منه ؟ قال عثمان : نعم ! فقال علي : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس : « هذا أمر عثمان » ، فيبلغك ذلك ولا تغير على معاوية — راجع الطبري ج ١ ص ٢٨٣٨ — ٢٨٣٩ . أما فيما يتعلق بخشية الناس بأس عمر فهي تتجلى من كلام لعثمان قاله لعلي بعد أن دخل عليه ونبهه إلى بعض ما يؤخذ عليه : « فقد والله عبت علي بما أقررت لابن الخطاب بمثاه ، ولكنك وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتكم وكرهتم ، وانت لكم وأوطأت لكم كنتي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأت عليّ — الطبري ج ١ ص ٢٩٣٩ — المترجم]

ذلك في النفوس شديداً ، وخصوصاً أن عثمان جرى على اختيار الأمراء والعمال من آل بيته ، وبدا كأنما قد تحولت الدولة ، من كل الوجوه ، مأكلةً لطائفة ممتازة لها أن تجني خيرات الأمصار .

وقد التقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار أصحاب النبي في المدينة ، وكانت الغالبية الكبرى في العاصمة ، خصوصاً الأنصار ، وراهم . وكان على رأس الصحابة علي وطلحة والزبير . على أن غضب الصحابة على بطانة عثمان كان له أسباب أخرى ، وقد كان من السهل عليهم أن يجعلوا لمنافستهم تلك البطانة الصبغة الدينية اللازمة ، وأن يظهروا مدافعين عن الكتاب والسنة ، وأن يستغلوا السخط السائد لمصالحتهم . ولكن بالرغم من جرأتهم على عثمان وعدم احترامهم له ، فإنهم لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل المدينة ويحاربوه هم أنفسهم حرباً سافرة تحت سمعه وبصره ، بل هم آثروا أن يقذفوا النار في الأمصار ، وفي الأمصار كانت تتركز ، على كل حال ، القوة الحربية والمالية للدولة . فأما المدينة فلم يكن متركزاً فيها سوى السلطة الأدبية للإسلام . ففي عام ٣٤ هـ (٦٥٤ — ٦٥٥ م) كتب الصحابة إلى أهل الأمصار : إن كنتم تريدون الجهاد فـ مكانه الآن في المدينة^(١) . وكان كلامهم ملهياً للكوفة قبل غيرها ، وكانت الكوفة أكبر مركز لمعارضة

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، نقلاً عن الطبري في الغالب ، وهو كلام عام ، وغير كافٍ في وصف الموقف ، أما الطبري فهو يقول ، نقلاً عن الواقدي : « لما كانت سنة ٣٤ هـ كتب أصحاب رسول الله صلعم بعضهم إلى بعض أن أقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد . وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، وأصحاب رسول الله صلعم يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفر منهم زيد بن ثابت ... » ، ويقول الطبري في موضع آخر : « لما رأى الناس ما صنع عثمان ، كتب من بالمدينة من أصحاب النبي صلعم إلى من بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرقوا في الثغور : لمنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلعم ، فإن دين محمد أفسد من خلقكم وترك ، فاهلبوا فأقيموا دين محمد صلعم . فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه . » — المترجم نقلاً عن الطبري ج ١ ص ٢٩٣٦ ، ٢٩٨٣]

المقاتلة للحكومة . وبينما كان الولاة في آخر عام ٣٤ هـ (يونية ٦٥٥) عند الخليفة في مكة ، قامت الثورة في الكوفة يقودها مالك الأشتر ، وهو من كبار اليمانيين المواليين لعلي بن أبي طالب . ولما عاد إلى الكوفة سعيد بن العاص أميرها من مكة وقف ألف من أهل الكوفة أمام مدينتهم ومنعوه من الدخول فيها . فمزل عثمان سعيداً دون تردد ، وعين على الكوفة عاملاً يرضاه الثوار ، وبذلك هذأم مؤقتاً^(١) .

ولسكن ثوار أهل مصر جاءوا إلى المدينة بدلاً من الكوفيين . وكان عثمان قد عين ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، رغم أن النبي عليه السلام كان قد طرده وأباح دمه ، مكان فاتح مصر عمرو بن العاص ، ولذلك احتقد عليه عمرو ، وهو الرجل الداهية الخطر ، وكان يحرض عليه في المدينة ، ولعله أيضاً لم يخل من التحريض عليه في مصر^(٢) . وفوق هذا تار في مصر محمد بن أبي حذيفة ،

(١) [حكي الطبري في حوادث سنة ٣٣ هـ (ج ١ ص ٢٩١٥ — ٢٩١٦) أن سعيد بن العاص والى الكوفة من قبل عثمان ، قال وهو في مجلس من وجوه أهلها ، فيهم مالك الأشتر : إنما هذا السواد بستان قريش ، فقال مالك الأشتر ، وكان حاضراً : أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسياقتنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد أوفاكم نصيباً إلا أن يكون كأحدنا ! ثم قامت مناقشة بينهم وبين الوالي ، فتدخل صاحب الشرطة ، فوثبوا عليه ووطئوه وطءاً شديداً حتى غشى عليه ، فأخرجهم سعيد من جماعة سماره ، فصاروا يجلسون في مجالسهم ويؤتممون ويشتمون عثمان وسعيداً ويؤلبون عليهما ، واجتمع الناس إليهم . ثم نظرت الثورة واتهم مالك الأشتر سعيداً إلى جانب زعمه أن السواد بستان قريش بأنه يريد إقصاء الأعطيّات المفروضة للرجال والنساء ، فلما عاد سعيد من مكة خرج أهل الكوفة بسيوفهم لرده ، فرجع إلى عثمان فمزلّه وولى أبا موسى الأشعري استصلاحاً لأهل الكوفة وإسقاطاً لحجّتهم . وكتب إليهم كتاباً بذلك . ولم يرض أبو موسى أن يصلي بهم إلا بعد أن اعترفوا بالسمع والطاعة له عثمان — المترجم . نقلا عن الطبري ج ١ ص ٢٩٣٠ — ٢٩٣١ ، ٢٩٣٤ ، ٢٩٣٦]

(٢) [يحكي الطبري (ج ١ ص ٢٩٦٦ فما بعدها) : أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن الخراج واستعمله على الصلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج ، ثم جمعهم إليه ، فلما قدم عمرو إلى المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤلب عليه الصعابة والحجّاج ويحرض عليه جميع الناس حتى الراعي في غنمه في رأس الجبل ، كما يقول عمرو نفسه . وبعد أن حوّل عثمان خرج عمرو من المدينة وظل يترقب أخبار الفتنة ، فلما بلغه مقتل عثمان قال : أنا أبو عبد الله ، إذا حكمت قرحة نكأتها — المترجم نقلا عن الطبري ج ١ ص ٣٢٥٢]

وكان من قبل يتيماً في حجر عثمان^(١) ، كما ثار محمد بن أبي بكر ، أحد أولياء عليّ المتحمسين ، وكانا في المعركة البحرية الكبيرة^(٢) التي كانت بين المسلمين والهرقل (اسمه Constans) قرب شواطئ لوقية ، فانفصلا بمركبهما عن الأسطول العربي قائلين : أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً ، وقد عابا على عثمان ما عابه غيرها في العادة ، خصوصاً أنه ملأ جميع المناصب التي تدر الخيرات بأبناء عمومته ، وبذلك بذروا بذوراً خطيرة للفتنة ، وكان ذلك عام ٣٤ هـ . وفي العام التالي أبي خزيمة عرجي من مصر ، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله لقتال العدو الداخلي ، فظهروا أمام المدينة في حوالى الشهر العاشر من عام ٣٥ هـ (يونيه ٦٥٦ م) وطالبوا الخليفة بأمور. وهدّدوا باستعمال القوة إن هو لم يستجب إليها . وقد وقف أهل المدينة ، إلا القليل ، إلى جانبهم وأيدوهم . لكن لما لم يكن تحت تصرف عثمان ، وهو رئيس أقوى دولة على الأرض في ذلك الحين ، حرس في مقر دولته يحمونه بالقوة ، فإنه رضى لمفاوضة الثوار ، وأفلح في إقناع أهل مصر بالانصراف ، بأن وعدم بإزالة أسباب شكواهم ، لكنهم ما كادوا يبتعدون حتى جاء مروان بن

(١) [كان محمد بن أبي حذيفة من أقارب عثمان وكان عثمان يتولى أيتام أهل بيته ويحتمل كلهم . أما سبب ثورته على عثمان فعلى ترجع ، بحسب حكاية الطبرى ، إلى أن عمداً بعد أن تولى عثمان الخلافة طلب من عثمان أن يوليّه عملاً ، فلم يجده أهلاً لذلك ، فطلب الخروج طلباً للرزق ، فأذن له عثمان وجهزه من عنده وحملة وأعطاه . فلما وقع محمد بن أبي حذيفة إلى مصر كان ممن تغير على عثمان ، لأنه منعه الولاية — المترجم نقلاً عن الطبرى ج ١ ص ٣٠٢٩ ، فارن أيضاً ص ٣٢٣٥]

(٢) [يشير المؤلف إلى الغزوة المشهورة بغزوة الصواري التي كانت عام ٣١ هـ (الواقدي) أو عام ٣٤ هـ (أبو معشر) ، وكان فيها عبد الله بن سعد بن أبي سرح هو القائد البحري ومعاوية بن أبي سفيان القائد البري . ولما التقى الأسطولان آمن الجيشان بعضهم بعضاً حتى قرتوا بين صواري السفن . وقد انشق محمد بن أبي حذيفة انشقافاً روحياً سياسياً أكثر منه حربياً ، وأخذ يعيب على عثمان بعض ما صنع ، خصوصاً استعمال عبد الله بن سعد ، فنبذه عبد الله . فقاتل وحده — راجع الطبرى ج ١ ص ٢٨٦٧ فما بعدها — المترجم]

الحكم ونفر من بني أمية فجعلوه يرجع عما كان منه . وفي يوم الجمعة التالي خطب في المسجد قائلاً : « إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان قد بلغهم عن إمامهم أمر ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم » . وعند ذلك قامت عاصفة من الغضب عليه من جانب أهل المدينة ، وكانوا يؤلقون جمهور المصلين ، فلم يكتفوا بأن رفعوا أصواتهم معترضين على ما قاله ، بل هم حصبوه حتى صرّع عن المنبر منشياً عليه . واحتل إلى داره ، وكانت هذا آخر ظهور لعثمان في الناس في مسجد المدينة .

ثم أخذ أهل المدينة ^(١) يتجمعون بكثرة أمام دار عثمان ^(٢) ، وكانت إلى جانب المسجد ، ولم يستجيبوا للدعوة من دعاهم إلى التفرق والانصراف . وبعد أيام قلائل وصل المصريون فجأة ، وأحضر وخطاباً من الخليفة إلى عامله بمصر يأمره بقتلهم وصلبهم أو جلدهم وحبسهم ، وأطلعوه عليه فأقسم بالله أنه ما كتبه ولا أملاه ولا أشار به ولا علم به . فقالوا إنهم وجدوه مع غلامه وعلى جملة وهو بخط كتابه وعليه خاتمه ، فأجاب أن كل ذلك بغير علمه وأمره وأن الخط قد يشبه الخط وأن الخاتم يجوز أن ينتقش مثله ، فقالوا : أيجترأ عليك ، فبيعت غلامك على جملتك ويُنقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام ! فإما أن تكون ضعیفاً مغلوباً أو غافلاً لا يصح أن يلي أمور المسلمين ! ثم طلبوا منه أن يعزل ويخلع نفسه . ولكنه رفض ذلك رفضاً حاسماً ، وقال : « لست خالفاً قيصاً »

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، والغالب أن الذين تجمعوا هم والثوار من أهل الأمصار —

الترجم]

(٢) الدار جملة بيوت أو حجرات متصلة ذات باب واحد ، ولا يفرق العرب بين مجموعة

البيوت أو مجموعة الحجرات .

كسانه الله عز وجل»^(١). ومنذ ذلك الحين أصبح عثمان مُحاصراً بالمعنى الحقيقي وكان يحميه في داره غلماناً وحشمه وبعض أقاربه . وخلي أهل المدينة بين المصريين وبين ما أرادوا أن يفعلوا ، ولم يتدخلوا منهم . ولو أنهم أرادوا ذلك لما شق عليهم أن يقضوا على مئات قليلة من الثوار . فأهل المدينة بدأوا بإثارة العاصفة على الخليفة ، وإنما تركوا إنعام الثورة إلى ثوار من غير أهل المدينة ، بل هم ، خصوصاً بعض الأنصار ، ساعدوا الثوار بالفعل . أما كبار الصحابة الذين كانوا يحملوا أكبر الوزر في اندلاع نار الثورة ، وهم علي وطلحة والزبير ، فإنهم لم يبذلوا أى جهد لإخمادها ، وربما كان موقفهم من الخليفة هو أنهم أظهروا أسفهم أنهم لا يستطيعون مساعدته لأن أيديهم مقيدة ، ولكنهم إنما كانوا يظهرون غير

(١) [راجع تفاصيل الفتنة ومقتل عثمان عند الطبري ج ١ خصوصاً ص ٢٩٦ و صحفات كثيرة تالية .

والمؤلف قد اقتضب هنا اقتضاباً كبيراً وأغفل ذكر الدور الذي كان لعبه الله بن سبأ (ابن السوداء) في إثارة الفتنة أولاً وتنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار . ومهما قيل في دور ابن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ ولا يصح إغفاله . وتجد أخبار الفتنة كلها عند الطبري مثلاً ج ١ ص ٢٩٠٧ — ٣٠٥٠ . ولا بد للباحث هنا من نقد الروايات وترتيبها وإبراز مختلف العوامل من دينية واقتصادية ، وعوامل الدس والإفساد من جانب العرب وغير العرب ، وإبراز الدور الذي كان لأهل المدينة ومساعي كبار الصحابة لتهدئة الفتنة وإفساد مهروان بن الحكم وقومه خطط الصحابة . وعلى كل حال فالذي يؤخذ من الروايات في جملتها أن حاشية عثمان من بني أمية استغلت نفوذها باسمه وأنه لم يكن عند عثمان حرس يحميه ، فعرض عليه معاوية أن يذهب معه إلى الشام ، فأبى إيثراً منه للبقاء في المدينة إلى جوار رسول الله صلعم . وأيضاً أبى عثمان أن يتنازل عن الخلافة مخافة النزاع عليها في أثناء فتنة ، مما قد يؤدي إلى حرب أهلية ، وخصوصاً أن هوى كل مصر من الأمصار كان مع أحد الصحابة الكبار . وقد حاول الصحابة أن يتدخلوا فنصحوا عثمان وكان ينصح ، ولكن حاشيته من بني أمية كانت تؤثر عليه حتى مل الصحابة ذلك وقرروا ألا يعودوا إلى الكلام معه . وتدل القرائن على أن الخطابات التي استند إليها الثوار كانت مزورة على عثمان . وأخيراً لما تفاقم الأمر وأوشك القتال أن ينشب أمر عثمان من في داره ألا يدافعوا عنه عافة ازدياد الفتنة ، فاستسلم لأمر الله وقتل . وكأنما كان أمر الفتنة قد تفاقم وأصبح إيقافها مستحيلاً وأصبح التدخل لإيقافها بالقوة أعظم منها شراً ، فلم يتدخل الصحابة وتركوا الحوادث تسير سبيلها إلى النهاية المحتومة ، وكل شيء بقدر — المترجم [

ما يُبطنون ؛ أما الحقيقة فهي أنهم لم يعملوا أبداً على إيقاف سير الحوادث آملين أن تنتهى بالفائدة لهم^(١) .

وجاء التحول الحاسم نحو الشر ، أعنى أول إراقة للدماء ، من قِبَل المدافعين عن الدار ، وذلك أن واحداً منهم رمى حجراً فأصاب رأس أحد الصحابة ، وكان شيخاً كبيراً واقفاً خارج الدار ، بين الجمع المحتشد ، فقتله . ثم امتنع عثمان من تسليم القاتل ، فشمروا محاصروه عند ذلك أن لهم الحق ، بل عليهم الواجب ، ألا يبالوا بكل الاعتبارات ، وشرعوا يقتحمون الدار . وكان يقودهم عبد الرحمن ابن عديس البلوى من أهل مصر ، ملتجئاً بظهره إلى المسجد ، وقد قاتل خلصاءه عثمان دون باب الدار ، بل هم حاولوا ، عند ما أشعل الثوار النار في أبواب الدار أن يصدّوا المهاجمين ، ولكن جماعة من هؤلاء اقتحموا الدار آتين من الدور التي

(١) [لا شك أن في هذا مبالغة كبيرة ، فالنائب من الروايات أنهم لعبوا دوراً جدياً في إزالة الفتنة ، ولكن خططهم لم تنجح . ولو أنهم تدخّلوا بالقوة ، مع علمنا بوجود أسباب حقيقية للشكوى استند إليها الثوار ومع علمنا بأن الثوار من قبائل شتى ، لكان معنى ذلك أنهم يؤيدون الفساد الذي صنّعه حاشية عثمان من جهة وكان معناه الحرب بين العرب على نطاق واسع يشمل الأمصار من جهة أخرى . وقد اندهش بعض الصحابة من قتل عثمان — وهذا ثابت في الروايات — لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يجزىء الثوار على قتله . ويظهر أن القتل كان تطوراً أخيراً أفلت زمامه حتى من يد القاتلين أنفسهم .

وإذا كان للإنسان أن يعجب فله أن يعجب من تأخر معاوية عن نصره عثمان ، مع أنه رأى أوائل الفتنة ومع وجود جنود الشام تحت يده وطوع أمره ومع أنه توقع اشتداد الفتنة حتى لقد أوصى الصحابة بثمان ، ولكن كان معنى هذا وقوع الحرب في المدينة ، في عاصمة دولة لا تزال حديثة العهد .

الواقع أن مقتل عثمان يرجع إلى الدرجة التي بلغها نمو الدولة نفسها ؛ فلم يكن هناك جيش في المدينة ، ولا كان هناك حرس خاص يحمي الخلافة ، ولا كان هناك مجلس يراقب أعمال حاشية الخليفة . ولا يصح أن ينسى المؤرخ أننا في عاصمة دولة دينية تقوم على فكرة أكثر مما تقوم على جيش ، ودستورها فكرة أيضاً . وكانت الفتنة ، إلى حد كبير ، قائمة على فكرة القضاء على فساد حاشية الخليفة ، تمثيلاً مع فكرة العدل ومع ضرورة القضاء على المحسوية . ولأنه لا يستطيع قوة أن تقف في وجه فكرة أكثر من وثوقها أمام سيل جارف . ولم يكن الصحابة يريدون قتل عثمان جرماً وراء فائدة لهم ، بل هم لم يكونوا يتوقعون القتل ولم يريدوا إذكاء الفتنة — المترجم]

حولها ، واندفعوا إلى غرفة الخليفة نفسه ، وكان يصلى ، واضعاً القرآن أمامه ، غير متبال بما كان يجرى خارج الدار . وكان محمد بن أبى بكر ، ابن صديقه وسلفه ، أول من امتدت يده إليه ، ثم اتبعه كنانة بن بشر التعجبي بالضربة القاتلة ، وطعن آخرون الجنة إطفاء لها فى نفرسهم . بعد هذا لم يصبح لمقاومة المدافعين معنى ، واستطاع من بقى منهم أن ينجوا بأنفسهم من غير مشقة . وكان ذلك يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة خات من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يونيو سنة ٦٥٦ م) . وتأخر دفن الخليفة المقتول أياماً ، إلى أن تجاسر على دفنه ، بعد رجاء شديد من جانب أرملة نائلة السكبية ، جماعة من الخالصاء ، ودُفنت الجنة بسرعة بين المغرب والعتمة من غير أن تغسل ، وحملت على باب ، كانت رأس الجنة تفرعه ، ورجعها البعض بالحجارة وتكلموا بكلمات السوء . ودعا الحال إلى دفنها فى موضع كان اليهود يدفنون فيه موتاهم ، بل لم يسمح الأنصارُ بدفنها فى مقابر المسلمين ، وهكذا دفن الخليفة كما يدفن غير فى مزبلة^(١) .

٧ — كان مقتل عثمان حادثاً جاسماً لا يكاد يدانيه فى خطره حادث آخر فى التاريخ الإسلامى . فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل فى أمر رئاسة الحكومة التيوقراطية ، وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبداً انسداداً تاماً^(٢) ، ولم يمكن منذ ذلك الحين المحافظة على وحدة ممثلة فى شخص إمام على رأس الجماعة إلا فى الظاهر على الأكثر ، وبالقوة والقهر . فالحقيقة أن الجماعة قد انشقت

(١) [الواقع أن الطريقة التى تم عليها دفن عثمان لا تليق به . وقد دفن فى مكان يسمى حشر كوكب ، وحمل على عجل مخافة اعتراض السفهاء للنش . وكان ذلك فى الليل على ضوء السرج ، ودفن فى مكان شبه مجهول مخافة أن ينبش قبره . ولما جاء معاوية أزال الحائط الذى كان حول القبر وأمر الناس ، خصوصاً بنى أمية ، بدفن موتاهم حول قبره حتى اتصل بالقبور بمقابر المسلمين — المترجم]

(٢) ولذلك يسمى الخليفة المقتول بالباب المفتوح [ليراجع الفسارى كلمات عثمان التى وجهها لمحاصريه بنذرهم بالفتنة المتصلة والفرقة ، ومى موجودة عند الطبرى فى الموضع الذى أشرنا إليه من قبل — المترجم]

وتفرقت شيعاً وأحزاباً ، كل منها يحاول أن يفرض سلطانه السياسى وأن يلجأ
للسيف تأييداً لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل ، وكانت المشكلة مؤلمة لأهل الديانة
والورع^(١) ، فكانوا بين أن يتراجعوا فيخافوا بما أوجبه الإسلام وشدد فيه من
إعلان الرأى والدفاع عن الحق بالقول والفعل ، وبين أن ينضموا إلى فريق
فيخالفوا أصلاً أساسياً من أصول الحكومة التيوقراطية ، وهو ألا يحارب المؤمنون
إلا الكافرين ، وألا يحارب بعضهم بعضاً ويرى بعضهم دماء بعض . وكانت
الإجابة من سؤال : ما قولكم فى مقتل عثمان ؟ هى التى تكشف عن اختلاف
الناس آرائهم .

أما ثمرة تلك الفعلة المَحْمَلة بالبلاء فقد وقعت فى حजर على . وذلك أن
علياً ، خنن النبي ، كان بعد موت أبى بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف أكبر
الصحابة غير مدافع ، وكانت له مكانة أكبر مما كان لطلحة والزبير ، وكان فى
أثناء حصار الدار هو الذى يصلى بالناس كما أنه هو الذى حج بهم . وكان فى نظر
كافة أهل المدينة ، خصوصاً الأنصار ، هو الخليفة الطبيعى ائتمان ، وكان هوى
المصريين معه أيضاً ، ومن أجله كانوا يعملون لا من أجل غيره ، وكانت كلمتهم ،
فى تلك الساعة المضطربة ، هى الكلمة الفاصلة . وقد تلقى البيعة العامة فى المسجد ،
فى نفس اليوم الذى قتل فيه عثمان ، ولكن كان من الطبيعى أن تعقب الهياج
والاضطراب حركة نكوص . فلهذا النفوس شىء من الانقباض ، ولم يهتل أهل
المدينة للخليفة الجديد الذى تلقى البيعة وسلطان الخلافة من أيدي غير بريئة من
الائم^(٢) . وهم لم يؤيدوه تأييداً قوياً ، وكأنما كان من حسن حظه أن طلحة

(١) ومن أجل ذلك تسمى الحرب الأهلية بالفتنة .

(٢) [جاءت فى الطبرى (ج ١ ص ٣٠٦٦ فا بعدها) أخبار مباينة الناس لعل وماروى
من امتناعه ثم قبله وما قيل فى بيعة طلحة والزبير طوعاً أو على كره منهما . ويظهر أن علياً قد
اضطر إلى قبول الخلافة ، بعد أن كان يرى أن ترك للشورى ، بسبب الموقف ، وهو أنه لو رجعت
الوفود إلى الأمصار بعد الحج من غير أن يكون هناك خليفة لوقع انقسام كبير . ويمجد القارى =

والزبير ، وهما اثنان من الثلاثة الكبار بين الصحابة ، انقلبوا عليه انقلاباً مخزياً ، لأنه بتلقيه البيعة نال دونهما نجاحاً قانونياً . وهما في حياة عثمان لم يألوا جهداً في التأكيد لعثمان . وكان يبدو أن ذلك لأجل علي ، فقد قدماه علي أنفسهم ، لكنهما الآن خرجا عليه خروج المنافسين ، واتهماه بأنه هو الذي دبر مقتل عثمان وأنه هو الذي استفاد منه . فتركا المدينة وانتقلا إلى مكة . وكانت هناك عاتشة أم المؤمنين ، وقد انسحبت من الثورة على عثمان ، بعد أن اشتركت فيها بالفعل اشتراكاً قوياً^(١) ، والنتيجات إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته ، وذلك لاعتلان براءتها من دم عثمان وتستطيع أن تكثف موقفها بحسب ما يؤول إليه أمر الفتنة . على أنها كانت تبغض علياً^(٢) ، فلما سمعت أنه تلقى البيعة لم تتردد في تقديس عثمان ، ونادت إلى الأخذ بالنار له من الخليفة الجديد^(٣) ، وقد التفت حولها عدد من الهزّاب الذين تساقطوا إلى مكة ، اختلف الحكم في أمرهم اختلافاً كبيراً . وانضم إليها طلحة والزبير واستترا وراءها ، وكانوا ثلاثتهم رؤساء وقواد الثورة على علي في جزيرة العرب . ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدأوا محاربته من مكة ، لأنه كان في المدينة ، وكانت المدينة أكثر عدداً من مكة بكثير ، فقرروا أن

= كل ما يتعلق بأحداث خلافة علي عند الطبري ج ١ ص ٣٠٦٦ — ٣٤٧٤ . ونظراً لأن كثيراً من هذه الأحداث معروف مشهور فقد أضربنا عن ذكر بعض النصوص مكثفين بالإشارة الإجمالية إليها . والمؤلف اقتضب في عرضه للحوادث اقتضاباً كبيراً ، ونظر إلى المسألة بمنظار سياسي خالص وأغفل روايات أصحاب الحديث ، ومنها ما جاء عند الطبري ج ١ ص ٣١٦٩ فابعدهما والروايات التي تدل على رغبة كبار الصحابة وعاتشة في الصلح وعلى إفساد قلة عثمان خططهم (الطبري ج ١ ص ٣١٨١ — ٣١٨٦) وعلى الدور الذي قام به السبئية وعلى عامل الإحراج في الحرب — المترجم]

(١) [راجع مثلاً الطبري ج ١ ص ٣٠٩٨ س ٧ — ٩ و ص ٣١١٢ — المترجم]

(٢) [راجع ، خلافاً لهذا ، الطبري ج ١ ص ٣١٢٠ — المترجم]

(٣) [راجع الطبري مثلاً ج ١ ص ٣٠٩٦ فابعدهما : قالت عاتشة في خطبة لها بمكة إن

الذين قتلوا عثمان هم غوغاء أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة وإن «أصبح عثمان خير من طابى الأرض أمثالهم» ، ثم دعت إلى الاجتماع على قتال القلة «حتى ينكس بهم غيرهم ويشرد من بعدهم» ودافعت عن عثمان ودعت إلى الأخذ بثأره — المترجم]

(٤) [الطبري مثلاً ج ١ ص ٣١٠٢ ، ٣١٠٤ — المترجم]

يخرجوا من جزيرة العرب وأن يقصدوا البصرة ، وكان لهم بها صنائع ولأهلها هوى في طلحة ، فاستطاعوا أن يستولوا على البصرة وأن يستقروا فيها . وإزاء ذلك رأى عليٌّ أيضاً أنه لا يستطيع البقاء في المدينة ، فأتبعهم إلى العراق ، وقصد الكوفة أولاً ، وكان مالك الأشتر ، ذلك البجائي صاحب الكلمة النافذة ، قد مهد الأرض هناك . وخرج عليٌّ في أهل الكوفة ، وهاجم أهل البصرة ، فانتصر عليهم على مقربة من مدينتهم ، في موقعة الجبل^(١) (٩ ديسمبر سنة ٦٥٦) ، وهي تسمى بهذا الاسم لأنها كانت تدور رحاها حول الجبل الذي كانت عليه عائشة . فأما طلحة والزبير فقد وقعا قتيلين ، وأما عائشة فإنها بعد هذا الإخفاق انسحبت من على المسرح . ثم صالح أهل البصرة علياً ، وبايع له أهل العراق جميعاً . فأقام هناك وجعل الكوفة مقراً له .

وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هي أن الخلافة القديمة قد انتهت في مدينة الرسول ، وأن الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة . وقضى على قداسة الخلافة ، وصار الحكم في النزاع عليها إلى السيف . ولكن قوة الدولة كانت في الأمصار ، وكانت غالبية القبائل قد هاجرت إلى مدن الميكرات ، وانتقل مركز الثقل في جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها . وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة في ذلك ، لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وخلّوا بينهم وبينها ، يفعلون فيها ما يشاؤون . وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التي كانت شاملة . ويمكن القول إن كبار الصحابة ، بنوع خاص ، قد ارتكبوا انتصاراً سياسياً ، لأنهم هدموا السيادة الأدبية التي كانوا يستندون إليها ، وذلك لأنه إذا كان الأمر أمر القوة المادية ، فإن غيرهم كان أقوى منهم . ومنذ ذلك الحين نزلت جزيرة العرب عن مستواها الذي كان لها قبل الإسلام نزولاً

(١) [الطبري ج ١ ص ٣٢١٨ : كانت موقعة الجبل في جمادى الآخرة سنة ٨٣٦ — المترجم]

كبيراً ، وذلك بسبب هجرة العرب منها على نطاق واسع ، وبسبب ما لحقها من خراب على أثر الهجرة ونجد صدًى للبكاء الأليم على ذلك في القصائد القديمة^(١) فلم تعد المدينة عاصمة الدولة ، وكل الجهود التي بُذلت لاسترداد مجدها المنقود ذهبت سدى ، ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت داراً للتراث الإسلامى الذى صار موضوعاً لمصنفات العلماء ، كما أنها غدت زكناً تنزوى إليه الطبقة الساخطة التى تندحر جانباً والتى كان الفضل فى تكوينها للنبى ؛ فكانت من معزلها هناك تحاول من حين إلى حين أن تصل إلى تحقيق مطامحها : على أن المدينة قد احتفظت بجاذبيتها من حيث أنها وطن لقوم يحبون أن يقيموا أينما شاؤوا ، أو لقوم أخفقوا فى دورهم السياسى ، أو لقوم انسحبوا لأسباب أخرى وهكذا صارت مدينة أهل الصلاح والديانة مدينة الطبقة الغنية من أشرف العرب الذين أرادوا اللهو ، ومدينة التسلية والموسيقى والغناء واللهو والمجون

واستطاع على ، من مقر خلافته فى الكوفة ، أن ينشر سيادته على جزيرة العرب كلها ، عدا الشام وحدها : وقد كان لهذه الولاية مركزاً انفردت به ، لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا إليها مهاجرين كغيرهم . وكان لهم ، إلى جانب ذلك ، تقاليدٌ غير التى كانت لأهل الكوفة والبصرة ، وكانوا منذ زمان طويل واعمين تحت التأثير اليونانى الرومانى ، وكانوا قبل الإسلام تابعين لدولة هى دولة الغسانيين ، ولذلك كانوا متمودين على النظام والطاعة بعض التعمُّد ،

(١) فيشكو البريق بن عياض شاعر المهذلين من أنه بقى وحده شيخاً هرمًا ومعه قليل من الذماء والأطفال فى بلاد كان يعمرها ناس كثيرون ، ويردد ذلك أبو خراش وغيره . ويروى أن فتى جاء إلى عمر يطلب اللعاق بالجيش ، فقال له عمر إن بقاءه براً بالديه خير من الهجرة . وهذا هو ما يتضمنه إنجيل مرقس (الإصحاح السابع ، الفقرة ٧ فابعدهما) [ويجد الفارى شعر البريق هذا فيما نشره المؤلف من شعر المهذلين ، ضمن الجزء الأول من كتابه Skizzen und Vorarbeiten ، براين ١٨٨٤ ، ص ٢١ — ٢٣ من القسم العربى — المترجم]

فلم يثوروا على أميرهم مع أنه كان أمويًا ، وهو معاوية بن أبي سفيان . وكان معاوية قد لبث على ولاية الشام عشرين عامًا ، ورضى عنه الناس جميعًا ، فلم يَبْدُ له عند ذلك أن يخلى المجال ويبايع أمتي ، وكان موقفه إزاء علي يختلف عن موقف طلحة والزبير ، وكان أكثر مواناة له من موقفهما . وهو لم يكن من المستحقين للخلافة ، ولا هو طالب بها ، بل اختط لنفسه في تلك الولاية التي كان يدبر شئونها سياسة خاصة ، فهو لم يعتبر أن ولايته قد انتهت بمقتل عثمان ، وحافظ على منصبه إزاء الثورة . وقد استطاع أن يسجل على رايته الولاء والطاعة للحكومة الشرعية ؛ وذلك خلافاً لأصحاب الفتنة التي لم تزل لها صفة الفتنة ، وإن كان الذين قد أثاروها هم أهل الدين والصلاح باسم الإسلام . وقد كان مما أفاده أنه كان ، بحكم أنه ابن عم الخليفة المقتول ، صاحب الحق في التأثير لقتله ، وأن واجب التأثير يقع على عاتقه . وإنما كان على معاوية هذا الواجب دون غيره من أقارب عثمان ، لأنه كانت لديه دونهم جميعاً الوسائل الكفيلة بالوصول إلى ذلك ؛ فقد كانت له الإمرة في الشام على جيش وطني بالمعنى الحقيقي .

وبعد موقعة الجمل أسرع عليٌّ في أهل العراق قاصداً أهل الشام ، فالتقى بمحيشهم على حدود الفرات . وهناك عند صفين ، وقعت معركة حامية الوطيس ، ومال النصر فيها أخيراً إلى جانب علي . حتى إذا رأى أهل الشام أنهم على وشك الهزيمة ، رفعوا المصاحف على أسنة رماحهم . وفهم أهل العراق المقصود من ذلك : إنكم تريقون دم قوم مسلمين ، هم مثلكم ينضوون تحت راية كلام الله . ولقد كان لهذا أثره في أهل العراق ، وذلك أن القيام لأجل الحق في الحكومة التيقراطية ساقهم إلى قتال عثمان ، ثم محاربة عائشة وأهل البصرة ، وهو الآن يسوقهم إلى محاربة معاوية وأهل الشام ؛ وإذن فالجماعة الإسلامية قد انشقت على نفسها ، فمن الذي منهم على الحق ؟ ولما كان هذا الموقف الملتبس قد تبين لهم ،

في ساعة مضطربة ، على صورته الواضحة ، فإنهم اضطربوا وتحيروا ؛ فكان أهل الدين الموجودون في المقدمة والذين يضربون المثل لغيرهم ، هم أول من خفض السلاح أمام القرآن ، فحذا الآخرون حذوهم ، وأجبروا علياً أيضاً على الكف عن القتال وعلى ألا يحمل تقرير أمر الخلافة لل سيف بل للقرآن ، أى على يد محكمين يصدر عن حكمهم عن القرآن ؛ فلما مانع في ذلك هددوه بأن يكون مصيرهم مصير عثمان . ولكنهم لما خرجوا من صفين ، وكانوا في طريقهم إلى الكوفة ، أدرك جند عليّ كلهم أنهم قد خدعوا عن النصر خدعة نعسة ، وكان أشدهم ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع في شرك الخديعة فأضلوا غيرهم ، واعتبروا أنه قد كان من أكبر الآثم أنهم سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم وأنهم تحيروا حيناً في اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان . ولكنهم ، من جهة أخرى ، لاموا علياً أيضاً ، لأنه قبل التحكيم ، ولأنه بقبوله إياه قد جعل القضية المادلة التي كانوا يحاربون من أجلها موضع شك بالفعل . فطلبوا منه أن يبادر بالرجوع عن الخطوة التي كانوا هم أنفسهم قد أجبروه على أن يخطوها ، وأن ينقض المهادنة التي عقدها مع أهل الشام . فلما لم يكن في استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتأرجح طبقاً للنغمة التي يضربونها ، عند ذلك خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم في حروراء ، فسُموا لذلك بالحرورية . أما الاسم الشامل الذي يطلق عليهم فهو اسم الخوارج .

ولكنهم في هذه المرة لم يأخذوا سواد الناس معهم ، وذلك أن أهل العراق — ويجب أن يكون المفهوم عنه إطلاق هذه التسمية هو أهل الكوفة دائماً وقبل كل شيء — ظلوا في الجملة مواليين لعليّ ، ولكن موقفه بينهم كان مغايراً لموقف معاوية بين أهل الشام ، ولم يكن موالياً له مواتاة مكانة معاوية عند أهل الشام . وذلك أن معاوية لم يصل إلى منصبه صرعاً من أسفل ، بل هو عين من فوق ، من قبل الخليفة ؛ فلم يكن في منصبه مديناً لمن دونه من الرعية ، وكان موقفه منهم

موقف المستغنى غير المحتاج . وكان أهل الشام يطيعونه إذا أسر ، وكانوا أيضاً ، بطبيعة الحال ، مقتنعين بأنه على الحق في محاربه قتل عثمان ، على أنه مهما كانت الظروف فإنهم كانوا ، بلا شك ، جاعلين قضيتهم قضيتهم . وكانوا يعرفونه ويحبلونه منذ سنين طويلة ، وكانوا ، إلى جانب هذا ، قد اعتادوا من قبل شيئاً من النظام الحربى . أما على فقد كان لاصفاً به أن مصدر خلافته يرجع إلى الثورة ، ولم يكن لديه لا الزمن الكافى ولا المقدرة على التغلب على هذا النقص بصفات شخصية ممتازة . ولم ينس له أهل العراق أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه ، وكانوا أبعد عن روح النظام ، أو هم كانوا أكثر تدنياً وورعاً من أن يطيعوا خليفاتهم حيثما يواجههم . ولقد ندموا بعد صفين أشد الندم ، لأنهم أفسدوا عليه سياسته ، ولكنهم لم يريدوا أن يصلحوا ما ارتكبوا من خطئ ، فيؤيدوه إذا استؤنف القتال مع أهل الشام تأييداً قوياً ، بعد أن تبين أن التحكم انتهى بهزلة . فلم يستطع على أن يستنهضهم إلى حرب جديدة ، ولم يطيعوه طاعة الجند ، رغم شدة إلحاحه عليهم في ذلك ، وتركوا معاوية يفتح مصر ويقلق العراق بفرق من جيشه تغير مسرعة حتى تقترب من الكوفة . حتى إذا جمع أهل العراق همهم أخيراً وكانوا على أهبة المسير ، قتل على . وأحسن ابنه وخليفته الحسن أنه أضعف مما يقتضيه منه الموقف ، فباع حقه في الخلافة لمعاوية ، وتمكن معاوية من دخول الكوفة واضطر أهل العراق إلى أن يبايعوه ، وانتهت بذلك الحرب الأهلية .

٨ — وهكذا توصل الأمويون إلى الخلافة ، ولكن أقدامهم لم تكن راسخة إلا في الشام (ومعها الجزيرة ومصر) . أملاً فيما عدا ذلك فكانوا يصطدمون بمعارضة خفية وسافرة ، فلم يستطيعوا أن يحافظوا على سيادتهم إلا بالقوة ، وكان عليهم دائماً أن يعملوا على تفادى الثورة عليهم أو على إخمادها . وكان موطن الثورة عليهم في العراق ، خصوصاً في مدينة الكوفة ، كما كان الحال من قبل .

ولقد هُزم أهل العراق في الحرب مع أهل الشام ، أو هم ، على الأقل ، فقدوا الجولة . وكان من أثر ذلك أن انتقلت الخلافة ، وانتقل معها في الوقت نفسه بيت مال الدولة ، من الكوفة إلى دمشق . وكان لهذا وقعٌ أليم في نفوس أهل العراق ، بعد أن كان قد سبق السيفُ العزل . فقد كانت لهم الدولة ، أما الآن فقد نزل شأنُ بلادهم ، فصارت مصراً من الأمصار ، وخرج من أيديهم ما كانت تدره البلاد التي فتحوها من خيرات ، وأصبح لابد لهم أن يقنعوا بفتات الأعطيات التي تتساقط من مائدة سادتهم . وقد اضطروا إلى الإذعان بسبب حاجتهم إلى الدراهم ، وكانت هذه تنقص بحسب إرادة مانحها ، أو كانت تُنقطع أيضاً . فلا عجب أنهم كانوا يروون في سيادة الشام عليهم نبراً قاسياً ، وأنهم كانوا مستعدين أن يطرحوه إذا بدا لهم أن الفرصة مواتيةٌ لذلك . وكانت أعنف الثورات على الأمويين تأتي من جانب أهل العراق ، لا من فريق معين ، بل من جانب جميع العرب المقيمين هناك ، لأنهم كانوا مجتمعين على الحق بسبب ضياع ما كان لهم من سيادة ، ومجتمعين على البغض لمن غصبهم إياها . فكان لابد للدولة دائماً من عمال ذوي حُكْمَةٍ ممتازة لإلزام تلك الولاية الجاححة حدرد الهدوء والطاعة . على أنه بمضى الزمن أصبح ذلك غير مُستطاع إلا بتنحية الجند المحليين وباجتلاب جنود احتلال من أهل الشام وإقامة سيادة حربية بالمعنى الحقيقي ، لم يكن مقرؤها في العاصمة القديمة للبلاد ، بل في مدينة حصينة جديدة أنشئت لفرض السيادة عليها^(١) .

ثم بدأ أهل العراق يجهلون قضيتهم قضيةَ الإسلام نفسه ، وجندوا الدين ومبدأ الحق والعدل في محاربتهم للقوة الغاشمة ، وهكذا حالفت المعارضة الدين على الدولة الأموية . ومن الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده ، ولا يسوغ له أن يكتفى هو نفسه بالامتناع لإرادة الله ، بل

(١) [يقصد المؤلف إنشاء مدينة واسط على يد الحجاج — المترجم]

يجب عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هي العليا في المجتمع ، فلا محل
للسكوت على الأوضاع الفاسدة ، لأن الدين يلزم الفرد بالتدخل في الحياة العامة ،
وذلك أن الدين يعتبر الفرد مسئولاً عن نصيبه فيما يجب عليه للجماعة . وميدان
النشاط الديني هو السياسة ، وهذا هو معنى الحكومة التيوقراطية^(١) . ومن
جهة أخرى كان في الإمكان أيضاً استخدام الدين من حيث أصوله في تأييد
النظام الذي كان قائماً ، وفي تنبيه الناس إلى ما يجب عليهم من طاعة أولى الأمر
ومن المحافظة على وحدة كلمة الجماعة . ولكن معظم قوة الدين كانت في الواقع ،
في جانب المعارضة ، وكانت مبادئ الحكومة التيوقراطية لا تقرر ضرورة الحكم
التي كانت عليها الجماعة الإسلامية إذ ذاك ، فكانت تلك المبادئ حائلاً دون
ضرورة التسليم بأن التاريخ له من القوة ما يجعل بعض الأوضاع مشروعة ، وبأن
للدولة أن تصغي إلى « عقلمها » الخاص ، وأن تتوخى من الأغراض ما يحفظ من
كيانها ويزيد من قوتها ، وأن الدولة التي كانت قائمة ما كانت تستطيع أن
تتفادى ذلك بسهولة ولكن أحداً ، من جهة أخرى ، لم يذس أبداً للأمويين
أنهم كانوا من أول أمرهم أخطر أعداء النبي [عليه السلام] ، وأنهم لم يعتقدوا
الإسلام إلا في الساعة الأخيرة مكرهين ، وأنهم عرفوا بعد ذلك كيف يحنون
لأنفسهم ثمرة انتصاره وسيادته ، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أولاً ،
ومن طريق المهارة في استغلال مقتله بعد ذلك . وقد كان أصل الأمويين لا يجعلهم
أهلاً لقيادة الأمة الحمديّة ، وكان من السخرية بفكرة الحكومة التيوقراطية أن
يظهر الأمويون ممثليها الأغلين ؛ فهم كانوا مغتصبين ، وظلوا كذلك ، ولم يكونوا

(١) كانت العبرة التي أخذت من فاسد السياسة سبباً في أن ظهر في الإسلام أيضاً اتجاه

شبيه بالاتجاه الإنجيلي ، وهو يريد أن يعتمد عن السياسة باعتبار أنها فتنة ، ولا يثق بمزاعمها
الدينية . وكان لهذا الاتجاه ممثلون بلغوا غاية النبل ، منهم سعيد بن المسيّب في المدينة ، والحسن
البصري في البصرة .

يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة ، إلى قوة أهل الشام . ولكن قوتهم لم تستطع قط أن تصبح حقاً شرعياً . ولقد زاد في البغض للأمويين قِدَمُ الشكوى من « السلطان » وأعماله ، وظلت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة ، باعتبار أنهم أصحاب السلطان في ذلك الزمان ، وكانت موضوعات الشكوى هي : أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس ، وأن أموال الدولة تجري إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها ، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية ، وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذات السادة لا يُعاقبون عليها ، لأن الحدود معطلة^(١) .

وكان لسان حزب أهل الدين والورع الساخطين على الحكومة هم الفقهاء والقراء ، أعني علماء الشريعة وعلماء القرآن . وكان موقفهم من الأمويين شبيهاً تمام الشبه بموقف علماء الكتاب والفاروسيين من اليهود إزاء بيت الحشمونيين . وكان الحق الذي يعارضون به القوة الحاكمة أيضاً حقاً إيجابياً ثابتاً تماماً ومكتوباً ومأثوراً ، وكان موجوداً في القرآن والسنة . وكانوا يستنبطونه بالتأويل من الكتاب ، وكانوا يضمونه في الأحاديث النبوية ، لأنها لم تكن في ذلك الوقت في صورتها الأخيرة الثابتة ، وذلك بأن كانوا يدعون أن الفصل في المسائل السياسية التي لم تكن قد ظهرت إلا فيما بعد قد ورد على لسان النبي [عليه السلام] ، ولم يكن ذلك يخلو بطبيعة الحال من تناقض .

وكان أشد ممثلي المعارضة الدينية تطرفاً وأتقى الأتقياء ، هم الخوارج . فقد أخذ الحق الديني عندهم صورة مبدأ ثوري بالمعنى الكامل ، وكانوا يفخرون بأنهم

(١) الظلم والاستئثار (بالنء) وتعطيل الحدود . وكذلك طواب بأن يُسأل العمال عن أعمالهم ، وأن يعطوا القود من أنفسهم في الظلم الذي يرتكبونه هم في مناصبهم . ولم يستجب الخلفاء إلى هذه الشكاوى ، لأن محاسبتهم لمن كانوا يبعثون بهم من العمال كانت مقصورة على محاسبتهم على أن يحملوا إلى الخلفاء من الأموال أكثر ما يستطيعون .

هم أصحاب الفعلة الثورية الكبرى ، وهي مقتل عثمان . فبينما كان هناك قوم ينجلون من هذه الكائنة بعد أن وقعت ، جعل الخوارج الاعتراف الصريح بها شعاراً لهم . وقد اشتركوا مع بقية أهل العراق في الثورة على معاوية أولاً ، لأنه لم يسلم بأرائهم . ولكنهم كانوا قد عارضوا علياً أيضاً عند ما ساوم وفاوض في حق الله ، وانشقوا عليه لذلك . وهم وإن كانوا قد عملوا على تأييده ، فإنهم لم يريدوا أن يكونوا حزبه بالمعنى الذي كان به أهل الشام حزباً لمعاوية ، لأنهم قالوا إن الدين ليس لمعاوية ولا لعلي ، بل هو الله وحده ، ومن ضحى في أمر من الأمور بمقيدته الدينية السياسية من أجل صاحب الأمر ، أو جعل طاعته مقدمة على طاعة الله ، فقد اتخذ صنما له ، وعُباد الأصنام عباد أصنام وليسوا بمسلمين . فكان الخوارج يرون أنهم وخدمهم هم المسلمون ، ورأوا أن اسم المسلمين لهم وخدمهم . ولذلك أراقوا دماء غيرهم من المسلمين دون تخرج ، ولم يجاهدوا إلا المسلمين ، وإلا المسلمين وخدمهم : أما تهمة تمزيق الجماعة على هذا النحو فلم يروا أنها تصدق في حقهم ، وكانوا ثائرين على مذهب « الجماعة » الفاسد الذي لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الفث من السمين ، وكانوا يرون أنهم وخدمهم ، وهم الخارجون على الدين ، هم « الجماعة » بالمعنى الحق ، وأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكرهم . وقد هاجروا من ديار « الجماعة » المزيقة ، متأسين بهجرة النبي [عليه السلام] . وهم وإن لم يكن من مبادئهم التمسك بأسرة حاكمة ، فإنهم هم أيضاً ، من حيث أنهم تمثلوا الجماعة الموحدة للمؤمنين ، كان لهم خليفتهم أو إمامهم الذي يصلى بهم ويقودهم في الحرب لكنهم كانوا يراقبون حركاته وسكناته ، ويمترضون عليه إذا أخطأ ، في نظرهم ، ويخرجون عليه ويعتبرونه كافراً ، إن لم يرجع عما فعل . ولذلك افترقوا ، فيما يتعلق بمسألة معرفة الإمام الحق ، لا مع سائر المسلمين فحسب ، بل هم سرعان ما انقسموا فيما بينهم أيضاً ، وكان انقسامهم من أجل خلافات في الرأي ليس لها كبير شأن . وقد تطرفوا في الأخذ بمبدأ الحكومة التيوقراطية وجعلوه

مسألة اعتقادية وموضوعاً للنّية المخصّصة ، حتى ذهبوا به إلى المحال ، وحتى صارت فكرتهم عن الدولة ، إن لم تأخذ صورة ملطّنة معقولة ؛ غير صالحة لتكوين جماعة وغير مؤدية إلا إلى الفساد والهدم . وقد وضعوا كل قوتهم في محاولة تحقيق غاية لا يمكن تحقيقها ، فسار بهم تدّئينهم إلى سياسة نشيطة كل النشاط ، ولكنها سياسة يائسة مخالفة تماماً لكل سياسة . وهم لم يجعلوا النجاح غرضاً لهم ، وإنما كانوا يريدون نجاة أرواحهم من شرور الدنيا . وقد قنعوا بطلب الشهادة في ميدان الجهاد ، فباعوا أرواحهم لله في سبيل الجنة . ورغم هذا ، وربما من أجل هذا نفسه ، كانوا يغلبون جيوشاً كبيرة . وقد أربعوا العالم الإسلامي في بعض الأحيان . ورغم أنهم كانوا دائماً يؤثّمون جماعة صغيرة ، فإنه لم يمكن القضاء عليهم ، كأنما كانوا كلما قضى عليهم ينبتون من الأرض نباتاً . وكانت لأرائهم جاذبية متجددة دائماً . أما مقاومة غيرهم للحكومة القائمة فإنها ، مهما لبست ثوب التدبّر والورع ، كانت دائماً مدخولة بأغراض دينوية ، وكانت لذلك تتلون بألوان شتى . وكثيراً ما كان يستغلّها رجال من أهل الطموح والتغلّب ، لا يقصدون سوى الوصول إلى السلطان : وفي وسط اضطراب الحركات والأغراض تملك الخوارج بالمبادئ الأساسية التي رسمها الإسلام ، ولم يحيدوا عنها . وكانوا في جهادهم في سبيل « دولة الله » أشد ما يكون المجاهدون إخلاصاً وأقواهم عزمًا . ولكنهم كانوا في حربهم ، بطبيعة الحال ، أشد ما يكون المحاربون قسوة ، وذلك من أجل وضع خيالي لا يتيسر لبني الإنسان .

وكان الشيعة يختلفون عن الخوارج اختلافاً تاماً ، وإن كان منشؤهم هم أيضاً يرجع إلى النورة على عثمان . وكان الشيعة أشد من الخوارج بغضاً لبني أمية ، لكن بغضهم هذا لبني أمية لم يكن يرجع إلى أنهم كانوا ينكرون أن تكون الحكومة التيوقراطية في أسرة ما ، بل لأنهم أرادوا أن يزِيلوا الأسرة الزائفة ويحلّوا محلّها الأسرة الصحيحة صاحبة الحق الشرعي ، أعني بيت النبي [عليه السلام]

الذي يرأسه بعد وفاته ابن عمه وختنه علي بن أبي طالب . واسم الشيعة اختصار
لعبارة : شيعة علي . وكان شيعة علي ، في أول الأمر ، هم أهل العراق في الجملة ،
وذلك في مقابل أهل الشام ، شيعة معاوية . وقد ظل عليّ عند أهل العراق ، حتى
بعد وفاته ، رمز سيادتهم المفقودة ، ولم يكن تشييعهم يَعدُّو أن يكون تعبيراً عن
شعور العداء لبني أمية من جانب ولاية العراق المغلوبة ، خصوصاً الكوفة ، وهي
العاصمة التي نزلت مكائنها . وكان رؤساء القبائل والعشائر في الكوفة يشاركون
غيرهم هذا الشعور في بآدي الأمر ، ولسكن مركزهم كمستوابين اضطرم إلى الحيلة ،
فلم يشاركوا غيرهم في ثورات لا ينتظر لها النجاح . وكانوا يسكنون زمام سواد
الناس إذا أرادوا الاستجابة لمن يريد أن يستخفهم معه ، ووضعوا نفوذهم باسم
الهدوء والنظام في خدمة الحكومة ، لكيلا يعرّضوا مركزهم للمتعاب ، وبذلك
نفروا من كان من الشيعة أكثر صراحة وأميل إلى العمل الإيجابي وأثاروا
عداوتهم ، هؤلاء الشيعة الذين لم يقلل فشلهم في مظاهرات عاطفية خيالية قاموا
بها من تعلّقهم بآل بيت النبي ، بل زادهم تعلّقاً بهم . على أن معارضة الشيعة
لسيادة الطائفة الأرستقراطية من زعماء القبائل قد زادت من تقاربهم وتشددهم ،
فسلكوا طريقاً غير طريق سائر العرب ، وبذلك ارتفع في الكوفة شأن الحزب
كان ، حتى ذلك الحين ، متوارياً في الظلام ، واتخذ اسم السبئية . وقد غير
هؤلاء السبئية الإسلام من أساسه ، وذلك بأن جعلوا من شخص النبي شيئاً إلى
جانب القانون المستقل عن الأشخاص (كما هو في القرآن والسنة) وفوق هذا القانون
الذي رضى به الناس بعد وفاة النبي ، وكان خصوصاً عند الخوارج هو الحجة التي
لا يكون إلى جانبها أيّ تقديس أو تأليه لأحد من الناس ؛ فذهب السبئية إلى أن
شخص النبي لم يمت بموت محمد [عليه السلام] ، بل هو باق في سلالته واحداً بعد
واحد ، وبنوا مذهبهم على القول بتناسخ الأرواح ، ووجهوه توجيهاً خاصاً ،
فقالوا إن روح الله الذي يسرى في الأنبياء ينتقل بعد موت كل نبي إلى النبي

الذى بعده ، وإن روح محمد [عليه السلام] خاصة انتقل إلى عليّ ، وإنه باقٍ في سلالة . وعلى هذا فإن علياً لم يكن في نظرهم هو الخليفة الشرعي لمن قبله وحسب ، بل كان في مرتبة أعلى من مرتبة أبي بكر وعمر اللذين يزعم الشيعة أنهما دخلا بينه وبين محمد [عليه السلام] واغتصبا حقه ، بل ذهب السبئية إلى أن علياً هو الروح الإلهي المتجسد وأنه وارث النبوة . ولذلك فلا يمكن في زعمهم أن يكون بعد وفاة النبي خليفة غيره في الدولة التيوقراطية ، لأن هذه لا يمكن أن تخلو من ممثل حيّ لله يكون على رأسها^(١) . ويقال إن السبئية سموا بذلك من اسم يهودى يعنى هو عبد الله بن سبأ ، وكانت لهم أوكار في بعض قبائل العرب في الكوفة ، لكنهم بعد ذلك درجوا منها وانتشروا في الكوفة نفسها ، خصوصاً بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام . وإذن فإن انتشارهم إنما كان بين قوم من غير العرب ، وقد صار لهم شأن سياسي على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشاً له ، ثم استمال قدماء الشيعة أيضاً وعمل حيناً من الدهر على اغتنام ما تجدد من فوضى وانقسام ، فأراد أن يسقط الأرسطراطية العربية في الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يُقضى فيها بفضل التشييع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية . ولكن نجاحه كان قصير الأمد ، فتم القضاء على شيعته ، ولكنها توصلت إلى النصر فيما بعد على الطريق الذى شقّه لها .

٩ — ولكن المعارضة الدينية ، أو المعارضة التى لبست ثوب الدين ، ما كانت لتكون لها تلك الخطورة على حكومة الأمويين لولا ما انضاف إليها من تنافس بين القبائل العربية ، وهو تنافس لم يكن له بالحكومة التيوقراطية شأن ، بل عروقه ضاربة في الروح العربية نفسها . وقد زاد هذا التنافس بعد ذلك المالك

(١) وهم وإن كانوا قد جعلوا اسم النبي لمحمد وحده ، فإنهم في الواقع جعلوا وراثته مساوياً له في المرتبة ، واعتبروا أن لهم سلطة إلهية ، وقالوا بأنهم معصومون .

الريش الذي وصل إليه العرب بسبب الفتوحات زيادة تجاوزت كل ما كان معروفاً أيام الجاهلية . وقد زاد عمال الدولة خاصة من حدة هذا التنافس ، لأنه لم يكن تحت تصرفهم مباشرة سوى عدد قليل من الشرطة ، وكان جندهم ، فيما عدا ذلك ، يتكونون من المقاتلة في الولاية ، أى من مقاتلة القبيلة ، وكان العمال يستطيعون ، بالسياسة الماهرة ، أن يضربوا القبائل بعضها ببعض ويجعلوا أنفسهم فوقها . ولكن لم يفلح في هذه السياسة إلا القليلون من الولاة ، وفي أول العصر الأموي خاصة . أما الذي كان يحدث في الغالب فهو أن يستظهر الوالى بقبيلة واحدة على غيرها ، وكان يستظهر خصوصاً بقبيلته هو ، وكان هو الذي يأتى بها معه أحياناً . وعند ذلك كانت قبيلته التى يتخذها عُدَّةً له فى ولايته تشاركه فى الحكم وفى المزايا التى كان يَكْفُلُها التصرف فى المناصب والأموال . ولكن كانت تتولى دفةَ الأمور مع كل عامل جديد قبيلةٌ جديدة ، فكان الأمر ينتهى بأن تقع القبيلة المخلوعة فى العداء المرير للقبيلة الحاكمة . وهكذا سرى السَّمُّ إلى الفوارق والخلافات القبلية من جراء السياسة والنزاع على المغنم السياسية . وأسوأ ما تجلّى ذلك فى ولاية خراسان التى كانت مُلْحَقَةً بالبصرة . فهناك ارتفع شأنُ قيس على يد عبد الله بن خازم ، كما ارتفع شأنُ أزد عمان على يد المهلب ، وحلَّ محلَّ النزاع القديم بين بكر وتميم النزاعُ بين قيس وتميم أولاً ، ثم بين الأزد وقيس ، وأخيراً بين ربيعة وقيس — تميم . أما فى الشام والجزيرة فقد تنوع موقف قيس وكلب من النزاع حول الخلافة ، فأخذوا جانب ابن الزبير حيناً وجانب الأمويين حيناً آخر . وقد اتخذ نزاعهم صورة دامية ، وبقيت العداوة بينهم إلى ما بعد زوال سببها السياسى الأصلى بزمان طويل . ومما زاد فى خطورة النزاع على كل حال ميلُ كان موجوداً عند القبائل إلى تكوين مجموعات كبرى^(١) .

(١) فارن ما تقدم من ٢٤ والصفحات التالية .

وقد لعبت قيس في الشام وفي خراسان دوراً سياسياً كبيراً ، وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكانوا بفضل من ينتمى إليهم من ثقيف يشغلون كثيراً من المناصب العليا ، وكانوا أشد ما تكون القبيلة اتحاداً ، وكانوا أول من كوّن عصبة بالمعنى الحقيقي في جميع أنحاء الدولة . وقد شقوا طريقهم إلى الحكم بأشد الوسائل خزيّاً . وكانت تميم تنتمى أيضاً إلى الجماعة الكبيرة التي كانت تنتمى إليها قيس ، وكانت تميم أكثر ما كانوا عدداً في البصرة وخراسان ، وكانوا يتميزون بشعور قبلي فيه زهوٌ جاء مواتياً لهم ، فلم يكن طموحهم كبيراً إلى تولي المناصب ، وكانوا قلّ ما يتدخلون في السياسة العليا ، ولم يكونوا على وئام مع قيس في مبدأ الأمر ، لكنهم اتحدوا معهم أخيراً وانضموا إلى حزب مُضر الكبير . ومن جهة أخرى كان أزد عمان ، في البصرة وخراسان ، ألدّ أعداء قيس و تميم ، فانضموا إلى بقية اليمنيين الذين كانوا ، في خراسان ، يشتملون فيما يشتملون ، على قبائل ربيعة (بكر) . وفي آخر الأمر دخلت في هذه المجموعة قبائلُ قضاة (كلب) الشاميين ، وقد اعتُبروا يَمِينين ، أما إنهم كانوا كذلك فهو موضع شك : وإنما الذي ألقاهم بين أذرع حزب اليمنيين فهو في الحقيقة عداوتهم لقيس^(١) . وهكذا كان نطاق الإنشقاق والخلاف الخطر لا يزال يتسع^(٢) . ولم يستطع القرشيون والأمويون أن يرتفعوا بأنفسهم عن هذا الانقسام الذي شقّ العالم العربيّ إلى معسكرين .

ودخل الأعاجم في الفرجة التي انفتحت بين المعسكرين ، فدخلوا في الإسلام زرافات ، وخصوصاً تلك الطوائف الكبيرة من أسرى الفرس في

(١) فارن القطاوى (ط . بارت) ص ٢٩ ، ٥٦ ، ٩٣ ، فابعدهما .

(٢) ولكن التحزب لم يكن ثابتاً تماماً ، بل كان يختلف بحسب البواعث العارضة في بعض الأحيان ، فكانت القبيلة تؤكد هذا الوجه أو ذلك من نسبها لكي تثبت ارتباطها بمحاکم قوى يهيمها أن تنال عطفه ، أما الشعراء فأنما كانوا يتزلفون إلى أكبر رأس .

الكوفة والبصرة . ولقد توصلوا بذلك إلى الحرية في أشخاصهم^(١) ، لكنهم لم يصلوا إلى التمتع بالحقوق المدنية للمواطنين ولا بالحقوق الحربية ومزاياها المادية ، فاعتُبروا موالى للقبائل العربية ، ولم تتسع لهم الدولة التيوقراطية إلا على هذه الصورة ، أعنى على صورة التبعية للقبائل العربية . ولم يكن الإسلام وحده كافياً في ضمان المساواة لهم ، ذلك لأن الدولة التيوقراطية الإسلامية كانت في الواقع دولة عربية خالصة ، دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة ، وكان هذا في ذاته مناقضاً لفكرة الحكومة التيوقراطية ، فهي لا ينبغي أن تكون مُلكاً ولا يجوز أن يكون لها مظاهر المُلك . وأشد ما تكون المناقضة إذا ظلت حقوق السادة من العرب قائمة بالنسبة للمسلمين من غير العرب : ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف له وحده بالمُلك كان من شأنه أن يدعو إلى تَبَذُّ كل تمايز بين الأمم من أساسه ، وكان من السهل استخدام مبادئ الإسلام وسيلة لإعطاء الموالى نصيبهم في الدولة التيوقراطية وفي انتزاع حقوقهم من يد العرب ، وكان أهل الديانة والورع من العرب أنفسهم يققون إلى جانب الموالى في مطالبتهم بحقوقهم ، وحاولت أحزاب المعارضة ، بنوع خاص ، أن تجدها فيهم حلفاء على بني أمية ، وكان بنو أمية في الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام^(٢) . وقد سبق

(١) على أن إطلاق الأسرى أحراراً إذا اعتنقوا الإسلام لم يكن واجباً بل عادة حسنة ، ولم يطبق المبدأ القائل بأن المسلم ، بحكم إيمانه بالله وبحكم شريعة الله ، لا يمكن أن يكون عبداً لمسلم . ولكنه كان من البديهي أن يتبع المبدأ دين سيده خصوصاً إذا ولد في بيته .

(٢) [لا شك أن حكومة بني أمية كانت حكومة عربية إلى أكرم حد ، وما كان غير ذلك ممكناً ولا طبيعياً ، لأن العرب هم الذين أقاموا دولتهم ووسعوا رقعتها وأخذوا المكان الطبيعي لهم في رئاسة الدولة وفي إدارتها وفي قيادة جيشها . وكان لا يمكن إعطاء مناصب الرياسة والإدارة للموالى ، على حدائنه عهدهم بالإسلام ومعارضتهم لسيادة العرب ، إلا إذا أريد للدولة الانهيار المبكر . وكان في العرب ألفة واستعلاء لها أصلها ومبررها . فاستبداد العرب في أيام الدولة الأموية كان ضرورة طبيعية وسياسية ، أما القول بأن سيادتهم لم تكن سيادة الإسلام فهو قول مبالغ فيه ولا يصح أن يقال إلا من جهة أنهم لم يسووا بين الموالى وبين أنفسهم . ولكن هل كان « عقل الدولة » يسمح بذلك ؟ لم يكن يسمح ، ولا يصح من أجل هذا أن يقال إن دولة بني أمية لم تكن إلا دولة العروبة ، فقد كانت دولة الإسلام التي يمثلها العرب — المترجم] .

الحوارجُ إلى ذلك ، فقبلوا الموالي في جماعتهم وفي جيشهم ، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب . وقد ترسم الشيعةُ خطى الحوارج في ذلك ونجحوا أكثر منهم بكثير . وقد رأينا كيف أن حزباً شيعياً^(١) اتحد في الكوفة مع من فيها من الموالي ، فاستطاع بذلك أن يرتفع وأن يرفع الأعاجم معه في نفس الوقت . ولكن لم يلبث أن قضى العربُ على هذا الحزب في الكوفة نفسها ، فاختفى في الظلام ، ولكنه انتقل فيما بعد من الكوفة إلى أرض الأعاجم الحقيقية ، إلى خراسان ، وانتشر هناك بين من دخل في الإسلام من سكان تلك البلاد ، وتحت راية الإسلام ، أعنى تحت راية التشيع ، استطاع الخراسانيون أن يطردوا العرب من أرضهم أولاً ، وأن يقضوا بعد ذلك على السيادة العربية جملة ، وأن يحلوا العباسيين محلَّ الأمويين .

١٠ — إن الآراء المألوفة عن الشرق والروح الشرقية تحتاج في الجملة إلى تصحيح كبير . ويجب ، مهما كان الأمر ، ألا يكون لها اعتبارٌ فيما يتعلق بتاريخ الإسلام في طول الفترة التي كان العرب فيها هم الأمة الحاكمة . وإن السياسة ، لا أى شيء آخر ، كالحضارة مثلاً ، هي الموضوع الذي يحتل هنا المكان الأول ويستأثر بالاهتمام . ولم تكن سياسة العرب عبارة عن فكرة الشرقيين عن القدر المحتوم (Fatalism) بادية في ثوب الحكم الاستبدادي المطلق ، بل هي كانت شأنًا مقدساً عند جميع المسلمين ، اشتركوا فيه بأرواحهم وجوارحهم ، وإن كانوا لم يفهموا طبيعة الجماعة الإنسانية وحدودها^(٢) .

وقد تحسنت في هذه السياسة نزعات عامة ، دينية وقومية واجتماعية . ونظراً

(١) [يقصد المؤلف المختار الثقفى وأتباعه — المترجم] .

(٢) [يظهر أن المؤلف يقصد أن العرب لم يفهموا أن أعضاء الجماعة التي تكون الدولة يجب أن يكونوا سواسية بحيث لا تكون هناك طبقات متميزة ، وأن من طبيعة الجماعة السياسية أنها لا تقبل الفوارق والتمايز السياسى — المترجم] .

لنشابك هذه النزعات ، ونظراً لصراعها مع نظام الحكم الذى كان قائماً ، والذى كان يندر أن تُمثله حكوماتٌ طويلة الأجل أو أشخاص أطول عمراً^(١) ، فقد حدث اضطرابٌ كبير ، وكان الاتساع الهائل لمسرح تلك السياسة ، واشتغال ذلك المسرح على أمم وبلاد من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى لا يجعل الإسلام بها والإشراف عليها جميعاً أمراً سهلاً .

وقد بدا لنا أن هذا الفصل التمهيدى ضرورى لإعداد ذهن القارئ وتوجيهه ، حتى يفهم ما يلى ولا يفقد الخيط الذى يهديه ، لكن مقصده أيضاً هو أن ينبّه من قد يخطئ فيعتبر أن الفصول التالية تستوعب تاريخ صدر الإسلام ، وذلك أن هذه الفصول تدور فى جوهرها حول دولة الأمويين ، وحول الصراع الذى قام بين هذه الدولة التى تمثل السيادة العربية وبين القوى التى كانت تعارضها ، وحول سقوط هذه الدولة أمام الثورة التى لم تزل قائمة منذ انتهاء الخلافة فى المدينة . فأمّا تناول الأحزاب والأقاليم بالبحث تناولاً مفصلاً ، كلٌّ منها على حدته ومن زاويته الخاصة ، فهذا ما لم يمكن أن يتسع له المقام هنا ، وإن كان تناول الأحزاب والأقاليم بالبحث ليس قليل الشأن فى فهم أحوال الدولة الإسلامية . وقد جمعتُ رواياتٍ عن ولاية خراسان ، التى لها أهمية خاصة ، وجعلتها داخلة فى أحد فصول الكتاب . أما فيما يتعلق بالخوارج وبالشيعة وكذلك بالحروب مع الروم فى ذلك العصر ، فإنى أنبّه القارئ إلى مقالاتى التى نشرتها ضمن رسائل وأخبار جمعية العلوم فى جوتنجن ، فى القسم الفلسفى التاريخى عام ١٩٠١ .

(١) كان معظم الخلفاء وأمراء الأمصار صفراء ، ولم يمتد بهم الأجل إلى الكبر . أما معاوية ونسرين بن سيار فكانا أشبه بالشيوخ . الشاذ . وكان حكم الخلفاء والأمراء قصيراً أيضاً فى المادة ، وإن كان تغير الأمراء قد كان أكثر من تغير الخلفاء .

الفصل الثاني

على والحرب الأهلية الأولى

١ — حكى المدائني عن أبي مخنف (الأغاني ج ١٥٠ ص ٧١) أن نائلة زوجة الخليفة المقتول عثمان كتبت إلى معاوية وقصت عليه خبر مقتل عثمان وبعثت بقميصه الملطخ بالدم ، وذكرت لمعاوية الآية التاسعة من السورة التاسعة والأربعين [الحجرات]^(١) . أما سيف فهو في روايته التي حفظها لنا الطبري (ج ١ ص ٣٢٥٥) يحكي أن النعمان بن بشير قدم إلى دمشق بقميص عثمان الذي قتل فيه ، مخضباً بدمه و بأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم وشيء من الكف . وإذن فأمر الأصابع شيء جديد ، ولذلك فليست نائلة ، بحسب هذه الحكاية ، هي التي بعثت بالقميص . ويمضي سيف في روايته فيقول : إن معاوية وضع القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد ، وثاب إليه الناس ، وظلَّ القميص يوضع كل يوم على المنبر والأصابع معلقة في أردانه سنة كاملة ؛ ذلك أنه كان بين مقتل عثمان وبين معركة صفين عامٌ كامل . وكان قصد معاوية أن يُثير أهل الشام^(٢) . أما المدائني ،

(١) [هذه هي الآية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ، حتى تفيء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » — المترجم]

(٢) [وقد بلغ معاوية غايته ، وذلك أن رجال أهل الشام بكوا عثمان وآلوا ألا يقربوا النساء حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء ، واتهموا علماً بأنه قتل عثمان واوى قتله ، وصمموا على ألا ينتهوا عنه ، حتى يقتلهم أو يفتلوه — المترجم ، نقل عن الطبري ج ١ ص ٣٢٥٥] .

نقلًا عن عوانه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٤ وما بعدها ؛ قارن الكامل ص ١٨٣
فما بعدها ؛ والدينورى ص ١٦٦ فما بعدها) فهو يقتصر على حكاية أن عليًا وجه
جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، يدعو إلى بيعته ، وأن معاوية أظهر إجماع
أهل الشام على الأخذ بشار عثمان^(١) ، وأنه بذلك أحدث في نفس الرسول الأثر
الذى أراد . وعلى هذا فقد صارت المسألة ، فى الحقيقة ، مجرد مناورة تخلق عليًا
وتضايق نفسه ، فلا يهجم على معاوية . أما الذى يؤخذ من رواية الواقدى
(الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها) فهو أن قوما خرضوا معاوية على علي أكثر
مما حرص معاوية نفسه الناس على علي ، فنجد فى أبيات حفظها لنا الطبرى
(ج ١ ص ٣٢٥٨) أن الوليد بن عقبة ، ابن عم معاوية ، يلوم معاوية على إضاعته
الوقت فى مكاتبة علي ، وعلى قعوده فى دمشق وتوآنيه عن القيام بما يقضى به
واجب القرابة من الثأر لمقتل عثمان . لكن معاوية كان سياسيًا بطبعه ، ولم يكن
متعجلًا ولا متلهفًا على بحاربة أهل العراق ، لأنه كان فى ذلك الوقت مهتدًا من
قبل الروم ، وخصوصًا من قبل أهل مصر الذين كانوا فى جانب علي . ولم يكن
يطمح إلى الخلافة ، وإنما كان غرضه الأول هو ، على الأقل ، أن يحافظ على
ولاية الشام ، وأن يستولى على مصر ، التى كان لا يصح أن يتركها لخصومه ، إن
أراد أن يحمى ظهره^(٢) . وقد دفعه إلى ذلك عمرو بن العاص خاصة ، وكان عمرو

(١) [لا نجد هنا إثارة معاوية لمشكلة مقتل عثمان ، بل نحن نجدها فى مناسبة أخرى
— راجع الطبرى ج ١ ص ٣٢٧١ وص ٣٢٧٥ — ٣٢٧٦ — المترجم] .

(٢) [وأيضًا لعظم خراج مصر وقيمتها فى تقوية شأن من يظهر عليها — راجع الطبرى
ج ١ ص ٣٣٩٦ ، ٣٤٠٩ . وكان قيس بن عبد الله بن معاوية يخشى أن يقبل عليه على فى أهل
حازما ناجحًا ، فكان أثقل خلق الله على معاوية . وكان معاوية يخشى أن يقبل عليه على فى أهل
الكوفة وأن يقبل قيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية ، الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٨ —
المترجم] .

قد اشترك في الثورة على عثمان^(١) ، وأراد أن يتخذ من ذلك وسيلة إلى استعادة ولايته القديمة مصر . وبعد مقتل الخليفة المُسَيَّن حالف عمرو معاوية على قتال علي حلفاً أشبه ما يكون بالتحالف بين الصبية الأشقياء^(٢) ، وذلك لكي يبلغ غرضه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٣ فما بعدها ، قارن الدينورى ص ١٦٧ وما بعدها) . فتوجّه معاوية وعمرو قاصدين مصر أولاً ، ونجحوا في استدراج محمد بن أبي حذيفة والى مصر من قبل عليّ ، حتى أخذه أسيراً (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها و ص ٣٤٠٧ فما بعدها) ، ولكنهما اضطرا إلى الرجوع لكي يتوجّها إلى قتال عليّ نفسه . وكان عليّ هو المهاجم ، وكان يعتبر نفسه صاحب الحق في الخلافة^(٣) وفي رئاسة جميع المسلمين ، فبعد أن استوثق من العراق واستكمل عدته خرج آخر عام ٣٦ هـ . (أوائل صيف ٦٥٧ م .) من معسكره في النخيلة^(٤) ، قرب الكوفة ، حيث كان يوجد عدد من أهل البصرة أيضاً ، وسار متجهاً إلى الغرب . وكان معاوية وعمرو ينتظرانه على حدود الشام في سهل صفين على الفرات ، غير بعيد من الرقة^(٥) .

(١) [راجع إلى جانب ما تقدم ذكره من تحريض عمرو بن العاص على عثمان ، الطبرى ج ١ ص ٣٤٠١ — المترجم] .

(٢) [حالفه على أن تكون لعمرو ولاية مصر طعمة مابق — الطبرى ج ١ ص ٣٣٩٧ — المترجم] .

(٣) [راجع كلامه عند الطبرى ج ١ ص ٣١١٠ ، ٣٢٧٨ — ٣٢٧٩ — المترجم] .

(٤) إلى الغرب أو إلى الشمال من الكوفة على الطريق إلى الشام (الطبرى ج ١ ص ٣٣٤٥) . وكانت تقع هناك أيضاً بويب ، وتسمى موقعة بويب أيضاً موقعة النخيلة .

(٥) بين Barbalissus و Caesarium (تيوفانيس في أخبار حوادث سنة ٦١٤٨ من تاريخ الحليقة) و Barbalissus هي Balis (= بالى البلاذرى ص ١٥٠ فما بعدها ، Assem. B.O. 2, 332) . واسم Sapplin مذكور عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٥١ ، وفي النقوش الشامية في حنث (Journ. As. 1900 II, 285ss.) في عهد السلوقيين (Sel. 968) يسمى Sapphe أو Sepphe في stat. emph. ، وكذلك عند العالم الكوسموجرافى الرافنى ، حيث نجد أن Sephe و Barbalission يذكران معاً .

ولا نكاد نجد من أخبار موقعة صفين عند الطبرى إلا ما يذكره أبو مخنف :
 سلك على مع جملة جيشه الطريق الحربى العادى مع نهر الدجلة ، ثم اخترق أرض
 الجزيرة ، وعند قرقيسيا لحقت به مقدمة جيشه التى كان عليها أن تسير مع
 الشاطىء الأيمن للفرات . وبعد أن عبر على الفرات عند الرقة التقت مقدمة جيشه
 بطلائع جيش الشام عند سور الروم . وانصرفت طلائع جيش الشام قبل التقاء
 السيوف . فلما طلب على موضعاً لمسكره تبين أن أهل الشام أخذوا عليهم الطريق
 إلى الماء ، أى الفرات . ولما لم يستجب أهل الشام إلى أن يخلوا بين جيش على
 وبين الماء بالحسنى ، قاتلهم جيش على حتى غلبهم على الماء وأراد منهم منه ،
 لولا تدخل على ومنعه من ذلك بعد أن انتصر جيشه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٩ —
 ٣٢٧١) . وعسكر الجيشان أحدهما أمام الآخر شهرين كاملين ، ذى الحجة سنة
 ٣٦ هـ والمحرم سنة ٣٧ هـ [لم يكن بينهما من قتال إلا مناوشات كثيرة فى
 ذى الحجة ، أما المحرم فتوابع فيه الجيشان طمعاً فى الصالح] . وأخيراً بدأ القتال
 على أوسع نطاق يوم الأربعاء ٨ صفر سنة ٣٧ هـ^(١) ، واستمر صباح الخميس كأشد
 ما يكون القتال ، وكان أهل الشام أحسن عدة ، وكان مظهرهم أكثر تضامناً من
 أهل العراق (الطبرى ج ١ ص ٣٣٢٢) ، وانكشف يَمَنُ الكوفة أمام أهل الشام ،
 وكانوا على ميمنة على ، وذلك رغم استماتة قرائتهم ، ولكن لما اقترب المساء أوقفهم
 مالك الأشتر ، ثم أخذ يردهم خطوة خطوة على أعقابهم ، وظل يكشفهم ، حتى
 ألحقهم بالصفوف المحيطة بمعاوية^(٢) ، وانتهى بهم إلى عسكرهم ، ودام القتال
 طول الليل حتى ارتفع الضحى ، وكانت هذه هى ليلة الحرير الحقيقية ، ليلية

(١) الأربعاء ٢٦ يولييه سنة ٦٥٧ . — ١٢٨ — ١٢١٠ هـ — ٦٦٨ من
 حكم السلوقين ؛ فارتد الهامش المتقدم .

(٢) [كان من أهل الشام قوم بايعوا معاوية على الموت فقتلوا أنفسهم بالعمائم وألقوا
 صفوفاً كثيرة أحاطت بمعاوية — الطبرى ج ١ ص ٣٢٨٣ ، ٣٣٠٠ — المترجم]

نهاوند^(١) . وفكر معاوية في الفرار منهزماً ، ولاح النصر للأشتر ، وعند ذلك اضطر أن يترك النصر يضيع من يده وأن يغمد السيف ، بعد أمر متكرر من عليّ . وذلك أن أهل الشام رفعوا المصاحف على أسنة رماحهم ، لكي يخرجوا من الاحتكام إلى السيف الذي أوشك أن ينتهي إلى غير مصلحتهم ويلجأوا إلى حكم كلام الله . وقيل أهل العراق أن يُخدعوا ، وأكروهوا علياً على الكف عن القتال وعلى أن يفاوض معاوية ، وهذّوه بالقتل إن لم يقبل ذلك . واختير ، بناء على اقتراح معاوية ، حكمان ليحكم بحسب القرآن في مسألة من له الخلافة . واختير عمرو بن العاص نائباً عن أهل الشام ، وأبو موسى الأشعري نائباً عن أهل العراق . وتقرر أن يصدر الحكم في رمضان التالي ، في مكان واقع بين الشام والعراق .

وحكاية أبي مخنف لموقعة صفين طويلة جداً في الحقيقة ، وهي من طراز أخبار مواقع القادسية ونهاوند . ويحتل الكلام عن مقدمات المعركة ، قبل بدء الالتحام الحقيقي ، فراغاً كبيراً . على أن المحرم ، على كل حال ، يبقى خالياً من القتال ، ولا يذكر قتال إلا في الشهر الذي قبله والشهر الذي بعده ، وذلك على نحو واحد : فيحكي أولاً أنه بدأت مفاوضات للصلح ، وأنه بدأت بعد ذلك ، عند فشل المفاوضات ، مبارزات فردية ، كان فيها مناسبة لإظهار الأنصار البارزين لكل من معاوية وعليّ . أما أن أسماء الأشخاص الذين قاموا بذلك تختلف في هذه الرواية ، فإن ذلك لا يغير من مادة الحكاية . ويميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن ماجرى أولاً في شهر ذي الحجة هو في الحقيقة ماجرى في شهر صفر ، وهو غير

(٣) الطبري ج ١ ص ٣٣٢٧ ، الكامل ص ٧٥٣ ، ويجب أن يكون ذلك ليلة الجمعة ؛ ولكن الطبري يذكر أن ليلة موقعة صفين كانت ليلة الخميس ، وكذلك في رواية لأبي مخنف . فإرن كتاب أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٣ .

منفصل عن المعركة الحقيقية طُولَ شهر المحرم^(١) . وعلى هذا تكون فترة الانتظار قبل الموقعة أقصر كثيراً مما يُروى . ولا يصح ، بطبيعة الحال ، أن يكون هناك شك في أن كلاً من الفريقين كان مشفقاً من حسم النزاع بحد السيف (الدينورى ص ١٩ س ١٩٥ ، ٥ س ١٩٥ ، ٩ س ٢٠١ ، ١٥ س) ولم يكن أحد يتعجل البدء في الحرب ، وربما كان للتخوف الموروث قديماً من إراقة الدم في شهر المحرم شىء من التأثير في عدم الإسراع إلى القتال ، وإلى ذلك يشير بيت مذكور عند الدينورى ص ١٨٢ والمسعودى ج ٤ ص ٣٥٠ ، وهو :

فما دون المنايا غير سَبْعٍ بقين من المُحَرَّم أو ثمانٍ

ونحن لا نظفر ، فيما يتعلق بسير المعركة الحقيقية ، بصورة واضحة . ففي وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان في محراها . نعم ، نحن نجد في كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجند وترتيبهم وقيادتهم ، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها ، ولا تكاد تكون لها ، من أجل ذلك ، أية قيمة عملية فيما يتعلق بمجرى القتال الحقيقي . ويتكون وصف هذا القتال من مجرد روايات متفرقة لحوادث عرضية ، وهى روايات لا تبين إلا ناحية واحدة ، ولا ينجح الكاتب في محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء ، فوصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء ، كأنما يتبين الإنسان أشجاراً متفرقة من بعيد ولا يتبين أنها فى الحقيقة غابة . وكل من شهد المعركة يميل إلى أن يعتبر أن المكان الذى كانت فيه قبيلته هو النقطة المركزية ، وإلى أن يجعل الفضل كله

(١) لا يذكر الدينورى أمر المبارزات الفردية إلا مرة واحدة ، وهو يجعلها فى المحل الثانى ، بحيث تصبح مقدمة للاشتباك . وهو بالإجمال يذكر كل شىء ، خصوصاً التفاصيل الصغيرة ، أدق مما نجده عند أبى مخنف ، فيقول إن أول مصحف رفعه أهل الشام كان مصحف دمشق الأعظم ، فربط على خمسة أرماع يحملها خمسة رجال . فروايته شبيهة برواية سيف ، وهو يتفق معه فى الرواية . والأبيات التى يذكرها الدينورى قيمة جداً على كل حال .

لأبطال قبيلته ؛ ونهاية المعركة هي وحدها هي التي تبين بوضوح أن مالكا
الأشتر كان البطل الحقيقي في ذلك اليوم . لكن لا يصفه بأنه كان كذلك وصفاً
واضحاً إلا النجاشي الشاعر في أبيات له (الدينوري ١٩٨) ، وقد اشترك النجاشي
بنفسه في المعركة ، فهو يقول :

رَأَيْتُ اللَّـهَ كَظَلِّ الْعُقَابِ يَقْحَمُهُ الشَّامِيُّ الْأَخْزَرُ
دَعَوْنَاهُ الْكَبْشَ ، كَبْشَ الْعِرَاقِ ، وَقَدْ خَالَطَ الْمُسْكَرَ الْعُسْكَرُ .
فَرَدَّ اللَّـهَ عَلَى عَقْبِهِ وَقَارَ بِحُظْوَتِهَا الْأَشْـتَرُ
أما فيما عدا ذلك فهو لا يزيد على كثيرين غيره ممن ذُكرت أعمالهم الجيدة
بتفصيل لا يقل عن تفصيل أعماله^(١) . وإذا صرفنا النظر عن قواد المعركة وجدنا
من الأبطال الذين برزوا في القتال علي بن أبي طالب نفسه وابن عمه عبد الله
ابن عباس . ويوصف قتالُ القرَاءِ وَتَبَاتُهُمْ ، عند فرار غيرهم أمام جند الشام ،
كما يُذكر أنهم اقتصحوا الموت من أجل علي ، فهم بدمائهم شهودٌ له ، وهم أقوى
دليل على أنه على حق ؛ ويذكر من قادتهم عبد الله بن بديل بن ورقاء وهاشم
ابن عتبة وخصوصاً عمار بن ياسر الصحابي المسنّ الذي يروي أن النبي عليه السلام
قال فيه إنه سَتَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ (ابن هشام ص ٣٣٧) . وبذلك يصبح الأشتر في
مكان أقل بروزاً ؛ والمتأخرون لا يميلون إليه ، وربما كان ذلك لأنهم ، مثل
سيف ، كانوا يعتبرونه ثائراً . ولا يريد المسعودي واليعقوبي أن يذكرنا من
أمره شيئاً ، وهما يجملان كل الفضل لكفاءة علي في القيادة . والطبري أيضاً يفعل

(١) ومنهم أيضاً من يظهر أنهم لم يكونوا قط حاضرين مثل قيس بن سعد بن عباد ،
فان ما يلي قسم ٣ . أما ما ينسب إلى أبي الدرداء الصحابي الورع فقد اخترعه الدينوري (ص
١٨١) [يحكي الدينوري أن أبا الدرداء حضر صفين وتدخل في سبيل الوصول إلى حل
للنزاع بين علي ومعاوية ، فلم يوفق ، فانسحب ولحقه وأبوأمامه ببعض السواحل — المترجم] .

ذلك (ج ١ ص ٣٣٢١ فما بعدها) . أما أبو مخنف فهو لا يذهب إلى هذا الحد ، بل هو يصف ، بإعجاب كبير ، ذلك المظهر الحربى الرائع للبطل اليمنى (الطبرى ج ١ ص ٣٢٩٧) ، ووصفه يُشعر بأن البطل قد أقام الدليل على ما كان لشخصه من شأن . فكان لا يقف حيث يضعه على ، بل على رأس قبيلته ، نخع ، وقد جعله إقدامه واستباقه العدو على نحو مفاجئ قائداً لهُمدان ومذحج معاً ، واستطاع بهم أن ينتزع النصر من يد أهل الشام . وكان هو وحده أيضاً الرجل الحكيم ، عند ما قبل الآخرون أن يُخدعوا وأن يؤخذ منهم النصر ، فكان عربياً نبيلاً بإزاء أهل الورع القصيرى النظر ، وإزاء أهل التراخى أو المكر من الساسة .

ولم تصل إلينا حكاية للمعركة من الجانب الشامى ، فلمها كانت تختلف عن حكاية أبي مخنف ، وإن كان يبعد أن تكون أجدر بالثقة من رواية أبي مخنف ، كما يؤخذ من حكاية تيوفانيس ، فهو يقول (فى أخبار سنة ٦١٤٨) : « إن من كان مع معاوية تغلبوا ، واستولوا على الماء ، ومن كان مع على تركوا القتال وفرتوا بسبب العطش . على أن معاوية لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه أحرز النصر بدون مشقة » . ومن البين بنفسه أن أبا مخنف يتحيز إلى أهل العراق وحزب على أهل الشام ومعاوية ، فعلى فى نظره هو صاحب الحق وأنصاره هم أهل الديانة ؛ أما حكاية أن أخاه عقيل بن أبى طالب كان يحارب فى صفوف العدو^(١) فلا يذكرها أبو مخنف ، على حين يذكر أنه كان فى جانب أهل الشام أبناء أبى بكر وعمر ، إلى جانب أربعة آلاف من القرءاء ، ومعنى هذا أن القرءاء لم يكونوا فى جانب على وحده ، كما يذكر أن أهل الشام كانت ضمايرهم مطمئنة كأهل العراق ، فلم يكن هؤلاء جميعاً مقتنعين بحق على اقتناعاً راسخاً ، وكانوا يطلبون الأدلة ، وكانوا يتجادلون فيما بينهم ويجادلون خصومهم مجادلات استمرت

(١) البخارى طبعة بولاق ١٢٨٩ ج ٢ ص ٦٧ فما بعدها و ص ١٣٩ و ١٤٥ و ج ٣

ص ١١ ، راجع أيضاً مجلة : Deutsche Morgenl. Zeitschr. (DMZ) 1884, 83.

إلى ما بعد صفين بزمان طويل ، بل هي وصلت إلى الدار الآخرة^(١) . ولم يكونوا متحمسين للقتال مع إخوانهم في الدين وفي النسب ، وقد سرّهم وقف القتال . فكانت الخصومة بين الحزبين لينة في أول الأمر ، وإنما اشتدت مع تطور الحوادث^(٢) .

٢ — وفيما يتعلق بمجرى الحوادث بعد ذلك يحكى لنا أبو مخنف : رجع أهل العراق إلى أنفسهم ، وهم في طريق العودة من أقرب طريق على الشاطئ الأيمن من الفرات ، ولام بعضهم بعضاً ولاموا علياً أيضاً ، وإن كان لم يوقف المعركة إلا مضطراً . ولما دخل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل ، وعسكروا في حروراء ، فسموا الخوارج أو الحرورية^(٣) ، وكان شعارهم عبارة احتجاج على التحكيم ، وقالوا : لا حكم إلا لله . وكان رؤساؤهم شيبث بن ربعي الرياحي وعبد الله بن الكواء اليشكري ويزيد بن قيس الأرحبي ، وهم أكبر رجال قبائل تميم وبكر وهمدان الكبيرة في الكوفة . وقد نجح علي في أن يعيد هؤلاء الرؤساء إلى جانبه ، وقد وعد أحدهم بولاية إصفهان والري وأعطاه إياها . ثم عاد

(١) تراءى لملقمة النخعي أخوه الذي قتل في صفين في المنام وقال له : إن قتلى أهل العراق وأهل الشام تنازعوا بعد قتلهم أيهم كان على الحق وأن الله أحق أهل العراق . وتحير رجلان في المشكلة ، فأحالها حذيفة المدائني إلى ما يحكى عن النبي من أن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية . أما فيما يتعلق باطمئنان ضمائر أهل الشام فتجد شاهداً من أشعار كعب بن جعيل وغيره من الشعراء عند الدينوري ص ١٩١ فابعدهما ص ٢٠٦ [لا يشير المؤلف إلى المراجع التي اعتمد عليها في كلامه في أول هذا الهامش — المترجم] .

(٢) [راجع موقف أهل العراق من علي وخروجهم عليه وما كان من مناقشات بينه وبين الخوارج وقلة رغبة أتباعه في الحرب معه وعدم استجابتهم له وتدخلهم في سرية المكاتبات في أيام التحكيم ونحو ذلك في مواضع كثيرة عند الطبري في حوادث سني خلافة علي ؛ خصوصاً ج ١ ص ٣٣٢٣ ، ٣٣٥٠ — ٣٣٥٤ ، ٣٣٨٧ — ٣٣٨٨ ، ٣٤٠٩ ، ٣٤١١ — ٣٤١٢ ، ٣٤١٩ وغير ذلك من المواضع — المترجم] .

(٣) قارن فيما يتعلق بأحزاب المعارضة السياسية — الدينية في صدر الإسلام: Abh. der

الحرورية إلى الكوفة وانضموا إليه ، لكنهم انتظروا ، وزعموا أنه وعدم أن يقودهم ، دون إبطاء ، إلى محاربة أهل الشام ، فلما لم يفعل ذلك ، بل بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة في دومة الجندل في رمضان عام ٣٧ هـ ، اعتبروا ذلك خلفاً منه للوعد ، فخرجوا عليه من جديد وعينوا منهم خليفة عليهم استقلوا به عن علي ، هو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ، وبايعوه في اليوم العاشر من شوال عام ٣٧ هـ . (٢١ مارس سنة ٦٥٨ م .) ، ثم خرجوا من الكوفة وحداناً ، مُتَخَفِينَ واجتمعوا في النهروان على الجانب الآخر من دجلة^(١) ، وهناك أيضاً عرضوا على خوارج في البصرة — وكانوا خمسمائة رجل — أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكي التميمي .

وبعد أن انتهى التحكيم كما تنتهي المهزلة ، شعر علي أن له الحق في أن يستأنف القتال مع أهل الشام ، فجمع جيشه في معسكر النخيلة ، ودعا الخوارج أيضاً للانضمام إليه ، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ويستقبل التوبة — وهذا هو تصورهم لاستجابته مرغماً لقبول التحكيم في صفين — فأراد علي عند ذلك أن يدفعهم ويمضي إلى قتال أهل الشام ، ولكن جيشه ألح عليه في أن يقاتل الخوارج ، لأن خوارج البصرة ، وهم في طريقهم إلى النهروان ، قتلوا عبد الله بن خباب بن الارت ، ابن أحد السابقين الأولين من الصحابة (ابن هشام ص ٢٣٤) ، وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها [وقتلوا آخرين واعترضوا الناس] . فاضطر علي أن يستجيب لإلحاحهم ، وحاول ، عبثاً ، أن يقنع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة ، كما حاول هو [ورجاله] عبثاً أن يبين لهم أنه وإياهم في الحقيقة غير مختلفين ، وأنه إنما يريد أن يجعل السيف

(١) النهروان (Naqbas) اسم للنهر المعروف في بلاد جوخي^١ من أعمال المدائن (الطبري ج ٢ ص ٩٠٠) ، وهو أيضاً اسم لمكان يسمى باسم أدق هو : جسر النهروان (الدينوري ٢١٧ . وفيما يتعلق بأرض جوخي انظر الطبري ج ٣ ص ٢٧٥ و ٣٨٥ و ٤٠٦ .

حكماً بينه وبين أهل الشام أعدائه وأعدائهم ، فأجابوهم : لو بايعناكم اليوم
حكمتُم غداً ، يقصدون أن علياً وشيعته سيفعلون ما فعلوه في صفين من قبول
التحكيم ؛ ولم يقبلوا أى شيء ، وتهيئوا للقتال ، فتنادوا : الرواح الرواح
إلى الجنة !

ويقول أبو مخنف إن موقعة النهروان كانت عام ٣٧ هـ ، قرب آخر هذا
العام ، لأن الخوارج لم يخرجوا من الكوفة إلا في شوال ، أى في الشهر العاشر .
وقد تركهم قوادهم الذين كانوا في حروراء ، واشترك شبت في محاربتهم حرباً
شديدة ، وكذلك فعل الأشعث الذي كان أول الأمر على مذهبهم . وهم أيضاً
لم يكونوا بالكثرة التي كانوا عليها في حروراء ، فلم يزد عددهم على أربعة آلاف ،
ومن هؤلاء رجعت طائفة متفرقين ، فنزلت الكوفة ، وانتقل منهم نحو من
ماية رجل إلى جانب عليّ علانية ، وانحاز خمسمائة فارس على رأسهم فروة بن
نوفل إلى الدسكرة ، وقُتل الباقون حتى لم يبق منهم إلا ثمانية أشخاص .

على أنه بعد القضاء على الخوارج اعتقد أهل الكوفة أنهم قد فعلوا ما فيه
الكفاية ، ولم يبق لهم أى ميل إلى محاربة أهل الشام . واضطر عليّ إلى الإذعان
للواقع . ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى النهوض لإخضاع ثوار آخرين تعالوا
أيضاً بمسألة التحكيم ، لكن على نحو مغاير تماماً لما عند الخوارج . وكان
الحرّيت بن راشد ، من قبيلة ناجية ، قد تبع علياً إلى الكوفة بعد موقعة الجمل ومعه
ثلاثمائة رجل ، وحارب مع عليّ في صفين والنهروان أيضاً . فلما لم يعترف عليّ
بحكم المحكمين جاهره الحرّيت بالخروج والعداء ، واتجه ومعه أصحابه إلى الأهواز
من طريق المذار ، وتلاحق بهم قوم من أصحابهم ، كانوا معهم في الكوفة ،
وانضم إليهم طائفة من العرب يرون رأيهم ، واجتمع إليهم علوج وأكراد من أهل
الأهواز ، لم يريدوا أن يدفعوا الخراج . وبعد أن هزمهم جيش كوفي تحت قيادة

معقل بن قيس النخعي عند رامهرمز ، رجع الخريّيت إلى بلاده في البحرين ، وأخذ يؤأب قومه من بني ناجية ، وكانوا قد امتنعوا منذ عام ٣٧ هـ من دفع الصدقة (الزكاة) ، بل هو أخذ أيضاً يفسد قبائل عبد القيس [ومن والاهم من سائر العرب] ويؤأبهم على علي . وكان يقول لكل صنف من الناس ما يرضيهم ويُسِرُّ إليهم أنه على رأيهم ؛ فكان إذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم وأنحي على علي لأنه حكم الرجال في أمر الله ؛ وإذا تكلم مع الآخرين أظهر لهم رأيه الذي كان رآه حين خرج من الكوفة ، وهو أن علياً ما كان ينبغي له أن يرفض حكم المحكمين بعد أن رضى بالتحكيم واختار نائباً عنه ؛ وإذا تكلم مع من امتنع من دفع الصدقة قال لهم : شُدُّوا أيديكم على صدقاتكم ، وزاد على ذلك بأن أوصاهم أن يصلوا بها أرحامهم وأن يعودوا بها على فقرائهم ولا يعطوها إلى بيت المال . وكذلك استطاع أن يضم إليه نصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا إلى النصرانية لما رأوا الخلاف بين أفراد الأمة الحمدية وسفكهم الدماء ، وذلك بأن نبههم إلى أنهم ليس لهم أن ينتظروا من علي عقاباً على ارتدادهم عن الإسلام إلا أن يضرب أعناقهم . واسكن معقل بن قيس ، بعد أن طرده من الأهواز ، لم يدَّعه يشب سلطاناً في البحرين ، فلاحقه وقائله ؛ وصمدت قبائل بني ناجية ، فصدَّت ثلاث مرات هجوم جيش يزيد عليها في العدد ، حتى إذا قتل الخريّيت ومعه مائة وسبعون رجلاً ، تفرق الباقون وانتهت المعركة (١) .

هذا ما يحكيه أبو مخنف كما يذكر الطبري (ج ١ ص ٣٣٤٥ — ٣٣٨٦ ، ٣٤١٨ — ٣٤٤٣) (٢) . ولا سبيل إلى تصحيح روايته بالرجوع إلى اليعقوبي

(١) [نجد ما كان من الحرب وكيف انتهى أمره عند الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ — ٣٤٤٣ وقد راعينا الأصل العربي بقدر الإمكان — المترجم] .

(٢) في مخطوط الطبري فجوة ، وقد ملئت في طبعة ليدن (ص ٣٣٦٤ — ٣٣٦٨) بالاستعانة بابن الأثير .

أو الكامل أو الدينوري ؛ ولكنها ليست ، بأى حال ، بريئة من المطاعن ، خصوصاً فيما يتعلق بترتيب التواريخ ، فهو بعد أن يقول إن الخوارج لم ينتخبوا لهم خليفة ولم يخرجوا إلى النهروان إلا بعد شهر من التحكيم ، يؤخذ من كلامه ، بعد ذلك ، أنهم كانوا هناك عندما علم على بحكم المحكمين وبدأ يجمع جيشه في النخيلة لمحاربة أهل الشام : ومعنى هذا أنهم لابد أن يكونوا قد خرجوا من الكوفة قبل التحكيم . وإذا كان الخريت قد حارب مع على في النهروان ثم انشق عليه بسبب رفضه الإذعان لحكم المحكمين ، فلا بد أن تكون موقعة النهروان نفسها قد وقعت قبل التحكيم^(١) . على أنه نظراً لهذا الخلاف في ترتيب الحوادث نزعزع كل شهادة أبي مخنف ودقته في وصف الواقع كما كان ، وذلك أن علياً ما كان يستطيع التفكير في محاربة أهل الشام إلا بعد صدور حكم المحكمين . فإذا كانت موقعة النهروان قد وقعت قبل ذلك ، فلا يمكن أن يكون تجمع الجند في النخيلة مقصوداً به أهل الشام ، بل مقصوداً به الخوارج . وإذن فلا صحة للقول بأن السكوفيين أرغموا علياً على حرب الخوارج بدلاً من حرب أهل الشام .

ولا يقتصر خطأ أبي مخنف على تحديد تاريخ موقعة النهروان بالنسبة لغيرها ، بل هو يشمل التحديد المطلق لهذا التاريخ ، فهو يجعلها في الشهرين الأخيرين من سنة ٣٧ هـ . وقد اعترض الطبري على ذلك لأسباب وجيهة (الطبري ج ١ ص ٣٣٨٧ — ٣٣٨٩) . ونحن نعرف الآن التاريخ الدقيق من كتاب الأنساب للبلاذري (راجع DMZ, 1884, 393) وهو أن المعركة كانت يوم ٩ صفر سنة ٣٨ هـ — الموافق ١٧ يوليه سنة ٦٥٨ م .

(١) وبوجه أدق ، قبل وصول العلم بحكم المحكمين إلى الكوفة ؛ أما الحكم نفسه فيمكن أن يكون قد صدر في نفس الوقت الذي كانت فيه موقعة النهروان ، بل ربما كان قبل ذلك ، والأمر هنا هو دائماً أمر علم على بحكم المحكمين .

وعلى هذا فلم تُعتمد محكمة المحكمين في رمضان سنة ٣٧ هـ ، بل هي لم تعقد إلا في سنة ٣٨ هـ . ويقول الواقدي ، كما في الطبري (ج ١ ص ٣٤٠٧) ، إنها عقدت في شعبان سنة ٣٨ هـ — بعد شطر كبير من السنة ، إذا كان معاوية قد عاد في صفر سنة ٣٨ هـ (بعد صدور حكم المحكمين من غير شك — قارن الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ س ١٦) إلى القتال مع أهل مصر ، كما يقول الواقدي أيضاً (الطبري ج ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) . على أنه إذا كانت محكمة المحكمين لم تعقد إلا في أول سنة ٣٨ هـ فمن العجيب أن يمضي عام كامل بين الاتفاق على التحكيم في صفين وبين انتهائه . ويقول الزهري ، وهو من أقدم الرواة المدنيين ، إن الأجل الذي حُدِّد ، في أول الأمر ، لإصدار الحكم قد أُخِّر . وقد كان الاتفاق أن يلتقي الحسبان في دومة الجندل ، أو ، إذا حال دون ذلك حائل ، في أذرح ، في العام التالي (الطبري ج ١ ص ٣٣٤١) . والواقع أنهم التقوا في أذرح^(١) (الطبري ج ٢ ص ٨) ، وأيضاً في العام التالي لموقعة صفين ، أعفى عام ٣٨ هـ . وكل من الواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٣ فما بعدها وص ٣٤٠٧) وأبي معشر (الطبري ج ٢ ص ١٩٨) يذكر أذرح كما يذكرها الزهري . وأبو مخنف لا يبيّن في وثيقة الاتفاق مكان اجتماع المحكمين ، فيقول : وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانٌ عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام (الطبري ج ١ ص ٣٣٣٧) ، وبعد ذلك يذكر دومة الجندل عادة ، ولكنه يذكر دومة الجندل وأذرح معاً كأنهما شيء واحد ، [إذا كان نص الطبري (ج ١ ص ٣٣٥٤ س ١١) صحيحاً] .

وهكذا نلاحظ قلة الدقة في الرواية المتعلقة بزمان ومكان حادث من أكبر

(١) وهذا المكان الواقع في بلاد إدوم القديمة ، ربما كان اختياره مراعاة لأهل المدينة الذين كان لهم الحق في أن يقولوا شيئاً .

حوادث تاريخ صدر الإسلام . أما فيما يتعلق بما تضمنه هذا الحادث و بسير القضية وما انتهى إليه الحكم فيها ، فإن الروايات أقل من أن تفي بالحاجة . ويذكر أبو مخنف روايتين في ذلك (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٤ والصفحات التالية) ، إحداهما ترجع إلى الشعبي . فإلى جانب أبي موسى بعث علي إلى مكان عقد المحكمة أربعائة رجل ، عليهم شريح بن هاني الحارثي ، وبعث معهم عبد الله بن عباس يصلي بـ ٣٣ ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعائة رجل . وكان هناك أيضاً من مستحق الخلافة بعد الخصمين ، وَرَثَةُ الأَرِسْطَقْرَاطِيَةِ الإسلامية التي كانت تحيط بالنبى عليه السلام وكان منها مستشاروه في شؤون الحكم ، مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهما ؛ ولكن لم يحضر الصحابي المسن سعد بن أبي وقاص ^(١) . فأما عمرو فإنه أراد أن يثبت حق معاوية في الخلافة مستنداً إلى أن معاوية وآل معاوية هم أولياء عثمان ، وقد قُتِلَ عثمان مظلوماً ، وذكر عمرو قول الله عز وجل : وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَرِثَتِهِ سُلْطَانًا ، فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » (الإسراء آية ٣٣) . ثم أكل عمرو دليله بذكر شرف معاوية ومكانه من صحبة النبي ومصاهرته له وحسن سياسته وتديبره ، ثم عرض لأبي موسى بالسلطان وبأن معاوية إن تولى الخلافة فهو مكرّم إتياء كرامة لم يكرّمها خليفة . وكان أبو موسى في نفسه يرشح عبد الله بن عمر ، فلم يغتر بكلام عمرو ، وقال له : ليس أمر الخلافة أمر استحقاق بالشرف ، وإلا كانت الخلافة لغير معاوية ، بل الخلافة لأهل الدين والفضل ؛ وإذا كان الأمر أمر شرف فعلى بن أبي طالب أفضل قریش شرفاً . ثم قال إن المهاجرين الأولين أحق بأن يكونوا أولياء لدم عثمان من معاوية ، ثم ختم كلامه رداً على عمرو في تعريضه له بالسلطان والكرامة من معاوية فقال : والله لو خرج لي من سلطانك كله ما وائتته وما كنت

(١) [كان سعد قد آثر الابتعاد عن الفتنة خصوصاً بعد مقتل عثمان وقيام النزاع بين

الاجم الطبري مثلاً ج ١ ص ٣٣٥٣ — ٣٣٥٤] — المترجم [

لأرثشى في حكم الله عز وجل ؛ ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب ^(١) وهنا تنقطع رواية الشعبي ، ولا نجد فيما عدا ذلك من روايات سوى اعتراض عمرو ابن العاص على ترشيح عبد الله بن عمر . أما أبو مخنف فهو يأتى برواية أخرى من ابن جنّاب الكلبي ، وهى الرواية الوحيدة التى تصف نهاية مفاوضات التحكيم : التقي عمرو وأبو موسى فى دومة الجندل ، وكان عمرو قد عود أبا موسى بأن يقدمه فى كل شىء ، وإنما قصد بذلك تقديمه فى الكلام عند إصدار الحكم الذى انتهى إليه ، وهو خلع على معاوية مآ . وقد أراد عمرو أبا موسى على معاوية فأبى ، وأراد على ابنه فأبى . وأراد أبو موسى عمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : خبرنى فما رأيك ؟ قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا ، فقال له عمرو : فإن رأى ما رأيت . وايس المقصود من هذه الشورى أن يُترك الأمر لانتخاب الشعب ، بل لجماعة مختارة من الأرستقراطية الإسلامية ، على مثال الجماعة التى ألفتها عمر ، وانفقت على انتخاب عثمان . وأقبل الحسبان إلى الناس ، وهم مجتمعون . وبعد أن طلب عمرو من أبى موسى أن يُعلم الناس بانفاق الرأى بينهما ، وتكلم أبو موسى فقال : إن رأيت ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يُصالح الله به أمر هذه الأمة ، عند ذلك قال عمرو : صدق وبر يا أبا موسى ، تقدم فتكلم ! وتقدم أبو موسى ، فأراد عبد الله بن عباس أن يمنعه من الكلام قبل عمرو خشية الغدر من جانب عمرو . ولكن أبا موسى كان مُغفلاً ، فقال : إنا قد اتفقنا ، وأخذ يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصاح لأمرها ولا أئمة لشعبها من أمر قد أجمع رأيت ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليهما معاوية ، ونستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيؤتوا منهم من

(١) [يقصد ترشيح عبد الله بن عمر للخلافة — المترجم] .

أحبوا عليهم ؛ وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمرَكم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم تنحى أبو موسى وقام مقامه عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه وليُّ عثمان بن عفان والطالبُ بدمه وأحقُّ الناس بمقامه . وعند ذلك تشاتم الحُكَّان ، وقام أحدُ أنصار عليّ على عمرو فضربه بالسوط . وقام الناس ، وركب أبو موسى ولحق بمكة هارباً من أهل الشام ، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . ورجع قوم عليّ إلى عليّ ، فكان عليّ إذا صلى الغداة يَفْتَتُ وبلعن معاوية وعمرأ وغيرهما من أنصار معاوية ؛ وبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وغيرهما من آل عليّ .

ولا بد من التنبيه على ما يشعر به الإنسان من أن أبا موسى قد وقع على هذا النحو في شرك الخديعة ؛ أما عمرو فقد غدر غدرًا شائنًا . ولا شك أن أكثر الناس حنكة ربما وقع في مثل الشرك الذي وقع فيه أبو موسى . وإذا كان هناك خداع فهو من جانب عمرو ؛ ولم يكن عمرو في الحقيقة بالرجل الذي يُخدَع وهذه الحكاية في أمر نهاية محكمة التحكيم غير جدية بالتصديق ، وإن كان الواقدي يُعَوِّل عليها فيما يظهر (الطبري ج ٢ ص ٨٤)^(١) . والغالب أن حكاية الشعبي تختلف عن ذلك ، ولكن نهايتها مفقودة للأسف . ولدى المؤرخ وسيلة لتصحيح الخطأ بالرجوع إلى ما حكاه أبو مخنف من أمر الخريّيت بن راشد . وذلك أن الخريّيت أخذ على عليّ أنه لم يقبل حكم أبي موسى الذي يقضى بترك اختيار

(١) ويحكى أبو عبيدة فيما يتعلق بمحادث في البصرة شيئاً شبيهاً بهذا وقع فيما بعد (راجع الطبري ج ٢ ص ٤٤٦ فما بعدها وقارن ص ٤٤٤) [في هذين الموضعين من كتاب الطبري تحكيم أهل البصرة رجلين ليختاراهما واليا بعد موت يزيد بن معاوية وغدر أحد الحكمين بالآخر — المترجم]

الخليفة إلى الشورى بين المسلمين^(١)، وما يأخذ الخريت على علي لا بد أن يكون مَرَجِعُهُ إلى قبول أهل الشام أن يكون أمر الخلافة للشورى، وإلا لما كان هناك محلٌّ للوم الخريت علياً. أما معاوية فإنه لم يفقد بذلك شيئاً لأنه لم يكن خليفة بعد، ولم يُنصَّب خليفة في الحقيقة إلا عام ٤٠ هـ، في بيت المقدس. واسكن علياً لم يكن يستطيع أن يتنازل عن الموقف الذي اتخذه، ولا أن يجعل حقه متوقفاً على الشورى، وكان من السهل توقع الرفض منه. وقد تصرف عمرو بدهاء عندما وافق أبا موسى على خلع الرجلين، وهو قد غرّر بأبي موسى على كل حال، لأن معاوية لم يكن خليفة، فَيُخلَع بالمعنى الذي يُخلَع به علي. وكان الخلع وإنكار الحق في الخلافة لا يصيب إلا علياً. وبعد أن أخطأ علي في الخطوة الأولى أصبح مضطراً في إصلاح الخطأ إلى النكث ورفض حكم الحكيم. وروايات أهل العراق تميل كل الميل إلى إخفاء هذا النكث الذي يُعذر صاحبه على كل حال، وهي تجعل كلَّ الوزر على عمرو وأبي موسى، الحكيم اللذين لم يوفقا إلى خير (الطبرى ج ٢ ص ٧١٠ س ٩ — ١٠ و ص ٩٢٩ س ١).

٣ — وقد فتع عمرو بن العاص مصر سنة ٣٨ هـ، ويظهر أن فتحها وقع بعد انتهاء التحكيم على الفور؛ وقد حاول معاوية فتح مصر من قبل في سنة ٣٦ هـ. وقد أشرت إلى ذلك فيما تقدم، ولكنى أعود إليه هنا في سياق، لسكى يزول كل غموض.

يقول أبو مخنف (الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٤ فما بعدها و ٣٢٤٣ و ٣٣٩٢ والصفحات التالية) إن محمد بن أبي حذيفة، بعد أن سرب المصريين إلى عثمان ابن عفان حتى حاصروه، وثب هو بمصر على عبد الله بن سعد بن أبي سرح،

(١) هكذا عند الطبرى ج ١ ص ٢٤٣٤ س ١ و ص ٣٤٢٧ س ٢. وخلافاً لهذا يبدو الخريت خارجياً محضاً (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٩ س ١)؛ وهذا خطأ إذا نظرنا إلى جملة الحوادث، ولكن من السهل أن ندركه، إذا نظرنا إلى تصور أبي مخنف لجري قضية التحكيم.

عامل مصر حينئذ من قبل عثمان ، فطرده منها ، وصلى بالناس . فخرج ابن أبي سرح ونزل على تخوم فلسطين ، وانتظر ما يكون من أمر عثمان في المدينة وما تنتهي إليه الفتنة . وتلقى محمد بن أبي حذيفة مع خبر مقتل عثمان كتاباً على بن أبي طالب بتعيين قيس بن سعد بن عباد ، أنبه رجال الأنصار ، واليها على مصر . وجاء قيس ومعه الكتاب ، ويرجع تاريخه إلى صفر سنة ٣٦ هـ . وقد جاء قيس من غير جيش ، ولم يكن معه إلا سبعة نفر من أصحابه ، وكان لأتباع علي اليد العليا في مصر ، ولكن كان فيها بطبيعة الحال قومٌ مائلون إلى عثمان أيضاً^(١) . وكانوا قد تجمعوا في قرية يقال لها خربتا ، في الدلتا ، وعليهم يزيد بن الحارث الكنانى . ولكن قيساً هادن يزيد ، كما هادن مسامة بن مخلد الأنصارى ، وكان من رهط قيس بن سعد نفسه ؛ وكان مسامة قد وثب يدعو إلى المطالبة بدم عثمان ، ولذلك لم يستطع معاوية أن ينال أنصاراً في مصر على شدة اهتمامه بذلك ، فحاول عند ذلك أن يضم قيساً إلى جانبه ، فوعده بجبال الذهب إن هو انضم إليه^(٢) . ورغم أن معاوية لم يصب نجاحاً في ذلك فإنه تعمد أن يذيع أن قيساً من شيعته وأنه لا يؤذى قوم معاوية بمصر . بل استغل معاوية كتاباً جاءه من قيس رداً على كتاب منه إليه لأن فيه قيساً لمعاوية ، واختلق كتاباً آخر من قيس يعان فيه انضمامه إليه^(٣) . وقصد معاوية بذلك أن يثير الريبة من قيس في نفس علي ؛ وقد أفاد معاوية في الوصول إلى غرضه . وأراد علي أن يتمحن ولأه قيس له ،

(١) ولكنهم لم يكونوا بأى وجه في جانب معاوية في أول الأمر ، وليس معنى مياهم انتماء أنهم كانوا يميلون إلى بنى أمية . وكان في السكوفة أيضاً قوم يميلون إلى عثمان ولا يتبعون حزب أهل الشام من أجل ذلك ، بل هم اتخذوا موقفاً محايداً على نحو ما ، كما فعل أبو موسى — قارن الطبرى ج ٢ ص ٦٥٩ والمقدسى ص ٢٩٣ س ١٩

(٢) [وعد معاوية قيساً بسلطان المراقين ووعدته لمن أحب من أهل بيته بسلطان الحجاز — المترجم] .

(٣) [بجد القارىء المكاتبات بين معاوية وقيس عند الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٨ — ٣٢٤٦ . وكتاب قيس الأول لمعاوية غير صريح ، فتصور معاوية أن قيساً تقارب مباحداً ، ولم يأمن أن =

فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا ؛ فلما امتنع قيس وبين لعلي وجهه نظره في سياسته ومداراته لقوم أشداء ، أبي علي إلا قتالهم ، وأخيراً كتب قيس إلى علي : إن كنت تهمني فاعزلي عن عمالك وابعث إليه غیری ؛ فعزله علي وعين مكانه محمد بن أبي بكر^(١) . وكان في ذلك دخل للدسائس من جانب بطانة علي ضد قيس بن سعد بن عباد ، الذي كان أبوه سعد بن عباد قد نازع أبا بكر في الخلافة من قبل . وقد فوجئ قيس بوصول خلفه ، ولكن ولاءه لعلي لم يتزعزع . وبعد فترة قليلة قضاها في المدينة خرج حتى قدم على علي في الكوفة ، وحارب إلى جانبه في موقعة صفين (عام ٣٧ هـ) . أما محمد بن أبي بكر الذي كان كتاب تعيينه مؤرخاً غرة رمضان عام ٣٦ هـ ، فإنه لم يلبث في ولايته شهراً كاملاً حتى بعث إلى الفوم المعتزلين الذين كان قيس بن سعد قد وادعهم ، فخيرهم بين أن يدخلوا في طاعته وبين أن يرحلوا عن البلاد . فاستمهلوه حتى بنظروا ما تصير إليه أمورهم ، فلما أبي عليهم امتنعوا منه وأخذوا حذرهم ، حتى كانت وقعة صفين وهم له هائبون . فلما أتاها صبر معاوية وأهل الشام لعلي وأن علياً وأهل العراق رجعوا عن معاوية وأهل الشام وصار أمرهم إلى التحكيم ، اجتروا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة . فوجه إليهم بعضاً فقتلوا قائده ، ثم بعثوا آخر فقتلوا قائده ، ثم رثبوا بقيادة معاوية بن حديج السكوني يدعون إلى المطالبة بدم عثمان . وفست مصر على محمد بن أبي بكر ، ولم يستطع أن يكبح جماح الثوار ، فاضطر علي إلى أن يقرر إرسال مالك الأشتر ، صاحب النصريوم صفين ، إلى

— يكون في الحقيقة مكيداً ؛ ثم جاء خطاب قيس الثاني صريحاً في تأييد علي والظمن على معاوية وأصحابه . ويظهر أن قيساً لما رأى قوة العثمانيين بين عرب مصر أثر السياسة والمواذعة ، إلا فإن تاريخه يدل على استئانة الكلمة وعلى الصراحة وعدم المساومة ، لافي شرفه ولا في موقفه السياسي . — المترجم]

(١) [وفي رواية أخرى أن علياً عين مالك الأشتر مكان قيس بن سعد وأن مالكاً مات مسموماً من يد أنصار معاوية بمصر (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢ ، ٣٢٩٣ ، ٣٣٣٤) — المترجم]

مصر؛ وكان مالك يومئذ في نصيبين على حدود أرض الجزيرة التي كانت تابعة للشام . وجاء مالك أيضاً من غير جيش ، وشق على معاوية تعيين مالك على مصر ، فبعث إلى الجليستار ، رجل من أهل الخراج ، وطلب منه أن يمتثل للمالك ويكفيه إياه ، ووعدته ألا يأخذ منه خراجاً طول مدة حكمه ، إن فعل . فخرج الجليستار إلى القلزم واستقبل مالكاً ، واحتال حتى استطاع إضافته ، ثم دس له السم في شربة عسل ، فمات . وكان معاوية قد طلب من أهل الشام أن يدعوا الله أن يكفيهم مالكاً الأشر ، فكانوا كل يوم يدعون الله عليه ، حتى إذا بلغ معاوية موته قام في الناس خطيباً في دمشق وأعلن موت الأشر إعلان المنتصر . وعند ذلك كتب علي إلى محمد بن أبي بكر ، فأزال ما كان في نفسه من موجدة بسبب تعيين الأشر على مصر ، فرضيت نفسه ، وبقي في منصبه المنقل بالتعاقب .

ولكن رواية أبي مخنف هذه ، وهي السائدة في الكتب الحديثة للتاريخ الإسلامي ، يمكن تصحيحها بمعلومات أكثر دقة . لم يكن قيس بن سعد أول والٍ لعلي في مصر ، بل جاء خلفاً لمحمد بن أبي حذيفة^(١) . وكان محمد قد بقي في مصر عندما خرج الثوار على عثمان من هنالك قاصدين المدينة ، وذلك بعد أن كان قد طرد عبد الله بن سعد بن أبي مروح واستولى على مصر لعلي (الطبري ج ١ ص ٢٩٦٨) . ولكن معاوية وتعمراً نجحاً عام ٣٦ هـ في استدراج محمد بن أبي حذيفة ، الناصر الشاب ، إلى العريش عند حدود مصر ، ولم يتوغل في مصر أكثر من ذلك (رغم ما جاء في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٧ ص ١٧) ، لأن العثمانيين بمصر لم ينضموا إليهما ؛ وفي العريش أحاطا بابن أبي حذيفة وأخذاه أسيراً ، ثم

(١) الواقدي ، عند الطبري ج ١ ص ٣٢٥٢ والصفحات التالية ، والبلاذري ص ٢٢٧
ثم بعدها ، ويوافق ذلك ما جاء في الطبري ج ١ ص ٣٢٣٣ ، وهي رواية لا إسناد لها .

قتل بعد ذلك . ولكن الروايات لا تتفق تماماً فيما يتعلق بزمان القتل وكيفيته ، فيقول المؤرخ السرياني الذي نشر نولده كتابه (DMZ, 1895, 89) إنه في سنة ٩٦٩ من حكم السلوقيين (= ٣٨ - ٣٩ هـ) قتل حذيفة بن أخت معاوية بأمر معاوية^(١) . ويؤيد هذا التاريخ ابن الكلبي ، كما يذكر الطبري (ج ١ ص ٢٤٠٨) . على أنه يروى أنه لما فر ابن أبي حذيفة من سجنه كان معاوية يحب له أن ينجو (قارن الطبري ج ٢ ص ٢١٠ والدينوري ص ١٦٧ س ١٥) . وقد قتله رجل من خشم ؛ على كره من معاوية . وقد كان ابن أبي حذيفة قد اختبأ في غار ، فلبجأت إليه حُرٌّ وحشيةٌ أصابها المطر ، فلما رآته فرغت ونفرت . ورأى ذلك حصادون ، فتذهبوا إليه ودلّوا الرجل الخشمي على مكانه ، فقتله . أما الواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٢٣٣ س ٧ و ص ٣٤٠٧ س ١٥) فهو يجعل قتل ابن أبي حذيفة في نفس السنة التي أسر فيها ، أعنى عام ٣٦ هـ . والأرجح أن هذا خطأ .

وبعد أسر ابن أبي حذيفة جاء قيس بن سعد خلفاً له . فمن المسير أن يكون قد ترك ولايته في رمضان سنة ٣٦ هـ ، وأن يكون قد اشترك في موقعة صفين ، كما يقول أبو مخنف . أما الزهري (الطبري ج ١ ص ٣٢٤١ فما بعدها و ص ٣٢٤٦ و ص ٣٣٩١ فما بعدها) فيقول إنه عُزل بعد تلك الموقعة ، وإنه لم يبادر بالذهاب إلى علي بالكوفة راضى النفس ، بل هو لحق بالمدينة . ولكن مروان ابن الحسك وغيره من الأمويين أخافوه أن يؤخذ أو يقتل ، فخرج قيس حتى قدم على علي . وتغيّظ معاوية أشد الغيظ على من أخرج قيساً حتى لحق به علي ، لما كان لقيس في نظر معاوية من الرأي والمكانة ، حتى كان أشد عليه من

(١) هو يسميه حذيفة ، وإن كان أبوه لم يكن يسمي أبا حذيفة تبعاً لاسمه ، ويعتبره ابن أخت معاوية ، وإن لم يكن في الحقيقة ابن أخته بل ابن خالته (ابن هشام ص ١٦٥ و ٢٠٨) [في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٨ أنه كان ابن خال معاوية — المترجم] .

إمداد على بمائة ألف مقاتل . وجاء الأشر إلى مصر بعد قيس مباشرة ، ولم يأت محمد بن أبي بكر إلى مصر إلا بعد أن دُسَّ السمُّ للأشر بعد أن كان قد دخل أرض مصر . على أن ابن السكبي (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢) يذكر خلافاً لذلك أن الأشر إنما أرسل إلى مصر بعد سقوط محمد بن أبي بكر ؛ وهذا خطأ تام على كل حال .

على أن معاوية وعمراً استأنفا ما كان قد رجما عنه من الهجوم على مصر سنة ٣٦ هـ ؛ فعادا إلى ذلك في عام ٣٨ هـ ، بنجاح أكبر ، وحارباً محمد بن أبي بكر . والروايات في ذلك أيضاً متضاربة عند الطبري ؛ فيقول أبو مخنف (الطبري ج ١ ص ٣٢٩٦ والصفحات التالية) إن معاوية ، بعد انتهاء التحكيم ، لم يكن له هم سوى مصر ، وكان لأهلها هائلاً خائفاً ، أقر بهم منه وشدتهم على من كان على رأي عثمان . وكان معاوية يرجو أن يظهر على مصر ، فيظهر على حرب علي ، لعظم خراجها^(١) . فكان يعلم أن بها قوماً قد ساء لهم قتل عثمان ، وخالفوا علياً ، منهم مسلمة بن مخلد الأنصاري ومعاوية بن حُذَيْف السكندى . وكان محمد بن أبي بكر قد ناصبهما الحرب . وشجّع معاوية هذين النافرين في كتاب منه إليهما ، ووعدهما المواساة في الدنيا والسلطان ، فكتباه له بأمرهما بذلا أنفسهما لأمر الله ، لا يرجون إلا ثوابه ، وطلباً أن يمجّل بإرسال المدد ، بعد أن كانا من قبل لا يقبلان منه شيئاً . فخرج عمرو في ستة آلاف رجل قاصداً مصر ، حتى إذا نزل أدانى مصر كتب إلى محمد بن أبي بكر ينصحه بالتمنح والخروج من مصر ، ودفع له في نفس الوقت بكتاب تهديد ووعيد من معاوية . فطوى ابن أبي بكر الكتابين وبعث بهما إلى علي ، وأبلغه نزول عمرو أرض مصر في جيش لجب واجتماع أنصار معاوية إليه ، ووصف له ما بدا على الناس من الفشل ، وطلب المدد

(١) [فارت ما تقدم من ٧١ — المترجم] .

من عليّ . فكتب له علي أن يصبر ويتحصن حتى يأتيه المدد ، وأن يردّ علي ما وصله من كتب التهديد . واسكن مدد عليّ لم يأت ، واضطر محمد بن أبي بكر إلى أن يعتمد عليّ موارد الخاصة^(١) . فدعا الناس إلى القتال ، فنهض معه نحو من ألفي رجل ، وكان أشدهم نجدة وبأساً كنانة بن بشر التجيبي قاتل عثمان^(٢) ، وهو الذي أوصى عليّ محمد بن أبي بكر بانتدابه . وبدأت المعركة ، وقاتل كنانة قتالاً شديداً ، حتى قُتل أمام قوة كبيرة من جند الشام أحاطت به من كل جانب . وعند ذلك تفرق الباقون عن محمد بن أبي بكر ، حتى بقي وما معه أحد ، فخرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة ، فأوى إليها . وخرج معاوية بن حُديج في طلبه حتى امتدى إليه واستخرجه من الخربة ، ثم قتله ، وهو مجرد من السلاح ، ثم وضعه في جوف حمار وأحرقه بالنار . فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعا شديداً وقتنت عليه في دبر كل صلاة ، تدعو عليّ معاوية وعمرو ، وقبضت عياله إليها ، وصارت لا تستطيع أن تأكل لحم الشواء (قارن الطبري ج ٣ ص ٣٦٨) .

أما الواقدي فيحكى غير ذلك ، فهو يقول (الطبري ج ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) إن غمراً خرج إلى مصر في أربعة آلاف رجل فيهم معاوية بن حُديج وأبو الأعور السلمي ؛ ومعنى هذا أن معاوية بن حُديج لم يكن في مصر من قبل . وبذكر الواقدي أن المعركة كانت عند المُسَنَّاة^(٣) . وبعد قتال شديد قُتل كنانة ، ولم يجد محمد بن أبي بكر من يقاتل معه ، فانهزم واختبأ عند جبلة بن مسروق ، حتى دُلّ عليه معاوية بن حُديج ، فأحاط به ، فخرج محمد وقاتل حتى قُتل ، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ .

(١) قارن بهذا ما يقوله سيف في حكمة علي هذا الرجل .

(٢) [نجد في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٣ ، ٣٤٠٥ ، ٣٤٠٦ أن محمد بن أبي بكر ينفذ بقتله عثمان وأنه قُتل بثمان — المترجم] .

(٣) السنة ، وبسمى السعوى هذا المكان كوم شريك ، وهذا خاط — قارن ياقوت

ونهاية محمد بن أبي بكر ، كما يحكيها أبو مخنف ، أكثر دخولا في باب الروايات القصصية مما هي عند الواقدي ، وهي تشبه ما يروى من نهاية محمد (بن أبي حذيفة) ، الذي قُتل ، كما يقول المقرئ (١) ، كما يقتل الحمار ، والذي يذكر ابن الكلبي أيضا أن قتله كان بسبب تحريك نفرت من الفار الذي كان مختبئا فيه ، فدلّت بذلك عليه . ولا حاجة للمؤرخ أن يحكم في الأمر حكما قاطعا ، وهو يرى مقدار اضطراب الروايات المتعلقة بذلك العصر .

٤ — ساء موقف عليّ بعد صيفين سوءاً شديداً ، فسكان الخوارج في العراق يحاربونه حرباً شديدة ، وكان أهل البصرة متراخين متناقلين عن نصرته ، إذا استثنينا أشخاصاً قلائل مثل أبي الأسود الدؤلي . وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم ، لكنهم لم يكونوا معه بكل قواهم ، وكان بينهم بعض المحايدين وبعض المائلين إلى عثمان ، ولحق بعضهم بمعاوية . وقد كان لضعف سرّكز عليّ في قلب الدولة أثره على مكانته وهيئته في الأطراف ؛ ففي سنة ٣٧ هـ ، قبل ثورة الخريّبة ، امتنع عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال ، وارتدّ بعضهم إلى النصرانية ، وتمردت الولايات الفارسية وتراخت عقدة طاعتها للحكومة المركزية . وطمع أهل فارس وكرمان في كسر الخراج ، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا العمال (٢) . ولا بد أن يعجب الإنسان من أن ولايات فارس لم تستطع في ذلك الوقت أن تطرح عن عائقها النير الأجنبي جملة ، وأن تطرد جنود الاحتلال العرب طرداً تاماً . وكان أكبر رجائين من رجال عليّ ، بعد موت مالك الأشتر ، هما

(١) انظر 58 p. Vloten, Recherches, (وذلك في Vorhandl. der Amsterdam.

. Letterkunde 1,3 — ١٨٩٤ ، Akademie

(٢) وخصوصاً خراسان ، كما يقول البلاذري ص ٤٠٨ فما بعدها ، والطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ وما يليها و ص ٣٣٨٩ وما يليها . وكذلك أذربيجان والري وفارس والأهواز (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٤ و ٣٢٤٥ و ٣٣٩٣ و ٣٤٢٩ و ٣٤٣٠ و ٣٤٤٩ .

قيس بن سعد بن عبادة وزياد بن أبيه . أما عبد الله بن عباس ، الذي ولاه عليّ على البصرة ، فقد أثبت أنه والٍ غير أهل للولاية وأنه لا يُعْمَل عليه .

وكانت أقوى ضربة حقيقة أحسّ بها عليّ هي فتح مصر على يد عمرو ، لأنّ معارضة أصبح على أثر ذلك مطلق اليدين ، وكان عندئذ قد آمن نفسه من اعتداء الروم بأن عقد هدنة مع الهرقل كونستانس (Constans) في مقابل إتاوة سنوية . والروايات العربية لا تذكر ذلك إلا ذكراً عابراً^(١) . ولكننا نعرف مما كتبه تيوفانيس أن ذلك كان عام ٦١٥٠ من تاريخ الخليفة (= ٣٨ - ٣٩ هـ)^(٢) . ولم يجترأ معاوية على أن يهجم على عليّ هجوماً حقيقياً ، واكتفى بأن فرق جيوشه على الأطراف التي في طاعة عليّ هنا وهناك . ففي سنة ٣٨ هـ وجه معاوية إلى البصرة عبد الله بن عمرو بن الحضرمي لكي يحرض قبائل تميم على الثورة ضدّ عليّ ، وكان عبد الله بن عباس قد خرج من البصرة إلى عليّ بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه ؛ فاحتسب زياد بقبائل الأزديّ ، فأخذ هؤلاء نار الثورة ، وقتلوا ابن الحضرمي بعد أن تصدع عنه كثير ممن كان معه . وهذا ما يحكيه المدائني ونجده عند الطبري (ج ١ ص ٣٤١٤ والصفحات التالية) . ويروي المدائني عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٤ فما بعدها) أخبار الجيوش التي وجهها معاوية إلى العراق . فهو قد وجه النعمان بن بشير إلى عين التمر ، وسفيان بن عوف إلى هيت والأنبار ، وعبد الله بن مسعدة الفزاري إلى نيماء ، والضحاك بن قيس إلى القطّقطانة^(٣) .

(١) البلاذري ص ١٥٩ س ١ و ص ١٦٠ س ٨ وانظر DMZ ، ص ١٨٧ ، ص ٩٦ ، فارن ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٢١١ والدينوري ص ١٦٨) ويحكي المسعودي (ج ٥ ص ٢٢٤) ذلك عن عبد الملك بن مروان .

(٢) تكلمت عن العلاقة بين سني العالم عند تيوفانيس وبين التاريخ السلوقي في مجلة Göttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ ص ٤١٤ والصفحات التالية .

(٣) فارن اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٨ س ٦ و ٢٢٩ س ٣ و ص ٢٣٠ س ٩ ، والأغاني ج ١ ص ٤٥ فما بعدها . ويقول أبو معشر والواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٧) إن معاوية سار بنفسه سنة ٣٩ هـ إلى دجلة حتى شارفها ، ثم نكص راجعاً .

وتبدو هذه الحملات مجرد غارات ؛ فكان يعود أهل الشام بالغنائم ، وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويدركونهم ويقتلونهم .

ويربط البعض بين غارات النهب هذه وبين الحملة المشهورة التي قام بها بُسر بن أرطاة في الحجاز واليمن (الأغاني ج ١٥ ص ٤٥ وما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٣١) . ويذكر البكائي عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ فما بعدها) أن ذلك كان في أواخر أيام علي : فيروى أن جارية بن قدامة علم بمقتل علي ، وهو في طريقه لمحاربة بسر . أما عند الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢) فإن هذه الحملة لم تقع إلا عام ٤٢ هـ ، بعد وفاة علي .

ويذكر البكائي (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٢ و ٣٤٥٣) نقلاً عن ابن إسحاق ^(١) أن مهادنة جرت في سنة ٤٠ هـ بين علي وبين معاوية ، بعد مكاتبات طويلة ، وأنهما تراضيا علي وضع الحرب بينهما ، وتكوّن لعلّ العراق ومعاوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو ، وذلك بعد أن رفض كل فريق أن يعطي صاحبه الطاعة ، وبعد أن كتب معاوية إلى علي يقترح عليه كفّ السيف عن الأمة والإمساك عن إراقة دماء المسلمين . ويروى أنهما اتفقا : فأقام معاوية في الشام بجنوده ، يجيها وما حولها ، وعليّ بالعراق يجيها ويقسمها بين جنوده . ولا يمكن أن تكون هذه المهادنة إلا قصيرة الأمد ، لأن معاوية اتخذ لنفسه في أول سنة ٤٠ هـ لقب الخلافة في بيت المقدس ، وأخذ البيعة من أهل الشام على ذلك ؛ وقد كان هذا تحدياً جديداً لعليّ ، فأجاب عليّ بأن أعد حملة كبيرة لمحاربة أهل الشام ، ولكن اغتياله حال دون تنفيذها .

ويقدم المؤرخ السرياني الذي نشر تاريخه نولده شاهداً على تنصيب

(١) هكذا بدلا من قول الطبري : أبي إسحاق ، ذلك أن البكائي في كتاب السيرة هو الراوية المتوسطة بين ابن هشام وبين ابن إسحاق .

معاوية نفسه خليفة في بيت المقدس عام ٤٠ هـ . وهو يذكر في هذا الحادث روايتين مستقلتين ، إحداهما بعد الأخرى ، فيقول : « في عام ٩٧١ من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصبوا معاوية ملكاً ، فصعد معاوية إلى جبل الجلجلة (Golgota) ، وصلى هناك ، ثم صعد إلى جيتسماني ، ثم هبط إلى قبر السيدة مريم وصلى . . . وفي شهر يولييه سنة ٩٧١ اجتمع الأسراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية ، وصدر الأمر بأن يُنادى به ملكاً في جميع أنحاء بلاده^(١) ، ولكنه لم يحمل تاجاً ، كما يحمله ملوك العالم ؛ على أنه أقام عرشه في دمشق ، ولم يرد أن يذهب إلى مقر النبي (المدينة) » . ويتبدى شهر يولييه من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠ م .) في ١٦ صفر سنة ٤٠ هـ . ويقول المسروقي أيضاً ، كما يحكي الطبري (ج ٢ ص ٤ فما بعدها — قارن أيضاً ج ١ ص ٣٤٥٦) أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في إيلياء سنة ٤٠ هـ . ولكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث إلا بعد وفاة علي . وما يستلقت النظر أن معاوية آخر أخذ البيعة لنفسه إلى ذلك الوقت . وفي كتاب Continuation of Isidori Byz. Arab. § 25 (Mommsen . ط) أن معاوية ظل خمس سنين مواطناً عادياً ، أي من ٣٦ إلى ٤٠ هـ . وظل بعد ذلك خليفة عشرين عاماً .

ويقول المؤرخ السرياني أيضاً إن علياً كان يريد قبل وفاته بقليل أن يعاود الخروج لقتال معاوية . غير أن هذه الرواية تُذكر في سنة غير صحيحة (٩٦٩ بدلاً من ٩٧١ أو ٩٧٢ السلوقية) ، وإسكنها صحيحة في ذاتها . واليعقوبي (ج ٢ ص ٢٣٥ س ١٥ و ص ٢٣٨ س ٢٠) يحكي نفس الشيء . والروايات متفقة على أنه كان تحت قيادة عليّ عند وفاته جيش من أربعين ألف رجل ، يطالبون بالخروج

(١) إن الكلمة التي لم يستطع تولدكه أن يقرأها إلى جانب كلمة : φωνάς م : κλήσεις التي منها في غالب الظن كلمة : qualles السريانية (= ينادى) .

لقتال أهل الشام ، فَمَنْ غير عليّ أعدّ هذا الجيش للحرب ولأى غرض أُعدّ ، إن لم يكن ذلك لقتال أهل الشام ؟ .

وقد حدث الاعتداء الذي مات بسببه عليّ في يوم الجمعة^(١) ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ ، في مسجد الكوفة (الكامل ص ٥٥٣ س ٩) ، وتوفي عليّ يوم الأحد التالي لذلك ، ٢٤ يناير سنة ٦٦١ م . وما يذكره الواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٤٦٩ ، وج ٢ ص ١٨) يؤيد صحة هذه التواريخ ، كما يدحض ما يخالفها . أما القاتل ، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي التجوبي بوجه أدق (الكامل ص ٥٥٣ س ١٧) فقد كان خارجياً . والخوارج يذكرونه فخورين ويقولون إنه أخوهم ، أخو مراد (الطبري ج ٢ ص ١٨) ، وتشهد أبيات ابن أبي مياس المرادي (الطبري ج ١ ص ٣٤٦٦) أن الذي حرّضه على قتل عليّ امرأة يقال لها قنّام ، كانت فائقة الجمال ، ورآها ابن ملجم ، فالتبست بعقله فخطبها . وكان أبوها وأخوها قد أُتِلا يوم النهروان ، فجعلت فيما جعلت من مهرها قتل عليّ بن أبي طالب ثأراً لقتلها . وبهذا تسقط الرواية^(٢) التي وُصِلت بذلك وصلاً مصطنعاً والتي تقول إن ابن ملجم كان أحد ثلاثة من الخوارج تأمروا في مكة على أن يريحوا الأمة الإسلامية في يوم واحد من أئمة الضلالة الثلاثة — في رأيهم — وهم عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص . ومن جهة أخرى فإن مثل هذا التآمر السري بين الثلاثة المتآمرين لا يتفق مع عادات الخوارج القدماء ، كما لاحظ ذلك ابن الأثير^(٣) . أما القول بأن معاوية هو الذي استأجر ابن ملجم لقتل عليّ ، كما أومأ إلى اتهامه بذلك أبو الأسود الدؤلي في

(١) [يؤخذ من الطبري ج ١ ص ٣٤٥٧ ، ٣٤٦٨ — ٣٤٦٩ أن اغتيال عليّ كان ليلة الجمعة ١٧ رمضان . أما وفاته فكانت بعد ذلك بيومين — المترجم] .

(٢) [تجدها عند الطبري مثلاً في ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وفي الكامل للبرد ص ٥٤٩ — المترجم]

(٣) ولا يجوز إنكار أن اعتداءات وقعت على معاوية وعمر ، أما التعسف فهو الربط بين الاعتداءات والقول بأنها كانت بناء على اتفاق مدبر .

أبيات له^(١) ، فإنه لم يجد أبداً من يصدق به أقل تصديق حتى من أعداء معاوية .
فأما القول بأن اغتيال عليّ أفاد معاوية فلا شك في ذلك على كل حال ، لأنه
لم يصل إلى الخلافة إلا بذلك . والحسن بن علي (الطبري ج ٢ ص ٣) يذكر
أن مما جعله يسخو بنفسه عن أهل العراق أنهم قتلوا أباه . ويقول الخليفة المنصور
مثل ذلك (الطبري ج ٣ ص ٤٣١) . ويظهر أن منشأ هذا هو أن ابن ملجم
وقطام كانا من أهل الكوفة (قارن الطبري ج ١ ص ٣٤٥٦ فما بعدها ،
وص ٣٤٦٥ فما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٥١ ، والكامل ص ٥٤٦ فما
بعدها وص ٥٨٣) .

٥ — ثم صار معاوية هو المهاجم (اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٥) ، فأخذ
الطريق الحربي المعتاد ، وعبر أرض الجزيرة إلى العراق ، ونزل بمسكرد في مسكن ،
على حدود الدجلة من الموصل إلى جهة السواد ، ولكنه انتظر هناك حيناً بعد
وفاة عليّ . وفي أثناء ذلك قامت ثورة على الحسن ، بعد أن كان قد بويع على
الخلافة بعده . ولكن الحسن كان زاهداً في الحرب ، لا يرى القتال ، رغم أنه
كان وراءه أربعون ألف رجل ، كانوا قد بايعوا علياً على الموت . والتمس الحسن
سبيلاً إلى مصالحة معاوية ، وتنازل عن الخلافة بعد نصف عام . وهذا هو المعروف
بالإجمال معرفة واضحة ، ولكن الروايات في تفصيل ما جرى بعد مقتل عليّ
مضطربة ، وفيها فجوات .

فيحكي عن الزهري ما يلي : كان عليّ قد أسند إلى قيس بن سعد قيادة
الجيش ، ووعدته بولاية أذربيجان مكافأة له^(٢) ، وعزل الأشعث عن هذه الولاية .

(١) [الطبري ج ١ ص ٣٤٦٧ — المترجم] .

(٢) [نجد عند الطبري — والمؤلف يتابعه غالباً — هذا : « جعل عليّ م قيس بن
سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قبل (التي قبسه) أذربيجان وعلى أرضها (أصبهان)
وشرط الخميس (الجيش) التي ابتدعها العرب ، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً على الموت » .
الطبري ج ٢ ص ١ . وقد قلنا النص كما هو وأضفنا القراءات بين قوسين . والمعروف عن
سعد أنه كان لا يسأل أجراً ولا مكافأة عما يفعل — المترجم] .

وكان قيس يريد الحرب ، ولكن الحسن كان لا يرى القتال ، وكان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية . وقد عرف أن قيساً لا يوافقه على رأيه ، فنزعه وأمر عبد الله بن عباس (الطبرى ج ٢ ص ١ — ٢ ، قارن ج ١ ص ٣٣٩٢) . وكان الحسن لما بايعه أهل العراق على الخلافة طفق يشترط عليهم : إنكم سامعون مطيعون ، تسالمون من سالمته ، وتحاربون من حاربت ؛ فارتاب أهل العراق في أمرهم ، حين اشترط عليهم هذا الشرط ، وقالوا : ما هذا لكم بصاحب ، وما يريد القتال . فلم يلبث الحسن بعد ما بايعوه إلا قليلاً حتى طعن طعنة أشوته ، فازداد لهم بغضاً وازداد منهم ذعراً . ولا يذكر الزهرى تفاصيل المناسبة التي أدت إلى هذه الطعنة . على أنه لما قام للحسن الدليل على موقف أهل العراق منه ، كتب معاوية وأرسل إليه بشروط ووعدته ، إن وفى له بها ، أن يسمع له ويطيع . وأعطاه معاوية ما شرط ، فتنازل الحسن عن الخلافة لقاء مال كثير . وكان معاوية ، قبل أن يقع في يده كتاب الحسن ، قد أرسل إلى الحسن بصحيفة بيضاء ، وقد ختم عليها في أسفلها بختمه ، وكتب إليه أن يشترط فيها ما شاء ، فهو له . فأراد الحسن أن يأخذ أضعاف ما كان قد شرط أولاً ، فلم يعطه معاوية ذلك (الطبرى ج ٢ ص ٥ فما بعدها) . أما عبد الله بن عباس فإنه لما علم بما أراد الحسن أن يأخذه لنفسه من معاوية ، لم يُبالِ بأنه كان قائد الجيش ، وكتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي كان قد أخذها . فشرط ذلك له معاوية ؛ فترك جنده بغير قائد ، ولحق بمعاوية .

ولما صالح الحسن معاوية كتب الحسن إلى قيس بن سعد يدعوهُ إلى الدخول في طاعة معاوية ، فقام قيس خطيباً فيمن كان معه من الجيش ، وخيرهم بين أن يدخلوا في طاعة إمام ضلالة ، أو أن يقاتلوا مع غير إمام . فاخترأوا الأولى وبايعوا لمعاوية ، وانصرف عنهم قيس . وفي رواية أخرى للزهرى أنه بعد أن صالح الحسن وعبد الله بن عباس معاوية ، وترك عبد الله جيشه بلا أمير ، اجتمعت الشرطة

وأمرت قيس بن سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة عليّ ولبن كان اتبعه الأمان على أموالهم ودمائهم وما أصابوا في الفتنة . ولما انتهى معاوية من مصالحة الحسن وابن عباس خالص لكأيدة قيس ، فأرسل إليه يقول في كلام له : علي طاعة من تقاقل ، وقد بايعني الذي أعطيت طاعتك ! ؟ فأبى قيس أن يلين ، حتى أرسل إليه معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله ، وقال له أن يكتب في السجل ما شاء فهو له . وأراد عمرو بن العاص أن يغري معاوية بأن يحارب قيساً ، ولكن معاوية ضنّ بدماء أهل الشام وقال إنه ان يقاقل قيساً حتى لا يجد من قتاله بُدّاً . أما قيس فلم يشترط في السجل المحتوم بختم معاوية إلا الأمان لشيعة علي ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية في السجل مالاً . فأعطاه معاوية ما سأل . ولم يرض قيس أن يجعل شخصه محلّ مساومة^(١) . أما البكائي فهو ينقل عن عوانة^(٢) غير ذلك (الطبري ج ٢ ص ٢ — ٤) ، فيقول : لم يكن قيس قائداً للجيش كله ، بل لاثني عشر ألف رجل في المقدمة (وهم الشرطة) ، و بقيت له الإمرة عليهم إلى ما بعد مقتل عليّ أيضاً . وخرج الحسن بنفسه في الجيش كله حتى نزل المدائن ، وبعث قيساً أمانه على مقدمته لكي يلاقى معاوية (في مسكن) . وبينما الحسن في المعسكر بالمدائن إذ نادى مناد في المعسكر : ألا إن قيس بن سعد قد قُتل ، فانفروا ! فنفر الناس ونهبوا سراق في المعسكر ، وخرج الحسن ناجياً بنفسه حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . ومن هنالك بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، رغم معارضة أخيه الحسين ، وحصل من معاوية على ما أراد : أن يأخذ ما في بيت مال الكوفة ، وكان خمسة آلاف ألف

(١) جئنا هنا بالكلام طبقاً للأصل العربي الذي اعتمد عليه المؤلف ، لأن المؤلف قد اقتضب اقتضاباً شديداً ببيان المقصود على النحو الذي لا بد منه للتأريء العربي — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١ — ٨ .

(٢) إن أول حكاية عوانة ساقط ، وتكادها رواية أخرى ، لكن يقال عنها إنها تتفق مع حكاية عوانة .

درهم ، والخراج الجارى من دارابجرد ، والوعد من معاوية بالآ يَشْتَمَ على ،
ومعاوية يسمع ذلك^(١) .

أما عند اليعقوبى (ج ٢ ص ٢٥٤ فما بعدها) فتجد الحكاية على نحو
آخر : وجه الحسن عبيد الله بن عباس فى اثنى عشر ألف رجل لقتال معاوية ،
وجعل قيساً مُشيراً له ليعمل بأمره ورأيه . فحاول معاوية أن يُفسد قيساً ، فلم يفلح ،
ولكنه استطاع أن يضم إليه عبيد الله بأن أعطاه ألف ألف درهم ، فصار إليه
فى ثمانية آلاف رجل . وكان الحسن مع جملة الجيش فى المدائن ، وأرسل معاوية
إليه المغيرة بن شعبه ومفاوضين آخرين ، فلما خرج هؤلاء من عند الحسن أذاعوا
فى المعسكر أنه قد أجاب إلى الصلح . فعند ذلك وثب الجند بالحسن وانهبوا
مضاربهم وما فيها ، فركب الحسن فرساً ومضى إلى قلعة ساباط ، ولكن الجراح
ابن سنان (وفى رواية : ابن قبيصة) كان قد كمن له ، فخرجه بمحول فى فخذه ولوى
لحيته ، فحُمِلَ إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة ؛ وفى أثناء ذلك
تفرق عنه أصحابه ، واستولى معاوية على العراق ، فلم يبق أمام الحسن أخيراً إلا
أن يتنازل عن الخلافة . والدينورى (ص ٢٣٠ فما بعدها) يحكى مثل ذلك ،
وإن كانت روايته تختلف عن رواية اليعقوبى بعض الاختلاف ، فهو يقول إن
البن وربيعة الكوفة خلصوا الحسن فى ساباط من أيدي مضر الكوفة .

على أن عوانة واليعقوبى متفقان فى الرواية بالإجمال ، وهما يخالفان الزهرى .
وحكاية الزهرى للحوادث ليست واضحة تماماً ، وهى تختلف عن رواية غيره
اختلافات لا يسهل تفسيرها ؛ فهو أحياناً يفصل بين طعن الحسن ، من حيث
زمانه ومكانه ، وبين نهب سرادقه ، وهو أحياناً أخرى يربط بين الحادثتين .

(١) عند الطبرى فى بعض المواضع شواهد لهاتين الحكایتين ، فى ج ١ ص ٨ وما بعدها
وج ٢ ص ١٥ ، نجد أن الأربعين ألف رجل ليست هى الشرطة ، بل الجيش كله ، وبحسب
رواية الزهرى كان لقيس ولابن عباس إمرة الجيش كله .

أما بعض الاختلافات الأخرى فيمكن تفسيرها بأنها مفروضة . فنحن نجد ن اليعقوبي والدينوري أيضاً حريصان على تبرئة الحسن وإلقاء التبعة على أهل الكوفة (الدينوري ص ٢٤٢ س ١٥) . أما عند الزهري فيظهر الحسن في ضوء غير جميل . فأما الخلاف الأكبر الذي يتجلى فيه الغرض فهو المتعلق بمسلك عبد الله ابن عباس جد الأسرة العباسية . ولا غرو أنه في عهد الخلافة العباسية كان من يقول الحق عن هذا القديس يعرض نفسه للأذى ، وعلى الأقل كان لا بد إما إظهار الدور الذي لعبه في صورة أحسن مما كان ، أو السكوت عن هذا الدور جملة^(١) . ويؤخذ من رواية الزهري ، وهو راوية من أقدم الرواة ، توفي قبل العصر

(١) يحكى سيف (Skizzen, II, 144) أن عبد الله بن عباس منذ كان في المدينة ، كان موضع ثقة على وكان دائماً يحصه النصح ، ولكن علماً لم يكن دائماً يستمع لنصيحته ؛ ثم عين والياً على البصرة . وفي أيام ولايته استنفر الناس وبعث منهم جيشاً لمعونة علي (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٦ و ٣٣٧٠) . ويحكى أبو مخنف أن ابن عباس قاتل قتالا شديداً يوم صفين ، وكان على ميمنة جيش العراق (الطبري ج ١ ص ٣٢٨٥ — ٣٢٨٦ ، ٣٢٨٩) . وكان على يريد أن ينتدبه حكماً في دومة الجندل (الطبري ج ١ ص ٣٣٣٣) ، ولكن علماً ، رغم أنه لم يستطع ذلك ، بعثه إلى الدومة ؛ وكان يكاتبه (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٤) هو ، متجاهلاً أبا موسى . ولكن أبا معشر (الطبري ج ٢ ص ٣٢٧٣ س ١٦) واليعقوبي (ج ٢ ص ٢٥٤ س ٣) يقولان إنه في سنة ٣٦ هـ (وأيضاً في سنة ٣٥ هـ) كان أميراً على الحج ؛ وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد اشترك في موقعة صفين على الإطلاق . ولذلك لا تعجب المدائني هذه الرواية ، فيقول (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٨) ، متابعاً لأبي معشر ، إن عبد الله بن عباس لم يشهد الموسم في عمل حتى قتل على . وفي سنة ٣٨ هـ خرج عبد الله من البصرة إلى على بالكوفة ، لكي يغزى بنفسه صديقه الحبيب في خسارته بفقد مصر ، ولم يرجع إلى البصرة إلا عندما انتفض الأمر في الولايات الفارسية ، ووجه عبد الله زياد بن أبيه إلى فارس ، وهذا ما يقوله المدائني (الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ ، ٣٤٣٠ ، ٣٤٤٣ ، ٣٤٤٩) . ويحكى أبو مخنف غير ذلك (الطبري ج ١ ص ٣٤١٣ ، ٣٤٤٧) ، فيقول إن عبد الله بن عباس عزى علماً بكتاب بعث به إليه من البصرة ، وإن الذي وجه زياداً إلى فارس هو على نفسه ، لا ابن عباس . ثم ظهر ابن عباس مرة أخرى ، لما أراد معاوية إكراه كبار الأشراف في "بيعة ابن زياد" . فيحكى المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦) أن خمسة نفر امتنعوا من البيعة ، ويذكر منهم عبد الله بن عباس ، ولكن معارضة ابن عباس هذه للطغيان ، على ما فيها من بطولية ، لم تأت له بأية نتيجة ، ولا بد أنه قد أوجعه كثيراً أن معاوية ويزيد تجاهلاه تماماً ، وكذلك يتجلى أيضاً في هذه المسألة معظم الرواة .

العباسي ، أن عبد الله بن عباس عرف ما أراده الحسن من مصالحة معاوية ، فسبقة ، وأخذ الأمان من معاوية واشترط لنفسه على ما أصاب من أموال . ثم بعث إليه معاوية خيلاً عظيمة ، فخرج إليهم ليلاً حتى لحق بهم ونزل معسكر أهل الشام ، وترك الجيش الذي كان عليه بلا أمير . وعوانة يسكت في هذه النقطة . أما اليعقوبي فهو يذكر بدلاً من عبد الله المشهور أخاه الأصغر عبيد الله بن عباس .

وقد عرف المدائني اختلاف الرواة حول ما إذا كان عبد الله أو عبيد الله هو الذي انتقل إلى جانب معاوية أيام الحسن (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وقارن ص ٣٤٥٣^(١)) ؛ فليس الأمر إذن مجرد خبايا في الاسم بين المخطوطات ، مرجعها إلى النسخ^(٢) . والمدائني يقرر أن الذي انتقل هو عبيد الله ، ويتابعه في ذلك عمر بن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ والصفحات التالية) والبلاذري (D M Z, 1884, 392s.) . ولكن عبيد الله كان والياً على اليمن من قبل علي ، لما قاد بُسر بن أبي أرطاة جيش معاوية إلى هناك ، ووقع ولدان صغيران له في يد بُسر ، فذبحهما ، وأصيبت أمهما بالجنون لذلك . ويقول الواقدي إن هذه الحملة وقعت عام ٤٢ هـ . ومعنى هذا أن عبيد الله كان ما يزال في اليمن في ذلك الحين معادياً لمعاوية ، فلا يمكن أن يكون قد انتقل إلى جانبه قبل ذلك بعام أو عامين . ومهما يكن من شيء فإنه لا يمكن أن يكون الواقدي قد عرف شيئاً على الإطلاق عن هذا الانتقال . أما عوانة فيقول إن هذه الحملة وقعت في النصف الثاني من عام ٤٠ هـ . فلا يمكن أن يصدق أحد أن عبيد الله يتعجل إلى هذا الحد في مصالحة قاتلي ولديه . على أن من الممكن معرفة الباعث الذي من أجله وُضع

(١) هذا ما يراه دي غوي — راجع : DMZ, 1884, 393 ، وهو على هذا الفرض يريد أن يقرأ عبيد الله بدلاً من عبد الله في كتاب الطبري ج ٢ ص ٢ س ٧ و ١٢ ، قارن Van Vloten, Opkomst der Abbasiden ، ص ١٢ هامش رقم ١ .

(٢) [الخلاف هنا في هذه النصوص حول من شهد الصلح بين الحسن ومعاوية — المترجم]

اسم عبيد الله بدلاً من اسم عبد الله معرفةً أسهل بكثير من العكس ؛ فلم يكن يصح أن يظل لاحقاً يجد العباسين الذين عاش المدائني في أيامهم ، وكان موالياً لهم ، ذلك العار ، وهو أن يكون أول من يصلح الأمويين الفجرة . أما أخوه عبيد الله فلم يكن هناك بأسٌ من التخلي عن الدفاع عنه .

على أن ذكر عبيد الله محل أخيه عبد الله لا يمكن أن يلقى عن عبد الله الوزير إلقاءً تاماً ؛ فالأموال التي يقول الزهري إنه أصابها وإن معاوية أعطاها له كانت أموالاً من بيت مال البصرة ، وكذلك الخمسة آلاف ألف التي أُعطيت للحسن كانت هي ما في بيت مال الكوفة . ويؤيد هذا ما يقوله أبو عبيدة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ - ٣٤٥٦) ، وهو يتفق مع الزهري على أن عبد الله بعد مقتل عليٍّ خرج من البصرة وشخص إلى الحسن ، وإنه عند ذلك حمل معه مالاً ، وهو يستهل الأمر على كل حال بأن يقول : إنها كانت أرزاقاً قد اجتمعت له وأنه حمل معه مقدار ما اجتمع له . ومعنى هذا أنه لم يأخذ أكثر مما قد استحقه رزقاً له^(١) ؛ ولكن مما يستلفت النظر أن المدائني وعمر بن شبة والبلاذري أيضاً لا ينكرون أن عبد الله خرج ببيت مال البصرة ، غير أنهم يزعمون أنه فعل ذلك في عهد عليٍّ ، بعدد موقعة النهروان . بقليل (DMZ, 1884, 392) وأن ذلك لا علاقة له بانتقاله إلى جانب معاوية^(٢) ؛ وعلى هذا تكون هناك خيانةٌ مزدوجة . فابنا العباس المتشابهان كثيراً في الاسم قد تركا منصبهما ، أحدهما بعد الآخر مباشرة على نحوٍ مُخْزٍ ، وأثريا في هذه المناسبة بأخذ مبالغ كبيرة من المال . ولكن

(١) [في رواية لابن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ - ٣٤٥٤) أن أبا الأسود الدؤلي شكاً لعلّ أكل عبد الله بن عباس ما تحت يده من أموال بغير علم علي ، فكتب علي لابن عباس في الأمر ، وانتهت المكتبة بأن كتب ابن عباس ، لعلّ أن سمع من يحب والياً بدلاً منه وأنه ظاعن عن منصبه — المترجم] .

(٢) لم يكونوا يعتبرون « إغناز » بيت المال شراً كبيراً ، لأن العادة جرت بذلك (الطبري ج ٢ ص ٧٥٢ و ٨٧٢) . أما مصالحة معاوية فشيء لا يفتقر .

الأرجح أن ذلك لم يحدث إلا مرة واحدة . وإذن فالزهرى على حق في أن المقصود هو عبد الله ، الذي كان موضع ثقة الحسن وثقة علي من قبل ، لا عبيد الله ، وأن عبد الله قد باع نفسه لمعاوية قبل أن فعل الحسن . بل نحن نجد في رواية المدائني أن عبد الله كان مع علي في سنة ٣٩ هـ . ولكن لا نلبث أن نجد ، بعد الصلح ، في مجلس معاوية (الطبرى ج ٢ ص ١١) .

ودانت الجماعة الإسلامية كلها لمعاوية في النصف الأول من سنة ٤١ هـ ، في صيف ٦٦١ م^(١) . ولكن الروايات مضطربة في تحديد تاريخ ذلك . فأما إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) فيقول إن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، أى الاثنين ٢٦ يولييه سنة ٦٦١ م . أما الواقدي فيقول (الطبرى ج ٢ ص ٩) إن معاوية دخل الكوفة في غرة ربيع الآخر سنة ٤١ هـ (أغسطس سنة ٦٦١ م) . وفي رواية لا يُذكر صاحبها (الطبرى ج ٢ ص ٨) أن الصلح بين الحسن ومعاوية تم في شهر ربيع الآخر ، وأن معاوية دخل الكوفة في غرة جمادى الأولى . أما المدائني فيقول إن معاوية دخل الكوفة لخمس بقين من ربيع الأول أو لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٧) . لكنه على كل حال كان في الكوفة في شهر رجب ، لأنه من هناك كان يرسل بُشر بن أبي أرطاة في البصرة ، وذهب بُشر إلى البصرة في رجب وبقى بهاستة أشهر (الطبرى ج ٢ ص ١٢) . على أن معاوية ولّى المغيرة بن شعبة على الكوفة في جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١١ و ١١٤) .

(١) ولا يخالف ذلك إلا اليعقوبى ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

الفصل الثالث

السفليانيون والحرب الأهلية الثانية

قام معاوية بن أبي سفيان طول مدة حكمة بمحاربة الروم في البر والبحر في همة ومن غير انقطاع ، مما لا نجده عند من جاء بعده ؛ وقد طرق أبواب عاصمة أعدائه ذاتها مرتين^(١) . أما مهمة توصيد سلطانه في العراق بعد إخضاعها فقد تركها لولاته في الكوفة والبصرة . والروايات التي وصلت إلينا توجه اهتمامها إلى هؤلاء الولاة دون غيرهم ، وهي تقص علينا من أخبار المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه أكثر مما تقص من أخبار معاوية نفسه ، كما أنها أيضاً تجعل عبد الملك ، وهو من هذا الوجه شبيه بمعاوية ، متوارياً وراء الحجاج . وكان هؤلاء الولاة الثلاثة المشهورون ثقفين كلهم ؛ فكانوا من الطائف ، تلك المدينة المرتفعة الجميلة الموقع ، على مقربة من مكة . وقد ارتفع شأن الطائف ، كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الإسلام ، واتخذت الطائف ، من حيث هي مدينة ، موقفاً ممتازاً فوق عصبية القبائل ، كما تجلى ذلك أيام الردة في سنة ١١ هـ . وقد انضم الثقفون من أول الأمر ، خلافاً للأنصار ، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة ، وخصوصاً إلى الأمويين ، وكان هؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقفون مشهورين بالدهاء والفطنة^(٢) ، وقد أقاموا الدليل على أنهم

(١) قارن في ذلك مجلة Göttinger Nachrichten ١٩٠١ ص ٤١٤ وما يليها ، حيث جمعت أخبار حملات الأمويين ضد الروم .

(٢) لما حاصر النبي عليه السلام مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم إلى جيشه عينة الفزارى لا اكي يقاتل نقيفاً ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبي عليه السلام فتح الطائف ، فيصيب هو جارية ببطونها ، اماها أن تلده رجلاً ، لأن نقيفاً كما يقول « قوم مناكير » ، يعني أنهم دعاة فتنون ؛ أما عينة نفسه فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه [لم يذكر المؤلف المصدر الذي =

كذلك . وقد ظهر منهم في عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب ، فكان منهم المختار الثقفى ومحمد بن القاسم ، فى كثيرين غيرهم من الرجال المبرزين .

وكان وراء المغيرة بن شعبه لما ولّاه معاوية الكوفة عام ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١ وما يليها وص ١١١ و ١١٤) حياة مملوءة بالأحداث . والروايات تعطينا صورة حية لهذا الرجل المقتن القليل المبالاة بالمبادئ . كان المغيرة طويل القامة جسيماً ، وكان قد فقد فى الحرب إحدى عينيه وإحدى ذراعيه ، وكان ضخماً الهامة ، أقلص الشفتين ، أصهب الشعر — وكان فى أواخر أيامه يصبغ شعره بالسواد — وكان شعره أربع ضفائر مدلاة^(١) . وقد فرّ المغيرة إلى المدينة قبل سنة ٨ هـ ، وهو ما يزال فتى ، وكان ذلك على أثر غدر دنىء برفقاء له ، قتلهم وهم نيام . وكان الإسلام يقبل من مثل هذا المجرم أن يبدأ حياة جديدة ، وكان يغفر له ماضيه . ولكن المغيرة ، وإن كان قد صار بحكم الظروف إنساناً جديداً ، فإنه بقى على ما كان له من الصفات القديمة النافعة . وقد تقرب إلى النبى عليه السلام ، وكان النبى يمكن أن ينتفع به ، فكلفه فى سنة ٩ هـ بهدم صنم اللات فى مدينة الطائف ، فلما قام بذلك احتاز مال اللات وحليتها من الذهب والجزع ، وكان جيد المعرفة بالمكان لأنه كان من الأسرة التى كانت لها سدانة ذلك الصنم . ولما دُفِن النبى عليه السلام طرح المغيرة خاتمه فى القبر قبل أن يُهال فيه التراب ؛ فكان بعد ذلك يزعم ، على الأقل ، أنه كان آخر من لمس الدفين الطاهر عليه السلام ، لى يننى على ذلك ما سيزعمه من حقوق . وقد أثبت « وصوليته » وطموحه الجرىء فيما بعد أيضاً ، فحاول أن يوهم الناس أنه من سادة الأرستقراطية الإسلامية ،

= اعتمد عليه فى هذه الحكاية ، وقد وجدناه فى سيرة ابن هشام ص ٨٧٤ من الطبعة الأوروبية — المترجم] .

(١) إن أول الحكاية عنه فى كتاب الأغاني غير موجود فى طبعة بولاق ، لكنها موجودة فى مخطوط بمدينة ميونيخ ، وقد نشرته عن هذا المخطوط فى مجلة DMZ ، عام ١٨٩٦م

فكان يحضر الأمور الكبيرة وأمور الدولة مثل جماعة الشورى التي عيّنها عمر ،
ومثل محكمة المحكمين في دومة الجندل ، من غير أن يدعى لذلك ؛ فإذا منع من
حضور الأبرسة جاء دون حرج في المرة التالية . وكان ، بمقدار ما كان عليه من
جراءة وورع ، يدعى أنه يستطيع أن يتكلم عن الإسلام مع الفرس المسلمين أحسن
من غيره ، وكان يختار لكي يبعث رسولا ومفاوضا ، وكانت معرفته بلسان الفرس
تهيئته لذلك (الطبرى ج ١ ص ٢٥٦٠) . أما المنصب الذي كان يطمح إليه فقد
وصل إليه في البصرة أولاً ، وذلك أنه ذهب مع عتبة بن غزوان ، أول وال عليها
— وكانت امرأة عتبة من الطائف . فلما مات عتبة خلفه المغيرة على البصرة ،
ويقال إنه نظم الديوان في البصرة ، فكان بذلك أسبق من غيره . ويحكى أنه
هزم فيل كان إسكوباد^(١) ، وأنه فتح ميسان ، بل الأهواز أيضاً . ولكن
أسقطه حبه الشديد للنساء ، فعزل سنة ١٧ هـ ، بسبب جريمة زنا مخزية ، وإن
كان التحقق في إثبات الجريمة عليه ، رغم أن ذلك كان تحت إشراف عمر بما هو
معروف عنه من شدة ، قد انتهى كما تنتهى المهزلة^(٢) . لكن الدور الذي قد قدر
للمغيرة أن يلعبه لم ينته بسبب ذلك ، فشهد موقعة نهاوند وبرز في القتال فيها .
وبعدها بقبائل ، في سنة ٢١ هـ ، جاء إلى الكوفة خلفاً لعمار بن ياسر . وفي أيام
ولايته تمت الفتوحات في بلاد ميديا (الجبل) وأذربيجان على يد أهل الكوفة .
وكان أبو لؤؤة غلاماً للمغيرة ، بعث به إلى المدينة ، فأذن له أن يعمل صانعاً
هناك ليؤدى للمغيرة ما عليه من خراج . وأبو لؤؤة هذا هو الذى قتل عمر بن

(١) يرى ماركفارت أن هذا هو النطق الصحيح لكلمة ابركوباد أو ايزكوباد ،
انظر : Marquart, Eranschahr ، س ٤١ [في الطبرى ج ١ ص ٢٣٨٦ ابرقباد ،
ايزقباد — المترجم] .

(٢) الحقيقة أنه لم تتوفر الشهادة الشرعية التي بدونها لا يمكن إقامة الحد . ويجيد
القارى ذلك عند صاحب الأغاني ، ج ١٤ ص ١٤٥ — ١٤٧ ، والطبرى ج ١ ص ٢٥٢٩ —
٢٥٣٣ — المترجم] .

الخطاب. أما في عهد عثمان فقد اندحر المغيرة إلى المحل الثاني، وهو لم يكن من الأمويين الذين كانت تسند إليهم جميع المناصب، ولا من خاصة الرسول الذين كانوا يعارضون الأمويين. ولم يشترك المغيرة في الثورة على عثمان، لكن شأنه ارتفع من جديد بسبب تلك الثورة. ويروى أنه أشار على عليّ بأن يولى معاوية على الشام ويأمره بأن يأخذ البيعة له، فلما لم يستمع عليّ لمشورته انصرف عنه وتوجه إلى معاوية. وقد افتعل كتاباً على لسان معاوية لكي يقيم الحج للناس في سنة ٤٠ هـ. وعرف معاوية كيف يقدر مثل هذا الشريك، فلم يلبث، بعد فتح العراق، أن أعاد إليه منصبه القديم في ولاية الكوفة.

وصل المغيرة، وهو كبير السن، و بعد ماضٍ فيه بعض التقلبات، إلى المستقر الذي أراد أن يبقى فيه. وفي أيام ولايته حرص على ألا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته، فكان موقفه إزاء معاوية وإزاء صراع الأحزاب في الكوفة موقفاً خالياً من الحماس على حد سواء، بل هو لم يكن يخفى ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٨)؛ وهكذا يصفه أبو مخنف على الأقل في حكاياته عن المستورد بن علفة التيمي الخارجي وحجر بن عدي، ولا شك أن أبا مخنف مُحَقِّقٌ^(١). وكان كلُّ همّ المغيرة في سياسته أن يحافظ على منصبه، وقد أفلح في ذلك أيضاً. فاستطاع أن يتفادى ما همّ به معاوية أحياناً من عزله (الطبري ج ٢ ص ٧١ فما بعدها و ص ١٧٣ فما بعدها و ص ٢٠٨ فما بعدها^(٢)). وقد قضى بسهولة على الخوارج الذين ثاروا تحت

(١) انظر ما ذكرته عن الخوارج في 1901, V, 2, Abhandl. der Göttinger Societät، ص ١٩ والصفحات التالية، وعن الشيعة ص ٥٦ فما بعدها من نفس المصدر.

(٢) [خشى المغيرة مرة أن يعزله معاوية، فذهب إلى معاوية يسأله أن يعزله ويقطع له منازل في قرقيسيا بين ظهري قيس. فارتاب معاوية بالمغيرة وخاف بائقة منه وقال له: لترجمن إلى عملك. فألح المغيرة، فازداد معاوية اتهاماً له وردّه إلى عمله. ويحكى أنه لما خاف العزل دخل على يزيد وعرض له بالخلافة، فأدى ذلك يزيد إلى أبيه؛ وعند ذلك ردّ معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل في البيعة ليزيد — المترجم].

رئاسة المستورد^(١) ، لأن أهل الكوفة أنفسهم بادروا إلى أن كفّوه إياهم . ولكن الخوارج كان لهم شأن أكبر من ذلك ، وكانت الغالبية الكبرى من أهل الكوفة تميل إلى عليّ ، لأنه المحارب الأول لاستقلال العراق السياسي . وكان أهل الكوفة ، من هذا الوجه شيعي النزعة ؛ وهم أيضاً لم يخفوا ذلك ، وتجراً البعض منهم على إظهار الكلام في فضل عليّ علانية في المسجد ، مما لا يحتمله معاوية . ولكن المغيرة لم يشتدّ في منهم من ذلك . وهو بدلا من أن ينهض للقضاء على بدايات الفتنة كان يرى ظهور نتائجها السيئة بشيء من الرضا ، لأنه كان على يقين أنه لن يشهدها حياً . وقد أراد العافية لنفسه ، وآثر أن يلقي العبء الكريه ، الذي كان منصبه يوجب عليه أن يحمله ، على كاهل من يخلفه^(٢) . وكان أهل الكوفة راضين عن ذلك كل الرضا بطبيعة الحال ، وقالوا فيما بعد ، إنهم ما وليهم وال بعده مثله (الطبري ج ٢ ص ١١٢) . وكان دائم الكذب ، وظل متمتعاً بما ينهب حتى نهاية أمره . أما عن تاريخ وفاته فالروايات مضطربة بين سنة ٤٩ إلى سنة ٥١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٧٦ — ٨٧ و ١١٤ ، والأغاني ج ١٤ ص ١٤٨) .

على أنه بعد أن كانت العراق قد خضعت لمعاوية ثار في البصرة حران ابن أبان ، فغلب عليها . فوجه معاوية إلى هناك قائده بُسر بن أبي أرطاة ، فبعد أن أعاد الهدوء إلى نصابه قفل بجيشه راجعاً^(٣) . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢

(١) [لم يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، والأغلب أنه يقصد ما جاء في الطبري ج ٢ ص ٢٨ فابعداً و ص ٤٠ فابعداً — المترجم] .

(٢) وهو يشترك في هذه الروح مع ولاية آخرين في ذلك العصر : ابن عامر (الطبري ج ٢ ص ٦٧) والوليد بن عتبة (ج ٢ ص ٢١٨) والنعمان بن بشير (ج ٢ ص ٢٣٩) وبيته (ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٦٥ فابعداً) .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١١ فابعداً — المترجم] .

ص ٢٢) إنه عند ذلك قام بحملته في الحجاز واليمن . وكان أول والٍ حقيقى عيّنه معاوية على البصرة (آخر سنة ٤١ هـ .) هو عبد الله بن عامر الأموى ، الذى كان قد تولى البصرة من قبل فى عهد عثمان سنين كثيرة . وكان السلطان فى البصرة فى يد القبائل ، لا فى يد الحكومة . ولما كانوا دائماً منقسمين ولا يخطر ببالهم أن يغفر بعضهم لبعض شيئاً ، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور ما يكون لذلك من نتائج . وكان ما أصاب الأمن العام فى الكوفة ، فى ظل الصراع السياسى — الدينى بين الأحزاب ، قليلاً . أما البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها حتى أكلوها ، وضعف سلطان الدولة فيها ، فكان السلب والقتل فى الشوارع والأسواق فاشيين فى النهار البصر . وكان هذا هو الميراث الذى خلفه عبد الله ابن عباس . ولكن ابن عامر كان رجلاً ليناً كريماً لا يأخذ على أيدي السفهاء ، وقد رأى كما رأى المغيرة فى كبره من قبل ، ألا يضحى بما كان يؤثره لنفسه من العافية فى سبيل تأييد سلطان الدولة . وكان لا يقطع يد لص ، فلما قيل له فى ذلك قال : « أنا أتألف الناس ، فكيف أنظر إلى رجلٍ قطعتُ أباه أو أخاه ؟ » . وقد ضجر معاوية من ذلك آخر الأمر ، فكتب إليه يستزيره فى سنة ٤٤ هـ ، فقدم على معاوية . فلما انتهت الزيارة ، سأله معاوية أشياء ، وسأل هو معاوية أشياء ، فكان مما سأله معاوية إياه أن يعتزل منصبه ، وكان مما سأل هو معاوية ألا يحاسبه على ما أصاب من أموال ، وأن يزوجه ابنته هنداً ، فزوجه معاوية إياها . وهكذا صار ابن عامر ختناً وصهرًا لمعاوية^(١) . وكان الذى خاف ابن عامر الحارث بن عبد الله الأزدي ، لكنه لم يكن يُقصد منه سوى أن يكون كالفرس المحلل ، لأن معاوية كان يريد أن يُعين زياداً . فلم يبق الحارث فى الولاية إلا أربعة أشهر ، وهذا هو ما يرويه المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١١ فما بعدها و ١٥ و ٦٧ و ٦٩ فما بعدها) .

(١) كان ابن عامر والد زوجة يزيد بن معاوية .

ومعظم الروايات المتعلقة بزياد ، عند الطبرى ، ترجع إلى المدائني أيضاً . وكان زياد ، شأنه شأن المغيرة بن شعبه ، الذى كان يظله بحمايته ، من أهل ثقيف الذين لم يلبثوا أن انتقلوا إلى البصرة ، لما أسست . وكان زياد على التدقيق من أسرة أبى بكر التى كانت فى البصرة ذات نباهة وكانت تملك أرضاً كثيرة (الطبرى ج ٢ ص ١٢)^(١) . ولم يكن زياد من أصل كريم ، وكان يسمى باسم أمه سُمَيَّة ، لأن أباه كان مجهولاً . لكن الإسلام فتح له أيضاً طريق الحياة ، فكان ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، يتولى الكتابة عند قبض الفتي وقسمته ، أو يتولى قسمته فى جيش البصرة ، لأنه كان يقرأ ويكتب ، ولا بد للحساب من معرفة القراءة . ويروى أن الخليفة عمر فطن منذ ذلك الحين إلى ما كان لزياد من مواهب فائقة . وفى أيام عليّ كان زياد شخصية بارزة فى البصرة ، وقد استخلفه عبد الله بن عباس عليها ، لما خرج إلى عليّ بالكوفة ، فأخذ زياد الثورة التى قامت بها تميم بإيعاز من معاوية . وقد ساعد الأزدُ زياداً فى ذلك ، وظل هو ذا كراً لهم يدهم عنده وإجارتهم له (الطبرى ج ٢ ص ٨٠) . وبعد ذلك بعثه عليّ إلى فارس لى يلزم هذه الولاية ، بعد أن تمردت عليه ، حدود الطاعة والنظام ، فقام بما كلف به ، متبعاً سياسة الإدارة واللين حيناً والدهاء وضرب أعدائه بعضهم ببعض حيناً آخر ، حتى صفت له فارس من غير حرب . وكان ذلك موضع إعجاب ، حتى قال أهل فارس : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والإدارة والعلم بما يأتى^(٢) . وبعد موت عليّ تحصن زياد فى قلعة قريبة من مدينة اصطخر ، وحض كل رجاله على أن يثبتوا أطول ما يمكن فى المقاومة

(١) فارت فيما يتعلق بصفات هذه الأسرة العبارة الشائعة التى يذكر الطبرى (ج ٢ ص ٨٠) أنها قيلت لعبيد الله بن أبى بكر ومى : « إنما أنت ابن كلبه تماورها الكلاب ، فجاءت بأجر وأسود وأصفر ، من كل كلب بما يشبهه » — فارت أيضاً ابن هشام ص ٨٧٤ س ١٧ .

(٢) [الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ — ٣٤١٨ و ٨٤٤٩ — ٣٤٤٥٠ — المترجم] .

لماوية . وأراد بُسرُ بن أبي أرطاة ، وكان معاوية قد وجهه إلى البصرة بعد مصالحة الحسن ، أن يُكرِّه زياداً على الشخصوس لماوية ، فحبس أولاده الثلاثة — وكان زياد قد خلفهم في البصرة — وهذَّده بقتلهم ، فلم يستجب إليه . فجاء أبو بكره إلى بُسر ، وكان بسر قد أخذ أبناءه أيضاً ، فاعترض على هذا الظلم للأبرياء وعلى مخالفة الأمان الذي أعطاه معاوية في صلحه مع الحسن لشيعته على ، وسأل بُسراً أن يُؤجِّلَه سبعة أيام ، حتى يذهب إلى معاوية . فركب أبو بكره إلى معاوية ، وكان بالكوفة ، فذهب وعاد في سبعة أيام ، وقتل تحت دابَّتَيْن . وفي اليوم السابع أخرج بُسر بني زياد ليقتلهم عند غروب الشمس ، واجتمع الناس لذلك ، وأعينهم طامحة ، ينظرون أبا بكره ، إذ بدا أبو بكره على راحلته المسكدودة ، وهو يُليح بثوبه . وكبَّر ، وكبَّر الناس ، وأقبل يسمى على رجله حتى أدرك بُسراً قبل أن يقتل الأولاد الأبرياء ، ودفع إليه كتاب معاوية الذي يأمره فيه بالكف عنهم وتخليه سبيلهم . وهكذا نجوا أبناء زياد في آخر لحظة بفضل أبي بكره^(١) .

وكلف معاوية المغيرة بالبحث عن أموال لزياد كانت مُودَّعة عند رجل من البصرة وأمره بتمذيبه ، فعمَّده تمذيباً صورياً حتى يبايع معاوية حبر التمذيب ، ثم كتب إلى معاوية أنه لم يُصبَّ عند الرجل شيئاً يحلُّ له أن يأخذه — وذلك أن الثقي لا يرزأ ثقيلاً مثله . على أن المغيرة تُلطِّف لزياد حتى أقنعه بأن يشخص إلى معاوية ويصل حبله بحبله ويصالحه ، ووقع ذلك سنة ٤٢ هـ . وقد أغضى معاوية عما لجأ إليه زياد من حيلة لاحتجاز ما كان قد صالح معاوية على حمله إليه بما كان في بيت مال فارس ، وإن كان معاوية قد استشفَّ الحيلة . وكان الأمر

(١) هذه القصة أسطورة بلا شك . ولكن لا يصح البحث عن وجه صحيح لها على النحو الذي يذهب إليه أ . موللر (A. Müller, 1, 337) من أن أبناء زياد كانوا في البصرة قد أحدثوا ثورة وأسرُوا فيها ؛ ذلك لأنهم كانوا أصغر سناً من أن يقوموا بذلك . [ويجد القارىء وقف زياد لإزاء التهديد وما قاله عن معاوية وما قاله لبسر ، وما كان بينه وبين معاوية حتى تم بينهما الصلح ؛ عند الطبرى ج ٢ ص ١١ — ١٥ ، ٢٢ — ٢٧ ... المترجم] .

في الواقع أمر صفقة بين أخوين عرف كل منهما لصاحبه قدره فيما بعد ، ولم تكن الفائدة التي عادت على كل منهما من ذلك بالفائدة القليلة .

وكانت آخر خطوة خطاها معاوية هي أن الحق زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان ، وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته ربطاً تاماً ، وكان ذلك فضيحة كبرى لا يذكرها الطبري ولا يؤرخها ، بل يتكلم عنها كشيء وقع لحسب (الطبري ج ٢ ص ٦٩ فما بعدها ، قارن أيضاً ج ٣ ص ٤٧٧ فما بعدها) . أما بقية الأمويين وزيد بن معاوية نفسه فلم يرضوا عن ذلك وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعي لأبي سفيان الذي يجوز أنه لم يكن له ابناً ، لا شرعياً ولا غير شرعي ، على الإطلاق . والأبيات المشهورة التي كثيراً ما تُذكر استهزاءاً ببذوته ليست لابن مفرغ المغني المتجول الذي قد قال هو أيضاً مثل هذه الأبيات ، بل هي لعبد الرحمن بن الحُكم ، أخي مروان بن الحُكم الذي صار خليفة فيما بعد (الطبري ج ٢ ، ص ١٩٤) . وكان لما صالح زياد معاوية سأل معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة ، فأذن له ، فشحّص زياد إلى الكوفة ، وكان عليها المغيرة ابن شعبة ، فكان لزياد كالأب الكريم ، وكان يكرم زياداً ويعظمه ، وكان زياد يتردد على المغيرة في بيته ويتودد إلى زوجته الشابة^(١) . ثم دعى معاوية زياداً إلى الشام ، وألحقه بأبيه أبي سفيان ، فلما رجع زياد إلى الكوفة ، داخل المغيرة الخوف من أنه بعد أن ربي زياداً سيحل هذا محله في الولاية . ولكن سرعان ما ورد من دمشق كتاب بولاية زياد على البصرة وعلى الولايات التابعة لها في المشرق : وهي خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان . وقدم زياد البصرة في آخر ربيع الثاني أو أول جمادى الأولى من سنة ٤٥ هـ ، والفسق في البصرة ظاهرٌ فاش . فأعلن عن سياسته في خطبة مشهورة ألقاها من على المنبر ، ولم

(١) [لا يؤخذ هذا كما يقوله الطبري ج ٢ ص ٢٧ . راجع ما يلي ص ١٢١ حيث جئنا بكلام الطبري في هذه المناسبة نفسها — المترجم] .

يبدأها بالحمد والتسليم ، بل تكلم فيما أراد أن يتكلم فيه مباشرة ، ولذلك سُميت خطبته « البتراء » ، وقد قال فيها^(١) : « أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلفاؤكم ، من الأمور العظام ، يَنْدَبُتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا بأى الله ... ولا تذكرن أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تُسبِقُوا إليه ، من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوكة في النهار المبصر ... قرَّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُنْضُونَ على الخنفس ، كل امرئ منكم يذب عن سَفِيهِهِ ، صَنِيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالجهلاء ، ولقد اتَّبَعْتُمُ السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرْمَ الإسلام ، ثم أطارقوا وراءكم كنوساً في مكائس الرِّيب . حرامٌ على الطعام والشراب حتى أُسَوِّيَهَا بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لينٌ في غير ضعف ، وشدةٌ في غير عنف . وإني أقسم بالله لأخذن الوليَّ بالمولى ، والمقيمَ بالطاعن ، والمُقْبِلَ بالمدير ، والمطيعَ بالمعصى ، والصحيحَ منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول : « أُنْجِ سَعْدٌ ، فقد هلك سعيد » ، أو تستقيمَ قناتُكم . إن كذبة المنبر بلمعاً مشهورة ، فإذا تعلقتُم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي .. فإبأى ودأج الليل ، فإبأى لا أوتى بمُدْجٍ إلا سفكتُ دمه ... وبأى ودعوى

(١) [ذكر المؤلف بعض الخطبة دون ذكر المرجع ، وقد تابعناه في اقتباسه بقدر الإمكان ويجد القارى الخطبة كاملة في الجزء الأول من كتاب البيان والنبين للجاحظ . وتدل هذه الخطبة على عقلية سياسية وعلى روح خاصة ، ولم يقبل زياد بعد أن ألفها مدح متعاق ، بل قبل ملاحظة المثدين ، وأجاب على من اعترض على ما في كلامه من تعسف ومن مخالفته لنص القرآن الذى جاء فيه : « ولا تزرر وازرةً » و « لا تزرر أخرى » ، بأن قال له : « إنا لا نبلغ ما تريد فيك وفي أصحابك ، حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً » ؛ فليست العقوبة في نظر زياد الإصلاح أو القصاص خشب ، بل هي للردع ، وليس الوصول إلى الغاية التشريفة مقصوداً على استعماله . سائل

الجنة — المترجم] .

الجاهلية ، لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم
تسكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق
قوماً أحرقناه ، ومن بقى بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ،
فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفوا عنكم يدي وأساني . ولا تظهر من
أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كان بيني
وبين قومٍ إحنٌ ، فجاءت ذلك دبراً أذني وتحت قدمي . فمن كان منكم
مُحسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزح من إساءته . إني لو علمتُ
أن أحداً قتل السِّلَّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهلك له سترًا ، حتى
يُبدى لي صفحته ؛ فإذا فعل ذلك لم أنظره فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على
أنفسكم ، فرب مبيتئس بقدمنا سيئس ، ومسرور بقدمنا سيبتئس . أيها الناس ا
إنا قد أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ،
ونذود عنكم بفيء الله الذي خولانا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، واسكن
علينا المدل فيما ولينا ؛ فاستوجبوا عدائنا وفياناً بمناصحتكم لنا . واعلموا أنني مهما
قصرتُ فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجياً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتاني
طارقاً بليل ؛ ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إيتائه ؛ ولا تُجيراً لكم بعثاً . فادعوا
الله بالصالح لأمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ،
ومق يصلحوا تصلحوا ؛ ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد ذلك غيظكم ،
ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ؛ مع أنه لو استجيب لكم فيهم
لكان شراً لكم ... وأبتم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ
منكم أن يكون من صرعاى .

وقد مكن هيئته في النفوس بأن ضرب أمثلة من الشدة التي لا تعرف الهوادة ،

وجرى على ذلك من أول الأمر^(١) . فأنلح في أن يُقرّر الأمن في نصابه ، لا في البصرة وحدها ، بل في الولايات الفارسية أيضاً ، وحتى في الصحراء العربية ، على نحو لم يمهده الناس من قبل . ونحسب أنه عجائب حقيقية . وقد خضع له خوارج البصرة أيضاً ، وكانوا لا يختفون إلا من حيث الاسم عن اللصوص الأدياء ، وكانوا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل اللصوص^(٢) .

ولما مات المغيرة في سنة ٥٠ أو ٥١ هـ ، خلفه زياد على ولاية الكوفة ، فصارت له الكوفة والبصرة معاً ، وهو أول من جُمعَتا له . وكان يقيم في كل منهما سنة أشهر ، وإن كان مقره الحقيقي البصرة . وكان عليه أن يصلح أمور الميراث السي الذي خلفه له المغيرة في الكوفة ، وذلك أن الشيعة هناك — وكان على رأسهم حجير بن عدي السكندى — حصبوا خليفته عمرو بن الحريث ، بينما كان يخطب في المسجد ، فأسرع زياد من البصرة لكي يؤدّبهم . وكان من حسن الحظ لزياد أن أنصار حجير منهوه من الاستجابة إلى دعوة زياد ، لما أرسل زياد في طلبه ،

(١) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ٧٧ ، تجد أن زياداً ، بعد خطبته البتراء قتل أعرابياً أخذته صاحب الشرطة ليلاً ، بعد الوقت المحدد للتجول ، هذا مع أن الأعرابي لم يكن يعلم بما اتخذه زياد من إجراءات ، و ص ٨٨ ، تجد أن زياداً قطع أيدي قوم حصبوه ، وهو يطلب في الكوفة . وراجع أيضاً السكامل المبرد ص ٥٨٢ من الطبعة الأوربية تجد أنه قتل امرأة وعراها لأنها خرجت مع قوم من الخوارج ، فلم يجزؤ النساء بعد هذا على الثورة مع الخوارج . وتجلي حزم زياد كما تجلت قسوته أيضاً في قضائه على حجير بن عدي وأصحابه — الطبري ج ٢ ص ١١١ — ١٥٥ — المترجم] .

(٢) Chavarig, p. 24s.

[فيما يتعلق بشدة زياد وحزمه ونجاحه في سياسته يقول الطبري : وكان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لماوية وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً ، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلاً لها ، وهابها الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ... وكان زياد يقول : لو ضاع جبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٢٧ — ٧٨] .

واتبع هو معهم طريق العصيان والمقاومة ، وبذلك جلب الأذى لنفسه وجنى عليها . وقد تمكن زياد من التغلب على المتمردين دون كبير مشقة . وذلك أنه لما بدت بوادر الشر طلب زياد من أشرف الكوفة أن يبعثوا قومهم وأقرباءهم عن حبر بن عدى ، ففعلوا ، وهكذا أعان أهل الكوفة أنفسهم ممثلاً للدولة ، رغم قلة حبيهم له ، على إخوانهم في المذهب . وقد وقعوا على شهادة باتهام حبر بن عدى وأصحابه بأنهم خلعوا طاعة الخليفة ودعوا إلى الحرب والفتنة . فأرسل حُجْرٌ وأصحابه إلى الخليفة في دمشق ، فقتل منهم ستة بسبب خلعهم الطاعة ودعوتهم إلى الفتنة ، ولأنهم لما سُئِلوا عن رأيهم في عثمان وعلى عابوا عثمان وأبوا أن يتبرأوا من على . ولكن الأمر لم ينته بذلك ، لأن قتل مثل هؤلاء الرجال الكبار أهاج النفوس إهاجة عميقة ، وأُنفِتَ بعض القبائل أن تمخّل عن إنقاذ رجالها من يد الدولة ، واعتبر الشيعة حُجْراً وأصحابه في المحنة شهداء^(١) .

وتذكر الروايات بعض الإصلاحات والإجراءات الإدارية التي قام بها زياد . فقد قام بإصلاح كبير في مسجد الكوفة (الطبرى ج ١ ص ٢٤٩٢) وأسر بإلقاء الحصى فيه . ويقول البلاذرى (ص ٢٧٧) إن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلّون ، فإذا رفعوا أيديهم ، وقد تَرَبَّتْ ، نفضوها ؛ فخشى زياد أن يظن الناس على مرور الأيام أن نفض الأيدي سنة في الصلاة ، فأمر بالحصى يُجمع وأُلْقِيَ في صحن المسجد^(٢) . وأهم من ذلك إجراء آخر اتخذ زياد ، وهو تقسيمه بجند الشرطة

Schia, p. 66ss. (١)

[راجع أيضاً فيما يتعلق بقصة حبر بن عدى وقاتله هو وأصحابه الطبرى ج ٢ ص ١١١ — ١٥٥ ، لتجد التفصيل الوافى لما أوجزه المؤلف — المترجم] .

(٢) [لا نجد عند الطبرى والبلاذرى في الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف ما يقوله من أن زياداً رفع الحصى من الأرض وأحل محله بلاطاً ثابتاً ، وذلك لكي لا يحصب المصلون الخطيب إذا أرادوا معارضته . ولما كان البلاذرى يقول إن الحصى أُلْقِيَ في المسجد فوق التراب ، فإن زياداً لم يرفع الحصى ، وبهذا لا يكون ثمة أساس لكلام المؤلف ، ولذلك عدلنا عنه — المترجم] .

في الكوفة أربعة أقسام ، في كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة ، من غير أن يكون على رأسهم رئيسُ القبيلة ، بل رئيسُ مُعَيَّنُهُ الحكومة^(١) . أما في تقسيم جند البصرة تقسيماً مماثلاً إلى خمسة أقسام ، فقد كانت الصبغة القبلية أكثر ظهوراً^(٢) . ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أن زياداً أراد أن يخفف من حدة التوتر السياسي في العراق ، وذلك لأنه حول خمسين ألفاً من أهل الكوفة والبصرة بعيالائهم إلى خراسان وأسكنهم فيما دون النهر (الطبري ج ٢ ص ٨١ ، ١٥٦ ، والبلاذري ص ٤١٠) .

وتُوفِّي زياد يوم الثلاثاء لأربع خلون من رمضان سنة ٥٣ هـ (الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ٦٧٣ م .) ، وهو يبلغ حوالي ثلاثة وخمسين عاماً . وتذكر حكايتان لا تخلوان من دلالة على روحه . فمثلاً في سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ خرج ابن عباس من البصرة قاصداً عليّاً بالكوفة ، واستخلف على البصرة زياد بن أبيه . ويحدث معاوية بن الحضرمي إلى البصرة ، فنزل في تميم بقصد إثارتهم على سلطان علي . فعند ذلك لجأ زياد إلى صبرة بن شيان ، أحد رجال الأزدي ، لكي يجيره هو وبيت المال . ثم أراد زياد أن يختير الأزدي ، فقال لجابر بن وهب الراسبي : لا أرى ابن الحضرمي يكف ، ولا أراه إلا سيقاتلكم ، ولا أدري ما عند أصحابك ، فأمرهم ، وانظر ما عندهم ! فبعد أن صلى زياد جلس في المسجد واجتمع الناس إليه ، فقال جابر : يا معشر الأزدي ! تميم تزعم أنهم هم الناس وأنهم أصبر منكم عند البأس ، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم حتى يأخذوا جاركم ويخرجوه من المضر قسراً ، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك ، وقد أخرجتموه وبيت مال المسلمين ؟ فقال صبرة ابن شيان ، وكان مفتخاً : « إن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء الحنات بن يزيد

(١) Schila, p. 58, n. 1.

(٢) [وجاء في الطبري ج ٢ ص ٢٩ : وقيل إن زياداً أول من سير بين يديه بالحرب ومشي بين يديه بالعمد واتخذ الحرس رابطة خمسمائة ... فكانوا لا يرحلون المسجد . قارن ص ٧٧ — المترجم] .

جئتُ ، وإن جاء شبان فقينا شبان » . وقد كانت هذه الكلمات ، بما فيها من مدحاجة ، سبباً في إثارة الضحك في نفس يزيد ، وكان يقول بعد ذلك : « إنني استضحكتُ ، ونهضتُ ، وما كدت مكيدةً قط كنتُ إلى الفضيحة بها أقرب مني للفضيحة يومئذ ، لما غلبني من الضحك » ^(١) . ويُحكى أيضاً أن زياداً كان يقول لزوجة المفيرة بن شعبة -- وكانت شابة جميلة -- وقد تزوجها زياد فيما بعد ، ألا تستر منه لأنه من أهل قرابتها ولا خطر منه ، لأنه « أبو المفيرة » . والواقع أن أحد أبناء زياد كان يسمى المفيرة ، على اسم المفيرة بن شعبة والى الكوفة ^(٢) . فيبدو من هذا أن زياداً لم يكن رجلاً مُتَزَمِّتاً في جده . أما في أمور مَنْصِبِهِ فلم يكن يسمح لأحد أن يمزح معه ، وهو لم يكن والياً غشوماً مستبدّاً إلا بالمعنى الذي يفهمه العرب ، والعرب يرون أن كل حكم قوي يجب أن يكون استبداداً ، خصوصاً إذا احتاج إلى السيف في قمع الرعايا النافرين . أما ما فعله زياد مع الشيعة في الكوفة فقد رواه لنا أبو مخنف — وكان شيعي النزعة — أو في رواية وأدقها .

(١) الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ — ٣٤١٥ ، ولا يستطيع الإنسان من نص طبعة ليدن أن يدرك ما هو الشيء المضحك في كلام صبرة بن شبان . وأسماء الأعلام بحرفة هناك ، ويمكن إصلاحها بالرجوع إلى الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ س ١ وابن دريد ص ١٥٠ و ١٥٤ . وأسماء الأعلام أسماء لقوم من تميم ، ولكن لها ، إلى جانب ذلك ، دلالة على أشياء أخرى . ويؤخذ من كلام صبرة أن الأزدي ينظرون ما نفعاه تميم وهم مستعدون لأن ينابلوا رجال تميم رجال أكفاء لهم . وقد تكلم صبرة في جد وزهو وانتخار ، وكان ذلك ، بما فيه من سذاجة ، هو الشيء المضحك الذي ضبط زياد نفسه لكي لا ينفجر ضاحكاً لما سمعه . [ترجمنا كلام المؤلف في الصلب متشين مع الأصل العربي ومفصليين بعض التفصيل ، وإلا لما فهم المقصود فهماً تاماً ، كما أننا جئنا بكلام صبرة في الصلب أيضاً ، لا في الهامش ، كما فعل المؤلف — المترجم] .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف . ولم أجد ما يدل على كل ما يقول . ونجد عند الطبري ج ٢ ص ٢٧٠ يأتي : « ودخل عليه (أي المفيرة بن شعبة) ، وعند المفيرة أم أيوب بنت عمار بن عقبة بن أبي معيط ، فأجلسها بين يديه وقال : لا تستري من أبي المفيرة ! فلما مات المفيرة تزوجها زياد ، وهي حدة » . ومن الواضح في النص أن الذي قال : لا تستري ، هو المفيرة بن شعبة ، فهو يقول لزوجته ، مداعباً زياداً : لا تستري من أبي المفيرة . لأن أحد أبناء زياد كان يسمى المفيرة . وليس في الكلام ما يدل على جمال الزوجة ولا على أن زياداً هو الذي كلمها . ويظهر أن المؤلف أخطأ في فهم ما تعود عليه الضمائر — المترجم] .

ولا يزيد كلام أبي مخنف عن أن زياداً أقر بعض الثوار الحديد ، من حمل السلاح خارجاً على أمره واكتفى بذلك . وهذا مما يبرر الشك في الروايات الغامضة التي تذكر أحياناً عن قسوته في تعقب الشيعة بوجه عام (الطبري ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٦٢٤) . وفي البصرة لم يكن للشيعة في الجملة كبير شأن ، وهم لم يخلقوا المتاعب ، وكان لرئيسهم شريك بن الأعور الحارثي مكانٌ كريم عند زياد وعند أبنائه من بعده . ولكن شريكاً لم يكن برأ بثقتهم فيه ، فقد أراد أن يستغفها ليفدر بعبيد الله بن زياد الذي تولى العراق بعد أبيه . وذلك أن شريكاً مرض ، فذهب إليه عبيد الله عائداً له في داره ، فأراد شريك أن يقتله ، وحرض على ذلك رجالاً كانوا في داره ، لكنهم استقبحوا هذا البغدر الشائن وكرهوه . ومات شريك بعد أيام ، ولم يتم له ما أراد (الطبري ج ٢ ص ٢١٨) . أما الخوارج فبكانوا في البصرة أخطر من ذلك ، وكانوا مختلفين ، فكان منهم أهل ورع وديانة ، وكان منهم متطرفون قليلو المبالاة بالمبادئ ، في غريزتهم ميلٌ إلى سفك الدماء . ولم يتعرض زياد إلى أهل الورع منهم ، بل هو ضرب على أيدي المجرمين ، ولم يقتل إلا بعض الثوار والمجرمين الذين جئ بهم إليه وقام الدليل على إجرامهم . وهو لم يلجأ إلى المذابح الرادعة . وقد أبان أبو بلال ، وهو أكبر رجل بين خوارج البصرة ، عن رضاه عن صنيع زياد ، وذلك بأن دعا على قومه الذين ألحقوا العار باسم الخوارج بسفكهم الدماء من غير تمييز^(١) ، أما ما يروى من أفعال زياد خلافاً لذلك فيجب أن يُعتبر تشنيعاً مفرضاً .

فأما الأداة الطيعة في أعمال القسوة المزعومة التي تنسب لزياد في البصرة فهو سمرة بن جندب ، كما يقول المدائني وتلميذه عمر بن شبة . وكان سمرة على الشرطة ،

(١) [لم يذكر المؤلف المرجع الذي اعتمد عليه ، وقد وجدت في كتاب الكامل للمبرد ص ٥٨١ — ٥٨٢ من الطبعة الأوربية أن أبا بلال دعا على رجلين من الخوارج سفكاً دواً . بغير حق . ولا يخرج ما في الطبري (ج ٢ ص ٩٠ — ٩١) عن ذلك — المترجم] .

ويقال إن زياداً أكثر من عدد الشرطة ليعتدوها أداة لطفياته . ولكن المعروف أنه لم يخذ ثورة الشيعة في الكوفة بواسطة الشرطة ، بل بدعوة أهل البصرة أن يكفوه أولئك الشيعة^(١) . وقد استطاع زياد في العراق ، كما استطاع في فارس ، أن يصل إلى غرضه دون الالتجاء إلى وسائل غير عادية . وكان بحسب العادة القديمة ، يجمع حوله في سمره جماعة من الأشراف فرض لهم عطاء شرفياً . وكان يتحدث معهم في الشؤون العامة حديثاً حراً^(٢) . وهو أيضاً قد جعل رؤساء القبائل مسئولين عما يحدث من قبائلهم . وقد مكّنه ما كان بين القبائل من تنافس من أن يضرب بعضها ببعض . وأهم ما كان تحت يده أموال الدولة ، وكان هو المسيطر على بيت المال الذي تجرى منه الأرزاق والأعطيات ، فكان عند الضرورة يهدن بمنه^(٣) . وكان تحت تصرفه شرطة ، لكنها لم تكن أكثر عدداً منها في عهد سلفه . فلم يكن تحت يده من الوسائل إلا ما كان تحت يد غيره من عمال الدولة ، غير أنه عرف كيف يستعملها خيراً مما استعملوها . وتدل كل الدلائل على أنه كان حاكماً « منصوراً مُساناً بأمر الله » ، وهو لم يفشل في شيء . وكان المسجد ، وهو المكان الذي تجتمع فيه عامة المسلمين ، هو مكان عمله ومكان نجاحه . وكأنه كان يعرف ما تجتثه ضمائر الناس ، وكانوا يحسّون بأنه يصيب منهم ما يحفظون . وكأن يعلن للناس ما يريد أن يتخذ من إجراءات ، ولم يكونوا يشكّون أنه سيكون عند قوله . وقد استطاع أن يحكم الناس بالكلام لا بالسيف ، وكان خبيراً بقلوب العرب . وكان العرب ، من قديم ، ذوي فطنة دقيقة وذوي إعجاب فطري بالتفوق العقلي ، إذا تجلّى في البصيرة النافذة إلى القلوب وإلى حقيقة

(١) [راجع فيما يتعلق بالبصرة الطبري ج ٢ ص ٩١ ، وبالكوفة ص ١١٧ — المترجم] .

(٢) [لا يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، وفي الطبري (ج ٢ ص ٧٨) أنه « كتب حسباناً من مشيخة أهل البصرة في صحابته ، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة » — المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ٩١ — المترجم] .

الأشياء ، وإذا تجلّى في التصرف الحازم الحاسم^(١) . وقد مدحه الحارث بن بدر الغداني أحد أشرف تميم ، وكان شخصية قوية مستقلة ، بقصيدة تشهد بما كان له من صفات كريمة ، ووصفه فيها بأنه وزير نعم الوزير^(٢) لأخيه الخليفة معارية . وإذا كان الفرزدق الشاعر^(٣) ، لما طلبه زياد ، قد خاف زياداً كما يخاف الصبي الأحمق حقيقة ، ففر منه ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فإن هذا لا ينال من قدر زياد ومن صفاته .

وكان الواجب الأول الذي لا بد من القيام به ، في البصرة والكوفة ، هو تثبيت سلطان الدولة فكان لا بد في البصرة من كسر شوكة القبائل والبشائر التي كان المبدأ الأعلى عندها هو الوقوف إلى جانب أفرادها ، بل إلى جانب مجرميها ، مهما كان جرمهم ، وحمايتهم من القبائل الأخرى ، بل من سلطان الدولة . فقد طغت روح العصبية القبلية في البصرة أكثر من طغيانها في غيرها ، وكان لذلك في مدينة كالبصرة مزدهة بالسكان من النتائج ما لا يمكن احتمالها ، وكان أفظع مما عُرِفَ في حياة البادية . فتعرض النظام والسلام إلى الخطر ، بعد أن كان محمد عليه السلام ، بفضل إقامة السلام والنظام ، قد خلص العرب من الفوضى . أما في الكوفة فقد كانت المعارضة للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت لها هذه الصبغة في المدن الأخرى . ولم تكن هذه المعارضة موجهة لسلطان الدولة في ذاته ، بل موجهة إلى حق الحكومة التي كانت قائمة ، أعني حكومة الأمويين ، في الحكم . ولم يكن بين الناحيتين فرق في نظر زياد ، فهو بعد أن

(١) [يظهر أن المؤلف قد أخذ بعض ما يذكره من صفات زياد من قصيدة قالها الحارث ابن بدر الغداني في مدحه له (الطبرى ج ٢ ص ٧٨) وأنه قد تصرف فيما أخذ — المترجم] .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٧٨ س ١٠ و ص ١٤٦ س ١٦ . وهذه أول مرة يظهر فيها هذه التسمية ، فيما أعلم .

(٣) [تجد حكاية الفرزدق وفراره لما طلبه زياد عند الطبرى ج ٢ ص ٩٤ — ١٠٨ — المترجم] .

صالح الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوع لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل . وعلى هذا الأساس نهض لإقامة النظام في الجماعة وإيجاد الرخاء في الحياة عامة وإلزام الناس القيام بواجب الطاعة المفروض عليهم كواطنين . وهو وإن كان ، نمشياً مع العادة السائدة ، لم ينس نفسه ، بل جمع أموالاً كثيرة ، فإنه لم يجعل همه استعمال سطرانه وسيلة في استغلال الولايات التي عهدت إليه إدارتها استغلالاً يحقق له أغراضه الخاصة . وكان يتخذ موقفاً فوق الأحزاب وفوق القبائل ، وكان يشعر تمام الشعور بأنه عامل من عمال الدولة ، وكان جاداً كل الجد في القيام بالواجبات التي يقتضيها منصبه والشعور به ، غير مبالي بالعافية لنفسه ، وغير مبالي بما جاء في القرآن^(١) الذي استطاع كل حاكم أن يستنبط منه السياسة التي تناسبه . وقد عرف له إخلاصه ، وعاد ذلك على أبنائه من بعده ، وكان ابنه عبيد الله أكبر شأنًا .

ومن ولاية العراق أيام معاوية ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، بحسب رواية أبي معشر والواقدي : تولى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد سنة ٥٣ هـ ، والضحاك بن قيس الفهري سنة ٥٥ هـ ، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي سنة ٥٨ هـ ، والنعمان بن بشير الأنصاري سنة ٥٩ هـ . وتولى البصرة سمرة بن جندب الفزاري سنة ٥٣ هـ ، وعبد الله بن عمرو بن عيلان سنة ٥٤ هـ ، وعبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ . وقد كان عبيد الله أشد من أبيه على خوارج البصرة ، حتى اضطغن عليه المعتدون منهم . وما يروى من حكايات شهداء الخوارج يرجع إلى عهده^(٢) .

أما أهل الشام الذين كان يحكمهم معاوية نفسه فلا نسمع عنهم إلا قليلاً ، إذا

(١) [يفصد المؤلف بطبيعة الحال مجاوزة زياد لبعض حدود الشرع عندما كان يريد القضاء على الفساد . راجع ص ١١٦ — ١١٧ مما تقدم — المترجم] .

(٢) Chavarig p. 25ss. [راجع أيضاً الطبري ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٨ —

المترجم] ..

قيس بما نسمعه عن غيرهم ، وذلك أن اتفاق مصلحتهم ومصلحته في السيادة جعلتهم متحدين معه ، لأن السيادة كانت للشام . وهذا يتجلى في امتلاكها لبيت المال ، وفي ارتفاع الأعطيات فيها^(١) . وكانت الشام أيضاً تختلف عن العراق اختلافاً داخلياً ، وذلك أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراثٌ غير تراث حياة البادية وغير تراث الإسلام ، وكانت حروب الفتح قد قذفت إليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل . فأقامت هناك أشبه شيء بالمستعمرات العسكرية . ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية إلى ظروف الحضارة وصارت في النقطة الوسطى لإمبراطورية كبرى ، فلا عجب ألا يتحول العرب دفعة واحدة من حياة البداوة إلى حياة المواطنين المتمدنين . على أنه قد هاجر إلى الشام أيضاً على أثر الفتح الإسلامي كثيرٌ من العرب ، خصوصاً من قيس الذين انتقلوا إلى شمال الشام ، واسكن الفالبية في الوسط كانت لـكـلب واقبائل قضاة ، إلى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة . وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ، ولم تكن قد جاءت مع مجيء الإسلام^(٢) . وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية — الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية ، فلم تخل هذه العوامل كلها من أن تترك أثرها فيهم . ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معاني جديدة عليهم . وكانت لهم أمرة قديمة من الأسراء دانوا لها بالطاعة دهرًا طويلاً ، ثم آل ما تعودوه من الطاعة إلى معارضة باعتباره الوارث الشرعي لأسرتهم السابقة ، فلم يكونوا بحاجة إلى أن يُبلَغَ حق الدولة عليهم ، وكانوا يعترفون بشرعية الرياسة الإنسانية

(١) « نقل معاوية بيت مال الدولة (من الكوفة) إلى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام

وأعطى أهل العراق » هذا ما يقوله تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦١٠١ ، ٦١٠٢)

(٢) وكانوا يفتخرون بأنهم لم يهاجروا إلى الشام حديثاً كالآريين (الجماعة من ٦٥٩ —

القائمة ، ولم يتمتعوها بالرجوع إلى مقاييس القرآن وإلى المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيقراطية . وكانوا يطيعون أميرهم أينما وجههم ، لأنهم لم يكونوا في داخل أنفسهم يبالون بالإسلام أكثر مما يبالى هو نفسه . وقد أثبتوا أنهم كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جميعاً ، ولا سيما أنهم لم يضعف تعوُّدهم للحرب ، بل كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدريباً منظماً . وقد كان معاوية من الحكمة بحيث حافظ على حماسهم وحميتهم ، وإن كان هو من حيث النسب ، قد كان أقرب لقيس منه لغيرها . ولم يكن الخلاف بين القبائل قد اتخذ في ذلك العصر صورة التنازع الخبيث بين الأحزاب السياسية . وكان معاوية يقيم في دمشق ، في المنطقة التي كانت تسكنها كلب ، غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين . وتزوج امرأة من أشرف كلب ، وجعل ابنها يزيد وارثاً لعرش الدولة . وكان التصاهر ، بحسب تفكير العرب ، بمثابة التحالف السيامي . وقد تبين أيضاً أنه كذلك ، فكانت كلب كلها تشعر أنها أصهار للخليفة وأخوال لولي عهده^(١) . ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين أُذِجُوا في الدولة العربية بعد الفتح في المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ، ذلك أن دخول عرب الشام في الإسلام جاء مبكراً ، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار ، وإن كان إسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة . وبستطيع الإنسان أن يفترض أن الصلة التي نشأت بين معاوية وبينهم أيام كان والياً كان لها أثر في علاقته بأهل الشام من غير العرب الذين ظلوا على النصرانية . ولا يبدو أن التعارض بين السادة والرعية كان في الشام على الحدّة التي كان عليها في العراق في أول الأمر . ولم يكن المسلمون في الشام يعيشون بمعزل وفي مستعمرات مخصصة لهم . بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد في المدن القديمة مثل دمشق وحمص .

(١) وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان من كلب أيضاً . ومن الجائز أن يكون الثار لقتل عثمان اتى قبولا بين كلب نفسها لهذا السبب ، وأنه ربما بين أحضان معاوية .

وقدسرين وغيرها ، بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله ، نصفه مسجد ونصفه كنيسة . وكان التراث المسيحي في فلسطين والشام موضع تقدير كبير من جانب المسلمين (ديوان النابغة ، قصيدة رقم ١ بيت رقم ٢٤^(١)) . وكانت الشام في نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة . وفي بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة ، وصلى بعد ذلك على جبل الجلجلة ، ثم صلى عند قبر السيدة مريم . ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالى الإنسان في تقدير ما لذلك من دلالة . وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزائه إزاء العقيدة المسيحية في أنه لما جاء إليه اليعاقبة والمارونية ليفصل بينهم في نزاعهم في العقيدة ، غرّم اليعاقبيين ، بعد أن غلبوا أمام خصومهم ، عشرين ألف دينار ، أخذها منهم وأرسلهم . على أن معاوية لم يكن في قلبه تماق عميق بالإسلام ، وكان ، من حيث هو سياسي ، متسامحاً مع رعاياه المسيحيين وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله ، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه في عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان ، وهذا ما يتبينه الإنسان من روح الروايات التي ترجع إليهم .

ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليفة) عن رعاية معاوية للنصارى (σπουδὴ τῶν χριστιανῶν) ؛ وقد برهن عليها معاوية بأن بنى لأهل الرها كنيسة لهم التي هدمها الزلزال . وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نفوذاً ، وقد أورثه ابنه يزيد ، وكان سرجون نصرانياً^(٢) . أما ما يروى من أن

(١) [بيت النابغة هو :

علمهم ذات الإله ودينهم قويم فإيرجون غير العواقب

وهذا البيت قاله النابغة في مدح الحارث الأصغر الفسائي معذراً له عما وُشئ به إليه من أمر الجزدة . ودلالة البيت على ما يقوله المؤلف غير دقيقة وغير كبيرة — المترجم] .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٢٨ و ٢٣٩ . أنظر أيضاً التنبيه ص ٣٠٢ و ٣٠٧

و ٣١٢ . أما عند تيوفانيس في أخبار سنة ٦١٦٣ فنجد أن Σέργιος ὁ τοῦ Μανσοῦρ ἀνὴρ (سرجيوس بن منصور ، الرجل النصراني) لا يذكر إلا في أيام عبد الملك ، =

معاوية استعمل والياً نصرانياً على خراج حمص فهو خبرٌ موضوعٌ من غير شك^(١).
وبستطيع الإنسان أن يأسف من أن معاوية ، بدلاً من أنه صار خليفة ، لم يقتصر
على الشام فيؤسس هناك دولة وطنية ، ربما كانت تكون أثبت دعائم من تلك
الدولة العالمية التي لا تنتمي إلى أمة معينة والتي انهيار فيها سلطان العرب في المشرق .
ويجوز أنه قد خطرت له هذه الفكرة ، لكنه أحسن أن تنفيذها مستحيل ، لأنه
كان لابد له في ذلك من أن يتنصل من الإسلام وينضم إلى الكنيسة المسيحية ،
وذلك أن الإسلام في ذلك الحين لم يكن يسمح بوجود دول خاصة .

وكان الثار لمقتل عثمان هو الأساس الذي بنى عليه معاوية حقه في وراثة
الخلافة^(٢) . أما بأى معنى قام بالثار لعثمان فهو يتجلى في أنه من أجل ذلك اتحد
مع عمرو بن العاص الذي ألّب على عثمان أخبث تأليب . ولم تكن التقوى ولا البر
بعثمان باعناً لمعاوية ؛ وهو أيضاً لم يتبع سنة سلفه المقتول . ولقد قبل النتيجة
الإجمالية لحكم عثمان ، وهي سيادة بني أمية ، ولكنه لم يعط للأمويين جميع
المناصب التي تدرّ المنافع . ولقد عمل محاولات باستعمالهم^(٣) ، لكنه كان في العادة

== فارن أيضاً الطبرى ج ٢ ص ٨٣٧ [إن سرجون بن منصور الروى كان كاتب معاوية وصاحب
أمره ، وكان يستشير . ويذكر الطبرى أن يزيد بن معاوية كان يستشير أيضاً . وكتاب
« التنبيه » الذي يذكره المؤلف هو كتاب التنبيه والإشراف للسعودى طبعة ليدن سنة
١٨٩٣ م . وهو الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية — المترجم] .

- (١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٥ [فارن الطبرى ج ٢ ص ٨٢ — المترجم]
- (٢) [ليراجع القارىء إلى جانب ما هو معروف في كتب التاريخ كتاباً كتبه معاوية إلى
على (الكامل للمبرد ص ١٨٤) ، وهو يبين موقف معاوية وموقف أهل الشام ، وفيه يطلب
معاوية : ١ — بضرورة معاقبة قتلة عثمان ٢ — بأن يكون أمر اختيار الخليفة بعد
ذلك شورى بين المسلمين . ويقول معاوية ١ — إنه هو نفسه لم يبايع علناً ، ومن هذا
الوجه لا يعتبر خارجاً عليه ، مثل طلحة والزبير ، ٢ — « إن أهل الشام لم يبايعوه ، فلا
تلتزم طاعته كما تلتزم أهل البصرة . هذا ولا يدفع معاوية مكانة على في الإسلام — المترجم] .
- (٣) [جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٦٧) أن معاوية كان إذا أراد أن يولى رجلاً من
بنى حرب ولأه الطوائف ، فإذا رأى منه خيراً وما يعجبه ولأه مكة معها ، فإن أحسن الولاية
جمع له مههما المدينة . فهل المقصود من عبارة المؤلف مثل هذا أيضاً ؟ والمعروف أن معاوية
ولى بعض الأمويين أمصاراً أخرى — المترجم] .

لا يلبث أن يعزلهم . ولم تصبح دمشق مقرهم الرئيسي ، بل بقيت المدينة مقراً لهم . وبعد أن كانت المدينة حتى أيام معاوية عاصمة للدولة وجدت نفسها وقد رجعت إلى مركزها القديم ، شأنها في ذلك شأن الطبقة الأرستقراطية التي كانت لا تزال تقيم فيها . وقد جعل معاوية ولاية المدينة من نصيب الأمويين عادةً ، ولكن أين مروان بن الحكم ، وهو في عهده أمير على المدينة ، من مروان بن الحكم الذي كان في عهد عثمان كاتب الدولة ، الذي لا يخرج عن أمره شيء ! فلا عجب أن ينظر مروان بن الحكم إلى ابن عمه المقيم بدمشق والذي يظله بحمايته بعين غير عين الرضا ، وأن أقرباء معاوية في المدينة كانوا بالإجمال يطعنون عليه . وقد تجملت روحهم خصوصاً في غيرتهم من زياد ، لأنهم كانوا يخشون أن تتجه إرادة معاوية إلى تقوية بيته على الأسرة كلها من طريق زياد وأن يجعل لزياد الخلافة من بعده . أما معاوية فقد حاول من جانبه أن يثير الشحنة بين فروع أسرة بني أمية في المدينة لكي يضعف بذلك من قوتهم (الطبري ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥) ^(١) . وأيضاً لم يصل الوثام بين معاوية وبين قريش بوجه عام إل ما كان ينبغي أن يكون عليه . وقد اشتكى هو من ذلك ، وقال إنه لم يؤخرهم إلا لأنهم انصرفوا عنه . وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة ، وكان هؤلاء منذ زمان طويل يحقدون على بني أمية ، لأن بني أمية هم الذين زحزحوهم عن الحل الأول الذي لم يزل لهم في مكة حتى وقعت موقعة بدر . وقد فعل معاوية إلى جانب ذلك ما يجعل لبعضهم له سبباً خاصاً ، وذلك أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، صاحب المكانة الكبيرة ، كان عظيم الشأن في الشام ، وقد مال إليه

(١) [كان معاوية بن أبي سفيان بن العاص ومروان بن الحكم . فكتب الأول ، وهو وال على المدينة ، يأمره بمصادرة أموال الثاني ، فلم يفعل ، فعزله . ثم ولي الثاني ، وأمره أن يصادر أموال الأول ، فلم يفعل ، وكتب لمعاوية يعبر عن تعجبه من أنه يضعف بعض الأمويين على بعض ، ويدخل بينهم القطيعة والشحنة — ويرد عليه معاوية متصلاً من ذلك — المترجم] .

أهلها ، « لَمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ آثَارِ أَبِيهِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَلَغَنَائِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْضِ الرُّومِ » ، وَكَانَ عَامِلًا عَلَى حِمصَ ، فِي وَسْطِ الشَّامِ ، وَكَانَ لَهُ نَفُوذٌ كَبِيرٌ مُسْتَقِلٌ بِذَاتِهِ . فَنَافَهُ مَعَاوِيَةُ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُ ، فَأَمَرَ مَعَاوِيَةُ الطَّيِّبَ النَّصْرَانِيَّ ابْنَ أَثَالِ أَنْ يَحْتَالَ فِي قَتْلِهِ ؛ وَضَمِنَ لَهُ ، إِنْ هُوَ فَعَلَ ذَلِكَ ، أَنْ يَضَعَ عَنْهُ خِرَاجَهُ مَا عَاشَ ، وَأَنْ يُولِيَهُ جَبَايَةَ خِرَاجِ حِمصَ . فَدَسَّ ابْنَ أَثَالِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ شَرِبَةً مَسْمُومَةً ، فَشَرِبَهَا فَاتَّ^(١) . وَبَسْطَطِيعَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَوَّرَ مَبْلَغَ تَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي نَفُوسِ بَنِي مُخَزُومٍ .

أَمَّا عِلَاقَةُ مَعَاوِيَةَ بِأَشْرَافِ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْتِ الرَّسُولِ ، وَبِآلِ الصَّحَابَةِ الْأَوَّلِينَ وَبِالْأَنْصَارِ أَيْضًا ، فَكَانَتْ ، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، عِلَاقَةً رِيْبَةً وَعِدَاوَةً .

أَمَّا كِبَارُ الْعَمَالِ الَّذِينَ وَلَّاهُمْ مَعَاوِيَةُ أَهْمَ الْوَلَايَاتِ فَلَمْ يَكُونُوا أُمُويِينَ ، بَلْ هُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ قُرَيْشٍ ، إِذَا اسْتَشْنَيْنَا وَاحِدًا مِنْهُمْ . وَكَانَ مَعَاوِيَةُ ثَاقِبَ النَّظَرَةِ فِي مَعْرِفَةِ مَنْ يَصْلُحُ لَخِدْمَتِهِ ، فَكَانَ يَخْتَارُهُ لَهَا ، وَكَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَضُمُّ إِلَى جَانِبِهِ مَنْ يَعْنِيهِ أَنْ يَضُمَّهُ وَأَنْ يَرْتَبِطَهُ مَعَهُ ، بَلْ كَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتَخْدِمُ فِي أَغْرَاضِهِ مَنْ يَرْتَابُ هَوْبَهُ ، كَمَا فَعَلَ بِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ الَّذِي كَانَ وَهُوَ وَالٍ عَلَى مِصْرَ لَا يَشْعُرُ أَنَّهُ عَامِلٌ مِنْ قِبَلِ مَعَاوِيَةَ بِقَدْرٍ مَا كَانَ يَشْعُرُ أَنَّهُ حَلِيفٌ لَهُ (الدِّينَوْرِيُّ ص ٢٣٦^(٢)) . وَنَجِدُ أحيانًا كَثِيرَةً إِحْصَاءَ خِدْمَتِهِ وَأَصْحَابِ

(١) [يَذْكُرُ الْوُثَّانُ دَسَّ السَّمِّ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الطَّيِّبِ النَّصْرَانِيَّ دُونَ أَنْ يَصْرَحَ بِأَنْ ذَلِكَ كَانَ بِإِيعَازٍ مِنْ مَعَاوِيَةَ ، ثُمَّ يَقُولُ : وَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِإِيعَازٍ مِنْ مَعَاوِيَةَ . وَاسْكَنْ كَيْفَ يُمْكِنُ تَعَالِيلَ حَرَسِ الطَّيِّبِ عَلَى قَتْلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ ، وَقَتْلَ خَالِدِ ابْنِهِ لِطَّيِّبٍ نَفْسِهِ بَعْدَ ذَلِكَ . هَهُنَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَالْحِكَايَةُ مَرْجُودَةً عِنْدَ الطَّبْرِيِّ (ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣) ، وَمِنْ كَمَا ذَكَرْنَاهَا ، وَيُمْكِنُ لِلْمُؤَرِّخِ أَنْ يَنْقُدَهَا . عَلَى أَنَّهُ جَاءَ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي (ج ١٥ ص ١٣) حِكَايَةُ دَسِّ ابْنِ أَثَالِ السَّمِّ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَحِكَايَةُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ قَدْ سَأَلَ أَهْلَ الشَّامِ فِيمَنْ سَتَخَافُهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ ، فَسَكَتَ مَعَاوِيَةُ وَأَضْمَرَهَا فِي نَفْسِهِ . وَقَدْ حَرَصَ مَعَاوِيَةُ عَلَى قَتْلِ مَاثَالِ الْأَشْتَرِ ، فَتَنَاهَا عَامِلُ خِرَاجِ نَصْرَانِيٍّ فِي مِصْرَ بِدَسِّ السَّمِّ لَهُ أَيْضًا — الْمُرْجَمُ] .

(٢) [كَتَبَ مَعَاوِيَةُ إِلَى عَمْرٍو يَطْلُبُ — نَظَرًا لِكَثْرَةِ النِّفَقَاتِ الَّتِي لَا يَدُّ لَهُ مِنْهَا — أَنْ يَمِيْنَهُ بِخِرَاجِ مِصْرَ ، فَأَجَابَهُ عَمْرٍو فِي آيَاتٍ شَعْرِيَّةٍ : أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِصْرَ لَا مِيرَانًا وَلَا وَلَايَةً ، بَلْ بِشَرْمَلٍ ، يَقْصِدُ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ اتِّفَاقَهُ مَعَ مَعَاوِيَةَ عَلَى أَنْ تَسْكُونَ لَهُ مِصْرَ طَعْمَةً ، نَظِيرَ مُسَاعَدَتِهِ لِمَعَاوِيَةَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ — الْمُرْجَمُ] .

ثقتة^(١) ، ومعظمهم يبدون رجالاً جُدداً (homines novi) ، وكان معاوية يشاورهم ، معتبراً إياهم مستشاريه (σύμβουλοι) ومعتبراً نفسه المستشار الأول (πρωτοσύμβουλος)^(٢) . وعند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦ فابعدها) مثالٌ على ذلك . وقد كانوا يستطيعون أن يعارضوه ، وهم فعلوا ذلك أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٤٤ و ١٨٥) . ولكن معاوية كان لا يدع الزمام يخرج من يده ، وكان يعرف كيف يهذب من يمنحهم شيئاً من الحرية ، وكانت لا تغضبه خشونة الناس ولا ظهورهم بالانفعال المسرف . وكانت شيفته هى شيمة السيد العربى ، من الطراز القديم . ولم يهبه الله الشجاعة العسكرية ، وإن كان لم يزل يوجه أهل الشام لقتال الروم قتالاً لم ينقطع . وبمقدار حرمانه من الشجاعة العسكرية توفرت له صفات أخرى من صفات السيد فى أعلى صورها : اللين الحكيم الذى كان يستطيع به أن يُجرّد الخصم من سلاحه وأن يُخزّيه ، والحلم الكامل ، وضبط النفس فى أكل صورة . وتروى حكايات لا تحصى فى تصوير معاوية ، هو والأحنف بن قيس التميمى ، مثلاً أعلى لهذه الصفات . وكان الأحنف معاصراً لمعاوية ، وكان معاوية يقدره تقديراً عظيماً . فقد كان معاوية فى جوهر أمره رجلاً دبلوماسياً وسياسياً ، وكان يترك الأمور حتى تنضج ، ولم يكن يتعجلها إلا فى بعض الأحيان ، وربما استعمل دس السم فى الوصول إلى ما يريد . ولم يكن ينكر أن أصله من طبقة التجار ،

(١) الطبرى ج ١ ص ٣٢٧٢ و ٣٢٦٠ و ج ٢ ص ١٣٩ و ١٩٧ و ٢٠٥ و كتاب الأغاني ج ١ ص ١٢ .

(٢) نجد عند تيوفانىس (فى أخبار سنة ٦١٦٩) هذه العبارات Μαυίας καὶ οἱ σύμβουλοι αὐτοῦ (معاوية ومستشاروه) (وفى أخبار سنة ٦١٧١) Μαυίας ὁ τῶν Σαρακηνῶν πρωτοσύμβουλος (معاوية المستشار الأول للعرب) . وقد انتقلت هذه التسمية إلى ما بعد أن فقدت مبررها بزمان طويل ، حتى وصلت إلى الخلفاء العباسيين . ونجد عند تيوفانىس (فى أخبار سنة ٦١٦٥) لقباً خاصاً ὁ δευτέρου ἀδελφός (الأخ الثانى) . وكان حاجب (Majordomus) ملك النبط يسمى أخاه . وكان بعض كبار موظفى السلوقيين يسمون أبناءهم ، فإذا كان هناك أكثر من أخ كان هناك ترتيب فى الدرجة .

وكان لا يلجأ إلى القوة إلا كارهاً . وقد استولى على العراق ، وهو لم يصل إلى ذلك من طريق فتحها بأكثر مما وصل إليه من طريق شرائها . وكان إذا استطاع أن يصل إلى غرضه بالمال لم يبخل به ، ولكنه كان لا يعطى شيئاً بدون غرض ، وربما كان يجد شيئاً من المتعة في أن يخيب أمل من يطمع منه في كرم لا يعرف التمييز أو من يظن أنه يستطيع أن يخدعه . وفي رواية عن الشعبي ، وهو من أقدم الرواة ، عن قبيصة بن جابر الأسدي أنه قال : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أحب رفيقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه . وكان إذا استمع اتكاً ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه . ورغم أنه كان طويلاً مُسَمِّناً ، فإنه كان يبدو في عين العرب جميلاً مهيباً إذا لبس عمامته السوداء واكتحل^(١) . ويقول الواقدي إنه توفي يوم الخميس للنصف من رجب سنة ٦٠ هـ ، وهو يوافق ١٨ يولييه سنة ٦٨٠ م . ويقول إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) إن يزيد ابنه تولى الخلافة يوم الجمعة منتصف رجب . أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٢١٦) فيقول إن ذلك كان في هلال رجب . ويذكر أبو معشر أن مدة حكمه تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر ؛ ويذكر الواقدي على ذلك سبعة وعشرين يوماً . ودُفِن عند الباب الصغير في دمشق ، وكان على قبره بيت مبنى . وظل يزار قروناً ، وكان قبره يفتح للزيارة كل يوم اثنين وخميس^(٢) .

٢ — ولما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه مُنْذِرَةً بالمتاعب ، كما هو

(١) [يجد القارىء الكثير مما يرجع إليه كلام المؤلف هنا عن معاوية والكثير من أخباره في كتب التاريخ ، خصوصاً عند الطبرى ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢١٦ ، والمسعودى في المروج ج ٢ ص ٥٤ ، فابعداً من طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وفي التنبية ص ٣٠٢ من الطبعة الأوروبية ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢ فابعداً من الطبعة الأوروبية . وراجع فهرس الأغاني والكامل للبرد — المترجم] .

(٢) المسعودى ج ٥ ص ١٤ . وقد لجأ الكميث الشاعر من غضب الخليفة هشام إلى قبر ابنه معاوية [أى معاوية بن هشام لا معاوية بن أبي سفيان كما يظن المؤلف — المترجم] (الأغاني ج ١٥ ص ١١٥ و ١١٧ و ١٢١) .

الحال دائماً . وقد عمل معاوية ، خلافاً لمن تقدمه ، على أن يذلل المصائب قبل ظهورها . وكما أنه هو لم يربط أشراف العرب بنفسه إلا من طريق البيعة التي أخذها لنفسه منهم أنفسهم ، فإنه أراد أن يضعها ، وهو ما يزال حياً ، في أعناقهم لولده يزيد ليكون خليفة من بعده ؛ ولكنهم ، فيما عدا أهل الشام بطبيعة الحال ، كانوا يأملون أن يُلقوا بعد موته النير من على أعناقهم . وزعموا أنه بإرادته جعل الحكم وراثياً من الأب لولده ، على ما هو معروف عند الساسانيين والروم^(١) ، إنما يرتكب بدعة منكرة . على أنه وإن كانت الرياسة عند العرب تورث في داخل نطاق القبيلة أو العشيرة ، فإنها ليست وراثية في أفراد البيت الواحد من الأب إلى الولد . أما بحسب الإسلام ، فليست الرياسة لبني الإنسان على الإطلاق ، بحيث يدعون الحق في وراثتها ، ورغم هذا ، فإن الضوضاء التي قامت حول ذلك لم تكن في حقيقة الحال مطابقة لسيبها المزعوم ، وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقرراً ، وحتى إذا كان الابن ليس هو صاحب الحق في ذلك فإنه لم يكن بحال من الأحوال محروماً منه . فأما الذي يظهر أنه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة . ولكن المسلمين كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثمَّ سنةٌ مقررةٌ في هذا الباب على الإطلاق ، ولم يكن هناك أى نظام مقرر لوراثته الخلافة .

أما رواية ما فعله معاوية ، وهو ما نجده عند ج . فايل (G. Weil) و أ . مولر (A. Müller) ، فهو موجود عند ابن الأثير (ج ٣ ص ٤١٧ فما بعدها) على هذا النحو : كان ابتداءه أخذ البيعة ليزيد قد جاء من قبل المغيرة بن شعبة ، وكان قصْدُ المغيرة في الحقيقة سيئاً . فقد بلغه أن معاوية يريد عزله عن الكوفة ، فرأى أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه ، لتظهر لمعاوية كراهته للولاية ولكي يستريب

(١) إن الآيات المذكورة عند المسعودي (ج ٥ ص ٧١) تذكر بالآيات التي قالها الخطيب ضد أبي بكر .

معاوية من خروجه منها ، فبقيته في منصبه . ثم دخل المغيرة على يزيد ففأتمحه في وجوب عقد البيعة له ، وحدث يزيد أباه بذلك ، فأحضر المغيرة وسأله ، فعرض الفكرة ، وراقت الفكرة معاوية ، فأمره معاوية أن يرجع إلى عمله ويتحدث مع من يثق إليه في ذلك . فلما عاد المغيرة إلى الكوفة قال لمن كان ينتظر نتيجة معيه للبقاء في الولاية : « لقد وضعت رجل معاوية في غرر بعيد النجى على أمة محمد ، وفقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً » . ولكن لم يلبث أن جاء إلى دمشق وفد من رجال الكوفة ، كان المغيرة قد أعطاهم شيئاً من المال ، يطالبون بعقد البيعة ليزيد^(١) . ولكن معاوية آثر الأناة وكتب إلى زياد يستشير ، فاستشار زياد عبّيد بن كعب النميري ، وقال له : إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه قد عزم على بيعه يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس . ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أوقع به من الصيد . ثم طلب زياد من عبّيد بن كعب أن يلتقى معاوية ويخبره عنه بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة في الأمر ، فإن ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد . فقال له عبّيد : لا تُفسد على معاوية رأيه ولا تُتمت إليه ابنه ! واقترح عبّيد أن يلتقى يزيد سراً وينصح له بترك ما ينقم عليه الناس من أجله ، حتى تستحكم الحجة لمعاوية عليهم . وأراد عبّيد بذلك أن يرضى معاوية وأن ينصح ليزيد . وقد قبل زياد هذه المشورة وعمل بها ، فبعث عبّيد بن كعب إلى دمشق ، وكتب هو إلى معاوية يقترح عليه التّؤدة . على أن معاوية لم يكشف عن نيته إلا بعد موت زياد ، وبدأ باستطلاع الجوّ في المدينة ، وهي عاصمة الإسلام الأولى التي كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقي للبيعة ، وخصوصاً أن كبار المسلمين

(١) [جاء على رأس الوفد موسى بن المغيرة أو أخوه عمرو . فقاموا خطباء وتكلموا معربين عن حرصهم على وحدة أمة محمد وعمّا يجب على معاوية ، وقد كبر ، من تعيين خلف له ، لكي لا ينتثر عقد الأمة ، ثم أشاروا بيزيد . وسأل معاوية موسى أو عمرو ، بعد أن تكلموا : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال : بكذا ، قال معاوية : لقد وجد دينهم عندهم رخيصة — المزعج] .

الذين كان لا بد أن تؤخذ منهم البيعة قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها . فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم ، عامله على المدينة : إني قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي ؛ وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي ، وكرهت أن أقطع دون مشورة من عندك ، فأعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك . فلما عرض مروان عليهم الأمر قالوا : أصاب ووفق ، وقد أجبتنا أن يتخير لنا ، فلا يالو . وكتب مروان إلى معاوية بما قالوه ، فرد معاوية عليه ، وذكر عزمه على اختيار يزيد خليفة بعده . فلما أبلغ مروان كبار أهل المدينة بدأت مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم ، وكان الاعتراض آتياً من قبل أبناء كبار الصحابة خاصة ، كالحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر^(١) وعبد الله بن الزبير . ولكن معاوية لم يتراجع عما أراد ، فكتب إلى عماله أن يوفدوا الوفود من ذوى النباهة من جميع الأمصار إلى دمشق ، وخطب فيهم موعظاً أمر الإسلام ومتكلماً بوجه عام في حرمة الخلافة وحقها وفيما يجب على الرعية من طاعة أولى الأمر ، ثم ذكر فضل يزيد وصفاته وعلمه بالسياسة وعرض بيعته . وكان معاوية قد أوعز من قبل إلى رجل منهم لكي يتكلم بعده ويدعوه إلى بيعة يزيد ويحثه عليها . فقام الضحاك ابن قيس الفهري وغيره ، فتكلموا وخلصوا إلى الغاية التي عرض بها معاوية دون أن يصريح بها ، وطالبوا بأخذ البيعة ليزيد . ولم يتند منهم إلا الأحنف ابن قيس ، فتكلم موعظاً عن ارتيابه^(٢) . ولكن الذهب محى ما كان لكلامه

(١) [لما أبلغ مروان بن الحكم كبار أهل المدينة عن معاوية أنه اختار فلم يأل وأنه عزم على استخلاف يزيد بعده ، قال عبد الرحمن بن أبي بكر : كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية ! ما الحيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجملوا هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل — المترجم] .

(٢) [تكلم من تكلم منهم في وجوب صون وحدة الأمة من الفرقة وسفك الدماء وفي صفات يزيد ، غير الأحنف بن قيس فإنه لما سأله معاوية : ما تقول ؟ أجاب : نخافكم إن =

من أثر . وتلقى يزيد بيعة الوفود ، ولم تبق إلا بيعة أهل الحجاز . فركب معاوية بنفسه إلى هناك في ألف فارس ، فلما وصل إلى المدينة خرج النفر المتنعون الذين كان يهيمهم أن يأخذ البيعة منهم خاصة ، فيمن خرج للقاءه ؛ فاستقبلهم بكلام شديد جارح ، فخرجوا إلى مكة . فسار وراءهم ، فلما خرجوا للقاءه بمكة كلمهم كلاماً ليناً رقيقاً وأكرمهم ووصل كلاً منهم بصلات . ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما أراد إلا آخر الأمر عندما قرب مسيره إلى الشام . وقد حاول أن يبين لهم أنه لا يضيرهم كثيراً أن يكون يزيد خليفة من حيث الاسم ، وأن يكونوا هم الذين يتمتعون بالحكم من حيث الحقيقة والواقع . فسكتوا طويلاً ، وتكلم ابن الزبير آخر الأمر ورفض باسمهم جميعاً ما يريده معاوية منهم .^(١) عند ذلك قال معاوية : « إني قد أحببت أن أتقدم إليكم ، إنه قد أعذر من أنذر . إني كنت أخطب منكم ، فيقوم إلى القائم منكم ، فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحل ذلك وأصفح ، وإني قائم بمقاله ، فأقسم بالله لن رد عليّ أحد كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه » ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : « أقيم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف . فإن ذهب رجل منهم برد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ! » . ثم خرج ، وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين وخيارهم ، لا يُبترز أمرٌ دونهم ولا يُقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس عند ذلك ، وكانوا يتربصون بيعة أولئك النفر » . وسكت الأربعة الكبار خوفاً على أنفسهم من القتل ،

== صدقنا ونخاف الله إن كذبنا ! وأنت : ... رعلانيته
ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضى ، فلا تشاور فيه ؛ وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا — المترجم .

(١) انظر ما يلي ص ١٤٠ — ١٤١ هـ .

وأقروا معاوية على كذبه ؛ فخرج معاوية إلى المدينة وأخذ فيها أيضاً البيعة ليزيد .
 هذه رواية مصنوعة صنفاً ماهراً . أما ما يروى من أن المغيرة كان أول من
 بعث فكرة مبايعة يزيد ، وأن عبيد بن كعب النميري أشار على زياد بأن
 لا يعارض معاوية ، فإن اللدائي يحكيه لنا أيضاً ، وحكايته موجودة عند الطبري
 (ج ٢ ص ١٧٣ فما بعدها) في حوادث السنة التي يذكرها ابن الأثير . أما فيما
 يتعلق باجتماع وفود الأمصار عند معاوية لمبايعة يزيد فلا نجد عند الطبري من
 ذلك شيئاً ، وهو لا يذكر (ج ٢ ص ١٩٦) إلا مجيء وفد من البصرة على رأسه
 عبيد الله بن زياد ، وأن معاوية أخذ من الوفد البيعة لابنه يزيد ، ولكن
 الطبري يذكر ذلك في حوادث سنة ٦٠ هـ ، وهي السنة التي مات فيها معاوية .
 ويظهر أن حكاية مجيء هذا الوفد البصري صارت فيما بعد حكاية أعم ، فأصبحت
 تذكر بالنسبة لوفود أخرى ، وقدّم تاريخها . ونجد ما يدل على مرحلة الانتقال
 إلى هذا التعميم عند المسعودي^(١) . أما الحادث الجوهري الطريف الذي تصل
 فيه رواية ابن الأثير إلى ذروتها ، أعنى ظهور معاوية بنفسه بهذا المظهر العنيف في
 الحجاز ، فهو مجهول تماماً في الروايات القديمة^(٢) (ولا يعرفه المسعودي أيضاً) .
 ولا نجد عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ نقلاً عن اللدائي) أكثر من أن معاوية
 بعد وفاة زياد دعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ، إن حدث به حدث
 الموت ، فيزيد ولي العهد ؛ فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر^(٣) ؛

(١) جزء ٥ ص ٦٩ ، ويذكر أن ذلك كانت في سنة ٥٩ هـ . ويجب تصحيح كلمة :
 الأنصار ، في كلام المسعودي ، بجعلها : الأمصار .

(٢) [على أنه عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦) رواية موجزة تدل بلا شك
 على أن معاوية قدم الحجاز وتكلم مع النفر المتنعين عن بيعة يزيد ، مع كل منهم على حدة ، في
 البيعة ليزيد . وهذه الرواية تصور دهاء معاوية ، لأنه أفهم كلا منهم أنه معارض وأنه يتزعم
 الآخرين وحصل منه على الوعد بالبيعة إن هم بايعوا — المترجم] .

(٣) الخامس ابن عباس ؛ وكان لابد من أخذ البيعة منه . واللدائي من الموالين المخلصين
 لبني هاشم .

ولا يُذكر مكان قراءة هذا الكتاب ، ولا يذكر زمانه ، لأن عبارة : بعد وفاة زياد ، لا تدل إلا على مجيء حادث بعد حادث ، والغالب أن ذلك حدث في دمشق . وعند الطبري (ج ٢ ص ١٩٦) ، إلى جانب ما تقدم ، أن معاوية في سنة ٦٠ هـ أخذ بيعة وفد البصرة ليزيد^(١) ، وعهد إليه بما يجب عليه أن يصنع بالنفر القرشيين الأربعة الذين امتنعوا عن البيعة^(٢) . ويحكي عوانة أن معاوية أوصى بما عهد به ، وكان يزيد غائباً ، إلى الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المرسي . فنستطيع على هذا أن نفترض أن معاوية حفظ خطته زماناً طويلاً في نفسه ، وحاول في أواخر حياته تنفيذها : ولكن ذلك لم يُجدِ نفعاً عند الأشخاص الذين كان الحصول على موافقتهم وبيعتهم أهم ما في الأمر ، ذلك لأنهم ، بحسب

(١) [قدم هذا الوفد مع عبيد الله بن زياد كما تقدم — المترجم] .

(٢) [قال معاوية في وصيته لابنه : « يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد . وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قریش : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء واللهو . وأما الذي يجهل لك جنوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ؛ فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً » (الطبري ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٧) . ونجد عند الطبري وصية معاوية لابنه في سورة أخرى تقلا عن عوانة (ج ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨) ، وفيها يوصيه بإكرام أهل الحجاز وبلاستجابة لأهل العراق كلما طلبوا عزل وال ، ولو طلبوا ذلك كل يوم ، تفادياً للثورة من جانبهم ، وبأن يتخذ أهل الشام بطانة وعدة لنفسه ، لينتصر بهم ، وبأن يرجعهم إلى الشام إذا انتصر على عدوه لكيلا يأخذوا بغير أخلاقهم . ثم يعرب معاوية عن خوفه من قرشيين ثلاثة : الحسين بن علي وهو رجل خفيف يرجو معاوية أن يكفيه الله يزيد بمن قتل أباه وخذل أخاه ، يعني أهل العراق ، ويوصي معاوية ولده بمراعاة حقه ورحمه والصفح عنه ؛ وعبد الله بن عمر ، وهو رجل قد وقذه الدين ، فليس ملتصقاً شيئاً ؛ وعبد الله بن الزبير ، وهو خب ضب ، لا بد من التردد له ، إلا أن يلتصص صلحاً . ويوصي معاوية ولده أن يقبل منه الصلح ، وأن يحقق دعاء أهل الشام ما استطاع — المترجم] .

الإسلام ، كانوا أحق بالخلافة من يزيد . أما ما عدا ذلك فليس بمقبول قط^(١) . ولا يبدو أنه بما يتفق مع شيمة معاوية ، وهو السيد الحليم ذو السن ، أن يذهب إلى الحجاز في فترة يسود فيها السلام ، على رأس ألف فارس لكي يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة القظة ، ثم يدألهم ويتودد إليهم ، ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر^(٢) ، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء في الحقيقة : لأنهم هم أنفسهم — وكانوا أهم من كل من عداهم — رفضوا بيعه يزيد رفضاً باتاً . أما القول بأنه دخل مكة على رأس قوة مسلحة ، وفي مكة لا في المدينة أخذ البيعة ، فهو قول أبعد ما يكون عن الإمكان . والكلمات والمناظر المسرحية التي قد زُيّنت بها القصة ، لا تجعلها أقرب إلى التصديق . ويبدو أن كل الرواية التي تقدم ذكرها لا تعدو أن تكون ظلاً قد أرسل مقدماً للحوادث التي وقعت في أول خلافة يزيد ، وسننتقل إلى الكلام عنها .

(١) [راجع ما تقدم ذكره من أن الطبري يحكى ما يدل على ذهاب معاوية إلى الحجاز وكلامه مع نفر المتنين . والشك جائز في مظهر العنف الذي يحكى ابن الأثير أنه ظهر به معاوية في الحجاز . والذي يتحصل مما عند الطبري وما عند ابن الأثير : هو أن معاوية قدم إلى الحجاز ، وأنه تكلم مع نفر المتنين ، لكن ابن الأثير ينفرد بحكاية التدخل العنيف — المترجم] .

(٢) [يذكر ابن الأثير أن معاوية لما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس ، فلما نظر إليه قال : لا مرحباً ولا أهلاً ، بدنة يترقرق دمها ، والله مهريقه ، فقال الحسين : مهلاً ، فإنى والله لست بأهل لهذه المقالة ، فقال معاوية : بلى ولشر منها . وافية ابن الزبير فقال : لا مرحباً ولا أهلاً ، خب صب ، يدخل رأسه ويضرب بذنبه ، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ... ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال له معاوية : لا أهلاً ولا مرحباً ، شيخ قد خرف وذهب عقله . ثم فعل بابن عمر مثل ذلك . فأقبلوا معه ، لا يلتفت إليهم ، حتى دخل المدينة ، فحضروا بابه ، فلم يؤذن لهم ، على منازلهم ، ولم يروا منه ما يحبون ، فخرجوا إلى مكة وأقاموا بها ... ثم خرج معاوية إلى مكة ، فلقه الناس ، فقال أولئك : نلتقاه ، فلعله قد ندم على ما كان منه ... فكان أول من لقيه الحسين ، فقال له معاوية : مرحباً وأهلاً يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين ، وأمر له ببدابة فركب وسأيره ، وفعل معاوية مثل ذلك بالباقيين ، وأقبل يسأيرهم ، لا يسير معه غيرهم ، حتى دخل مكة ، فكانوا أول داخل وآخر خارج ، ولا يمضى يوم إلا ولهم صلة ... حتى قضى معاوية نسكه وحمل أثقاله ، وقرب مسيره ، فقال بعض أولئك نفر لبعض : لا تخدعوا ، فاصنع بكم هذا الحبحم ، وما صنعه إلا لما يريد ، فأعيدوا له =

يحكى أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٢١٦ فما بعدها) أن يزيد بعد أن تولى الخلافة هلال رجب سنة ٦٠ هـ كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة ، يخبره بموت أبيه ، وأمره في هذا الكتاب^(١) ، الذى كان صغيراً حتى كأنه أذن قارة ، بأن يأخذ الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير — ولا يذكر فى خطاب يزيد إلا هؤلاء الثلاثة — بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا . فاستشار الوليد مروان بن الحكم ، رغم أن ما بينهما كان متباعداً ، فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة النفر الممتنعين ، خصوصاً الحسين وابن الزبير ، إلى البيعة والدخول فى الطاعة ؛ فإن فعلوا قبل ذلك منهم ، وإن أبوا قُدِّموا فضرِبَتْ أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ؛ فإنهم إن علموا به من غير مبايعة وثب كل امرئ منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمتابذة ودعا إلى نفسه . أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدر خطر ، ورأى أنه يظن أنه لا يميل إلى القتال ، وهو لا يحب أن يؤلى على الناس إلا أن

= جواباً ، وافقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير ، فأحضرهم معاوية وقال : « قد علمتم سيرة فيكم ، وصلى لأرحامكم ، وحلى ما كان بينكم . ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تغزلون وتؤمرون وتجيئون المال وتقسمونه ، لا يعارضكم فى شيء من ذلك » فسكنوا ، فقال « ألا تجيئون ؟ » مرتين ، ثم أقبل على ابن الزبير فقال له : هات ! لعمري إنك خطيبهم ، فقال ابن الزبير : « نخشرك بين ثلاث خصال ... تصنع كما صنع رسول الله صلعم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر » ، قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلعم ولم يستخلف أحداً ، فارضى الناس أبا بكر . قال معاوية : « ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأخاف الاختلاف » ، قالوا : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ، ليس من بني أبيه ، فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ، ليس منهم أحد من ولده ولا من بني أبيه » ، قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال : فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله ، قال : فإني قد أحببت ... الخ كما فى ص ١٣٧ مما تقدم — المترجم] .

(١) [يؤخذ من الطبرى : ج ٢ ص ٢١٦ ، أن يزيد كتب عبد الكتاب الذى فيه نعى أبيه للوليد ، صحيفة أخرى خاصة بأخذ البيعة من الثلاثة القرشيين — المترجم] .

يُدْفَعُ إليه هذا الأمر عفواً^(١) . ولكن الوليد كان رجلاً يحب العافية ، فأرسل الوليد يدعو الحسين وابن الزبير في ساعة لم يكن يجلس فيها للناس ، فصرفاً رسوله ، وتكلما فاستنتجا أن معاوية قد مات ، وأن الوليد يدعوها للبيعة قبل أن يقشروا في الناس خبر موت الطاغية . ثم ذهب الحسين إلى الوليد فأقرأه الوليد كتاب يزيد ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : إن مثله لا يعطى بيعته سرّاً ، بل على رؤوس الناس علانية ، واقترح على الوليد أن يخرج ويدعو الناس إلى البيعة ويدعوه إليها معهم ، فرضى الوليد بذلك . وأراد مروان أن يقنع الوليد بحبس الحسين حتى يبائع أو بضرب عنقه ، فأبى الوليد ذلك واستقبحه . أما ابن الزبير فإنه لما بعث إليه الوليد جعل يتلصكاً ، حتى خرج من المدينة ليلاً . فبعث الوليد إلى الحسين ، فاستهمل الرسل حتى الصباح ، ثم خرج من المدينة في الليل ، بعد ابن الزبير بليالته ، وذهبا إلى مكة في آخر رجب سنة ٦٠ هـ (أول مايو سنة ٦٨٠ م) . على أن الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢٢ فما بعدها) يحكي أن ابن عمر لم يكن في المدينة لما وردنهم معاوية ، وأنه لما عاد إليها انتظر حتى جاءت البيعة من البلدان ، فتقدم إلى الوليد وباعه ، وكذلك فعل ابن عباس ، وكان الرأي هو أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً .

وطبيعي أنه لم يلبث أن عزل الوليد بن عتبة عن المدينة ، فحل محله أموي آخر ، هو عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال بمكة . ويحكي

(١) [كان معاوية صادق النظر في ابن عمر عند ما قال إنه رجل قد وقذته العبادة ، فليس ملتصقاً شيئاً . وفي الطبري (ج ٢ ص ٢٢٣) أنه اتى الحسين وابن الزبير ، وهما في طريقهما إلى مكة ، فسألهما : ما وراءكما ؟ فقالا : موت معاوية والبيعة ليزيد ، فقال لهما : اتقيا الله ولا تفرقا كلمة المسلمين . وجاء في كتاب الأغاني (ج ١ ص ١٢) أن ابن الزبير وسط صفة زوجة ابن عمر لدى زوجها لكي يبائع ابن الزبير فقال ابن عمر لزوجته لما أكرثت الكلام في ابن الزبير وأنه إنما انشق على بني أمية غضبا لله ورسوله والمهاجرين : أما رأيت بفلات معاوية الشهب التي كان يحجج عليهن فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن . وكان ابن عمر حريصاً على جمع كلمة الأمة ومستعداً لمبايعة يزيد إذا بايعه الناس — الطبري ج ٢ ص ٢٢٢ — المترجم] .

الواقدي أن ذلك وقع في رمضان سنة ٦٠ هـ ، و يروى آخرون غير الواقدي أنه وقع في ذي القعدة (الطبري ج ٢ ص ٢٢٦) .

ورضى الحسين أن يستخرجه أهل الكوفة من مأمنه في مكة^(١) ، وذلك أنهم ألحوا عليه بالكتب والرسل في أن يقدم إليهم ويتقبل بيعتهم ، ووصل إليه أول رسالهم بكتاب منهم في العاشر من رمضان سنة ٦٠ هـ . فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل قبل أن يذهب هو ، وذلك لكي يرى صدق ما كتبوا به له ولكي يمهّد له الأمر . ولم يلبث أن وصل حتى دبّ إليه أهل الكوفة وبايعه منهم عدد كبير (اثنا عشر ألفاً) ، ولكنه لما وجد نفسه ، قبل أن يستحكم له الأمر ، مضطراً إلى قتال عبيد الله بن زياد — وكان يزيد قد عينه والياً جديداً على الكوفة مكان النعمان بن بشير الذي عزل ، لأنه كان حليماً ناسكاً يحب العافية ويكره العنف — نادى بشعاره ، فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف ، وقصد القصر الذي فيه عبيد الله بن زياد ، وكان عبيد الله قد جمع وجوه أهل الكوفة عنده ، فلما وصل مسلم إلى القصر ، ومعه أنصاره من أهل الكوفة ، أشرف وجوه أهل الكوفة على عشائهم وجعلوا يكلمونهم ويصرفونهم عن مسلم . فأخذ أصحابه يتسألون من حوله ، حتى أمسى ومعه خمسمائة ، فلما اختلط الظلام ذهبوا أيضاً ، وبقى وحده يتردّد في الطرق . ثم آوته امرأة كان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث ، فعرف أمره ، وانطلق إلى ابن الأشعث ، فأخبره بأمر مسلم . وبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله ، فأحاطوا بالدار ، فخرج إليهم مسلم وقاتلهم قتال الأبطال وردّهم مرتين ، وهو يقول :

(١) [راجع فيما يتعلق بهذا وبما يلي من مقتل الحسين الطبري (ج ٢ ص ٢٢٧) فـأبعدها إلى ص ٣٩٠) ، ومروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ٨٦) فـأبعدها من طبعة القاهرة (١٣٤٦ هـ) — المترجم] .

أقسم لا أقتل إلا حُرّاً ! وإن رأيتُ الموتُ شيئاً مُرّاً
كلُّ امرئٍ يوماً ملاقي شرّاً أخاف أن أكَذِبَ أو أغرّاً

و بارزه من المحيطين بالدار بكير بن حمران ، فخرج كل منهما صاحبه . ثم أُعطيَ له الأمانُ ، وأُخذَ إلى عبيد الله مُجَرِّداً من سلاحه ، فأسلمه لبكير ابن حمران ، فذبحه فوق القصر ورمى رأسه إلى الأرض وألقها بجثته . وفعل عبيد الله مثل ذلك بعروة بن هاني المرادي الذي كان أراد نُصرةَ مسلم . وأرسل زياد رأس مسلم إلى دمشق ، وصُلِبَت جثته في الكوفة ، فكان أول رأسٍ أُزِيل إلى الشام وأوَّلَ جثة صلبت من بني هاشم . وهكذا انتهى أمره نهايةً محزنة في ٨ أو ٩ من ذي الحجة . وفي نفس الوقت ، في الثامن من ذي الحجة ، خرج الحسين ابن علي من مكة مع أهله وولده ، رغم نصيحة أخيه وأهله له ألاَّ يُغرَّر بنفسه ثقةً بأهل الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل . وكان قد شجعه ما كتب به إليه مسلم في الشطر الأول من مهمته ، يخبره ببينة اثني عشر ألفاً ، ويطلب إليه القدوم إلى الكوفة . ولقد علم الحسين ، وهو في طريقه ، بالنهاية التعمسة التي انتهى إليها مسلم ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع ، أو هو لم يرد أن يرجع ، فقتل وهو يُقاتل جنود الكوفة في كربلاء على نهر الفرات في اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ (١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م) . وهكذا انتهت خطة الثورة انتهاءً مؤلماً . ولكن استشهاد الحسين كان له شأنٌ معنوي كبير ، وكان له تأثير عظيم عند الشيعة^(١) .

أما ابن الزبير فقد أثبت أنه أخطر من الحسين بكثير . وقد قرت عينه بخروج الحسين من مكة ، لأنه تخلص بذلك من منافس أعظم منه في أعين الناس^(٢) .

(١) راجع ما كتبنا عن الشيعة Schia § 2 p. 60-71 .

(٢) [راجع مثلاً الطبري > ٢ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ — المترجم] .

وقد أشفق يزيد من أن يَجِدَ في قتال ابن الزبير ، لأنه كان عائداً بمكة ،
وهي المدينة الحرام التي لا يصح فيها القتالُ وسفك الدم . على أن الروايات ، فيما
يتعلق بمسلك يزيد إزاء ابن الزبير ، ناقصة مضطربة .

ويحكى أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٣٩٥ فما بعدها) في أخبار سنة ٦١ هـ
(وهي تبدأ في أول أكتوبر سنة ٦٨٠ م) ، وهي السنة التي كان فيها عمرو بن سعيد
والياً على المدينة^(١) ، ما يأتي :

استغلّ ابن الزبير مقتل الحسين للنشيع على أهل الكوفة وعلى حكومة بني
أمية وللمعريض يزيد . وكان يبايع الناس سرّاً ، فطالبه أصحابه أن يُظهِرَ البيعة ،
خصوصاً بعد مقتل الحسين وعدم وجود منازع ، فلم يرض بذلك إلا سرّاً ؛ أما
علانية فكان يظهر أنه عائداً بالبيت . ولما سمع يزيد بما يصنعه ابن الزبير في مكة
أعطى الله عهداً ليوثقته في جامعة (سلسلة) ، ولكنه فكر كيف يبرّ بقسمه ،
فأرسل إلى ابن الزبير سلسلة من فضة يضعها حول عنقه . فلما مرّ بها البريد على
سردان بن الحكم في المدينة تمثل سردان ببيت من الشعر لكي يصور قبول
السلسلة دليلاً على الضعف . وعلم ابن الزبير بذلك ، فرد البريد ورفض السلسلة .
وعلا أمره في مكة ، وكان به أهل المدينة ، وقال الناس إنه بعد مقتل الحسين ليس
لأحد أن ينازع ابن الزبير ، فهو الأحق بالخلافة .

وفي رواية ترجع إلى الزهري (الطبرى ج ٢ ص ٣٩٧ فما بعدها) أن أربعة

(١) لا يمكن أن تنهض رواية أبي مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٢٨٠ س ٨ و ص ٣٩٧
س ٢) ، وهو بالجملة وفيما يتعلق بتحديد التواريخ ليس بالقوى ، مُخالفة للتواريخ المحددة التي
يذكرها الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها و ص ٣٩٩) . وأبو معشر (الطبرى
ج ٢ ص ٣٩٥) وكاترمير (Quatremère) على صواب ، خلافاً لما يقوله فايل (Weil 1,325).
على أنه من الجائز أن يكون عمرو بن سعيد لم يأت بعد الوايد بن عتبة مباشرة (الدينوري
ص ٢٤٣ س ٢ و ٣) .

رُسِّلَ ، منهم عبد الله بن عضاة الأشعري وعبد الله بن مسعدة ، حملوا تلك «الجامعة» المسكونة من قطع من الورق (العملة الفضية) . فأرسل مروان بن الحكم ولديه عبد الملك وعبد العزيز مع الرسل من مكة إلى المدينة ، وأمرهما ، إذا وصلت إلى ابن الزبير رُسِّلَ يزيد ، أن يتعرضا لابن الزبير ويتمثل أحدهما أمامه بأبيات من الشعر تدل على أن قبوله للسلسلة علامة على الذل ، وهي :

فَخُذْهَا ، فليست للعزيز بخطّة . وفيها مقال لامرئٍ متـذلل
أعاصِرَ إن القوم ساموك خطّة . ومالك في الجيران عذلٌ مُتَذَلِّل
أراك إذا ما كنت للقوم ناصحاً يُقَالُ له بالدلو : أدبرْ وأقبل
ففعلا ، وفهم ابن الزبير مغزى الأبيات ، فقال للغلامين : أخبرا أباكما :

إني لمن نبتة صُمِّمَ مكاسِرُها إذا تناوحت القصباء والعشرُ
فلا ألين لفسير الحق أسأله حتى يلين إضر من الماضغ الحَجَرُ^(١)
ويذكر وهب بن جرير أيضاً في رواية له في كتاب الأغاني (ج ١ ص ١٢)
هذين الرسولين اللذين تقدم ذكرهما . ويستطيع الإنسان أن يخلص من هذه
الرواية إلى أن الكلام فيها عن الحادث نفسه ، وإن كان يُحكى على نحو آخر
مختلف كل الاختلاف ، وإن كانت السلسلة الفضية خاصة لا يرد لها ذكر قط .
فيقول ابن جرير إن يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري في عشرة نفر — وهو
يذكر أسماءهم^(٢) — إلى ابن الزبير . فأخذ النعمان يُـكْثِرُ من الخلوة بابن الزبير
والحديث معه ، فاغتاز عبد الله بن عضاة من هذه الخلوة بين الأنصاري والمهاجر^(٣) ،

(١) [اضطررنا أن نوسع الترجمة هنا وأن نذكر الأبيات تحقيقاً لفائدة القارىء العربى

— راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٣٩٨ . [المترجم]

(٢) إقرأ في الأغاني (ص ١٢ ص ٥) : الجذائ بدلا من : الحزائ ، والسكونى بدلا
من : السولى .

(٣) كان ابن عضاة والرسل الآخرون عرباً عاديين من قبائل البدو ، أما الأنصار
والمهاجرة ، وهم أهل المدينة ومن هاجر من مكة إليها ، فكانوا هم طائفة الأشراف بين المسلمين .

وقال لابن الزبير يوماً إن هذا الأنصاري ما أُسر بشيء إلا وقد أُسرنا بمثله ، إلا أنه قد أمر علينا ، وإني والله ما أدري ما بين المهاجرين والأنصار ! فأجاب ابن الزبير : « يا ابن عذاة ! مالي ولك ! إنما أنا بمنزلة حمامة من حمام مكة ، أفكنت قائلاً حمامة من حمام مكة ؟ » قال : « نعم ! وما حرمة حمام مكة ! يا غلام ! إني بقوسي وأشهمي ! . . » ، فأخذ سهماً ، فوضعه في كبد القوس ، ثم سدده نحو حمامة من حمام المسجد ، وقال : « يا حمامة ! أبشر رب يزيد بن معاوية الخمر ؟ قولي : نعم ! فوالله إن قلت لأرميَنَّك يا حمامة ! أتخلعن يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتقيمين في الحرم حتى يستحل بك ! والله أين فعلت لأرميَنَّك ! » فقال ابن الزبير : « ويمك ! أيتكلم الطائر ؟ » قال : « لا ! ولكنك يا ابن الزبير تتكلم ! أقسم بالله لتبايعن طائفاً أو مكرهاً أو لتعرفن راية الأشعريين في هذه البطحاء ، ثم لا أعظم من حقها ما تُعظم ! » ، فقال ابن الزبير : « أو يستحل الحرم ؟ » قال : « إنما يُحِلُّه من أُلْحِدَ فيه ! » . ولم تخل قصة الحمامة من تأثير على المؤرخين المحدثين ، ولكنها مجرد قصة مزخرفة ، والفكرة التي فيها تتردد في صورة أخرى عند الطبري (ج ٢ ص ٤٣٠)^(١) . هذا إلى أن الأسماء الكثيرة التي تُذكر فيها لا تقدم أي ضمان . واسم رئيس الوفد ، بوجه خاص ، يبدو أنه خطأ . ومن العسير أن يكون النعمان بن بشير قد أُرسِلَ من قبل الخليفة إلى مكة قبل ذلك بعام في نفس المهمة التي كان عليه أن يؤديها في المدينة

(١) بينما كان الحصين بن نمير ، في جند الشام ، يحاصر ابن الزبير وأصحابه بمكة ، مات يزيد . وعلم ابن الزبير بموته قبل أن يعلم الحصين ؛ فصاح ابن الزبير بجند الشام : إن طاغيتكم قد قُتل ، فن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، ومن كره فليلق بشأمة ! ففدوا عليه يقاتلون ، فقال ابن الزبير للحصين : أدن مني أحدثك ! فدنا منه ، فحدثه ، فجعل فرس أحدهما يجفل ، والجفل الروث ، فجاء حمام الحرم بطنق من الجفل ، فكف الحصين فرسه عنهن ، فقال له ابن الزبير : مالك ؟ قال : أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم ، فقال له ابن الزبير : أتنحرج من هذا ، وتريد أن تقتل المسلمين ! ؟ فقال له الحصين : لا أقاتلك ، فأذن لنا نطف بالبيت ، وتنصرف عنك ؟ ففعل ، وانصرفوا .

بعد ذلك بعام . وإذا كان المؤرخ أن يختار فإن ما يرويه أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠٤) أجدر بالقبول ، وهو أن يزيد أرسل النعمان بن بشير إلى الناس وإلى قومه في المدينة لكي يفتأأم عن النهوض إلى الفتنة ويدعوهم إلى المحافظة على وحدة الجماعة . وانكمل سلسلة الروايات بما رواه الواقدي ، وهو موجود عند الطبرى (ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها) في أخبار حوادث سنة ٦٠ هـ ، وإن كان ابن الزبير لم يظهر إلا بعد وفاة الحسين في أوائل سنة ٦١ هـ : كانت الرسل تجري بين يزيد وابن الزبير في أمر البيعة ، حتى إذا فرغ صبرُ يزيد حلف ألا يقبل البيعة من ابن الزبير ، حتى يؤتى به في جامعة (سلسلة) في عنقه . فتمنع ابنُ الزبير أميرَ مكة من قبل يزيد أن يؤم الناس ، فأمر يزيدُ عمرو بن سعيد أمير المدينة ، أن يوجه إلى ابن الزبير جيشاً ، فسأل عمرو بنُ سعيد عمرو بنَ الزبير ، وكان صاحب الشرطة في المدينة : مَنْ رَجُلٌ نُوَجِّهُهُ إِلَى أَخِيكَ ؟ فطلب أن يكون هو ذلك الرجل ، لما كان بينه وبين أخيه من بغضاء . فبعد أن سار عمرو بجيش مختلط ببعض الاختلاط — خرج فيه عَرَبٌ وموالي لأهل المدينة — عسكر أمام مكة ، وأرسل إلى أخيه عبد الله بن الزبير أن يبرِّع بين الخليفة ، وأن يجعل في عنقه جامعة من فضة أو ذهبٍ يلبس عليها برُئسا حتى لا تُرى ، وأن يشخصَ أمام الخليفة ، ليؤدى له البيعة . فلم يستجب عبد الله ابن الزبير إلى ذلك ، بل أمر بمهاجمة مقدمة جيش عمرو بمهاجمة مفاجئة ، ثم قبض على أخيه عمرو ، وحبسه في سجن عارم وضربه ليقص منه لكل من كان قد ضربهم من أهل المدينة ، وهو على شرطتها ، وجعل نهايته نهاية محزنة ، حتى مات تحت السياط . ويؤيد صاحب الأغاني (ج ١٣ ص ٣٩ فما بعدها) والأبيات التي يذكرها ، حكاية الحلة النمسة التي قادها عمرو بن الزبير ؛ فهي واقعة تاريخية من غير شك . فأما إرسال السلسلة الفضية فإنه لا يبدو عنصراً منسجماً مع ما في الرواية ، وحكاية إرسالها موضوعة في جملة القصة وضعاً لا يبدو أن يكون مصطنعاً ؛ وهي ترجع بالأحرى

إلى محاولات المفارقة السلمية التي وقعت قبل اللجوء إلى الوسائل العنيفة . وفي هذا الباب لا يكون الحق في جانب الواقدي ، بل في جانب الرواة الآخرين .

وعزل عمرو بن سعيد عن ولاية المدينة في أواخر سنة ٦١ هـ ، على أثر دسيسة من الأمويين أنفسهم^(١) ، لأنهم كتبوا إلى يزيد يتهمونونه بالتراخي مع ابن الزبير ، وأنه لو شاء لأخذه وبعث به إليه في دمشق . فسار عمرو إلى دمشق ودافع عن نفسه أمام الخليفة ، وشرح له الظروف التي دعت إلى مداراة ابن الزبير ، ثم حلَّ محلَّ الوليد بن عتبة الذي كان والياً على المدينة قبله ؛ والروايات متفقة على أنه حج بالناس سنة ٦١ هـ ، وظل والياً في أثناء سنة ٦٢ هـ ، في أثناء الشطر الأكبر من هذه السنة على الأقل . ويحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٢) أن ابن الزبير عمل بالسكر في أمر الوليد بن عتبة ، وذلك بأن كتب إلى معاوية : « إنك بعثت رجلاً أخرق ، لا يتججج لأمر رشيد ، ولا يرعوى لعظة حكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكنف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر ويجمع ما تفرق ، فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله ! والسلام »

فعزل يزيد الوليد بن عتبة ، وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وكان فتى غرّاً حَدَثًا غَمَرًا ، لم يجرب الأمور ، ولم يُحَنِّكهُ السنُّ ولم تُضَرِّسْهُ التجارب ، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله . ويُؤخذ من الطبري (ج ٢ ص ٤٠٥) ، نقلاً عن أبي مخنف أيضاً فيما يظهر (الطبري ج ٢ ص ٤٠١ فما بعدها) ، أنه لم يتولَّ إلا بعد حج سنة ٦٢ هـ . ولكن يظهر (الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ س ١٨) أن هذا موضع شك . ومهما يكن من شيء ، فإن هذا التغير في ولاية المدينة وقع في آخر سنة ٦٢ أو في أول سنة ٦٣ هـ .

وسنة ٦٣ هـ (وهي تبدأ في ١٠ سبتمبر سنة ٦٨٢ م) مملوءة بأجل الأحداث

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ — ٤٠١ — المترجم] .

مخالفاً للسنتين السابقتين لها . فيحكى أبو مخنف^(١) أن الوالى الجديد أرسل من المدينة إلى يزيد وفدأ من أهل المدينة ، من أشرف الأنصار والمهاجرة على سواء ، وكانوا من ذوى الكلمة المسموعة عند الناس ، ولم تكن أهواء أهل المدينة مع ابن الزبير بصفة حاسمة ، ولكنها لم تكن مع بنى أمية على كل حال . وكان والى المدينة يأمل أن يستطيع يزيد ضمهم إلى جانبه بفضل ما للمال من قوة الإقناع . ولقد أكرمهم يزيد وأحسن جوائزهم^(٢) ، ولكنهم ، بعد أن انصرفوا من عندهم وقدموا المدينة ، لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم من حكاية أفطع الأمور عنه . فقالوا إنهم قدموا من عند رجل « ليس له دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطناير ، وتضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب^(٣) » ، ويسامر الخرباب والفتيان . « . على أنه من الخطأ فى الفهم القول بأن الوفد كان يتألف من الأنصار ومن أصحاب النبي عليه السلام وخدمه ويتكلم مولر (A. Müller, I, 367) عن الوفد ، متصوراً إياه مجموعةً عجيبة من شيوخ طيبين سذج ، ولذلك دُعروا من يزيد . ويكون مولر أفكاره الخاصة عنهم وعن الخليفة ، مع أن الخليفة كان يعلم بطبيعة الحال أحوال المدينة ، وهى أجل مدينة فى الإسلام ، علماً كافياً ، وكانت له ، شأن جميع العرب ، معرفة كافية بالناس . ويذكر أبو مخنف محاولة أخيرة قام بها يزيد لسكى يهدى النفوس فى المدينة . فهو لم يرد أخذها بالعنف ، لأنه كان فيها من عشيرته من كان لا يحبُّ له أن ينهض فى الفتنة فيهلك ؛ فأرسل النعمان بن بشير ، خير رسول للسلام ، إلى هناك ، فسكلم أهل المدينة من قومه ومن غيرهم ، ودعاهم إلى الطاعة ولزوم

(١) [يجد الفارى قصة إرسال الوفد إلى يزيد عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ —

الترجم] . وتوجد إلى جانب ذلك رواية وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢ فا بعدها) ، ولكن ذكر التاريخ غير دقيق على الإطلاق ، فهو يقول : بعد وفاة معاوية .

(٢) وعند الطبرى (ج ٢ ص ٤١٩ فا بعدها) ما يدل على خلاف ذلك . قال بعضهم وهو راجع من عند يزيد : مرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً .

(٣) الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٦ : بالفرد .

الجماعة ، وخوَّفهم من قوة أهل الشام ومن الفتنة ، ولكنه كان كأنما يخاطب آذاناً صماء^(١) .

وكان ابتداء ثورة أهل المدينة ، بحسب رواية الأغاني (ج ١ ص ١٣ نقلًا عن المدائني) منظرًا مسرحيًا في المسجد : كان ابن الزبير قد نادى بمخلع يزيد ، وبالأه أ كثرُ الناس على ذلك ، فدخل رجال المدينة في المسجد ، وقد ثارت نفوسهم فجأة . فقام عبد الله بن حنظلة وقال : خلعتُ يزيد ، كما خلعت عمامتي ، ونزعها عن رأسي ، وقال : إني لأقول هذا ، وقد وصلني وأحسنَ جائزتي ، ولكنه عدوُّ الله سكير . وتبعه الناس بمخلع كل منهم عمامته أو نعله أو خفه أو نوبه ، علامة على التبرؤ والخلع كما هي العادة ، حتى حصل من ذلك كومٌ كبير . أما عند الطبري فلا نجد شيئًا من هذا . ويذكر أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٥ فما بعدها) من علامة ابتداء الثورة أنه بعد أن عاد الوفد الذي كان قد ذهب إلى يزيد وقالوا فيه ما قالوا ، أعلنوا : إنا نُشهِدُكم أنا قد خلعناه ؛ فتابعهم الناس ، وأتوا عبد الله ابن حنظلة فبايعوه وولّوه عليهم ليحارب يزيد ويحارب حكومة بني أمية . وكان ابن حنظلة عضواً في الوفد الذي توجه إلى دمشق ، وكان من الأنصار ، وكان مشهوراً ، منذ ولادته ، بأن ابن الشهيد الذي يُحكى أن الملائكة غسلته يوم أحد ، وقد ولد حنظلة بعد استشهاد أبيه . وكانت أول خطوات الثوار أنهم وثبوا على من في المدينة من الأمويين ومواليهم ومن رأى رأيهم من قریش ، وكان بنو أمية نحواً من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم ، أقدم رؤساء الأمويين وأكبرهم وأشهرهم وأسنهم ، فحاصروا الثوار . فكتب مروان إلى الخليفة يخبره بما هم فيه من ضيق ويقول : « إنا قد حُصِرنا ومُنِعنا العذب ورُمينا بالحبوب (الحجارة) ، فياغوثاه ياغوثاه ! » وبالرغم من أن يزيد قد سخر

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥ — المترجم] .

بنى أمية ومواليهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ، مع أنهم أكثر من ألف رجل ، فإنه قرر أن يوجّه جيشاً على القور ، يقوده عمرو بن سعيد . ولكن عمرو بن سعيد قال للخليفة : « قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ، فأما الآن ، إذ صارت إنما دماء قریش تهزّاق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد عنهم مني » ! عند ذلك اتجه يزيد إلى خادم قديم من خدام أبيه ، ثبتت كفايته وثبت إخلاصه وصدق نصيحته ، هو مسلم بن عقبة المُرّى . وقد رأى مسلم ، لما طلب إليه يزيد الخروج في الجيش ، أن ألف رجل لا يستطيعون أن يقاتلوا ساعة من نهار ، ولا يجاهدون عدوهم ويدافعون عن عز سلطانهم ، قومٌ أذلاء ليسوا أهلاً لأن يُنصّروا إلا بعد أن يجهدوا أنفسهم في قتال عدوهم دفاعاً عن سلطانهم ، حتى يستبين الصابرون الذين يقاتلون على طاعة الخليفة من الضعفاء المستسلمين ؛ ولكنه خرج بعد أن قال له يزيد : ويحك ! إنه لا خير في العيش بعدهم إن هلكوا . وبدأ إعداد الجيش ، ولم يلبث أن وقف اثنا عشر ألف رجل من أهل الشام على قدم الحرب ، بعد أن أخذوا عطاءهم كاملاً ، وأخذ كل جندي مائة دينار ، ووضعت في يده من ساعته ^(١) . ولما بلغ أهل المدينة إقبال جيش مسلم ، وثبوا على الأمويين وحصروهم ولم يكفوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألا يبنوا غائلة ولا يبدؤوا على عورة ؛ ثم أخرجوهم من المدينة ، فتوجهوا إلى الشام . أما عائشة بنت عثمان بن عفان ، وكانت زوجة مروان بن الحكم : فقد توجهت إلى الطائف في حمية على بن الحسين ، وهو الوحيد الذي كان قد نجا من أبناء الحسين يوم كربلاء والذي كان من القرشيين القلائل الذين اعتزلوا الفتنة . ولقى مسلم بن عقبة وهو في طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادي

(٢) وكان معظم الجيش ، كما هي العادة ، من كلب . أما رئيس قيس ، وهو زفر بن الحارث ، فقد كان يحارب في صفوف ابن الزبير — قارن Chavarig P. 54 .

القرى . وقد كان أول الأمر ساخطاً عليهم ، فدعا بعمر بن عثمان بن عفان أول الناس ، وقال له : « أخبرني خبر ما وراءك ، وأشير عليّ ! » ، قال : « لا أستطيع أن أخبرك ، أخذ علينا اليهود الآن دلاً على عورة ، ولا نظاهر عدوًّا » . فانهزم مسلم ، ولم يمنعه من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان بن عفان . فبعث مروان بن الحكم ابنه عبد الملك قبله ، أمل مسلماً يجتري به عنه ؛ فدخل عبد الملك واستطاع ، لحسن الحظ ، أن يرد غضب مسلم ، ووصف له خطة العمل ، وأشار عليه بما رأى . فأنجب مسلم بنصائح عبد الملك الدالة على العلم والخبرة ، واتبعها تماماً . وفي ذى الحجة سنة ٦٣ هـ كان مسلم بجيشه أمام المدينة معسكراً في الحرّة إلى شمال شرقي المدينة ، وأعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام ، وقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإنني أكره هراقة دمائكم ، وإنني أؤجلكم ثلاثاً ، فمن ارعوى وراجع الحق قبّلنا منه وانصرف عنكم وسرت إلى هذا الملاحد الذي بمكة ؛ وإن أبديتم كُفّاً قد أعذرنا إليكم . ولما مضت الأيام الثلاثة كلمهم مسلم مرة أخرى ، وطلب منهم الدخول في الطاعة ، حتى يجعل حدّ الجيش وشوكتّه على الملاحد الذي قد جمع إليه المراءق والفساق من كل أوب^(١) . فأجابوا بالإصرار على المقاومة دفاعاً عن المدينة ، بل على قتال جيش مسلم ، إن هو قصد مكة وأراد القتال فيها واستحلال حرمتها وإخافة أهلها ، وخاطبوا مسلم وجيشه قائلين : « يا أعداء الله » . وكان أهل المدينة قد حصّنوا ركنها الشمالي المكشوف بأنسوار وخنادق ، وكان جيشهم مؤلفاً من أربعة أقسام ، على رأسها رجلان من قريش ، ورجل من أشجع ، وابن حنظلة الأنصاري . وكان ابن حنظلة في الوقت نفسه القائد الأعلى وأمير الجماعة كلها^(٢) .

(١) [المقصود هو ابن الزبير — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤١٠ — ٤١٣ — المترجم] .

وإلى هنا تنقطع حكاية أبي مخنف عند الطبرى ، وتكملها حكاية عوانة^(١) وغيره ، وهى لا تتفق تماماً مع حكاية أبي مخنف : خرج أهل المدينة لمقابلة أهل الشام في الحرّة ، وجمعت خيل أهل المدينة ، بقيادة عبد الله بن حنظلة مرة والفضل ابن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مرة أخرى ، على أهل الشام ، فانكشفوا وتقدم فرسان أهل المدينة ، حتى بلغوا المكان الذى كان فيه مسلم ابن عقبة نفسه . وتقول إحدى الروايات إنه كان يوم القتال مريضاً يُحْمَلُ على سرير ، وتفول أخرى إنه ركب فرساً له وأخذ يسير في أهل الشام ويحترضهم على الثبات والقتال . ولكن أهل المدينة هُزموا آخر الأمر ، وقُتل كثير من أشرف الأنصار ومن قريش ، منهم ابن حنظلة نفسه ومعه ثمانية من أبنائه ويقول وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣) والسهمودى (Skizzen, 4, 26) إن السبب في الهزيمة هو خيانة بنى حارثة ، لأنهم أدخلوا في المدينة من ناحيتهم قسماً من جيش الشام ، ضرب المدافعين من ظهورهم . أما تاريخ الواقعة فهو عند الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢) الأربعاء لليلتين أو ثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، الموافق ٢٦ أغسطس سنة ٦٨٣ م . وأباح مسلم بن عقبة مدينة الرسول والخلفاء ثلاثة أيام للجند ، ينهبون ما فيها من مال أو سلاح ، ويقتلون الناس . وهذا ما يقوله أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤١٨) والسهمودى . أما عوانة فهو يحكى غير ذلك . فيقول إن مُسْلِمًا بعد الواقعة بيوم دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة في قُبا ، كما يقول إنه في هذه المناسبة قتل بعض الثوار ، وكان منهم عدد من القرشيين ومعتل بن سنان الأشجعي^(٢) . وذلك رغم

(١) [نفس المصدر ج ٢ ص ٤١٣ فا بعدما — المترجم] .

(٢) كان معتل ، مثل مسلم نفسه ، من غطفان ، وكان صديقاً قديماً له ، لكنه كان حنقاً عليه ، وقال له : «أنت الذى لقينى بطبرية ليلة خرجت من عند يربد ، فقلت لى : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً ، نرجم إلى المدينة ، فنخلع هذا الفاسق ، ونبايع لرجل من أبناء =

معارضة مروان بن الحكم في هذا القتل . وهذا الذي فعله مسلم في اليوم التالي للمعركة لا يتفق مع القول بإباحته المدينة ثلاثة أيام للجند ، ينهبون فيها ويقتلون . ومن العسير جداً أن يجد القول بإسلام المدينة للنهب ما يؤيده فيما يحكيه السهوي من أنه نشأ عن ذلك ألف مولود غير شرعي . ولا يعرف وهب بن جرير شيئاً عن إسلام المدينة للنهب (الطبري ج ٢ ص ٤٢٣ س ١٥ فما بعده) .

وبعد أن فرغ مسلم من قتال أهل المدينة سار إلى مكة ، ولـسـكنه لم يصل إلا إلى المشّال . وهناك نزل به الموت وضميره مستريح ، مقتنعاً أنه فعل ما يرضى الله ، ولم يوص بماله لأبنائه ، بل إلى قبيلته وإلى أم ولد كانت عنده ، وترك القيادة ، على غير ما كان يحب ، إلى الحصين بن نمير السكوني ، لأن الخليفة كان هو الذي أسر بذلك ، وأوصاه فيما أوصاه ألا يمكّن من أذنه قرشياً . وفي هذا تتفق رواية عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) مع رواية أبي مخنف إلى الحد الذي وصلت إليه رواية أبي مخنف . ويقول أبو مخنف إن وفاة مسلم كانت في آخر الحرم سنة ٦٤ هـ . أما عوانة والواقدي فيقولان إن الحصين كان في شهر الحرم معسكراً أمام مكة .

على أن ما يقوله المؤرخون المحدثون يختلف اختلافاً عجيباً عن الصورة التي نجدها مرسومة هنا لمسلم بن عقبة ، دوزي مثلاً^(١) : « ربما لا يكون هناك أحد يمثل العصر القديم والروح الوثنية كما يمثلها مسلم بن عقبة ، فلم يكن فيه أقل ظل للعقيدة الإسلامية ، ولا كان يقدس شيئاً مما يقدسه المسلمون ، ولذلك كان أشد إيماناً بالخرافات الوثنية ، وكان يؤمن بالأحلام النبئية والكلمات الخفية التي

= المهاجرين ! فيم غطفان وأشجع من الحلم والخلافة ! إني آليت يمين لا أفاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت » . وقوله : فيم ... من (الطبري ج ٢ ص ٤٢٠ س ٣) لا يحتاج إلى علامة استفهام .

(١) [ينقل المؤلف ما ينقله عن دوزي وموالتر في شيء من الاختصار والتصرف --

الترجم] .

كانت تأتي من شجر الغرقد . وقد أبان عن هذا لما تقدم ليزيد ، فقال له إنه لا أحد يستطيع أن يقهر المدينة غيره ، لأنه فيما قال ، رأى في المنام أنه سمع صوتاً آتياً من شجرة الغرقد يقول : « على يدي مسلم » . هذا ما يقوله دوزي (Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne 1,97s.) ويضرب ا .
مولر على نفس النغمة ، فيقول : « كان في نفس مسلم بن عقبة على الإسلام ، خصوصاً على المسلمين الأولين ، من الحقد ما كان في نفس شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين ؛ وبالرغم من أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً ، فإن أمه الذي كان ينتظره طويلاً ويرحب به لتأديب أولئك الذين كانوا أعداء لكل ما هو وثني ، ردّ إليه قوته حيناً ، وقد خرج في الجيش ومعه الحصين بن نمير ليكون خلفاً له ، إن حدث به حدث الموت ، وكان الحصين ، قبل ذلك بقليل ، الذراع الأيمن لعبيد الله بن زياد في الكوفة^(١) ، وكان لا يحس من الاحترام لمسجد الرسول وللكنيسة أكثر مما يحسه أمام جوزنين صمّاوين » .

فلأجل شجرة الغرقد التي في رواية الأغاني (ج ١ ص ١٤) والتي لم يسنّشها مسلم بن عقبة حقيقة ، وإنما رآها في المنام^(٢) ، يكون مسلم وثنيًا لحما ودمًا ، وهو لما في قلبه من بغض أهل المدينة ينتظر الفرصة متلهفًا ، وينتهزها لذبحهم ، مع أنه كان شيخاً ضعيفاً . إن الروايات القديمة لا تعرف شيئاً من هذا كله ، أما عند الطبري (ج ٢ ص ٤٢٥) فنجد أنه ، وهو على فراش الموت ، يشهد بأن أهم شيء عنده هو الإيمان بالله ورسوله^(٣) . وهو لم يتقدم المهمة التي كلفه بها يزيد ، بل هو لم يتقبلها إلا كارهاً . ولم يكن يريد أن يبرد نار غضبه بمحاربة مدينة الرسول ،

(١) هذا خلط بين الحصين بن نمير السكوني من أهل الشام وبين الحصين بن نعيم التميمي من أهل الكوفة ، وهذا يجعل وزر أولها أثقل ، راجع فيما يتماق بضمير Schia p. 70 .
(٢) مثل الذي يحكى عن الحجاج — الطبري ج ٢ ص ٨٢٩ ص ١٥ . [من أنه رأى في منامه أنه أخذ ابن الزبير فسلخه ، وأنه لذلك طالب من عبد الملك أن يبعثه إلى ابن الزبير —] المترجم .

(٣) [قال وهو يموت : « اللهم إني لم أعمل عملاً قط ، بعد شهادة أن لا إله إلا الله =

وإنما حاول ، حتى آخر لحظة ، أن يحافظ عليها ، بل إن من المشكوك فيه أن يكون بعد انتصاره قد أنهب المدينة للجند ثلاثة أيام . ولقد أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد ، لكن ذلك لم يكن على صورة كريهة غير مألوفة^(١) . كان مسلم خادماً مخلصاً لسيده ، وأخضع له الثوار ، وكان يقول : فيم غطفان من الخلع والخلافة ! وكان مسروراً أن المشكلة بالنسبة له ، كواحد من غطفان ، لم تكن موجودة . أما المطامح السياسية فقد تركها لأهل الفتنة والطامعين الذين كانوا عائدين بالمدينتين المقدستين ، وكان يرى أنهم انتهكوا حرمة الحرم وجعلوه بصنيهم مباحاً . وعلى هذا عمل ما عمل في عزم المقتنع ، ومع مرور الزمن اعتُبر هذا منه إنمناً منكراً ، وأصبح رمز الوثنية كما يبدو عند دوزي وموللر^(٢) .

== وأن محمداً عبده ورسوله ، أحب إلى من تنلى أهل المدينة ، ولا أرجى عندي في الآخرة — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٢٥] .

(١) كما يفترض دوزي ج ١ ص ١٠٧ — قارن الطبري ج ٢ ص ٤١٨ ص ١٨ .
(٢) [الحق أن مسلم بن عقبة كان فائداً حربياً فيه غلظة وجفاء ، وكان ، كما يصفه المؤلف ، خادماً من خدام الدولة يفكر بعقابها ولا يعرف غير ذلك . وهو من هذا الوجه شبيه بالحجاج وزيد بن أبيه ، ولا شك في صحة ما يقوله المؤلف من أنه كان حريصاً على عدم العنف ، لكنه بعد أن انتصر كان عنيفاً غليظاً جافياً ، فن ذلك ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٤١٨ — ٤٢١) من أنه أمن رجلين من قريش ، فأتى بهما ، فقال لهما : بايعوا ! فقالا : نبايع على كتاب الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله ! لا أقبلكم هذا أبداً . ثم قدما فضرب أعناقهما ، فلما اعترض مروان بن الحسك على قتل رجلين من قريش على هذه الصورة نخسه مسلم بقضيب في خاصرته ، ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقاتلتهما ما رأيت السماء إلا برقة . ومن المناظر المؤلمة التي تتجلى فيها فظاظته ، أنه لما شخص عنده معقل بن سنان دعا بشراب ، فقال له مسلم : أي الشراب أحب إليك ؟ قال : العسل ، قال : اسقوه ، فشرب معقل حتى ارتوى ، ثم قال له : أقضيت ربك من شرابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والله لا تشرب بعد شراباً أبداً إلا الحميم في نار جهنم ، أنذكر مقاتلك لأمر المؤمنين : « سرت شهراً ورجعت شهراً وأصبحت صفراً ، اللهم غير ! » ، ثم قومه ففرض عنقه ، وهذا مع أن معقل بن سنان كان صديقاً لمسلم قبل ذلك . ولما جاء يزيد بن زمعة ، قال له مسلم : بايع ، قال : أبايك على سنة عمر ، قال عقبة : اقتلوه ، قال : أنا أبايك ، قال : لا والله لا أقبلك عثرتك . فلما كلف مروان أمر به فوجئت عنقه . وهكذا نجد مسلم بن عقبة يدافع عن الدولة وينتقم من الساخطين على يزيد . وكان يريد من الناس أن يبايعوا ، على أنهم خول ليزيد ، يحكم في دماهم وأموالهم ==

ويواصل دوزى (ج ١ ص ١٠٨) غَزَلَ الخيط الذى ناطه إلى شجرة
الفرقد فيقول : « كان عرب الشام قد سوتوا حسابهم مع أبناء المذشقين المتعصبين
الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم ، وكان الأشراف القدماء قد قضوا على
الأشراف المحدثين . وكان يزيد ، ووصف أنه يمثل الأرستقراطية القديمة في مكة ،
قد ثار لقتل عثمان ولاهزيمة التى ألحقها بجده أبى سفيان أهل المدينة تحت راية
محمد [عليه السلام] . وكان ردّ الفعل من جانب الوثنيين ضد الفكرة الإسلامية
قاسياً لا هوادة فيه ، ولم يُشَفَّ الأنصار قط من هذه الضربة ، وانكسرت قوتهم
إلى الأبد . وظلت مدينتهم ، بعد أن كادت تحرب ، مأوى للكلاب حيناً من
الدهر ، كما ظلت أرضها مأوى للوحوش . وذلك أن معظم أهلها أخذوا يبحثون
لأنفسهم عن وطن جديد فى بلاد قاصية ، فانضموا إلى جيش أفريقية ، وظل
الآخرون فى حال يرثى لها وكان الأمويون ينتهزون كل فرصة لى إشعيرهم
ببعضهم واحتقارهم لهم ، والى بضايقتهم ويحملوا حياتهم مسيرة » . وبأخذ
١ . مولر بهذه التصورات ، وهى تصورات ضالة تماماً ، ومعظمها خطأ تام .

أما الضربة الحقيقية فقد أصابت المدينة لما انتهت الخلافة الشرعية بقتل
عثمان وانتقلت الخلافة الجديدة إلى الأمصار . فأما الضربة الحالية فلم تأت بتغيرات

وأهلهم ماشاء . وثم منظر آخر أمان فيه مسلم عمر و بن عفان ، وعابه هو وأمه وتنف لحيته .
وأستخف من ذلك ما فعله مسلم بعلى بن الحسين ، مع أنه ابتعد عن الفتنة وكاتب يزيد وأوصى
يزيد به ، فقد أخافه من غير أدنى مبرر ، حتى إنه ناوله مروان بن الحكم شراباً ، فقال له مسلم
فى جفاء : لا تشرب من شرابنا ! فأرعدت كف على بن الحسين وأمسك القدح بكفه ، لا يشربه
ولا يضعه ، ثم قال لعللى : إنه لولا ما أوصاه به يزيد لقتله . راجع أيضاً طريقتة فى مخاطبة
خليفته فى قيادة الجيش ، عند الطبرى ج ٢ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ . فلا يخرج مسلم عن أن يكون
رجلاً جافياً قاسياً وجافاً غليظ القلب ، ولم يجعله مخلصاً للدولة وللخلافة إلا أنه كان ينتمى إلى
قبيلة ضعيفة ليس لها شأن ؛ وهو من هذا الوجه يشبه كثيرين من عمال بنى أمية . ولولا أن
المسألة مسألة حرب وسياسة يسودها العنف عند العرب لحن المؤرخ أن يقول إن الإسلام لم
يهذب شيئاً من طبع هذا الغلفانى الذى لم يكن على أى حال من أنبه العرب ولا أنصرفهم ،
ولما كان قائداً فى خدمة الدولة ، ويجب عليه أن يحافظ على سيادتها — المترجم .

جوهرية ؛ فلم تخرب المدينة ، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها ، وإن كانوا قد أخرجوا منها مرة أخرى بعد ذلك . وظلت المدينة ، كما كانت من قبل ، مدينةً مريحةً ومقرّاً للتراث الديني وحده ، بل لأرق طوائف المجتمع العربي وأرقاها . ولذلك كان يفضل الإقامة بها من يعتزلون الأعمال ويحبون أن يحيا حياة اللهو ، كما صارت المدينة ملتقى المغنين والموسيقيين والطفيايين . وكل فصول كتاب الأغاني المتعلقة بهم تقدم لنا الشواهد على ذلك . ولندكر منها ، بنوع خاص ، ما يقال عن أبي قطيفة وعن الأشعب وخصوصاً عن سكينه حفيده الرسول الذكية المتحررة . وفوق ما تقدم ، فإن من الخطأ أن نتصور أن الأنصار كانوا وخدمهم الذين أصابتهم عواقب وقعة الحرّة ، لأنه لا يصح أن نفهم من ذكر اسم الأنصار أنهم وخدمهم أهل المدينة ، وذلك لأن المدينة كانت منذ زمان طويل لم تصبح مدينتهم ، وكانوا يقيمون فيها مع المهاجرة الذين كانوا يكافئون الأنصار في العدد ويزيدون عليهم في القوة . وكانت قريش بين هؤلاء المهاجرة تحتل المكان الأول ، لأن القرشيين كانوا قد هاجروا منذ سنة ٨ هـ إلى المدينة زرافات كثيرة ، وصارت عاصمة الدولة هي وطنهم الحقيقي ، وقد اشتركوا في الثورة على يزيد كما اشترك الأنصار . وكان النمايز بين أشرف الإسلام وأشرف الجاهلية ، وقد كان على كل حال تمايزاً موجوداً بينهم ، قليل الشأن . ولم يكن ليزيد حزبٌ بين أهل المدينة ، ولم يكن هو الممثل الأرستقراطية القديمة ، وإن كان ينتمى إليها ، وقد ألقت الأرستقراطية في الحجاز كله جبهة كاملة معارضة له ، كما ألقت من قبل جبهة معارضة لأبيه معاوية . فكانت قبائل مخزوم مثلاً ، وهي قبائل ناهية زبيرية الهوى تماماً ، بل لم يكن الأمويون في المدينة على علاقة طيبة مع يزيد ، ولم يريدوا أن يفسدوا علاقتهم بالثوار ، فمالوا إلى ابن الزبير ، وكان مسلم بن عقبة مُحِمّاً في غضبه عليهم . فلم يكن في جانب يزيد إلا أهل الشام ، وقد آلف منهم جيشاً من آلاف كثيرة ، ولكنهم كانوا يتقاضون

أعطيات كبيرة إلى درجة غير عادية . ولما كان هو نفسه غير ممتلى النفس بالرغبة في معاقبة الثوار ، بل كان يحاول أن يكتسبهم بالحسنى ، وقد أظهر حليماً كبيراً لإزائهم^(١) . وكذلك لم يكن جنوده من أهل الشام متحرقين للقتال ، ولا شك أنهم كانوا يندهشون لو أنهم عرفوا ما ينسب إليه دوزى من أن حنقهم على « المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم » هو الذي استفزهم للقتال . ولهذا فربما كان أهل العراق ، وهم ينتمون إلى أهل الردة ، أولى بكثير من أهل الشام بالحنق على أهل المدينة . أم هل كان أهل الشام ، مثل قبائل كلب ، هم الذين كانوا أكثر من استنزفت دماؤهم ؟ إن دوزى يرسل تخياله و بلاغته العنان ، وهو بهذا قد أفسد تفكير من اتبعه . أما الحقيقة البسيطة الثابتة ، فهي أن عرب الشام ، شأنهم شأن غيرهم ، كان عليهم أن يستجيبوا لما يأمرهم به الإسلام ؛ على أن الأمر لم يكن أمر تغير ديني بقدر ما كان أمر تغير سياسى ، ولعل الانتقال كان فى أول الأمر غير محبوب لديهم ، ولكن لم يلبثوا أن تغلبوا على ذلك ، لأنه كان لهم فى هذا التغير أكبر الفوائد ، لأن الإسلام جعل لهم نصيباً فى دولته وسيادته ، وهو قد وضع الدنيا تحت أقدامهم ، ولولا الإسلام ما كانوا ليصلوا إلى المكانة التى وصلوا إليها ، التى احتلوها بعد ذلك . وعلى هذا فلا يمكن أن يكونوا لا يزالون حنقين على أولئك الذين ساعدوهم على بلوغ الغصن الأخضر الذى كانوا يجلسون عليه . وأبعد ما يكون من الصواب أن يقال إن أهل الشام كانوا حنقين على المؤمنين القدماء — وهذه هى التسمية التى يطلقها . مولر على أهل المدينة — ذلك أن أهل الشام كانوا يتفقون مع أهل المدينة فى العقيدة والشريعة وفى العادات العامة والخاصة اتفاقاً تاماً ، وكان أهل

(١) [لما وصل إلى يزيد كتاب مروان بن الحكم يستفتى بما فعله أهل المدينة ببنى أمية الذين كانوا بها ، قال متملاً :

أقد بدلوا الحلم الذى من سيجتى فبدلت قوى غاظية بليان
وأمر بإعداد الحملة على المدينة — المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٤٠٦ — ٤٠٧ .

المدينة ، بطبيعة الحال ، أكثر حماساً لأداء الواجبات الدينية ، وكانوا خصوصاً أكثر كلاماً عنها . ولكنهم لم يكونوا بوجه عام أولئك الشيوخ السذج المنشقين المتعصبين ، الذين يصفهم دوزي ؛ وإن تسميتهم « المؤمنين القدماء » ، وهو اصطلاح حديث ، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تصور معكوس للعلاقة بين تلك الأحزاب المتخاصمة . ذلك أن الخصومة ، بحسب أفكارنا التي ليست لها صبغة تيوقراطية ، كانت خصومة سياسية فحسب . فالمشكلة كانت مشكلة : من صاحب الحق في الخلافة ؟ وقد زعم أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية ، وهم أبناء لكبار الصحابة الستة القدماء ، مثل الحسين وابن الزبير ، أنهم أصحاب هذا الحق . وكان الرأي العام ، كما كانت غالبية قريش ، إلى جانبهم . ولا بد أن الأنصار كانوا يؤيدونهم ، كما أيدوهم في الثورة على عثمان ، وذلك من جهة أن المسألة كانت مسألة أن تستعيد العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة . وتوجد بعض الدلائل على أن ابن الزبير هو الذي أرتث نار الثورة في المدينة . وقد كان مسلم بن عقبة يعتبر المسألة كذلك . وكان السفليانيون في دمشق يُعتبرون غاصبين . ولم يؤيد الحكومة التي كان بيدها السلطان إلا أهل الشام ، وذلك دفاعاً عن مكان الصدارة الذي كان لولايتهم ، وهم لم يكونوا يأبهون لمسألة الحق الشرعي . غير أن مسألة الحق الشرعي هذه ، وهي في نظرنا مسألة سياسية محضة ، كانت في نظر الإسلام ، من حيث هو دولة تيوقراطية ، جزءاً من الدين . وكان الذين يدعون الحق في الخلافة يؤيدون مطالبهم بمؤيّدات دينية . وكان يزيد يُعتبر غير أهل للخلافة لأسباب دينية أيضاً . ولكن هذه المبررات الدينية لم تكن ، على السنة زعماء الحركة ، سوى ستار لما وراءها . أما الباعث الحقيقي لهم على الثورة فكان هو شهوة المجد والسيادة . وهم لم يكونوا يريدون خلع يزيد ، لأنه كان يشرب الخمر ويلهو ، بل لأنهم كانوا يأملون أن يتوصلوا إلى المنصب الذي كان

بمحتله ، ولذلك كان عند أهل الشام من الأسباب ما يبرر لهم أن يروا في مسألة الحق الشرعى التى يثيرها خصومهم تمويهاً ونفاقاً يستر وراءه مسألة التطلمع إلى السلطان^(١) . وإلى هذا وحده يرجع ما اتهموا به خصومهم من النفاق ، وقد قابل خصومهم ذلك بأن اتهموهم بالانسلاخ من الدين .

وعوانة هو عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) أكبر الرواة لحصار مكة سنة ٦٤ هـ . فهو يقول إنه بعد موقعة الحرّة ذهب « كلُّ أهل المدينة » إلى ابن الزبير فى مكة ؛ وهو لا يذكر إلا أفراداً من الفرشيين بأسمائهم (ص ٤٠٤ س ٢٠ و ص ٤٢٦ س ٨ — ١٠ و ص ٥٢٨ س ١٢) . وكان خوارج اليمامة قد بادروا قبل ذلك ، تحت إبرة نجدة بن عامر ، للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام^(٢) . وكان الحصين بن نمير قبل نهاية الحرم سنة ٦٥ هـ قد وصل إلى مكة فى جند الشام . ولم يوفق المدافعون فى أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام . وفى مساء السبت لثلاثة أيام مضت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، الموافق السبت ٣١ أكتوبر سنة ٦٨٣ م ، قذف أهل الشام البيت بالجانيق وحرقوه بالنار ، كما يقول عوانة .

ورواية عوانة هذه غير صحيحة . واقد اشتعلت النار فى الكعبة حقيقة ، فاحترقت وانصدع الركن واسود ؛ ولكن أهل الشام لم يكونوا هم الذين أحرقوها . أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٥٢٨ س ١٧ — قارن ص ٥٢٩ س ٤) ، فهو يقول : « أُحْرِقَ البيت » على البناء المجهول ، ولا يذكر الفاعل . ويقول الواقدي (ص ٤٢٧) إن الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير ،

(١) [يبالغ المؤلف فى نظريته للحوادث نظرة سياسية ، كأن الدولة ليست دولة دينية برأسها. الأكل الأتى — الترجم] .

(٢) إن التاريخ الذى يذكره أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠١ فما بعدها) سبق من الحقيقة . قارن Chavarig 29, Schia 75 ، وديوان الحماسة (س ٣١٩ س ٢٢) .

أخذ قيساً في رأس رمح ، فطيرت الرمح به ، ففُضرب أستار الكعبة . ويقول المدائني (الأغاني ج ٣ ص ٨٤) إن ابن الزبير نفسه كان هو ذلك الشخص التمس الذي وقع منه ذلك . فيُحكى أنه لما حاصره أهل الشام سمع أصواتاً بالليل فوق الجبل ، فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه . وكانت ليلة ذات ريح شديدة صعبة ، و برق ورعد . فرفع ناراً على رأس رمح لينظر إلى الناس ، فأطارتها الريح ، فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها واستطلت فيها . وجهد الناس في إطفائها فلم يقدرُوا ، وأصبحت الكعبة تنهافت . أما البيت الذي يستند إليه عوانة (ص ٤٢٦ س ١٥) فليس فيه ذكر النار ، بل هو ، بحسب ديوان الحماسة (ص ٣١٩) متعلق بمسألة أخرى ، هي حصار مكة في عهد الحجاج (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ فما بعدها و ص ١٥٤٢ س ٣) . وفي أثناء هذا الحصار الثاني ضرب أهل الشام الكعبة ، لكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة . وعلى هذا فالظاهر أن الأمر قد اختلط على عوانة ، وربما لا يكون هذا الاختلاط بريئاً من الغرض .

ودام حصار مكة إلى أن بلغها نعي يزيد ، وقد كانت وفاته في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . ويقول الواقدي إن النعي وصل إلى مكة في يوم الثلاثاء هلال ربيع الآخر سنة ٦٤ هـ ، أي بعد حرق الكعبة بسبعة وعشرين يوماً^(١) . أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٥٢٩ س ٧) فهو يقول إن نعي يزيد وصل لخمس عشرة ليلة مضت من ربيع الآخر . وأما عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٢٩ س ١٨) فيقول إن النعي لم يصل إلى مكة إلا بعد وفاة يزيد بأربعين يوماً . والرواية التي بحسبها يكون الخبر قد وصل في أقصر مدة هي الأولى بالقبول . ويقول عوانة

(١) الطبري (ج ٢ ص ٤٢٧ س ٨) . ولا يتفق يوم الأسبوع مع يوم الشهر ، ويجب قراءة ٢٧ يوماً بدلاً من ٢٩ عند الطبري ، لأن حرق الكعبة ، بحسب اتفاق جميع الرواة ، وقع في الثالث من ربيع الأول .

إن خير موت يزيد بلغ ابن الزبير قبل أن يبلغ أهل الشام . ولم يُرَدَّ هؤلاء أن يصدقوا أول الأمر ، حتى تأيّد لهم الخبر من جهة أخرى ، وعند ذلك شرع الحصين بن نمير يفاوض ابن الزبير . وكان الحصين يريد ، وهو لم يجد أمامه خيراً من ذلك ، أن يبائع ابن الزبير على الخلافة ، إذا قبل ابن الزبير إهدار الدماء التي أريقَت في المدينة ومكة وخرج معه إلى الشام لكي تبقى الشام مقرّ الخلافة . وقد قبل ابن الزبير الشرط الأول أخيراً ، أما الشرط الثاني فلم يقبله^(١) . وهو لم يكن أيضاً يستطيع قبوله إلا إذا قضى على نفسه بالانتحار السياسي ، ولذلك تحطمت المفاوضات ورحل الحصين ، وقد بدا اليأس على جنوده ، لأنهم لم يكن لهم إمام بعد موت يزيد ، ولم يكونوا يعلمون من أجل من يقاتلون — وإلى هذا الحد كان اتخاذ الموقف السياسي مرتبطاً بالبيعة لشخص الإمام . وبرى أن بنى أمية الذين كانوا في المدينة طلبوا من جند الشام أن يحملهم معهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا في الحجاز يشعرون بأنهم آمنون على أنفسهم . ولكن رواية عوانة تنافي ذلك (الطبري ج ٢ ص ٤٦٩ س ٣) ، كما تنافيه أيضاً رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٨١ س ١٠) والواقدي (ص ٤٦٧ س ١٠) ، فلم يخرج الأمويون باختيارهم ، وإنما أخرجهم من المدينة ابن الزبير ، وهذا ما يقوله أيضاً صاحب كتاب Continuatō Byz. Ar. § 29 فهو يقول :

Marvan insidiose ab ipso Abdella ab Almedinae finibus cum omnibus liberis vel (=et) suis propinquis pellitur

[أي : أخرج مروان من أرض المدينة غدرًا مع أولاده أو (= و) أقربائه ، على يد عبد الله نفسه] .

(١) [لا شك أن ابن الزبير قد رفض الخروج إلى الشام ، وفي رواية أنه رفض إهدار دماء أهل المدينة ومكة . ويظهر أنه قبل الإهدار آخر الأمر ، ورواية الطبري غير صريحة تماماً — راجع ما دار بين الحصين وبين ابن الزبير عند الطبري (ج ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣٢) . ولم يكن ابن الزبير ، من حيث الأسلوب — بصرف النظر عن الموضوع — دبلوماسياً ، ويصدق عليه ما وصف به من أنه كان لجوجاً (الطبري ج ٢ ص ٢٢٤ س ١٢) — المترجم] .

٣ - يقول أبو معشر والواقدي وإلياس النصيبى إن يزيد مات في حواريين (قرب دمشق) يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ، وهو الموافق يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر سنة ٦٨٣ هـ^(١). ولما كان قد تولى الخلافة بغير حق شرعى، وكان إلى جانب ذلك يحمل الإثم في مقتل الحسين وفي انتهاك حرمة الأماكن المقدسة، فإنه لا يُذكر بخير عند المسلمين. ولكن يزيد في الحقيقة لم يكن من رجال العنف، وكان يترك السيف في غمده ما وسعه ذلك. وقد وضع حداً للحرب التي استمرت مع الروم سنين كثيرة. أما الذي يمكن أن يُعاب عليه فهو قلة الهمة وقلة الاهتمام بالشؤون العامة للدولة؛ وكان، خصوصاً وهو أمير، لا يأنه لها، وبذلك جعل ما كان يسعى إليه أبوه من تعيينه خليفة بعده مهمة عسيرة. وهو لم يشترك في الحملة الكبيرة التي وجهت إلى القسطنطينية سنة ٤٩ هـ^(٢) إلا كارهاً ويظهر أنه بعد أن صار خليفة قد جمع همته ببعض الشيء، وإن كان لم يترك، من أجل ذلك، ما كان يهواه قديماً من خمر وموسيقى وصيد ونحوه من أنواع الرياضة. وفي كتاب الصلة § 27 Continuatío يُقال عنه ما يأتى :
iucundissimus et cuuctis nationibus regni eius subditis vir gratissime habitus, qui nullam unquam, ut omnibus moris est, sibi regalis fastigii causa gloriam appetivit, sed communis cum omnibus civiliter vixit^(٣). ومثل هذا الإطار لم يُقَلَّ عن أحد، وهو آتٍ من القلب.

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٢٨ س ٨ و ٨٨٨ س ١٤. أما ما يخالف ذلك (ص ٤٣٧ س ٣ و ٥٠٦ س ٧) فهي أقوال خاطئة. وذكر سنة ٦٣ هـ (س ٤٦٨ س ١٥، فارن س ٤١٢ س ٩) خطأ. ويذكر الزهرى والواقدي أن عمره كان ٣٨ أو ٣٩ عاماً، ويذكر ابن الكلبي أنه كان ٣٥ عاماً — فارن Nöldeke, DMZ. 1901, p. 683s.

(٢) راجع مجلة Göttinger Nachrichten (١٩٠١ ص ٤٢٣). وبعد أن حضر يزيد القتال مرة تبين أنه شجاع وكفء (الأغانى ج ١٦ ص ٣٣) [هذا في قيادته للحملة الصائفة على الروم، وقد ضرب يزيد باب القسطنطينية — المترجم].

(٣) [وترجمة هذا الكلام اللاتينى مى : « كان رجلاً لطيفاً إلى أقصى حد، وهو بعد أن أخضع جميع أمم مملكته أولاه الناس أحسن تقديرهم. وهو لم يطمح أبداً إلى أى مجد لنفسه »]

يقول ابن عرادة ، وهو في خراسان (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨) :

أَبْنِي أُمِيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُدْكِكُمْ جَسَدٌ بِحُورِ بْنِ تَمِّمْ مَقِيمٌ
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرْثُومٌ^(١)

وقد بدا كأنما قد انهارت دولة بني أمية لما مات يزيد ، فلم يؤيدها أسراء الأمصار أيضاً . فعقد سلم بن زياد في خراسان وعبيد الله بن زياد في البصرة البيعة لأنفسهما ، وإن كانا قد فعلا ذلك حتى يصطليح الناس على إمام يرتضونه . وكان طبيعياً أن ينال معاوية الثانى ، ابن يزيد ، وكان أبوه قد عينه خلفاً له ، اعتراف أهل الشام ، في دمشق على الأقل . وقد أسقط عند توليه الخلافة ثلث الخراج « عن جميع أمصار مملكته »^(٢) ، ولكنه مات بعد حكم قصير جداً . ويقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨ — والبلاذرى ص ٢٢٩ س ٣) إنه تنازل عن الخلافة قبل موته . أما الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) فلا يذكر شيئاً من ذلك . والأغلب أن رواية تنازله ترجع إلى محاولة تغطية ما وقع من أن الفرع الأحدث من بيت بني أمية ، وهو فرع المروانيين ، قد أزال الفرع الأقدم ، وهو فرع السفينانيين ، عن الخلافة ظالماً وعدواناً ؛ وهذه الحجالة هي التي تفسر لنا أن معاوية الثانى لا يذكر في كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء ، بل الذى يذكر هو أن مروان جاء بعد يزيد مباشرة . ومثل هذا وقع في قوائم التواريخ في العهد القديم حيث يُغفل ذكر حكم اشبوشتا (Isboseth) ويُعتبر داود تالياً لشاوول مباشرة^(٣) .

== بسبب ١. كان يتمتع به من عظمة الملك ، بل عاش رجلاً عادياً مع الجميع كأحد الرعايا .
والفضل في ترجمة النصوص اللاتينية واليونانية في هذا الكتاب يرجع إلى معاونة الزميل الفاضل العلامة الأستاذ أمين سلامة — المترجم] .

(١) ن : مرقوم .

(٢) راجع كتاب Cont. Byz. Ar. § 27 ؛ ومثل هذا ال *supra* [الإعفاء] كان

عند تولي الملك عادة جارية .

(٣) فاردن ما يقوله نولدكه (Nöldeke) في Epiuuetrum zu Mommsens Ausgabe

der Cont. Isidor. وفي مجلة DMZ. ، ١٩٠١ س ٦٨٣ و الصفحات التالية .

وفي حياة معاوية الثاني بدأت ، فيما يظهر ، الاضطرابات في الشام ؛ وسننتقل إلى الكلام عنها . وقد جاءت هذه الاضطرابات من جانب قبائل قيس الذين كانوا يسكنون خصوصاً في شمال الشام وفي الجزيرة على جانبي نهر الفرات (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤) وفي قنسرين وقرقيسيا وحران . فيقال إن قبائل قيس كانت هي وحدها ، دون جميع أهل الشام ، هي التي امتنعت من مبايعة معاوية الثاني . وكانوا حنقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية ، لأن أم كل منهما كانت كلبية (الحماسة ص ٣١٩ س ٢ ، ٤) . وكان لحسان بن مالك بن بختل السكبي خال يزيد مركز قوي في الدولة ؛ فكان كالمالك للأمر ، وكان العماد الأكبر لمعاوية الثاني ، وكان أخوه سعيد أميراً على قنسرين . فرأت قيس أن إسناد الإمارة عليهم وفي مدينتهم إلى رجل من كلب أمر لا يمكن أن يطاق ، فبدأوا بأن وثبوا عليه وأخرجوه من قنسرين . وقد فعلوا ذلك تحت إمرة زفر بن الحارث الكلابي (الأغاني ج ١٧ ص ١١١) ، وكان زفر من قبل في صفوف ابن الزبير يحارب يزيد (الحماسة ص ٣١٩ س ٢٢) . على هذا فقد كان زُبَيْرُ الهوي ، وتبنيته قيس بعد أن بويع لابن الزبير في العراق المجاورة لأرض قيس . ولكن ابن الزبير كان له أيضاً بعض أجزاء الشام . وابن بحدل وحده — وهذه هي الصورة المختصرة لاسمه الكامل : حسان بن مالك ابن بحدل — هو الذي ظل بعد وفاة معاوية الثاني متمسكاً بسلالة أخته . ولكن يكون أقرب إلى دمشق ، فإنه خرج من فلسطين التي كان أميراً عليها وانتقل إلى الأردن . أما أمير حمص ، وهو النعمان بن بشير الأنصاري ، ونحن نعرفه تماماً ، فقد بايع لابن الزبير . وفعل مثل ما فعل أيضاً نائل بن قيس الجذامي ، فاستولى على فلسطين ، بعد أن تركها ابن بحدل . أما في العاصمة ، وهي دمشق ، فقد كان الأمر في يد الضحاك بن قيس الفهري ، وكان يقف موقفاً متارجحاً وذا وجهين ، ولكن لما كان ممرعاً خطراً فقد ان كل من الجانبين ، فإنه وجد نفسه . آخر الأمر ،

مضطراً أن ينضم نهائياً إلى جانب ابن الزبير .

والأخبار متضاربة فيما يتعلق بتطور الحوادث حتى وقوع الصدام الدموي الحاسم في موقعة مرج راهط . فيقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨ فما بعدها) إن الأمويين الذين كانوا قد أُخرجوا من المدينة ، وكذلك عبيد الله بن زياد الذى فرّ من البصرة وكان أميراً عليها ، ذهبوا إلى دمشق ؛ ويظهر أن هذا كان بعد موت يزيد الثانى . وكان الضحاك ، وهو السيد فى دمشق ، يهوى هوى ابن الزبير ويدعو إليه سراً . وكان الذى يمنعه من إظهار هواه الحقيقى أن بنى أمية كانوا عنده . وبلغ ذلك ابنَ بحدل رئيس كلب الذين يَهْوُونَ هوى بنى أمية ورئيس اليمانيين ، فأراد أن يستخرج الثعلب من جحره ، فكتب إلى الضحاك كتاباً ليقرأه على الناس ، وفيه عظم حقّ بنى أمية وحُسنَ بلائهم عنده وصنيعهم إليه ، وذكر ابن الزبير ووقع فيه واتهمه بأنه منافق قد خلع خليفَتَيْن . وسرح ابن بحدل بالكتاب مع رجل من كلب يدعى ناغضة . ودفع ابن بحدل إلى ناغضة نسخة أخرى من ذلك ليقرأها على الناس ، إن لم يقرأ الضحاك الكتاب الذى أرسله ابن بحدل إليه . وكتب ابنُ بحدل إلى بنى أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك . فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك . فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر ، ولم يقرأ الكتاب . فقام إليه ناغضة وطلب منه أن يقرأه ، فلم يفعل ، فأخرج ناغضة النسخة التى كانت معه وقرأها على الناس ، وكان من أثر ذلك منظرٌ قتال هو المعروف بيوم جيرون^(١) . فهاجت قيس وكلب بعضهم على بعض ، واقتتلوا فى المسجد . وانقسم الأمويون فى الجانبين . وقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، ثم

(١) تسميته يوم جيرون الأول تسمية غير صحيحة ، لأن ما يسمى يوم جيرون الثانى ليس سوى اختلاف فى قراءة النصوص (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ ص ١٣ — ١٩) . وكان جيرون بيتاً كبيراً قديماً . ويظهر أن ضرب الضحاك وقع فيه بعد الصلاة . ويسمى أحد الأبواب الكبيرة فى المسجد باسم باب جيرون — فارق الخامسة ص ٦٥٦ بيت رقم ٤ .

يزيد بن أبي النمس الغساني ، ثم سفيان بن الأبرد الكلبي فأقر كلٌّ منهم ما جاء في كتاب ابن بحدل ، وأنكر عمرو بن يزيد الحكمي ما جاء فيه . وبعد الصلاة وثبت كلب على عمرو بن يزيد الحكمي فضربوه ومنزقوا ثيابه . أما الضحاك فقد أمر بالقبض على المعارضين الذين هاجموا ابن الزبير ، وحَدَّسَهُمْ . ولكن قامت كلب وغسان فأخرجوا رَجُلَيْنِهم ، ولم يبق في الحبس إلا الوليد بن عتبة ، لأنه لم يكن له قبيلة تخرجه ، واقد قال : « لو كنتُ من كلب أو غسان لأُخرجت » ، فمِنْدَ ذلك تدخل خالد وعبيد الله ابنا يزيد بن معاوية ، وهما الأخوان الأصغران لمعاوية الثاني ، فجاءوا ومعهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن .

وفي اليوم التالي ندم الضحاك على ما كان منه ، فبعث إلى بنى أمية واعتذر إليهم ، وقال إنه لا يريد شيئاً يكرهونه ، واقترح أن يكتبوا هم إلى ابن بحدل ويكتب هو إليه أيضاً ، فيسير ابن بحدل من الأردن إلى الجابية ، ويسير هو والأمويون حتى يوافوه هناك . ولكن الضحاك انقلب في آخر لحظة ، بعد أن خرج الناس وخرجت بنو أمية ، وذلك أن ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمي ، أحد رجالات قيس ، جاء إليه وكلمه قائلاً : « دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير ، فما يعنك على ذلك ، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي ، تستحلف ابن أخته خالد بن يزيد ! » . وانهى الكلام بأن مال الضحاك إلى ما اقترحه عليه ثور من إظهار ما كان يسيره من طاعة ابن الزبير والدعوة إليه والقتال على ذلك . وعطف الضحاك من كان معه من الناس ، وسار بهم حتى نزل بمرج راهط ، قريباً من دمشق . وأظهر هناك البيعة لابن الزبير ، ، بايعه على ذلك جلُّ أهل دمشق ، من اليمن وغيرهم . وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير أمه حمداً . . . الحارث أمير قنسرين وإلى نازل بن قيس أمير فلسطين ، وكانوا جميعاً على طاعة ابن الزبير ، يستمدُّهم ، فأمدُّوه بالأجناد . أما بنو أمية فإنهم ذكروا أن ابن بحدل في الجابية . و

أهواء الناس في الجانبية مختلفة^(١) . وكان أماتهم السفليانيون الذين كانت الخلافة حتى ذلك الحين في أسرهم ، وكان يُمثّلهم بنو يزيد بن معاوية . وكان يقابله في الجانب الآخر الأكبر عدداً بقية الأمويين ، وعلى رأسهم شيخ بني أمية وكبيرهم مروان بن الحكم . وكان هناك خلافٌ حول من تُنقَد له البيعة : فكان ثَمَّ من يميل إلى خالد بن يزيد من أخواله الذين كانوا يأملون أن يضعّهم على رقاب العرب وأن يتجنبوا شرّ مروان ، وكان هناك من يميل إلى مروان ابن الحكم ، ممن لم يريدوا أن يبايعوا غلاماً حَدَثًا ، بل يريدون شيخاً يقف أمام ابن الزبير . وقد انتهى الخلاف باقتناع ابن بحدل — وكان هو الوصي على أبناء يزيد — بمبايعة مروان . واجمع الناس أيضاً على البيعة له ، على أن تكون الخلافة بعده لخالد بن يزيد ثم لعمر بن سعيد بن العاص . وكانت لأسرة عمرو بن سعيد هذا مطامع في الخلافة ، وكان لا بد من إرضائها . وخرج مروان إلى مرج راهط ومعه أهل الأردن من كلب ، وأتته السكاسك والسكُون وغسان وربع حستان بن بحدل . وبينما كان الجيشان المتعاديان يعسكر أحدهما أمام الآخر ، وثب يزيد بن أبي النمير الغساني على دمشق في عبيدها ، فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك بن قيس منها ، وغلب على الخزانة وبيت المال ، وبايع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال . واستمر القتال في مرج راهط عشرين يوماً . وأخيراً هُزِمَت قيس وأهل الشام ، بعد أن قُتِلُوا مَمْتَلَةً عظيمة ، وقُتِل الضحاك ومعه ثمانون من أشراف الناس من أهل الشام ، كان كل منهم يأخذ القطيفة ،

(١) كان من الأمويين فرع ، هو فرع السبيلات ، وكان هذا الفرع نفسه ينقسم إلى العنابس والأعياس . وكان السفليانيون من العنابس ، وكانت معظم بقية الأسر الأموية من الأعياس . ومروان بن الحكم وابن عمه عثمان بن عفان كانا من بيت أبي العاص ، وكان عمرو بن سعيد من بيت العاص ، وتكرر الأسماء نفسها ، مع فوارق قليلة الشأن ، فيقال : أمية وعبد أمية ، العاص وأبو العاص — قارن الأغاني (ج ١ ص ٨٤ فما بعدها ، ص ٨٤ س ١٠ و ج ١٠ ص ١٠٣ فما بعدها و ج ٧ ص ٦٢ والطبري ج ١ ص ٢٥٣٥ .

والذي كان يأخذ القطيفة كان يتقاضى عطاءً مقداره ألفا درهم .

وإلى جانب رواية عوانة هذه تقف رواية المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١١١) . لا يقول المدائني شيئاً عن يوم جيرون ، وهو يحكى عن سروان شيئاً آخر . غير أنه يتفق مع عوانة في آخر روايته اتفاقاً تاماً ، فيقول : إن سروان لما قدم إلى دمشق ، ومعه الأمويون الذين كانوا في المدينة ، أقنعه الضحاك في أول الأمر ، بالانضمام إلى ابن الزبير ، ورضى سروان بأن يقدم بنفسه على ابن الزبير ببَيْعَةِ أهل الشام ؛ ولـسـكن عمرو بن سعيد بن العاص وعبيد الله بن زياد ومالك بن هبيرة والحُصَيْن بن غَيْر^(١) — والأخيران منهما من قبيلة سَكُون — أقنعه بأن يقرر عقد البيعة لنفسه . فلما علم الضحاك بذلك رجع عن رأيه واعتذر لبني أمية ، واقترح أن يذهب معهم إلى ابن بحدل في الجابية ويشترك معهم في اختيار الخليفة . فأقبل ابن بحدل في أهل الأردن إلى الجابية . وسار الضحاك وبنو أمية في أهل الشام إلى هناك أيضاً ؛ ولـسـكن قيساً قبضت على الضحاك ، في آخر لحظة وهو يصلي ، وقالت له : دَعَوْتَنَا لبيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه الأمة ، فلما تابعناك خرجتَ تابعاً لهذا الأعرجي من كلب ، تباع لابن أخته^(٢) ، تابعاً له ! فعند ذلك اضطر الضحاك أن يتقلب وأن يفعل ما أشاروا به عليه من إظهار بيعة ابن الزبير ، وسار حتى نزل مرج راهط . وأقبل ابن بحدل حتى لقي سروان ، وسارا إلى دمشق حيث انضمت إليهما الليمانية ، فساروا مع سروان حتى نزلوا المرج على الضحاك ، وهم نحو سبعة آلاف رجل ، والضحاك في نحو من ثلاثين ألفاً ، وبدأ القتالُ فقتل الضحاك ، وقتل معه أشراف من قيس ، وأقبل زُفَر بن الحارث هارباً من وجهه إلى قرقيسيا ، وأقام عمير بن الحباب شيئاً على طاعة

(١) وفي رواية عوانة خلاف بسير — الطبري ج ٢ ص ٤٧٤ ، وقارن ص ٤٨٧ .

(٢) هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع المقدمات ، وابن أخت ابن بحدل المقصود هو خالد

ابن يزيد .

بنى مروان ، ثم أقبل حتى دخل قرقيسيا على زفر بن الحارث ، فأقام معه ، وذلك بعد يوم خازر ، حين قُتِلَ عبيد الله بن زياد .

أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٠ فما بعدها) فهو يروى رواية مغايرة لذلك تماماً ، فيقول إن مروان والأمويين الذين نقام ابن الزبير من المدينة ومكة ومن الحجاز كله لم يقصدوا دمشق ، لأن الضحاك كان أميراً عليها لعبد الله بن الزبير ، بل هم نزلوا تدمر ، المقر الرئيسى لسكك والنقطة الوسطى لتجمعهم . وبينما كان مروان على وشك أن يركب بنفسه إلى ابن الزبير ليبيعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبني أمية ، إذ ظهر عبيد الله بن زياد في تدمر آتياً من البصرة ، فأشار على مروان بأن يأخذ البيعة لنفسه من أهل تدمر ويسير بهم وبمن معه من بني أمية ، ويخرج الضحاك من الشام . ووافق زياداً على رأيه عمرو بن سعيد . ثم أشار عمرو على مروان بأن يتزوج أرملة يزيد ليكون ابنها خالد في حجره ، وكذلك حدث . فأخذ مروان البيعة لنفسه في تدمر وسار بعد ذلك في ستة آلاف رجل لقتال الضحاك ، وخرج الضحاك في أهل دمشق ، وخرج معه زفر بن الحارث وغيره من أنصار ابن الزبير وساروا إلى مرج راهط ، فقتل الضحاك وعامة أصحابه في المعركة ، وتفرق جيشه . فأما زفر بن الحارث فإنه أخذ وجهاً من تلك الوجوه هو وشابان من سلمى ؛ فجاءت خيل مروان تطلبهم ، فخاف الشابان السلميَّان أن ندركهم جميعاً خيل مروان ، فقالا لزفر : يا هذا ! أنج نفسك ؛ أما نحن فمقتولان ! وهكذا ضحيا بأنفسهما من أجله^(١) . ثم لحق زفر بقرقيسيا ، واحتال على واليها حتى دخل المدينة ، ثم أخرجه منها وتحصن هو بها . وأما ناتل بن قيس الجذامي أمير فلسطين ، فإنه خرج منها هارباً ولحق بابن الزبير في مكة . ولما بلغ النعمان بن بشير أمير حمص خبر موقعة مرج راهط من أجناد حمص الذين

(١) وتشهد بذلك آيات لزفر نفسه ، فهو صحيح — فإرن كتاب أنساب الأشراف

انهزموا إليها ، خرج هارباً ليلاً ، ومعه أهله وولده وثقله . وتخيّر ليلته كلها ، وأصبح أهل حمص ، فطلبوه ولاحقوه وقتلوه . وبعد هذا النصر أطبق أهل الشام كلهم على مروان واستوثقوا له ، واستعمل عماله على بلاد الشام .

والواقدي يقف في موقف شبه وسط بين أبي مخنف من جهة وبين عوانة والمدائني من جهة أخرى . ويمكن جمع روايات الواقدي المتفرقة عند الطبري وتلخيصها على النحو الآتي : كان معاوية الثاني لما حضرته الوفاة قد أتى أن يستخلف أحداً (الطبري ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) ، فبويع الضحاك مؤقتاً في دمشق ، إلى أن يجتمع أمر الأمة الإسلامية (الطبري ج ٢ ص ٤٦٨) . وكان الضحاك يعمل من أجل البيعة لنفسه ، ولكن قريشاً دفعوه إلى مبايعة ابن الزبير (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) ، وانضوى مروان تحت لواء الضحاك . ثم جاء الحصين بن نمير مع الأمويين الذين أخرجهم ابن الزبير من المدينة ، وأخبر مروان بنحبر ابن الزبير ، وحشّه على أن يعمل هو وبنو أمية على إزالة ما هم فيه من اختلاف شديد وأن يقيموا أمرهم قبل أن يدخل ابن الزبير عليهم الشام فتكون فتنة عمياء صماء . فكان من رأى مروان أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه ، ولكن عبيد الله بن زياد قدم إلى دمشق ، لحسن الحظ ، وشدّ ظهر بني أمية (الطبري ج ٢ ص ٤٦٧ فما بعدها) . وعند ذلك قصد مروان إلى الجابية ، لكي يتحالف مع ابن بحدل واليمانيين . وهناك تلقى البيعة لنفسه باعتبار أنه شيخ بني أمية وكبيرهم ، لأن أهل الشام لم يريدوا أن يبايعوا خالد بن يزيد ، لأنه كان غلاماً حدثاً (الطبري ج ٢ ص ٤٧٢ فما بعدها) . وعند ذلك خرج مروان مع اليمانيين إلى دمشق ، وهُزِمَت قبائل قيس عند مرج راهط في سنة ٦٤ هـ ، وقُتِلَت مَقَتَلَةٌ لم يُقَتَلْ مثلاً في موطن قط (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ س ١) .

وأهم النقط التي تختلف فيها هذه الروايات هي : لا يوجد ذكر أيوم جيرون

الذى كان فيه أول منزعج للتوتر الموجود في دمشق إلا عند عوانة ، ولا يُذكر عند غيره قط . ويؤيده كتاب الحماسة (ص ٦٥٦ بيت رقم ٤) تأييداً لا يُدفع ، والشارح يخطئ في ذكر مناسبة ذلك (فهو يقول إنها كانت في عهد معاوية الأول) ؛ وليراجع القارىء ، خلافاً لذلك ، كتاب الحماسة (ص ٦٥٧ بيت رقم ٣) . وينفرد أبو مخنف بالقول بأن الأمويين الذين أخرجوا من المدينة ذهبوا إلى تدمر ، ولقيهم هناك عبيد الله بن زياد . وأبو مخنف يخالف في ذلك جميع الرواة ، لأنهم يذكرون أن الأمويين توجهوا إلى دمشق^(١) . على أن الواقع على كل حال هو أن ما حدث على مسرح جيرون حدث أيضاً في دمشق وحضره بعض الأمويين (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ — ٤٧٢) . أما القول بأن جميع الأمويين الذين جاءوا من المدينة كانوا هناك فلا يظهر من وصف ما حدث ، ولا يُذكر مروان وعمر بن سعيد ، وهما لا يظهران حيث يُنتظر أن يظهران . ورغم هذا فإن رواية أبي مخنف قد جُعِلت أعمّ مما كانت ، وذلك خطأ على كل حال ، لأن تدمر عند أبي مخنف لا تحمل محل دمشق وحدها ، بل محل الجابية أيضاً . وهو يعتبر أن مبايعة مروان ، التي حدثت في الجابية من غير شك ، حدثت في تدمر . وربما كان ذلك لأن تدمر كانت المقر الرئيسى لقبائل كلب ولم تكن الجابية هي هذا المقر .

أما انقلاب مروان فلا يذكره عوانة على الإطلاق . وأما القول بأن مجيء عبيد الله بن زياد هو الذى أحدث هذا الانقلاب ، فهو ما يقوله أبو مخنف والواقدي ، وهما جديران بالنقطة ، وخصوصاً أن المدائني يوافقهما فيما يقولان (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٩) .

ويقول عوانة والمدائني إن الضحاك كان من أول الأمر يهوى هوى ابن الزبير ، وإن كان لم يجاهر بذلك . ويقول أبو مخنف إنه كان أميراً لابن الزبير

(١) انظر أيضاً كتاب Cont. Byz. Ar. § 29

على دمشق . واسكن أبناء الضحاك قالوا للواقدي (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ فـ :
بعدها) إن ذلك كذبٌ من جانب آل الزبير ، وإن الضحاك أراد أن يبقى
محايذاً لسكى يصل هو إلى الخلافة ، وإنه لم يبايع ابن الزبير إلا كارهاً . ويستطيع
الإنسان أن يصدق أبناء الضحاك . ويظهر أن الضحاك ، شأنه شأن مسلم بن
عقبة ، قد احتفظ في خلافة يزيد أيضاً بالمركز الذي كان له أيام معاوية ، وكان
هو الساعد الأيمن لمعاوية . وبعد أن انتهى ملك أسرة معاوية كان الضحاك هو
الحليفة المؤقت في دمشق ، واسكنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه فوق الأحزاب ،
وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس وابن الزبير .

وكان الذي أخرجه عن الحيادة هو بوجه خاص حسان بن مالك بن بحدل ،
منافسه القديم وخصمه الخطير عندئذ . وكانت وراء حسان قبائل كلب ، وظل
حينما ينافح وحده عن راية بني أمية بدفاعه عن حقوق أبناء يزيد ، وهم أبناء
أخته . وقد انضم إليه أمويو المدينة في ذلك ، واسكنهم لم يُقدِّموا في أول الأمر
مُرَشَّحاً للخلافة من بينهم ، بل كانوا يعتقدون أنهم يجب عليهم أن يسالموا ابن
الزبير ، مهما كان في ذلك من خير أو شر ، ولم يغيِّر رأيهم إلا عبيد الله بن زياد ،
ذلك أنه لما بين عبيد الله لمرزان أنه ليس مضطراً أن يختار بين ابني يزيد الغلامين
القاصرين وبين ابن الزبير وحدهم ، بل يجب عليه أن يتقدم هو للرياسة ، كانت
الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن يتفاهم مع ابن بحدل لأن ابن بحدل هو الذي
كانت في يده دون غيره القوة الكافية (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤ — ٥) .
ولتحقيق هذا الغرض تم الاجتماع في الجابية ، ويظهر أن الضحاك كان قد وافق
على أن يحضر الاجتماع ، وهو الذي وصل بالاجتماع إلى غايته بعد مفاوضات
طويلة . ومن المؤكد أن هذا الاجتماع وقع فعلاً ، وإن كان أبو مخنف لم يذكره ؛
ذلك أنه ما كان شيء يمكن أن يعمل بدون ابن بحدل ، وظل ابن بحدل

يصلى بالناس في الجابية أربعين يوماً ، وكان هو المنتصر الحقيقي في مرج راهط^(١) .
يقول تيوفانيس في أخبار حوادث سنة ٦١٧٥ :

Καὶ συναχθέντες οἱ Φοίνικες καὶ οἱ Παλαιστίνης ἐπὶ τὴν Δάμασκον ἔρχονται καὶ ἕως τοῦ Γαβιῖθᾶ πρὸς Ἄσαν ἀμηνᾶν Παλαιστίνης, καὶ δίδουσι χεῖρας δεξιᾶς τῷ Μαρουῖνι καὶ ἰστώναι αὐτὸν ἀρχηγόν.^(٢)

أما المؤرخون المحدثون ، وعلى رأسهم دوزي ، فهم يتكلمون عن عداوة متأصلة بين كلب وقيس ، ويؤمنون أنها ترجع إلى أزمان لا تعبها ذاكرة التاريخ ولا يمكن الوصول إلى عروقها . ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في الروايات السابقة على الإسلام . فالحقيقة هي أن العداوة لم تكن موجودة قبل فتح الشام على يد المسلمين ولا قبل هجرة قبائل قيس إلى الشام^(٣) . على أن التمايز في النسب بين قضاة وقيس كان موجوداً من قديم ، ولكنه لم يصبح سبباً في تسم الملاقة بينهم إلا الآن . وقد اشتدت الخصومة بينهم أول الأمر ، لأن قضاة كانت متوطنة في الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة إلى هناك . ولكن الخصومة زادت حدة بوجه خاص لأن قبائل كلب أصبحت بفضل مصاهرتها

(١) قارن الحماسة ص ٣١٩ س ٧ :

وما الناس إلا بمحدلي على الموى وإلا زُبَيْرِيٌّ عَمِي فَتَزَبَّرَا

ولكن قارن خصوصاً ص ٦٥٨ بيت رقم ٢ — ٢

أَعْبَدَ الْمَلِيكَ مَا شَكَرْتَ بِلَاءَنَا فَكُلُّ فِي رِخَاءِ الْأَمْنِ مَا أَنْتَ آكُلُ

بِجَابِيَةِ الْحَوْلَانِ لَوْلَا ابْنُ مُحَدَلٍ هَلَكْتَ وَلَمْ يَنْطِقْ أَقْوَمُكَ قَائِلُ

(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي : وبعد أن اجتمع أهل فينيقية وأهل فلسطين وذهبوا إلى دمشق ومنها إلى الجابية إلى الحسن أمير فلسطين بايعوا مروان ونصبوه خليفة — المترجم] .
(٣) وقد أصاب جولدزيهر (Muh. Studien 1, 78) في القول بأن التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب لم يظهر حقيقة إلا في الإسلام .

لماوية ويزيد قريبة من البيت الحاكم . وكان من أثر ذلك أن امتلأت نفوس قيس بالحسد ، لأنهم اعتقدوا أنهم قد زُحِزِحوا إلى المرتبة الثانية . ثم صاروا هم البادئين بالشر ، وذلك أنه لما ارتفع شأن ابن الزبير بعد وفاة يزيد ، انضموا إلى جانبه ، على حين حافظت كلب على ولائها للأمويين . وهكذا امتزج الخصام القَبَلِي بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هي بالإجمال الأحزاب السياسية التي كانت في أصلها مستقلة عن القبائل . وفي موقعة سرج راهط ، إذا أخذنا بالقصائد القديمة التي قيلت فيها ، كانت قبائل سُلَيْم وعامر (هوازن) وذيبيان (غطفان) — وكلها قبائل تنتمي إلى مجموعة قبائل قيس — يحاربون تحت إمرة الضحاك مع ابن الزبير . أما القبائل التي كانت تحارب لأجل مروان تحت قيادة ابن بحدل فكانت قبائل كلب وغيسان وسَكُون وسَكْسَك وتنوخ وطيّ وقين ، وهذه المجموعة التي كانت تتألف من قبائل كلب^(١) ، وهي القبيلة الرئيسية في قضاة ، كانت أكثر تنوعاً ، وهي تسمى أحياناً باسم شامل هو : اليمن . ولكن اعتبار قضاة داخلة في قبائل اليمن لم يكن قديماً ، ولم تنضم قبائل اليمن كلها في الشام إلى قبائل كلب . وقد انتهت موقعة مرج راهط بانتصار كلب على قيس التي كانت أكثر من كلب ضعفين أو ثلاثة أضعاف . ولكن النزاع بين قيس وكنب لم ينته بذلك ، لأن قيساً كان لابد أن تتأثر لقتالها الكثيرين . وهنا ، لا قبل ذلك ، يبدأ على وجه أصح ذلك الخصام المبرر المستمر الذي يعتبره دوزي ظاهرة قديمة جداً يردها إلى الأزل ، مخالفاً في ذلك للتاريخ مخالفة تامة .

(١) كانت سكون (من كندة) تعتبر أنفسهم منهم (الطبري ج ٢ ص ٤٧٥ س ٢) . وكانت تنوخ وطيّ أيضاً مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً (الطبري ج ٢ ص ٤٨٤ س ١٢) . أما غسان (من الأزدي) فكانت هي القبيلة القديمة الحاكمة من عرب الشام . وفي كتاب الحماة (ص ٧١ بيت رقم ٣) تسمى قبائل كلب باسم تغلب ، إذا صح ما جاء في الشرح .

وكان البغض الناشئ عن اختلاف الدم يتجدد في كل مناسبة يجد فيها ما يشفيه ، وهو قد كان يلهب نيران العداوة ، حتى بعد أن زالت الأسباب السياسية ، وبعد أن نسيت ، بزمان طويل . والوزير في ذلك يرجع إلى موقعة مرج راهط ؛ وفي هذا ينحصر شأنها الخطير وما جرته من كوارث ؛ فلقد جاءت للأمويين بالنصر ، ولكنها في الوقت نفسه زعزعت أسس ملكهم .

وتلقى مروان البيعة في الجابية يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ ، الموافق الأربعاء ٢٢ بوليه سنة ٦٨٤ م . وبعد موقعة مرج راهط (آخر عام ٦٤ هـ) جاءت بيعة أخرى كانت ذات صبغة أعم وأقوى احتفالاً ، وذلك في دمشق في المحرم سنة ٦٥ هـ ، الموافق بوليه — أغسطس سنة ٦٨٤ م . وقد وصل مروان ، بفضل إخراجهم من المدينة ، إلى عرش دمشق دون فضيلة اختص بها^(١) ، بل ودون أن يكون هو نفسه قد أراد ذلك أو حدث نفسه به . وقد بدا هذا لصاحب كتاب Cont. Byz. Arab شيئاً عجيباً ، وله أن يعجب ؛ فهو يقول^(٢) :

(١) [الحقيقة أنه بعد موت يزيد وتنازل معاوية الثاني ثم موته لم يبق من بيت أبي سفيان سوى غلامين حدثين ، هما خالد وعبد الله ، ابنا يزيد . وكانت تلوح على خالد — الذي اتجه إلى دراسة الحكمة فيما بعد — علامات الذكاء ، ولكنه كان حدثاً لا يمكن اختياره للخلافة أمام ابن الزبير . ولم يكن هناك من بيت النبي نفسه أحد بعد قتل الحسين ووفاته الحسن ، وقد استعرض روح بن زباب الجذامى الموقف في خطبة له (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٥ — ٤٧٦) عند تنوع الأهواء حول المرشح للخلافة ، فوجد أن عبد الله بن عمر ، الذى ذكره البعض ، رجل ضعيف لا يصلح لقيادة الأمة الحمديّة ، وأن ابن الزبير ، رغم مكاتبه ، منافق خارج على الأمة ، قد سفك دماء المسلمين ؛ فلم يبق إلا مروان بن الحكم . ويذكر عند الطبرى في مواضع أخرى ، ما كان لمروان من سن وتجربة ، وما كان مسلماً له به من أنه شيخ بنى أمية وكبيرهم . وإذن فلم يكن انتخاب مروان جزافاً ، بل كان لأنه لم يكن في بيت بنى أمية من يصلح للخلافة غيره ؛ ولولا تعيينه خليفة اتفقت عليه كلمة أهل الشام الذين كانوا عماد الدولة العربية ، انقضت هذه الدولة لأعظم الأخطار . أما إنه لم يكن بطمع في الخلافة فهذا صحيح — المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتينى هي : وشاءت إرادة الله أن يعتلى مروان العرش (بعد أن كان قد أخرج غدرًا من المدينة) بعد فترة غير طويلة من الزمان ، وذلك بفضل جماعة من الجيش اتفقت على ذلك — المترجم] .

Marvan (insidiose ab Almidina pulsus) post modica temporis intervalla aliquantis de exercitu consentientibus deo convivente provehitur ad regnum.

وهكذا بقيت الخلافة في بيت بني أمية، ولكن المروانيين أزاحوا السفينانيين عنها^(١)؛ وكان زواج مروان من فاخنة^(٢) أرملة يزيد، أشبه بأخذ الميراث منه بأن يكون زواجاً ومصاهرة. وقد آلم مروان بذلك نفس خالد بن يزيد^(٣)، الذي أصبح في حجرة، الماك شديداً. وكان مروان لا يألو جهداً في إسقاط خالد من أعين الناس (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧). وأخيراً حرمه مما كان قد وعده به في الجارية من أن تكون له الخلافة بعده، فأخذ البيعة لابنيه: عبد الملك وعبد العزيز، على أن يكون عبد العزيز بعد عبد الملك^(٤). ولم يعارض ابن محمد في هذا النكث بالعهد، وربما كان ذلك لأن من شأن هذا النكث أن يُنَجِّىَ عمرو بن سعيد بن العاص أيضاً، لأن مروان كان شيخاً قد كبرت سِنُهُ ودقَّ عظمُهُ، وكان لا يُنْتَظَرُ له أن يعيش طويلاً؛ وكان خالد بن يزيد، بحسب رأى العرب، لا يزال صغيراً لا يصلح لتولى الخلافة، وعلى هذا كان مآل الخلافة إلى عمرو بن سعيد، وكان عمرو واثقاً من ذلك. ولكن فاخنة انتقمت لابنها خالد من غدر مروان وتعمَّده إسقاط خالد في أعين الناس، ففطنته بالوسادة وهو في سريره حتى قتلت، وهذا ما يرويه الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٦ فما بعدها).

٤ — ومات مروان بن الحكم، بحسب رواية الطبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ س ١٧)، في رمضان، وبحسب رواية الطبرى أيضاً (ص ٥٧٦ س ١٦) في

(١) قارن ما تقدم ص ١٦٦ — ١٦٧ و ١٧٥

(٢) لم تكن فاخنة في رأى ١. مولر A. Müller, I, 375 بدوية أية، وإنما كانت

قرشية [كيف وقد تقدم أنها كانت أخت ابن محمد، سيد كلب — المترجم].

(٣) راجع البيت المذكور عند ابن الأثير، ج ٤ ص ٢٧٥، وقارن ص ٢٩٦ س ٨.

(٤) راجع فيما يتعلق بزمان هذه البيعة ومكانها كتاب أنساب الأشراف (ص ١٥١،

١٦٤ فما بعدها).

هلال رمضان . وبحسب ما يقوله إلياس النصيبى فى يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ ، الموافق الأحد ٧ مايو سنة ٦٨٥ م . وتختلف الروايات فى عمره عند طبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ فما بعدها) بين ٦١ و ٨١ عاماً بحسب الأقل والأكثر . ويقول تيوفانىس إنه حكم تسعة أشهر ، ويقول الطبرى إنه حكم تسعة أشهر أو عشرة . ويذكر فى كتاب Contin. Byz. Ar. § 29 إنه مات بعد عام مملوه بالحروب ؛ وإنى أضمت هذه الحروب إلى حروب ابنه وخليفته عبد الملك ، لأنها ليست إلا البداية ، ولأن الحدود بين حكميهما لا يمكن وضعها فى كل الأحوال وضعاً دقيقاً^(١) .

وكانت أكبر حرب هى الموجهة إلى ابن الزبير ، وعلى الأقل إلى الولايات التى كانت قد بايعت له وكان عليها أسراء من قبيله^(٢) . وعاد الموقف فى الجملة إلى ما كان عليه بعد مقتل عثمان ، فوقفت الشام وحدها أمام جميع البلاد الإسلامية ؛ غير أن سيد الشام عند ذلك لم يكن واثقاً من ولائها له ثقة معاوية من قبل . وبعد موقعة مرج راهط انضمت فلسطين وحمص ، من غير تردد ، إلى الجانب المنتصر . وسلمت قنسرين أيضاً . ولكن قبائل قيس ثبتت على ضفاف الفرات على عنادها وكان سيدها زفر بن الحارث فى قرقيسيا . ورغم هذا ظهر مروان وعبد الملك من أول الأمر مهاجمين لابن الزبير ؛ وربما كان ما على ابن الزبير أن يواجهه من اضطرابات فى الداخل ، خصوصاً فى العراق ، أشد عليه من هجوم مروان وعبد الملك^(٣) .

وبعد أن اجتمع لمروان أمر الشام سار إلى مصر ، وأخذ البيعة فيها لنفسه ؛

(١) والحدود المرسومة عند الطبرى (ج ٢ ص ٥٥٨ س ١٤ ، ٥٧٨ س ٩ ، ٧٠٨ س ٤) خطأ من غير شك .

(٢) قارن فيما يتعلق بخراسان الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، ٨٣١ فما بعدها ، وقارن الفصل الثامن فيما يلى .

(٣) قارن فيما يتعلق بما يأتى : Schia, p. 72ss. Chavârig. p.32ss. .

ثم أقبل راجعاً إلى دمشق ، حتى إذا دنا منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث أخاه الأصغر مصعب بن الزبير نحو فلسطين ؛ فسرّح إليه مروان عمرو بن سعيد في جيش فهزمه^(١) . غير أن محاولة مروان أراد بها استرداد المدينة باءت بالفشل^(٢) ، ووجه مروان عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لكي يعبر إلى العراق التي كانت قد مرّتها النزاع بين الأحزاب الدينية السياسية . وروى أن مروان وعد عبيد الله بأن تكون له جميع البلاد التي يغلب عليها وأنه أمره إذا هو غلب على الكوفة أن يُنهبها ثلاثة أيام (الطبري ج ٢ ص ٥٧٨ و ٦٤٢) . وفي أول هذه الحملة ، عندما كان عبيد الله لا يزال عند جسر منبج على الفرات ، كانت مقتلة شيعة الكوفة الذين كان يقودهم سليمان بن صرد عند عين وردة ، وكان قتالهم على يد الحصين بن نمير قائد عبيد الله بن زياد يوم الجمعة ٢٤ جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، الموافق الجمعة ٦ يناير سنة ٦٨٥ م (الطبري ج ٢ ص ٥٥٩ س ٤ ، ٢٠) . ثم اضطر عبد الله أن يشتغل عند ذلك بقتال زفر بن الحارث ومن معه من قيس نحواً من سنة^(٣) ، وبعد ذلك تقدّم سائراً مع طريق الجيوش العادي إلى العراق قاصداً الموصل ، وذلك في الوقت الذي كان فيه المختار الثقفي قد استولى على الكوفة . وانحاز أمير الموصل من قبل المختار إلى تكريت (الطبري ج ٢ ص ٦٤٣) ، فهزم عبيد الله الجيش الأول الذي وجهه إليه المختار ، بعد قتال عنيف ، وذلك في العاشر والحادي عشر من ذي الحجة سنة ٦٦ هـ ، الموافق ٩ و ١٠ يولييه سنة ٩٨٦ م (الطبري

(١) الواقدي عند الطبري ج ٢ ص ٤٦٧ س ١٠ ، وأبو مخنف ص ٤٨١ ، وعوانة ص ٥٧٦ ؛ وقد تم ذلك على يد عمرو بن سعيد ، قبل أن يأخذ مروان البيعة لولديه — راجع كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ س ١٧ .

(٢) عوانة عند الطبري ج ٢ ص ٥٧٨ ، فابن خلدون ص ٦٤٢ ، راجع أيضاً كتاب أنساب الأشراف ص ١٥٥ س ٢ ، ١٨٠ س ٢ . وكان يوسف الثقفي والد الحجاج مشركاً في ذلك ، وهذا بحسب حكاية ابن قتيبة ص ٢٠١ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ ، ويعتبر فان جيلدر (Van Gelder) في كتابه Muchitar (P. 96, 152) أن هذا خطأ ، دون أن يبيد الأسباب الكافية لما يقول .

ج ٢ ص ٦٤٦ وما يليها) . ولكن عبيد الله لم يلبث أن هُزم بعد ذلك أمام جيش ثانٍ للشيعة يقوده إبراهيم بن الأشتر ، وذلك في موقعة خازر ، في أول سنة ٦٧ هـ^(١) ؛ وقتل عبيد الله نفسه كما قُتل الحصين بن نمير أيضاً (الطبري ج ٢ ص ٧١٤ ص ١ — ٣) . وكان طبيعياً أن ترفع قيس رأسها من جديد في قريسيها ، وشدت من أزرهم رجالٌ من قبائلهم ، جاءوا تحت إمرة عُمر بن الحباب ، وكانوا من قبل يماربون في جيش الشام ، ولكنهم انفصلوا عنه في أثناء موقعة خازر أو بعدها . وذهب العمل الذي قضى عبيد الله قرابة عامين في تحقيقه سدى ، وكان لابد أن يُعمل من جديد . وكان من حسن حظ عبد الملك أن مصعب بن الزبير ، وكان أميراً لأخيه على العراق ، قد ضايقه الشيعة والخوارج في إمارته نفسها ، فلم يكن يستطيع أن يفكر في الشروع في حرب خارج العراق

وكان لابد أن يمضي زمانٌ طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التي فشل فيها عبيد الله بن زياد ، أعنى إخضاع العراق التي كان يحكمها مصعب مستقلاً بعض الاستقلال عن أخيه . وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات في الداخل ، لأن ناتل بن قيس ، فيما يظهر ، بدأ يتوثب من جديد^(٢) . ولكن الذي عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام ، وأخذوا يحرضون الجراجمة (die Mardaiten) في جبال اللكام (Amanus) على العرب^(٣) ؛ ولكن مصعباً قُتل في سنة ٧٢ هـ ، وانتهت الحرب الأهلية في سنة ٧٣ هـ . وفيما

(١) أغسطس سنة ٦٨٦ م . وقد نهى دى غوى إلى التاريخ الدقيق الموجود في كتاب التنبية والإشراف للمسعودي ص ٣١٢ س ١٧ [هو يوم عاشوراء سنة ٦٧ هـ — المترجم] .

(٢) راجع اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢١ والمسعودي ج ٥ ص ٢٢٥ ، لكن ربما لا يكون هنا سوى خطأ في تاريخ السنة .

(٣) Göttinger Nachrichten 1901, p. 428ss. ، [وجاء عند اليعقوبي ص ٣٢١ ، أنه لما أراد عبد الملك التماس إلى عاربة ناتل بن قيس بفلسطين أتاه الخبر أن طاغية الروم قد أناخ على الصيصة ، فسكره أن يتشغل بمحاربته مع اضطراب البلدان ، فوجه إليه فصالحه وحمل إليه أموالاً كثيرة — المترجم] .

يتعلق بالمدة بين سنة ٦٧ هـ ، التي قُتل فيها عبيد الله بن زياد ، وسنة ٧٢ هـ نجد الروايات ناقصة . والمهم هو تحديد أزمدة الحوادث ، وهي لا تزال مضطربة اضطراباً تاماً . ويجب ألا يعزب عن البال أن نقطة الانتقال من عام إلى عام ، بحسب التاريخ الهجري ، كانت تقع في ذلك الوقت في الصيف وأن الحوادث التي كانت تتوقف في الشتاء عادة (الطبري ج ٢ ص ٧٩٧ س ١٠) كانت تنقسم بين سنتين من سنة الهجرة ، على حين أنه لا تذكر في تحديد تواريخ الحوادث إلا سنة واحدة . ومن السهل أن نفهم لماذا ترك عبد الملك مصعب بن الزبير يحارب المختار في سنة ٦٧ هـ ، وأنه لم يُزعج أهل العراق ، وهم يقتتلون ويفنى بعضهم بعضاً . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ٧٦٥) وإلياس النصيبي أنه كان في الشام حطاً شديداً في سنة ٦٨ هـ ، وبسببه لم يقدر أهلها على الغزو . ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٩ = ٩٩٨ من حكم السلوقيين = ٦٨ هـ) عن ذلك أيضاً . أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ س ٢٦) فليس على حق فيما يقوله خلافاً لذلك ، وهو يضع المجاعة في سنة متأخرة عن ذلك بعض التأخير .

ويقول رواية العرب وإلياس النصيبي^(١) إن أول خروج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير كان في صيف سنة ٦٨٩ م = ٦٩ - ٧٠ هـ . وكان معسكره ونقطة تجمع جيشه وقاعدة تدبير عملياته الحربية في بطنان حبيب من أعمال قنسرين ، في هذه السنة وفي السنتين التالية^(٢) . أما مصعب فكان معسكره في

(١) إن ترتيب الأحداث العربية في هذه السنتين مضطرب عند تيوفانيس اضطراباً تاماً ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما يقوله عن زياد (= ابن زياد) والمختار وسعيد (= ابن سعيد) وعن مصعب إلا بعد إصلاح ترتيب الحوادث من حيث الزمان .

(٢) إن الرواية القائلة بأن عبد الملك كان مع الجيش في بطنان حبيب منذ سنة ٦٧ هـ تخالف الرواية المتقدمة عليها التي تقول إنه في هذه السنة لم يستطع أن يغزو بسبب القحط . وإنما تذكر هنا كلمة « بطنان » بمناسبة ما يحكى من أنه في ذلك الوقت كان تحت أقدام الجيش بطنان الوحل ، وذلك بسبب المطر الذي نزل بعد الجفاف . وسبب التسمية لابد أنه كان يرجع إلى أحوال دائمة لا إلى ظروف طارئة ، كما قيل عن هاربورج Harburg في إقليم Landdrostei Lüneberg إنها هاربورج الوحل Dreck-Harburg .

بأجثرا ، عند تكريت^(١) ؛ وكل من المعسكرين كان ثغراً ونقطة حدود على الطريق الكبير بين الشام والعراق . أما أرض الجزيرة فكانت منطقة بين العدوتين ، غير أنها كانت أقرب إلى أن تكون في يد مصعب منها إلى أن تكون في يد عبد الملك ، وذلك أن قبائل قيس على الفرات كانت أيضاً إلى جانب مصعب . ولكي يكفي عبد الملك نفسه خطر الروم فإنه صالحهم على أن يحمل إليهم أموالاً كثيرة^(٢) ؛ ولكن عمرو بن سعيد بن العاص ثار في دمشق وتحصن بها ، يريد الحصول على ما صار له في معاهدة الجابية من حق في الخلافة وحرمة منه مروان بنقضة هذه المعاهدة . فصار عبد الملك مُهَدِّداً من خلفه ، واضطر إلى أن يقفل راجعاً لدرء هذا الخطر ، فأعمل السيف وقتل أعداءه (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٥) ، وقتل بيده عمرو بن سعيد بن العاص على نحو فيه غدر وقسوة منكورة . والروايات (الطبرى ج ٢ ص ٧٨٣ فما بعدها و ص ٧٩٦ وكتاب أنساب الأشراف ص ٢٥) تضع بعض هذه الحوادث في سنة ٦٩ هـ ، وتضع بعضها الآخر في سنة ٧٠ هـ ؛ ولكن لا يصح أن يُخدع الإنسان بهذا فيعتبرها منفصلة ، لأنها في الحقيقة متصلة وقد وقعت في صيف واحد . والروايات مضطربة أيضاً فيما يتعلق بالمدى الذي ذهب إليه عبد الملك بالفعل في حملته نحو الشمال الشرقى . فيقول الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٧٨٣) وإلياس النصيبى إنه رجع من عند عين وردة ، ولكن الواقدي نفسه (الطبرى ج ٢ ص ٧٩٦) يقول إنه لم يكن قد تجاوز بطنان حبيب . ويظهر أن عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٧٨٣ فما بعدها) يأخذ بالرواية

(١) يقول ياقوت (ج ١ ص ٦٦٤) إن عبد الملك أيام حربه مع مصعب بن الزبير كان يشترى بطنان حبيب ، وإن مصعباً كان يشترى في مسكن . وكان لمسكن نفس الأهمية الجغرافية العسكرية تقريباً التي لباجمبيرا — قارن البلاذرى (ص ١٤٩ س ٨) .

(٢) راجع Götting. Nachrichten 1901 p. 488 [ويقول الطبرى ج ٢ ص ٧٩٦ ، إن عبد الملك صالح ملك الروم على أن يحمل إليه في كل جمعة ألف دينار ، وذلك خوفاً منهم على المسلمين — راجع هامش صفحة ١٨٢ — المترجم] .

الأخيرة ؛ وهو يقول إن عبد الملك كان في طريقه إلى محاربة زفر بن الحارث في قرقديا^(١) ، ولكنه اضطر أن يرجع لأن عمرو بن سعيد — بعد أن كان قد رافق عبد الملك إلى البطنان — رجع خفية هو وآخرون إلى دمشق ، واستولى عليها ، ونجد مثل هذا عند اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٢١ فما بعدها) .

وفي السنة التالية ، سنة ٧٠ — ٨٧١ = صيف ٦٩٠ م ، أعيدت الحملة ؛ وفي هذه المرة أيضاً لم يشتبك الخصمان . وبينما كان مصعب في الميدان (الطبري ج ٢ ص ٧٩٨ — ٨٠٣) دبر عبد الملك ثورة قبائل كلب أو ربيعة (وهم المسمون الجُفْرِية) في البصرة ؛ وقد اشترك في قتال مصعب وزفر رجلان من تلقاء أنفسهما ، ولم يكن ذلك ناشئاً عن المحبة لعبد الملك بمقدار ما كان ناشئاً عن البغض لمصعب بن الزبير : وهما عبيد الله بن الحر الجعفي من أشراف الكوفة (الطبري ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٨٨ فما بعدها و ٧٦٥ فما بعدها) وعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري من أهل البصرة ، وكان شجاعاً مقداماً ومن أفتك الناس (الطبري ج ٢ ص ٨٠٠ و ٨٠٧ — ٨١٠ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥ و ٢٦٨ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ٦٢) .

ولم ينته هذا اللقاء إلى شيء . يقول الطبري في حوادث سنة ٨٧١ (ج ٢ ص ٧٩٧) إن عبد الملك خرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير . ثم يذكر ما كان يقال من أن عبد الملك كان لا يزال يقرب من مصعب حتى يبلغ بطنان حبيب ، وأن مصعباً كان يخرج إلى باجيرا — فكانت المسافة بينهما غير كبيرة — ثم يهجم الشتاء ، فيرجع كل واحد إلى موضعه ؛ ثم يعودان . ويمكن الشك فيما إذا كان ما يقال هنا من خروج عبد الملك مجرد تكرار خطأ لما كان

(١) وفي كتاب الحماسة (ص ٦٥٨ بيت رقم ٦) ذكر هجوم قيس على البطنان ، وأن الفضل في رد هجومه لقبائل كلب .

قد وقع في سنة ٦٩ — ٥٧٠ . وثورة الجفريّة التي يذكّرها الطبري في حوادث سنة ٥٧١ (قارن الطبري ج ٢ ص ٨١٣ س ١١ وما بعدها) كانت قد وقعت بحسب ما جاء عند الطبري نفسه (ج ٢ ص ٧٩٨ س ٥) في سنة ٥٧٠ . ويظهر أن الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) يضع هذه الثورة في نفس الوقت الذي يضع فيه ثورة عمرو بن سعيد في دمشق ؛ ولكنه على كل حال لا يذكّر تاريخ الحملة الأخيرة الحاسمة ، فيجعلها سنة ٧٠ — ٥٧١ (الطبري ج ٢ ص ٨١٣) .

وعلى هذا فلا يمكن في الجملة إلا القول بمحتملين . ولكن الإنسان مع هذا لا يظفر بحقيقة الأمر ؛ وهذا يتبين ، كما سنرى ، إذا حسبنا تاريخ الحوادث من أواخرها . ولكنه يتبين أيضاً من الدلائل المباشرة ؛ ففي بيت شعري من ذلك العصر (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ والمسنود ج ٥ ص ٢٤١) يُخاطَب مصعبٌ هكذا :

أكلٌ عام لك بأجْمَـزٍ تغزو بنا ولا تُفِيد خـيـراً

وفي بيت آخر (الطبري ج ٢ ص ١٠٣٨ س ٤) ذكرُ كلمة باجيرا في صيغة الجمع ، أعني باجيرات . والمقصود هو جمع الزمان لا جمع المسكان . أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) فهو بصرح ثلاث حملات في ثلاث سنين متوالية ، ويروي أنه لما كانت سنة ٥٧٢ استشار عبد الملك رجالاته في المسير إلى العراق ومناجزة مصعب بن الزبير ، فقال عبد الرحمن بن الحكم : يا أمير المؤمنين ! قد واليت بين عامين ، تغزو فيهما ، وقد خسرت خيلك ورجالك ؛ وعامك هذا عامٌ حارِدٌ ، فأريح نفسك ورجالك ، ثم ترى رأيك . وقال له يحيى بن الحكم — وكان عبد الملك يقول : من أراد أمراً فليشاور يحيى ابن الحكم . فإذا أشار عليه بأمر فليعمل بخلافه — : أرى أن ترضى بالشام وتقيم بها ، وتدع مصعباً بالعراق ، فلعل الله العراق ! وقال له محمد بن مروان :

أرجو أن ينصر ك الله ، أقمت أم غزوت ، فشمّر ا فإن الله ناصر ك . فاستعدّ عبد الملك للسير ، وخرج لقتال مصعب ، فجاءت له السنة الثالثة بالنصر الخامس .

وكان ذلك في صيف سنة ٦٩١ م = ٧١ — ٧٢ هـ . وقضى عبد الملك الشطر الأكبر من هذا الصيف في إخضاع أرض الجزيرة . وقد استسلم زُفر بن الحارث في قرقيسيا بعد حصار طويل ، أما ابنه الهذيل فقد اضطر إلى أن يلحق بعبد الملك في حروبه ^(١) ونجد الأخبار المفصلة في هذا عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٧٥ فما بعدها) ، وعنده توجد أيضاً أخبار غزو لقرقيسيا قام به قبل ذلك ، بأمر من عبد الملك ، أبان بن عقبة بن أبي معيط ، أمير حمص ؛ ولكنه لم يفتحه إلى شيء . وبحسب هذه الأخبار لم يستسلم زُفر أمام جيش كلب وقضاة ، بل هو انضم إلى عبد الملك طوعاً واختياراً ، بعد أن أعطاه عبد الملك الأمان . ولا شك أن هذا من إملاء روح الفخر الكاذب عند قيس ؛ فهي تريد ، بعد أن انهزمت ، أن تُزِيل سرارة الهزيمة . ولكن كان لا بد بعد تسليم قرقيسيا من التغلب على عين وردة (Rasaina) ، وكان عمير بن الحباب لا يزال فيها متحصناً مستمراً في المقاومة ^(٢) ، كما كان لا بد من التغلب على نصيبين أيضاً . وكان المسمون بالخشبية ، وهم بقية

(١) راجع كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ س ١٧ فما بعده ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٥) . أما تيوفانيس فهو يضع الاستيلاء على Cirecium (قرقيسيا) في سياق حوادث ناملي . [وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ — ٢٥ أن زفر بن الحارث لما صالح عبد الملك اشترط ألا يقاتل معه ، وابن الزبير حى . ولم يدخل الهذيل بن زفر بن الحارث في شرط أبيه . فلما سار عبد الملك إلى مصعب سار معه الهذيل ، ثم تحول إلى مصعب ، وقاتل مع إبراهيم بن الأشتر . . . ثم عفا عنه عبد الملك لشجاعته — راجع أيضاً ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ — المترجم] .

(٢) راجع Barhebr. ، ط . Bedjan ص ١١١ . وحباب هو بطبيعة الحال ابن حباب ، راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٤ .

أتباع المختار الثقفي ، لا يزالون يدافعون عما في أيديهم وقد استسلموا أخيراً ،
وأُذِمَّ جُوفِي فِي الْجَيْشِ^(١) .

ولما جاء الصدام الحاسم آخر الأمر بين عبد الملك ومصعب كان قد مضى من
الصيف شطر كبير . وكانت المعركة في دير الجاثليق بين مسكن ، حيث ضرب
عبد الملك معسكره كما ضربه معاوية من قبل ، وبين باجئرا ، حيث كان يعسكر
مصعب (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) . وكان الشهر شهر جمادى الأولى أو جمادى
الآخرة ، أما السنة فتختلف فيها الروايات بين ٧١ و ٧٢ هـ (راجع الطبري ج ٢
ص ٨١٣ وكتاب أنساب الأشراف ص ٨) . ويذكر الواقدي وإلياس النصيبي
سنة ٧١ هـ ، ويذكر غيرها سنة ٧٢ هـ^(٢) . وإذا صرفنا النظر عما تقدم ذكره ،
فإن الدليل على صحة التاريخ الأخير هو أن إرسال الحجاج إلى الحجاز أعقب
انتصار عبد الملك في العراق مباشرة ، ولا شك في أن إرسال الحجاج إلى العراق
كان في سنة ٧٢ — ٧٣ هـ^(٣) .

وتوجد روايات كثيرة (أو بمباراة أدق : مجموعات من الروايات) فيما يتعلق
بسير المعركة . وقد كانت العلاقة بين هذه الروايات مثاراً لمناقشة غير عادية ، وذلك

(١) السمودي ج ٥ ص ٢٤١ ، وفارن أيضاً الأغاني ج ٥ ص ١٥٥ ، وج ٨ ص ٣٣ ،
وج ١١ ص ٤٧ ، وكلامنا عن الشيعة Schia ص ٨٠ ، هامش رقم ١ وص ٨٤ هامش رقم ٣ .
(٢) هكذا يقول المدائني (الطبري ج ٢ ص ٨١٣ ، ص ١٤٦٦ ص ٩) ، والأغاني
ج ١٧ ص ١٦١ ، وابن الكلبي نقلًا عن جده ، وأبو مخنف في كتاب أنساب الأشراف
ص ٢٦ والسمودي ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) وفيما يتعلق بسنة ٧١ هـ يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما رواه أبو مخنف (الطبري
ج ٢ ص ٨١٣) من أن المعركة كانت يوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى أو الثانية . أما المدائني
فهو يذكر سنة ٧٢ هـ . ولكن يوم ١٣ جمادى الأولى أو الثانية في هذه السنة لم يكن يوم
ثلاثاء ، أما يوم ١٣ جمادى الثانية من سنة ٧١ هـ فكان يوم الثلاثاء . ورغمًا عن هذا فيبدو لي
أنه من المستحيل ومن المخالف للوقائع التي تؤيدها روايات ثابتة لإنقاص عدد الحملات الثلاث التي
وجهت إلى العراق إلى حملتين فقط وأن تكون قد مضت سنتان كاملتان بين احتلال الكوفة
التي كان نتيجة لمعركة الدير وبين أخذ مكة . وسأعود إلى هذا الموضوع .

أن آثاره (Ahlwardt) قارن بين ما جاء في كتاب التاريخ الذي نشره ، وهو جزء من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري ، وبين ما عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٣ فما بعدها) ، ووجد أن ابن الأثير قد اقتبس من ذلك الكتاب أجزاء كبيرة ؛ وقد اعترض نولدكه (Nöldeke) على ذلك ، وربما كان اعتراضه ظناً منه أن الإنسان يستطيع هنا ، كما في حالات أخرى ، أن يكتفي باعتبار أن الطبري هو مرجع ابن الأثير . وقد أثبت بروكلمان (Brockelmann) أن هذا غير ممكن ، وذلك بعد أن كانت قد ظهرت نصوص الطبري المتعلقة بالموضوع والتي لم يكن قد عرفها نولدكه^(١) . ولكن هذا لا يؤدي إلى الفصل في أمر المشكلة فلا يؤيد آثاره إلا إلى حد ما ، ذلك أنه لا بد من أن تدخل في الاعتبار رواية أخرى أغفلها كل من آثاره ونولدكه وبروكلمان ، وهي موجودة في كتاب الأغاني (ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) ، وهي من جهة ما تتضمنه قريبة جداً مما جاء في الكتاب الذي نشره آثاره ، ولكنها لا تستند إلى ما في هذا الكتاب ، وصاحبها هو الزبير بن بكار . وإذن يقين ما يأتي : ابن الأثير لا يتابع الطبري وحده ، لكن معرفته بالكتاب الذي نشره آثاره لا تزيد عن معرفته بما جاء في كتاب الأغاني ، وهو في الأجزاء المشتركة بين هذين المصدرين يوافق أحدهما أحياناً ويوافق الآخر أحياناً أخرى ، لكنه يختلف عنهما من حيث ضرورة الرواية اختلافاً من شأنه أن يجعل القول بأنه رجع إليهما مباشرة قولاً مستحيلاً . هذا إلى أننا نجد فيما يقوله أحياناً — إذا صرفنا النظر بطبيعة الحال عما نقله عن الطبري — زيادات غير موجودة في المصدرين المذكورين ، كالذي نجده من

(١) راجع مقدمة كتاب أنساب الأشراف من ١٧ فما بعدها ، وراجع Göttinger Gel. Anz. ، عام ١٨٨٣ ، ص ١١٠٢ ، ورسالة بروكلمان في الدكتوراه عن العلاقة بين ابن الأثير والطبري Über das Verhältnis von Ibn al-Athir zu Tabari ، شتراسبورج ، ١٨٩٠ ، ص ٤٤ وما بعدها .

حكاية سبب المدارة بين ابن ظبيان وبين مصعب . وإذن فالظاهر أنه اعتمد على كتاب آخر يرجع معظم ما فيه إلى مصادر واحدة^(١)؛ وبعض الرواة الذين تُذكر أسماءهم هم في الكتاب الذي نشره آثارت وفي كتاب الأغاني هم بأعينهم الرواة الذين يُذكرون عند الطبري ، غير أن الطبري يذكر الواقدي كمصدر ، وهو مرجعه في الرواية الأساسية ، هذه الرواية التي تستمر ، رغم انقطاعات قليلة ، من ص ٨٠٤ س ١٥ — إلى ص ٨٠٨ س ٢ .

ولا تكاد توجد من الناحية التاريخية فوارق ذاتُ بال : استفاد عبد الملك من الفترة السابقة على القتال ، وهي الفترة التي انقضت لما كان الجيشان معسكرين أحدهما أمام الآخر في مسكن وباجيرا ، على مسافة غير كبيرة — استفاد منها في مكانة شيعته من أهل العراق وفي الاتصال بأشراف الكوفة ، فدعاهم لنفسه ووعدهم ومذاهم . وهذا هو عين ما فعله معاوية من قبل ، وفي موقف شبيه بموقف عبد الملك ، ومن المكان نفسه . ولم يكن لأهل العراق رغبة في القتال ، كما يدل على ذلك البيت الذي تقدم ذكره في ص ١٨٦ ، وهم لم يكونوا قط قد تعودوا التزام النظام والطاعة ، ولم يتعلموا من الحروب الحزبية المروعة التي وقعت بينهم في السنين السابقة على ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من الوفاء السياسي والحربي ؛ وكما تريد الموسوعة كلَّ يوم خليلا كانوا يريدون كل يوم أميرا (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ س ١٧ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ س ٢٣) . ولقد هم أهل العراق بالغدر بمصعب ، فقال لهم قيس بن الهيثم : « وينحسكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله أنن تطعموا بعيشكم ليضيقت عليكم منازلكم ! والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله في حاجة ؛ ولقد رأيتُنا في الصوائف ، وأحدنا على ألف بعير ، وإن الرجل من وجوههم ليفزو على فرسه ، وزاده

(١) لا يمكن في هذا المقام أن نعطي البرهان الكامل على ذلك ، لأن المسألة ليس لها إلا شأن أدبي وليس لها شأن تاريخي ، ومحاولة الحكم في أمر العلاقة بين الكتب فيها دائما شيء من الصعوبة .

خلفه » ولكن ذلك لم يُجَدِّ نَفْعاً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤) . وكان لا بد لمصعب أن يترك أحسن جنده تحت قيادة المهلب ، لكي يحموا البصرة من هجوم الخوارج^(١) . وكانت بين البصريين الذين كانوا معه قبيلة ربيعة التي لم يكن يطمئن إليها والتي كان لا بد له في السنة السابقة أن يقضى على ثورتها (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٧ ، والأغانى ج ١٧ ص ١٦٢) . وجاء بمعظم جيشه من الكوفة ، ومنها كان خروجه (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٤ ، ٨٠٧ ، وابن الأثير ص ٢٦٤ وما بعدها) . ولم تكن أهواء أهل الكوفة إلى جانبه ، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدوا على المختار إلا لأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك ، وكثيرون كانوا يكرهونه ، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجري أنهاراً . ولهذا كانت مهمة عبد الملك مهمة سهلة ؛ فأدخل مِغْوَلَه بين أهل الكوفة ، والآيات المحفوظة لنا عن ذلك العصر (أنساب الأشراف ص ١١ فما بعدها) تعبر عن الألم من خيانة رجال الكوفة . وكان القواد الكوفيون الذين كانوا منهم والذين تُذكر أسمائهم ، كوفيين خُلصاً (أنساب الأشراف ص ١٣ س ٢١ - ٢٣ ، ص ٢٧ س ١٤) ، وكلُّهم شرط عليه ولاية أصبهان ، فأنعم بها لهم كلهم ، جزاء على خيانتهم لمصعب (أنساب الأشراف ص ١٣ ، ٣٢) . وكانت أصبهان تابعة للكوفة ، وكان يتولاها رجال من الكوفة . ولم يستطع مصعب أن يتخذ إجراءات صارمة إزاء الخوثة الذين كان يرأسهم عبد الملك ، بل هو تركهم في مواضعهم ، رغم أنه قد حذر من ذلك . وكان الذي حذره وأشار عليه بقتلهم أو بالقبض عليهم وإبعادهم على الأقل ، هو إبراهيم بن الأشتر ، صاحب النصارى في موقعة خازر ؛ فقد أعطى الكتاب الذي تلقاه من عبد الملك إلى مصعب مختوماً من غير أن يفضه أو يقرأه ، وقال

(١) الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، وابن الأثير ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف

ص ١٤ ، وكلامنا عن الخوارج Chavarig, 36ss.

له إن عبد الملك كتب الكتب إلى جميع القواد ، ولكنهم لم يظهروها له . وكان إبراهيم هو المخلص الوحيد ، وكان في الوقت نفسه أبرز شخصية في الكوفة ، وكان ظاهرة جديرة بالإعجاب في تلك البيئة ، والابن الجدير بأبيه الذي انتصر يوم صفين . وكان عدم استماع مصعب لنصيحته ، وذلك في أوائل المعركة عند دير الجاثليق ، دليلاً على الهزيمة الحاسمة لمصعب ؛ ذلك أن عتاب بن ورقة النخعي هرب ، وكان على خيل مصعب ، وعصى بقية القواد ورؤساء القبائل القائد الأعلى ، واعتذروا عن الهجوم بمنوهم بغير العذر . وأخيراً بقي مصعب وحده تقريباً في مكانه ، ونظراً لهذا الموقف الفريد في بابه صارت لموقعة دير الجاثليق شهرتها : ولا يحتاج الإنسان إلى معرفة بخطط الجيوش وقيادتها لكي يفهم مجراها . وقد بعث عبد الملك أخاه محمداً إلى مصعب يعطيه الأمان . فأبى وقال : إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً . ونادى محمد بن مروان عيسى ابن مصعب — يعطيه الأمان ويحمله على ألا يقتل نفسه . وحاول مصعب أن يقنع ابنه بقبول الأمان والمضى إلى عبد الملك ، فأنف أن يُقال عنه إنه أسلم أباه ، فقال له مصعب : فتقدم بين يدي احتسبك ! فقاتل بين يدي أبيه حتى قُتل ، وكان عيسى لا يزال صبيّاً ؛ لأن مصعب نفسه لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين . ثم أُتيخَن مصعبُ بالسهم ، فشَدَّ عليه زائدةُ بن قدامة ، وطَعَنه قاتلاً : بالثارات المختار ! فصرعه ، ونزل إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه وحملها إلى عبد الملك^(١) .

وبعد هذا النصر الذي ليس لصاحبه أن يفخر به كثيراً ، دخل عبدُ الملك

(١) [لما قتل مصعب أمر عبد الملك بدفنه هو وابنه عيسى ، وقال : واروه ! فقد والله كانت الحرمه بيننا وبينه قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم (ن . عقم) — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٨١١ — ٨١٢) ، وراجع خطبة عبد الله بن الزبير ، لما بلغه خبر مقتل أخيه مصعب ، عند الطبري ، ج ٢ ص ٨١٨ — ٨١٩ — المترجم] .

السكوفة ، وأخذ البيعة من القبائل ، وفرّق أعمال العراق والمصريين : السكوفة والبصرة ، على عمّاله^(١) . وعسكر أربعين يوماً في النخيلة ، في نفس الموضع الذي كان معاوية قد عسكر فيه من قبل مع جيش الشام . وفي ذلك الوقت وجّه الحجاج بن يوسف إلى الحجاز لمحاربة الزبير . هذا ما يقوله الهيثم بن عدي في كتاب أنساب الأشراف (ص ١٨ ، س ١) ويوافقه الواقدي في ذلك ، وهو يقول (الطبري ج ٢ ص ٨٣٠ وكتاب الأنساب ص ٣٨) إنه بعد قتل مصعب بن الزبير أرسل عبد الملك الحجاج في ألفين من جند أهل الشام إلى مكة ، وذلك في جمادى ، أعني في الشهر الذي وقعت فيه معركة الدير ، أو في الشهر التالي ، لأن اسم جمادى يطلق على شهرين ؛ وهو يذكر أن ذلك كان سنة ٨٧٢ هـ ، ولا يستطيع أن يذكر غير ذلك ، لأنه يقول إن حصار مكة لم يبدأ إلا في أواخر سنة ٨٧٢ هـ وأنه استمر شطراً كبيراً من سنة ٨٧٣ هـ . ولكن كيف استطاع إذن من قبل أن يجعل الموقعة الخاصة بذلك في سنة ٨٧١ هـ ؟ لا يمكن حل هذا الإشكال بالرجوع إلى الشذرات المحفوظة لنا عن الواقدي ، ولا شك في شدة اتصال الحوادث في العراق والحجاز ، ولا شك أيضاً في أن سنة ٨٧٢ هـ كانت هي السنة التي هُزم فيها مصعب .

ويقول الواقدي إن الحجاج لم يقصد إلى مكة رأساً ، ولا هو عرض المدينة ، بل ذهب أولاً إلى الطائف ، فوصل إليها في شعبان ، وليث فيها عدة أشهر^(٢) . ومن هناك شرع يبعث البعث لمناوشة ابن الزبير في سهل عرفة ، وكانت خياله تهزم خيل ابن الزبير وترجع ظافرة . ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليه ، ويسأله أن يُمدّه بالرجال . وكان طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان قد احتل المدينة وأخرج منها عامل ابن الزبير (الطبري

(١) فيما يتعلق بخراسان ، راجع هنا وفي حالات أخرى الفصل الثامن مما يلي .

(٢) المسعودي ج ٥ ص ٢٥٩ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٣٩ .

ج ٢ ص ٨١٨ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ٣٤ فما بعدها) ، فأمره عبد الملك أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج ليساعده . وبدأ حصار مكة ، كما يقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ فما بعدها) ، في هلال ذي القعدة سنة ٧٢ هـ ، الموافق ٢٥ مارس سنة ٦٩٢ م) ، ورُميت مكة والكعبة بالمنجنيق^(١) . وفي أثناء ذلك قام رعد وبرق وصواعق ، وسقطت صاعقة على المنجنيق فأحرقتة وقتلت بعض رجال الحجاج ؛ فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا ، اعتقاداً منهم أن ذلك شيء من الله بسبب مهاجرتهم الكعبة ، ولما كان الحجاج استطاع أن يذهب عنهم ما اعتقدوه . وأخذ أصحاب ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً ، وأخيراً اتقوا السلاح جميعاً وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان ؛ وكان فيمن خرج حمزة وجبيب ابنا عبد الله بن الزبير نفسه . سكن ابن الزبير ، وكان شيخاً في الثالثة والسبعين من العمر ، خجل من ذلك ، فودع أمه وقبّل رأسها ، وخرج يقاتل وحده ، وقُتل (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٨ فما بعدها وكتاب الحماسة ص ٣١٩)^(٢) .

(١) انظر ما تقدم ص ١٦٣ .

(٢) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ٨٤٤ — ٨٥٢) أن ابن الزبير لما تفرق عنه أصحابه دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ، فقال لها : يا أمّي ! خذني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق مني إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة . والقوم يطوفني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ! فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتيك ، يتلاعب بها غلمان بني أمية ! وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فيئس البعد أنت ! أهلكك نفسك وأهلكك من قتل معك . وإن قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، ولم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ! . فدنا ابن الزبير فقبّل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي والذي فتّ به . ثم بين لها حقيقة مقصده وتمسك بالحق والعدل ، وخرج من عندها ، وهي تدعو له ، وقاتل قتال الأبطال ، وهو يتمثل بأبيات في الشجاعة والصبر من الشعر الجاهلي . وكان يشدّ وحده على الجم الغفير ، وكان كاسد في أجرة . حتى قتل . ولما بلغ مقتله الحجاج سجد شكراً لله . وعلفت رأسه ورأس بعض أصحابه في المدينة ، ثم أرسلت إلى دمشق . وكان ابن الزبير في شجاعته موضع إعجاب أعدائه . راجع تفصيل مقتله عند الطبري سـ المترجم] .

ويقول الواقدي إن ذلك حدث بعد بدء حصار مكة بستة أشهر وسبعة عشر يوماً ، وذلك في يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٨٧٣ ، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٩٢ م ، (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ ، هامش ١) ؛ ولكن اسم اليوم غير موافق لتاريخه ، ففي كتاب الطبري (ج ٢ ص ٨٥١ س ١٠) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٥٧) أن الشهر لم يكن جمادى الأولى بل جمادى الآخرة . ويذكر إلياس النصيبى أن ذلك كان يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة ، واسم اليوم بحسب ما يقوله إلياس أيضاً ، غير متفق مع مكانه من الشهر .

ولم يكن تسليم مكة^(١) سوى الفصل الأخير القليل الشأن في الرواية ، وذلك أن الحجاز ، منذ مقتل عثمان ، كان قد أصبح ركناً ميثاقاً ، ولم يكن من الممكن جعله مركزاً للحياة السياسية ، ولا شك أن ابن الزبير كان يرمى إلى هذا ، وكان لا بد له أن يجعله غاية له ، تمشيًا مع طبيعة الحركة التي ارتفع شأنه بسببها^(٢) . وقد كشف ، في الوقت نفسه ، عن الصبغة الروحية لخلافته بأن ظلَّ مقيمًا في الحرم الذي عاذ به ، حتى عند ما كانت أبواب مجد الدنيا مفتوحة أمامه . ولكن الأمر انتهى إلى أن أصبح هو نفسه في أثناء الفتنة التي سُمِّيت باسمه في مكان ثانوى إلى أبعد حد . وكان القتال ، من حيث الاسم ، يدور حول شخصه ، ولكنه لم يشترك فيه ، وتقررت نهاية القتال بدونه أيضاً . ولم يكن شأنه في جزيرة العرب نفسها ، في أثناء سنين طويلة ، أكبر من شأن النجدة الخارجي (الطبري ج ٢ ص ٧٣٧ ، وما قلناه عن الحوارج في بحثنا ص ٢٩ فما بعدها) . وهو قد أُخِذَ في المكان الذي عاذ به ، وفيه قُتل . وبذلك انتهت الفتنة الكبرى ، وعادت الجماعة الإسلامية إلى وحدتها .

(١) نجد تهنئة شعرية لذلك في شعر الهذليين ، قصيدة رقم ٢٥٩ بيت ١٧ فما بعده ، وافرأ : وفدّ . [ويشير المؤلف إلى نشرته لشعر الهذليين في الجزء الأول من كتابه المسمى Skizzen und Vorarbeiten ، برلين ١٨٨٤ س ٩١ — ٩٢ — والشعر لأبي صخر في قصيدته التي أولها : عفت ذات عرق عصاها فرتامها — المترجم] .

(٢) انظر ما تقدم من ١٦١ .

الفصل الرابع

بنو مروان الأولون

١ - على أن العواصف في العراق لم تسكن بانتهاء الحرب التي استمرت سنين طويلاً مع ابن الزبير ، بل ملأت هذه العواصف كل مدة خلافة عبد الملك تقريباً ، كما سنرى . وفي الشام أيضاً استمرَّ صَخَبُ العداة بين قيس و كلب . وقد ألقى زفر بن الحارث في قرقيسيا السلاح في السنة التي قُتل فيها مصعب بن الزبير ، واسكن العداة بين القبيلتين لم يَنْدَته بذلك ، بل ظل إلى ما بعد تلك الحرب الطويلة . ولكي يدرك الإنسان هذا العداة في جملة الحوادث المتصلة به ، لا بد له أن يرجع في الماضي ، حتى يصل إلى موقعة مرج راهط (الأغاني ج ١١ ص ٦١ م ٣١) ؛ ففي هذه المعركة دفعت قيس حسابها وأقتيد منها . لكن كان لا بد لها ، بحسب العادات العربية ، من أن تثار لدماء قتلاها من المنتصر . وكانت قيس هي المونورة ، فكانت هي التي بدأت ، وإنما كانت كلب تدافع عن نفسها . وقد اشتركت في هذا العداة من قبائل قيس قبائل عامر وسُلَيم وغنم وباهلة^(١) ، وذلك بمقدار الجماعات التي نزلت من هذه القبائل في شمال الشام وجنوب أرض الجزيرة على ضفتي الفرات . أما في جانب كلب فكانت سائر قبائل قضاة^(٢) ، ولكن يظهر أنه لم يدخل في القتال بالفعل إلا قبائل كلب . والمصادر لمعرفة « الأيام » المتفرقة المتباعدة أحياناً ، والتي كان

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ م ١٠ و ١٥ م ٢٥٨ ص ١٨ م ٢٥٩ ص ١٧ م ٢٦٠ ص ٢٤ وفي ص ٢٥٦ م ١٠ يجب قراءة : أعصر ، كما في ص ٢٥٦ م ١٥ .
(٢) وتسمى قضاة باليمنيين في بيت شعر لزفر بن الحارث — ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ م ١٨ .

فيها ذلك القتال الطويل ، هي القصائد الشعرية التي ترجع إلى ذلك العصر والحكايات المرتبطة بها . وكلاهما قد بقيت إلينا عند ابن الأثير وفي كتاب الأغاني وكتاب الحماسة وعند الميداني . ومعظم هذه الأخبار جديرة بكل ثقة ، غير أنها منقطعة الصلة فيما بينها أحياناً ، وليس ثم ما يدل على زمانها ، ولا شك أن ثم وسيلة لوضعها في ترتيب مقبول .

يقول صاحب الأغاني (ج ٢٠ ص ١٢٠ فما بعدها) إن القتال بدأ بأن أغار زُفر بن الحارث السكلابي في قرقيسيا ، وهو رئيس عاصر ، على جماعة من كلب في المصتيخ ، وقتل منهم عشرين رجلاً . فقامت كلب ، وعلى رأسها حميد ابن حرِيث بن بحدل ، وهو ابن عم لسان بن مالك بن بحدل المشهور^(١) ، للأخذ بالنار ، فقتلوا ستين رجلاً من عُمَيْر ، كانوا يعيشون بينهم في تدمر . ويقال إن زفر بعد ذلك قتل خمسمائة أو ألف من كلب وإنه قتل منهم في يوم الإكليل مقتلة عظيمة ، وإنه بعد هذه القلة الكبيرة رجع إلى قرقيسيا آمناً لم يُصِبه سوء ، ومن غير أن يستطيع حميد أن يلحق به . ولسكن غارة يوم الإكليل ، في موضع آخر من كتاب الأغاني (ص ١٢٢ من ١٧ فما بعده) ، لا تنسب إلى زُفر ، بل إلى عُمَيْر بن الحباب ، رئيس سليم أما الذي لا شك فيه فهو أن عُمَيْراً كان منذ ذلك الحين هو القائم الحقيقي بالنار لقيس من كلب ؛ ذلك أن القتال الكبير بين الشام والعراق حول الخلافة صرف زُفر عن حروب الترات التي كانت تجري في البادية . وقد تلقى زفر في أول الأمر هجمات عبد الملك وفاوضها سنين طويلة ، كما رأينا ، وكان ماثلاً لمصعب بن الزبير مدافعاً عن حماء

على أن ظهور عمير في الميدان يعطينا نقطة نستطيع منها تحديد أزمنة الحوادث ، لأنه كان لا يزال موجوداً في معركة خازر في الجيش الشامي ، ولم ينضم إلى زفر

(١) والشارح في كتاب الحماسة ص ٦٥٨ بيت رقم ٢ يخلط بينهما .

إلا بعد ذلك ، أعفى أنه لم ينضم إليه قبل سنة ٦٧ هـ . وتذكر مجموعة كبيرة من « الأيام » التي كان يشهدها ويبرد فيها نار النار ، وتسمى هذه « الأيام » بأسماء مواضع مختلفة من بلاد السماوة . وعند أرض كابة أفلت منه حميد بن حريث ، ركضاً على فرسه السريع ، وما كاد يفلت . حتى إذا ألح عُمَيْرٌ على قبائل كلب التي كانت تسكن في متناول غزواته ، اضطرت إلى أن ترحل عن البلاد آخر الأمر ، فهاجرت إلى بلاد النور ، من أعمال فلسطين حيناً من الزمان .

وعند ذلك قفل عُمَيْرٌ راجعاً عبر الفرات ، وزل هو وقومه من سليم بإزاء بلاد الخابور ، وكان هذا هو السبب في الصدام بين تغلب النصرانية ، التي كانت قد هاجرت إلى هناك حتى بلغت نهر دجلة وما وراءه ، وبين قيس . وقد لجأت تغلب إلى زُفر لاسكى بأسر سُلَيْمًا بالرحيل عن قرى الخابور ، لأنهم صاروا يغيرون عليهم ويوجدون أسباباً للحروب . ورأى زفر أنه غير قادر على ذلك . وهكذا بدأ العداء والقتال بين تغلب وسليم . وقد حاول زفر أن يتدخل لإنهاء هذا القتال ، لأنه لم يحب أن يدفع تغلب إلى إلقاء أنفسهم بين أحضان أهل الشام . ولكن عميراً ، وهو الرجل المشؤم ، عارضه في ذلك ، واستقر وراء مُصْعَبَ ابن الزبير ، وسمى بتغلب لأنهم نصارى ، فاتهمهم بالميل إلى أهل الشام ، واستطاع أن يهاجمهم باسم حكومة ابن الزبير ، وأن يطلق العنان للانتقام منهم ، فذبح منهم الكثيرين في يوم ما كس أو ما كسين . وعند هذا تنتهي رواية صاحب الأغاني (ج ٢٠ ص ١٢٠ فما بعدها) ؛ وهي نجد ما يكملها عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٥٥ فما بعدها) وفي الأغاني (ج ١١ ص ٥١ فما بعدها و ٦١ فما بعدها) . ونجد هنا أن زفر أيضاً قد أُقْحِمَ في القتال دون رغبة أو إرادة منه ، ووقعت غارات واشتباكات كثيرة . وأما كن هذه الغارات ، وهي تذكر أيضاً في أشعار

الأخطل^(١) ، كانت عند نهر الخابور ونهر البليخ ونهر الثرثار وفي ناحية دجلة . وكانت تغلب في معظم الأحيان هي التي تُمنى بالهزيمة . على أنهم انتصروا في أول الأمر عند الحشاك على نهر الثرثار الذي يصب في دجلة غير بعيد من تكريت إلى جهة الجنوب ، وقتلوا عمير بن الحباب سنة ٧٠ هـ ، وبعثوا برأسه إلى عبد الملك في دمشق . ولكن قيساً عند ذلك اضطرت زفر إلى أن يتولى الأخذ بثأر عمير ، ففرض تغلب ضريبة قاسية عند مدينة الكحيل ، على نهر دجلة ، وقتل مائتين من أسراهم وقموا في يده . ولكن الأحداث الكبرى التي وقعت سنة ٧١ و٧٢ هـ ، وكان مسرحها أرض الجزيرة ، وضمت جداً للغارات الدموية هناك ، وأنقذت تغلب .

ولكن الحرب بين كلب وبس ثارت من جديد بعد ذلك في موضع آخر (الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها ، والميداني ، ١٤ ، ٨٥^(٢) والأغاني ج ١٧ ص ١١٣ وما بعدها وياقوت ج ١ ص ٧٣٩) . فقد أصاب حمد بن حريث بن بحدل الرئيس السابق لـ كلب ، في حربته مع عمير^(٣) ، سبيلاً سهلاً لكي ينتقم من فزارة في جزيرة العرب نفسها — وكان موطنهم الأكبر إلى شرقي المدينة — لما فعلته سليم وعاسر على الفرات ، لأنه لم يستطع أن ينال منهم . ولم تسكن فزارة هذه قد اشتركت حتى الآن في القتال ، ولـ كلبهم كانوا ينتمون إلى المجموعة الكبيرة لقبائل قيس . ومهمهم — من أعضاء بيت الأسراء القديم ، من الذين كانوا مستوطنين في الكوفة — من كانوا قد أعانوا زفر وعميراً (ابن الأثير ج ٤

(١) لم أستطع حتى الآن أن أراجع نشرة بارت (Barth) لديوان القطاى .

(٢) إن ترجمة فريتاغ (Freytag) تحتاج إلى إصلاح كثير .

(٣) يذكر ابن حبيب عند الميداني اسم أبيه حريث خطأ ، بدلاً من ذكر اسمه . راجع ،

خلافًا لذلك ، كتاب الحماسة (ص ٢٦٠ بيت رقم ١) ، والأغاني ج ١٧ ص ١١٣ أسس
و ص ١١٤ ص ٢٨ .

ص ٢٥٨ ص ١٩ فما بعده) . وجعل حميد خالداً بن يزيد بن معاوية^(١) ، وهو الذي كانت جدته من كلب ، يفعل له عهداً باسم عبد الملك ليأخذ صدقات قبائل البدو . وخرج حميد باعتباره مفوضاً من قبل الحكومة ، ومعه جمع كبير جداً من عبد ود وعلم من قبائل كلب ، مجتازاً الصحراء ؛ وأخذ يضرب فزارة ، وكان في الحقيقة يقصدهم ، وارتكب فيهم فظائع منكرة ، متلماً لذلك الأسباب الواهية . فجرح وقتل كثيرون ، وخصوصاً عند موضع يسمى العاه . واشتكى من أصابتهم أعماله إلى عبد الملك ، فظن عبد الملك أنه يكفي أن يدفع لهم دية قتلاهم . فأخذوا المال ، لكنهم اشتروا به سلاحاً وخيلاً ، وأعدوا أنفسهم اغارة يثأرون فيها لأنفسهم . فهاجموا منازل الكلب عند منابع بنات قين في أرض السامرة ، وقتلوا تسعة عشر رجلاً من عبد ود وخمسين من علم ، فغضب عبد الملك لذلك أشد الغضب ، وأمر عامله الحجاج بأن يقتص من فزارة . وعند ذلك دفع الرجلان اللذان كان عليهما الوزر ، الشر عن قومهما بأن قدما على الحجاج طائعين ، فأرسلهما إلى عبد الملك . وكان لا بد لـ كلب من أن تكتفي بقتلهما . ويوم بنات قين هو أشهر « يوم » في كل الحروب المتواصلة بين قيس وـ كلب ، وهو لم يقع إلا عندما كان الحجاج أميراً على المدينة (سنة ٧٣ و ٧٤ هـ) . ولا يمكن أن يكون زمان السبب الذي دعا إلى هذا اليوم ، وهو ما أريق من دم في العاه ، قبل ذلك بكثير^(٢) . وعلى هذا فإن القول السائد في كل روايات

(١) [في كتاب الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها أنه في أيام الحرب بين عبد الملك وابن الزبير كان أبناء القيسيات من بني أمية يفخرون على أبناء السكيات بما يفعله بهم أخوالهم القيسيون . وكانت قيس مع ابن الزبير ، وكان هذا الفخر سبباً في إغضب أبناء السكيات أمثال خالد بن يزيد وعبد العزيز بن مروان . وخالد بن يزيد هو الذي بحث عنم ينتقم من قيس ، وهو الذي دبر العهد الزور وأعطاه إلى حميد بن حريث بن مجدل — المترجم] .

(٢) على أنه ليس بمستحيل أن يكون قد وقع في الفترة السابقة على عودة الوحدة للجماعة الإسلامية ، كما يقول ابن حبيب عند الميداني . ولكن دوزي (١٢٠ ، ١) يجعل يوم بنات قين في عهد معاوية ، وهذا خطأ تام .

هذه الحكاية ، من أن بشرأ وعبد العزيز ابني مروان المتباغضين^(١) كانا في دمشق يوم بنات قين وبعده أيضاً ، هو قول خطأ ؛ بل ما قد كان أحدهما قبل ذلك بكثير أميراً على الكوفة ، والآخر أميراً على مصر ، فلا يمكن أن يكونا قد كانا في دمشق إلا زائرين فترة من الوقت .

وكذلك بقيت للحرب بين سليم وتغلب بقية ، بعد أن كان النزاع حول الخلافة قد انتهى ، وكان السلام في الدولة عند ذلك قد عاد إلى نصابه منذ وقت طويل (راجع الأغاني ج ١١ ص ٥٩ فما بعدها ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١ فما بعدها) . وكان الأخطل الشاعر هو السبب في إثارة هذه الحرب من جديد ، وذلك أنه قدم على عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي ، فسأله عبد الملك : أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال : نعم ، هذا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سليم وعاصرٍ

والأخطل يقصد ما فعله أخواله من تغلب بقبيلة الجحاف ، وكان الجحاف قد اشترك في قتال تغلب تحت قيادة عُثَيْر بن الحباب . والما بدأ الأخطل ينشد قصيدته كان الجحاف يأكل رطباً ، فجعل النوى يتساقط من يده غيضاً . فلما انتهى الأخطل من إنشاد قصيدته أجابه الجحاف قائلاً :

بلى سوف تنبيكيهم بكلُّ مُهَنَّدٍ وننعي عُثَيْراً بالرماح الشواجرِ

وفعل الجحاف ما فعله عُثَيْد بن حريث السكبي من قبل ، فتلطف لبعض كتاب الديوان حتى اختلق له عهداً على صدقات تغلب وبكر في الجزيرة . وخرج بصفته عاملاً على الصدقات ، ومعه عدد كبير من فرسان قيس ، وقصد الجزيرة . وفي أثناء الطريق كشف لمن معه عن قصده الحقيقي ، وحدثهم بما كان من الأخطل

(١) [كانت أم عبد العزيز كلبية ، وأم بشر قيسية (الخامسة ص ٢٦٠)] -

المرجم [.

وأنه يريد منهم أن يوقعوا بيني تغلب شر وقبعة ، وقال لهم : إنما هي النار أو العار ، فمن صبر فليقدم ، ومن كره فليرجع ! فرجموا عنه غير ثلاثمائة آثروا النار على العار ، واتبعوه قائلين : نحن معك فيما كنت فيه من شر وخير . وأغاروا على تغلب في سنة ٧٣٠ هـ ، عند موضع يسمى بشرًا (أو الرهوب) ، فأسرفوا في القتل والفساد ، وبقروا بطون النساء ، وقتلوا ابنًا للأخطل أيضًا . ووقع الأخطل نفسه في أيديهم ، وعليه عباءة دَنَسَة ، فسألوه ، فذكر أنه عبدٌ من عبيدهم ، فأطلقوه . وبعد ذلك لحق الجحاف بأرض الروم . ثم تدخلت قيس لدى عبد الملك السكي يؤمّنه ، فأذن له بالرجوع بعد زمان طويل ؛ لكن كان لا بد أن يدفع لتغلب دية ما أريق من دماء عند بشر ، فلما لم يقدر على ذلك تقدم إلى الجحاج ، وكان في ذلك الوقت أقوى رجل بين قيس ، السكي يحتمل دفع الديات ، فاعتذر الجحاج أولاً ، واسكنه قبل آخر الأمر . ثم صلح أمر الجحاف أخيراً ، فتأله وتنسك ، وذهب مع القوم الذين شهدوا معه غزو تغلب إلى الحج ، وقد لبسوا الصوف وخرموا أنوفهم ، وجعلوا فيها البرى حتى وصلوا مكة . وتعلق الجحاف بأستار الكعبة ، يدعو دعاء اليانس ، ويقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل ! فسمعه عبد الله بن عمر ، فقال له : يا هذا لو كنت الجحاف ما زدت على هذا ! فقال : فأنا الجحاف .

ويرى الإنسان أن العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه ؛ فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن يحولا بينهم وبين وضع القبيلة والتأر فوق كل شيء . فكانوا يؤثرون النار على العار ، وكانوا لا يندمون إلا أخيراً حين لا ينفع الندم . بل هم صاروا في ظروفهم الجديدة أشد قسوة عما كانوا عليه في الجاهلية في وطنهم القديم ، فصاروا يقتلون بعضهم بعضاً على نحو أوسع نطاقاً وأقل مبالاة ، فكانوا يبقرون بطون من يأسرونه من النساء ، وهذه عادة لم تكن موجودة في جزيرة العرب بمعناها الحقيقي ، ولكن يشهد بأنها

كانت موجودة في الشام ما يقوله عاموس النبي^(١)؛ بل إنه بعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى وكان السلام قد عاد، استمر القتال الوحشي بين القبائل أمام أبواب دمشق وتحت بصر الخليفة، ومع الاستهانة بهيئته أحياناً.

وكان للعداوات القبلية موطنٌ ثانٍ في الشرق الأقصى للدولة الإسلامية. ذلك أن البغض القديم بين تميم وربيعة اشتد في البصرة بسبب هجرة أزد عمان في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد الأول. فتحالفت ربيعة مع الأزد، وتحالفت تميم مع قيس، وهكذا نشأت مجموعتان كبيرتان من القبائل. وفي أثناء الفترة التي اضطرب فيها أيسر الخلافة بعد وفاة يزيد الأول بدأ القتال في البصرة^(٢)، واضطرب أميرها، عبيد الله بن زياد، إلى الحرب. وأراد مسعود بن عمرو، رئيس الأزد، أن يحتل منصبه، واستطاع أن يستولى على القصر وعلى المسجد بالقوة، يساعده الأزد وربيعة في ذلك. ولكن بينما هو على المنبر في المسجد إذ اقتحمت عليه تميم، فأنزلوه من على المنبر وقتلوه. وعند ذلك قامت حرب النار بين الأزد وتمرير بسبب قتل هذا الأمير القبلي. ولكن الأحنف بن قيس، سيد تمرير، وكان حكيماً حذكته السن، أفلح في إعادة السلام في مقابل دفع دية كبيرة. ولكن العداوة بين الأحزاب لم تزُل، ووجدت الصدور المتربة منزعاً في خراسان^(٣)؛ وكانت خراسان أشبه بمستعمرة بصرية، وإليها انتقلت ظروف الحياة القبلية من البصرة. وكانت الحروب القبلية كلما خبت نارها اندلعت من جديد. وكانت في أول الأسر بين تمرير وربيعة، ثم بين مضر (تمرير وقيس) واليمن (الأزد وربيعة)، وذلك بعد أن دخل الأزد أيضاً على المسرح بفضل المهلب. وكان الخصام بين

(١) [راجع العهد القديم، عاموس، الإصحاح الأول، فقرة ١٣ — ١٤ حيث يذكر من جرائم بعض بني إسرائيل أنهم يقرؤوا بطون الحوامل — المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٦٧ — المترجم].

(٣) [راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٤٨٨ — ٤٩٦ — المترجم].

مجموعات القبائل في شرق الدولة مرتبطة في آخر الأمر بالخصام بينها في مغربها .
وكان الوزير في ذلك وزير قيس خاصة ، لأن قيساً كانوا موجودين في المشرق
والمغرب على سواء ، وكانوا في كل مكان متماسكين فيما بينهم « كما تتماسك أجزاء
البناء » ، وقد كان هذا الخصام ينزع إلى أن يمتص في ذاته أنواع الخصومات
الأخرى ، وأن يقسم العالم العربي كله قسمين متنازحين .

وقد تسربت سموم هذه الخصومة إلى الدوائر الحاكمة ، وكان من العسير
تفاديها . فإذا كان يستطيع أمير أن يفعل ، إذا كانت قيس تعتبره أميرها ! فهو
إن ردهم حرم نفسه تأييدهم ولم يجد ما يستند إليه بل إن بعض الأمراء في بلاط
عبد الملك كانوا يتحسسون في الميل إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر ، بحسب
نسب أمهاتهم^(١)

ولا شك أن الفسكرة السياسية للإسلام ، أعنى الوحدة والتضامن في الجماعة
الإسلامية ، كان لها تأثير مضاد لتأثير النزعة القبلية ، وكان الممثلون الطبيعيون للروح
الإسلامية هم قریش الذين كانوا ، بحكم وضعهم القانوني فوق القبائل وخارج منافساتها ،
وكان القرشيون الحاكمون ، أعنى بني أمية ، قد اضطروا إلى أن يرموا أنفسهم
في الشام بين أحضان كلب السكي يحافظوا على سيادتهم إزاء قيس المائلين مع ابن
الزبير . ولكن كانت تربطهم مع ذلك بقيس رابطة الدم^(٢) . ومن هذا الوجه
كان من السهل عليهم أن ينفقوا موقفاً وسطاً . وقد عرف عبد الملك أين مصطلحته
فكان يحاول أن يرتفع عن منازعات الأحزاب . وبعد أن أقلمت قيس عن

(١) [راجع إلى جانب ما تقدم كتاب الحماسة ص ٢٦٠ فابعدا — المترجم] .

(٢) قال عـوـيـج الطائي يمدح كلباً والحيد بن بحدل في قصيدة له (الطبرى ج ٢

ص ٤٨٧ س ١٩ فابعد) :

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت قضاة أرباباً وقيس عبيداً

فالحليفة يعتبر من قيس (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٢ س ١٨) ، لأنه مثلهم من مضر على الأقل ،
وليس من قضاة أو اليمن .

المعارضة له ، عاملهم بالالطف وحاول أن يسترضيهم . وكان زفر بن الحارث وابناه هذيل وكوثر من بعده ، من أكبر الشخصيات وأعظمها جاهاً في بلاط دمشق^(١) . وكانت كلب بطبيعة الحال غير راضية عن ذلك ، ولكن ما عابوه على عبد الملك من أنه لم يكن يشكر لهم حسن بلائهم مع بني أمية كما ينبغي له أن يشكر (الحماسة ص ٦٥٦ فما بعدها) هو في الحقيقة مدح له . أما القول بأنه تحول من جانب كلب إلى جانب قيس فهو يعبر عن الموقف تعبيراً معوجاً كل الاعوجاج ؛ فمن نجد في مجلس عبد الملك بعد ذلك أيضاً رجالاً ذوي نفوذ ينتمون إلى مجموعة قبائل كلب ، كابن بحدل وروح بن زنباع . والأحرى أن يقال إن عبد الملك تصرف كما ينبغي على الخليفة وعلى السيامي أن يتصرف . فكان الأمويون يعتمدون على أهل الشام ، وهم بمهونة أهل الشام قد أخضعوا أرض الدولة الإسلامية كلها ، وبمهورتهم حافظوا عليها ؛ ولو أن انشقاقاً حصل في الشام لتضعف الأساس الذي تقوم عليه سيادة بني أمية على الدولة الإسلامية . أما خراسان فقد كانت في ذلك الحين لا تزال في مرتبة ثانوية جداً ، وكان الشقاق في هذه الجهة النائية قليل الأثر على وسط الدولة . أما في الشام فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، وكان من المستحيل أن يغيب عن بال أهل الشام أنهم لا بد لهم من أن يتضافروا مع الأسرة الحاكمة لكي يحافظوا على مركزهم هم ، وكان ذلك عاملاً فعالاً في كسر شوكة الخصومة القبلية بينهم . فكانت كل ولايات الدولة ، عدا بلاد أهل الشام ، تعتبر خاضعة مغلوبة ، وكانت بلادهم وحدها هي التي تعتبر البلاد الغالبة الحاكمة . وكانت مصالحهم ، وهي مصلحة مادية إلى حد كبير ، في أن تظل الخلافة والسيادة ملكاً لهم من جملة الأسباب التي أوجدت

(١) قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٣٦٠ فما بعدها و ١٤٥٥ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٧٣ و ٢٥٣ ، وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٢ ، ١٥٣ فما بعدها . ويرى الإنسان من ذلك مقدار قوة مركز هؤلاء الأمراء القيسيين في عهد بني أمية ، ولكنهم لم يستعملوا هذا المركز .

شعوراً بالتضامن السياسى بينهم . وقد تجلّى هذا الشعور بنوع خاص فى المناسبات التى كان لابد لهم فيها ، بوصف أنهم جيش الدولة ، من محاربة أعداء الأسرة الحاكمة فى الداخل والخارج ؛ وقد أتاحت لهم فرص كثيرة لذلك .

٢ — والسكى يزيد خلفاء بنى أمية فى رجحان كفة الشام من الناحية السياسية ، حاولوا ، فيما حاولوا ، نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام . وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظلّ يحتمل البيت الحرام فى مكة قرابة من عشر سنين ، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج ، ما داموا على ولائهم للأسرة الأموية ، إلا بمشقة . وقد استغلّ عبد الملك ذلك لمنع رعاياه من الحج إلى مكة ، وحضّهم على أن يحجوا إلى بيت المقدس بدلاً من أن يحجوا إلى مكة ؛ وهذا ما يحكيه أوتيجيوس (Eutychius) على الأقل^(١) . أما الذى لا شك فيه فهو أن عبد الملك جهد فى أن يجعل لبيت المقدس ، باعتباره مكاناً مقدساً فى نظر الإسلام ، مظهراً أروع مما كان له ، وذلك أن الدليل على صدق الرواية القائلة بأنه هو الذى بنى قبة الصخرة موجودٌ فى النقش الذى لا يزال باقياً فى الجزء القديم من هذا البناء . أما النقش الحالى فيُذكر فيه اسم المأمون الخليفة العباسى على أنه هو البانى . ولكن دى فوجي De Vogüé^(٢) اكتشف أن اسم المأمون إنما أُدخل فى النقش الأصيل من طريق تصحيح لكتابة سابقة ، وقد فأت على المصححين أن يصححوا التاريخ القديم الذى يبين السنة التى كان فيها البناء . ويمكن على هذا أن يكون النص الأصيل على القطع ، هكذا : بنى هذه القبة فى سنة ٨٧٢ عبد الله عبد الملك ،

(١) فى كتابه فى التاريخ (Annales) ط . Pococke ج ٢ ص ٣٦٥ . ويحكى أوتيجيوس مثل هذا عن مروان (ج ٢ ص ٣٦٢) وعن الوليد الأول (ج ٢ ص ٣٧٣) .
(٢) فى كتابه Temple de Jerusalem ، ١٨٦٤ ، ص ٨٥ فأبعدها . راجع أيضاً ما يقوله جيلدا بسنر Geldmeister فى مجلة Zeitschr. des Deutsch. Palästinavereins ، ١٨٩٠ ، ص ١٤ . ولا يرجع الخطأ المطبوع فى الأرقام إلى المؤلف الذى كان عند الطبع قد توفى .

أمير المؤمنين . فقد كان للشام في بيت المقدس المسكن الوحيد الذي يستطيع أن يبارى مكة ، على ظهر الأرض (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٦ س ٣) . ولم يكن مكاناً مقدساً عند اليهود والنصارى فحسب ، بل كان عند المسلمين أيضاً مكاناً مقدساً من أول الأمر ، ولم يَعدِل عنه محمد عليه السلام إلى مكة إلا فيما بعد ؛ وذلك نتيجة لما قضت به الظروف من تساهل مع الوثنية العربية^(١) . وقد جعل الخليفة عمر ابيت المقدس بفضل زيارته له شأنًا خاصاً ، وأثار بذلك حسد أهل العراق . وفي بيت المقدس نصب معاوية أيضاً نفسه خليفة ، وصلى في هذه المناسبة على جبل الجبلجلة وعند جيتسياني . ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من إحلال القدس محل مكة ، إن كان قد نوى ذلك على الإطلاق ، وذلك بمجرد أن امتد سلطانُهُ إلى ما وراء بلاد الشام . وقد بدا أن فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للجماعة الإسلامية كلها فكرة لا يمكن تنفيذها^(٢) . ولكن عبد الملك حاول ، فيما بعد ذلك ، أن يجعل للشام شأنًا دينياً على حساب ما كان للمدينة من شأن ، ومن قبله كان معاوية قد أمر في سنة ٥٠ هـ بأن يُحْمَل المنبر النبوي إلى الشام ، فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية عند كسوفها . وأعظم الناس ذلك ، فرجع معاوية عما أراد وقال : « لم أريدُ تحلّه ، وإنما خِفْتُ أن يكون قد أُرِضَ ، فنظرتُ إليه » ؛ ثم كسا معاوية المنبر . وقد هم عبد الملك بما كان معاوية قد هم به ، ولكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك . ويقال إن ابنه الوليد هم مرة أخرى بما هم به أبوه ، ولكنه كف عن ذلك ، لما طلب سعيد بن

(١) [يقصد المؤلف في أغلب الظن تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة ، وهذا التحويل سياسة إلهية حكيمة ، لا يدركها من يريد أن ينظر إلى كل شيء بمنظار السياسة الإنسانية — راجع تفسير آية : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : لله المشرق والمغرب ... الآية « (سورة البقرة) — المترجم] .

(٢) ويروى أن خالد بن عبد الله القسري قال : لو أمرني أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلى الشام (الأغانى ج ١٩ ص ٦٠) .

المسيب من صهر بن عبد العزيز أن يكلم الوليد في ألا يتعرض لسيخط الله عز وجل
(الطبرى ج ٢ ص ٩٢ فما بعدها نقلاً عن الواقدي) . ولم يكن الأمويون بحاجة
إلى أن يراعوا ، فيما يتعلق بالمدينة ، ما يراعونه فيما يتعلق بمكة من اعتبارات ،
ذلك أن أهل المدينة جاهدوا بنى أمية بالعداء أكثر من مرة وأخرجوهم أخيراً من
المدينة على بكرة أبيهم ؛ وقد حملوا ذلك لأهل المدينة في نفوسهم . و يظهر أن
عبد الملك كان يعين من يعينه من أمراء المدينة ، وفي نفسه شيء من الحق على
أهلها . وقد تميز بروح خاصة من الشر من بين هؤلاء الأمراء هشام بن إسماعيل
الخزومي (تولى إمارة المدينة منذ سنة ٨٢ هـ) .

وكان موقف عبد الملك منذ نشأته من الإسلام مغايراً لموقف سلفه منه ؛
فقد ولد عبد الملك في الإسلام وتربى عليه ، فضلاً عن أن ميلاده كان في مدينة
الرسول ، وفيها كانت التراث النبوي الذي بقي جزءاً من تراث الحكومة
التيوقراطية ينال عناية بالغة ، وفيها أصبح موضوعاً لاهتمام طائفة من العلماء
تفرغت له . وقد اجتهد عبد الملك نفسه في صباه في هذه الدراسات الدينية ، وكان
يُعتبر من العلماء بالقرآن . ويروى أنه تغير لما تولى الخلافة (أنساب الأشراف
ص ١٦٤ و ١٦٧ و ١٩٠)^(١) . ولا شك أنه بعد توليه الخلافة جعل كل شيء
خاضعاً للسياسة ، وقد عرض الكعبة نفسها للهدم . ولكن عبد الملك ، بحكم
السياسة أيضاً ، تخشى أن يجرح العواطف الدينية لرعيته على الفجور الذي كان
عليه يزيد بن معاوية من قلة الأكرام . وقد عرف عبد الملك هذه العواطف

(١) [جاء في كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ و ١٦٧ أن عبد الملك أنكر مهاجرة
الكعبة أيام يزيد ، ثم ابتلى بأن كان ضربها على يديه : وأدخل عليه مرة أخرى ، فأمر بضرب
أعناقهم ، قبل سؤالهم . فقال له رجل من أهل الشام ، كان له صديقاً أيام نفسك :
يا أمير المؤمنين ! لقد أقست الخلافة قلبك ، بعد أن كنت رؤوفاً ! قال : كلا ! الخلافة
لم تقس قلوبى ، ولكنه أفساه احتمال الضغن بعد الضغن — المترجم] .

أحسن بكثير مما عرفها يزيد ، وعرف كذلك كيف يحترمها أكثر منه . فكان رجاء ابن حيوة البكندي ، وهو الرجل الصالح الذي سنسمع عنه فيما يلي ، مقرباً لعبد الملك ومُصاحب جليلٍ عنده^(١) . وقد قُتل عبد الملك أيضاً رجلاً ادعى النبوة في أيامه (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣) . ويذكر أوتنيخيوس (Eutychius, 2, 365) أنه أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الذي كان إلى جانبها ، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للنصارى . على أنه تعوزنا المادة للحكم في أمر علاقة عبد الملك برعاياه النصارى ، ولكننا نعرف أن نصرانية تغلب لم تضرهم ولم تضر شاعرهم الأخطل في نظر عبد الملك على كل حال . أما ما يذكره تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٨٦ لتاريخ الخليفة) من قتل الخنازير في الشام ، فقد نشأ عن العداء للنصارى ، ولكنه لم يأت من قبيل الخليفة .

وحينئذ كان الإسلام متمشياً مع العروبة في الأغراض ، فإنه كان يلائم أغراض الحاكم ، وكان يخدم أغراض الدولة بسهولة . ولم يلبث عبد الملك ، بعد أن فرغ من القضاء على منافسيه ، أن استأنف على الفور جهاد الروم ، بعد أن ركذ هذا الجهاد خمسة عشر عاماً^(٢) . فهزم جوستينيان الثاني في سباسبول سنة ٧٣ هـ التي تبتدى في أواخر سنة ٦٩٢ م . وكان قائد عبد الملك هو أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية ، وكانت له أيضاً قيادة الجيش في آسيا الصغرى وأرمينية . وكان المسلمون يقومون بغزو بلاد الروم في كل عام غزوات صغيرة أو كبيرة ، كما كان الحال في أيام معاوية . وهذه الغزوات ، وإن لم تكن لها نتائج ، فإنها كانت مدرسة مفيدة لعرب الشام والجزيرة ، لأنهم بفضلها لم ينقطع تدريبهم على الحرب .

(١) كتاب أنساب الأشراف ص ١٩٣ . ويروى أن رجاء كان صاحب الخزانة أيام بناء مسجد الصخرة في بيت المقدس (انظر Zeitschrift des Deutschen Palästinavereins ١٨٩٠ ص ٢١) .

(٢) انظر مجلة Göttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣١ فابمدها وكذلك بدأت

الحرب في أفريقية من جديد (نفس المصدر ص ٤٣٤ فابمدها) .

وكان من إصلاحات عبد الملك المرتبطة باستئناف الحرب مع الروم ، والتي كان لها أيضاً شأن في إرضاء الشعور الديني والوطني ، تغييره لنظام العملة . ويحكى البلاذري (ص ٢٤٠ و ص ٤٦٥ فما بعدها) عن سبب ذلك ما يأتي : كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، وكانت الدنانير الذهبية تأتي إلى العرب من قبل الروم ، وكانت الأقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية ، وتجعل الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم ، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتابة في رؤوس الطوامير ، مثل قل هو الله أحد ، وغيرها من ذكر الله . فكتب ملك الروم إلى عبد الملك : إنكم أخذتم في قراطيسكم كتاباً^(١) نكرهه ؛ فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . فكتب ذلك في صدر عبد الملك ، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية ، فأشار عليه بضرب العملة وبتحريم الدنانير الرومية ومنع التعامل بها ومنع تصدير القراطيس من مصر إلى بلاد الروم ؛ فكتب القراطيس حينئذ لا تحمل إلى بلاد الروم . وبدأ عبد الملك بضرب الدنانير في دمشق سنة ٨٧٤ هـ ، وبدأ ضرب الحجاج للدنانير في آخر سنة ٨٧٥ هـ . وكانت الدنانير الرومية والدرام الكسروية وقليل من الدرام الحيرية (وعليها صورة البومة الأثينية) هي الجارية . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٩٣٩) إن عبد الملك لم يبدأ في ضرب الدرام الفضية والدنانير الذهبية إلا في سنة ٨٧٦ هـ ، ولكن إن كان تيوفانيس (سنة ٦١٨٣ من تاريخ الخليفة) على حق فيما يقوله من أن رد جوستينيان الثاني للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب في استئناف الحرب بين المسلمين والروم ، فإن الأولى أن يزداد في سني التاريخ الذي يذكره البلاذري ، لا أن ينقص منها . وكانت العملة الجديدة تضرب وعليها : بسم الله ، وكانت تنقش عليها آيات من القرآن تدل على

(١) [الطوامير هي القراطيس ، والمقصود بالكتاب هنا هو الكتابة — المترجم] .

وحدانية الله وصدق رسالة رسوله^(١) . ولقد كان العرب ، قبل أيام عبد الملك ، يضربون عملة من الفضة والنحاس ، لكن على نماذج رومية وفارسية . ويظهر على كل حال أن معاوية كان من قبل قد حاول أن يفعل ما حققه عبد الملك ؛ ففي كتاب المؤرخ السرياني الذي نشره نولدكه أن معاوية ضرب عملة فضية وذهبية ، لكنها لم تُقبَل ، لأنه لم يكن عليها الصليب . وكذلك لم تكن العملة التي ضربها عبد الملك تُقبَل في أول الأمر ، خصوصاً في المدينة (البلاذري ص ٤٦٦ فما بعدها) بحجة أن وزنها لم يكن يزيد على وزن الدنانير القديمة المسوَّحة^(٢) .

وإلى جانب العمل على التخلص من التأثير الأجنبي من طريق ضرب عملة إسلامية خاصة ، عُمِلت محاولة مماثلة بقصد الوصول إلى الغاية نفسها ، وهي جعل اللغة العربية لغة الديوان ، أعني ديوان المال ؛ ذلك لأن إدارة الدولة كانت في الغالب مقصورة على الناحية المالية ، وكان حساب الدولة حتى ذلك الحين يُعمل بالرومية في دمشق ، وبالفارسية في الكوفة . ويبدو من حكاية البلاذري (ص ٣٠٠ فما بعدها ، وكتاب الفهرست ص ٢٤٢) أن بدء التعريب كان في الكوفة ، وكان زاذان فروخ بن بيري^(٣) ، أو ابنه سردا نشاء ، آخر كاتب فارسي ، وكان مساعده في ذلك صالح بن عبد الرحمن ، فعرض صالح على الحجاج أن يحوّل

(١) وقد ذكره الفقهاء من الحجاج أنه كتب على الدراهم اسمه بعد عبارة : بسم الله [ويؤخذ من البلاذري (ص ٤٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٧) أن الفقهاء كرهوا كتابة القرآن على العملة تعظيماً للقرآن ، حتى لا يمسّه إلا المطهرون — المترجم] .

(٢) فارق أيضاً ابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٧ فما بعدها ، ويتجلى عدم النجاح في تنفيذ وحدة حقيقية في العملة وفي الموازين في الدولة الإسلامية من حديث ينسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكره يحيى بن آدم في كتابه المراج ص ٥٢ — ٥٣ : منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدم من حيث بدأت ، وعدم من حيث بدأت .

(٣) راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣٤ وكتاب أنساب الأشراف ٣٤٣ و ص ٣٥٢ .

الحساب باللغة العربية ، وقد استطاع ذلك ، وإن كانت كتابة الكسور قد شقت عليه — ويظهر أن رموز الأرقام لم تكن تستعمل في الكوفة . أما السبب الذي من أجله عُرِّب الديوان في دمشق فإن البلاذري (ص ١٩٣) يقص فيه قصة عجيبة فيقول : إن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً ، فلم يجد ماء ، فبال في الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر بنقل الديوان من الرومية إلى العربية وكلف سليمان بن سعد بإنجاز هذا العمل ، فأنتم ما عهد به إليه في خلال عام ، وكوفي عليه بأن أعطى خراج بلاد الأردن في عام ، وكان مقداره مائة وثمانين ألف دينار . وبقى النظام الرومي والفارسي في الديوان كما هو بطبيعة الحال ، ولم تتغير إلا لغة الديوان . ولا شك أيضاً في أن الكتاب الروم والفرس الذين كانوا في خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا ، لأنهم كانوا يعرفون العربية ، وكانت صالح بن عبد الرحمن الذي قام بنقل الديوان في الكوفة ، هو نفسه ، فارسياً من سجستان (البلاذري ص ٣٠٠ س ١٤ ، ١٣ وص ٣٩٣ س ١٥) ، وكان لابد للكاتب من معرفة الفارسية والرومية لكي يستطيع النقل إلى العربية . ولم يزل لسرجون الرومي في دمشق على عهد عبد الملك ما كان له من مركز ونفوذ أيام معاوية ويزيد (الطبري ج ٢ ص ٨٣٧ س ١١)^(١) .

ويقول تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٩ من تاريخ الخليفة) — وهو ينسب إلى الوليد الأول ، لا إلى من قبله ، إحلال اللغة العربية محل الرومية في الكتابة في الديوان^(٢) — إن العرب قد اضطروا إلى الاحتفاظ بعلامات الأرقام

(١) [النص الذي يذكره المؤلف لا يدل على ما يقوله ، وكل ما فيه أن سرجون كان يكتب لمعاوية على الديوان ، ولكن البلاذري (ص ١٩٣) يقول إن سرجون كان كاتباً لعبد الملك ، وإن عبد الملك عرض عليه عمل سليمان بن سعد — المترجم] .

(٢) . وقد نقل الوليد الديوان إلى اللغة العربية بعصر سنة ٨٧ هـ ، لكن إحلال اللغة العربية لم يكن على اليونانية بل على القبطية ، كما يقول المقرئ (المخطوط ج ١ ص ٩٨) .

الرومية ، وإن كتبهم كانوا ما يزالون نصارى ؛ والحقيقة أن الكتاب النصارى فى العصر العباسى ، الذى ألف فيه هذا المؤرخ البوزنطى كتابه ، كانوا أقوى نفوذاً وأعظم سلطاناً مما كانوا فى أى وقت مضى ؛ ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه فى ذلك العصر أيضاً . ومهما يكن من شىء فإن العرب كانوا يُعتبرون غير صالحين لتولى شئون الخراج ، ولم يكن ذلك لمجرد قلة المعرفة الفنية عندهم (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨ ، ١٤٧٠)^(١) .

ويبدو للإنسان أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة ، فأصبحت إدارتها فيما يظهر ذات طابع فنى ومتدرج أكثر مما كانت عليه من قبل ، وإن لم تبلغ فى ذلك إلا درجة أقل بكثير مما بلغت إدارة الدولة العباسية . ومن المناصب العليا فى الدولة ما لا ذكر لوجوده قبل عهد عبد الملك ، ولكن لا يتحتم أن يؤخذ من ذلك أن هذه المناصب لم تكن موجودة من قبل . على أنه من المؤكد مثلاً أن لقب الـ *Πρωτοσύμβουλος* (= المستشار الأول) أصبح لا يلائم عبد الملك ، وقد كان لقباً يلقب به عند مؤرخى الروم الخلفاء الأولون من بنى أمية . وقد اختط عبد الملك فى معاملته لعماله خطة صارمة أو شكت معها أن يكون جافياً غليظاً ، حتى مع الحجاج ، على علو فضله ومكانته ، فكان يعامله معاملة تختلف كل الاختلاف عن معاملة معاوية لزياد ؛ وقد أصبح عبد الملك أيضاً لا يسمح لذوى النباهة من الرجال ، الذين كان — بحسب العادة القديمة — يجتذبهم إلى مجلسه ويشاورهم ، بأن يزفوا الكلفة بين أنفسهم وبينه ، كما كان يفعل معاوية من قبل ، مطمئناً إلى أن رجحان عقله كفى بأن يسعفه . ولم يكن لعبد الملك ولا من جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، ذلك اللطف المعروف عن الخلفاء السفليانيين ، وهو

(١) [أخذ على عبيد الله بن زياد أنه استعمل الدهاقين فى جباية الخراج ، فعلم ذلك بأنه وجدتم « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون فى المطالبة من العرب » — المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨] .

اللفظ الذي ربما كان لهم ، كما كان للسيد العربي القديم ، أشبه بفضيلة مكتسبة منه بأن يكون صفة فطرية . وإنما أراد عبد الملك أن يظهر بمظهر السيد الصارم (كتاب أنساب الأشراف ص ١٧٨) ^(١) .

وكان عبد الملك ، إذا كان الأمر أمر خلافة ، لا يأبه لأى اعتبار ؛ فقتل بيده ابن عمه عمرو بن سعيد ، لأنه تطاول للخلافة . وقد عارضه أخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة فى أبنائه ، فلم ينقذه من بطش عبد الملك إلا الموت . على أن عبد الملك أعطى أقاربه من بنى أمية من التمتع بالسيادة نصيباً أوفر مما كان يعطيهم إياه من كان قبله من الخلفاء ، فكادت تكون فى أيديهم فى أول الأمر كل إمارات الأمصار ، فكان عبد العزيز بن مروان أميراً على إفريقية ومصر ، وربما كان ذلك بفضل وصية أمر بها مروان فى كبره ؛ ويروى أن مروان كان يريد أن تكون لعبد العزيز ولاية العهد بعد عبد الملك ^(٢) وكان محمد بن مروان أميراً على الجزيرة وأرمينية ، وكان لهذه الإمارة خطرهما ، نظراً للحرب مع الروم . وتقلد بشر بن مروان ، على صغر سنه ، إمارة الكوفة ، ثم ضمت إليه إمارة البصرة .

(١) [يجد الفارى فى خطبة لعبد الملك خطبها فى الحجاز هذه العبارات مثلا : « أيها الناس ! لست بالخليفة المستضعف ، يعنى عثمان ، ولا بالخليفة المداخن ، يعنى معاوية ، ولا بالخليفة المأفون ، يعنى يزيد . ألا وإن من قبل من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون ، ولانى والله لا أداويكم إلا بالسيف هذا عمرو بن سعيد قال برأسه كذا ، قتلنا بسيفنا كذا إن الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدوداً ، فإزاتم تزدادون فى الذنوب وتزداد فى العقوبة ، حتى اجتماعنا وأنتم عند السيف . . . » — المترجم ، نقلا عن أنساب الأشراف ص ١٧٧ — ١٧٨ .]

(٢) جاء فى كتاب Cont. il. A. § 29 :

Marvan antequam moreretur. . . Aegyptum vel (= et) : ulterioris Aethiopiae partes, Tripoleos Africae et usque ad = Gaditana freta adjacentes provincias Habellaziz filio dereliquit [وقبل أن يموت مروان كان قد ترك لابنه عبد العزيز مصر أو (= و) أجزاء من الحبشة القصوى وطرابلس أفريقية والولايات المجاورة ، حتى مضيق فادس — المترجم] . وقد غضب عبد العزيز من عبد الملك ، لأن عبد الملك طلب منه أن يحمل له خراج مصر ؛ ولم تكن أم عبد العزيز أما مروان (أنساب الأشراف ص ٢٣٩ ، ٢٦١) .

وقبل ذلك كان أموي آخر، هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، يتولى البصرة. وكانت جماعة بني أمية في مجلس الخلافة، منذ أن خرجوا مع مروان من المدينة إلى دمشق، أكبر بكثير من ذي قبل. وكان هناك شأن أيضاً لخالد بن يزيد بن معاوية. وقد حاول عبد الملك أن يخفف عليه وطأة ما كان يحس به من مضاضة بسبب إقصائه بغير حق عن وراثته الخلافة، فقربه إليه وزوجه من ابنته. وقد تزوج عبد الملك نفسه إحدى بنات يزيد، وكان اسمها عاتكة، وكانت زوجه الأثيرة عنده، وكان لها عنده شأن عظيم.

وتذكر في كتاب أنساب الأشراف الذي نشره آلفارت^(١) حكايات كثيرة عن هذا الخليفة الذي بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أحد من خلفاء أسرة بني أمية. وهذه الحكايات تزيد في معرفتنا بشخصه وتعطينا إلى جانب ذلك أيضاً كل ما أحاط به من طرائف: فهي تحدثنا عن الأماكن التي كان يغير بينها مقامه بحسب فصول السنة، عن نسائه وعن أسرته، وعما كان قد اعتاد أن يباشره في كل يوم من أعمال، وعن عنايته بتأديب أولاده، عن فضائله ووجوه ضعفه ومعايبه — كان فاسد الفم — وعن الألقاب التي كان يلقب بها. وهو قد شاب قبل الأوان، وتوفي عن ستين عاماً في دمشق^(٢)، يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٨٦ هـ. (= ٩ أكتوبر سنة ٧٠٥ م).

(١) [راجع الكتاب المذكور ص ١٦١ — ٢٣٨ — المترجم].

(٢) يذكر الواقدي عن أبي معشر (الطبري ج ٢ ص ١١٧٢) — قارن أنساب الأشراف

ص ٢٦٤) أن عبد الملك مات يوم الخميس لل نصف من شوال؛ وبحسب فيستنفيلد Wüstenfeld وافق يوم الخميس الرابع عشر من الشهر، وهذا هو أيضاً التاريخ الذي يذكره إلياس النصيبى. أما عمره فيذكر المدائني (الطبري ج ٢ ص ١١٧٣) وصاحب أنساب الأشراف أن عبد الملك مات وله اثنتان وستون أو ثلاث وستون سنة، أما أبو معشر فيقول إنه مات وله ستون سنة، والواقدي يذكر أنه مات وهو ابن ثمان وخسين (الطبري ج ٢ ص ١١٧٣) وأنساب الأشراف ص ١٦٣، وكذلك أنساب ص ١٥٢ بالقراءة الصحيحة؛ ورقم ال ٦٠ هو الأصل كما في الطبري (ج ٢ ص ٤٦٧ ص ١١).

ويسمى عبدُ الملك أبا الملوك ، لأن أربعة من أبنائه صاروا ملوكاً من بعده ، وكان خلفاء بني أمية بعده كلهم من ذريته ، ولم يخرج عن ذلك إلا اثنان من خلفاء بني أمية المتأخرين . وكان أخوه عبد العزيز ، أمير مصر ، قد عُيِّن خلفاً له ، وبويع أيضاً على ذلك . وقد جهد عبد الملك في أن يحمله على التنازل عن الخلافة لكي يصرفها إلى أعزّ أبنائه عنده ، ولكن جهده لم يثمر . فامتنع عبد العزيز امتناعاً شديداً ، ولم يُفِذْ معه الترهيب ولا الترغيب . ولكن القدر أسعد عبد الملك بأن مات عبد العزيز قبله (الطبرى ج ٢ ص ١١٦٤ فما بعدها ، قارن أيضاً ص ١١٧١) ؛ وعند ذلك جعل عبدُ الملك ولاية العهد في الوليد أكبر أبنائه . ثم ارتقى الوليد عرش الخلافة ، وفي عهده وثبت سيوفُ العرب وثبة جديدة ، فاحتلوا حصن طوانه (Tyana) بعد حصار طويل ، وأعدت حملة كبيرة على القسطنطينية نفسها . وهكذا بدأت من جديد فترة من الفتوحات الكبيرة ، فغاب العربُ على ما وراء النهر وعلى أسبانيا . وفي داخل الدولة سادت السكينة بعد طول انتظار ، وجنى الوليدُ ثمرات عمل أبيه ، وهو قد ترسم آثاره ، فتمسك بالحجاج ، أمير المشرق الذي أثار على نفسه كثيراً من العداوات وكان بمثابة العلامة المميزة للحكومة الخلفاء الذين خدمهم . وقد كان الوليد حريصاً على أن يظهر بمظهر السيد والآمر ، ويقال إنه كان أول من تجبّر من الخلفاء (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤٣) ، وتنسب إليه كلمات من قبيل *oderint modo metuant*^(١) (الطبرى ج ٢ ص ١١٨٧)^(٢) . وقد عمل على تقوية الإسلام من حيث هو دين الدولة ، وربما كان له في قلبه محبة عميقة أيضاً ، فوضع حداً لإيذاء أهل الدين والورع في المدينة على يد أميرها هشام بن اسماعيل الخزومي ، وعيّن مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز ،

(١) [معنى هذه العبارة اللاتينية هو : فليكرهوا ، ما داموا خائفين — المترجم] .

(٢) [ختم الوليد أول خطبة خطبها بعد أن انتهى من دفن أبيه بقوله ، بعد حض الناس على الطاعة والائتماد : أيها الناس ! من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه — المترجم] .

وكان تعيينه موافقاً لهوى الفقهاء (الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ فما بعدها) . وكان الوليد يحتم على الناس جميعاً أن يقرءوا القرآن ويعرفوه ، وكان يجعل ذلك شرطاً فى قضاء حوائجهم وصلة أرحامهم (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١) ، وإن كان هو فى شبابه قد كان يلحن فى اللغة التى نزل بها القرآن لحناً فاحشاً ، مما اهتم له أبوه كثيراً (أنساب الأشراف ص ٢٣٦ فما بعدها وص ٢٦٠) وقد نفذ الوليد ما يقال إن أمه عبد الملك كان قد عزم عليه ثم تركه ، وهو أنه أخذ من النصارى فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، فوسع بها المسجد الملاصق لها وجدده تجديداً رائعاً فى سنة ٨٤ هـ (البلاذرى ص ١٢٥ فما بعدها والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥) وأخذ من كنيسة نصرانية فى بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب ووضعها فى بيت المقدس فوق الصخرة المقدسة (Eutych. 2, 373) . وكذلك أمر بإعادة بناء مسجد المدينة (البلاذرى ص ٦ ، ٧) . على أنه قد أغضب أهل الورك فى المدينة بذلك ، كما أغضبهم بأنه فى سنة ٩١ هـ خطب فيه الخطبة الأولى من الخطبتين ، وهو جالس ، على عادته فى الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٢٣٣) . وكان مولماً بكل أنواع البناء وبتخطيط الضياع وتحسينها ، فانتقلت هذه الروح منه إلى الناس (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢)^(١) . وقد جلب له الحجاج الجاموس من الهند إلى إقليم المستنقعات فى السوس . على أنه عني أيضاً بأهل العاهات ، فأعطى الجذمين وأعطى كل مقيم خادماً وكل ضرير قائداً ، لكيلا يضطروا إلى سؤال الناس (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١) . وكان أهل الشام أكثر من استفادته ، وكانوا يعتبرونه أفضل خلفائهم (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١ ص ٣) . ومن المسيرات

(١) [جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢ — ١٢٧٣ : أن الوليد كان صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع ، وكان إذا التقى الناس فى زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع . فولى سليمان بن عبد الملك ، فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجرارى . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : « ما زدك الليلة ، وكى تحفظ من القرآن ، ومتى تحتم ، وما تصوم من الشهر ؟ » — المترجم] .

نصدق أنه كان في الشام متحيزاً إلى قبيلة قيس ، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك ، ولأن المؤرخين القدماء لا يذكرون شيئاً من ذلك ، ونحن لا ينبغي أن نستنتج من أن أمه ولادة بنت العباس العباسي كانت قيسية (أنساب الأشراف ص ١٧٢ س ١٩ فما بعده ، والجماسة ص ٦٧٢) وأن الحجاج ، وهو قيسي النسب ، كان ساعده الأيمن . ويميل المؤرخون المتأخرون إلى وضع كل الرجال الذين لعبوا دوراً في تاريخ الدولة في جانب أو في آخر ، ويقدم دوزي في ذلك . وقد مات الوليد في يوم السبت منتصف جمادى الآخرة من سنة ٦٩ هـ ، وهو في حوالي الأربعين من العمر (الطبري ج ٢ ص ١٢٦٩ فما بعدها) ، وكان يوم السبت يوافق ١٣ جمادى الآخرة = ٢٣ فبراير سنة ٧١٥ م ^(١) .

٣ — وفي خلافة عبد الملك وابنه الوليد ظل العراق سنين طويلة تحت إمرة الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفي الذي تقدم ذكره كثيراً والذي ظهرت مواهبه في مكة والمدينة أول الأمر . وكان تاريخ العراق في تلك الحقبة هو التاريخ الحقيقي للدولة الإسلامية .

ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية يغلي باطنها كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة . وقد أخذت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم إليهم من الموالي ، بقيادة المختار الثقفي ، ولكنها خلفت في النفوس ناراً متوقدة ^(٢) ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها ^(٣) . ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن

(١) لعل عبارة «منتصف الشهر» كانت لا تدل قديماً على اليوم الخامس عشر من الشهر على التدقيق ، كما يفهم ذلك عادة . ويذكر إلياس النصيب أن الوليد توفي يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٩٦ هـ .

(٢) انظر ما كتبناه عن الشيعة . Schia p. 74ss.

(٣) انظر ما كتبناه عن الخوارج . Chavarig p. 32ss.

يقضى عليهم ، وقد فتوا في عضده وهو يحارب أهل الشام ، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج . فلما هُزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب في ميدان القتال مع الأزارقة ، فأدرك جملة الموقف وتصرف طبقاً لذلك ، فانضم إلى المنتصر ، وعرف له المنتصر قدره . ولكن الأسراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك أسراء على العراق لم يكونوا يصلحون إلا لتولي المنصب بلا عمل . فلم يكن من خالد بن أسيد الذي عُين على البصرة إلا أن نهي المهلب عن القيادة وجعله على خراج الأهواز ، وتولى هو في أول الأمر القيادة في محاربة الخوارج ، وأوائك الثوار المتعصبين الخطرين ، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز ، فجاءت على أثر ذلك هزيمة قبيحة لحقت بجيوش الدولة . فلما كتب خالد إلى عبد الملك يخبره بها ، رد عليه عبد الملك مُسَفِّهاً رأيه في إبعاد المهلب ، وهو البصير بالحرب المقامى لها ، وفي جملة أخاه قائداً مع أنه أعرابي من أهل مكة ؛ وأمره بأن ينتفع بالمهلب ويستشير في كل ما يتعلق بقتال العدو . ثم إن عبد الملك ولي المهلب حرب الأزارقة ، ولكنه ، بعزله خالداً عند ذلك وتعيينه أخاه بشراً بدلاً منه وإسفاده إليه إلى جانب إمارة الكوفة إمارة البصرة ، لم يعسف المهلب ، لأن بشراً ، وكان غلاماً أخرق معجباً بنفسه ، لم يكن أحسن صنعا ممن سبقه من أسراء بني أمية ؛ وقد شق عليه أن إمارة المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة ، فامتلاً قلبه حقداً عليه . وهو قد شد أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآن له من الخليفة ، ولكنه أمر قائدهم أسراً صريحاً بأن يستبد على المهلب بالأسر ، وبألا يقبل له مشورة ولا يحترمه . وكان بشر أخرق فيما صنع ، لأنه استجمل القائد وطلب منه ما لا يصح طلبه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه ؛ ولذلك فإن ذلك القائد لم يكن منه إلا أنه تجاهل كلام الأمير الشاب واستخف

بعقله . وكان من الحظ الحسن أن بشراً توفي عام ٧٤ هـ^(١) ، فوجه عبيد الملك الحجاج واليا على العراق ، وقررت بذلك عين المهلب . وقد تولى الحجاج عمله في أول سنة ٧٥ هـ^(٢) . وهذا هو مجمل حكاية أبي مخنف ، كما نجدتها عند الطبري (ج ٢ ص ٨٢١ فما بعدها ، وص ٨٥٥ فما بعدها) .

وتقدم الحجاج إلى أهل الكوفة بخطبة خطبها لما دخل الكوفة لمباشرة مهام منصبه : وهي ليست دون خطبة زياد بن أبيه ، شريكه في الوطن وسلفه في المنصب — تلك الخطبة التي ألقاها في البصرة . وما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ٨٦٣ فما بعدها) من أخبار ذلك يرجع إلى عمر بن شبة (نقلا عن بني غسان والمدائني) ، ويمكن مقارنته بما في كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٦٦ فما بعدها) وكتاب الكامل (ص ٦٦٥ فما بعدها) . وقد صعد الحجاج المنبر مثلثا ، ولبت لا يتكلم . فقال محمد بن عمير بن عطار : ما له ، ترّحه الله ، لا يتكلم ! ما أعياء وأشناه وأدَمّه ! .. ثم أخذ كفّا من حمى ليحصب الحجاج^(٣) . وأخيرا قام الحجاج ليخطب خطبته التي أولّها :

أنا ابنُ جِلا وطلائعُ الثنايا متى أضحُ العمامة تعرفوني
وهي الخطبة التي تهدد فيها أهل العراق وتوعدهم . وتبين لابن عمير أن الحجاج ليس عيّيا ولا ضعيفا ، فجعل الحصا يتساقط من يده ، كلما استمر الحجاج في كلامه . وكانت أول مهام الوالي الجديد إعادة النظام بين جند الكوفة والبصرة ، وكأنما كان هؤلاء الجند قد رأوا أن موت بشر بمثابة إشارة لترك معسكر المهلب في رامهرمز ، دون إذن لهم بذلك . وهم قد كانوا سئموا البقاء في ميدان القتال بعيداً عن

(١) يقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٥٢ س ٨ و ٨٥٤ س ١) إنه مات سنة ٧٣ هـ ، ولكن هذا مستحيل .

(٢) لا في رمضان كما يذكر عند الطبري (ج ٢ ص ٨٧٢) ، فارق الطبري ج ٢ ص ٩٤٤ س ٩ و ٨٧٦ س ٣ ، وأنساب الأشراف ص ٢٢٠ س ١ .

(٣) فالظاهر إذن أن زيادا ترك بعض الحمى في المسجد [راجع ما تقدم ص ١١٩ — المترجم]

أهلهم وأولادهم زماناً طويلاً ، وكانوا قد اعتادوا الرغد الحقيقي في ديارهم (الطبرى ج ٢ ص ٨٦٥ فما بعدها^(١)) . فأنذر الحجاج على الفور أهل الكوفة من أعلى المنبر : أن من رُئى في المدينة من الجند الهاربين من عصاة الجيوش بعد ثلاثة أيام فالذمة منه تريئة ، وماله نهب ، ودمه مباح . وقد عرف كيف يؤكد هذا التهديد ، فضرب أمثلة قاسية كان لها أثرها . ثم بدأ الحجاج عمله في البصرة بمثل ما بدأه به في الكوفة ، وكان حظه من التوفيق هناك مثل حظه هنا . وزاحم الجند الذين كان عليهم أن يعودوا إلى الجيش على قنطرة دجلة ، لكي يعودوا إلى رامهرمز ، وذهب الحجاج بنفسه معهم إلى أن بلغ رستقباد . وكان عليه في شعبان سنة ٧٥ هـ أن يقضى هناك على ثورة بسبب إنقاص الزيادة التي كان ابن الزبير قد زادها في أعطيات أهل العراق . وتدل رواية صاحب كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٨٠ فما بعدها) ورواية ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) على أن هذه الثورة كانت أخطر بكثير مما يبدو من الرواية المقتضبة الموجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ٨٧٩) ، وبعد القضاء عليها أصبح من الممكن توجيه القتال إلى الأزارقة بوسائل كافية ، وإن كان لم يمكن القضاء عليهم قضاء تاماً إلا بعد مضي أكثر من عامين^(٢) .

وفي الوقت الذي لم يكن قد تم فيه التغلب على الأزارقة في المشرق ، قام خوارج آخرون في أول سنة ٧٦ هـ ، في غرب العراق ، كانوا يتميزون بأنهم ينتمون في الأغلب إلى قبيلة واحدة أبيّة ، هم بنو شيبان من بكر . وكانوا قد تركوا مواطنهم الأولى على الضفة اليمنى للفرات ، في بادية الكوفة والبصرة ، وهاجروا منذ زمان قصير إلى شمال أرض الجزيرة . وكان أشهر زعمائهم وأخطرهم

(١) [يعتمد المؤلف في هذا على ما جاء في خطبة الحجاج في الكوفة من قوله إن أهل العراق أشبه بأهل قرية كانت آمنة معلنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فسكفرت بأنهم

الله ... الخ ، ودلالة هذا على ما يقوله المؤلف ليست مباشرة . — المترجم] .

(٢) راجع ما كتبناه عن الخوارج ص ٣٩ فما بعدها من كتابنا .

شبيب بن يزيد^(١) الذي كان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء ، كأنه في كل مكان ، وكأنه ليس في أي مكان ؛ بل هو في سنة ٧٦ هـ خرج من الجزيرة إلى العراق وهزم جيوشاً كثيرة أرسلها الحجاج لمقاتلته ، وبلغ منه أن طرق أبواب العاصمة . وكانت الأرض التي اختارها لجولاته هي الأرض القديمة للخوارج الأولين ، أعنى أرض جوخي على النهر وان والجبال التي تقع إلى شمالها . وبعد أن لبث فترة طويلة في بلاد أذربيجان الجبلية ، تقاطر إليه في أثنائها خلق كثير ، تقدم في النصف الثاني من سنة ٧٧ هـ ، ومعه جيوش كبيرة ، نحو الجنوب ، يحاول هجوماً حاسماً على الكوفة . وقد أمر الحجاج جيوشاً شتى لكي تجتمع لمناجزته ، ولكنه هزم جيوش الكوفة كلها هزيمة شنعاء جعلتهم يلوذون بالفرار ، ثم ترك الميدان . وكانت موارد الحجاج من الجند قد نضبت ، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب إلى الخليفة أن يرسل له جنداً من الشام ، وجاء هؤلاء في الوقت المناسب تماماً ، وطردها شبيباً ، فقفل راجعاً إلى أرض جوخي أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ارتحل عنها إلى بلاد كرمان النائية ، أعنى إلى حصن الأزارقة المنيع ، ثم خرج من هناك والتقى عند دُجَيل (في الأهواز) بجيش الشام الذي أرسل وراءه ؛ وغرق ، وهو راجع عبر النهر ، وذلك في سنة ٧٧ هـ (ربيع سنة ٦٩٧ م) . وهكذا أنقذ أهل الشام الكوفة ، وسنرى الثمن الغالي الذي كان لا بد أن يُدفع لقاء معوتهم . وإلى أبي مخنف^(٢) ترجع رواية أخبار شبيب الرواية المفصلة التي حكها الطبري (ج ٢ ص ٨٨١ — ١٠٠٢) .

(١) كانت أسرة شبيب تقطن غير بعيد من الموصل ، لكنها كانت قد هاجرت إلى هناك (انظر فيما يتعلق بالكوفة الطبري ج ٢ ص ٩٧٧) من ماء الاصاف ، أو اللصف ، في بادية الكوفة (الخامسة ص ١٥) ، وبقي بعض أقاربه يقطن هناك . وكان شبيب وأبوه يختلفان إليهم (الطبري ج ٢ ص ٩١٥ ، ٩٧٨) . وربما كان تفرق بني شبيب لم يأت اختياراً ، بل بسبب من معاوية .

(٢) راجع Chavarig p. 41ss .

وفي سنة ٧٨ هـ ، بعد أن كان قد تمّ القضاء على خطر الخوارج في شرق العراق وغربه ، ضمّ عبدُ الملك خراسانَ وسجستانَ إلى الحجاج ، وذلك زيادة على ما كان له من إمرة الكوفة والبصرة (الطبرى ج ٢ ص ١٠٣١ فما بعدها ، وأنساب الأشراف ص ٣١٠ فما بعدها) ، فأعطى الحجاج ولاية خراسان للمهلب ابن أبي صفرة الأزدي ، قاهر الأزارقة ، الذي كان قد اكتسب مجداً وشهرة هناك من قبل (البلاذري ص ٤٣٢) . وبقى المهلب هناك حتى وفاته (آخر سنة ٨٨ هـ) ؛ وقد أورث أسرته وقبيلته ما كان له من سلطان .

وروجه الحجاجُ إلى سجستان^(١) عبيدَ الله بن أبي بكرة^(٢) ، وهو بصرى نابه من البيب الثقفي المعروف الذي ينتسب إليه زياد بن أبيه . فقام عبيدُ الله في سنة ٧٩ هـ بحملة وجهها زنبدل^(٣) كابل وزابل ، لأنه منع الخراج ؛ فاستدرجه الزنبدل إلى الإيعان في البلاد ، حتى انتهى إلى شغب ، ثم أخذ عليه الطريق ، فلم يستطع عبيدُ الله أن ينجو وبشق طريقة راجعاً إلا بعد مصالحة الزنبدل ؛ وقد تكبد خسائر جسيمة أصابت جند الكوفة خاصة ، وحزن حزناً قصيراً أجله ؛ فيقال إنه مات كدّاً ، وذلك في سنة ٧٩ هـ (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٢٠) أو في سنة ٨٠ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٦) . وكانت سجستان تحتاج إلى قائد

(١) فيما يتعلق بالتاريخ السابق لسجستان فارن البلاذري ص ٣٩٢ فما بعدها .

(٢) [تجد حكاية حلة ابن أبي بكرة على الزنبدل عند الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٦ فما بعدها وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣١١ فما بعدها — المترجم] .

(٣) النطق الصحيح هو زُنْبَدِل (اسم علم ولفظ في وقت معاً) لا زُنْبَدِل (راجع ما يقوله كاننجهام (Cunningham) في أعمال المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين ، مجلد ١ ص ٢٤٤ ، وراجع Justi, Namenbuch, 395 وكتاب Marquart, Eranshahr, 37) ، فارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٢ و ج ٣ ص ١٩٤ و ج ٣ ، ويوجد زنكبدل البني عند الطبرى ج ١ ص ١٨٥٥ و ج ١٦ ، ويسمى الزنبدل سيد الترك — الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢ فما بعدها و ١١٣٧ و ٢ ، و ١٠٤٢ و ١٢ . وكان أهل البلاد إيرانيين ، لكن الأسر الحاكمة (والحند) كانوا تركاً ؛ فارن ديوان الفرزدق طبعة بوشيه ص ٢٠٦ و ١٠ (٤) .

محنتك يكون والياً عليها ، فاختر الحجاج لذلك كوفياً أياً من قبيلة ملوك كندة القدماء ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، الذي كان في بلاد كرمان^(١) المجاورة لسجستان ، وشدّ أزره بجيش كبير كامل الأعطيات تام الأهبة والعدة ، انتخبه من أهل الكوفة والبصرة ، ولذلك سُمي هذا الجيش « جيش الطواويس » . وكان هذا هو الموقف لما اندلعت على الحجاج في سجستان ثورة جيش العراق ، وهي الثورة التي هزّت دولة الأمويين هزاً شديداً . ويذكر الطبري^(٢) في ذلك رواية أبي مخنف ، وهي رواية حية مُفَصَّلة ، مؤثراً لها على غيرها ؛ أما رواية كتاب الأنساب (ص ٣٠٨ فما بعدها) ، وهي أيضاً مفصلة تفصيلاً وافياً ، فهي ترجع إلى رواية كثيرين . اتبع عبد الرحمن بن محمد — وهو يسمى عادة بابن الأشعث نسبة لجدّه — طريقة مغايرة لطريقة سلفه ، فلم يقيم بغارات متفرقة ، بل بحرب حقيقية منظمة ؛ وأراد أن يحذر مغبة التسرع في التوغل في البلاد ، فكان لا يفتح حصناً ولا يجاوز عُمراناً إلى خلف فيه قائداً ، معه حامية من المسلمين ؛ ونظّم المراسلات بالبريد بين البلاد ، وجعل الأجناد على العقاب والشمام ، ووضع المسالخ بكل مكان مخوف . وبعد أن حاز أرضاً عظيمة وامتلات يدها بالفتاخم ، حبس الناس

(١) يقول أبو عبيدة (أنساب الأشراف ص ٣٢٠ فما بعدها ، والطبري ج ٢ ص ١٠٤٦) إنه كان هناك لإخاد ثورة قام بها هيمان بن عدي السدوسي البكري (قارن كتاب الأنساب ص ٣٤٢) . وفي روايات أخرى (الأنساب ص ٣١٨ س ٢ ، ٣٢٠ س ١٠) ، خلافاً لذلك أنه كان هناك لمحاربة الخوارج . وبحسب كتاب الأنساب (ص ٣٠٩) كان في أول الأمر قد ذهب إلى سجستان من أجل ميراث له ، فجعل يختلف إلى بني يقال لما مهابوش ، فأخذ معهها . ولكن بحسب كتاب الأنساب (ص ٣٣٤ فما بعدها) كانت هذه تسكن كرمان ولم تستهوه هو بل استهوت عربياً نبيلاً غيره ، حتى رهن من أجلها سرج حصانه وطلب من ابن الأشعث أن يفتسكه حتى يستطيع أن يركب معهم ، قارن ديوان الفرزق ، طبعة بوشيه (ص ٢٠٩ س ١٢) .

(٢) [نجد رواية الطبري في الجزء الثاني ص ١٠٤٢ فما بعدها و ١٠٥٢ فما بعدها ، و ١٠٦٣ فما بعدها و ١٠٧٠ فما بعدها و ١٠٨٥ فما بعدها و ١٠٩٨ فما بعدها حتى ص ١١٣٨ — المترجم] .

عن الـوغول في البلاد حتى يتعمّد جنوده على طبيعة الجبال ، بما فيها من شعاب وعقاب ، وكتب إلى الحجاج بذلك . ولكن الحجاج ، وهو الرجل السريع القليل الصبر ، كما هي عادته ، كتب إليه يتهمه بالضعف والجبن ومحبة المهادنة والموادة ، وحثّه في كتب متلاحقة على التقدم في بلاد العدو والتوغّل فيها ، وهدّده ، إن لم يفعل ، بأن يجعل القيادة لأخيه إسحاق بن محمد بن الأشعث ، حتى يصير هو من تحت يده كبعض الجند . فغضب عبد الرحمن وجمع رؤوس الناس وأخبرهم بما تضمنته كتب الحجاج ، وقال لهم : إني لكم ناصحٌ واصلاحكم مُحِبٌّ ولكم في كل ما يحيط بكم نفعٌ ناظرٌ ، ولقد كان من رأيي فيما بيني وبين عدوكم رأيٌ استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه رأياً . . . وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يُعجزني ويضعفني ويأسرني بتمجّيل الـوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس — وختم عبد الرحمن كلامه قائلاً : « وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا أمضيتُم ، وآبى إذا أبيتم » . وكان أهل العراق ينفذون الحجاج ، وكرهت نفوسُهم ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة في بلاد قاصية ، فكانوا يرحّبون بكل فرصة تسنح للعودة إلى أوطانهم . وكان ابن الأشعث يعلم تماماً ما سيقولون في جوابهم . فلما انتهى من كلامه ثار الناس فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ولا نسمح له ولا نطيع . ثم قام أحدهم فقال : إن الحجاج لا يرى فيكم إلا رأى من قال لأخيه : إحمل عبْدَكَ على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك ! إن الحجاج والله لا يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة الغيوب والعقاب والأشب ، فإن ظفرتُم فنتمم أكل البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عندهم ولا يُبقي عليهم ، فاخلموا الحجاج وبايعوا أميركم عبد الرحمن ! إني أشهدكم أني أوّل خالع . وقام آخر فقال : إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجعركم تجمير فرعون الجنود . . .

ولن تعاينوا الأحبة ، فيما أرى ، أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم وانصرفوا إلى الحجاج فانفوه عن بلادكم ووثب الناس إلى ابن الأشعث وبايعوه جميعاً على خلع الحجاج وجهاده ، حتى يخرج من العراق . وكان أشدّهم حماساً يَمَنّ الكوفة الذين كان منهم ابن الأشعث^(١) . على أن إخوة ابن الأشعث لم يكونوا في جانبه (أنساب الأشراف ص ٣٢٦ فما بعدها) .

ولما أظهر عبدُ الرحمن خَلَعَ الحجاج وادَّع الزنبيـل وكتب بينه وبينه كتاباً ؛ وعاهده ألا يرزا منه شيئاً ، فإن ظفر بالحجاج لم يسأل الزنبيـل خراجاً أبداً ما بقي ، وإن انتصر عليه الحجاج لجأ ومن معه إلى الزنبيـل ، فمنهم . وعيّن عبدُ الرحمن خلفاء لنفسه في بُسْت وزَرَنج ، حاضرتي سجستان . ثم تحرك بالجيش في سنة ٨٨١ ، وانضم إليه في طريقه جندٌ من الكوفة والبصرة ، كانوا في حاميات الأمصار ، حتى إذا صار ابن الأشعث بجيشه إلى فارس ، قال الناس بعضهم لبعض : إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك ، فقد خلعنا عبد الملك ؛ واجتمعوا إلى ابن الأشعث ، فكان أول من خلع عبد الملك ، وخلعه الناس ، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلال . ولم يكن ابن الأشعث بحاجة إلى أن يدفعهم لذلك ، بل هم الذين دفعوه ؛ ولم يستطع أن يتحلّل من سلطان أولئك الجن الذين قد ناداهم . وأقبل الجيش ، كما يقول المثلّاب في كتاب يُروى أنه كتبه إلى الحجاج يشير عليه بما يفعل ، « مثل السيل المنحطّ من علي ، ليس يردّه شيء حتى ينتهي إلى قراره » .

(١) يصرح الفرزدق بأن ربيعة ومضر لم يختلفا ، ولكنه يجهل الوزر الأكبر على عمن الكوفة ، على السبئية الذين دفعوا المختار اليهودي من قبل (ص ٢١١ بيت رقم ١٠ من الديوان) والآن يرفعون ابن الأشعث النّـاج (الديوان ص ٢٠٨ س ٢٠٩ و ٢١٠ س ٢١١ و ٢١٢ س ٢١٣) . ويلقب أهل اليمن بالنساجين (المواكين) على سبيل التشفيـم ، كما يلقب أزد عمان بالصيادين والسفانيين .

أما المهلب في خراسان فإنه لم ينضم لابن الأشعث^(١) ، ويرى أنه كتب إلى الحجاج يبلغه تحرك جيش ابن الأشعث إليه كالسيل المنحدر ، وأن لأهل العراق شيرة في أول مخرجهم ، وبهم صباية إلى أبنائهم ونسائهم ، ونصحه أن ينجي لهم الطريق حتى يسقطوا إلى أهليهم ويتنسوا أولادهم ، فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام في منازلهم ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، ونحدث لهم آراء غير آرائهم^(٢) .

ولسكن الحجاج لم يستمع إلى نصيحة المهلب ، وكانت جند الشام وفرسانها تسقط إليه في كل يوم . ثم تقدم بجيشه ، ومعه الإمدادات التي بعثها عبد الملك من الشام ، وسار لقتال الثوار . ووقع أول صدام على ميدان القتال القديم عند نهر دجيل ، في تستر ورستقأباد . فعبر ابن الأشعث النهر ، وانتصر في مساء العاشر من ذي الحجة سنة ٨١ هـ ، الموافق ٢٥ يناير سنة ٧٠١ م . وفر المهزومون إلى البصرة واتبعهم المنتصرون ودخلوا المدينة . أما الحجاج فإنه أمر الجند بالرحيل عن البصرة ومضى لا يلوى على شيء حتى نزل الزاوية ، إحدى ضواحي البصرة وخندق بها ، وانضم إليه هناك بعض الثقيين والقرشيين من أهل البصرة . وقد صمم الحجاج على أن يهلك ولا يتراجع . وابتدأ جنوده من أهل الشام وعلى رأسهم سفيان بن أبرد^(٣) الكلابي شهراً كاملاً يقاومون هجمات أهل العراق الذين كانوا قد عسكروا في الخريبة (أنساب الأشراف ص ٣٥٥) ، وقد هزمهم آخر الأمر هزيمة حاسمة

(١) [كتب ابن الأشعث إلى المهلب يدعو إلى الثورة معه ، فقال المهلب : ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة ، ثم قال : ما أعجب هذا ! يدعوني إلى الفدر من بعض ولدي أكبر منه ، وقال لرسول ابن الأشعث : قل له : اتق الله في دماء المسلمين . ويقال إنه كتب إليه يلومه على الثورة وترك قتال المشركين والإقبال على قتال المسلمين ، وينهاه عن نكث البيعة وتفريق كلمة الجماعة . المترجم نقلاً عن أنساب الأشراف ص ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥] .

(٢) هكذا عند الطبري (ج ٢ ص ١٠٥٩) ، أما بحسب أنساب الأشراف (ص ٣٤٣) فإن النصيحة لم تقدم للحجاج إلا في مناسبة بعد ذلك ، قدمها له زاد القروخ كاتبه الفارسي أو قدمها عباد بن حصين [بلى — يذكر صاحب الأنساب ص ٣٣٦ — ٣٣٨ نصيحة المهلب للحجاج]

(٣) هو قاهر شبيب — قارن الأنساب (ص ٣٣٨ ، ٣٤٢) .

في المحرم سنة ٨٢ هـ (أوائل مارس ٧٠١ م) . وانسحب ابن الأشعث على أثر ذلك مع شطر من جنده من أهل الكوفة^(١) ، وساروا إلى الكوفة التي كانت المركز الحقيقي للثورة وفيها التقت جيوش الحاميات العراقية آتية من جميع نواحي الأمصار . واستخلف ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي في البصرة ، فواصل القتال ، لكن ذلك لم يدم إلا أياماً ، لأن سواد أهل البصرة قبلوا الأمان الذي نادى به الحجاج بعد انصراف ابن الأشعث إلى الكوفة وأفسحوا له الطريق حتى دخل المدينة (أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٥) . وفي أول صفر سنة ٨٢ هـ (منتصف مارس سنة ٧٠١ م) استطاع الحجاج أن يبدأ في التقدم نحو الكوفة . ولما انصرف ابن الأشعث إلى الكوفة واصل عبد الرحمن ابن العباس الحرب مع الحجاج وقاتل بمن معه خمسة أيام أشد قتال رآه الناس ، ثم لحق هو وأصحابه بابن الأشعث في الكوفة دون أن يلقوا السلاح .

وكان مطر بن ناجية التميمي عاملاً للحجاج على المدائن وناحياتها ، فأنى الكوفة ، فلما علم بهزيمة الحجاج وثب بالكوفة واستطاع أن يخرج جند الشام منها ، واستولى على الفصير . فلما صحت عنده هزيمة ابن الأشعث أراد أن يبايع لنفسه خوفاً لابن الأشعث ، فلم يبايعه سوى نفر قليل من قومه ، فعاد إلى أخذ البيعة لعبد الرحمن بن العباس ، وتنت على يد عبد الرحمن بن أبي ليلى . وأقبل ابن الأشعث والخلاف على هذه البيعة قائم ، فسبقت إليه همدان بالناس ، وكانوا أخواله ، واستطاع أن يقبض على ابن ناجية وأن يحبس ، ثم بايعه ابن ناجية على كره منه بطبيعة الحال . وكان وثوب ابن ناجية بالكوفة أحد الأسباب التي من أجلها وجد ابن الأشعث نفسه مضطراً إلى أن يسرع بالرحيل عن البصرة والعودة إلى الكوفة (أنساب الأشراف ص ٣٤٨ ، ٣٥٤) . ولكن ابن الأشعث

(١) في كتاب الأنساب (ص ٣٤٩ س ١) أنهم كانوا ألف رجل فقط ، وعلى هذا فلا بد أن تكون غالبية الكوفيين في جيشه قد انسحبوا إلى مدينتهم من قبل ، وكل القرائن ترجع ذلك .

استطاع أن ينتهي من القضاء على مُنافسه قبل أن يأتي إليه الحجاج . وأخذ الحجاج طريقه عبر الصحراء إلى الشاطئ الأيمن من نهر الفرات ، وعسكر في دير قرّة ، عند الكوفة ، حيث كان الطريق مفتوحاً أمام مواصلاته مع الشام . أما فيما يتعلق بالإمدادات فلم يكن أمامه بطبيعة الحال سوى طريق الفلألينج وعين التمر . وخرج أهل العراق الناثرون إلى خارج المدينة ، على العادة العربية ، واحتلوا معسكراً حصيناً عند دير الجاجم^(١) ، أمام جنود الشام ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٨٢ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٠١ م) . ويروي أنهم كانوا مائة ألف ومعهم مثلهم من مواليهم ، وخذق كل جيش في عسكره ، والناس يخرجون كل يوم فيقتلون ، وظلّوا كذلك شهوراً كثيرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة . ثم اشتدّ القتال ، وقلق عبد الملك ، فأشار عليه رؤوس قريش وأهل الشام بأن ينزع الحجاج عن أهل العراق ، إن كان ذلك يرضيهم . فأرسل عبد الملك أخاه محمد ابن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك على رأس جيشين^(٢) من أهل الشام ، وأمرهما أن يمرضا على أهل العراق نزاع الحجاج . وأن تجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً ؛ فإن قبلوا ذلك عزل الحجاج عنهم ، وإن أبوا فللحجاج القيادة العليا في محاربة الثوار . ولم يكن أمرٌ أشدَّ غيظاً للحجاج ولا أوجع لقلبه من هذا الذي عُرض على أهل العراق . فكتب لعبد الملك يُذَبِّهه إلى غدر أهل العراق وسابق أعمالهم مع عثمان ، ولكن عبد الملك أصرّ على عرض الصلح على أهل العراق . وقد أراد ابن الأشعث أن ينصحهم ويقنعهم بالقبول ، لكنهم

(١) هل هو دير الجاجة ؟ ؟

(٢) وبذلك مرّى عبد الملك الحدود أمام الروم فاغتم هؤلاء الفرصة (راجع مجل

Göttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ م ص ٤٣٣ .

ناروا وخلصوا عبد الملك من جديد ، وكانوا يأملون أن ينهزم أهل الشام وشيكا
بعد ما لحقهم من ضيق وضنك ومجاعة .

والكنهم أخطأوا التقدير . ذلك أن أهل الشام ثبتوا ثبات المستميتين ؛ أما أهل
العراق فقد تركوا القتال بعد أن كان قد استمر مائة يوم ، وفي جمادى الآخرة
سنة ٨٢ هـ (آخر يولييه سنة ٧٠١ م) أخلوا الميدان دون سبب كاف ، ولم يثبتوا
على حماسهم ثبات أهل الشام على نظامهم . وفي آخر يوم من أيام القتال قاتل أهل
العراق أحسن قتال ، إذ خرج سفيان بن الأبرد السكبي ، وكان عليه هنا أيضاً
أن يقوم بالعمل الحاسم مرة أخرى ، من قبل ميمنة جيش الحجاج حتى دنا من
الأبرد بن قرّة التميمي ، وهو على ميسرة جيش ابن الأشعث ، فما قاتله كبير قتال
حتى انهزم ، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة ، فظن الناس أنه قد كان أعطى
له الأمان وقد صولح على أن ينهزم بالناس . وأثار ذلك ريبة الخليفة وأحدث ذعراً
شاملاً بين الجند ، فتقوّضت الصفوف من نحوه ، وركب الناس وجوههم وأخذوا
في كل وجه هارين . ولم يستطع ابن الأشعث أن يوقف فرارهم ، وفرّ هو أيضاً .
وزاد الحجاج في فرارهم وتبديدهم بأن لجأ إلى الوسيلة التي لجأ إليها ونجح بها
في البصرة ، وذلك أنه أمر منادياً بأن ينادى معلناً الأمان لكل من يعود إلى
داره أو مسكره ، وأنه منع جند الشام من مطاردتهم . وهكذا وصل إلى الغاية
دون إراقة كثير من الدماء ، واستطاع أن يدخل الكوفة منتصراً ، وهناك تلقى
بيعة من ألقى السلاح واضطرم في ذلك إلى أن يشهدوا على أنفسهم أنهم بشورتهم
قد كفروا ، ولم بأنف من إنقاذ حياته بمثل هذا الإذلال إلا قليل منهم^(١) .

(١) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٠٩٧ — ١٠٩٨) أن رجلاً من خثعم ، كان معتزلاً
للفتنة ، جاء إلى الحجاج ليباع مع الناس ؛ فطلب منه الحجاج أن يشهد على نفسه بالكفر ؛ فقال :
بئس الرجل أنا ، إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال له الحجاج :
إذن أقتلك ، فقال : وإن قتلتني ، فوالله لاني ما بقي من عمري إلا ظمء حمار ، ولاني لأنتظر
الموت صباح . فأمّر الحجاج بضرب عنقه ، فرأى له الناس جيماً من عراقي وشامي . =

ولكن الكثيرين من أهل العراق الذين تشتتوا في الكوفة تجمعوا في مواضع أخرى . رجع ابن الأشعث أول الأمر إلى البصرة ، وكان عبد الله ابن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي قد استردها له ، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً ، بل رجع إلى مسكن على نهر الدجيل^(١) ، وهناك انحاز إليه جنود كثيرون وقلول جاءت من كل ناحية . فقاوم الحجاج لما لحقه ، وكان ذلك في شعبان سنة ٨٢ هـ (سبتمبر — أكتوبر سنة ٧٠١ م) وكان القتال مستميتاً ودأب مدة طويلة وانحسم آخر الأمر ، كما يقول الطبري (ج ٢ ص ١١٢٣ فما بعدها) بأن قامت فرقة شامية يقودها شيخ خبير بالبلاد وطرقها ، فاخترقت المستنقعات ، وحصرت أهل العراق بين نهري دُجَيْل ودجلة ، وهاجمتهم ليلاً ، ففروا يريدون عبور الماء ، وكان من غرق منهم أكثر ممن قُتل بحدّ السيف .

وهناك واصل ابن الأشعث تفهقه نحو المشرق ، وانبهه أهل الشام بقيادة عمارة بن تميم اللخمي ، وأدركوه واضطروه للقتال مرتين عند السوس وسابور ، ولكنه أفلح في صدمهم ، وسار من طريق كرمان حيث أقام زماناً طويلاً ، حتى وصل إلى سجستان (آخر سنة ٨٢ أو أول ٨٣ هـ) ، فأغلق عامله وواليه على زرنج الأبواب دونه ، بل وثب هذا الوالي عليه فأوثقه وأراد أن يسلمه للحجاج ليأمن بذلك عنده ويتخذ به عند الحجاج مكاناً . وعند ذلك جاء الزنبيل ، فخاصه من الأسر وتعهّد له بأن يمنحه حق الانتجاع عنده إذا احتاج إلى ذلك ، وأخذه

== وقد امتنع شيخ آخر من أن يشهد على نفسه بالكفر أشد امتناع وأشجعه . وجاء رجل بعده ، فقال الحجاج : إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال الرجل ، يريد النجاة من القتل ، للحجاج : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد ، فضحك الحجاج وخلي سبيله — المترجم]

(١) ليست مسكن هنا هي مسكن المنزلة الواقعة بين الموصل وتكريت ، كما يظن فإيل ومولار ، بل هي مسكن أخرى في ايزقباد (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٩ و ١٠٢٣ وياقوت ج ٢ ص ٥٢٩ و ٥٣١) .

معه إلى كابل هو ومن كان معه من الفلول الكثيرة وأكرمه وعظمه تعظيماً كبيراً . ولكن كثيراً من فلول جيش العراق لحقت فيما بين ذلك بزعيمها الهارب ، وتجمعت تحت قيادة عبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس الذي تقدم ذكره وعبد الرحمن بن عباس الهاشمي الذي كان في سجستان ، وطلبوا من ابن الأشعث أن يرجع إليهم ، فرجع أيضاً واستولى على مدينة زرنج ، وهناك عاقب عامله الخائن . وأخيراً لما أقبلت جنود الشام تحت قيادة عمارة بن نعيم ، عبرت جنود ابن الأشعث حدود خراسان على غير رضا ، وكانوا يأملون أن يكونوا هناك بنبوة من القتال . ثم انشق عليه فريق من جيشه وسلك طريقاً آخر غير طريقه ، فاتخذ ابن الأشعث من ذلك سبباً للرجوع إلى الزنبيل وتركهم لمصيرهم . فأمروا على أنفسهم ابن العباس الهاشمي واستولوا على مدينة هراة وقتلوا هناك عاملها من قبل يزيد بن المهلب الذي كان قد حل محل أبيه آخر سنة ٨٢ هـ . فاضطر يزيد على كره شديد منه أن يخرج لقتالهم ، فشتتهم بعد قتال قصير . وفي أثناء هذا القتال وقع في يده كثير من الرجال ذوي المكانة ، فأطلق من كان بينهم من اليمنيين ، شركائه في النسب ، وأرسل الباقين إلى الحجاج . وكان الحجاج يقيم في مدينة واسط ، وهي إذ ذاك في مرحلة التشييد (سنة ٨٣ هـ) ، فحاكمهم الحجاج محاكمة أراق فيها دماءهم — وهذا هو ما يحكيه أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١١٠١ — ١١٠٦) . أما رواية المدائني فهي تختلف عن رواية أبي مخنف بعض الاختلاف (الطبري ج ٢ ص ١١٠٦ — ١١١٠) . ولكن عمارة بن نعيم ، قائد جند الشام ، استطاع أن يستولى على سجستان بعد أن كان قد حاصر طائفة من جيش ابن الأشعث انشقت عليه تريد مواصلة القتال ، وذلك بعد أن آمنهم عمارة فخرجوا إليه ؛ ولكن ابن الأشعث نفسه كان ما يزال مصدر خطر على الدولة . وقد حاول الحجاج أن يغري الزنبيل بالترهيب حيناً والترغيب حيناً آخر ، لكي يسلم له ابن الأشعث بعد أن لجأ إليه ، واستطاع أخيراً أن يحصل من الزنبيل على

ما أراد ، وذلك بأن عرض عليه أن يعفيه من الخراج سبع سنين أو عشرًا ،
ولكنه لم يحصل على عدوه حياً ، بل حصل على رأسه مقطوعاً . و يروى أن
ابن الأشعث كان قد مات مريضاً بالسل ، أو أنه انتحر قبل ذلك وأن الزنبيـل
إنما احتز رأسه بعد أن كان قد مات وأريد دفنه . وكان ذلك في سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ
(الطبرى ج ٢ ص ١١٣٨ فما بعدها) .

وتحدد تواريخ هذه الحوادث ليس يقينياً إلى درجة السكـال . ولا شك أنه
قد بقيت بعض الأيام والشهور عالقةً بذاكرة الرواة ، مثل يوم عرفة بالنسبة لموقعة
تُسْتَر ، وهو في آخر السنة التي بدأت فيها الثورة ، ومثل شهر المحرم بالنسبة
للمعارك التي كانت عند البصرة في السنة التالية ، ومثل شهر ربيع وجمادى بالنسبة
لمعركة الكوفة ، وشهر شعبان بالنسبة لموقعة مَسْكِن^(١) . أما فيما يتعلق بالسنين
فالروايات مضطربة ؛ وقد اتبعت فيما يتصل بتاريخ السنين التاريخ الذي يجعل
الثورة قد بدأت سنة ٨١ هـ ، وتكون بحسبه معارك البصرة والكوفة ومسكن
قد وقعت في سنة ٨٢ هـ ، ومعركة سجستان وخراسان في سنة ٨٣ هـ وبحسب ترتيب
آخر للتواريخ تكون السنون متأخرة سنة ، بحيث تكون سنة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤
على الولا^(٢) ، ثم يأتي موت ابن الأشعث في سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ ، على أن فتح
جند الشام لسجستان مباشرة . ولـسكن مزية هذا الترتيب الجديد ظاهرية فحسب ،
لأنه من الممكن أن تكون قد مضت فترة طويلة بين فتح سجستان وبين موت
ابن الأشعث . وبما له وزنه ، خلافاً لذلك ، أن الروايات متفقة على أن ابن

(١) ولا ينمض دليلاً قوياً على خلاف ذلك ما يقوله الواقدي من أن موقعة دير الجماجم
كانت في شعبان سنة ٨٢ هـ وأن الثورة قد بدأت في السنة نفسها (الطبرى ج ٢ ص ١٠٧٠ ،
١٠٥٢) . أما إن موقعة تـسـتـر كانت يوم عرفة فهو ثابت .

(٢) ويظهر أن أبا مخنف يخطئ بين " سنة ٨٢ " و " سنة ٨٣ " .
في سنة ٨١ هـ ، على حين يجعل معركة الزاوية (في البصرة) كما عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠١١)
في سنة ٨٣ هـ ، لا قبل ذلك ، وهذا أيضاً هو تاريخ معارك الكوفة .

الأشعث جاء إلى سجستان في سنة ٨٠ هـ ، وشرع في محاربة الزنبيلى على الفور ، وأن الحجاج قد أغضبه فى هذه الحملة نفسها ، مما دعاه إلى الثورة . وعلى هذا فليس من الممكن أن تكون الثورة لم تبدأ إلا بعد سنة ٨٠ هـ بعامين . وبما يدخل فى الاعتبار أيضاً أنه لما جاء بأسرى هراة الذين بعث بهم يزيد بن المهلب إلى واسط ، لم تكن واسط قد بُنيت ، وهذا ما يوجد صراحة فى الروايات (الطبرى ج ٢ ص ١١١٩ فما بعدها) ولكن الحجاج انتقل إليها فى سنة ٨٣ هـ ، وهو أقام بها فى سنة ٨٤ هـ على كل حال . وعلى هذا فمن الممكن أن تكون مارك سجستان وخراسان قد وقعت سنة ٨٣ هـ ، لا فى سنة ٨٤ هـ . ولا يستطيع الإنسان للأسف أن يصل من كثرة ذكر أسماء الأيام التى وقعت فيها الحوادث إلى رأى حاسم ، لأن الأيام المذكورة لا تتفق مع مكانها فى الشهور ، لا فيما يتعلق بسنة ٨١ هـ ولا بسنة ٨٢ و ٨٣ هـ ^(١) .

وقد ألقى ألفريد فون كريم (Alfred von Kremer) على ثورة ابن الأشعث بوراً جديداً ، أعشى به بصر آخرين مثل ا . موللر ، وج . فان فلون (صاحب كتاب بحوث فى السيادة العربية ^(٢)) ، ذلك أنه يجعل ثورة ابن

(١) وبحسب كتاب أنساب الأشراف (ص ٣٤٠ من ١٠) كانت موقعة نسر يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ٨١ هـ ، وكان نزول الحجاج معسكر الزاوية فى يوم الخميس ٢٣ ذى الحجة سنة ٨١ هـ (ص ٣٤٢ من ١٠) . وأسماء الأيام المذكورة لا تتفق مع أيام الشهر لا فى سنة ٨١ ولا فى سنة ٨٢ ، بل فى سنة ٨٠ هـ ، وهذه السنة ليست مذكورة فى أى من الروايات . ولا يستطيع الإنسان أن يتمسك بها ، ويقول أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٩٤) إن قتال المائة يوم بدأ يوم الخميس ٢ ربيع الأول سنة ٨٣ هـ وانتهى يوم الأربعاء ١٤ جادى الثانية سنة ٨٣ هـ . وهنا أيضاً لا تتفق أسماء الأيام مع مكانها من أيام الشهر لا فى سنة ٨٣ ولا فى ٨٢ هـ ، وربما كانت أقرب إلى الاتفاق مع أيام سنة ٨١ هـ ، حيث لا يزيد الفرق على يوم واحد . ويظهر أن مثل هذا الفرق شئ ممكن وأنه ينشأ من الاضطراب فى ذكر أول الشهر أو أول اليوم (فى المساء أو فى الصباح) . وعلى هذا فالظاهر أن الأصح هو سنة ٨٠ و ٨١ هـ لا ٨٢ و ٨٣ هـ ، ولا سنة ٨١ و ٨٢ هـ . وتبوفانيس (فى حوادث سنة ٦١٩٢) لا يقول ما ينافى ذلك .

(٢) Recherches sur la domination Arabe ، امستردام ، ١٨٩٤ .

الأشعث راجعة إلى طموح من جانب الموالي ، أعنى الرعايا الذين دخلوا الإسلام في الكوفة والبصرة ، للحصول على المساواة السياسية بطبقة الأشراف الحاكمين ، أعنى العرب ، وللتخلص من دفع الجزية ، وإلى طموحهم إلى أن تُقَيَّد أسماؤهم في ديوان أصحاب الأعطيات — وكانت هذه الأعطيات رمزاً يدل على شرف العرب . وأراد الحجاج أن يتلافى التناقض في دخل الدولة ، وهو تناقض لا بد أن ينشأ من توسيع نطاق الإعفاء من الضرائب وفرض الأعطيات للمسلمين من غير العرب — أو هو أراد أن يتلافى هذا النقص الذي كان قد حصل بالفعل ... فأصر بفرض الجزية من جديد على الموالي الكثيرين الذين دخلوا في الإسلام ، والذين ما كان يجوز بحسب الشرع أن يدفعوا جزية ، وبذلك أضرموا نار النورية — يقول فون كريمر^(١) : « أسر الحجاج بأن يدفع من دخل في الإسلام ، أعنى كل الطبقة الكبيرة من المسلمين الجدد ، ضريبة الرأس ، كما كانوا يدفعونها قبل إسلامهم ؛ وهذا إجراء كان من أثره نورة سريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم^(٢) . وقد اشتبك فيها بنوع خاص كثير من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالي والقراء ، وفي رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقيد في ديوان الأعطيات ، أو إذا أردنا أن نعبر تعبيراً حديثاً ، هم كانوا من فرق المقاتلة في الأمصار ، وقد انضم إليهم مثاهم . وقد قهر الحجاج هؤلاء الثوار وأعادهم إلى رشحهم^(٣) ، وصمّم على أن يشتت كل طائفة الموالي نشيتاً لا يجتمع بعده شمل ، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد لتكوين معارضة موحدة ، فأصر باستدعائهم . أمامه وقال لهم : إنكم عَجَمٌ وعلوج أشقياء ، والأجدر بكم أن تبقوا في قراكم ؛ وبعد ذلك أسر بأن يُفَرَّقوا في القرى ، وشتت جمعهم نشيتاً تاماً . ولكي

(١) في كتابه Culturgeschichte des Orients (١٨٧٥) ج ١ ص ١٧٢ وكتابه

Culturgeschichtliche Streifzüge (١٨٧٣) ص ٢٤ .

(٢) لأعرف ما يقصده فون كريمر من عبارة : ومواليهم (Clients) التي يضيفها لكلامه

(٣) وفون كريمر في كلامه أكثر تعسفاً من الحجاج في أفعاله .

لا يستطيع أحد أن يرحل عن القرية التي أسره بالمقام فيها ، فإنه أمر بأن يُطَبَّع على يد كل واحد اسم القرية التي يجب عليه ألا يترحمها ، ويعتمد فون كرى على رواية للجاحظ في كتابه « الموالى والعرب » مذكورة في كتاب المقد الفريد ، لابن عبد ربه (ط . بولاق ج ٢ ص ٩٣^(١)) .

ولا شك في أن ثورة المختار لم تقض قضاء تاماً على طموح هؤلاء المسلمين الجدد إلى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التي نشأت من دخول الموالى في الإسلام طلباً للمساواة السياسية وفراراً من الجزية . ولا شك أيضاً في أن ثورة ابن الأشعث كان مهادها الحقيقي في الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار^(٢) . لكن القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت في روحها مجرد استمرار لثورة المختار لا يجد سنداً يؤيده في المصادر الأولى الأساسية التي اعتمد عليها الطبري ، ولا في كتاب أنساب الأشراف ؛ ولم يكن الموالى هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص . صحيح أن كثيرين منهم اشتركوا فيها ، ويذكر

(١) « وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ولقي ما لقي من أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخادمه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ويتماقدوا . فأقبل على الموالى وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراكم أولى بكم ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها » . وعلى هذا فقد كان ما اتخذته الحجاج من إلزام الموالى البقاء في قراهم أحد الإجراءات التي اتخذها لكسر القوة التي أصبحت ، بعد التجارب السابقة ، خطراً عليه في مدينة البصرة ، بعد أن قد اتسعت اتساعاً عظيماً . وكان من هذه التجارب ثورة ابن الأشعث ، وكانت قبلها بسنين ثورة ابن الجارود (كتاب الأنساب ص ٢٨٠ فا بعدها وابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٩ فا بعدها) ؛ ولا نجد أكثر من ذلك . أما (الطبري ج ٢ ص ١١٢٢ و ص ١٤٣٥) فيروي أن الموالى الذين كان الحجاج قد أخرجهم ، انضموا هم والقراء الذين كانوا يملفون عليهم إلى ابن الأشعث ، ولكن لا ذكر عند الطبري للقول بأن الثورة جاءت من الموالى .

(٢) ولذلك استطاع الفرزدق أن يقول ، على سبيل الدم : إنه كما أن الكوفيين كانوا من قبل سبئية يعني أتباعاً للمختار ، فهم اليوم أتباع للنائر الجديد ابن الأشعث .

أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٢) أنه كان في معسكر دير الجماجم مائة ألف من أصحاب الأعطيات من المقاتلة العرب ، وكان معهم مثلهم من مواليتهم . ولكن هؤلاء الموالى كانوا مجرد مرافقين للسادة العرب ، وكانت العادة أن يأخذ هؤلاء مواليتهم معهم ، إن كان لهم موالٍ ، إلى ميدان القتال ويجعلون يقاتلون معهم راجلين ؛ أما هم فكانوا يقاتلون على ظهور الخيل : ومثل هذه العلاقة كانت بين الفرسان وخُدَّامهم في العصور الوسطى . على أنه إذا كان الموالى قد اشتركوا في الثورة فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالى . ومن الجائز أيضاً أنه قد كانت للموالى مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام التي كانت عماد العروبة ، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيدين ، ولم تأت الثورة منهم ، بل من جانب جيش « الطواويس » ، وهو الجيش الذي كان يؤلفه أهل العراق والذي انضمت إليه مسالح سائر الولايات والثغور . وقد قام هذا الجيش بالثورة لما صار في سجستان^(١) ،

(١) [الحق أن ثورة ابن الأشعث وليدة اموامل كان لها تأثير في الأحداث التاريخية الكبرى عند العرب ، وهي قد تولدت عن طبيعة الرجال الذين قاموا بها . فكان هناك من جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع نسبه إلى ملوك كندة . وكأنه كان يشعر أن دم المجد القديم يجري في عروقه ، فيروى أنه كان أشد العرب أبهة وكبراً وأنه كان معجباً ذا نحوه وطموح شديد ، وأنه كان يقول : ما رأيت أميراً فوقى إلا ظننت أنى أحق بإمرته منه . ونظراً لهذه الروح المعروفة عنه ، فإنه لما أراد الحجاج أن يولي قيادة جيش الطواويس جاء إليه إسماعيل بن الأشعث ، عم عبد الرحمن ، يشير عليه بالألا يوجهه في الجيش خوفاً من تمرده ، وقال عم عبد الرحمن عنه : إنه ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً . وكان هناك من جهة أخرى الحجاج بن يوسف ، من ثقيف الطائف ، رجلاً ليس من عالية أشراف العرب ، ولكنه كان والياً من ولالة الدولة ، يعمل لمجدها ويخضع لرئيسها ويصدر فيها يقول أو يفعل عن « نبيضة نزار الدولة » ، يفهم حاجات الدولة من ثبات السلطان وإقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة في الداخل ونحو الخارج ، وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق ، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هائلة ، يدلون بنى بلادهم وخصبها ، ويضربون في أنفسهم شيئاً من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوي العيش الضئيل وشبثاً كثيراً من الغيرة منهم والملق بسيادتهم والاستهانة بقدرهم ، ويطمحون للرئاسة =

ثم فتحت له الكوفة والبصرة الأبواب . وقد اشترك في نورة ابن الأشعث
أكابر العرب وأكثرهم نباهة ، فكان منهم رؤساء قبائل ، مثل ابن الأشعث

== أو الاستقلال ويتملقون بكل ثائر على سلطان أهل الشام أيًا كان ، سواء كان من أهل
البيت أو من غيرهم .

وكان الحجاج يحكم شخصيته ومنصبه ببغض عبد الرحمن بن الأشعث ويقول : « ما بالعراق
رجل أبغض إلى منه ، وما رأيته ماشياً أو راكباً إلا أحيت قتله . وكانت في عبد الرحمن
خيلاء ، فكان الحجاج يفتاط منه ويقول له : « إنك لمنظراني » ، يعني أنه مختال بخور ،
فيغيطه عبد الرحمن قائلاً : « ومخبراني » ، يعني أن خيلاءه بقدر ماله في الحقيقة من مواهب .
وبلغ ابن الأشعث ما يمكنه له الحجاج من البغض والمقد والرياسة في القضاء عليه ، فأقسم ليجاوز
إزالة سلطان الحجاج ، إن طال بهما العمر . هذا هو الموقف ، فإذا يمكن أن يخرج منه عند
وجود أزمة بين سيد عربي وبين أمير للدولة على ولاية من الولايات ، أو بين أمير وبين الدولة
التي يمثلها ؟ ثم جاءت الحرب مع الزنيدل ، فأعد الحجاج جيشاً من صفوة أهل العراق وأمر عليه
ابن الأشعث ، رغم نصيحة الناصحين له ألا يفعل ، وقال لناصره : « إنه لي أهيب وفي أرغب
من أن يخالف أمرى أو يخرج عن طاعنى » . وطن الحجاج ، وهو رجل الدولة ، أن القائد
العربي مطيع له ، وإن اشتد معه ، خاضع لأمره وإن أهانه وصغر من أمره ، ونسى رجل
الدولة ، ما في الطبيعة العربية من إباء وأتفة من احتمال الضيم ، فكان ما كان من نورة ابن
الأشعث التي ترجع إلى الإباء العربي وإلى بغض أهل العراق للحجاج ولأهل الشام معه . وإلى
صبر أهل العراق من التضحية بأنفسهم وعيشهم الرغد والموت في بلاد العدو القاصية من أجل
عبد الحجاج وخليفته بالشام . وإذا عرفنا أن الحجاج كان من قبل قد بعث عبيد الله بن أبي بكر
الثقفي ، فأهلكه في محاربة الزنيدل ، ولحقه من ذلك غم شديد ، فإن المؤرخ أن يتعمق في
معرفة الباعث الذي حمل الحجاج على توجيه ابن الأشعث وعلى استخائنه على التوغل في أرض
العدو الكثيرة الشام والمقاب استخائناً شديداً ومهيناً ، مع علمه بالمصير المحزن الذي لقيه
جيش ابن أبي بكر في تلك البلاد من قبل ، ثم على إلحاحه على ابن الأشعث لكي يتقدم مخالفاً
ما تقضى به الخطة العسكرية الحكيمة . فلا بد أن يكون البغض الذي كان يملأ نفس الحجاج
وابن الأشعث كل على صاحبه وبعلاً نفوس أهل العراق على الحجاج وعلى السادة من عرب الشام قد
أصبحت أكبر دور في نفس الحجاج ، حتى خالف نصيحة اسماعيل ابن الأشعث ونصيحة المهلب ، وفي
نفوس المنردين على أوامر الحجاج أولاً ثم في الخروج على سيادة الدولة نفسها بعد ذلك ، اتهاماً
لها بالظلم ولأصحاب الأمر فيها بالضللال . ولعبت العصبية القبلية في ذلك دورها ، فتغنى الشمر
بعبد ابن الأشعث وبقر زوال مجد بني أمية . وقد حاول المهلب أن يثنى ابن الأشعث عن تمرده
منهياً إياه إلى أنه بثورته ينكت عهد البيعة ويفرق كلمة الأمة ويستعمل قوته هو ومن معه في قتال
المسلمين ودولتهم بدلاً من استعمالها في قتال المشركين ودولتهم . ولكن ذلك لم يجد نفعاً ،
وغلب الكبرياء على الإيمان والأتفة على واجب الخضوع للدولة . وكثيراً ما حصل مثل هذا
في تاريخ العرب — وفيما يتعاق بالنصوص ليراجع القارىء كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١٠٤٢) فما
بعدها (وكتاب أنساب الأشراف (ص ٣٠٨ فما بعدها) — المترجم] .

السكندی ، وجري بن سعيد بن قيس من همدان (كتاب الأنساب ص ٣٤٠)
وعبد المؤمن بن شيبان بن زبي من تميم الطبري ج ٢ ص ١٠٥٤) وبسطام
ابن مصقلة بن هبيرة الشيباني من بكر (الطبري ج ٢ ص ١٠٨٨ و ١٠٩٩) ؛
وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبي وقاص (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٩)
وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس ، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمي ؛
وكان منهم علماء مثل القاضي الشعبي والمؤرخ محمد بن السائب الكلبي صاحب
أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٦) ؛ ولا يُذكر إلا اسمُ مولى واحد ، هو
اسم فيروز حصّين ، وهو رجل صاحب ثراء من سجستان ولعله هو ابن سُبُخت
الذي يذكره الفرزدق (الديوان ص ٢٠٦ ؟) وقد أنفَت الطبقة الأرسطراطية
العربية من قبول المعاملة الجارحة والغلطية التي أبدأها الحجاج ممثل سلطان الدولة
الذي لم يكن يعتبر من أشرف العرب — يقول أعشى همدان الشاعر^(١) (الأغاني
ج ٥ ص ١٥٣) .

يأبى الإله وعزّة ابن محمد وجدود ملك قبل آل نمود
أن تأنسوا بمذمتين ، عرفتُهم في الناس إن أنسوا ، عروق عبيد^(٢)
كم من أب لك كان يعقد تاجه بجبين أبلج مقول صديد
وإذا سألت المجد ابن محله فالجد بين محمد وسعيد
بين الأشج وبين قيس باذخ بنح بنح لوالده والمولود^(٣)

(١) [خرج أعشى همدان مع ابن الأشعث وجعل يقول الشعر في مدح ابن الأشعث
وفي تحريض أهل الكوفة على القتال . وكان للأعشى مع ابن الأشعث مواقف حمودة وبلاء
حسن ، وكان الأعشى من أنحوال ابن الأشعث — المترجم] .

(٢) من التقفين ، كالحجاج .

(٣) يظهر أن المقصود بالأشج هو الأشعث ، فارت (كتاب الأنساب ص ٣٣٥) ،
وقيس هو أبو سعيد الهمداني المشهور الذي انضم ولده جرير إلى ولد ولد الأشعث [الأشج
هو في الحقيقة أحد آباء ابن الأشعث] .

وإذا دعا اعظيمة حشدت له همدان تحت لوائه المعقود
ما إن ترى قيسا يقارب فيسكم في المسكرات ولا ترى كسعيد
في هذه الأبيات يعبر الأعشى عن روح الطبقات الأرستقراطية . وقد تبعث
القبائل العربية رؤساءها ، وكانت القبائل هي فرق الجيش ، وكانوا أشد رغبة
في اتباع رؤسائهم ، بعد أن أصبح طول الحرب والإقامة في المسالخ القاصية شيئاً
بغيضاً إليهم بالجملة ، وصار لا ينقطع حنينهم إلى أوطانهم . وكان يمن الكوفة
وخاصة من كندة وهدان ومذحج كثيرى العدد بين الجند ، وكانوا في الكوفة
هم الغالبية ، وكانوا يعدّون ابن الأشعث منهم . ولكن بقية القبائل وقبائل البصرة
لم يكن بينهم تنافر . وكان أشد الناس حماساً وأقوام صوتاً في الاشتراك في الثورة
هم القراء ، أعنى أهل الدين من العلماء بالقرآن ، وكانوا في كل مناسبة كهذه
يظهرون في المقدمة باليد واللسان^(١) ، وذلك أنه لم يكن هناك بدّ ، ما دامت
الحكومة تيوقراطية ، من بيان السند الدينى الذى من أجله تُتهم السلطة الحاكمة
بالظلم ، وعلى أساسه تحلّ الثورة عليها . ولكن ثورة ابن الأشعث لم يكن لها
بالجملة أسباب دينية ، بل هي كانت بالأحرى محاولة جديدة قوية ومستتية من
جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم . ولما جاء الحجاج زاد
في ضجرهم من هذا النير ، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم
لمحاربة شبيب في بلاد العراق ، ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان
الخارجي بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها في الداخل ؛ فكان هؤلاء الجند
يمثلون السيادة الأجنبية مجسّمة^(٢) . وكان على جند العراق أن يقنعوا بأعطيات
قليلة ويحتملوا في الوقت نفسه مؤونة جند الشام ، وكانوا يُوجّهون في حملات بعيدة

(١) والرواة موامون بإبراز فضائلهم حتى إن أبا مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٨٦) فا
بعدها) ليذكر حكاية جبلة بن زحر القارى كما لو كانت أهم حادث إني موقعة دير الجاجم ،
قارن ما كتبناه عن الحوارج (في ص ٩ وما بعدها) .

(٢) وكذلك أحدث دخول جند الشام في إفريقية وإسبانيا أيضاً فيما بعد تدمراً .

ویرسلون إلى المساح القاصية ، على حين كان يبقى جند الشام في أهلهم . وإذن فلا يمكن تجاهل طبيعة ذلك الصراع ؛ فهو لم يكن صراعاً بين الموالى والعرب ، بل كان صراعاً بين عرب العراق وعرب الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٠٨٩) ، فكان صراعاً بين ولايتين في الدولة العربية كانتا تتنافسان دائماً . وكان أهل العراق ، أياً كان أصلهم ، متحدين في ذلك الصراع ، وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون ، وهم خارج وطنهم ، بما بينهم من أواصر الاتحاد . على أنهم كانوا في الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاة ؛ أما قول شاعر العراق في وصفه موقف أهلها ، بعد رحيلهم مع ابن الأشعث ، وهو :

تركنا دورنا لظلام علك وأنباط القرى والأشعرينا

(الطبرى ج ٢ ص ١١٠٢) .

ففيه وصف إجمالي لأهل الشام ، بذكر البعض بدلاً من ذكر الكل ؛ ويظهر أنه هجاء لهم بأنهم غير متحضرين ، وهم يوصفون (عند الطبرى ج ٢ ص ١٣٩٣) بأنهم الأنباط والأقباط ، يعنى الأعراب الأجلاف غير المتحضرين^(١) .

وقد أدى ذلك إلى زيادة في شدة الحكومة العسكرية الشامية في العراق . وفي سنة ٨٣ هـ بنى الحجاج مدينة واسط ، وجعلها حصناً في منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة ، وجعلها مقراً للحكومة ، ونقل جمهور جند الشام إليها أيضاً . ويقال إنه فعل ذلك لكي يتلافى ارتكابهم للفساد في الأحياء التي يقيم فيها الناس في الكوفة والبصرة . ولكن يظهر أن السبب الأكبر هو أنه أراد أن يعزل جند الشام عن أهل العراق^(٢) ويجعلهم حوله ليكونوا أداة طيعة

(١) [يذكر المؤلف هنا كلمتي Kaffern und Botokunden ، وعما في الغالب تسميتان

لقبائل متوحشة في أواسط أفريقية — المترجم]

(٢) ولهذا السبب نفسه أبقى جند الشام بعيدين عن خراسان لكي لا ينفث فيهم أهل

العراق سمومهم ، فأرسلهم إلى الهند حيث لا يوجد عراقيون (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧ ، ١٢٧٥) .

(١٦ — الدولة العربية) .

تحت يده ، وتُوقل مقر إقامته هو من وسط الجماعة إلى مركز قيادة حربي ، فأبان بذلك عما يشعر به من أنه في بلاد معادية ؛ وأخرج الحكومة عن الأساس الديني الأبوي الذي نشأت عليه ، وأقامها على القوة في صورتها الصريحة . ولم يكن هناك سبيل غير ذلك ، إذا كان لا بد من المحافظة على سيادة بني أمية على العراق .

وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث أصبح شرق الدولة كله تحت قدي الحجاج ، ولم تكن هناك مقاومة إلا من بجانب المهالبة في خراسان ، فإنهم كانوا ما يزاون رافعي الرأس ، وكانوا يعتمدون على قوة قبيلتهم ، أزد عمان ، الذين جاء بهم المهالبة إلى خراسان ، وكانوا سبباً في أن تكونت هناك كما تكونت في البصرة من قبل مجموعة من قبائل الأزد وريمة (اليمن) في جانب ، ومجموعة أخرى من نعيم وقيس (مضر) في جانب آخر . وكان على رأس المهالبة ومجموعة قبائل اليمن يزيد بن المهلب ، أمير خراسان ، وكان تابعاً للحجاج . لكن يظهر أن الحجاج لم يكن في مقدوره أن يعزله ، مهما كان من ابن المهلب ما يدعو الحجاج إلى ذلك . ولم يتحرك ابن المهلب للقضاء على أصحاب ابن الأشعث في هراة إلا كارهاً ، ثم أخذ من وقع في يده من أسرى هؤلاء الثوار بالهواة ، خصوصاً اليمنيين منهم . وقد تلسكاً طويلاً في تنفيذ الأمر الذي صدر إليه بطرد ثوار قيس الذين كانوا قد ثبتوا أقدامهم في ترمذ (قرب بلخ) تحت إمرة موسى بن عبد الله ابن خازم ، وذلك اتباعاً لوصية أوصاها المهلب لابنيه بالآ يتعرضوا لابن خازم ، اعتقاداً منه أن أبناءه سيظلون ولاية ثغر خراسان ما بقي ابن خازم ، فإذا قُتل كان أول طالع عليهم أميراً على خراسان رجلاً من قيس^(١) . وقد أراد الحجاج أن يخرج ابن المهلب من خراسان ، فكان يبعث إليه يستزيره فيعتل ابن المهلب بحرب المدو ونحوه من أعمال مانعة ، ولم يستطع الحجاج أن يعزله آخر الأمر

(١) [راجع منا وفيما تقدم وما يلي الطبري (ج ٢ ص ١١٥١ — ١١٥٢ ، ١١٣٨ —

إلا بعد إلحاح شديد على الخليفة في سنة ٨٥ هـ ، فحسبه الحجاج ونحى إخوته شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت عبد الملك في سنة ٨٦ هـ .

على أن مسلك عبد الملك من الحجاج كان أحياناً مسلك السيد الأمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج من قبل قد عمل جاهداً في أن يجعل له ولاية العهد ، ترك الحجاج يتمتع بكامل سلطته ، بل كان ينصاع له ويستجيب إلى رغباته حتى في دائرة اختصاصه كخليفة . فمن أمثلة ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان والياً على المدينة ، فلجأ إليها بعض أهل العراق فراراً من عسف الحجاج ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد ينبئه إلى ظلم الحجاج لأهل العراق واعتدائه عليهم بغير حق . فلما بلغ الحجاج ذلك كتب إلى الوليد بأن يرأى أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ، وأن ذلك وهن في سلطان الدولة .

فطلب الوليد من الحجاج أن يرشح له رجلين ليوليها مكة والمدينة ، فأشار الحجاج بخالد بن جرير بن عبد الله القسري ، وعثمان بن حيان المرّي ؛ فعزل الوليد عمر بن عبد العزيز وولى خالداً مكة وعثمان المدينة ، وذلك في سنة ٩٣ أو ٩٤ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٤) . فجدّ كل منهما في استئصال شأفة أهل الريبة والفتنة جداً كبيراً^(١) .

وفي عهد الوليد جنى الحجاج ثمرات عمله الشاق الذي قام به في أيام عبد الملك ، فعمّت في العراق السكينة ، واغتتم هو ذلك في العمل على مداواة الجروح التي ألحقها برفاهية البلاد حرباً استمرت عشرين عاماً . وكان الحجاج لا يقل عن الوليد في العناية باستصلاح الأراضي ، فوجه اهتمامه إلى تهذيب الأنهار التي تتوقف عليها

(١) كانت مهمة عثمان بن حيان هي القضاء على من لجأ إلى المدينة من أهل الفتنة في العراق ، فحبس بعضهم وعاقبهم وأرسلهم إلى الحجاج في السلاسل ، وأخرج كل من كان بالمدينة من أهل العراق حتى التجار منهم ، وطارد أهل الأهواء ، وهدد من يؤوي رجلاً من أهل العراق يهدم بيته ، وله خطبة لها دلالة كبيرة على روح أهل العراق وخصالهم وإثارتهم للفتنة — راجع (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٨ — ١٢٦١) — المترجم .

خصوصية الأرض التي تغمرها المياه في الحوض الأدنى لدجلة والفرات^(١) ، وفي وسط أرض السبع الكبرى التي كانت أرض مستنقعات وقصب أنشأ الحجاج مدينة واسط . وقد حاول أن يوقف ما أدى إليه نقص سكان الريف من تدفق أهلها نحو المدن الكبيرة . وروى أيضاً أنه منع أهل السواد في العراق من ذبح البقر لكي تكثر الحراثة والزراعة^(٢) . ولم يتم بحروب إلا مع الأعداء في الخارج ، وقد انتصر انتصارات باهرة ، ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي الذي خلف المهالبة على خراسان بلاد ما وراء النهر في عهد الحجاج ، كما فتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند ؛ ورجع الفضل إلى الحجاج في اختيار هذين الرجلين للمنصب اللائق بهما ، وقد منحهما أيضاً تأييداً فعالاً بفضل اسمه الذي كان يبعث الخوف في أقصى

(١) عن ملوك الفرس أشد عناية بتصفية مياه المناطق ذات المستنقعات وبإنشاء ممتلكات لهم فيها ، وكان أحدهم إذا استصلاح قطعة من الأرض سماها باسمه . وفي عهد قباذ حدث ثقب كبير في السد عند كسكر ، ففقر كثيراً من الأرض وبقي مهملًا حتى أصلح أتوشروان الفساد بعض الإصلاح . وفي سنة ٦ أو ٧ من الهجرة حدثت من جديد ثقوب أكبر ولم تشر كل جهود كسرى برونز التي بذلها للإصلاح . وفي أثناء الاضطراب الذي نشأ أيام الفتح العربي ازدادت رقعة منطقة المستنقعات عما كانت عليه من قبل ، ولم يستطع الدهاقنة (وكانوا ملاكاً للأرض وولاء) بجهودهم الحاس أن يكافؤ ذلك ، ولم تتغير الأحوال إلا في عهد معاوية وخصوصاً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام . فشق الحجاج نهري النيل والنزاري ، وجاب الجماموس الهندي إلى إنليم المستنقعات ، ومنها أدخله في جليقية . وإذا كان لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعل فذلك يرجع إلى أن الوسائل التي كانت في مكنه كانت محدودة . وقد طلب ثلاثة آلاف ألف لإعادة بناء السدود ، فاستكثر الوليد ذلك ، ولكنه طالب من أخيه مسلمة أن يقوم بالمشروع على نفقته الخاصة ، وحصل مسلمة من ذلك على ربع عظيم ، وكان الخبير الذي أشرف على التخطيط ، في عهد الحجاج وهشام هو حسان النبطي . وفي رواية غير جديرة بأن نصدقها أن الحجاج نعمد ألا يصالح الفساد الذي أحدثه فيضان عظيم في عهده ، وذلك عقاباً للدهاقنة ، لأنه اتهمهم بالميل إلى ابن الأشعث — قارن الطبري ج ١ ص ٩٦ : فابعدا والبلاذري ص ٢٩٢ فابعدا والسعودي ج ١ ص ٢٢٥ فابعدا وابن خرداذبه ص ٢٤٠ فابعدا وياقوت ج ٣ ص ١٧٤ فابعدا .

(٢) البلاذري ص ٢٩٠ و ٣٧٥ ، ابن خرداذبه ص ١٥ و ص ٢٤١ والأغانى ج ١٥ ص ٩٨ وياقوت ج ٣ ص ١٧٨ .

المشرق^(١). وكان الحجاج نفسه لا يذهب إلى الميدان ، ولكنه كان يعنى أخلص عناية بإعداد الجيش وتجهيزه بكل ما يحتاج إليه حتى أصغر الأشياء (البلاذرى ص ٣٤٦)^(٢) ، وكان لا يَتَضَنُّ في ذلك بمال . وكان خمس الغنيمة يعوَّض عليه أكثر مما أنفق ؛ فأنفق مثلاً في الحملة الكبرى التي وجهها إلى الهند ستين ألف ألف درهم ، وعادت عليه بعشرين ومائة ألف (البلاذرى ص ٤٤٠)^(٣) . وقد كانت مدة إمارته عشرين عاماً ، ومات ، كما كان يتمنى ، قبل موت الوليد ، وذلك لتسع بقين من رمضان أو في شوال سنة ٩٥ هـ = يونيو أو يوليو سنة ٧١٤ م ، عن ثلاثة وخمسين أو أربعة وخمسين عاماً (الطبرى ج ٢ ص ١٢١٧ و ١٢٦٨) . وقد عين الوليد مكانه الأمير الذي اقترحه هو نفسه ، كما أقر جميع عماله في مناصبهم ؛ وكان لأسرة الحجاج في الكوفة شأنها فيما بعد^(٤) .

كان زياد بن أبيه والحجاج أعظم ناشرين لخلفاء بني أمية في العراق ، وكان العباسيون يحسدون بني أمية بحق على هذين الرجلين^(٥) ، وكان كلاهما لا يشعر بأنه في منصبه صاحب قُنية يستغفها المنفعة الخاصة ، بل كان يشعر بأنه ممثل سلطان الدولة . وقد مكثهما سادتهما من سلطان كبير وتركوهما في منصبهما إلى آخر

(١) قارن البلاذرى ص ٤٠٠ ، فابعدهما وس ٤٣٥ ، وما ذكر رايسكه (Reiske) تعليقا على أبي الفداء ج ١ ص ٤٢٧ . وفيما يتعلق بالسرك الهندي الذي لا يعرف رايسكه أمره ، قارن الطبرى ج ٣ ص ٣٥٩ و ٣٧٠ .

(٢) [يقول البلاذرى إن الحجاج جهز محمد بن القاسم بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والمسال ، بل أرسل الحجاج ٥٠٠ هم الحبل المجفف على طريقة طريفة لكي يستعملوه في طعامهم وفيما يحتاجون إليه — المترجم] .

(٣) [أنفق الحجاج في حملة الهندستين ألف ألف درهم ، وحمل إليه منها عشرون ومائة ألف ألف ، فقال الحجاج : شفينا غبظنا ، وأدركنا تأرنا ، وازددنا سبب ألف ألف درهم — المترجم] .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ١٦٩٩ س ٥ و ١٧١١ س ٧ — ١٠ و ١٧١٢ س ٧ .

(٥) [كان النصور يقول : الخفاء ثلاثة معاوية ، وكفاه زياد ؛ وعبد الملك ، وكفاه الحجاج ؛ وأنا ، ولا كافي لي . — المترجم نقلا عن أنساب الأشراف ص ١٧٢] .

حياتهما ؛ وهما في مقابل الثقة التي نالها أدبا واجبات منصبهما بإخلاص ودون ميالة برضا الرأي العام أو بسخطه . وإن المؤرخ يشعر بميل إلى المقارنة بينهما : فأما زياد فإنه كان قد وصل إلى مكانة رفيعة قبل أن يجعله معاوية حليفاً له وقبل أن يضمّه إلى جانبه ، وأما الحجاج فيستطيع الإنسان أن يعتبره من صنع يدى عبد الملك . وكان زياد يعرف كيف يكبح جماح القبائل بعضهم ببعض ويسخرهم في العمل له ، وقد وُفق في ذلك وجنى ثمرته ؛ وكان عمر بن عبد العزيز يُعجبُ به ، لأنه قبض على زمام أهل العراق من غير أن يكلف أهل الشام قط مؤونة مساعدته في ذلك (السكامل ص ٤٩٥)^(١) . أما الحجاج فلم يكن يستطيع أن يحافظ على سلطانه إلا من طريق الاستعانة بالسيادة الأجنبية ، أعنى مستنداً إلى جند الشام . على أن ذلك كان يرجع إلى تغير الظروف ، لأن التوتر بين الشام والعراق كان فيما بين عصر زياد وعصر الحجاج قد اشتد كثيراً . ولم يقصر الحجاج في أعماله عن سلفه زياد ؛ بل هو قد أثر في توجيه السياسة بعد موته . وكان السؤال هو : مع الحجاج أو عليه ؟ وكانت إصلاحاته الإدارية ، فيما يتعلق بنظام العملة والمساكن والضرائب وفي تنمية الزراعة مبدأ عهد جديد^(٢) . وكان يلقى عناء في المحافظة على المستوى العالى لدخل الدولة في العراق التي كدّرتها الحروب المستمرة وأنضبت مواردها . ولكن خزائنه لم تكن تخلو من مال ، وكان كثير الإنفاق (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٢ وأنساب الأشراف ص ٢١٧)^(٣) . وكان فصيحاً تنقاد له الألفاظ ، حتى كان مغروراً ببعض الغرور بحمال أسلوبه ، وكان يكره

(١) [قال عمر بن عبد العزيز في علاقة زياد بأهل العراق : قاتل الله زبائداً ، جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شأهم — المترجم نقلاً عن كتاب الكامل] .

(٢) انظر كتاب المراجع ايجي بن آدم في مواضع كثيرة خصوصاً ص ٩٩ فابداً .

(٣) [بلغت عبد الملك كثرة نفقات الحجاج وأنه مثلاً يتفق في اليوم ما يتفق الخليفة في الجمعة ... الخ . فرد عليه الحجاج أنه قد جاء إلى بلاد ذات فتنة تتضرع بغيران الموادث ، فهو يستعمل الحزم جامداً ويهمل إذا لزم العطاء ، وأنه ناصح لأمر المؤمنين لا يضيع شيئاً — المترجم] .

أن يقال إن أحداً يفوقه في ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢)^(١) ؛ فلا غرو إذن أن نجد رواة خطبته التي ابتدا بها ولايته على الكوفة يوشونها بعبارات مُتَكَلِّفَةً . وكان جنانه لا يتزعزع في أى موقف من المواقف ، وإنما كانت عظمته تتجلى عند الشدائد^(٢) . ولكن الحجاج كان فيه تمجُّلٌ كبير ، ولم يكن صبوراً على من يكافئه تنفيذ أوامره ، ولم يكن يضع يده الحديدية في قفاز من القطيفة ، ولا كانت له الآداب التي تُنال بها محبة الناس ، بل كان غليظاً وشديداً أحياناً ؛ ولكنه لم يكن قاسياً^(٣) ، ولا كان صغير القلب ولا محدود الأفق . فقد عفا عن الشعبي الذي نار مع ابن الأشعث ثم وقع أسيراً في يده ، وقد أطلقه كرمًا منه ، لأنه لم يحاول أن يعتذر بالكذب ، بل قال الحق ، معترفًا بأنه نار وحارب عن قصد (الطبرى ج ٢ ص ١١١٢ — ١١١٣) . وقد عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدين والدولة ؛ وكان عند الحجاج من الشجاعة ما يجعله يصرح بإعجابه به . وهو لما ضرب الكعبة بالمنجنيق ، وجاء رعد وبرق أشعر الناس بغضب الله على هذه الفعلة الشنيعة ، لم يتردد في أن يفسر ذلك بأنه تحية من السماء تبشر بالنصر^(٤) ؛

(١) [استدعى الحجاج رجلاً ذكر أمامه بالفصاحة ، كان يكتب الكتب ليزيد بن المهلب ، فسأله فيما سأله عن نفسه : هل يلحن ؟ فقال : تلحن لحناً خفياً ، يزيد حرفاً وتقص حرفاً ، وتعمل أن في موضع إن وإن في موضع أن . فقال له الحجاج : قد أجلك ثلاثاً ، فإن أجلك بعد ثلاث بأرض العراق فتلك — المترجم نقلاً عن الطبرى في نفس الموضع] .

(٢) [مرث بالحجاج عن كثيرة ، ولعل أكبر محنة لقيها من محنته أيام ثورة ابن الأشعث وتزعزع سلطانه وتزعزع ثقة عبد الملك به ، فليراجع القارى تفاصيل ذلك عند الطبرى — المترجم] .

(٣) [لو راجع القارى مثلاً ما فعله الحجاج بالأسرى الذين بمث بهم إليه يزيد بن المهلب ، وما فعله بمن استسلم بعد فتنة ابن الأشعث (الطبرى ج ٢ ص ١١١٨ و ١١٢٣ و ١٠٩٧ ، ١٠٩٨) فربما رأى رأياً غير رأى المؤام — المترجم] .

(٤) [لما رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق جاءت ساعة ، فرعدت السماء وبرقت وعلا صوت الصاعقة على صوت المجارة ، فأعظم جند أهل الشام ذلك وأمكروا ، ولكن الحجاج لم يأبه بذلك واشترك بنفسه في الرمي . وفي اليوم الثانى جاءت ساعة تتبعها أخرى فقتلت بعض =

فكان الحجاج أقل وقوعاً في حبائل الخرافات والمأثورات من معاصريه . ولكنه مع ذلك لم يكن كافراً بالله ، ومن المؤكد أنه لم يكن منافقاً . وكان في حياته وأعماله يراقب ضميره ، ولكن جراته وقلة تحرجه في القضاء على عش الفتنة الذي كان بمكة ، وكذلك عدم قبوله أن يتخذ أهل الفتنة في الكوفة والبصرة من الدين سنداً يبررون به ما يثيرونه من فتنة ، كان بطبيعة الحال كافياً ، عند الرأي العام بالحجاز والعراق ، في إثبات قلة إيمان الحجاج . وقد اتهم الحجاج بفظائع أخرى ، وهي في الواقع مخترعة ، وقد ولدها بغض أعدائه له ، هذا بغض الذي لم يهدأ حتى بعد موته . فيروى مثلاً في رواية لم يُذكر صاحبها أنه قتل في البصرة بعد موقعة الزاوية أحد عشر ألف رجل ، بل مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً (الطبري ج ٢ ص ١١٢٣) . ويظهر أن كلا من فون كريم وفلون يصدق مثل هذا الهراء ؛ وهما ، إشاراً منهما لنظريتهما ، يتلمسان في الموالى الدليل على تعطش الحجاج للدم . ولكن الروايات القديمة الصحيحة تقول خلاف ذلك تماماً ، فالحجاج أمر في البصرة والكوفة بعد انتصاره على الفور بالنداء بالأمان الشامل لمن ألقى السلاح ، وكان حريصاً كل الحرص على منع جنود الشام من ارتكاب المفاسد في المدن التي يفتحونها . أما الذين أصروا على محاربته ولم يقبلوا الأمان ثم وقعوا في يده بعد ذلك ، فإنه قتل بعضهم ، كالذي فعله في واسط من قتل بعض القرشيين وغيرهم من الثوار الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب . ولكنه حتى في ذلك كان يحترم الحقوق المدنية الشخصية ، ولم يجرؤ مثلاً على مصادرة أموال أحد الموالى

== جنود الشام ؛ فانتكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام ! لا تنكروا هذا ، فإن ابن تهممة ، هذه صواعق تهممة ، هذا الفتحة قد حضر ، فابشروا ! إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم . فصعقت من الغد ، وأصيب بعض أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلاف ذلك ! — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ — ٨٤٥ وأنساب الأشراف ص ٤٧ .

الأغنياء (فيروز حصين^(١)) ، مع أنه لم يوص في شأنها إلا في اللحظة الأخيرة^(٢) .

٤ — وجاء بعد الوليد الأول أخوه سليمان ، وكان عبد الملك قد أخذ له البيعة ولياً للعهد بعد الوليد — في جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ = آخر فبراير سنة ٧١٥ م . وقد سار على أثر سلفه من حيث ما كان ينويه من توجيه ضربة كبيرة للفسطاطينية بعدة وأهمية عظيمة ، وإن كانت هذه الضربة لم تكن موفقة^(٣) . لكن سليمان كان يخالف أخاه في أمور أخرى ، فلم يكن راضياً عن ذلك النفوذ الكبير الذي جعله للحجاج ، ولا بد أنه في هذه النقطة قد عارض أخاه ، وهو ما يزال ولياً للعهد ؛ ففي سنة ٨٩٠ فرّ يزيد بن المهلب من السجن الذي كان قد حبسه فيه الحجاج^(٤) ، وذهب إلى الرملة في فلسطين ، حيث كان يقيم سليمان بن عبد الملك ، فجعله سليمان في جواره واحتل بعض المال الكثير الذي كان مطلوباً منه ، وتدخل لدى الخليفة من أجله بالحاج شديد ، حتى أمر الخليفة الحجاج بأن يكف عن يزيد بن المهلب ؛ وقد ألباه سليمان تسعة شهور عنده ، فوقع تحت تأثيره وقوعاً تاماً وزادت نفسه امتلاءً على الحجاج . ولم يكن الحجاج غافلاً عما كان يريد به سليمان ، فأيد الوليد فيما أراده من خلع أخيه سليمان وجعل ولاية العهد في ابنه عبد العزيز ، فزاد بذلك في كره سليمان له^(٥) ؛ فكان لدى الحجاج من الأسباب ما يدعوه إلى أن يتوقع

(٢) [راجع ما كان بين الحجاج وبين فيروز حصين وتمذيب الحجاج له عند الطبرى (ج ٢ ص ١١١٩ — ١١٢٢) — المترجم] .

(٢) وقد بقيت لنا قصائد لجرير والفرزدق في مدح الحجاج .

(٣) راجع مجلة Göttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣٩ والصفحات التالية .

(٤) [راجع قصة هرب يزيد بن المهلب وإخوته ، عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٠٨ —

١٢١٧ — المترجم] .

(٥) كان هذا بحسب ما يفترض عادة هو السبب في بغض سليمان للحجاج ، ولكن يظهر أنه كان بالأحرى نتيجة له ، ذلك أن أمر نية الوليد جعل ولاية العهد في ابنه لا يذكر إلا في أواخر حكمه (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٤ و ١٢٨٣ فما بعدها) ، بل إن التوتر بين سليمان والحجاج كان قبل ذلك ، منذ سنة ٨٩٠ . وهو البرر لهرب يزيد بن المهلب إلى الرملة .

أكبر الشر من تولى سليمان للخلافة ، وكان دعاؤه المستمر هو أن يجعل الله مَنِيَّتَهُ قبل مَنِيَّةِ الوليد (الطبري ج ٢ ص ١٢٧٢)^(١) . وقد استجاب الله دعاءه ، فلم يستطع الوليد أن ينال من الحجاج نفسه ، فصبَّ غضبه على آل الحجاج وأصدقائه وعماله . فعزل عثمان بن حيان المرمي عن ولاية المدينة ، وخالد بن عبد الله القسري عن ولاية مكة (الطبري ج ٢ ص ١٢٨١ — ١٢٨٢ و ص ١٣٠٥) ، وأمر بقتل آل الحجاج وبسط العذاب عليهم . أما قتيبة بن مسلم^(٢) ، الأمير القوي في خراسان ، فقد أراد أن يسبق القدر الذي كان يهدده ؛ واعتمد على ماضيه وما كان فيه من فتح ونصر ، فحاول أن يضم إليه جنده في ثورة على الخليفة الجديد ، لكنه لم يفلح . وذلك أن تيمياً ، وكان قد أساء إليهم ، انقلبوا عليه ، فهزموه ؛ لأن رعية العرب تخاذلوا عن نصرته ؛ وأما محمد بن القاسم الثقفي ، فاتح بلاد السند

(١) [لما مرض الوليد رهقته غشية ، فظن الناس أنه مات ، وخرجت البرد بذلك . فلما قدم البريد على الحجاج استرجع ثم أمر بجبل فشد في يده ، ثم أوثق إلى اسطوانة ، وقال : اللهم لا تسلط عليّ من لا رحمة له ، فقد طال ما سألتك أن تجعل مني قبل منيته ، ثم جعل الحجاج يدعو . فإنه لكذلك إذ ورد عليه يريد يافقة الوليد . ولما أفاق الوليد قال عمر بن عبد العزيز : « ما أعظم نعمة الله علينا بما فئتك ، وكأني بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك خر لله ساجداً ، وأعتق كل مملوك له ، وبعت بقوارير من أنبج الهند » . فلما لبث إلا أياماً حتى جاء كتاب الحجاج بذلك . ولكن من عبر أحوال النفوس البشرية وعواقب الفناء في خدمة الملوك أن الحجاج لم يمض حتى كان قد ثقل على نفس الوليد ؛ فيجئ أن الوليد كان يتوضأ يوماً للغداء ، فجعل خادمه يصب على يديه الماء ، وهو ساهي ، والماء يسيل ، والحادم لا يستطيع أن يتكلم ، فنضح الوليد الماء في وجه الحادم ، وقال له : « أنا عس أنت ؟ » . وسأله : « ما تدري ما جاء الليلة ؟ » قال الحادم : « لا » ، فقال الوليد : « ويحك ! مات الحجاج » . فلما استرجع الحادم قال له الوليد : أسكت ! ما يسر مولاك أن في يده تفاحة يشمها — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٢٧٢] .

(٢) [كان قتيبة بن مسلم ، شأنه شأن الحجاج ، قد أيد الوليد فيما كان يريد من خلع سليمان أخيه وعقد البيعة لابنه عبد العزيز . فلما مات الوليد وتولى سليمان الخلافة ، خاف قتيبة ، ولكنه أراد أول الأمر أن يسرضي سليمان ، ثم ثار عليه معتمداً على مجده في الفتح وعظم قدره عند ملوك العجم وعلى أعماله الحيدة في خراسان وعمله على رفاهية أهلها ومدعياً أنه عراقي النسب والهوى والرأي والدين ؛ ولكن لم يتبعه أحد — راجع التفاصيل عند الطبري ج ٢ ص ١٢٨٣ فما بعدها — المترجم] .

فلم يحاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة ، مع أن جند الشام ربما كانوا على استعداد لتأييده (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥ س ٣) ؛ فجئ به إلى واسط وحبس حيناً ، ثم قتل^(١) .

وقد خلف الحجاج في منصبه عدوه الألد ، يزيد بن المهلب ؛ وهذا هو أكبر ما يميز حكومة سليمان عن حكومة الوليد . ويرى درزى (Dozy) أن هذا التغير نتيجة للاختلاف في موقف كل من سليمان والوليد إزاء الأحزاب الكبرى التي كانت تتألف من القبائل ، فيقول إن الوليد كان قيسياً لهما ودماً ، أما سليمان فكان يئى الهوى^(٢) ، ويقول : « إن حكومة الوليد كانت قد أبلغت قيساً ذروة قوتها ، فجاء سقوطها بعد موته على الفور ، وكان سقوطاً سريعاً » . على أن يزيد ابن المهلب أخذ جانب اليمن في صورة صريحة ، وكان ، باعتباره أزدياً ، ينقسم إليهم ، وكان معارضاً لقيس . أما الحجاج فإنه لم يضطره إلى معارضة اليمن وإلى

(١) [لا مات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان واستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، حل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب ، فقال محمد بن القاسم متمثلاً :

أضاعونى وأى فقى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وقد جزع أهل الهند عليه ، وقال ، وهو فى حبس صالح بن عبد الرحمن فى واسط :

فلئن نويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً

وقال :

ولو كنت أجمعت القرار لوطئت إناث أعدت للوغى وذكور

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من علك على أمير

ولا كنت لأعبد المزونى تابعا فيالك دهر بالكرام عثور

الترجم نقل عن البلاذرى ص ٤٤٠ — ٤٤١]

(٢) راجع كتاب دوزى Histoire des Musulmans d'Espagne ، ج ١ ص ٢١١ ،

الظهور من هذا الوجه بظاهر من يكون في جانب قيس إلا يزيد بن المهلب وابن الأشعث من قبله ؛ وهو من نفسه لم يتفكر لأصله وأنه من ثقيف الذين كانوا يُعَدُّون من قيس ، كما قد آثر أن يختار حاشيته من دائرة من يعرفهم . وكان ذلك شيئاً طبيعياً ، ولا يصح أن يبالغ فيه أحد ، ولا أن يعتبره القاعدة العامة ، ولا أن يعتبره نزعةً قيسيةً أصيلةً كانت عند الحجاج . وإذا كانت قيس أنفسهم يعتبرون الحجاج منهم فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك أنه كان زعيماً لحزب قيسى ، ذلك أن القبائل العربية كانت تتعلق بكل رجل قوى تستطيع أن ترتقى إليه بالنسب ولو من بعيد . فالسبب الذي من أجله عيّن عبدُ الملك الحجاج ، والذي من أجله تمسك به الوليد ، لم يكن بوجه من الوجوه قيسيةً كانت عند الحجاج — ولم يكن الحجاج من أسرة ناهية — بل كان السبب هو كفاءته الشخصية . وكان الذي جعل للحجاج شأنه هو شخصه لا قبيلته ، وكذلك كان بغض سليمان منصّباً على شخص الحجاج وعلى نفوذه الشخصي . ولا شك أيضاً أنه إلى جانب هذا قد سُمِيَ بالحجاج عند سليمان ، وقيل له إنه ليس هو الرجل الذي يصلح لتهدئة أهل العراق ، بل إنه الرجل الذي يُبغض إليهم حكم بني أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٧) . وقد عزل سليمان عمال الحجاج ، لأنهم كانوا صنع يده ، لأنهم كانوا قيسيين الهوى . أما خالد بن عبد الله القسرى فكان ، خلافاً لذلك ، يعتبر عند اليمن على أنه منهم (الأغاني ج ١٩ ص ٦١) . وأما قتيبة فكان من باهلة ، وهي قبيلة محايدة ؛ وفي خراسان لم يكن أكبر خصومه هم اليمن بل المضرىون ، ومن جهة أخرى كانت له محبةٌ في الشام عند قيس الذين كانوا يقطعون أرض الجزيرة وكانت باهلة تقيم بينهم (الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠) . وكان موسى بن نصير في إسبانيا يمنيّاً ، ويقال إن الوليد أساء معاملته لهذا السبب^(١) . ولكن سليمان أساء معاملة عبد الرحمن بن موسى أكثر مما أساء

(١) قارن البلاذرى ص ٢٣٠ كتاب ٧٦ Cont. Isid. Hisp.

الوليد معاملة أبيه ؛ وهذا واقع من شأنه أن يضايق دوزى وتلاميذه (١ . مولر A. Müller ج ١ ص ٤٢٩ فما بعدها) أشد المضايقة . فلا شك أن سليمان لم يكن ينزع نزعة يمنية ظاهرة ، كما نزع يزيد بن المهلب . وليس ثمة أى أثر يدل على أنه كان فى الشام منحازاً إلى جانب اليمى عن جانب قيس ، بل هو كان يأسف لأنه جرح مشاعر قيس الشام بما صنعه مع قتيبة^(١) . وكانت أم سليمان هى أم الوليد ، وكانت قيسية من عبس ؛ ومن المسير جداً أن يتشكر سليمان لما يجرى فى عروقه من دم . أما انقسام العالم العربى إلى قسمين متخصصين على أساس الانقسام القبلى ، فإنه كان فى ذلك الوقت ما يزال فى دور التكوين . وقد كان ما بين الولاة والرؤساء الأقوياء من عدااء شخصى سبباً جوهرياً فى تفاقم خطب هذا الانقسام ؛ ولا يصح للمؤرخ أن يعمد إلى ما هو نتيجة فى التاريخ فيجعله بمثابة صل وقاعدة يرجع بها إلى الوراء حتى يجعلها فى بدايات ما قبل التاريخ .

وبعد موت الحجاج امتنع الزنبيل فى سجستان عن دفع الإتاوة ، ولم يتخرج من أن يصرح بمقدار استصفاره لشأن من جاء بعد الحجاج (البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها)^(٢) . وأيضاً بعد موت الحجاج وموت الوليد بعده بقليل تنفس أهل العراق الصعداء ، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا أن تغير الأشخاص لم يأت معه تغير النظم وأن يزيد بن المهلب ، وإن كان قد آذى آل الحجاج وعماله (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٩) فإنه لم يسلك فى الحكم طريقاً غير طريق الحجاج . فهو أقام مثله

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ س : ٦ — المترجم]

(٢) [لا منع الزنبيل العروس التى كان قد صالح الحجاج عليها سأل عمال يزيد بن عبد الملك قائلاً : ما فعل قوم كانوا يأتوننا خمس البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوس ؟ قالوا : انقروا ، قال : أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً . وقيل له : ما بانك كنت تعطى الحجاج الإتاوة ولا تطيناهما ؟ فقال : كان الحجاج رجلاً لا ينظر فيما ينفق ، إذا ظفر ببغيته ، ولو لم يرجع إليه درهم ؛ وأتما لا تنفقون درهماً إلا إذا طعمتم فى أن يرجع إليكم مكانه عشرة . — المترجم نقلاً عن البلاذرى] .

في واسط ، واستبقى أهل الشام في العراق ، ووجد أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الضرائب التي بغضت الحجاج إلى العرب ، إن كان لا بد أن يبقى دخل الدولة في المستوى العالي الذي كان عليه . على أن يزيد أراد أن يتفادى بغض أهل العراق له ، فطلب إلى الخليفة أن يعفيه من ولاية الخراج وأن يقلدها عامل آخر أشار به ؛ ولكن ذلك آل إلى شيء لم يكن يخطر له على بال ، لأن العامل الذي أشار به يزيد وعيّنه سليمان على خراج العراق كان عاملاً قديماً من عمال الحجاج ، وكان حتى ذلك الحين يعمل في الديوان ، وقد جعله سليمان مستقلاً على رأس ديوان الخراج^(١) ، وهو صالح بن عبد الرحمن أحد موالى سجستان ، وهو الذي نقل لغة الديوان إلى العربية . وكان لصلح في واسط أربعمائة من جنود الشام تحت تصرفه يسرون بين يديه إذا خرج ، وكان مستقلاً عن يزيد استقلالاً تاماً . وقد ضيق على يزيد ، فلم يملكه شيئاً ، ورفض في جفاء أن يحمل خزانة الخراج تلك النفقات الكبيرة التي كان ينفقها يزيد . وأخيراً ضجر يزيد بسبب هذا التضيق ولم يحتمل المقام في العراق ، وعرف كيف يدبر الحيل ويلتمس السبل حتى أسند سليمان إليه إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق^(٢) ، فنقل مقر إقامته إلى الولاية القديمة التي كان عليها حيث لا يراقب أعماله أحد^(٣) . ولكنه في خراسان لم يجد ما كان

(١) هذا بحسب رواية أبي مخنف — الطبري ج ٢ ص ١٣٠٦ فابعدهما ، أما كيف أن دوزي يفهم هذه الرواية على هواه فيستطيع الفارسي أن يطلع عليه عند دوزي نفسه (Dozy, 1, 226) . على أنه بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٢٦٨ — ابن قتيبة ص ١٨٣) كانت ولاية الخراج قد فصلت عن الإمارة في الفترة بين الحجاج ويزيد ؛ فلا بد أن يكون هذا الفصل قد أُلغى أيام تولي يزيد للإمارة ، ثم عمل به من جديد بناء على طلبه ، وليس على هذا الذي تفترضه أي اعتراض .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٠٦ — ١٣١٤ — الترجم] .

(٣) كان ذلك في سنة ٩٧ هـ . وقد احتفظ يزيد مع هذا بالإمارة على العراق .

يحتسب ، فقد كان رجالاً همه الطعام والشراب والنساء^(١) ، وكان بديناً فاسد الصورة .
وتبين الفرق البعيد بينه وبين قتيبة بن مسلم . ولكنه أراد أن يفوق قتيبة بفتح
جرجان وطبرستان ، فلم يوفق في ذلك إلا توفيقاً ناقصاً . وقد كتب إلى سليمان
بمعظم قيمة الفتح وعمد إلى الافتخار وتسميع الناس فبالغ في تقدير قيمة خمس
الغنائم التي حصل عليها ، وبذلك حفر الحفرة لنفسه بيديه^(٢) .

وقد احتفظ سليمان بعد أن تولى الخلافة بمقر إقامته في الرملة من أعمال
فلسطين . وكان الناس هناك يحبونه كثيراً (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣١) ؛ ولكنه
كان يكثر من الذهاب إلى معسكر دابق في شمال الشام ، وهو المعسكر الذى كان
قاعدة لتدبير أمور الحرب الكبيرة الموجهة إلى القسطنطينية ؛ وهناك مات بعد
حكم لم يدم ثلاث سنين كاملة ، وكان موته في صفر سنة ٩٩ هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م) .
ويقول إلياس النصيبى إنه مات يوم الثلاثاء الثامن من صفر ؛ أما أبو مخنف
(الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٦) فيقول إنه مات يوم الجمعة العاشر من صفر^(٣) . وعلى
حين كانت أحداث الطبقة الممتازة في زمان الوليد تدور حول مسائل الزراعة
وتخطيط الضياع ، صارت أحداث الناس في عهد سليمان تدور حول التزويج
والجوارى . وكان سليمان نفسه غير متحفظ ، وكان صاحب نكاح وطعام . ولكنه
كان غيوراً شديداً الفيرة ، فأمر بمكافحة الفحش في المدينة ؛ وربما كان ما فعله أمير
المدينة من خصي الخنثيين بدلا من إحصائهم نتيجة لتصحيح في الكتاب الذى

(١) [راجع مثلاً ما يفوله عنه قتيبة بن مسلم وما حكاه عنه عمر بن عبد العزيز (الطبرى
ج ٢ ص ١٢٨٧ و ١٣١٣ — المترجم) .

(٢) [راجع الطبرى (ج ٢ ص ١٣١٧ -- ١٣٣٥) . وقد قدر يزيد بن المهلب خمس
الغنائم بستة أو أربعة آلاف ألف ، فحاسبه عليها عمر بن عبد العزيز فيما بعد — المترجم] .

(٣) بحسب قورستفيلد يكون يوم الثلاثاء هو التاسع من صفر ويوم الجمعة هو الحادى
عشر منه . ومثل هذا الاختلاف في يوم واحد يمرض كثيراً ، وليس بذى بال . [لكن إذا
كان يوم الثلاثاء يوافق ٩ صفر فإن يوم الجمعة يوافق ١٢ منه — المترجم] .

وصله (الأغاني ج ٢ ص ٥٩ فما بعدها)^(١) ؛ وهو مع أنه كان شهوانياً ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يميل إلى أهل الديانة والصلاح ؛ وهذا يتجلى في أنه كان يظهر العطف على معارضة أهل العراق للحجاج ، هذه المعارضة التي كانت دائماً تظهر في ثوب معارضة دينية باسم الله و باسم سلطان الله ضد غشم الأقوياء ؛ كما يتجلى في أنه كان يقرب العلويين إليه (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٨ س ٧) وفي أنه عين أحداً لأنصار والياً على المدينة ، وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الذي كان لجده محمد ضلع كبير في الثورة على عثمان ؛ على أن أوضح ما يدل على ميله لأهل الدين الورع هو أنه كان يستمع لرجاء بن حيوة ، أحد علماء الدين في القصر . وإن المكانة التي جعلها خلفاء بني أمية لهذا الرجل هي مقياس لموقفهم هم أنفسهم من الإسلام . وقد بدأ تأثير رجاء في عهد عبد الملك ، وازداد في عهد الوليد ، وبلغ أوجه في عهد سليمان . وقد استطاع رجاء أن يقنع سليمان بعمل الخلافة في عمر ابن عبد العزيز ؛ وعندنا في هذا رواية الواقدي التي ذكرها الطبرى^(٢) .

كان عبد الملك قد عقد البيعة لابنه يزيد على أن يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيه . وأخذ عبد الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك . ولكن سليمان لم يلتزم العهد ، فعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة أولاً ؛ ولكن أيوب مات

(١) [بلغ سليمان بن عبد الملك ما كان يأتيه المختنون في المدينة من فساد في النساء والرجال ، ولاحظ تأثير اشتغالهم بالفناء وإجاعتهم له في النساء ، فكتب إلى عامله على المدينة أن إحضر من قبلك من المختنين المغنين . وظن البعض أن كتابه كان فيه « أن إحضر » ، ولكن القارىء صحفها ؛ وهذا غير معقول ، وقد صرح الرواة بأنه كذلك — المرحم] .

(٢) ج ٢ ص ١٣٤٠ فما بعدها . وكان الهيثم بن واقد ، عم الواقدي ، وهو طفل ، حاضراً في دابق ؛ وقد أصاب يوم استخلاف عمر بن العزيز ثلاثة دنائير (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١) .

في حياة سليمان نفسه ، وقبل أن يجعل سليمان الخلافة في ابنه الثاني داود^(١) — وكان هذا مع الجيش الأموي أمام القسطنطينية — كان على فراش الموت (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٥ و ١٣٤١) . عند ذلك وضع رجاء يده في الأسر ، وأقنع سليمان بأن يرضى الله بوصية يستخلف فيها على المسلمين الرجل الصالح . فتخطى سليمان الورثة المباشرين ، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع التقى ، عمر بن عبد العزيز ، على أن يكون العهد بعده ليزيد بن عبد الملك . وجاءت سكرات الموت تغشى سليمان ، فبقي رجاء عنده ، فلما مات حرقه إلى القبلة وغمض عينيه وسجّاه ، وأغلق عليه الباب واستوثق من إخفاء موته على أهله . ثم جمع الأمويين في مسجد دابق دون أن يقول إن الخلافة قد مات ، وطلب منهم أن يبايعوا على ما أسره به الخلافة في وصيته ومن سمى في العهد الذي كتبه ؛ ولم يذكر رجاء اسم ولي العهد^(٢) ، ولم يخبرهم بموت سليمان ولا باسم خليفته الذي عينه بنفسه إلا بعد أن بايعوا . وكانت مفاجأة كبيرة عندما وقف رجاء وقرأ كتاب سليمان ، وفيه استخلاف عمر ابن عبد العزيز . وكان عمر من فرع جانبي من بني أمية ، كان قد نجّاه عبد الملك ، والآن جاء ابن عبد الملك فأثره على أسراء الفرع الأساسي لبني أمية على كثرتهم . ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد ، وربما كان أبعد شيء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه . ولم تقم مع هذا معارضة ذات شأن بسبب تعيين عمر . وبظاهر أن رجاء قد أحكم ما صنع ، وقد عارض هشام بن عبد الملك في البيعة بعض المعارضة ، ولكنه أخذ

(١) والأسماء التي سمي بها سليمان أبناءه ، وهي الأسماء الموجودة في النوراة ، ربما كانت دليلاً على ورعه ، وهي فيما عدا ذلك نادرة عند الأمويين في ذلك العصر . أما اسمه هو فقد أعطى له من غير أن يكون له في ذلك دخل على كل حال .

(٢) بحسب رواية الواقدي أن سليمان نفسه ، وهو على فراش الموت ، فعل ما فعله رجاء في المسجد بعد موت سليمان — ومن الواضح أن هذا تكرار في الرواية .

جانب العقل لما هُدِّد بالسيف^(١) . أما عبد العزيز بن الوليد فلم يكن حاضراً في دابق ، ولما علم بموت سليمان ظن أن زمانه قد جاء ، ولكنه اطمأن لما علم بأن عمر صار خليفة^(٢) .

(١) [لما قرأ رجاء كتاب العهد الذي كتبه سليمان بمن يخلفه وانتهى إلى ذكر عمر بن عبد العزيز ، نادى هشام بن عبد الملك : لا نبايعه أبداً ، فقال له رجاء : أضربوا عنقه ، قم فبايع ! فقام يحرقه رجليه — وتفصيل موت سليمان ومبايعة عمر موجود عند الطبري في الموضع المتقدم ذكره — المترجم] .

(٢) [لم يكن عبد العزيز بن الوليد يعلم بعهد سليمان ، ولا بيعة الناس لعمر بن عبد العزيز ، فعقد لواء ودعا لنفسه . ثم بلغه الأمر ، فأقبل وبايع عمر ، فلما سأله عمر عما كان منه ، قال له بما فعل ، واعتذر بأنه إنما بايع لنفسه خوفاً على الأموال أن تذهب . — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٣٤٥] .

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز والموالى

١ — كان عمر بن عبد العزيز ابناً لعبد العزيز بن مروان الذى ظل أميراً على مصر لخلفاء بنى أمية سنين طويلة . أما أمه فكانت أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتزّ بذلك . وولد عمر فى المدينة فى عهد يزيد بن معاوية (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١)^(١) ، وقضى هناك الشطر الأكبر من صباه ، وتغذى عقله بالتراث الروحى فى مدينة الرسول . وبعد أن مات أبوه (سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ) أخذه عبد الملك إلى دمشق وزوجه ابنته ، ثم أرسله الوليد بن عبد الملك إلى المدينة أميراً على الحجاز ، وكان قصده من ذلك محو الذكرى السيئة التى خلفها الوالى الذى كان قبل عمر واسترضاء أهل المدينة . ووثق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث ، وكان علم الحديث قد ازدهر هناك . ولم يكن يضايقه أن ينتقد علماء المدينة أساليب حكومة الأمويين ، خصوصاً أساليب الحجاج . وكان من أثر ذلك أن صار أهل الفتنة والشقاق من أهل العراق يلجأون إلى الحجاز ، فلم يرض الحجاج عن ذلك بطبيعة الحال ، وعزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة بناءً على الحجاج^(٢) ، ولما لم يفقد العطف من جراء ذلك ، فقد كان أخاً لامرأة الوليد وظل عنده مُكرِّماً ، ولم تكن مكانته الكبيرة عند سليمان أقل من ذلك .

قويت الروح الإسلامية فى الأسرة الحاكمة ، كما رأينا ؛ فنفذ معاوية

(١) [جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٨٦٢ هـ — المترجم] .

(٢) [راجع ما تقدم ص ٢٤٣ — المترجم] .

وعبد الملك إلى الوليد وسليمان نراها في ازدياد مستمر . وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء بني أمية . ولكن تدبته وورعه لم يكونا شبيهين بما كان عند سلفه ، ذلك أن روحه تشربت هذا الورع على نحو آخر تماماً . وكان الورع موجَّهاً لأعماله في أمور الدولة . واقد كان سليمان بن عبد الملك رجلاً متبدياً صاحب متاع . أما عمر فيكاد يكون زاهداً . وقد أتاحت السيادة لسليمان وسائل للمتاع لا حدود لها . أما عمر فقد ألقت السيادة على كاهله مسؤولية ثقيلة ، وكان في كل شيء يفعلها يتمثل بالحساب أمام عينيه ، وكان يخشى دائماً أن يقصّر في حدود الله^(١) .

ولم يكن عمر ميالاً إلى حروب الفتح ، وكان يعلم حق العلم أنها لم تكن حروباً

(١) [لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلب : « أما بعد ، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ثم قبضه واستخافني ويزيد بن عبد الملك من بعدى ... وإن الذي ولاني (يعني الله) ليس على بهين ، ولو كانت رغبتني في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه . وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عافى الله ورحم » . وكتب عمر بن عبد العزيز لأهل الشام : « سلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت قل كلامه ، ومن علم أن الموت حق رضى باليسير » . ويروى أنه قال : « من عمل من غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومعوّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه ما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقد أوصى أحد ولاته في كتاب له : « كن عبداً ناصحاً لله في عبادته ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استعمرى ، وإياك أن يكون مبلّك ميلاً إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهب عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » . ولما كتب إليه الجراح بن عبد الله الحكمي ، بعد أن ولاه على خراسان ، قائلاً : « قدمت خراسان ، فوجدت قوماً قد أبطلتهم الفتنة ... فليس يكفّهم إلا السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك » . كتب إليه عمر : يا ابن أم الجراح ! أنت أحرس على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يفادير صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٥] .

في سبيل الله ، بل من أجل الغنائم . على أنه ليس من المحقق على كل حال أنه هو الذي أرجع الجيش الإسلامي من القسطنطينية^(١) . وهو لم يستطع أيضاً ، من حيث المبدأ ، أن ينهي الجهاد مع قيصر الروم ؛ ولكنه ترك المراكز الأمامية وجمع جنود الغزو فيما دونها . وربما كان يرضى عن الانسحاب من بلاد ما وراء النهر ، لولا أن الإسلام كان قد رسخت قدمه في بعض مدنها . ولكنه قد منع على الأقل توسيع الحدود هناك^(٢) ، وكان جل اهتمامه متجهاً إلى السياسة الداخلية ، وهذا نجد أنه قد حصل في عهده تحول ذو طابع مغاير للتحول الذي كان بين عهد الوليد وعهد سليمان وأكبر منه شأنًا بكثير

وقد شغل عمر أم المناصب الكبرى بعمال جدد ، فحبس يزيد بن المهلب — وكان عمر يفضيه^(٣) — حبس دين حتى يقضى ما عليه ، وذلك أن يزيد لم يستطع دفع الخمس من غنائم أقاليم بحر الخزر^(٤) ، وكان قد بالغ في قيمتها على سبيل الافتخار وتسميع الناس . ووجه عمر إلى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وإلى البصرة عدي بن أرطاة الفزاري ، وإلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي الذي ينتسب إلى عمر بن الخطاب ، وإلى العراق عمر بن هبيرة الفزاري ،

(١) [جاء في الطبري ج ٢ ص ١٣٤٦ أن عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩ هـ كتب إلى مسلمة بن عبد الملك ، وهو بأرض الروم ، وأمره بالقول منها بمن معه من المسلمين — المترجم] .
(٢) وفي عهد عمر بن عبد العزيز فتحت مدينة تربونة بفرنسا وحصنت ، فنجح المسلمون من قواعدهم في إسبانيا .

(٣) [كان يزيد بن المهلب يفضي عمر بن عبد العزيز ويقول عنه : « إني لأظنه مرائياً » ، فلما ولي عمر الخلافة عرف ابن المهلب أنه كان بعيداً من الرباء . وكان عمر يفضي يزيد بن المهلب وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أحب مثلهم » . وقد تبين لابن المهلب أن عمر لم يكن يظهر التقى رياء ، لأنه استدعاه وحاسبه — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٣ ص ١٣٥٠] .

(٤) [يقول المؤلف : غنائم الخزر ، والمقصود هو غنائم جرجان وطبرستان ، كما تقدم كلام المؤلف — وفيما يتعلق بحاسبة عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب على ما كان قد كتب به إلى سليمان من خمس الغنائم ليراجع الفاري كتاب الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٠ — ١٣٥٢ ، ١٣٥٩ — ١٣٦٢) — المترجم] .

وإلى الهند عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم . وكان الجراح (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤) وعمراً من مدرسة الحجاج ، وكان عدى وابن هبيرة من قبيلة قيس . ولكن عمر لم يعين هؤلاء الرجال على سبيل الانصراف عن الجانب الذى كان ينحاز إليه سلفه ، وعلى سبيل الإيثار لقيس أو للحجاج ، بل لأنهم كانوا رجالاً أكفاء أمناء (الطبرى ج ٢ ص ١٣٨٣ س ٣) . وعين على الأندلس السمع بن مالك الخولاني ، أحد اليمنيين ، وعلى إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، لأنه كان يعلم من أمر هذين الرجلين أنهما غير متحيزين لفريق دون فريق ، وأن لهما قلباً يعطف على المظلومين . على أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يكتفى باختيار رجال يظهرون أنهم على شاكلته ، ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاؤون ، ما داموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال ، بل كان يشعر أنه مسئول هو نفسه عما يجرى فى جميع البلاد ، ولم يكن همه الزيادة فى قوة الدولة ، بل إقامة الحق والعدل فيها . وعلى يديه صار للفقهاء وأهل العلم كلمة مسوعة^(١) ، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذى كيان شرعى مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء . ويظهر من هذا الوجه أيضاً أن منصب القاضى قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالاً وأكبر شأنًا مما كان ؛ فقد جاء فى كتاب كتبه عمر إلى عقبه من زرعة فى خراسان : إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها : فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا --- يعنى الخليفة^(٢) . وكان الحسن المشهور^(٣) فى عهد عمر بن عبد العزيز قاضياً على

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ — ١١٨٣] حيث يروى أن عمر بن عبد العزيز بدأ ولايته للمدينة سنة ٨٧ هـ . باستدعاء الفقهاء وقوله لهم إنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم ، وطلبه منهم أن يدلوه على ما يرون من ظلم ، وفى هذا دليل على روجه بوجه عام — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦ — المترجم] .

(٣) [المقصود بطبيعة الحال هو الحسن البصرى — المترجم] .

البصرة ، وعاصر الشعبي قاضياً على الكوفة . وقد أرسل عمرُ مع عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي أمير الكوفة أبا الزناد الفقيه ليكون كاتباً عنده . وكانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تملخص في تنظيم الناحية المالية فيها ، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه بهمة عمر بن عبد العزيز . ولكن ليس من السهل أن تبين بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان نظام الخراج ، والآراء التي جاء بها في هذا الشأن الفريد فون كريمر (Alfred von kremer) وتابعه فيها أوجست مولر (A. Müller) مشوبة بأخطاء حقيقية .

يرى فون كريمر ومولر أن الذي دعا عمر بن عبد العزيز إلى إصلاحاته في نظام الخراج إنما هو القصد إلى العودة إلى النظام القديم^(١) ، وأن عمر بن الخطاب

(١) كان ذهن عمر بن عبد العزيز يحكم سلطان الدين عليه بعيداً عن كل إدراك لما تقتضيه الحكمة السياسية . وإنه وإن كان لا يمكن النزاع في أن بعض ما وضعه من نظم قد أدى إلى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة ، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على إفساد نظام الدولة من أساسه ، بعد أن كانت قد أصبحت دولة دينوية . والرومان ، وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة ، إنما قرروا المبدأ الذي فرروه عن علم ، وهو أنه لا دولة يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التي أدت إلى قيامها . أما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول الممنهية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معاوية ، وأراد أن يستفيض عنها بتحقيق مبادئ مثالية استمدتها من القرآن والحديث ، حتى ولو كان هذا العمل الخلق بالثناء لا يمكن تنفيذه إلا على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة ! ولكن عمر بن عبد العزيز ، وهو الخليفة الورع ، كان متأثراً بمبادئ حاشيته الدينية إلى حد أنه لم يرق حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة ، وكان تفكيره الساذج يقول له إن الله يريد كذا وكذا ، وإنه إذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه . أما كيف يريد الله من الخليفة أن يحكم فيرى عمر أن الله قد أظهر ذلك للمؤمنين حساً ملموساً بأن أخضع لسلطان الإسلام على يدي عبده أبي بكر وعمر متمردي العرب أولاً ، ثم فارس كلها والشام ومصر ؛ وعلى هذا فلم يكن المثل الأعلى لعمر بن عبد العزيز سوى صورة حرفية للتنظيم الذي وضعه للدولة عمر بن الخطاب وغيره في أهم نواحيه خائب السوء تغييراً لا يمت إلى الدين بسبب . وإذا عرفنا كيف أن هذه التغيرات لم تقض بضرورتها الأهواء الشخصية بل دعت إلى شدة الاعتناء الفاسية ، فإنه يصبح من المفهوم بنفسه أن يكون الرجوع إلى تطبيق الأصول القديمة في تدبير أمور الدولة التي نظمها عبد الملك والحجاج بمثابة ما تقوم على العين ضربية يجمع اليد . ولكن ثقة عمر بن عبد العزيز ، ذلك الخليفة الجدير بالإعجاب ، بما فيها من ورع مؤثر ، لم يكن ينيرها ولو قبس من تلك المعرفة .

كان مثاله الذي أراد أن يتبعه وأن يرجع إلى ما كان قد وضعه من نظم ، كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التي استحدثتها خلفاء بني أمية وعملهم حتى ذلك الحين . وهنا يقوم سؤال مبدئي عن طبيعة المثال الذي أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتذيه ،

== فلم يلبث بعد توليه عرش الخلافة أن أمر بإلغاء القانون الذي وضعه الحجاج والذي كان يقضي بأن يدفع من يدخل في الإسلام من أهل الذمة الجزية التي كانوا يدفعونها من قبل ، وذلك تلافياً للنقص فيما يدخل إلى بيت المال . ولا كان من شأن هذا الإجراء أن يجعل الدخول في الإسلام مفيداً لغير المسلمين من جديد ، فإن الخليفة الورع — وكان قد نظم في الوقت نفسه دعوة حارة لنشر الإسلام في جميع الأمصار — قد قرت عينه بأن يرى جحافل المؤمنين في المشرق والمغرب قد زادت ملايين في وقت قصير . وحتى لو كان دخولهم ثقافاً في بدايته فإنه يجب أن لا تنسى أن الشريعة الإسلامية كانت من أول الأمر تقضي بالموت على من يرتد عنها ، وعلى هذا كان ارتداد من أسلم مستحيلاً ، وبعد ذلك سيكون معظم الجيل الثاني على الأقل مؤلفاً من مسلمين صادقين ، لذلك فإن أغلبية المؤمنين بالله بالنسبة لغيرهم قد زادت في الحقيقة بفضل هذا الأمر الذي أصدره عمر زيادة كبيرة ، ولكن أصاب الخزانة من جرائه نقص كبير ، ثم جاء أمر ثانٍ لعمر فزاد في هذا النقص زيادة أخلت بالتوازن في مال الدولة إخلالاً كبيراً . على أنه كان من الواضح لعمر نفسه أن العودة إلى تطبيق القانون القديم الذي يحرم امتلاك الأرض على المسلمين لا يمكن أن تكون في صورة مطالبة كل من ملكوا أرضاً في الأمصار خلال أكثر من سبعين سنة خلت بأن ينزلوا عنها ، وكان هذا مستحيلاً من الناحية العملية لأسباب كثيرة ، فتركت هذه التجربة على الأقل بسبب خطورتها التي لا حد لها . ولكن على حين أن كل شراء للأرض قد صار محرماً على المسلمين بعد سنة مائة للهجرة ، فإن عمر بن عبد العزيز أراد أن يفرق بين المسلمين وأهل الذمة تمسكاً منه بأصول الدين . فألغى الحراج عن أراضي المسلمين التي كانوا قد تملكوها مخالفين النهي عن ذلك ، وجعلها أرض عشر ، فصار ما يؤخذ عنها أقل مما كان يؤخذ خراجاً بكثير ، فأدى ذلك من جديد بطبيعة الحال إلى نقص كبير في دخل الدولة ، وكان أيضاً إجراء غير موفق من الناحية العملية ، لأن هذه الحجابة للدلاك ، إذا قورنوا بمن لم يكن قد ملك أرضاً من قبل ولا يستطيع أن يملك أرضاً من بعد ، بدت في صورة ميزة بيضة . وإذا كان الذين لم يملكوا أرضاً قد عوضوا من طريق التنفيذ لنظام الأعطيات السنوية ، فإن ذلك لم يأت شافياً للداء ، لأن هذه الأعطيات لم تسكن عالية بدرجة كافية ، وإن كانت بالنظر إلى الزيادة الكبيرة في عدد الداخلين في الإسلام قد كافت الدولة مبالغ لا تتصور . وإلى جانب كل هذه الإجراءات التي أضرت ببيت المال أكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر ، وقد أوحى به إليه إحساس إنساني بالعدالة ، لكنه لم يكن موفقاً من الناحية العملية ، وهو يقضي برد جميع الأموال التي ابتزت من الرعايا ظالماً إلى أصحابها ، ولا تعرف إن كان هذا قد وقع مقصوداً على أحوال فردية . ولكن أكثر العمال خيانة ما كان يستطيع أن يتمتع فرصة أكثر مواتاة من هذه الفرصة لانتهاك الخزانة من غير أن يناله عقاب . هذا ما يقوله A. Müller في كتابه = Geschichte des Islams im Morgen und = Abendlande = تاريخ الإسلام في =

فكان يُعْتَبَر ملكاً لعامة المسلمين ، وقد تَرِكَ في يد المغلوبين ووُضِع عليه الخراج ؛ وكان الواجب أن يُقَسَّم الخراج في كل عام على الملاك الشرعيين للأرض ، باعتبار أنه غَلَّةٌ لهم . ولكن الدولة وضعت يدها عليه وصارت تدفع للمقاتلة المسلمين أعطيات تحددتها على هواها ، وبذلك انطمس الفرق بين أرض الخراج وأرض الصوافي ، وكان ما يُخَذُّل منها جميعاً من غَلَّةٍ يجري إلى بيت مال الدولة . وقد نَمَّ هذا التطور في فترة الفتوحات الكبرى ، وأشرف عليه عمر بن الخطاب وجعله وضعاً قانونياً في آخر الأمر . ولكن عمر بن الخطاب لم يذهب ، فيما يتعلق بأرض الخراج ، إلى حد منع الملكية الخاصة للأرض ، بالمعنى الحقيقي لهذه الملكية ، منعاً باتاً ؛ أما التحريم للملكية الأرض على العرب في الأمصار تحريماً شاملاً فلم يوجد قط^(١) . وقد جرى خلفاء النبي من بعده ، دون استثناء أبي بكر وعمر ، على ما كان قد جرى عليه النبي نفسه من تصرف حر في الصوافي أو ممتلكات الدولة ، فكانوا يهبون أجزاء منها لأهل النباهة والفضل ، لا على أنها بمثابة عارية تبقى ملكاً للدولة ، بل بمثابة هبات تصير ملكاً خاصاً ، وهذه هي القطائع . وكان من أثر ذلك أن نال كل من على وطلحة والزبير ثروة كبيرة^(٢) . وفوق هذا صار مقاتلة العرب في الأمصار أصحاب أرض بطبيعة الحال ، ولم تقتصر ملكيتهم على الدار وما إليها ، بل كانت لهم ضياع أيضاً في القرى المحيطة بهم . وكان أول ما اتجه إليه

= مساحة جميع ما يصلح للزرع والفرس من أرض السواد . هذا ما يقوله قدامة كما ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية ص ٣٠١ من طبعة أنجر ، وقد بين هرمان فاجنر Hermann Wagner في Göttinger Nachrichten ، ١٩٠٢ ص ٢٢٤ فابعدها أن تقدير المساحة خطأ ، وأنه أكثر مما هي عليه [ذكر المؤلف النص غير كامل ، والذي نقله ليس مساحة السواد بل مساحة العراق ، ولذلك ذكرنا النص أطول مما ذكره من أوله ومن آخره — راجع كتاب الأحكام السلطانية ص ٢٩٩ — ٣٠٢ . وفي كتاب المسالك والممالك لابن خردادبه ص ١٤ من طبعة الیدن أن طول السواد ١٢٥ فرسخاً وعرضه ٨٠ فرسخاً ، ويظهر أن ثم خلطاً بين تقدير مساحة أرض العراق وأرض السواد — المترجم] .

(١) قارن في هذا Juynboll im Indischen Gids ، فبراير ١٨٩٩ .

(٢) كتاب الخراج ليجي بن آدم ص ٤٢ ، ٥٦ فابعدها و ٦١ و ٦٧ .

تفكيرهم في أثناء خلافة عمر بن الخطاب هو القتال والغنيمة ، ولكن تفكيرهم تغير في غضون ما جاء بعد ذلك من سنين أكثر هدوءاً . وكان الميل إلى امتلاك الأرض قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي ؛ ولم يحى الإسلام ، ولا محمد عليه السلام ، مانعاً من ذلك ، بل جاء على العكس مقوياً له . ولا شك في أن الميل إلى التملك كان أحد العوامل في حروب الفتوحات . والقانون القديم الذي كان يقضى بأن تكون الأرض غير المملوكة ملكاً خاصاً لمن يستصلحها كان موجوداً ، لا في جزيرة العرب وحدها ، بل في الأمصار أيضاً ، وقد استغل هناك استقلالاً واسعاً . ولم تقتصر الرغبة في تملك الأرض على أرض الفلاحين المغلوبين التي وُضع عليها الخراج ، بل كانت هذه الأرض تنتقل إلى أيدي السادة من العرب في صور شتى ، من طريق الشراء أو ما هو شر منه . أما القول بأن العرب قد منهم التشريع منذ بادي الأسر من امتلاك الأرض فلا يوجد عليه دليل قط ، ولم يكن هناك ما يدعو عمر بن الخطاب إلى معارضة شيء لا يكاد يكون في عهده قد بدأ ، ولم يكن على أي حال قد أدى بعد إلى نتائج ضارة .

وكذلك لم يكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع قاعدة أن الخراج إنما يتعلق بالأرض لا بصاحبها ، سواء أكانت ملكاً لمسلم أو لغير مسلم ، وأن الدخول في الإسلام لا يعنى الداخل فيه إلا من الجزية ، لأن هذه الجزية تتبع الطبقة الاجتماعية ، وهي علامة تميز المغلوبين في مقابل المسلمين ، وكان كل من الخراج والجزية ، في أول الأسر ، يعتبر خراجاً على حد سواء ، لا فرق بينهما في ذلك ، وهو خراج يدفعه الخدم إلى أعضاء الحكومة التيوقراطية ، أو أبناء الدولة (إنجيل متى ١٧ - ٢٥)^(١) ، وكان هؤلاء لا يدفعون ضريبة لا عن أشخاصهم ولا عن

(١) [تعبير المؤلف عن حقيقة الجزية أو الخراج غير دقيق فيما يتعلق بالإسلام ، فالجزية فدية أو ضريبة يدفعها غير المسلم في مقابل تمتعه بحقوق المواطن في الدولة الإسلامية وفي مقابل حمايتها له ، وهي لذلك لم تكن تؤخذ إلا من القادر على الحرب بمن شأنه أن يقوم بواجب =

أرض مزارعهم ، بل إنما كانوا يدفعون عشر ما تُغْلَى الأرض ، ولم يكونوا يعطونه للناس بل يعطونه لله ، وكانت الفكرة القائلة بأنه إنما يشين المسلم أن يدفع جزية عن نفسه ، فأما إن ألزم بدفع الخراج عن الأرض التي يملكها فلا يشينه ذلك ، ففكرة بعيدة عن الأذهان . وفي الاستعمال اللغوي القديم لا توجد تفرقة ما بين الخراج والجزية ؛ فهما يدلان على شيء واحد ، هو الإتاوة التي يدفعها غير المسلم . وفي كثير من الأحيان نجد ذكر عبارة « جزية الأرض » ، وليس ورود عبارة « خراج الشخص » أقل من ذلك^(١) . أما بحسب أى تسمية كان يجب على الأفراد الذين يلزمهم الخراج أن يؤدوا ما عليهم فكان وقعه على العرب قليلا ، وخاصة عندما يفرض الخراج مبلغا إجماليا ذا مقدار ثابت على الجماعة متضامنة فيما بينها . ويظهر أن هذا كان في أول الأمر هو القاعدة العامة ، ولم يكن شيئا شاذا نادرا .

رإذن فقد كان المبدأ المعمول به في أول الأمر هو أن الإسلام يعفى المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج ، وأن أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها عربي مسلم^(٢) ، أو إذا دخل مالكاها الذي ليس بعربي في الإسلام . ولكن كان من جراء ذلك أن وضعت إتاوة على الأرض المزروعة التي يتخذها

== الدفاع الوطني ، ولذلك أيضاً كان يعفى من دفعها القسس والنساء والأطفال والشيوخ الضعفاء ؛ أما الخراج فهو ضريبة قصى بفرضها كيان الدولة . فليس دافع الجزية خادماً ولا عبداً كما يفهم من كلام المؤلف ، أما النص الذي يشير إليه المؤلف في إنجيل متى فهو يتضمن التفرقة بين الأجنبي غير الحر في دولة وبين المواطن المادى فيها ، وهذا غير موجود في الإسلام — المترجم — .

(١) قارن مايقوله دى غوى في حواشيه على الطبرى وكذلك البلاذرى س ٦٥ س ٥ — ٧ بس ٦٦ س ١٥ و س ٣٥١ س ١ بس ٣٥١ س ٥ و س ١٣ . وفي خراسان كان يقال دائماً جزية ولا يقال خراج (الطبرى ج ٢ س ١٣٥٤ و ١٣٦٤ فا بعدها و ١٥٠٧ فا بعدها) ، وفي كتاب الخراج نجد استعمال كلمتي الجزية والخراج دون تمييز بينهما ، ونجد في كتاب الخراج أن عبارة جزية الأرس تستعمل استعمالاً جارياً تماماً .

(٢) وكذلك كانت الأرض الزراعية عندنا تعفى من الضرائب إذا ملكها أحد الأشراف ، لأنه بحكم أنه شريف كان معفى من الضرائب .

السادة من العرب ، ثم على دافع الجزية إذا دخل في الإسلام ، وفي كلتا الحالتين انمحي الفرق بين الطبقات وبين نوع ممتلكاتها ، هذا الفرق الذي كان ينبني عليه النظام المالي على عهد عمر بن الخطاب ، ونشأت عن ذلك صعوبات وأوضاع غير سليمة ، فإذا خُفِّضت الجزية بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول في الإسلام أضر ذلك بيت المال ، وإذا أخذت مبلغاً إجمالياً بالمقدار الذي كانت عليه أولاً زاد العبء على الجماعة ، بعد أن تكون قد صارت بسبب دخول من دخل منها في الإسلام أقل مقدرة على دفع الجزية . وهذا أيضاً لم يكن في مصلحة بيت المال ، إذا هجر المسلمون الجدد — كما كان يحدث في العادة ، وربما في أكثر الأحيان — قراهم ومزارعهم ، فتركوها دون من يعنى بها وهاجروا إلى المدن التي كان يقطنها العرب . وكان هذا سبباً في حرمان أرض القرى من قوة اليد العاملة ، حتى تعرض بعضها للخراب . ولكن الهجرة إلى المدن لم تكن شيئاً مرغوباً فيه . وحتى بدون هذه الهجرة كان في الكوفة والبصرة — ولدينا عن العراق فيما يتعلق بهذا كله أحسن المعلومات ، وتكاد تكون هي المعلومات الوحيدة التي بين أيدينا — عدد كبير من المسلمين الجدد أو الموالى ، وكانوا أول أسرى حرب قد أطلقوا ، وكان معظمهم من أصل فارسي ، وكانوا يكوّنون طبقة وسطى بين السادة من العرب وبين الرعايا من غير العرب ، ولم يكونوا يدفعون لا خراجاً ولا جزية ، ولكنهم لم يكونوا مقيدين في ديوان المقاتلة ، وعلى ذلك لم يكونوا يتقاضون إعطيات ، مع أنهم كانوا يرافقون ساداتهم السابقين في الحرب ويحاربون معهم ، وكانوا ملزمين أدبياً بأن يقوموا لسادتهم بكل أنواع الخدمات ، فكان موقفهم هذا ، لا هم أعلى ولا هم أسفل ، لا يرضيهم بطبيعة الحال . وكان من شأن الإسلام أن يدفعهم إلى الطموح ، فكانوا يسمعون إلى المساواة الكاملة بالعرب المسلمين . وقد أظهرت ثورتهم بقيادة المختار مدى الخطر الذي كان يهدد الدولة العربية من جانبهم . وقد قضى على هذه الثورة بإراقة دماء القامئين بها ، ولكن ملء الفجوة

التي أوجدها السيف في صفوفهم كان سهلاً بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حباً للإسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التي كانت لطبقة الموالي ، وكان هذا بمثابة فجوة في النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ؛ ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربي المميز لها .

ترك هذا النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، وكان نظاماً بدائياً بعض الشيء وقاصراً على الخطوط الرئيسية ، المجال لتطور كان يهدد بالقضاء عليه ، ولكنه تطور لم يحسب عمر حسابه من قبل . وفي عهد عمر نفسه بدأت تتجلى بعض نواحي القصور هذه ؛ ففي عهده كانت رغبة العرب في التملك متجهة في العادة إلى شيء غير اقتناء الأراضي والضيايع . ولم يكن الذين يلزمهم دفع الجزية من غير العرب قد بدأوا يدخلون في الإسلام على نطاق أضرب بيت المال ، وكان بيت المال ، إلى جانب ذلك ، يفيض بما كان يحمل إليه من غنائم لا تنقطع ، ولم يكن عليه أن يواجه نفقات المطالب الكبيرة التي جددت فيما بعد . أما في الجيل الثاني ، خصوصاً في عهد الأمويين ، فقد تغيرت الأحوال . ويرى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذي لحق ببيت المال ، فلم يُعفى العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه ، وفرض الخراج من جديد على قوم كان حتى ذلك الحين موضوعاً عنهم . ولا بد أنه عامل المسلمين الجدد الذي بقوا في قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب ، ولكنه حرم عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام والسيادة العربية ، وكان في بعض الأحيان يعيدهم إلى قراهم بالقوة . وكانت إجراءاته جديدة لا تتفق وما كان يعتبر حتى ذلك الحين عند الجميع على أنه الحق ، وقد أثارت صيحات إجماعية من كل من أصابه صنيع الحجاج من العرب ومن الموالي ، زاعمين أن ذلك ضربة في وجه الإسلام ؛ ولكن الحجاج لم يرجع عما صنع .

وكان عمر بن عبد العزيز يحكم ورعه مضطراً أن يسلك طريقاً آخر ، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافاً كبيراً ، ولكنه حاول أن يصل إليه من طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامى بالحق والعدل ، لحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضى بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجاً ، سواء أكان عربياً أم كان مولى ، وسواء أكان من الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا . ولكى يتفادى النقص فيما يدخل إلى بيت المال فإنه ، بعد مشاورة علماء المدينة من غير شك ، استنبط من السنة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكاً للمسلمين جميعاً أولاً ، ثم هى بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها ، بحيث لا يصح أن تقطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها إلى أيدي المسلمين ملكاً خاصاً معنى من الخراج ؛ وتبعاً لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتباراً من سنة مائة للهجرة . ولكنه لم يجعل لهذا المنع أنراً رجعياً ، أما إذا دخل المالك المزم بدفع الجزية فى الإسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته إلى أهل القرية التى هو منها ، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها مُتَقَبِّلاً لها — وليست القبالة خراجاً — ولكنه كان يستطيع أن يرحل إلى العواصم ، ولا شك أنه كان فى العادة يرحل ، (وهذا ما لم يرد الحجاج أن يسمح به) . أما هل كان يصبح بسبب هجرته إلى العواصم ، صاحب حق فى العطاء ؟ فهذه مسألة ليس من السهل أن يجاب عنها إجابة سريعة .

وعلى حين أن الاعتراف بحصانة المسلمين من دفع ضريبة الرعايا لم يجعل هناك محلاً إلا للنظام المأثور الذى لم يكن قد اقتلعت أصوله بل عاد من جديد ، كان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج إجراءً تشريعياً جديداً له أعماق الأثر ولكنه كان يستند على كل حال إلى الفكرة الأصلية فيما يتعلق بأرض الخراج ، وكان نتيجة المبدأ الذى عُمل به فى أيام الفتح ، وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمة .

بن بقيت دون تقسيم ؛ ولكن هذه النتيجة العملية لم تكن في أيام الفتح نفسها
قد استُنْبِطَتْ بعد .

ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ سياسته . ونظراً للطريقة التي حاول
بها ما أراد فإن الإضرار ببيت المال صار شيئاً لا يمكن تفاديه . ولم يمكن العمل
بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج ، ولم يمكن إيقاف انتقال الممتلكات ، كما
لم يمكن إيقاف تغيير الدين . ثم عاد الحال ، فيما بعد ؛ إلى العمل بما كان قد جرى
عليه الحجاج ، لكن مع تعديل كانت له من الناحية الموضوعية أهمية قليلة ، وإن
كان له من الناحية الشكلية شأن كبير ؛ ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية
لم تكن موجودة من قبل ، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص ، فلا تقع إلا على
غير المسلمين ، وكانت تسقط عن رؤوسهم إذا دخلوا في الإسلام ؛ أما الخراج
فصار يعتبر متعلقاً بالأرض المزروعة ، كما اعتُبر أنه لا يشين الشخص ، ويجوز ، بل
يجب ، أن يدفعه المسلمون أيضاً ، إذا كانوا يملكون أرض خراج . ولما كانت الأرض
المنزوعة هي أهم ما يُدْفَعُ عنه الخراج فإن إسقاط الجزية عن الداخلين في الإسلام
لم يكن في الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة^(١) . وهكذا أمكن أن يَفِيَّ
بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة ، وكان الأمر أمر تدقيق فقهي ،
أمر تخرج هدت إليه الضرورة القاهرة : لآتنا لو نظرنا بمنظار العقل السليم لوجدنا
أن الذي يؤدي الخراج في الحقيقة ليس هو الأرض بل مالك الأرض .

ونسلم عن إصلاح للخراج قام به آخر أمير الأمويين على خراسان ، وهو
نصر بن سيار ، فوضع نصر نظاماً يقضي بحمل الخراج مقداراً ثابتاً لا يتغير ، يُفْرَضُ
على مختلف مناطق أرض الخراج ، بحيث لا يعدو خراج الأرض . ومن أجل هذا كان

(١) لم يطالب المسلمين الجدد ، أعني الوالي في الكوفة والبصرة ، بدفع الجزية قط ؛
وهم إنما كانوا يتمرون بأنهم دون غيرهم ، لأنهم لم يكتفوا بقبول ديوان المقائلة ولم تكن لهم
أعطيات ، وكانت مطالعهم في هذا الباب متجهة إلى مساواتهم بالمسلمين من العرب في الحقوق .

لا بد أن يساهم ملاك الأراضي جميعهم بنسبة ما يملكون ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، وعرباً كانوا أو فرساً . ولكن فُصِّلَت الجزية عن الخراج وأصبحت مقصورةً على المجوس واليهود والنصارى ، ولا يدفعها العرب المسلمون ولا الداخلون في الإسلام . أما نقص ما يدخل إلى بيت المال بسبب ازدياد عدد من يدخلون في الإسلام وتسقط عنهم الجزية فقد حُسِبَ حسابُه مقدماً ؛ ولم يُرَ هناك بأس من أن تكون ضريبة الخراج وحدها هي الدخل الضروري الثابت لبيت المال^(١) . وكان هذا النظام جديداً وغير معروف من قبل ، وهو قد انتشر بعد قليل من الزمان أو كثير إلى سائر أنحاء الدولة الإسلامية ، لأنه كان يوفق توفيقاً بارعاً بين المصلحة المالية وبين مبدأ إعفاء مواطني الدولة التيوقراطية من دفع الإتاوة . ولا شك أن الفقهاء قد قاموا في ذلك بحمة التوليد والتخريج من النصوص ، وكان ذلك في الحقيقة نتيجة لعمل استنباطي معقد من جانبهم غاية التوفيق بين المالب متضاربة . غير أنهم فيما بعد نظروا إليه على أنه الحق الذي لا شك فيه . باعتبارهم موجوداً من أول الأمر ؛ ولكن لو أنه كان في الحقيقة موحداً من أول الأمر لما قامت صعوبات قط .

٢ — ومن عادة فقهاء الإسلام دائماً أنهم ، إذا تقررت قاعدة ما شيئاً فشيئاً نمت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حيناً بعد حين ، أرجعوها إلى البدايات الأولى وجعلوا لها صبغة مقدسة بردهم إليها إلى سنة النبي وسنة الخلفاء الأولين^(٢) .

(١) يجد الفارسي هذا الكلام أكثر تفصيلاً في الجزء الخاص بخراسان من الفصل الثامن ، ويستطيع أن يرجع إليه .

(٢) [لا شك أن فيما يقوله المؤلف هنا وفيما سبق كثيراً من المبالغة ، لأن القواعد التي كانت جديدة في صورتها أو تفاصيلها لم تكن كذلك في أصولها ومصادرها الشرعية . وطبعي أن يكون هناك فرق بين الصورة القانونية التفهيمية للأحكام وبين صورتها في النصوص الأولى أو في السنة الأولى للأئمة عن النبي أو بين الصور القانونية الفرعية وبين القواعد العامة التي تنضم إليها النصوص من القرآن أو السنة ؛ وهذا معروف في كل العاوم الإسلامية مما لا يحول صانع الفقهاء عملاً متكاملاً أو ادعاء من غير استناد إلى نص قرآني أو سنة نبوية أو إلى ما يؤخذ منهما من طريق الفياس — المرجع] .

ولذلك فإنهم يردون الصورة التي لم يصل إليها نظام الإدارة والخراج إلا بعد تردد طويل إلى عمر بن الخطاب ، مع أن عمر لم يخط في ذلك إلا الخطوات الأولى الأساسية . فإذا أراد الإنسان أن يحكم على ما فعله الحجاج وعمر بن عبد العزيز حكماً صحيحاً فإن من الواجب عليه أن يأخذ حذره من غلو الفقهاء في إيمانهم بأن كل شيء كان موجوداً في التاريخ السابق . والأجدد به أن يتمسك أول ما يتمسك بما يذكره المؤرخون على الحقيقة وبما يذكره أقدمهم بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا أكثر احتراماً للوقائع ، ولأنهم اعتمدوا في بعض ما قالوا على وثائق ولم يذكروا القواعد العامة التي وضعها الحكماء بقدر ما ذكروا القرارات المتفرقة ؛ وهذه لا يصح أن يتسرع الإنسان فيعتبرها قواعد عامة من غير تفكير فيها ، وهو يستطيع بعد ذلك أن يزن ما يجده عند الفقهاء من مادة تاريخية تصلح للإثبات بهذا الميزان ، ففي هذه المادة كثير مما لا يدخل في بضاعة الفقهاء ولا يتمشى مع منازعهم . وإن آرائى عن هذه المسألة الصعبة المختلف فيها إنما اتضحت لى شيئاً فشيئاً ودون تكلف ؛ والمادة التي كانت أساساً لآرائى لم أجمعها في أيام معرفتى بها ، وها أنا ذا أجمع منها ما تصل إليه يدي ، وفي ذلك مجال لإضافة هذا أو ذاك مما لم أذكره في هذا الموجز الذي قدمته .

فنعرف من البلاذرى (ص ٣٦٨) أن الحجاج رد إلى الخراج أرضين كانت عشيرة معفاة من الخراج بسبب إسلام أهلها أو بسبب انتقالها إلى أيدي قوم من العرب . وفي النص الذي ذكرناه في ص ٢٣٥ — ٢٣٦ مما تقدم ، نقلاً عن ابن عبد ربه ، أن الحجاج أخرج الموالى من حواضر الأمصار وأعادهم إلى قراهم وبلدانهم وقال للموالى : « أنتم علوج وعجم اقراكم أولى بكم » ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها ، وكان الذي تولى ذلك رجل من بنى سعد بن عجل بن لجيم يقال له خراش بن جابر ؛ قال الشاعر :

وَأَنْتَ مِنْ نَقَشِ الْمَجْلِيِّ رَاحَتَهُ وَفَرَّ شَيْخُكَ حَتَّى عَاذَ بِالْحَكَمِ^(١)
وَقَالَ شَاعِرٌ آخَرُ :

جَارِيَةٌ لَمْ تَدْرِ مَا سَوَّقُ الْإِبِلِ^(٢) أَخْرَجَهَا الْحِجَابُ مِنْ كَنْ وَظَل
لَوْ كَانَ عَمْرُو شَاهِدًا وَابْنُ جَبَل مَا نَقَشْتَ كَفَّاكَ مِنْ غَيْرِ جَدَل
وَلَمَّا عَيْنَ نُوْحِ بْنِ دَرَّاجٍ ، أَحَدِ الْمَوَالِي ، قَاضِيًا عَلَى الْبَصْرَةِ فِيمَا بَعْدَ ، قَالَ
فِيهِ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ :

إِنْ الْقِيَامَةُ ، فِيمَا أَحْسَبَ ، اقْتَرَبَتْ إِذَا كَانَ قَاضِيَكُمْ نُوْحُ بْنُ دَرَّاجٍ
لَوْ كَانَ حَيًّا لَهُ الْحِجَابُ مَا بَقِيَتْ صَحِيحَةٌ كَفَّهُ مِنْ نَقَشِ حِجَابِ^(٣)

وتشهد بهذا أيضاً الروايات الموجودة في كتاب الطبري (ج ٢ ص ١١٢٢ و ١٤٣٥ وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣٣٦) . فيذكر أنه لما كتب
عمال الخراج إلى الحجاج أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا
ولحقوا بالأمصار ، كتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية
فليخرج إليها . فخرج الناس فمسكروا وجعلوا يبكون ويقولون : واهمدها ! وجعلوا
لا يدرون أين يذهبون . فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيسكون
مهم . وقدم ابن الأشعث على بفتة ، فاستنصر القراء أهل البصرة في قتال الحجاج
مع ابن الأشعث^(٤) .

ونجد عند البلاذري (ص ٣٦٨) أن عمر بن عبد العزيز أبطل ما فرضه

(١) كان الحكم بن أيوب الثقفي خليفة الحجاج في البصرة .

(٢) يعني أنها لم ترتحل قط .

(٣) وكذلك كان حسن البصري الذي تولى القضاء أيام عمر بن عبد العزيز أحد الموال .

(٤) [بين النص كما ذكره صاحب كتاب أنساب الأشراف وبينه كما حكاه البلاذري فرق]

في بعض الكلمات . ولا شك أن فيه خطأ أو نقصاً ، وقد اخترنا هذه القراءة ، وليرجع القارىء
إلى الأصول العربية - المترجم] .

الحجاج على المسلمين من دفع الخراج . ولم يكن ذلك في ميسان وحدها بل في سائر ما عداها . وفي كتاب لعمر بن عبد العزيز كتبه إلى أمير الكوفة وذكره الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) قرر عمر القاعدة الأساسية ، وهي ألا خراج على من أسلم من أهل الأرض . ويقول تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦٢١٠ من تاريخ الخليفة) أن عمر أعتق النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من الخراج .

أما ما اتخذ عمر بن عبد العزيز من إجراء حرم به بيع أرض الخراج للمسلمين بعد سنة مائة للهجرة ، فيشهد به نص في كتاب ابن عساكر عن تاريخ دمشق ، ذكره باللغة العربية الفريد فوق كريم Alfred von Kremer في كتابه لمحات من تاريخ الحضارة في بلاد الإسلام = (Kulturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams ص ٦٠ والصفحات التالية وترجم بعضه في كتابه في عن تاريخ حضارة المشرق في عهد الخلفاء بعنوان Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, I, p. 76ss. وهذا النص متعلق بالشام ، وهو أيضاً مهم ، لأنه يبين أن الأصول التي عمل بها في الشام شبيهة بالأصول التي عمل بها في العراق . ومعلوماتنا عن العراق خير من معلوماتنا عن غيرها .

يروى ابن عساكر « أن عمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع رأيهم على إقرار ما كان بأيديهم ^(١) من أرضهم بمرونها ويؤدون عنها خراجها إلى المسلمين ؛ فمن أسلم منهم رُفِعَ عن رأسه الخراج ^(٢) ، وصار ما كان في يده من

(١) [لا يدل النص على ما يعود إليه الضمير في : « بأيديهم » ، والظاهر أن المقصود ، كما يلى ، المناوون الذين أسلموا ولم يسلموا — المترجم] .

(٢) يلاحظ أن كلمة الخراج هنا تستعمل في الدلالة على ما تدل عليه كلمة الجزية .

الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ،
ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له في ديوان المسلمين^(١) ، وصار من
المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؛ ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان في يديه
من أرضه من أصحابه من أهل قريته^(٢) ، لا نقلا بها صافية للمسلمين . وسموا من
ثبت منهم على دينه ذمة للمسلمين ، ويرون أنه لا يصح^(٣) لأحد من المسلمين
شراء ما في أيديهم من الأرضين كرهاً ، لما احتجوا به على المسلمين من إمساكهم
كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم . فهاب لذلك أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر غشهم^(٤) وأخذ ما كان في أيديهم
من تلك الأرضين ، وكرهوا للمسلمين أيضاً شراءها طوعاً لما كان من ظهور
المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عنها ، ولتركهم كان البعثة إلى المسلمين
وولاة الأمر في طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم ، قالوا : وكرهوا شراءها منهم
طوعاً لما كان من إبقاء عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من
المسلمين المجاهدين ، لا تُباع ولا تورث ، قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد
من المشركين ولما ألزموا أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد قوله عز وجل :
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ إِلَى تَمَامِ الْآيَةِ . فقلتُ لغير
واحد من مشايخنا ممن كان يقول هذه المقالة : فمن أين جاءت هذه القطائع التي
بين ظهرائي القرى الراحنة^(٥) والمزارع التي بيد غير واحد من الناس ؟ فقال :

(١) كان طبيعياً أن يهاجر من يدخل في الإسلام إلى المدن التي أسست للجيش العربية
ولم يبق على الديانة القديمة إلا الوثنيون .

(٢) في الأصل قرابته وهو خطأ .

(٣) [في الأصل : يصلح ، والأغلب أنه خطأ — ويشير ثابها وزن إلى خطأ وقع فيه
فون كريم في ترجمته للأصل العربي مما لا عمل لذكره هنا — المترجم] .

(٤) في الأصل : نسهم ، وهو خطأ .

(٥) في الأصل : الراحنة ، وهو خطأ .

إن بدء هذه القطائع أن ناساً من بطارقة الروم ، إذ كانت ظاهرة على الشام ، كانت هذه القرى التي منها هذه القطائع ، كانت من الأرضين التي كانت بأيدي أنباط القرى . فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلك المزارع ، فلحقت بأرض الروم ، ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية المسلمين موقوفة يُقبَّلها وإلى المسلمين كما يقبَّل الرجلُ مزرعته ... قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبايلها بيت المال فتخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في أمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجرأه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أسرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، يسأله أن يُقطعه إياها ليقوى بها على ما وصّف له ، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرّها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين . قالوا : ثم إن أناساً من قرش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعها إياها ، ففعل ، فمضت لهم أموالاً يبيعون ويهرون ويورثون . فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحداً شيئاً ، سأله أشراف الناس القطائع منها ، ففعل . قالوا إن عبد الملك سئل القطائع ، وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء ، فنظر عبد الملك إلى أرض من أرض الخراج قد باد أهلها ولم يتركوا عقباً [فد]أقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عشراً ورآه جائزاً له ، مثل إخراجها من بيت المال الجواز للخاصة . قالوا : فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً ، فسأل الناس عبد الملك والوليد

وسليمان قطائع من أرض القرى التي بيد أهل الذمة ، فأبوا ذلك عليهم ؛ ثم سألهم أن يأذنوا لهم في شراء الأرضين من أهل الذمة ، فأذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك في الدواوين ووضعوا خراج تلك الأرضين عن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيروها لمن اشتراها ، يؤدى العشر ، يبيعون ويمهرون ويورثون . قالوا : فلما ولي عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التي أقطعها عثمان معاوية رضى الله عنهما ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان ، فلم يردها عمر على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجاً ، وأمضاها لأهلها تؤدى العشر . قال : وأعرض عمر عن تلك الأشرية بالإذن لأهلها فيها لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من ثماريـث ومهور النساء وقضاء الديون ، فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك . قال : وأعرض عن الأشرية التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولادة الأمر ، لما وقع في ذلك من الموارـيـث واختلاط الأمر ، وجعل الأشرية وغير الأشرية سواء وأمضاها لأهلها ولمن كان في يده ، كالقطائع للأرض ، عشر ليس عليها ولا على من صارت إليه بميراث أو شراء جزية . قالوا : وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس في سنة مائة ، وأعلمهم أنها لا جزية ^(١) عليها وأنها أرض عشر ، وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود ، وسمى سنة مائة المدّة ، فسيهاها المسلمون بعده المدّة . فأمضى ذلك في بقية ولايته ، ثم أمضاها يزيد وهشام ابنا عبد الملك . قالوا : فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسُنَيَّات ، ثم اشتروا أشرية كثيرة كانت بأيدي أهلها يؤدون العشر عليها ولا جزية عليها . فلما أفضى الأمر إلى أبي جعفر عبد الله بن محمد ابن أمير المؤمنين رُفِعت إليه تلك الأشرية ، وأنها تؤدى العشر ولا جزية عليها ، وأن ذلك أضرت بالخراج وكسره ، فأراد ردها إلى أهلها ، [فـ] قيل له : وقعت في الموارـيـث والمهور واختلط أمرها [فـ] بيعت المعدلين إلى كور الشام سنة أربعين

(١) يلاحظ استعمال كلمة الجزية هنا في معنى كلمة الخراج .

أو واحد وأربعين [ومائة]، منهم عبد الله بن يزيد إلى حمص، وإسماعيل بن عياش إلى بعلبك، في أشباه لهم، فعدّلوا تلك الأشرية على من هي بيده، شراء أو ميراث أو مهر، وعدّلوا ما بقي بأيدي الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى، ولم تعدل القوطة في تلك السنة، وكان من بيده شيء من تلك الأشرية من تلك القوطة يؤدي العشر، حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد هضاب بن طوق ومحرز بن زريق، فعدّلوا الأشرية، وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الأشرية خراجاً وأن يمضوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على ما بقي منها بأيدي الأنباط وعلى الأشرية المحدثه من بعد سنة مائة إلى السنة التي عدّل فيها. قال: ونا ابن عايد نا الوليد بن مسلم حدثني سليمان بن عتبة أن أمير المؤمنين عبد الله بن محمد سأله في مقدمه الشام سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الأرضين التي بأيدي أبناء الصحابة ويذكرون أنها قطائع لأبائهم قديمة؛ فقلت: يا أمير المؤمنين! إن الله تبارك وتعالى لما أظهر المسلمين على بلاد الشام وصالحوا أهل دمشق وأهل حمص، كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورهم وإثخانهم في عدو الله، [و] عسكروا في مرج بردى ما بين المزة وبين مرج شعبان جنبتي بردى، وكانت مروجاً مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها، ليست لأحد منهم، فأقاموا بها حتى أوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً، فأحيا كل قوم محلّتهم وهبأوا فيها بناء، فرُفِعَ ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم، فبنوا الدور ونصبوا الشجر، ثم أمضاه عثمان ومن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين. فقال: قد أمضيناه لأهلها.

وابن عساكر أحد مؤلفي القرن السادس للهجرة، وهو قد كتب في ظل الرأي الذي كان، في أيامه، قد مضى عليه زمان طويل على أنه الرأي السائد، وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة — وكانوا بعد وفاة النبي المنظمين الذين يعتد برأيهم في الحكم في الأحوال التي تجددت بسبب الفتح — هم الذين

وضعوا في كل المسائل الميزان الحق لما يحدث بعدهم ، وأن هبة أرض الصوافي وبيع أرض الخراج غلّ فاسد يخالف الحق ، وأنه لم يحدث إلا منذ عصر الفساد الذي جاء مع خلافة عثمان وبنى أمية . ولكن ليس هناك ما يبرر للإنسان أن يشك في أن ابن عساكر استقى ما ذكره من مراجع قديمة ، ما دام ما يذكره غير متأثر بالرأى السائد الذي تكلمنا عنه . والأشياء التي يذكرها هي أشياء إيجابية لا يمكن أن تكون مخترعة . ونستطيع أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافي الدولة وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين ، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج . أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لأحد فإن ابن عساكر لا يذكر ذلك ، ولكن يمكننا أن نفترضه مطمئنين^(١)

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد عارض في تجريد الدولة من أرض الخراج من طريق بيع أهلها لها ، فإنه لا يمكن أن يكون قد رضى بأن تفقدها الدولة من طريق دخول أهلها في الإسلام . ويظهر أنه اتخذ إجراءات من شأنها أن تجعل

(١) وما يذكره ابن عساكر عن زوال وانتهاء أرض الصوافي تكله رواية تستلفت النظر نجدها عند البلاذري ص ٢٧٢ فابعدا وعند يحيى بن آدم ص ٤٥ . ويقول يحيى بن آدم : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصفى السواد عشرة أصناف : أصفى أرض من قتل في الحرب ومن حرب من المسلمين ، وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله وكل مفيض وكل دير يريد ... وكان خراج ذلك سبعة آلاف ألف (درهم) . فلما كانت موقعة (دير) الحجاج أحرق الناس الديوان ، فأخذ كل قوم ما يليهم . [ويذكر البلاذري أن عمر أصفى عشر أرضين من السواد ... الآجام ومفابض الماء وأرض كسرى وكل دير يريد وأرض من قتل في المعركة وأرض من حرب ... ولم يزل ذلك ثابتاً حتى أحرق الديوان أيام الحجاج بن يوسف فأخذ كل قوم ما يليهم — ولا تذكر الأصناف العشرة لا عند يحيى بن آدم ولا عند البلاذري ، وذلك بسبب سهو الرواة — المترجم] . ولم يكن الخطر يهدد أرض الصوافي بسبب أن الخلفاء كانوا يهبون لمن يشاؤون أجزاء منها ، بل كان في الناس جميعاً غضب على الممتلكات الواسعة للدولة والخلفاء وكبار الناس ، وكانوا يحاولون أن يقضوا على الأساس التاريخي الذي يقوم عليه هذا الحق الذي لم يرضوا عنه في تملك الأرض ، أو هم كانوا يحاولون أن يطمسوه .

تطبيق المبدأ الذي يقضى بإسقاط الجزية غنم يدخل في الإسلام غير ضار ببیت المال ، وأن تجعل لهذا المبدأ شأنًا معنويًا أكثر منه ماديًا^(١) : فعند يحيى بن آدم (ص ٤٤) أن عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا في الإسلام إلى عُشرٍ ، وأنه فوق ذلك أعلن أن من بقى منهم على جدوله^(٢) يدفع ما كان يدفعه من قبل ، وأن من يهاجر إلى المدن تُردُّ أرضه إلى أهل القرية . على أن إلزام من يبقى على جدوله من الداخلين في الإسلام بالاستمرار في أداء الخراج لا يتفق مع ما هو معروف لنا من جهات أخرى ؛ ولكن التناقض يختفي إذا عرفنا أن هذا الأداء لم يكن يعتبر خراجًا ، بل كان يعتبر بمثابة قَبَالَةٍ^(٣) ولا شك في صدق ما يقوله الخليفة في الموضع الذي أشرنا إليه من قبل ، من أنه يرى أن أرض الخراج وما يخرج منها للدولة من غلة إنما هو في الله على المسلمين^(٤)

(١) من العسير وجود أدلة على ما يقال من أن ملايين دخلت في الإسلام ، في عهد عمر ابن عبد العزيز ، على أثر إسقاط الجزية .

(٢) إن أرض الخراج في العراق هي الأرض التي ترويهما الجداول ، وكانت أرض العشر لا توجد إلا خارج ما يرويه النهر .

(٣) جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٣) أن دهقانًا من أهل عين التمر أسلم ، فقال له على عليه السلام : « أما جزية رأسك فتزعمها ، وأما أرضك فللـمسلمين ؛ فإن شئت فرضنا لك ، وإن شئت جعلناك قهرمانًا لنا ، فما أخرج الله عز وجل أئمتنا به » . [وفي كتاب الخراج أيضاً ما يلي : أسلم دهقان من أهل السواد في عهد على عليه السلام ، فقال له على : « إن أقت في أرضك رفعت الجزية عن رأسك وأخذنا منك أرضك ، وإن تحولت عنها فتحن أحق بها » . والمقصود من أن يكون هذا الدهقان قهرمانًا هو أن يكون متوليًا للأرض بالنيابة عن الخليفة ، يزرعها ويعطيه ما يخرج منها ، وهذا هو المقصود أيضاً من عبارة « تقبيل » الأرض ، أي أن مالـكها الحقيقي يقبلها لمن يشاء ، أي يضمها إياه بحسب الاصطلاح الحديث على مقدار يقدمه صاحبها ، وهو المسمى القبالة . — المترجم] .

(٤) [نابنا المؤلف في كلامه بقدر الإمكان ، وفي كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٤) أن أناساً من أهل السواد طلبوا رفع الجزية عن أرضين في أيديهم ووضع الصدقة عليها ، ومعنى هذا تحويلها من أرض خراجية إلى أرض عشرية . وسأل الوالي عمر بن عبد العزيز في ذلك فكتب إليه : إني لا أعلم شيئاً هو أنفع لنا من المسلمين ومادتهم من هذه الأرض التي جعلها الله فينا لهم ، فانظر من كان منهم له بها أرض أو مسكن فاجر على كل جدول منها ما كان يجري قبل ذلك ، ومن لم يكن له بها أرض أو مسكن فارددها إلى أهلها — المترجم] .

وأيضاً إذا كان عمرو بن عبد العزيز لم يستطع أن يجعل لما قرره من عدم إنقاص ملك الدولة أثراً رجعياً ، فإنه أراد أن يحتفظ للمستقبل بجملة أرض الفيء كما هي . وهو وإن لم يمسّ حق الإعفاء من الجزية والخراج بالنسبة للمسلمين — قدماء كانوا أو محدثين — فإنه لم يرد الإضرار بالحق التاريخي القديم من طريق تغييرات جاءت بعده ، ولا انتقال المزارع إلى ملكية الأفراد ، لأن هذه المزارع في الحقيقة ملك لجملة المسلمين ، لا يصح خروجها عن ذلك .

أما فيما يتعلق بالولايات التي كانت قد مضى على فتحها ما يقرب من قرن ، وكان نظام الخراج فيها ، طبقاً لقانون الفتح ولقانون الغنائم الإسلامي في صورة معدلة بعض التعديل ، قد وُضِعَ وضعاً نهائياً ، فقد حافظ عمر بن عبد العزيز في الجملة على الوضع المستند إلى هذا الأساس التاريخي ودرأ عنه ما يهدده من مؤثرات . أما في البلاد التي لم يغزها المسلمون إلا في عهده ، أو على الأقل البلاد التي لم يكن قد تم إخضاعها إخضاعاً حقيقياً ، مثل بلاد ما وراء النهر والهند وإفريقية والأندلس ، فقد فعل عمر غير ذلك . ويجب فيما يتعلق بصنيعه هنا أن ننظر إليه على حدته ولا يصح أن نخلطه بغيره ، فهو يقوم على اعتبارات خاصة به . فالإسلام يقضى على المسلمين ألا يبدأوا بقتال قوم وثنيين إلا بعد أن يدعواهم إلى الدخول في الإسلام وطاعة الله ؛ فإن أسلموا دخلوا في الدولة التیوقراطية ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولا خراج عليهم . هذا ما قضى به الإسلام ، لكن المسلمين لم يعملوا به تماماً ، بل هم أرادوا من الجهاد أن يأتي لهم بالأموال والغنائم ، وصار هذا هو غرضهم من الجهاد ، ولم يكن الغرض نشر الدين . أما عمر بن عبد العزيز فإنه كره الجهاد وأراد ، على العكس من ذلك ، أن تدخل الأمم في الإسلام دخولاً سلمياً ؛ وفي هذه الحالة كان لا يطالبهم بخراج . أما الكلام عن إسقاط الفيء فلم يكن موجوداً لأنه لم يكن هناك في .

فيحكي البلاذري (ص ٤٤١) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك

السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكانت قد بلغتهم سبرته ومذهبه ، فأسلم هؤلاء الملوك وتسموا بأسماء العرب . ويحكي البلاذري أيضا (ص ٤٢٦) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر بدعوى إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، ورفع عمر الخراج عن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم^(١) . وجاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٣ — ١٣٥٤) أن رجلاً من الموالى بكفى بأبى الصيذاء ، وكان فاضلاً في دينه ، ذهب مع رجلين من العرب في وفد إلى عمر بن عبد العزيز ، فتكلم العربيان ، ولم يتكلم هو ، فسأله عمر إن كان من الوفد ، فلما أجاب بنعم ، طلب منه عمر أن يتكلم ، فشكا من أن عشرين ألفاً من الموالى يغزون في خراسان مع العرب بلا عطاء ولا رزق ومن أن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، كما شكا من أن أمير خراسان رجلٌ عصبىٌ جافٌ ، يقوم على المنبر فيقول لأهل خراسان : « أتيتكم حقياً ، وأنا اليوم عصبىٌ ؛ والله لرجلٌ من قومي أحبُّ إليَّ من مائة من غيرهم ! » . ثم قال هذا المولى عن الوالى إنه سيفٌ من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . فأعجب عمرُ بكلامه وقال : « إذن مثلك فليوفد » . ثم كتب عمر لأمير خراسان . وكان الجراح بن عبد الله الحكيم : نظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية . فسارع الناس إلى الإسلام ، فقبل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامتنحهم بالختان ! فكتب بذلك إلى عمر ؛ فكتب إليه عمر « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه خاتناً » وحكى البلاذري (ص ٤٢٢) والطبري (ج ٢ ص ١٣٦٤) فما بعدها) أنه لما تولى الخلافة عُمر بن عبد العزيز وظهر عدله ، وقد عليه قومٌ من أهل سمرقند طمعاً في عدله ، ورفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم ظلمهم وأخذ

(١) [في كلام المؤلف أن عمر رفع الخراج عن أهل ما وراء النهر وفرض لهم أعطيات ، ولكننا تابعنا النص الذي اعتمد عليه وجئنا بالكلام أكثر تفصيلاً — المترجم] .

أرضهم ودخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر . فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب إليهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ليعود الحال على ما كان قبل عهد قتيبة . فحكم القاضي بإخراج المسلمين من عرب سمرقند على أن يُنابذوا أهل سمرقند على سواء ، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً وعنوة . فذكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين ، فأقاموا بين أظهرهم^(١) .

وكذلك كتب عمر كتباً يدعو البربر إلى الإسلام ، فقرأها عليهم واليه إسماعيل بن عبد الله ، فغلب الإسلام على المغرب . وعلى أثر ذلك حطّ عنهم الجزية ، وكانوا يؤدون الجزية بأن يقدموا أبناءهم عوضاً عن المال . وقد أمر عمر بأن من كانت عنده بنت من البنات اللاتي قدمن في الجزية بأن يخطبها إلى أبيها فيتزوجها منه ، أو أن يردها إلى أهلها (البلاذري ص ٢٢٥ و ٢٣١) .

ونتم إجراء آخر غريب جداً في بابهِ ، حكى صاحب كتاب Cont Isid 186. أن السمع بن مالك اتخذ في الأندلس ، وهو وإن لم يكن من صنع عمر نفسه فهو من غير شك يتمشى مع سياسة عمر وكان بتكاليف منه ، وهو إجراء يتعلق بالأرض ، يقول الكتاب المتقدم :

Zama ulteiolem vel(=et) citeriolem Iberiam proprio stilo ad vectinalia inferenda describit. Predia et manualia vel quidquit illud est, quod olim predaviliter indivisum retentabat in Spania gens omnis arabica, sorte sociis dividendo partem ex omni re mobili et immobili fisco adsocia . (٢)

(١) [فصلنا ما ذكر المؤلف طبقاً للنص الذي اعتمد عليه ، لأننا لو اقتصرنا على الترجمة لأصبح الكلام مبتوراً والمعنى ناقصاً . والمؤلف يقول إن عمر أبي أن يعطى مدينة سمرقند لأهل السند ، وإن كان قد عرف أن العرب أخذوها منهم غدرًا ، وأنه لم يصلح ما كان قد وقع منذ سنين . وحقيقة الأمر هي كما ذكرناه نقلاً عن النصوص — المترجم] .

(٢) قد غيرت ترقيم Mommsen ، وأصلحت كلمة preda ، فجعلتها : predia طبقاً =

وإذن فعلى حين أن جزءاً من الأرض المفتوحة تُرك في يد أهله السابقين في مقابل تأدية الخراج ، فإن جزءاً آخر كان حتى ذلك الحين قد احتُفِظَ به ثم وُزِعَ على الجند بعد أخذ الخمس منه . ولا نعرف شيئاً عن نوع هذا الجزء الذي كان محجوزاً ، وربما أنه كان يتشكون من نظائر تلك الأرضين التي اعتبرت صوافي للدولة في العراق والشام^(١) . وكانت يد عمر بن عبد العزيز فيما يتعلق بالأندلس لا تزال مطلقة بعض الشيء ، ولا شك أنه كان يقصد من هذا الإجراء الذي اتخذته أن يوثق صلة المحاربين العرب ببلاد الأندلس من طريق تملكهم أرضاً فيها . ويقال إنه فيما صنع اعتزى إلى عمر بن الخطاب قائلاً : لولا أن عمر أقطع الجند أرضاً في الثغور الهندية لما أمكن سدّها^(٢) . ولا شك أن عمر ابن الخطاب لم يكن له شأن بالهند ، وأنه إنما كان يريد بوجه عام أن يجعل الأرض ملكاً للدولة بما وسعه ذلك . ولكن لا بد أن يكون صنيع عمر بن الخطاب دائماً هو المثل السابق ، ولو كان في مسيره يتردد ذات اليمين وذات الشمال . على أنه مما يجدر ملاحظته مقدار قلة اتفاق المأثور القديم مع الآراء التي جاءت بعده من أن العرب لم يكن لهم حق في أن يملكوا أرضاً في الأمصار على الإطلاق . وأضيف أخيراً إلى ما قدمت ذكره هنا بعض الروايات المتعلقة بإجراءات

= لما يلى ، وهو أن *res mobilis* معناها هو *manualia* وأن *res immobilis* معناها هو *predia* .

[أما ترجمة هذا النص اللاتيني فهي : نظم السمع على طريقته الخاصة ايبريا البعيدة أو (= و) القرية ، وذلك بقصد فرض الخراج . وكان العرب في إسبانيا قد احتفظوا بالضباع والعقار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل ، نفسه السمع بالقرعة على الأصحاب بعد أن ضم جزءاً من كل شيء ثابت ومنقول إلى بيت المال — الترجمة] .

(١) قارن الهامش المذكور في ص ٢٨١ بما تقدم ، وهو على كل حال لم يكن الخمس . [في النص العربي الذي اعتمد عليه دوزى أن موسى بن نصير بعد فتح الأندلس لم يكن قد أتم تقسيم أرض الغنوة على الجيش بعد أخذ خمسها لبيت المال ، فيجوز أن ما بقى هو المقصود . أما الإقطاعات التي أقطاها عمر للجند فكانت من الخمس — المترجم] .

(٢) Dozy, Recherches (1881), I, 76.

مالية أخرى اتخذها عمر بن عبد العزيز ، مبتدئاً بما يمس المسلمين منها . كانت أرض فذك ، قرب المدينة ، مما أفاء الله به على رسوله ، ثم انتقلت بعد وفاته إلى وإلى الأمر من المسلمين ، فتولاها الخلفاء من بعده واصطفوها الأمويون ، فأقطعها معاوية لمروان بن الحكم ، ثم آلت آخر الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فردّها إلى ما كانت عليه أول أمرها وأعطاه لآل النبي عليه السلام ، وهم العلويون وبذلك ألغى عمر بن عبد العزيز ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر . ومعنى هذا أنه لم يكن يتبعهما اتباعاً تاماً . وكذلك ردّ عمر على إبراهيم بن محمد بن طلحة داره التي كانت قد أخذت منه في مكة (البلاذري ص ٣٠ — ٣٢ ، والطبري ج ٢ ص ١٤٨٣ فما بعدها) .

وفي اليمن كان محمد بن يوسف أخو الحجاج قد أساء السيرة وظلم الرعية وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (البلاذري ص ٧٣) . وفي عمان كانت عشور النمر والحب تقسم في فقراء أهلها ومن سقط إليها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل ، فبيع مرة وحمل ثمنه إلى بيت مال البصرة ، فأمر عمر برد الثمن ليصرف فيما كان قد أمر بصرفه فيه (البلاذري ص ٧٧ فما بعدها)^(١) . ولم يكن المأثور المعمول به في جميع أجزاء جزيرة العرب على هذا النحو ، بل كان يختلف هنا وهناك بحسب اختلاف الظروف التي فيها دخلت القبائل والبلاد في الإسلام أوّل الأمر^(٢) ، وبحسب كونها ظروفاً طيبة أو غير طيبة : فنلّا نظراً لأهمية ثغر خراسان أمر عمر بن عبد العزيز بإبقاء خراجها فيها لكي تصرف منه الأعطيات ، وكتب إلى واليه بذلك وبأنه مستعد أن يحمل إليه أموالاً أخرى ، إن كانت أموال الخراج

(١) [جئنا بالكلام أكثر تفصيلاً بحسب الأصل ليكون مفهوماً — المترجم] .

(٢) راجع كتابنا 4. 95 Skizzen .

لا تكفى (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦) . ولكن لا يصح أن نعتبر ما فعله عمر بالنسبة لخراسان قاعدة عامة سار عليها ، لأن ما فعله بخراسان كانت له أسباب خاصة .

أما فيما يتعلق بأعطيات المقاتلة من المسلمين في مدن المعسكرات وفي حاميات الثغور فقد كانت الحكومة تسير في أول الأمر على مشيئتها الخاصة ، فكانت تسقط من ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ، وكانت تزيد في الأعطيات أو تنقصها كما تشاء ، وكان هذا دائماً سبباً للشكوى . وذلك أن أموال الفئ التي تجرى منها الأعطيات إنما هي بحسب قانون الغنائم لورثة جنود الفتح وحدهم ، ولم يسكت لهم صوت قط في المطالبة بأن يُعطى إليهم كل مال الفئ . ولا يصح أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز — وعلياً من قبله ، كما يزعم البعض — عارضهم في ذلك ، لأن عمر ما كان ليقدم أبداً على اتخاذ مثل هذا الإجراء بدون تفكير (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها) ، بل ذهب عمر في إرضاء المطالب التي كانت توجه إلى بيت المال إلى حد بعيد ، فوسع دائرة أصحاب الأعطيات ، حتى صارت أكثر شمولاً لغير العرب مما كانت عليه من قبل ، وهو لم يقتصر على إعفاء الموالى الذين كانوا يحاربون مع العرب في خراسان من الخراج ، بل جعل لهم أرزاقاً وأعطيات ، وكتب لواليه على خراسان بعده بإرسال أموال إن لم تسكن في ذلك أموال الخراج في خراسان ؛ ولكن لم تدع الحاجة إلى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٦) . على أنه يجب أن نشك كل الشك في صحة ما يُقال من أنه كان يعتبر كل من يعتنق الإسلام ويلحق بالكوفة والبصرة مهاجراً ويجعل له من الحقوق ما للذرى الفاتحين العرب : ذلك لأن هذا ما لم يكن يمكن تبريره من الناحية الفقهية وكان يكون له من الناحية العملية أسوأ النتائج . وكان عمر بن الخطاب قد فرض إعيال المقاتلة ، وأمضى عثمان ومن بعده ذلك ، وجعلوا الأعطيات مورثة لذرية الميت ؛ وجاء معاوية فضيق دائرة

أصحاب الأعطيات من ذراري المقاتلة ، ثم جاء عبد الملك فأوقفها كُليَّةً .
فلما جاء عمر بن عبد العزيز أعادها (البلاذري ص ٤٥٨ فما بعدها والطبري ج ٢
ص ١٣٦٧) . وأمر عمر بن عبد العزيز بإعانة فقراء المسلمين ، خصوصاً من كان
يريد الحج منهم ، كما أعطى الزمى أعطيات ثابتة ؛ ولم يفعل ما فعله الوليد الأول
من قصر أعمال البرّ على أهل الشام ، بل هو شمل بيّره العراق وخراسان ، لأنه
لم يكن يميز بعض الولايات على بعض (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٧ و ١٣٦٤
و ١٣٦٧ و ١٨٥٤) .

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس
(في حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليفة) يذكر في ذلك ما يأتي : « ولما حدث
في تلك السنة زلزال كبير في الشام ^(١) حرم عمر النبيذ في المدن وأكره النصارى على
الدخول في الإسلام ، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية ، أما من لم يفعل فإنه قتلهم .
وقد استشهد كثيرون ، وأمر ألا تقبل شهادة نصراني على عربي ، وكذلك وجه
إلى القيصر ليو (Leo) كتاباً بين له فيه عقيدة الإسلام أملاً في أن يقنعه بالدخول
فيه » . وفي هذا الذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحق : أما الحق فهو أن
عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصارى أحسوا بذلك ، ولكن عمر
لم يُكره النصارى على الدخول في الإسلام مهدداً إياهم بالقتل ^(٢) ، لأنه لو كان فعل
ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصارى) ؛ وهذا
ما لم يكن من عمر ، لأنه مسلم حق . وهو فيما يتعلق بالنصارى قد ألزم حدود الشرع

(١) كان الزلزال في ١٥ جمادى الأولى سنة ٥٩٩ = ٢٤ ديسمبر سنة ٧١٧ م . وفي
صفر (سبتمبر سنة ٧١٧ م) تولى عمر الخلافة .

(٢) يزعم ديل (Diehl) في كتابه عن تاريخ إفريقيا (Histoire d'Afrique ، ١٨٩٦ ،
ص ٥٩١) أن عمر بن عبد العزيز أمر الكاثوليك في إفريقيا أن يدخلوا في الإسلام
أو يرحلوا عن البلاد ، ويستند ديل إلى ما جاء في رسائل Monum. Germ. Epist. 3,267 .
ولكن البابا جرينجور في هذا الموضع لا يأمر Bonifatius بأكثر من ألا يهتم بأي وجه
بالإفريقيين الذين في جميع البلاد يريدون الالتحاق بالهيئات الكنسية ، لأن معظمهم قد اعتنق
مذهب ماني والبعض الآخر قد عمّد أكثر من مرة (Afros passim ad ecclesiasticos
ordines praetendentes nulla ratione suscipiat, quia aliqui eorum manichaei,
aliqui rebaptizati saepius sunt probati) =

التزاماً تاماً ، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك . وقد
 حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح ، ولم يكن
 يمنع إلا بناء كنائس جديدة (الطبرى ج ٢ ص ١٣٧١)^(١) ، وهم عمر بن
 عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذه الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس
 يوحنا بغير حق ، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج
 باب دمشق ، خصوصاً كنيسة القديس توما ، لأن النصارى صارت لهم هذه
 الكنائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح ، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد
 فتح عنوة ولم يعط للنصارى في شروط الصلح . فلما لم يرض النصارى بذلك جعل
 عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عما أخذه الوليد من كنيسة القديس
 يوحنا (البلاذرى ص ١٢٥ — ١٢٦ والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥)^(٢) . وكان

= فهل يكفي هذا دليلاً على أن عمر أصدر ذلك الأمر الذي كان من شأنه أن يخالف الشرع
 الإسلامى مخالفة تامة .

(١) [كتب عمر بن عبد العزيز في كتاب له لأحد عماله : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة
 ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار — المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢
 ص ١٣٧١ — ١٣٧٢] .

(٢) [ذكر البلاذرى ص ١٢٥ أن معاوية وعبد الملك من بعده أرادا أخذ كنيسة يوحنا
 لتوسيع المسجد وبذلا للنصارى مالا عظيماً ، فلم يقبلوا حتى جاء الوليد ، فجمع النصارى وبذل لهم
 مالا عظيماً فأبوا ، فهدد الوليد بهدم الكنيسة ؛ فقال له بعضهم : من هدم كنيسة 'جَن' وأصابته
 عاهة ؛ فأحفظ ذلك الوليد ، ونادى بمول وبدأ هدمها بيديه ووسع المسجد . ثم شكى النصارى
 لعمر بن عبد العزيز ما كان الوليد قد فعله بكنيستهم ، فكتب يأمر بأن يرد على النصارى
 ما أخذه الوليد من الكنيسة وزاده في المسجد . فكره أهل دمشق ذلك ، وأقبل الفقهاء على
 النصارى ، فسألوه أن يعطوا جميع كنائس القنطرة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ،
 على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرفضوا بذلك وأعجبهم ، وأخبر عمر
 بذلك فسر به وأمضاه . أما الطبرى (ج ٢ ص ١٢٧٥) فيقول إن النصارى شكوا أمر
 أمر كنيسة يوحنا ، فقيل له : إن كل ما كان خارجاً من المدينة افتتح عنوة ، فقال عمر : نرد
 عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما ، فإنها فتحت عنوة وبنيتها مسجداً ، فلما قال لهم ذلك ،
 قالوا : بل ندع لكم هذا الذي هدمه الوليد ودعوا لنا كنيسة توما ، ففعل عمر ذلك .
 هذا ما يؤخذ من النصوص التي يعتمد عليها المؤلف ، وفيه تفصيل لما يقول وفيه أيضاً إصلاح
 للفكرة التي أخذها من النصوص — المترجم] .

القانون الذى طبقه عمر هنا هو ، على كل حال ، القانون الشرعى الذى لاشك فيه ، وكان لا يمكن أن يفعل غير ذلك ، إلا إذا تنكر للإسلام . أما الأحوال التى كان الأمر فيها أمر المال فقد كان عمر بن عبد العزيز أوسع صدرأ ، فكان نصارى أيلة وقبرس مثلاً قد صولحوا على إتاوة ، ولكنها زيدت على مرور الزمان لأسباب مختلفة ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز حطّ ما زيد على أهل قبرس وأمر بالآيزاد على ما صولح عليه أهل أيلة شيئاً (البلاذرى ص ٥٩ و ١٥٤ فما بعدها) . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد صالح أهل نجران فى اليمن على ألفى حلة ، ثمن كل حلة أوقية ، ووزن الأوقية أربعون درهما ، وجعل لهم فى مقابل ذلك ذمة الله وعهده على أنفسهم وملتهم وأراضيهم وأموالهم . ولكن عمر بن الخطاب أخل بالعهد إخلالاً منكراً ، وجد من يصوره فى صور جميلة متنوعة ؛ فأكره نصارى نجران هم ومن تبعهم من اليهود على الجلاء عن جزيرة العرب إلى العراق والشام ، وذلك بأن اشترى منهم أرضهم أو أبدلهم غيرها فى مواطنهم الجديدة ، واستمر سوادهم فى النجرانية قرب الكوفة ، ولكنهم ألزموا على أن يستمروا على دفع المقدار القديم الذى كانوا قد صولحوا عليه . وكان رئيسهم فى النجرانية هو المسئول عن ذلك ، وكان يأخذ ما صولحوا عليه من النجرانيين الذين ارتحلوا إلى الشام أيضاً . فلما جاء عثمان بن عفان حطّ عنهم مائتى حلة ، ثم حطّ عنهم معاوية مائة أخرى ، لأن عددهم كان قد تناقص بمن مات أو دخل فى الإسلام . فلما جاء الحجاج زاد عليهم مائتى حلة ، لأنه ، كما يروى ، اتهمهم فىمن اتهم بموالاة ابن الأشعث . فلما جاء عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وضعفهم وإلحاح الأعراب عليهم بالغارة وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج إياهم ، فأمر عمر بإحصائهم ، فتبين أنهم على العشر من عدتهم ، إذ وجد أنهم أربعة آلاف نفس بعد أن كانوا أربعين ألفاً ، فأراد أن يخفف عنهم ، ورأى أن ما صولحوا عليه من مال ليس صلحاً على أراضيهم التى أخذت منهم غصباً (أو هى على الأقل خرجت عن

أيديهم) ، بل هو يجب أن يعتبر جزية على رؤوسهم مع إسقاط جزية من مات أو أسلم ؛ ونظراً لأن عددهم قد نقص إلى العشر فإن عمر أنقص تبعاً لذلك ما كانوا قد صولحوا عليه إلى العشر ، فالزمهم مائتي حلة بدلا من ألفين ، أو بعبارة أخرى ثمانية آلاف درهم بدلا من ثمانين ألفاً . وربما كان عمر بن عبد العزيز قد أراد من وجه ما أن يصلح ظلم عمر بن الخطاب^(١) (البلاذري ص ٧٦ فما بعدها) .

وأمر عمر بن عبد العزيز واليّه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن في الكتاب الذي تقدم ذكره ، وهو عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) ، أن يعدل في معاملة الرعايا غير المسلمين أيضاً ، وأن يحسن معاملتهم ، وأن يأخذ الخراج في رفق ، وألا يحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وألا يأخذ من العامر سوى الخراج ، متجنباً الهدايا التي كانت منذ زمان قديم تهدى للولاة في

(١) [يجد القارىء عند البلاذري قصة هؤلاء النجرائين : وفد رؤسائهم على النبي عليه السلام ، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، فدعاهم إلى المباهاة فتجنبوها ، وصالحوه على شروط منها : إعطاء ألفي حلة كل عام ، مع إمكان دفع ما يقابل بعضها سلاحاً أو خيلاً أو عروضاً أخرى ومنها : أن يضيفوا رسل النبي عليه السلام شهراً وأن يعبروه (عارية ترد أو يرد ثمنها) ثلاثين درعاً وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً ، إن كان باليمن كبد . وفي مقابل ذلك جعل لهم دمة الله وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ومساكنهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا ولا يبطأ أرضهم جيش ، وأن تكون لهم أرضهم وأموالهم . واشترط النبي عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . ثم أجلاهم عمر ، وفي رواية أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمر الرسول عليه السلام ألا يبقى دينان في أرض العرب . وفي رواية أخرى أن النجرائين تزايد عددهم واختلفوا فيما بينهم فاختصموا إلى عمر ، ويظهر أن بعضهم كان يريد إجلاء البعض ، لأنهم طلبوا منه أن يجليهم ، فاغتنم عمر ذلك وأجلاهم ، خوفاً منهم على المسلمين . وتجنباً لوجود فتن في الجزيرة . وفي رواية ثالثة أنهم خالفوا شروط الصلح ، فأكلوا الربا ، فأجلاهم عمر . ويجوز أن يكون الذي دفعه إلى ذلك أكثر من سبب ، وهو على كل حال اشترى منهم أرضهم وأموالهم ، وكتب إلى عماله أن يوسعوا لهم من الأرض ، وأن يجعلوا لهم ما يعمرونه ويستصلحونه منها ، تعويضاً لهم عن أرضهم التي كانت في اليمن . وعند البلاذري نص كتاب الصلح بينهم وبين النبي وذكر تفاصيل أخرى . ولا يمكن على كل حال أن يكون عمر قد أجلاهم من غير مبرر لذلك ، وإلا فإنه ينقض عهداً للنبي ، وهذا ما لا يمكن أن يفعله خليفة — المترجم] .

البلاد التي كانت فارسية ، مثل هدايا النيروز والمهرجان ودراهم النكاح وثمان الصحف وأجور الضرابين والآيين^(١) ، ومعنى هذه الكلمة هو العادة ، والمقصود بها الضرائب على تنوعها ، وهو ما تدل عليه الكلمة الإنجليزية (Custom)^(٢) . وهذه الهدايا لم تكن مشروعة ، وكان يصعب الإشراف عليها ، وفي معظم الأحوال كانت لا تدخل بيت المال ، ولذلك كان القضاء عليها عسيراً ، وكان الولاة لا يحبون أن يأتي لهم الناس في النيروز وغيره من مناسبات بأيدي خالية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٥ فما بعدها)

وقد دعت عمر إلى تحريم بيع أرض الخراج اعتباراً ترجع إلى أحوال بيت المال . فهو قد أراد أن يتفادى نقص الخراج الناشئ من انتقال أرض الخراج إلى أيدي المسلمين وسقوط الخراج عنها لهذا السبب ، ولسكنه بذلك وضع في نفس الوقت سداً أمام الرغبة في اقتناء الضياع ، محاولاً أن يحمي دافعي الخراج من الملاك من أن تطغى على أرضهم شهوة التملك من جانب السادة العرب الذين كل امتلاك الأرض أكثر فائدة لهم بحكم أنهم لم يكونوا يؤدون عنها خراجاً . ومثل ذلك حدث في شمال غربي ألمانيا ، في مقاطعة « براونشفيج — لونبرج » (Braunschweig—Lüneberg) مثلاً ، من معارضة الأمراء لأسباب مالية في انتقال الأرض الزراعية إلى يد الأشراف ، لأنها عند ذلك تعفى من الضرائب ، ولكنهم في نفس الوقت أنقذوا بذلك طبقة الزراع دون أن يقصدوا إلى إنقاذها . ولا شك في أن عمر بن عبد العزيز لم ينجح نجاح هؤلاء الأمراء ، ولكن

(١) [يحسن الرجوع إلى نس الكتاب الذي كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد والى الكوفة ، وهو مذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٦) بنصه الكامل ، وهو أوضح وأشمل من كلام المؤلف — المترجم] .

(٢) إن فكرة الضرائب الجركية غير معروفة في التشريع الضرائبي الإسلامى ، فلا يوجد بحسب هذا التشريع إلا الخراج والعشر . على أن المشرعين الإسلاميين عرفوا كيف يلبتون قاعدة أخذ الخراج والعشر على التاجر الذى يرتحل ببيضائه .

الأحوال في المشرق كانت أيضاً مغايرة للأحوال في ألمانيا ؛ فكان في المشرق قليل من الفلاحين بالمعنى المعروف عندنا ، هذا إلى أن ملاك الأرض من غير العرب كانوا في الغالب دهاقين أو بعبارة أخرى ، سادة يملكون الضياع والقرى وكان الفلاحون تبعاً لهم .

٣ — وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإن ثم شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير ، وهو أن المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر إلى عمر ابن عبد العزيز نظرة استهزاء مقصود ؛ وهذا هو ما بدأه دوزي ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره . من الجائز أن يكون عمر متأثراً بالدين ، أعنى في هذه الحالة بعلم الفقه ، تأثراً أكثر مما يريد البعض ، وأن يكون تدقيقه في محاسبة نفسه قد أدى به في كثير من الأحيان إلى تشكك عاقل في تنفيذ سياسته . فيروى أنه مرة ختم خطبة له بقوله : أقول لكم هذا وما أحسن بآتي خير منكم^(١) . فلم يكن عند عمر

(١) [لا يذكر المؤلف المصدر الذي اعتمد عليه ؛ ولكن ثم خطبة لعمر بن عبد العزيز ذكرها الطبري (ج ٢ من ١٣٦٨ — ١٣٦٩) ، وهي تدل على نواح كثيرة من روحه وشخصيته ، وفيها جوهر العبارة التي يذكرها له المؤلف ، وهما هي بنصها الكامل : « أيها الناس ! إنكم لم تخلفوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم مماداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرّم الجنة التي عرضها السموات والأرض . ألا فاعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافداً بياق وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان . ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، حتى ترد إلى خير الوارثين ! وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه وانقضى أجله ، فتغيبونه في صدع الأرض ، ثم تدعون غير موسود ولا ممهد ، قد فارق الأحبة وخام الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتين بعملة فقير إلى ما قدم ، غنى عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت ، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فاستغفر الله وأتوب إليه ، وما منكم من أحد تباقتنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما من أحد يسمعه ما عندنا إلا وددت أنه ساواني ولحمي الذين ياونني ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وأيم الله لو أردت غير هذا من الفسادة والعيش لكان اللسان مني به ذلولاً علماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة يدل فيها على طاعة وينهى عن معصية . ثم رفع طرف رداءه فبكى حتى شقق وأبكى الناس حوله ، ثم نزل فسكّات إياها لم يخطب بعدها حتى مات . ويظهر أن هذه هي الخطبة التي يقصدها المؤلف ، غير أنه لم يقرأها إلى نهايتها — المترجم] .

ابن عبد العزيز ذلك الشعور الوطيد بأن له سلطاناً شخصياً ، هذا الشعور الذى كان لجده عمر بن الخطاب ، وكان به يُرهب الدنيا . ولكن عمر بن عبدالعزيز لم يكن معنياً بنفسه ، بل عنى بالخير للناس والبرّ بهم ، وقد دفعه ورعه إلى الحكم الصالح وإلى معالجة الأعباء الكبيرة التى كان يقتضيها الحكم الصالح بما هى أهل له .

وليس من الضرورى ، بطبيعة الحال ، أن يكون عمر قادراً على تحقيق كل ما اتجهت إليه نيته الطيبة . فمثلاً يذكر بعض من لم ينصف أن الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية أنه ضياع الأموال ، ولكننا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الأمر فى ذلك ، فهو إذا كان قد أسقط الجزية عن دخل فى الإسلام من الشعوب والممالك ، فإنه إنما أراد بذلك أن يتفادى شن الحروب لجرد الغنائم ، ولم يفرط فى شيء يدخل فى بيت مال الدولة : لأن السمك لم يكن قد وقع بعد فى الشبكة ، أما فى الولايات التى كانت قد فتحت قبل عهده بزمان طويل ، وتقررت جزيتها وخراجها طبقاً لقانون الفتح ، أعنى أرض السواد وأرض مصر ، فإن عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذى كان قد جرى العمل به ، وقاوم انتقاص أرض الدولة ودخاها ، كما أنه حاول أن يتفادى الضرر الذى من شأنه أن يلحق بأموال الدولة بعد إسقاط الجزية عن جميع المسلمين . ولا شك أيضاً فى أنه ، إذ منعه من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من إساءة استعمال السلطة ، إنما نال من المال وحدهم ، وهم الذين كانوا يستولون على تلك الهدايا . وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه كان يكثر من إلقاء الأعباء على بيت المال بسبب أنواع المساعدات والبرّ التى قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم . أما فيما يتعلق بنفسه فإنه لم يستعمل شيئاً من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز^(١) ولا هو

(١) [راجع ما تقدم فى هامش ص ٢٩٤ حيث يعرب عمر عن عدم رغبته فى جمع الأموال . وهنا نجد دليلاً على روح البرّ التى كانت تملأ نفسه ، حتى إنه كان يتمنى أن يكون عيش الناس وعيشه سواء ، أما فيما يتعلق بأنواع البر فقد قدم المؤلف ذكر بعضها . وفى -

أسرف فيها أيضاً في حملات حربية على القسطنطينية : وكان في ذلك مخالفاً لسلفه كل المخالفة . وكذلك عني عمر بالخيولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم ؛ والأغلب أن ذلك عوض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين . أما ما يزعمه البعض (ا . مولر 1,441 Müller) من أن أموال الدولة في عهده قد تلاشت ، كما يزول الشيء بإشارة سحرية ، وأن ما يتحصل من الخراج قد انجبت دفعة واحدة ، فإني لا أريد هنا أن أتعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ ، ولكنه على كل حال زعم لا يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه ، وذلك أن الأحوال المالية كانت سيئة في الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج ، أما في عهد عمر بن عبد العزيز فقد عادت إلى حالة الصحة ، ومهما كان الأمر فإن الاهتمام بالشئون المالية ليس هو كل ما يعنى الدولة . ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنه أسقط عن البربر الجزية ، جزية الأبناء — فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية — وأنه خفف العبء على نصارى نجران ، وأنه عمل على حماية الرعية من العمال ، وأنه حرص على ألا تكون إدارة الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً !

أما فون كريم وأوجست مولر فرأيهما أن عمر بن عبد العزيز إنما تدخل في الأمور المالية دون أية ضرورة عملية ، جرياً وراء ما صورته له ورعه من مثل عليا خيالية ، فأفسد المجرى الطبيعي للمالية وأخرجها عن الطريق الذي أدى بها إليه التطور السابق ؛ وهما يزعمان أيضاً أنه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية . أما الحقيقة فهي بالأحرى أن المؤرخين الذين ينقدون أعمال عمر هم الذين يتصورون الأحوال الواقعة لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة

= الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٤) زيادة على ذلك أنه أمر بعمل خانات لفقراء من عمر من المسلمين يوماً وليلة ولتعهد دوابهم ولقراء من كانت به علة يومين وليتين وتقوية المنقطع بما يصل به إلى بلاده . وقد كان عدل عمر وإحسانه سبباً في كثرة المطالب والشكاوى — المترجم .

ومحتاجة إلى تنظيم جديد . ولم يكن عمر نفسه هو الذى أحدث الاضطراب فى نظام الخراج ، بل كان الاضطراب موجوداً من قبل ، وما كان يمكن أن يستمر . ولم يكن الواجب الذى أراد عمر الاضطلاع به واجباً خيالياً موهوماً ، بل كان واجباً حقيقياً ومُلِحّاً . وكان أول من حاول النهوض بهذا الواجب محاولة جدّية هو الحجاج ، غير أنه قام بذلك على نحو أثار عليه بغض الناس . أما عمر فقد حاول تحقيق ذلك الواجب على طريق آخر ، مراعيّاً تلك الحساسية التى يؤيدها الإسلام أو التى تستند إليه على الأقل . وقد كان أمام كل من الحجاج وعمر نفس المشكلة التى تمخضت عنها الأيام وكان لابد لها من حل ، وهى إنما نشأت من أن أرض الخراج أخذت تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي مالكين لا يلزمهم أداء الخراج . وبذلك أيضاً يبطل فى الجملة ما يؤخذ على عمر بن عبد العزيز من أنه زعزع أركان الدولة الأموية . فالحق أنها كانت تَمِيدُ من قبله ، وكانت من أول الأمر مزعزعة . فأما القاعدة التى تمخضت عنها الحكمة الرومانية ، وهى أن دولة لا يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التى اعتمدت عليها فى قيامها ، هذه القاعدة التى يسوقها . مولر فى أخذه على عمر بن عبد العزيز انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بنى أمية ، فهى قاعدة يمكن أيضاً أن تُذكر فى معرض النقد لخلفاء بنى أمية أنفسهم ، ذلك أن حكومتهم لم تكن بأى حال من الأحوال سائرة على سنة حكومة النبی عليه السلام وأصحابه ؛ وهى وإن كانت قد أرادت أن تتمسك بالإسلام ، وما كان يمكنها أن تتنكر له ، فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيدها بل أن يقوّض الأساس الذى قامت عليه . وكان على بنى أمية دائماً أن يشتغلوا بالقضاء على الثورات التى كانت تقوم لمحاربة سلطانهم باسم الله وباسم الدين . وإلى جانب ذلك كانت تهدد من جانب أهل العراق عداوة لا تلين ، هذه العداوة التى كانت تندلع بين حين وآخر فى صورة ثورات هائلة على الاستبداد الشامى البغيض . على أن أكبر خطر كان يهددهم هو تلك الحركة الاجتماعية التى لم تكن

موجهة إليهم وحدهم بل إلى السيادة العربية على إطلاقها . وكان عمر بن الخطاب قد نظم الدولة الإسلامية طبقاً لقانون الفتح ، بحيث جعلها دولة العرب على المغلوبين وأقامها على أساس من التمييز الديني والقومي على السواء بين طبقتين منفصلتين : طبقة العرب المسلمين وطبقة أهل الديانات الأخرى من غير العرب ، أو بعبارة أخرى طبقة الأرستقراطية الحربية من العرب وطبقة دافعي الجزية والخراج من كافة غير العرب . ولكن عمر بن الخطاب بصنيعه هذا لم يُقِمَّ بناء الدولة على أساس ثابت ، ذلك أن الحاجز الذي كان يفصل بين السادة العرب والخدام من غير العرب أخذ يتصدع بسبب دخول غير العرب في الإسلام شيئاً فشيئاً ، وبسبب غلبتهم في المدن التي أنشئت للجيش العربية . وكان صبغ المغلوبين بصبغة الإسلام شيئاً فشيئاً ، وهو عملية طبيعية لا يمكن إيقافها ، سبباً في تعريض النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب للخطر ، وإن كان ذلك لم يحصل في عهد عمر ، بل في عهد بني أمية الذين أخذوا بذلك النظام . وكان الواجب ، مراعاة للأصول التي تقوم عليها الدولة التيقراطية على الأقل ، أن يكون المركز السياسي للمواطنين فيها تابعاً للدين ، وأن يكون الإسلام لا القومية ، هو الذي يجعل للمواطنين فيها حقوقهم . وكان الموالي بالباب يتربصون الدوائر ، كانوا يتطلعون إلى المساواة التامة بالعرب . وكان الإسلام في جانبهم ، فاجتذبتهم الثورة التي كانت تستند إلى الإسلام . وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يجيب مطالبهم دون نمن غال ، ولعل الاعتبار التي كانت تحدوه في ذلك قد كانت اعتبارات دينية أكثر منها سياسية . ولم يكن من المستطاع كسر الروح الإسلامية ، بل كان لا بد من أن يُحَسَّبَ حسابها ، وكانت خصومة الإسلام للدولة الأموية تهددها بالانهيار ؛ وعلى هذا فإن خليفة أمويًا يجتهد في أن يتمشى مع أصول الإسلام وفي تجريد حركات المعارضة من سلاحها الإسلامي بأن يزيل أسباب الشكوى التي كان لها

ما يبررها ويستجيب إلى ما يمكن الاستجابة إليه من مطالب ، إن خليفة يعمل لذلك لا يكون قد أتى شيئاً يضر بمصلحة أسرته الحاكمة . وربما كان هذا هو البرنامج الذي وضعه عمر بن العزيز ، فهو قد حاول أن يجد في الإسلام أساساً مشتركاً بين الجميع ، يمكن أن تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفزة الطامحة المعادية لها . وهو ، تمسحاً مع هذه الغاية ، سار على سياسة التغامر والتصالح . ولم يكن عمله في ذلك مقصوراً على الموالي وحدهم ، فقد حاول أيضاً أن يزيل أسباب التذمر في الأمصار ، وخصوصاً حاول أن يزيل ما كان في نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم ، وكان برءه يتسع للجميع على سواء ، بل كان يظن أنه يستطيع إرضاء الخوارج بمناظرته إيتامهم في آرائهم^(١) ، وهو قد نجح على الأقل في أن جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياته . ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين ، على حين أنه كان شديداً على غيرهم من المجرمين ، وقد أثبت برءه بالعلويين ، ورد إليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات . وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة ، وترك لعن على بن أبي طالب على المنبر ، وكتب بذلك إلى الآفاق^(٢) . أما القول بأنه كان يعترف في أعماق نفسه بصحة دعوى العلويين في الخلافة فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك^(٣) ، ولا يصح تصديقه . لقد كان عمر بن

(١) [راجع في هذا الطبرى مثلاً (ج ٢ ص ١٣٤٨ — ١٣٤٩) ، حيث طلب عمر من رئيس من رؤساء الخوارج أن يناظره — المترجم] .

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٥٣ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٦ ، ويشك قابيل Weil في صحة هذه المسألة شكاً ليس له مبرر ، وذلك أنه ، حتى بعد عمر ، لم يصدر أمر رسمي بلعن على (الطبرى ج ٢ ص ١٤٨٢ — ١٤٨٣)

[أراد سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان أن يزين لهشام بن عبد الملك ، وهو يحج بالناس سنة ١٠٦ هـ ، لعن على بن أبي طالب ؛ فتقل كلامه على هشام ورد عليه قائلاً : ما قدمنا لشم أحد ولا لآمنه ! قدمنا حجاجاً . فلم يقع ما طلبه حفيد عثمان في نفس هشام إلا موقفاً سيئاً . المترجم نقلاً عن الطبرى في الموضع المشار إليه] .

(٣) يميل الفصل المعقود لعمر في كتاب الأغاني إلى تصويره شيعياً مستتراً ؛ ولكن يستطيع الخوارج ، وهم من الشيعة على طرفي تقيض ، أن يعتبروا عمر بن عبد العزيز منهم .

عبد العزيز مسلماً من الطراز القديم ، وكان الإسلام الأول لا يؤيد في الجملة ما يدعيه الشيعة من أنهم أصحاب الحق في الخلافة . وربما كان من شأن الإسلام أن يرضى عن الأمويين أيضاً — رغم أن أصل سيادتهم لم يكن متفقاً مع القانون — وأنهم بعد ذلك لم يخالفوا الإسلام . وقد شهد المنصور العباسي لعمر بن عبد العزيز بأن أعماله مرضية في جملتها ؛ ولكنه كان يرى أن عمر كان أموياً ، لأنه تمسك بتقديم أهل بيته (الطبري ج ٢ ص ٥٣٤)^(١) .

وهذا هو حكم صاحب كتاب الصلة لتاريخ يزيدور (الفصل ٣٨) على عمر بن عبد العزيز :

Hamer in exercitiis nihil satis prosperum nec quicquam adversum peregit, tantae autem benignitatis et patientiae fuit, ut hactenus tantus ei honor lausque referatur, etiam ab externis quantus ulli umquam viventi, regni gubernacula praeroganti adlatus est. (٢)

ومهما يكن من شيء فقد كانت أغراض عمر أغراضاً طيبة ، وربما لم تكن

(١) [هذا ما يقوله المؤلف بحسب ما فهمه من النص الذي اعتمد عليه ، وهو من حيث الفكرة صحيح بعض الشيء ، أما ما يؤخذ من النص فهو هذا : وهو أن المهدي جلس للظالم ، فتقدم إليه رجل من آل الزبير يطلب رد ضيعة كانت له عن أبيه واصطفاها بعض ملوك بني أمية ، فلما أمر المهدي بالبحث عن حقيقة أمرها في الديوان العتيق انضح أن أمرها قد عرض على عدة منهم لم يروا ردها إليه ، ومنهم عمر بن عبد العزيز . فقال المهدي : يا زبيرى ! هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو منكم معشر قرينى ، لم ير ردها . قال : وكل أعمال عمر ترضى ؟ قال : وأى أعماله لا ترضى ! ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط من بني أمية في خرقه في الشرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بني هاشم في سنين . قال المهدي : أ كذلك كان يفعل عمر ؟ قيل : نعم . فقال : أردد على الزبيرى ضيعته . يتبين من جملة هذه الحكاية حسن ظن المهدي بعمر بن عبد العزيز ورضاء عن أعماله ، لكن ما يعاب على عمر من أنه كان يحابي الأمويين إنما جاء من جانب الزبيرى في معرض تقديمه لأعمال عمر التي أراد المهدي أن يعتبرها صواباً كلها . ويدل السياق على أن النقد جاء على لسان الزبيرى . — المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٣ ص ٥٢٤] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : « إن عمر لم يقم فيما يتعلق بتسيير الجيوش لا بما لب نصرأ ولا بما جبر نكبة ، لكنه كان رجلاً له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير والثناء حتى من الأبعد ، وقد نال من ذلك ما لم يناله حتى يطمح إلى الملك — المترجم] .

أيضاً بعيدة عن الحكمة . ولا يمكن التكهّن بما كان سيحقق من أعمال ، لأن خلافة لم تدم إلا نحو عامين ونصف ؛ فقد توفي عن تسع وثلاثين عاماً في يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ (٩ فبراير سنة ٧٢٠ م .) في الخناصرة ، قرب دمشق . ويقول أبو عبيدة إن الأمويين دسّوا إليه من سقاء السم ، لأنهم خافوا من أن يستمع إلى الخوارج ، فيخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ، مخالفاً في ذلك لما عهد به سليمان بن عبد الملك من أن يكون يزيد هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز^(١) . ولكن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية وهي لا تتم إلا عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز المصلح قد اختير وفارق الدنيا قبل الأوان ، وأن النظام الذي كان سائداً قبله عاد من جديد .

(١) [تختلف الروايات في تاريخ ومكان وفاة عمر بن عبد العزيز ، وهي موجودة عند الدبري (ج ٢ ص ١٣٦١ فما بعده) ، وعند المسعودي في كتاب التنبية والإشراف مثلاً ص ٣١٩ من طبعة ليدن . أما مسألة أن الأمويين دسّوا إليه من سقاء السم فهي موجودة عند الدبري ج ٢ ص ١٣٤٨ — ١٣٤٩ . وهي تتلخص في أن بعض الخوارج ثاروا في عهده ، فكتب عمر إلى زعيمهم : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولتنبية ، ولست أولى بذلك مني ، فهل أنا ملوك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يديك نظرنا في أمرنا . فبث الزعيم المارجي رجلين لمناظرة عمر ، فكان مما اعترضاه عليه أنه أقر يزيد بن عبد الملك لكي يلي الخلافة بعده . فقال لهما : صبره غيرة ، فقل له : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أترأى كنت أدبت الأمانة إلى من اتهمتك ؟ فقال عمر : أنظراني ثلاثاً . وخرج المندوبان المارجيان من عنده . وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد ، فدسّوا إليه من سقاء سم ، فلم يلبث عمر إلا ثلاثة أيام حتى مات . فالخاسر أن عمر اقتنع باعتراض هؤلاء الخوارج وأراد التفكير فيما يصنع — المترجم] .

الفصل السادس

المروانيون المتأخرون

١ - كان يزيد بن عبد الملك حفيداً ليزيد بن معاوية من طريق ابنته عاتكة التي تزوجها عبد الملك ، وكثيراً ما يُنسب إلى أمه النابغة ، فيسمى يزيد ابن عاتكة^(١) . وكان يحس أنه أشرف من بقية بني مروان ، وكان يباهى بما يجري في عروقه من دم سفياني . والحقيقة أن عرقاً من جده لأمه كان ينبض عليه ، وإن كان لم يرث من جده رقتة وتلففه مع الناس .

ولم يكد يرتقى عرش الخلافة حتى كانت كائنةً صار لها تأثيرها الحاسم في حكومته وفي العصر التالي له . فقد كانت ليزيد بن عبد الملك ضلات وثيقة بالحجاج ، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف أخى الحجاج نفسه ، فأنجبت له في حياة الحجاج ابنة الوليد الذي صار خليفة فيما بعد ، وقد أسمت ابنها الأول الذي توفي الحجاج على اسم خاله . ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغض يزيد بن المهلب ؛ وكان يزيد هذا والياً على العراق ، وقد عذب آل الحجاج . وكان يزيد بن المهلب من المستظلمين بظل سليمان بن عبد الملك ، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيراً^(٢) . فهرب من السجن الذي كان حبسه فيه عمر بن عبد العزيز إلى أن يقضى الأموال التي كان كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك أنها صارت إليه عند

(١) كانت لا تزال في ذلك العهد تغلق قيمة كبيرة على ميلاد الرجل من أم كريمة ، وكانت أم مسلمة بن عبد الملك جارية غير عربية ، ولذلك لم ينظر إليه في الترشيح للخلافة رغم أنه كان رجلاً كفؤاً وحاذقاً ورغم أنه كانت له في أسرة الأمويين أرفع مكانة .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ س ١٥ — ١٣٦٠ س ٢ ، ص ١٣٦٠ س

١١ ، حيث يعبر ابن المهلب عن خوفه من يزيد بن عبد الملك — المترجم] .

فتبعه جرجان وطبرستان^(١) . ويقول الواقدي إن يزيد لم يهرب من السجن إلا بعد وفاة عمر^(٢) . أما أبو مخنف ، وهو عمدة الرواة الذين اعتمد عليهم الطبري ، فيقول إنه هرب بعد أن علم بأن المرض قد ثقل على عمر . وقصد يزيد البصرة ، موطن أسرته من المهالبة وموطن قبيلته أزد عمان . وقد مر في طريقه بقبيلة قيس ، فأتبعوه ؛ ولكن ردهم عنه الهذيل بن زفر . وبعث والي الكوفة جماعة من شرطة الكوفة ووجوه الناس وأهل القوة فيها ليعرضوا له ، ولكنه مرّ غير بعيد منهم ، فأشفقوا من الإقدام عليه ، ومضى حتى ظهر أمام البصرة في كتيبة كبيرة من أصحابه الذين أقبل فيهم ومن رجال من أهل بيته ومواليه ، جمعهم أخوه محمد بن المهلب وخرج بهم لاستقباله . وكان عدى بن أرطاة الفزاري والي الكوفة قد قبض على من وصلت إليه يدهم من آل المهلب ، وخرج مع قبائل البصرة ، فوقفوا أمام المدينة لكي يمنعوا ابن المهلب من دخولها ، ولكنه لما أقبل جعل لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحّوا له عن السبيل . واستقبله المغيرة بن عبد الله الثقفي في خيل ، فحمل عليه محمد بن المهلب في الخيل ، فأفرج له عن الطريق . فدخل ابن المهلب البصرة ، وأقبل حتى نزل داره ، واختلف إليه الناس . ومن الواضح أن الخليفة الجديد لم تسبق خلافته سمعة طيبة ، ويظهر أنه لم يكن من جند الشام لا في البصرة ولا في الكوفة المدد الكافي . ويجوز أن يكون عمر بن عبد العزيز قد أعادهم إلى الشام من قبل .

وقد بدأ يزيد بن المهلب بمفاوضة عدى بن أرطاة أمير البصرة في أن يُفرج عن بني المهلب الذين كان قد حبسهم في القصر بالبصرة ، وذلك في مقابل أن

(١) [زدنا كلمات على الأصل الألماني ، أخذناها من التنبية للمسعودي (ص ٣٢٠ — ٣٢١) زيادة في الإيضاح — المترجم] .

(٢) [تجد ذلك في الطبري ج ٢ ص ١٣٦١ س ٢ — ٣ . وتجد قصة ابن المهلب وما كان منه عند الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ — ١٣٦١ و ص ١٣٧٩ و ص ١٤١٦ — المترجم]

يصالحه على البصرة ويخليه وإياها ، حتى يأخذ لنفسه ما يحب من يزيد بن عبد الملك ؛ فلما لم يقبل عدى جعل ابن المهلب الحكم لل سيف . وقد انضمت إليه قبائل اليمن ، أعنى الأزدر وربيعة ، وكانوا متحالفين في البصرة وفي خراسان . وكان ابن المهلب قد استمال الناس بما فرق فيهم من ذهب وفضة . أما قبائل تميم وقيس — وكانوا منذ القدم ينافسون قبائل اليمن — فإنهم كانوا في جانب الوالى . ونظرا لأن الوالى لم يكن جواداً بالأموال ، لأنه لم يكن يستحل أن يمد يده إلى بيت المال^(١) ، فإن أنصاره من قيس وتميم ، بل وبعض جند الشام ، تراخوا وتفرقوا عنه عند أول صدام بين الفريقين ؛ وفر عدى منهزماً ، فحوصر في القصر . وكان المهالبة محبوبين هناك أيضاً ، فلما سمعوا الأصوات تدنو والنشاب تقع في القصر علموا أن أخاهم قد ظهر ، وخشوا أن يقتلهم أنصار عدى ، فأغلقوا الباب عليهم ووضعوا خلفه الأمتعة واتكوا على الباب . وجاء أعداؤهم وعالجوا الباب فلم يستطيعوا الدخول ، حتى أعجزهم أنصار ابن المهلب ، فتفرقوا . وبعد أيام قليلة سقط القصر في يد ابن المهلب ، وأسر عدى بن أرطاة ، وجيء به إلى ابن المهلب ، وهو يتنسم ، لأنه كان واثقاً من أن الثوار لن يمسوا له شعرة واحدة خوفاً من جند الله (أعنى جند الحكومة) في الشام^(٢) .

(١) [جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٣٨٢ — ١٣٨٣) أن ابن المهلب كان يقطع لمن يأتيه من الناس قطع الذهب والفضة ، وأن عدى بن أرطاة كان لا يعطى إلا درهمين درهمين ، ويقول لأصحابه : لا يحمل لى أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، واسكن تباغوا بهذا حتى يأتى الأمر فى ذلك — والله زندق أبيات فى هذا — المترجم] .

(٢) [جىء إلى ابن المهلب بعدى بن أرطاة ، وهو يتنسم ، فقال له ابن المهلب : لم تضحك ؟ فوالله لينبى أن يمنعك من الضحك خصانان : إحداهما الفرار من القتالة الكريمة ، حتى أعديت بيدك إهلاء المرأة بيدها ، والأخرى أنى أتيت بك تنل كما يتل العبد الأبقى إلى أربابه ، وليس معك منى عهد ولا عقد ، فما يؤمنك أن أضرب عنقك ؟ فقال له عدى : أما أنت فقد قدرت على ، ولكنى أعلم أن بقائى بقاؤك ، وأن هلاكى مطلوب به من جبرته يده ؛ إنك قد رأيت جنود الله بالمغرب وعلمت بلاء الله عندهم فى كل موطن من موطن القدر والسكت ، فتدارك فانتك وزنتك بالتوبة واستغالة العثرة قبل أن يرمى إليك البحر بأمواله . . . المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ١٣٨٥] .

١٣٩٨: تخيد بن عبد الملك بن المهلب، لما ثار نومه، قد ذهب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه بالأمان للمهالبة جميعاً، ولكنه لما أقبل بالأمان، ومعه خنث بن عبد الله القسري وعمر بن يزيد الحكيم، كان يزيد بن المهلب قد انتصر وقتل القتلى وحبس عدى بن أرطاة وجاهر بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وحث الناس على الجهاد. وكان يزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم^(١). فهو قد أراد أن يتخذ من الإسلام قوة يشتد بها أزره. ولكن كان في البصرة رجل تجرأ على أن يرفع صوته معارضاً ليزيد، وذلك هو الحسن البصري، صديق عمر بن عبد العزيز. فقد كان الحسن يثبّط الناس عن الفتنة ويحضهم على أن يكفوا أيديهم عن قتال على دنيا زائلة وأن يكتفوا بالإقبال على الله وعظيم ثوابه في الآخرة: وقد اتهم الثوار الحسن بأنه موال لأهل الشام وبأنه الشيخ الضال المرأى؛ فقال فيه مروان بن المهلب مثلاً: «والله لو أن جاراً له نزع من خُصّ داره قصبة^(٢) لظال يعرف أنفه، أُنكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا وأن ننكر مظالمنا!». ولكن الحسن لم يكف عما كان يفعل، وهو لم يُفتن عن رأيه كما لم يُفتن إرميا النبي في موقف مشابه لموقفه، بل هو مضى في سبيله محاولاً أن يثبّط من استمع إليه عن الاشتراك في الفتنة؛ وقد كان له تأثير خصوصاً على الموالى في بعض القرى القريبة من البصرة^(٣). على أن الحسن، بفصله بين الدين والسياسة في الدولة التيوقراطية، قد

(١) هذا هو مضمون خطبة يزيد بن المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٣٩١). أما يعنه (الطبري ج ٢ ص ١٣٩٨) فكان يقول لمن يبايعه: "تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولا ييضتنا ولا نعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج؛ فنبايعنا على ذلك قبلنا منه ومن أبي جاهدناه وجعلنا الله بيننا وبينه". فإذا قالوا: نعم، بابعهم --- المترجم [

(٢) كانت الدور العادية في البصرة تبنى من القصب.

(٣) ولذلك يقول عنه مروان بن المهلب: وأيم الله ليكفّن عن ذكرنا وعن جمه إلينا سقاط الأباة وعالوج فرات البصرة، قوم ليسوا من أنفسنا ولا بمن جرت عليه النعمة من أحد منا، أو لا تخين عليه مبرداً خشناً --- المترجم [

اتخذ موقفاً شاذاً^(١)، ولم يكن أتباعه من ذوى النباهة، وإلا لكان من الصعب أن يسكت عنه ابن المهلب. وقد اتبع عامة المؤمنين في البصرة، وعلى رأسهم القراء، دعوة يزيد، وتبعهم عدد كبير من الموالى، وبهذا تضخم عدد أنصاره تضخماً كبيراً. ولكن هذه الجموع الكثيفة لم تكن لها مهارة حربية بقدر ما كان لها من كثرة العدد؛ ثم تبين أن الإسلام حليف صعب القياد.

وغلب ابن المهلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان، ولكن لم تنضم إليه خراسان، وهى ولايتها القديمة التى فيها قومه، وذلك لأن قبائل تميم هناك لم تتمكن الأزدي من أن تتحرك. وقد أشار على ابن المهلب أخوه حبيب وغيره أن يخرج من العراق حتى ينزل فارس، فيأخذ بالشعاب والعقاب ويدنو من خراسان ويطاول أعداءه، وفى يده القلاع والحصون، ويكون الناس قد انضموا إليه. ولكنه لم يرد أن يترك العراق أمام جند الشام، وكانوا

(١) [لاشك أن أهل الدين كانوا دائماً معارضين لأساليب بنى أمية ولأساليب عمالهم فى الحكم، وكثيراً ما كان عمالهم ينتفضون عليهم، كأنما كانوا يحسون أن لهم الحق فى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠). أما موقف الحسن البصرى فهو يحتاج إلى تأمل، فقد كان صديقاً لعمر بن عبد العزيز، وكان عمر يكره المهالبة ويقول إنهم جبابرة. ولعل الحسن أيضاً كان يكره المهالبة للسبب الذى كرههم له عمر من قبل، والدليل على ذلك أنه وصف من اجتمع ليزيد بن المهلب بأنهم عتاة، وأنه كان يرى فى يزيد بن المهلب أنه غير صادق فيما يدعو إليه من الكتاب والسنة، وأن الأولى به أن يوضع قيد فى رجليه ويرد إلى محبس عمر الذى حبسه فيه. ولكن لم يكن معنى ذلك أن الحسن البصرى كان راضياً عن أهل الشام، فقد دفع عن نفسه هذه التهمة دفعاً صريحاً (الطبرى ج ٢ ص ١٣٩١ — ١٣٩٣). ولما كان الحسن يعتقد أن ثورة ابن المهلب ليست لله فقد دعا الناس إلى الكف عنها وعن الفتنة. وقد عجب الحسن للنضر بن أنس بن مالك كيف غرد ما يقول ابن المهلب من دعوة إلى الكتاب والسنة، مع أنه كان بالأمس يضرب أعناق الناس لإرضاء لبني مروان. ولا شك أن الحسن كان يمتق المهالبة، وإن كان ليس هناك ما يمنع أن يمتق الفتنة خصوصاً من أجل الباطل، ولولا أن نعمة الزهد والدعوة إلى ترك النزاع على الدنيا والإقبال على الله كانت هى الغالبة فى كلامه لكان الإنسان على حق فى رفض ما يقوله المؤلف من أن الحسن فصل بين الدين والسياسة. فربما كان العكس هو الصواب، لأن الحسن اشترك فعلاً من طريق تثبيطه الناس عن الدخول فى فتنة لم يتوفر لها السند الدينى الصادق، راحم أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠ — ١٤٠١ — المترجم] .

قد تقدموا نحوها ، بل أراد أن يسبقهم إلى الكوفة بقدر الإمكان . وفي آخر سنة ١٠١ هـ (صيف ٧٢٠ م) خرج إلى الكوفة ماراً بواسط ، فاستولى عليها ، ثم مرّ بقم النيل ، ووقف عند الموضع الذي يصب فيه النيل في الفرات ، في مكان كثيراً ما يسمى عقر ، قريباً من بابل القديمة^(١) . وقد حاول والي الكوفة الذي كان معسكراً في النخيلة على الشاطئ الآخر أن يأخذ على ابن المهلب طريق الكوفة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الكثيرين من أهل الكوفة من الانحياز إليه ، وكان منهم طائفة تحمل أنه الأسماء العربية ، ولم يكونوا من قبائل اليمن وربيعة فحسب ، بل من قبائل تميم أيضاً .

ولم يمض غير قليل حتى ظهر على المسرح مسامة بن عبد الملك ، قائد الحملات الحربية في آسيا الصغرى وأرمينية سنين طويلة ، فأقبل في عظيم جيش الشام . وقد حدث من يزيد أنه عبر الفرات للقاء مسلمة وعسكر بهدوء على مقربة منه ، وذلك أن اثنين من زعماء الفرق التي كان يتألف منها جيشه ، وكان لهما تأثير كبير

(١) بحسب البيت الموجود في كتاب التنبيه للمسعودي (ص ٣٢٢ س ١) كانت الموقعة بين بابل وعقر ، وعلى هذا فإن عقر المقصودة كانت تقع ، شأنها شأن بابل ، على الضفة الشرقية للفرات ، ولم تكن هي عقر كربلاء التي يجب البحث عنها إلى الغرب من مدينة الهندية . على أن وصف الطريق إلى مسلمة في رواية الطبري (ج ١ ص ١٢٦٥) يتبرر مشكلة ، فهو يقول : " إن مسلمة أقبل يسير على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار ، ثم عقد عليها الجسر ، فعب عليه من قبل قرية يقال لها فارط ، ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب في (عقر) " . ولما كانت الأنبار على الضفة الشرقية ، فلا بد أن يكون مسلمة قد سار أولاً من هناك ، من عند بلدة الفارط إلى الغرب ، ثم قفل راجعاً إلى الضفة الشرقية ، كما فعل خطبة فيما بعد . أما ما يقال من عبوره النهر مرة أخرى فلا يذكر الرواة عنه شيئاً ، ولكن يذكر جسر عبور عليه أهل الشام إلى عقر وأحرقوه وراءهم . ويعتبر نولدكه (Nöldeke) أن عقر (ἄκρα) هي قصر (castra) ؛ وهو محق في ذلك ، لأن نهر النيل القديم ، أحد روافد الفرات ، يصب في الفرات بين بلدة قصر وبين بلدة بابل ، ولأن الحصن كان يقع عند مصب النيل بين عقر وبابل . والمعلومات الطبوغرافية الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٩٧) غير واضحة ، وهي ليست أوضح منها عند ابن سيرايون (B Serapion) . لكن الطبري يذكر (ج ٢ ص ١٣٩٧) أن مسلمة قطع الماء ووصل إلى أعدائه .

على جمهور الجيش ، وهما السَّيِّدُ الكندي وأبورؤبة ، اعتراضاً على مهاجمة أهل الشام ليلاً ، وقالوا لابن المهلب : إنا قد دعوناكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قابلوه هذا منا ، فليس لنا أن نتدر ولا أن نريد لهم بسوء ، حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا^(١) . فاضطر يزيد بن المهلب إلى الخضوع لرأيهم على كره منه ، كما خضع عليّ لجنده يوم صفين من قبل ؛ ولكنه كان قد فقد البقية الباقية من ثقته بمنجوده ، وصرح في يأس شديد بما كان يودّه من أن يكون معه قومه من أزدخراسان بدلاً من تلك الجموع التي لا حصر لها .

وفي يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٠٢ هـ = السبت ٢٤ أغسطس سنة ٧٢٠ م بدأ مسلمة المهجوم ، بعد أن أحرق الجسر وراءه . ولم يثبت أهل العراق ، وكانت تميم الكوفة أوّل من لاذ بالفرار ، وقد شبّه يزيد بن المهلب أنصاره ، وقد انهزموا من غير كبير قتال ، ببق دُخن عليه فطار ، أو بغنم عدا في نواحيها الذئب . ولم يندهش يزيد لذلك ، وقد أشار عليه أبورؤبة بأن يرجع إلى واسط ، فيتحصن بها حتى تأتيه الأمداد ، ولكنه أنف من ذلك وآثر الموت في ميدان القتال ، فلقى الموت فيه . وقُتل معه اثنان من إخوته ، كما قُتل السميّدع الزعيم الورع .

(١) ولعل وضع الأشياء كان كما نصف ، ولا يذكر أبو مخنف أن مسلمة اضطر إلى أن يعبر الفرات (انظر الهامش السابق) . وكان السميّدع أحد زعماء الخوارج من قبل ، أما أبورؤبة فكان من المرجئة . والمرجئة خففوا بموقفهم من حدة التعارض بين الفرق القديمة ، وحاولوا الاقتراب من رأى الجماعة . وهم قد عارضوا أيضاً حكومة الأمويين ، ولكنهم أرادوا أن يتركوا الحكم في أمر عليّ وعثمان إلى الله . وكانوا يرون أن من اتبع إماماً ، ولو كان إماماً غير حق ، فإن ذلك لا يمنع أن يكونوا مسلمين صالحين . وقد عارضوا الخوارج في اعتبار أنفسهم أنهم هم المسلمون دون من سواهم ، وفي أنهم أسرفوا في تكفير كل من عداهم ، فسبوا الله في الحكم عليهم ، يقول أحد المرجئة : إنا معشر المسلمين نؤمن جميعاً بالله وحده خائفين للشركيين ، والإسلام يجمع بيننا ، أما الخوارج فهم مخطئون في رأيهم المخالف لناهما كانوا أتقياء جادين ، ولا أعلم أن آية من القرآن فصلت في أمر النزاع بين عليّ وعثمان ، فسكنى منهما عبد الله وسيحاسبه يوم القيامة على أعماله . هذا هو معنى قول أحد المرجئة الذي لم يترجم فإن فلو تن (Van Vloten, DMZ 1891 ; p 163) عقيدته ترجمة صحيحة .

وأسير نحو من ثلاثمائة من جيش ابن المهلب ، بعد اقتحام معسكره ، وقتل بعضهم بعد ذلك ، وكان منهم طائفة من تميم ، كانوا قد انهزموا بالناس أملاً في أن يعرف لهم جند الشام فضلهم في أنهم بانتهزامهم بالناس قد سهلوا على جند الشام النصر ؛ ولكن أملهم لم يتحقق ، فكانوا أول من ضربت أعناقهم . ومن جهة كان معاوية بن يزيد بن المهلب في واسط ، فلما جاءه الخبر بهزيمة أبيه أخرج اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يده ف ضرب أعناقهم ، وكان منهم عدئ بن أرطاة أمير البصرة ورجال آخرون . ولم يبق معاوية منهم إلا على رجل شيخ من قومه له شرف ومعروف ، لم يتهمه ولم يخف بغيه .

وتفرق سواد الهاربين مع كل ريح ، ولكن المطاردين لم يتعقبوا إلا المهالبة الذين نفروا كالوحوش . وقد اجتمعوا أولاً في البصرة ، وكان معهم بعض أشراف اليمن في الكوفة وبعض سلائل ابن الأشعث ومالك الأشتر . ومن هناك ركبوا السفن ولججوا في البحر حتى نزلوا على شاطئ كرمان . وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلبهم هناك ، فحاولوا الالتجاء إلى قنديل من شاطئ السند ، ولكنهم لم يجدوا هناك سبيلاً إلى الإفلات . فقد لحقهم المطاردون ، وخرج المهالبة بأسيا فهم ، فقاتلوا مطارديهم ، حتى قتلوا عن آخرهم إلا اثنين نجوا ولحقا بخاقان وزنبيل . وأرسلت رؤوسهم المقطوعة إلى الشام ، وعُلقت في حلب ، وأُرسل نساء المهالبة وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك في الحيرة . فأقسم مسلمة أن يبيع ذرية المهالبة ، مخالفاً في ذلك كل آداب الإسلام . ولكن الجراح بن عبد الله الحكي ، وكان رجلاً من أكفأ عمال الأمويين وأخلصهم ، أنقذ ما تقضى به الآداب الإسلامية فعرض على مسلمة أن يشتريهم بمائة ألف ليرة يمين مسلمة . ولكن مسلمة يأخذ المال ، وخلي سبيلهم إلا تسعة فتية أحدث بعث بهم إلى يزيد بن عبد

الملك ، فضرب أعناقهم . أما أموال المهالبة فقد صودرت بطبيعة الحال^(١) وقد أسندت ولاية العراق في أول الأمر لصاحب النصر في موقعة عقر ، وهو مسلمة بن عبد الملك ، فعين ولاية جنداً في السكوفة والبصرة وخراسان ، ولكنه لم يلبث أن عزل لأنه لم يرسل إلى دمشق شيئاً من خراج العراق^(٢) . وعُيِّن مكانه أميراً للأمويين على العراق وعلى ولايات المشرق عمر بن هبيرة الفزاري الذي كان في عهد عمر بن العزيز والياً على أرض الجزيرة . وكان قيساً من أنقى دم في قيس ، وكانت إدارته متمشية مع ذلك^(٣) ، وقد لقيت قبائل الأزد واليمن بوجه عام ، خصوصاً في خراسان ، على يديه عنقاً ، فأبعدوا وأهينوا وعُذِّبَ المواليون للمهالبة أو المتهمون بذلك وأخذت أموالهم ، ولكن كانت قيس هي التي انتصرت واستطاعت أن تشعر بأنها هي السيدة في المشرق كله ، وهي وإن كانت متنازعة فيما بينها ، فإنها أخلصت في الاتحاد أمام القبائل الأخرى . وما له مغزاه في هذا الصدد حكاية يذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٣ فما بعدها) ، وإن كانت حكاية غير جدية بالثقة . فيحكي الطبري أن عمر بن هبيرة عين سعيد بن عمرو الحرشي ، وكان من قيس ، على خراسان ، فكان يستخفُّ بأمر ابن هبيرة ويهزأ به ، فيقول عنه : قال أبو المثنى ، فعل أبو المثنى . فوجه ابن هبيرة رجلاً من قيس أيضاً ، هو معقل بن عمرو ، إلى هراة إما عاملاً وإما في غير

(١) قارن أبيات جرير في تعليق رايسكا (Reiske) على أبي القفا ج ١ ص ٢٠٧ ، وهذه الأبيات غير موجودة في طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

(٢) وكذلك لم يرسل عبد العزيز بن مروان إلى دمشق شيئاً من خراج مصر ، ولم يكن ثم ما يدعوه إلى ذلك . ويجوز أن يكون مسلمة قد عين أميراً على العراق على أن تكون له هذه المزية مكافأة له على ما أحرزه من نصر .

(٣) ويقول الفرزدق الشاعر ، وإن لم يكن عنيلاً بل مضى النسب ، متهمكاً بعد أن عين ابن هبيرة الفزاري على العراق :

ولقد علمتُ لئن فزارةُ أُمِرتُ أن سوف نطمع في الإمارة أشجع
وكانت فزارة هي رأس غطفان قيس وكانت أشجع هي ذنبهم .

ذلك ، فقصد هراة دون أن يمر بالحرشى ، وكتب هذا إلى عامله أن يحمل إليه معقل بن عروة ، فلما جرى به إليه سأله : ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة ؟ فأجاب : أنا عامل لابن هبيرة ، ولأني كما ولأك ! فضربه الحرشى مائتين وحلقه ، فغضب ابن هبيرة وازدادت موجدته على الحرشى ، فعزله ، ثم أسلمه إلى عدوه معقل بن عروة فعذبه وضيق عليه ، وأمره ابن هبيرة يوماً أن يعذبه حتى يموت ، فلما أمسى بن هبيرة جلس إلى سُمَّاره ، كما يفعل الأسراء ، فقال : « من سيد قيس ؟ » فقيل له : « الأمير » ، فقال : « دعوا هذا ! سيد قيس الكوثر بن زفر ، لو بوق بليل لوافاه عشرون ألفاً ، لا يقولون : لِمَ دعوتنا ، ولا يسألونه ^(١) ، وهذا الجمار الذى فى الحبس ، قد أمرتُ بقتله ، فارمها . وأما خير قيس لها فعى أن أكونه ؛ إنه لم يعرض إلى أسرٍ أرى أنى أقدر فيه على منفعة وخير إلا جرته إليهم » . فعند ذلك قال له أعرابي من بني فزاره : « ما أنت كما تقول ! لو كنت كذلك ما أسرت بقتل فارسها » . فلما سمع ابن هبيرة كلامه أرسل إلى معقل بن عروة يأمره بالكف عما كان أمره به من تعذيب الحرشى حتى يقتله . ثم تغير وجه الصحيفة بعد حين ، فاضطر ابن هبيرة إلى الهروب من خالد بن عبدالله القسرى ، وأرسل خالد عدوه الحرشى فى طلبه ، فلما لحقه الحرشى ، وهو فى سفينة يريد أن يقطع الفرات ، سأله : أبا المثنى ! ما ظنك بى ؟ فأجاب : ظنى بك أنك لا تدفع رجلاً من قومك (قيس) إلى رجل من قريش (قسر) ؛ فقال : هو ذاك فالنجاء ! وكان لشبح الحجاج بعد موته من التأثير ما يصعب أن تقرَّ به عينه . وذلك أنه بسبب عداوته فى حياته لابن الأشعث وابن المهلب قد زاد فى حدة النزاع بين

(١) يوصف زفر بن الحارث رئيس قيس فى أرض الجزيرة دائماً بأنه رجل نبيل بنوع خاص ، وبأنه كان فوق المنافسات السياسية ، وقد ورث ابنه : هذيل وكوثر ، ما كان له من جاه ، وكان لهما احترام كبير عند الخليفة . قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٣٦٠ فابعدهما ، والأغانى ج ١٦ ص ٤٢ وديوان الفطامى الذى يقوم الآن بإرث (Barth) بنشره .

قبائل قيس وقبائل اليمن . وقد أدى إلى ذلك تحيز الخلفاء ، أياً كان الجانب الذى مالوا إليه . ثم جاء يزيد بن عبد الملك ، فنكأ ، لاعتبارات أخرى ، ذلك الجرح الذى أحدثه سليمان والذى لم يكن فى أيام حكم عمر بن عبد العزيز قد اندمل إلا قليلاً . وتأثر يزيد بن عبد الملك بالحجاج ، فارتاب بالمهالبة ، وكان يكنّ لهم فى قلبه بغضاً ، وكان تخوفه وارتيابه من مطامحهم فى المشرق لهما ما يبررها ، وكانت ثورتهم سبباً فى انفجار هذا البغض . ولكن إفتناء جميع أفراد ذلك البيت القوى النابه ، وهو فعلة لم يسمع بمثلها فى طول تاريخ الدولة الأموية ، كان بمثابة إعلان الحرب على قبائل اليمن ، وكانت نتيجة ذلك أن حكومة بنى أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس . وكان الخليفة هو الذى يحمل الوزر فى ذلك ، وقد عين ابن هبيرة أميراً على العراق وتركه فى ميدان إمرته الواسع يفعل ما يشاء ، ولم يكن من شىء قد بعثه على ذلك إلا مجرد الرغبة فى الانتقام ، وكان بعيداً عن أن يكون رجلاً سياسياً يدرك مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية لأعماله . أما فى الشام فإنه لم يحاب قيساً على قضاة ، لأن قضاة كانت نواة الجيش الذى انتصر فى موقعة عقر ، وكان الذى قتل يزيد بن المهلب ، عندما جاء لقتال مسلمة بن عبد الملك ، رجلاً من كلب ؛ وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين واستأصلوا شأفتهم .

وقد ابتعد يزيد بن الملك كل البعد عن سياسة التقريب والمصالحة التى جرى عليها عمر بن عبد العزيز قبله مباشرة . ويقول ابن الأثير (ج ٥ ص ٥٠) إنه « عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه ، ولم يخف شناعة عاجلة ولا اثماً آجلاً » . وهو لم يكد يتولى الخلافة حتى عين ولاية جنداً على المدينة وإفريقية من غير أن يُقدّم من فوره على إحداث تغيير منظم وشامل . وأخذ أهل السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية ، بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يُسقطها عنهم . وفعل مثل ذلك مع البربر يزيد بن أبي

مسلم^(١) عامله على إفريقية ، ولكن البربر تآسروا عليه وقتلوه وولوا على أنفسهم الوالى الذى كان عليهم قبله ، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتبوا إلى يزيد ابن عبد الملك يبلغوه ذلك رسمياً : إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ، ولكن يزيد ابن أبى مسلم سامنا مالا يرضى الله والمسلمون ، فقتلناه وأعدنا عاملك قبله . فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبى مسلم ، وأقر عاملهم السابق على إفريقية^(٢) . وكان يزيد لا يمنع ولاته إذا ما تجاوزوا ما أمرهم به ، وكان ضعيفاً قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم . وإذا كان قد خالف عمر ابن عبد العزيز ، فإنه لم يفعل ذلك بباعث من السياسة ، ولا عن قصد . وهو عندما كان يريد أن يصلح من أمر نفسه أراد أن يتشبه بعمر بن عبد العزيز (الأغاني ج ١٣ ص ١٥٧) ، ولكن طبيعته كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل فى الزهد والتحرز من الإثم مما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الأرستقراطيين^(٣) . وهو قد كان نبيلاً فارساً وفتى سيداً أكثر منه حاكماً ، فترك الولايات لأمرائها ولم يهب وقته لأمر الدولة ، بل للهوى والغناء والشراب . ولذلك نجد أهل العبث الذين كان عمر بن عبد العزيز قد أقصاهم يعمدون إلى الحظوة والسكينة الشريفة عنده . وهو لم يكن كثير المراجعة لكرامة البيت الذى كان يمثلها ، بل هو لم يكلف نفسه مؤونة المحافظة على مظهر الخلافة ؛ ولقد لعبت مغنيتان ، هما : سلامة وحبابة ، دوراً كبيراً فى بلاطه ، وكان

(١) [كان يزيد بن أبى مسلم مولى للحجاج ، ويظهر أنه أراد أن يسير سيرته فى رد من لحق بالمدن من مسلمى الموالى إلى قراهم ورسانيقهم وفى وضع الجزية على رقابهم ، كما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم (راجع الطبرى) ج ٢ ص ١٤٣٥ -- المترجم] .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٤٣٥ . ويقول البلاذرى (ص ٢٣١) إن الذى قتل الوالى هم حرسه من البربر ، لأنه أراد أن يسم كل امرئ منهم على يده : حرسى .

(٣) [يصفه السعوى فى التنبيه (ص ٣٢٠) بأنه كان ثغوراً متكبراً بحب اللهو ، لا يعرف صواباً فيأتيه ولا خطأ فيدعه -- المترجم] .

من يريد بلوغ شيء يلجأ إليهما . و يروى أن ابن هبيرة نفسه قد وصل من هذا الطريق إلى المنصب الرفيع الذي وصل إليه (ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥ فما بعدها والأغانى ج ١٣ ص ١٥٧) . وقد جزع على موت حباية جزعا أخرجه عن كرامته ، حتى أن مسلمة بن عبد الملك رجاء ألا يظهر في الناس على الأقل في هذه الحالة التي لا تليق بخليفة . وقد مات بعد حباية بسبعة أيام ، وظن الناس أنه مات كمدأ على فقد فتاته المحبوبة^(١) .

يحكى تيوفانيس أن عمر بن عبد العزيز كان يطمح إلى أن يدخل القيصر ليو (Leo) في الاسلام ، وهو يحكى فوق هذا أن يهوديا عرفا من أهل اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك إن خلافته ستمتد أربعين عاما إن هو كسر الصور التي في الكنائس النصرانية بمملكته ؛ ويمضى تيوفانيس فيقول إن ذلك بعث يزيد على إصدار أمر عام بتحطيم الصور المقدسة ؛ ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل ؛ بل إن هذا الأمر لم يبلغ إلا دوائر ضيقة ؛ ولكن القيصر ليو كان على هذا الرأي الشنيع المخالف للدين ؛ وقد قواه في ذلك نصراني اسمه بشر ، على أسماء العرب ؛ وكان وهو أسير حرب في الشام قد اعتنق الإسلام ؛ ثم ارتد عنه بعد أن أطلق ولكنه بقيت في نفسه آثار منه ، وهذا ما يقوله تيوفانيس ؛ رآه ما يدعو إلى الشك الكبير في وجود هذا الأمر الشيطاني الذي يقال إن الخليفة أصدره أنه لم يعرفه إلا الأقل من الناس ؛ أما مجرد ما يقال من أن يهوديا تنبأ للخليفة بأن تمتد خلافته أربعين سنة فهو موجود عند الطبري أيضا^(٢) ؛ ولكن النبوءة لم تتحقق ، فلم تدم خلافة يزيد الثاني إلا أربع سنين . فقد توفي يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ (٢٦ يناير سنة ٧٢٤ م) في

(١) [يجد القارى أخبار حباية ويزيد في كتاب الأغاني (ج ١٣ ص ١٥٤ — ١٦٦) ، ومى مفصلة تفصيلا كافيا ، كما يجد شيئا من ذلك عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٤ — ١٤٦٦ — المترجم) .

(٢) [الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ — ١٤٦٤ — المترجم] .

البلقاء من أعمال دمشق^(١) . وتختلف الروايات في عمره بين ثلاثة وثلاثين وبين أربعين عاماً .

٢ — وكان يزيد قد جعل ولاية العهد لأخيه هشام ثم لابنه الوليد بن يزيد من بعده ، ويلاحظ المؤرخ الإسباني الذي كتب مكملاً لتاريخ إيزيدور أن :

Talis enim inter Arabes tenetur perpetim norma, ut nonnisi cunctas regum successiones prerogative a principe percipiant nomina, ut eo decidente absque scandala adeant regiminis gubernacula. (٢)

ومما استلقت النظر في الحقيقة ترتيب ولاية العهد من طريق الوصية .

وقد سُمي هشام بن عبد الملك باسم جده لأمه : هشام بن اسماعيل المخزومي ، وقد حابى أخواله . وهو تسلم شعار الخلافة ، وهو العصا والخاتم ، في الرصافة^(٣) ، وهي مدينة كانت قد بنتها الروم على حافة صحراء الشام ، غير بعيد من الرقة ، وكان قد جدد بناءها ، وكان — وهو خليفة — يؤثر الإقامة بها ، لأنه كان يكره هواء دمشق خوفاً من الطاعون . وتلقى هشام البيعة في العاصمة . وكان قليل الشبه بأخيه ، فكان بعيد النظر متيقظاً طيب السيرة . وأول صفاته أنه كان يعرف كيف ينجح في مشروعاته ، ولكنه كان يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر بن

(١) يقول المؤلف إنه توفي يوم الأربعاء في إربد من أعمال شرق الأردن، وهو بهذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ وفي التنبيه للسعودي ص ٣٢٠ — المترجم [.

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وهكذا كانت القاعدة المرعية بين العرب دائماً ، بحيث تكون ورائة العرش من حق الخليفة ؛ فهو الذي يعين من يأتي بعده ، حتى إذا مات وصل من بعده إلى دفة الحكم من غير غدر — المترجم] .

(٣) يقول الطبري خلافاً لذلك إنه تسلمها في حمص (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ س ١٦) [لا يقول الطبري في هذا الموضع أكثر من أنه لما مات يزيد كان هشام في حمص . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٦ — ١٤٦٧) أن الخلافة أتت هشاماً وهو بالزيتونة في منزله في دويرة له هناك ... فجاءه البريد بالعصا والخاتم . وسلم عليه بالخلافة ، فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق — المترجم] .

عبد العزيز ، ولم يكن عنده شيء على الإطلاق من تلك الروح المثالية المعروفة عن عمر^(١) .

وكان أول ما فعله أن كسر شوكة القيسيين الذين كانت قد أخذتهم العزة بالإثم في المشرق ، فعزل عمر بن هبيرة وعين مكانه خالد بن عبد الله القسري في شوال سنة ١٠٥ هـ (مارس سنة ٧٢٤ م) ، وبذلك صار على العراق واليمن يمكن أن يُعتبر في عداد زياد والحجاج إلى حد ما . وشخصه يثير من عطفنا عليه أكثر مما يثيره شخص الخليفة نفسه ، وإن كنا نعلم عن سقوطه وما جر من نكبات أكثر مما نعرف عن أعماله أيام ولايته .

كان خالد بن عبد الله القسري قد بدأ حياته في عهد الحجاج ، وأُرسل بناء على سعي الحجاج إلى مكة في سنة ٩١ هـ ، لكي يحول بين أهل الشقاق والفتنة من سكان العراق وبين أن يتخذوا البيت الحرام مأوى لهم . وقد قام بهذه المهمة بأن حرّم على الناس إيواء أهل الفتنة وجعل أصحاب الدور مسئولين عن ينزل فيها . وقد نال التقدير إلى جانب هذا في البلاد المحيطة بمكة لما قام به من إجراء المياه فيها ، لكنه لم ينل من الشكر على ذلك أكثر مما ناله بيلاطوس (Pilatus) على مثله في بيت المقدس . ونظراً لأنه كان من صنائع الحجاج فإن سليمان بن عبد الملك عزله ، ولم يسند إليه بعد ذلك عمل ، حتى رفعه هشام ، وعهد إليه بأهم منصب في الدولة . وقد جعل خالد مقر ولايته في واسط ، كما فعل الحجاج من قبل ، وتفرغ للأعمال السلمية . ويظهر أنه كان رقيق الطبع لين الجانب ، وإن كانت لم تعوزه المهمة^(٢) .

(١) [يجد القارىء شيئاً كثيراً من سيرة هشام عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ — ١٧٤٠ — المترجم] .

(٢) يقول فايل (Weil, I, 620) معتمداً على الطبرى : إن خالداً عامل الوالى الذى كان قبله معاملة قاسية وإنه قتله أخيراً ؛ ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في طبعة ليدن لكتاب الطبرى ، أما الذى عند الطبرى فهو أن ابن هبيرة أفلت من طلب خالد إياه وأنه عاد إلى وطنه قسرين ، فوقع في يد الخليفة فأمر بجلده مائة سوط ، ولكنه رغم ذلك غضب كل الغضب من =

ولم يكن يعتبر في عداد أهل الحرب، بل كان يعتبر من أجبن الناس. وكان الناس ينعون عليه أنه كان مرة على المنبر، فجاءه خبر ثورة قام بها الشيعة في الكوفة، فدهش وتحير، فقال: «أطعموني ماء». وتبين فيما بعد أنه لم يهلك في هذه الفتنة سوى ثمانية من الفرس. على أنه لم تكن هناك إلا مناسبات قليلة تدعو خالداً إلى إخراج السيف من قرابه. وفي أواخر إمرته حدثت بعض الفتن من جانب الشيعة والخوارج، ولكن واحدة منها فقط هي التي اتخذت صورة ذات بال^(١). وعلى الجملة عاشت العراق في عهده فترة من الهدوء غير مألوفة في طولها، وازدهرت الحياة الاقتصادية فيها (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٨ س ١٣ فما بعدها). ولكنه رغم هذا لم يكن محبوباً، بل عودى ألد العداء، وقد جمع صاحب الأغاني (ج ١٩ ص ٥٢ فما بعدها) كوما كبيراً من حكايات أصحاب المثالب في حقه؛ ويوجد عند الطبرى أيضاً مقدار كاف من ذلك.

وكانت قبيلة قسر التي ينتمى إليها خالد فرعاً من بجيلة، وكانت بجيلة في

== يزيد بن هيرة لأنه لم يرض أن يزوج ابنته لابن الخليفة. وأيضاً عامل خالد بعض الثوار معاملة لينة ولم يحرقهم إلا بأمر من الخليفة (الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٨ — ١٦٢٩). أما الكميّ الشاعر فإن خالداً لم يطلقه، فيما يقال، إلا لكي يخرج من المصيبة إلى مصيبة أكبر منها عند هشام.

(١) كان الفرس الثمانية الذين نادى من أجلهم خالد بقدرح الماء هم المسمون "وصفاء الكوفة"، وكان على رأسهم المغيرة بن سميّد "الساحر" وبيان [بن سمان؟]. ويجوز أنهم كانت لهم صلة بالدعوة العباسية. وأيضاً يظهر أن وزير السخثاني (تاجر السفين — قارن يحيى بن آدم ص ٣٤ س ١٨)، وهو الذي ألقى بجماعته ناحية الكوفة، كان مولى فارسياً وأنه كان من إحدى فرق الشيعة. أما الصحارى بن شبيب وبهلول بن بشر فكانا من الخوارج العرب. أما الأول فهو ابن شبيب المشهور، وقد أغار في ثلاثين رجلاً من بكر من ناحية جَبَل على الدجلة على ضيعة خالد المسماة «المبارك». وأما بهلول فقد قام بثورة أكبر شأنًا، وذلك بأن خرج من الموصل وانتصر مرتين على الجند الذين أرسلوا لقتاله، ولكنه قتل بعد ذلك في موقعة الكحيل. والذي روى أمر هؤلاء الثوار عند الطبرى هو أبو عبيدة [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦١٩ — ١٦٢٩ (أخبار المغيرة وبيان) و ص ١٦٣٣ — ١٦٣٤ (أخبار الصحارى بن شبيب) — المترجم].

الجاهلية قد مرقتها خلافاً داخلية كبيرة ونزلت مرتبتها حتى لم يعد لها شأن ، ولم يرتفع أمرها من جديد بعض الشيء إلا بعد الإسلام . وإذن فلم تكن لخالد قوة تؤيده من قومه ، ولم تكن وراءه قبيلة قوية ذات نباهة يستطيع أن يعتمد عليها . وهذا وإن بدا أنه كان مما يفت في عضده ، فقد كان مما يساعده في مقابل ذلك على القيام بأعباء منصبه أن قبيلته بجيلة لم تكن تنسب إلى مضر ولا إلى اليمن ، فهو لم يكن مضطراً بحكم نسبه أن يتخذ في النزاع بين مجموعات القبائل المتخصصة موقفاً معيناً . ولكن قيساً كانوا بطبيعة الحال مضطرين إلى أن يعتبروه عدواً لهم ، لأنه كان قد أرسل لكي يزيل ابن هبيرة « خَيْرَ قَيْسٍ لَهَا » ولكي يزيل سلطانهم . ويظهر أيضاً أن سائر قبائل مضر لم تقبل تعيينه قبولاً حسناً ، وقد قُدِّرَ لأحد أشرف تميم في البصرة ، وكان معانداً لواليتها من قبله وهو من أبناء أبي موسى الأشعري ، أن يلقي حتفه من جراء ذلك^(١) . وخالد نفسه ، وإن كان قد جاء بنية التمسك بالحياة ، فإنه انجمر في تيار المنازعات بين الأحزاب ، وقد دفعته عداوة مضر ، طائعاً أو مختاراً ، إلى أن يأخذ جانب اليمن ؛ وهو يبدو ، بحسب الروايات ، من أول الأمر ، يمنياً لهماً ودمياً^(٢) « شديد العصبية على مضر والبغض لهم »^(٣) هم ومن ينتمى إليهم من قريش حتى أنبياءهم . ومن المضحك ما يحكى من أنه كان ، بما يشعر به من شرف بجيلة ، لا يخفى ما يخالج نفسه من إحساسات ؛ ولا شك أن فيما يحكى من ذلك مبالغة كبيرة ، ومن هذا الوجه شتان

(١) [لم أحتد إلى هذا فيما قرأته من نصوص . — المترجم] .

(٢) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٤٦٨ — ١٤٧١ — المترجم] .

(٣) [الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ . وقد اقتبسنا هذه العبارة لتكون أبلغ في التعبير عما يريده المؤلف من أن خالد بن عبد الله القسري « كان في صدره احتقار لمضر » . وتجد ذكر تعصب أسد بن عبد الله القسري أخى خالد على مضر مما كان سبباً في عزلها عن خراسان عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٩٧) فابعداها (وتجد نخر خالد وغروره وما كان من عزل هشام إياه عند الطبري ، ج ٢ ص ١٦٤١ — ١٦٥٨ — المترجم] .

ما بينه وبين يزيد بن المهلب زعيم الأزدي غير مدافع ، ولم يكثر أهل اليمن من الضجيج في رفع شأنه إلا بعد عزله وخصوصاً بعد موته ، واتخذوه ذريعة للثورة دون أن يريدوا على ذلك ، بل على كره منه . أما هو فقد كان يعلم تماماً أنه لم يصب الأموال ويبلغ الرفعة إلا بفضل بني أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٦ — ١٦٥٧) ، وكان يشعر بأنه خادمهم ، لأنه رئيس قبيلة أو رئيس حزب . وقد أثبت ولاءه لبني أمية بأن اشتد في معارضة هشام ، لما أراد مخالفة وصية يزيد بن عبد الملك وإخراج ابنة الوليد بن يزيد من ولاية العهد ، وإن كان خالد لم يكن يجهل ما سيصيبه من هشام . وقد حافظ خالد بعد سقوطه أيضاً على صدق الولاء لبني أمية ، وكان من شأن هذا الولاء ، خصوصاً في ذلك العصر ، أن يظهر كأنه في نور باهر .

وقد جرّ خالد على نفسه إلى جانب عداوة قيس عداوة الإسلام أيضاً . فقد كانت أمه رومية نصرانية ، وظلت على نصرانيتها ، وقد بنى لها كنيسة في الكوفة في ظهر قبلة المسجد الجامع ، وهو سمح للنصارى بوجه عام بأن يبنوا كنائس جديدة^(١) وكان متسامحاً مع اليهود أيضاً . واستعمل في أعمال الخراج وفي الإدارة كثيراً من المجوس ، وعابه بهلول الخارجي بأنه « يهدم المساجد ويبنى البيع والكنائس ويولّى المجوس على المسلمين ويُنيكح أهل الذمة المسلمات » . وقد حكيت عنه فضائح تقشع لها الأبدان^(٢) ، فقل إن أصله من يهود تيماء وإن جده كان أباقاً من مواليه عبد القيس من هجر ، وإنه كان في حدائته في المدينة يتخنّث ويتبع المغنين والمخنّثين ، وإنه كان يمشى مع عمر بن أبي ربيعة صاحب

(١) ولكن النصارى في الحيرة ، وهي المدينة النصرانية قرب الكوفة ، أخذوا جانب أعداء خالد لما سقط (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٣) .

(٢) يبعد القارىء كثيراً من أخبار خالد في الأغاني ج ١٩ ص ٥٣ — ٥٦ ، وقارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٣ المترجم .

التشبيب الكثير ويترسل بينه وبين النساء ، حتى كان يقال له : خالد الخريّيت ، وإنه زنديق كافر فاسق ، وإنه قال عن بثر زمزم — وكان قد عرف كيف يقلل من شأنها بإنشاء مجرى مائى جديد — إنها « أمّ الجعلان » ، وإنه قال مثل هذا الفسق عن الكعبة وعن النبي عليه السلام وآل بيته وعن كتاب الله نفسه . ويجوز أنه قال ما يُنسب إليه في مقام التعريض بغباء أهل الورع من أنه لا يوجد رجلٌ عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب . ويظهر أنه كان يشعر بتفوقه العقلي ، وأنه لم يكن دائماً يمسك لسانه الفصيح ، حتى صدرت منه عباراتٌ نابية استُغلت في التشنيع عليه ^(١) .

وقد فعل خالد إلى جانب ذلك ما جعله هدفاً لمطاعن أخرى ، فقد امتاز باهتمامه الشديد بأمور الزراعة ، وكان في ذلك يناقش هشام بن عبد الملك . وهو قد مضى فيما كان الحجاج قد بدأه ، وكان الإخصائي الفقى الذى تولى في عهده أعمالَ التحفيف في جهة واسط في مستنقعات دجلة الأدنى هو حستان النبطى الذى خدم الحجاج من قبل . وقد عمل خالد في ذلك أكثر مما يعود عليه بالنفع ، فاقتنى من طريق تحفيف المستنقعات مساحةً من الأرض واسعةً وخصبة جداً ، ويحصى الطبرى (ج ٢ ص ١٦٥٥) ضياعه الكبيرة بأسمائها . وقد حصل له مما أخرجته تلك الضياع غلاتٌ هائلة . ولم يكن يبالي بالمال ، وكان يسرف في الهبات ، خصوصاً لخدمه وخاصته ، فجعلهم بذلك موالين لشخصه . وكان يسرّه أن يظهر بمظهر السيد الكبير ، لكنه كان بخيلاً على الطعام لا يوسع فيه ، وكان يفتناظ بمن يأكل من الضيوف فيكثر .

ولا عجب أن ينشأ التذمّر من هذا كله . وقد سخط الناس بالإجمال على حفره الأنهار ، أعنى استصلاح مساحات كبيرة من الأرض البكر ، وكان لا يستطيع

(١) [راجع مثلاً الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ — المترجم] .

ذلك إلا أهل الحظوة والحظ من يؤذن لهم فيه وتكون لديهم وسائل الزراعة .
وقد أقبل على هذا العمل في ذلك العهد إقبالا كبيرا وعلى أوسع نطاق أمراء البيت
المالك وخصوصا هشام بن عبد الملك ، ولكن الناس ما كانوا يستطيعون أن
يتجرأوا بسهولة على هشام ، فتجرأوا على عامله خالد الذي كان حتى من غير ذلك
مكروها عند طوائف كبيرة . وربما يكون الناس لم يتكلموا في العيب على خالد
أنه استغل نفوذه في منصبه من أجل مصلحته الخاصة ، لأن ذلك كان هو العادة
في ذلك الوقت ، ما دام صاحب النفوذ يحترم حق الأفراد فيما يملكون ويحمل إلى
دمشق مما يفضل من الخراج مقدارا كبيرا . أما الذي أخذ على خالد فهو أنه كان
يؤخر بيع غلاته فيرتفع سعر القمح . وكان الناس يعتقدون أيضا أن المال الذي
يبيعه حوله لم يحصل عليه مما يخرج إليه من ضياعه وحدها ، بل اعتقدوا أنه كان
يختلس من بيت المال الذي كان تحت يده مبالغ كبيرة . وهكذا أثارت أموال
خالد عليه الحسد ، وجاءت طريقته التي كان يحاول بها أن يجعل لنفسه أصدقاء
فخلقت له أعداء يزيدون بكثير على ما خلقت من أصدقاء .

ورغم هذا فإنه لبث في إسرته على العراق زهاء من خمسة عشر عاما ، وهي
أطول مدة قضاها وال على العراق ، إذا استثنينا الحجاج . وربما يحسب من الفضل
للخليفة أنه استبقاه في الإمرة هذه المدة الطويلة ، ولكن الخليفة أطاع إلحاح
أعداء خالد آخر الأمر ، وذلك أن قوما من أشراف قریش ومن الأمويين ممن
كان خالد قد استخف بهم وعظمهم بلسانه ، تضافروا مع قيس عليه (الطبري ج ٢
ص ١٦٤٢ و ١٦٥٥ فما بعدها) ، وحاولوا أن يضموا إليهم حسانا في الدس له ،
وكان حسان عليا بأحواله . أما هشام فلم يكن في الحقيقة يرتاب به من الناحية
السياسية^(١) ، ولكنه رغم هذا أحس بشئ من الغيرة منه ، وكان يستطيع في

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨١٤ — المترجم] .

الواقع أن يعتبره منافساً له من الناحية الاقتصادية . وقد ارتاب في أمره أيضاً بسبب ظهوره بمظهر الرياسة والكرم ، وبسبب كلمات له كان يقولها استخفافاً بهشام وبلغت هشاماً^(١) ، فتغير له وعزم على أن يعزله وأن يعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي القيسي ، أحد أقرباء الحجاج ، وكان يوسف قد تولى إمرة بلاد اليمن سنين طويلة . وعند ما كان يحدث مثل هذا التغيير كان الأمير المعزول في كثير من الأحيان يُفاجأ بالأسر الواقع ، فلا يعلم بعزله إلا إذا قدم عليه من سيخلفه في منصبه وأخذه ليحاسبه على أعماله ، فكان لا يُعطى له من الوقت ما يتمكن فيه من الاستعداد للمفاجأة ؛ ولكن السرية التي اصطنعها هشام في هذه الحادثة كانت شيئاً غير مألوف وتروى في ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٧ فما بعدها) حكاية مسلية^(٢) . وذلك أن هشاماً أخفى تعيين يوسف بن عمر ، حتى على حامل كتاب التعيين ، وأمره أن يُقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة فجأة ، وذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٠ هـ^(٣) (مايو سنة ٧٣٨ م) ، وهناك وضع نصارى الحيرة وثقيف ومعههم آخرون من مضر في الكوفة أنفسهم تحت تصرفه ولم يقاومه أحد . أما خالد فكان في واسط ورضى بأن يقبض عليه وأن يؤمّر هادئاً . وكان حبسه في الكوفة ولم يحمل يوسف بن عمر مقر ولايته في واسط بل في الحيرة . ويظهر أن الحيرة ، وهي المدينة النصرانية الصغيرة قد بدت أكثر ملاءمة لأن تكون مقر الجند من

(١) [نقل إلى هشام أن خالداً كان يقول عنه : ابن الحفاء أو الأحوال (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٦ — ١٦٤٧) . وكانت أم هشام حفاء حقيقة (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٦) . ولكن هشاماً كان « عشواً عقلاً » (الطبري ج ٢ ص ١٧٣١ س ٤) ، أما غيره هشام من خالد لما كان قد افتناه من أموال وضياع فهي موجودة عند الطبري ج ٢ ص ١٦٤١ — ١٦٤٧ — المترجم] .

(٢) [لم تفصل هنا شيئاً وليراجع القارىء القصة عند الطبري — المترجم .]

(٣) [هذا بحسب الطبري ج ٢ ص ١٦٥٨ ، ١٨١٢ ، ولكن قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٥٢ — المترجم] .

مدينة الكوفة الإسلامية المجاورة لها ، الحافلة بالسكان المسلمين ، وقد منع هشام نفسه يوسف من أن يعسكر بجند الشام بين أهل الكوفة .

ولبت خالد في السجن مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر ابن أسد ثمانية عشر شهراً ، ولم ينصره أحدٌ من اليمنيين بيد ولا بلسان إلا رجلٌ عيسى من قيس ، فإنه قال (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ — ١٨١٧) :

ألا إن بحر الجود أصبح ساجياً أسير ثقيف مؤثقا في السلاسل
فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان لا بد من أن يحاسب على أموال الدولة ، ومعنى ذلك أن يعترف بأنه رزاً مبلغاً كبيراً وأن يتعهد بدفعه ، وكان التعذيب للوصول منه إلى ذلك هو الوسيلة المُجَرَّبَة . وقد استأذن يوسف بن عمر هشاماً في إطلاق يده على خالد وتعذيبه ، فلم يأذن له هشام ، حتى أكثر عليه يوسف وألح ، فأذن له مرة واحدة وبعث حرسياً يشهد ذلك ، وحلف لئن أتى على خالد أجله ، وهو تحت العذاب ، ليقتلنه به ^(١) . وفي شوال سنة ١٢٠ هـ (سبتمبر سنة ٧٣٩ م) أسر هشام بتخيلية سبيله ، لأنه لم يمكن استخراج شيء منه ، فذهب خالد إلى بلدة «القرية» ، بإزاء باب الرصافة ، فأقام حيناً ، وهشام لا يأذن له في القدوم عليه ، واضطر خالد إلى الاكتفاء بمكاتبة الأبرش السكابي ، وكان مستشار هشام الذي يثق فيه . وبعد أن أقام خالد حتى شهر صفر سنة ١٢٢ هـ (يناير سنة ٧٤٠ م) سار حتى نزل دمشق ، وأقام فيها بعد ذلك . على أن يوسف بن عمر لم يمسك عن مطاردة الغنيمة التي أفلتت من بين مخالبه ، وأقنع الخليفة المتمنع ، في آخر الأمر ، بأن يأذن بأخذ يزيد بن خالد على الأقل ، فأذن له بأخذه ، واسكن يزيد أفلت بالفرار . وقد تحامل على خالد إلى جانب يوسف بن عمر كلثوم بن عياض القسري ، صاحب شرطة دمشق ،

(١) [الطبري ج ٢ ص ١٨١٢ — ١٨١٣ — المترجم] .

وإن كان لا يتحتم أن يكون قد اتفق مع يوسف ، فقد كان ابن عمه لخالد . وكان بحكم وظيفته هو الذي يراقبه . وسواء عن حسن نية أو عن تحامل وغيره من خالد فإن كلثوما اتهم موالي خالد ، وهو وابنه يزيد في غزوة الصيف التي كان يوجَّه بها هشام في بلاد الروم ، بأنهم هم الذين أحدثوا تلك الحرائق التي كانت تظهر كل ليلة في دمشق ، حتى أنت على الكثير من دورها^(١) ، بقصد الوثوب على بيت المال . وصدق هشام ذلك ، لأنه لم يتهم كلثوما بالتحامل على ابن عمه ، وكتب إلى كلثوم يأمره بحبس آل خالد ، الصغير منهم والكبير ، والموالي والنساء . ولم يثبت أن ظهر أن خالد لم يكن له أية علاقة بالذين كانوا يحدثون الحرائق وأنها كانت من فعل رجل من أهل العراق يُقال له أبو العمرس وأصحاب له ، فكانوا إذا وقع الحريق أغاروا بسرقة ، لكنها كانت من فعل قوم من أهل العراق على كل حال . وعند ذلك كتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويمنّعه ويأمره بتخاية سبيل جميع من حبس . حتى إذا رجع خالد ، وكان قد علم بحبس آلهم ولم يعلم بتخاية سبيلهم ، غضب غضباً شديداً ، وظهر غضبه لما اجتمع الناس في داره ، إذ قال فيهم : « خرجتُ غازياً في سبيل الله سامعاً مطيعاً ، فتخلّفت في عقبى وأخذت حرمي وحرم أهل بيتي ، فحُبِسوا مع أهل الجرائم كما يُفعل بأهل الشرك ، فما منع عصابة منكم أن تقوم فتقول : علام حُبِس حُرْمُ هذا السامع المطيع ؟ آية كُفِّنَ عني هشام أو لأدعون إلى عراق الهوى شامئ الدار حجازي الأصل — يعني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس — وقد أذنتُ لكم أن تبلغوا هشاماً . وفي مناسبة أخرى أراد هشام سؤال خالد ، لما بلغه من أنه أذن لرجل أن يمتدحه مُتَقَرِّباً إليه بعبارات فيها اجتراء على مقام الذات الإلهية . فأجاب خالد بأن في الرواية تحريفاً ، واتهم الخليفة بمثل ما اتهمه به أعداؤه ، فكظم الخليفة غيظه واكتفى

(١) يذكر توفانيس (حوادث سنة ٦٢٣٢ من تاريخ الخليفة) هذه الحرائق أيضاً . فلا بد أنها أثارت شتتاً من السخط والذعر .

بأن قال : « خَرَفَ أبو الهيثم » ^(١) ، يعني أنه يهذى بما لا يدري . وكان هشام دائماً لا يتخذ خطوة مؤذية لخادمه القديم إلا كارهاً ، لأنه لم يكن في الحقيقة يشك في ولائه له ^(٢) ، وكان يندم في كل مرة على ما فعل . ويكفي من النبيل لهشام أنه كان يشعر بالخجل وأنه لم يحمل غضب خالد على محمل سوء ، بل رأى فيه دليلاً على حسن طويته . وقد أذن له في السنين الأخيرة من خلافته أن يقيم في دمشق دون أن يتعرض له ، ولكن لا شك أنه لم يكن ينظر بعين الرضا لما كان يراه من محبة لخالد عند الناس .

وإذا كان المدوَّع قد ساد العراق سنين طويلة في عهد خالد ، فإنه لم تلبث بعدها أن حدثت في العاصمة في عهد خلفه نورة كانت تؤذن بأحداث غير معروفة العواقب . ذلك أن زيد بن علي بن الحسين بن علي^(٢) كان قد خرج من المدينة ، موطن أسرته ، على كره شديد منه ، ووقع في الكوفة ، لكنه بقي هناك لا يستطيع الفكاك ، لأنه وقع في أيدي الشيعة ، فأمسكوه عن الخروج ، وقالوا له إنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية ، وإن سيادة بني أمية في الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام ، لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من أهل الكوفة يضربون دونه بسيوفهم . واغترَّ زيد بكلامهم ، ولكنه أخذ لنفسه الحيلة ، فكان دائماً يغير الدار التي ينزل فيها ، واستمرت إقامته في الكوفة نحو عشرة أشهر في الجملة ، وفي خلال هذه الفترة اتخذ الأُهبَة للثورة . وضمَّ لنفسه أنصاراً في البصرة والموصل أيضاً ، وبايعه الناس في الكوفة حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل ، وكانت بيعته التي يبايع

(١) [راجع الطبری ج ٢، ص ١٨١٤ - ١٨١٩ - المنجم].

(۲) [" " " " ۱۸۱۴ — ۱۸۲۰ — المرجع] .

(٣) [١٦٦٧ — ١٦٩٨، ١٦٨٨ — ١٧١٤ — المترجم.]

عليها الناس : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد
الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفء بين أهل
السواد ، ورد المظالم ، وإقفال المُجَمَّر^(١) ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا
وجهل حقنا » ؛ فإذا قبلوا البيعة على ذلك أخذ عليهم عهد الله وذمة رسوله بالوفاء
وأشهد الله . ولبت يوسف بن عمر غافلاً زماناً طويلاً لا يدري عن الحركة شيئاً ،
ولكنه أفلح أخيراً في أن يحصل على معلومات عما يُدبره زيد ، من رجلين من
الموالين له كان يوسف قد قبض عليهما . ثم عرف أيضاً أن زيدا ، على أثر هذا
القبض ، قرر التعجيل بالثورة مخافة أن يؤخذ ، وأنه حدد لها ليلة الأربعاء أول
ليلة من صفر سنة ١٢٢ هـ (٦ يناير سنة ٧٤٠ م) ، فأمر يوسف بدعوة أهل
الكوفة في يوم الثلاثاء السابق على يوم الثورة ، وجمعهم في المسجد الأعظم ،
وهناك حصرهم ، وغلق عليهم أبواب المسجد ، ووضعهم في حراسة طائفة من جند
الشام . ويظهر أنهم بعد أن تبينوا خطأهم كانوا راضين كل الرضا عن نجاتهم في
المسجد من عواقب ما أقدموا عليه . ولما جاء زيد ، ومعه مائتان وثمانية عشر
رجلاً ، كان قد جمعهم في ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد الشديد ، وأراد أن يخلصهم
من الحصر ، لم يتحركوا ، واضطر أن ينسحب من أمام المسجد ، لأن ألفين من
جند الشام كانوا قد قدموا من الحيرة لمحاربتهم ، فردّهم زيد في يوم الأربعاء ، وثبت
في يوم الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رُماة النشّاب من القيقانية والبخارية
حتى جاء الليل ، فأصيب زيد بسهم في جانب جبهته اليسرى ، فرجع ومعه أصحابه
فدخلوا الكوفة . ومات زيد من السهم ، ووقعت جثته في يد أهل الشام ، وصُلب
جسده في الكوفة . وأما رأسه فقطّع وأُرسل إلى هشام بن عبد الملك في الشام ،
فأمر به فنُصِب على باب مدينة دمشق ، ثم أُرسل به إلى المدينة ، ومكث بها

(١) [يقصد من طالت غيبته عن أهله يحارب في بلاد بعيدة عنهم — المترجم] .

مسلوباً حتى مات هشام . وأما ابنه يحيى ، وكان غلاماً حدثاً ، فقد استطاع أن يفر إلى خراسان ، فأقام مخفياً في بلخ سنين كثيرة . ولكنه عُرِف بعد ذلك ، فصار ينتقل من مكان إلى مكان ، حتى قُتِل سنة ١٢٥ هـ ، في عهد الوليد بن يزيد ، وهو يحارب من كانوا في طلبه^(١) .

ومع أن هذه الثورة قد انتهت إلى نهاية يرثي لها ، فإنها كانت ثورة لها شأنها ، لأن ثوارتٍ شيعيةً أخرى أعقبتها . وأمام هذه الثورات سقطت دولة دمشق آخر الأسر ، ولم يلبث بعد مقتل يحيى أن نهض أبو مسلم لينتقم له ، فقتل قاتليه .

٣ — ولا شك أن المؤرخ يخطئ في تصوير هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لا هم له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية . على أن هشاماً لم يكن جندياً^(٢) ، ولكنه لم يكن يهرب الحروب ، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل ، وجهز جيوشاً كبيرة ، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال . وكانت يده دائماً مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعداً .

ففي أول حكمه استأنف قتال الروم ، وكانت الحروب معهم قد توقفت بعد أن أدى غزو القسطنطينية في سنة ٩٨ — ٩٩ هـ (٧١٦ — ٧١٧ م) إلى استنزاف قوى الدولة دون أن يؤدي إلى نتيجة . ويحكى البلاذري (ص ١٦٥ — ١٦٧) أن هشاماً بنى حصوناً ومسالح في مواجهة الروم ، وكان يقوم كل صيف بغزوات كبيرة ، وكان في كل مرة يوجه غزوتين أو ثلاثاً في وقتٍ معاً لتلتقي في نقطة واحدة . وكان الذي يقود هذه الغزوات ابنه معاوية وابنه سليمان ، وكان كل منهما رجلاً حرب مولعاً بها . أما معاوية فهو جد الأمويين في الأسس ، وقد مات في سنة ١١٨

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧١٣ — ١٧١٤ ، ١٧٧٠ — ١٧٧٤ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٣٥ — ١٧٣٦ — المترجم] .

أو ١١٩ هـ (٧٣٦ - ٧٣٧ م) في بلاد الأعداء ، ويروى أنه ثار بين يديه ثعلبٌ ، فركض خلفه ، فمثر به فرسه ، فسقط ومات ، فقال هشام متوجعاً : تالله لقد أجمعتُ أن أرشحه للخلافة ، ويتبع ثعلباً^(١) . ولكن البطل الأكبر في هذه الحروب كما تصوّره الروايات والأساطير هو عبد الله البطل ؛ وقد بذل المسلمون في حربهم للروم جهوداً كبيرة وأفلحوا في افتتاح بعض القلاع والمدن ، ولكنهم كانوا لا يستطيعون الثبات فيها في الشتاء ، يقول أحد المؤرخين الروم :

Nonnulla prospera per duces exercitus a se missos in Romania terra et pelago gessi^(٢)

على أن الروم لم يخفّوا في الدفاع عن أنفسهم ، ففي سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) قضا على جيش عربي عند اكرونيوس (Akronius) من أعمال أفريقية (Phrygien) . وفي هذه الموقعة قُتل عبد الله البطل . وفي السنة التالية قام الروم من جانبهم بالهجوم على عاصمة بلاد ملطين (Melitene) ، ولكنهم ارتدوا لما خرج هشام بنفسه مسرعاً من الرصافة وملبياً نداء العرب المحاصرين . وإلى جانب الحروب التي وجهها هشام إلى الروم كانت هناك حروب أخرى في الشمال الشرقي من الدولة الإسلامية وجهها إلى الترك فيما دون بحر الخزر ، وفي هذه الحروب أيضاً لم يكن الحظ دائماً مواتياً للعرب ، ففي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) هُزموا هزيمة كبيرة ، ولكن الموقف تحول بعد ذلك في مصلحتهم ، ويرجع الفضل في ذلك إلى مسلمة بن عبد الملك وخصوصاً إلى مروان بن محمد .

وفي نفس الوقت زحف المسلمون من جهة المغرب على أوروبا زحفاً يكاد يكون أشدّ اندفاعاً من زحفهم عليها من جهة المشرق^(٣) ، وبذلك وضعوا العالم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٨ - ١٨٣٩ - المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وهو لم يحرز إلا بعض النصر في تلك الحملات البرية والبحرية التي وجه فيها قواد الجيوش إلى بلاد الروم - المترجم] .

(٣) إن أغنى الأخبار وأحسنها في هذا الصدد وجودة في كتاب Continuatío Isidori Hispana ، ولكن فهمها للأسف عسير جداً بسبب سوء لغتها اللاتينية ، وقد جمعها ورتبها =

المسيحي بين نارين . وهم قبل خلافة هشام بسنين كانوا قد هاجموا الفرنج من جهة إسبانيا وكان الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، أمير الأندلس ، هو أول من عبر جبال البرانس ، وربما كان ذلك في عهد سليمان بن عبد الملك . وفي عهد عمر ابن عبد العزيز فتح السمع بن مالك الخولاني مدينة أربونة (Narbonne) وظلت هذه المدينة نقطة ارتكاز وحصناً يلجأ إليه العرب زماناً طويلاً ، ولكن السمع لما تقدم إلى تولوشة (Toulouse) هزمه الفرنج بقيادة أودو (Eudo) وقتلوه في ذي القعدة سنة ١٠٢ هـ (مايو سنة ٧٢١ م) ، فلما جاء خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي قام ، بعدة غزوات كثيرة لم يكن هو نفسه الذي تولى قيادتها ، بحملة كبيرة في سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦ م) ومات فيها ، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . ثم أعقبت ذلك فترة توقف ، لأن الأسراء كانوا يتغيرون بسرعة وكانوا في شغل بأمور داخلية . وأحسن البربر الذين كانوا يؤلفون شطراً كبيراً في الجيوش العربية بأن العرب يؤخرونهم عن مكائهم ويضايقونهم في حقوقهم كسلمين وكجند .

وكان العرب أنفسهم قد مزقتهم الخلافات ، ولم يتغير الموقف إلا بعد أن عين هشام على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي مكان الهيثم بن عبد الكافي الذي كان متشدداً ومقتة الناس . وكان لا بد لعبد الرحمن من أن يبدأ بإزالة الشوكة التي في جسمه ، وذلك أن مونوزا البربري انتفض على العرب واستقل بشمال ، وكان قد حالف أودو الفرنجي وتزوج ابنته . وبعد أن قضى عليه عبد الرحمن اتجه إلى أودو وهزمه بين نهر الجارون ونهر الدوردوني ،

= الدكتور لوداف شفينكوف Ludolf Schwenkow ، في رسالة تقدم بها إلى جامعة جوتينجن سنة ١٨٩٤ م ، ان Kritische Betrachtung der lateinischen Quellen Zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber . ولا ينقص من قيمة هذا الكتاب ، بما فيه من عمل دقيق غاية الدقة ، أن مؤلفه كثيراً ما ينبع فيما يتعلق بالموضوعات الشرقية الخالصة آراء معكوسة .

ثم لاحقه في جهة إقليم نهر اللوار ، فالتقى في رمضان سنة ١١٤ هـ (اكتوبر سنة ٧٣٢ م) فيما بين مدينتي تور و پواتيه بقارله (بشارل مارتيل) الذي كان اودو قد دعاه لتجديده . وبعد مناوشات دامت اياما قام العرب بهجوم عام هنيف . ولكن الفرنج الشرقيين ثبتوا طول اليوم ، وفي الصباح التالي ادهشهم أنهم وجدوا العرب قد اخلوا الميدان بعد أن قُتل قائدهم . وهنا يقف جيبون (Gibbon) ليتخيل مصير أوروبا لو أن العرب انتصروا : إذن فلربما كان القرآن يُفسَّر اليوم في جامعة أكسفورد ، ولكانت قداسة الديانة المحمدية وحققاتها تُلقى من المنابر أمام شعب قد خُتِن . والحق أن فضل الفرنج على أوروبا النصرانية كان كبيراً ، ولكن الحق أيضاً أن الروم في شرق أوروبا احتملوا من الجهد والمشقة في حماية أوروبا أكثر مما احتمله الفرنج .

واسكن العرب لم يذَحَرُوا عند مدينة تور دحراً حاسماً^(١) ، وقد حثَّ الخليفة نفسه بحماس شديد على مواصلة القتال مع الفرنج . وفي سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) عَنف الخليفةُ عبد الملك بن قَطَن الفهرى خليفة عبد الرحمن العافق على الأندلس لإبطائه في القيام بمهاجمة الفرنج . وعلى هذا سار عبد الملك لقتالهم ، لكنه لم يتقدم كثيراً ، فقد سدَّ النصارى أمامه طريق جبال البيرينيه (جبال البرنات) ودحروه إلى السهل . وعند ذلك عين الخليفةُ عقبَةَ بن الحجاج السلولى مكانه (سنة ١١٧ هـ) ، وهو الذي نجد اسمه عند المؤرخين الإسبان محوَّراً في اللغة اللاتينية تحويراً جميلاً : أوكوبا (Aucupa) . ولكن عقبَةَ شُغل أولاً وقتاً طويلاً بالمسائل الداخلية ، ولما تحرك بعد ذلك قاصداً بلاد غاليس (بلاد الغال) لحقته في مرسطة السكتبُ لكي يعود إلى إفريقية للمساعدة على إخماد الثورة التي قام بها البربر هناك ، فرجع

(١) [موقعة تورپواتية تسمى عند العرب موقعة بلاط الشهداء — المترجم] .

وعبر الجبال^(١) التي دون جبل طارق ثم جاز المضيق ومعه الجيش العربي الإسباني . وبعد أن اعتقد أنه قام بما عليه من عمل في إفريقية قفل راجعاً إلى الأندلس ومات سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) .

وقد قضت الظروف على البربر أن يصيروا على كره منهم حلفاء للفرنج ، لهم شأنهم ، وذلك أن البربر تدمروا من أن العمال العرب ، بعد موت عمر بن عبد العزيز ، صاروا يعاملونهم ، مع أنهم مسلمون صادقون في إسلامهم ومع أنهم يشتركون في الجهاد متحمسين ، معاملة الخدم الذين يلزمهم أداء الجزية . فصارت نفوس البربر تربة خصبة لبعض دعاة الخوارج الذين جاءوا من العراق وعلى رأسهم ميسرة الصفري لبذر بذور مبادئ الخوارج بين البربر . ويحكى سيف (الطبرى ج ٢ ص ٢٨١٥ فما بعدها) أنهم في أول الأمر ، ومن غير ثورة ، التجأوا إلى هشام لكي يسألوه أن يرفع عنهم ما يشكون منه ، ولكن لم يؤذن لرسالتهم في الدخول عليه ، فلما نفذت نفقاتهم رجعوا ، بعد شيء من الانتظار ، وهم يشعرون بخيبة الأمل ، وكتبوا أسماءهم في رقاع تركوها للخليفة . وعند ذلك اقتصموا بأن الخوارج على حق فيما يقولونه من أن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه ، وأن الخليفة بسبب جشعه للحصول على الأموال هو الذي يكرههم على أن يمتصوا دم الرعايا . ولهذا ناروا ثورة سريعة بقيادة أحد الخوارج ، امتدت من سرا كش إلى القيروان . وتبين أن أسراء إفريقية غير قادرين على أن يفعلوا إزاء هذه الثورة شيئاً . وكذلك لم تُفد معونة عقبة ، بعد أن عاد إلى إفريقية قادماً من الأندلس ، إلا قليلاً . وكان لا بد من مجيء الفليق الثالث ، أعنى أنه

(١) وبحسب كتاب الصلة الإسباني لتاريخ ايزيدور وقعت عند هذه الجبال الواقعة التي قتل فيها لوزريق ملك القوط ، على مقربة من جبل طارق فيما يظهر [جاء في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي (ط . مدريد ١٨٦٨ م ص ٧) : وكان اجتماع طارق ولوزريق على وادي بكة (Beca) من شذونه (Sidonia) فهزم الله لوزريق . . . الخ — المترجم] .

كان لا بد من أن يأتي جند الحكومة من الشام ، كما كان الحال في العراق ، فأرسلهم هشام . وفي سنة ١٢٣ هـ ^(١) (٧٤١ م) ظهرت في ميدان القتال بالمغرب الأقصى جحافل خيل الشام ، وكان على رأسهم كلثوم بن عياض القسري ^(٢) عامل دمشق . ولكن حتى جند الشام ، على جودة عدتهم وحسن مرائهم على القتال ، هُزِموا أمام فرسان البربر الذين كانوا أشبه بالعرافة ، وقُتِل كلثوم في معركة كبيرة عند نهر نوا (Nauam) ^(٣) ، يصفها مؤرخو الشام وصفاً فنياً رائعاً ، ولم يستطع ابن أخيه بلج بن بشر أن ينجو إلى سبته ومنها إلى الأندلس إلا بثلاث جيشه ، وكانت تلك أشنع هزيمة هُزِم بها العرب على الإطلاق حتى ذلك الحين ، وكانت أشنع بما لا يقاس من هزيمتهم عند مدينة تور ، فقد استطاع البربر باسم الإسلام أن يضربوا العرب في المغرب أشدَّ ضربة ، وإن كان العرب في السنة التالية قد أحرزوا نصراً استطاعوا بفضلهم أن يستولوا على القيروان ، وأن يثبتوا أقدامهم فيها .

- (١) هذا هو التاريخ الصحيح كما عند البلاذري (س ٢٣٢) . أما عند الطبري (ج ٢ ص ١٧١٦ وعند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٣١ من تاريخ الخليفة) فنجد أن التاريخ الذي يذكره هو ١٢٢ هـ . ولكن في هذه السنة التي كان فيها خالد القسري مشتركاً في حملة حربية في آسيا الصغرى كان كلثوم ما يزال صاحب الشرطة في دمشق ، وهو يسمي عند تيوفانيس (سنة ٦٢٣١) باسم Δαμασκηνός (الدمشق) .
- (٢) هو يسمي في المادة الفسيري كما عند البلاذري وابن الأثير في جميع المراجع وعند الطبري أيضاً (ج ٢ ص ١٧١٦ و ١٨٧١) ، ولكن الصواب هو « القسري » . كما يسميه الطبري (ج ٢ ص ١٨١٤ فما بعدها) لأنه كان ابن عم لمالك بن عبد الله القسري . ويقول ١ . مولر (A. Müller, 1,449) إنه « قيسى بطبيعة الحال » ، كان مولر يعرف ذلك ببداية بفضل معرفته بنفسية العرب والأصول التي كان يجري عليها هشام في حكومته (A. Müller 1,445) وكثيراً ما يحصل الخلط بين كلمتي قسري وقيسى ، وبين كلمتي : فسيري وقريشي ، فإرن مثلاً الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٦ س ٧) [على أن كلثوما هذا يسمي في تاريخ ابن الفوطي (ص ١٧) هكذا : كلثوم بن عياض القيسى — المترجم] .
- (٣) [يقول ابن الفوطي في تاريخه (س ١٥) إن المعركة كانت عند موضع يقال له : قنبره . . . المترجم] .

وكذلك في الطرف الآخر من الدولة الإسلامية ، في بلاد نهر الشاش التي لم تعرف الهدوء قط ، كانت الحركة في عهد هشام أنوى منها في العادة . ذلك أن أهل السغد كانوا قد تبعوا أمراءهم ودخلوا في الإسلام أيام عمر بن عبد العزيز ، بعد أن وعدم صر بالاً تؤخذ منهم جزية . ولكن عمال الدولة بعد ذلك لم يتقيدوا بهذا الوعد ، وكانوا يتغيرون كثيراً ، وكان أحدهم يسير على سياسة ويسير من يخلفه على سياسة أخرى ، ولكنهم جميعاً كانوا يحملون القوة فوق الحق . فإذا أعنى أحدكم أولئك المسلمين الجدد من الجزية فإن ذلك كان يُعتبر فضلاً وإحساناً منه سرعان ما يُرجع فيه . حتى إذا غضب أهل السغد من ذلك وامتلات نفوسهم حقداً رموا بأنفسهم بين أحضان الترك ، أعدائهم القدماء ، ودعومهم إلى بلادهم . وكان أهل الديانة والورع من المسلمين يعطفون عليهم ، ولم يقتصرُوا في التعبير عن هذا العطف على مجرد الكلام ، وصار من العسير على أمراء العرب أن يقولوا على الدفاع عن أنفسهم أمام هذا التكتل ، ووقعت جيوشهم أكثر من مرة في أشد المآزق خطراً ، وكانوا يفرحون إذا استطاعوا النجاة ولو بخسائر كبيرة . وما يدل على مقدار تعود الخليفة على الأخبار السيئة التي كانت ترد من خراسان أنه كان لا يصدق الخبر الصحيح إذا ورد إليه مُذنباً بانتصار جنوده^(١) . وكان كل ما يستطيعه في تدارك الأمور هو أن يغيّر القائد ، ولكن ذلك كثيراً ما كان ينتهي بالفشل ، وكان دائماً يجرّ إلى عواقب وخيمة . ولكن الخليفة في آخر الأمر اتخذ إجراءً فعالاً ، فبعد أن عزل خالد بن عبد الله القسري ، كان يوسف بن عمر — وهو الذي خلف خالداً على العراق — يُعَيِّن نفسه بأن يسند إليه الخليفة إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق . ولو أنه نال ذلك لا ستخلف على خراسان عاملاً قيسياً لحماً ودماً ، فزاد بذلك من وحدة التنازع بين الأحزاب القَبَايَةِ ، وكانت الحصومة

(١) [راجع الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٦١٤ — ١٦١٦ مثلاً المترجم] .

بينها لا تحتاج إلى مزيد . ولكن الخليفة حال بين يوسف بن عمرو وبين ما يشتهي ، فقام من جانبه بتعيين نصر بن - يار الكنانى ^(١) ، وكان صاحب سن وتجربة وقائداً محنكا وعاملا من أكفأ العمال ، ولم يكن ينتمى لأية قبيلة قوية في خراسان . وقد بذل كل مافي طاقته ، ولكنه كان يحاول أمراً مفضياً وموقفاً خاسراً .

ومات هشام في الرصافة يوم الأربعاء لست ايام خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (٦ فبراير سنة ٧٤٣ م) ، ولم يكن قد تقدمت به السن كثيراً ، فكان في وسط العقد الخامس من العمر ^(٢) . ولكن لعل الشباب لم يَبْدُ عليه قط ، وكان مظهره غير رائع ، فقد كان « أحول شديد انقلاب العين » وهو وإن كان قد قد استطاع أن يفرض على الناس احترامه ، فإنه لم يكن له من الصفات ما يملأ نفوس الناس لأول وهلة أو يجذبهم إليه أو يملأهم رهبة منه ، وكان فيه شيء من خصال أوساط الناس من أهل التحفظ ، ولكنه كان « دقيق النظر . . . متيقظاً في سلطانه ، سائساً لرعيته » ^(٣) ، وهو لم يفعل بنفسه ما ينضب أهل التقى ، بل كان مسلماً حسن الإسلام ، من طراز السلف الأولين ، وكان صديقاً لرواة الحديث والأثر أمثال الزهري وأبي الزناد ، وعدواً للتدريسة المبتدعة الذين أثاروا البحث في مسائل اعتقادية ، وكانوا يقولون بالاختيار (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ — قارن أيضاً ص ١٧٣٣) ، ولذلك لم يكن متعصباً على رعاياه المسيحيين . فأذن لهم (للمساكنية منهم ؟) في أن يعمدوا شغل كرمى أنطاكية بعد أن كانوا قد مُنِعُوا

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها و ص ١٧١٨ فما بعدها . المترجم] .

(٢) [الطبرى ج ٢ ص ١٧٢٨ فما بعدها . — المترجم] .

(٣) [آثرت اقتباس هذه الصفات من كتاب التنبية للمسهودي ص ٣٢٢ عوضاً عن كتابين المؤلف ، ويجد القارى كثيراً من صفات هشام عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ فما بعدها . المترجم] .

من ذلك أربعين سنة . ولكنه اشترط عليهم ألا يعينوا من يحبون من أهل العلم والنباهة ، بل أن يعينوا راهباً بسيطاً هو اسطفان (Stephanus) ، صديق هشام وأن يختاروه بطريقة عليهم . وهم قد رضوا أيضاً بذلك^(١) . ويحكى أن رجلاً نصرانياً شجَّ غلاماً لمحمد بن هشام ، وبدلاً من أن يرفع محمد الأمر إلى القاضي ذهب خصي لمحمد فضرب النصراني ، فلما بلغ ذلك هشاماً ضرب الخصي وشتم ابنه عمداً . وكان هشام في حكومته يسعى إلى أن يجعل نفسه فوق الأحزاب ، ولكن ليته استطاع أيضاً أن يغير من نفوس العرب والولاة . وكان فيه شيء من خشية الظهور أمام الناس ، فأثر أن يعتزل في الرصافة بعيداً عن الأنظار ، وكان إذا قدم عليه من الناس من يريد أن يلقاه كلف صديقه الأبرش السكبي أن يتصل به . وكان الأبرش موضع ثقة هشام (الطبري ج ١ ص ٢٨١٦ ، وج ٢ ص ١٨١٣) . ولكن هشاماً كان رغم ذلك ممسكاً زمام الأمور وكان يفهم عمله ويهيب له وقته . وكان ديوانه مثلاً للدقة والنظام ، وكان ذلك موضع إعجاب الخليفة المنصور العباسي . وقد قضى هشام على فساد كان موجوداً ، وهو أن أعطيات المقاتلة كانت تُمنح لقوم من الأشراف أشبه شيء بالاستغلال من غير عمل ، فصار لا يأخذ أحد العطاء في أيام هشام ، حتى من أمراء الأمويين ، إلا إذا قام بالفرز بنفسه أو أتاب أحداً عنه . وكان لهشام مولى اسمه يعقوب ، فكان يأخذ عطاء سيده وينوب عنه في ميدان القتال . والحكايات الكثيرة التي تحكى عن هشام كما تحكى بكثرة عن عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك ، تصوره في صورة

(١) انظر ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٤ (من تاريخ الخليفة) ، وقارن أيضاً أخبار سنة ٦٢٣٦ . وقتل أسرى الروم إذا لم يفك أسرهم أو لم يعتنقوا الإسلام ، وهو ما يذكره تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٢ ، ليس شيئاً غريباً ولا خاصاً ، لأنه كان من قوانين الحرب القديمة .

رجل مبالغ في الحساب في الاتفاق مَعْنِي بالتدبير على قواعد الاقتصاد^(١).

ولكن هذه الصفة التي ربما يكون من الممكن تبريرها ، إذا نظرنا إلى أن من تقدم هشاماً من الخلفاء كان يخالفه فيها ، انقلبت عنده إلى عيب جرّ النكبات ، وذلك أنه اهتم بأن يملأ خزانته ، ويصفه تيوفانيس بهذه الكلمات :

ἤρξατο κτίζειν κατὰ χώραν καὶ πόλιν παλάτια καὶ κατασποράς ποιεῖν καὶ παραδείσους, καὶ ὕδατα ἐκβάλλειν^(٢)

وهو قد فعل ذلك جرياً وراء مصلحته الخاصة وأثار بذلك سخطاً شديداً إلى حد أن العباسيين ، في وضعهم لبرنامج حكومتهم وفي التعجب إلى من دخل في طاعتهم ، لم يجدوا شيئاً أحسن من أن يعدوم بأنهم لا يريدون أن يبنوا قصوراً ، ولا أن يحفروا أنهاراً ، ذلك أن النهر معناه امتلاك الضياع وأن القصر من لواحق ذلك . ونظراً لأن هشاماً كان من كبار ملاك الأرض فإنه كان ينافس خالد ابن عبد الله القسري ، وكان يمنع خالداً من أن يبيع غلته حتى تباع غلات أمير المؤمنين ، فكان السعر يرتفع ارتفاعاً كبيراً ، والأدهى من ذلك أن هشاماً كان يعتبر الدولة نفسها أشبه بصافية من صوافيه^(٣) ، يجب أن يخرج منها أكبر ما يمكن من المال . وانتهت سياسته في الحكم آخر الأمر إلى نزعة ظاهرة نحو ملء الخزانة ، فكان لا بد أن يحمل إليه عما له أكبر ما يمكن من الأموال ، ولم يكن يعبأ بالوسائل التي يبتزونها بها ، وزاد في جزية أهل قبرص وضاعف جزية أهل الإسكندرية ، ودفع برعاياه في أرض ما وراء النهر وإفريقية والأندلس إلى أحضان اليأس . يقول صاحب كتاب الصلة الأسباني الذي أكمل تاريخ ابن زيدور :

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٣٠ — ١٧٤٠ ، والمودى في التنبيه مثلاً ص ٣٢٢ — ٣٢٣ — المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي : شرع في بناء الدور وإنشاء الضياع في المدن والقرى وفي عمل البساتين البديعة وفي تجفيف الأرض — المترجم] .

(٣) يعني الممتلكات الخاصة التي نتج الخليفة — المترجم] .

Cupiditate praereptus tanta collectio pecuniarum per duces Oriente et Occidente ab ipso missis est facta, quanta nulla umquam tempore in reges qui ante eum fuerant extitit congregata : unde non modicae populorum kalervae cernentes in eo improbam manere cupiditatem ab eius ditione suas dividunt, mentes. (§ 94)^(١)

هذا ما يقوله عن هشام صاحب كتاب الصلة ، مع المبالغة المألوفة في تقدير ما جمع من أموال . ويستطيع الفريد فون كريم ومن تابعه أن يحكموا بأن هشاماً عاد إلى الأصول السليمة القديمة التي كان يسير عليها خلفاء بني أمية ، وذلك بعد ما يزعمونه من تزعزع في إدارة الدولة الاقتصادية على يد عمر بن عبد العزيز . ولكن مهما يكن من شيء فإن آخر حكم هشام ، وكان حاكماً طويلاً مملوئاً بالجد والعمل إذا قورن بغيره ، كان تمسكاً إلى أكبر حد ممكن . وهو لم يكن محبوباً عند أحد ، وقد فشل فشلاً كبيراً في كل شيء ، ثم ترك وراءه تلك الدولة الشاسعة الأطراف في حال أسوأ وأقرب إلى اليأس مما كان قد وجدها . ولم يكن من باب المصادفة أن الدعوة العباسية قويت واشتد أمرها في أيامه .

٤ — كان يزيد بن عبد الملك في وصيته التي عهد فيها بالخلافة إلى أخيه هشام ، قد عين ابنه الوليد بن يزيد ولياً لعهد هشام . وكان الوليد بن يزيد شبيهاً بأبيه يزيد ، غير أنه كان يُربى عليه فيما كان له من صفات ، وهو يسمى عند صاحب الصلة لتاريخ إيزيدور « بالجميل » ، وكان حسن الصورة قوى البنية إلى درجة غير مألوفة ، ولكنه كان مع ذلك قوى الحيوية ممتاز المواهب العقلية التي أيقظها ووجهها مؤدبهُ عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني الأنوي المشهور . وقد نشأ في بلاط عمه هشام ، ولكن لم يكن في صباه سعيداً ، وكان يفعل ما يشتهي ولا يأبه إلى ما سوى ذلك ، وكان مطمئناً على مستقبله ، لأنه كان يعلم من أول الأمر أنه

(١) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وقد استولى عليه الجشع ، وجمع له المال الذين بشتم إلى المشرق والغرب من الأموال ما لم يجمع للعلوك الذين كانوا قبله . ولذلك رأى غير قليل من الناس أنه قد ملسكه الجشع المغيب ، فانصرفت نفوسهم عن الولاء لسلطانه — المترجم] .

وارث عرش الخلافة . وقد دفعه إلى التماذى في ذلك من كان حوله من أهل
الجبون والفسق . ووجد هشام أنه يعوزه الجذ والظهور بالمظهر اللائق بولي العهد ،
فكان يتبرم بأنه يقضى وقته في الصيد والشراب مع رفاق من أهل اللهو واللذات
وبأن الموسيقى والشعر كانا أحب إليه من القرآن . وقد حاول هشام إصلاحه ،
ولكنه لم يحسن اختيار الطريق إلى ذلك ، فأخطأ الغرض ، ولم يجد الوليد في تبرم
هشام به وسوء معاملته له ما يدل على نية طيبة ، وكان يُفسّر ذلك بأن هشام يريد
أن ينزعه من ولاية العهد . وامل الوليد لم يكن في ذلك مخطئاً ، لأنه كان طبيعياً ،
ومهما يكن من شيء فإن سوء سلوك الأمير الذي استعصى على الإصلاح دعا
هشاماً آخر الأمر إلى أن يخلعه من ولاية العهد وأن يجعلها في ابنة مسلة بن هشام .
ولكن هشام اصطدم فيما أراد بمارضة حاسمة من جانب بعض أشرف
الأمويين وكبار العمال ، وخصوصاً أن مسلة نفسه كان فتي هازلاً . ولم يرص
الوليد نفسه بأن يتنازل عن حقه . ثم جاءت المضايقة التي لقى بها من هشام وحاشيته
بسبب رفضه التنازل فجعلته أشد عناداً ، وملأت نفسه بالبغض . وأخيراً لم يطق
الحياة في القصر ؛ وبعد أن مات مسلة بن عبد الملك ، ذلك الرجل ذى السنّة
والمكانة العالية الذي كان يعيب هشاماً ويكفّه عن الوليد ، خرج الوليد من
الرصافة^(١) وذهب إلى مكان منعزل في البرية إلى الشرق من فلسطين^(٢) ، وهناك
مضى فيما كان عليه ، بل ازداد تماذياً . ولم يكن يعوزه الزوار الذين كانوا يطعمون

(١) ويظهر أن هذا هو الذي يؤخذ مما جاء في الأغاني (ج ٦ ص ١٠٣) : أما ما يقال
من أن ذلك حدث في السنين الأخيرة لخلافة هشام ، فهو يؤخذ بوضوح مما عدا ذلك أيضاً .
وقد مات مسلة بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

(٢) ذهب الوليد إلى الأبرق أو الأزرق عند ماء يقال له : الأغدف ، بين أرض ملقبن
وأرض فزارة (الأغاني ج ٦ ص ١٠٤ والطبري ج ٢ ص ١٧٤٣) من أعمال عمان (الطبري
ج ٢ ص ١٧٩٥ ص ١١) . ويمكن أن يؤخذ مما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥٤ ص ١١)
أن ذلك المكان كان قريباً من منزل زيزاء ، لكن هذا المكان بعيد جداً إلى الجنوب .

في كرمه وفي دُنُوِّ مَلَسْكَه ، فيجدون عنده ما يرجون . وكان يترقب موت هشام ولا يُخفي ذلك . ولم يكن يكتُم ما يجول في نفسه من إحساسات ، بل كان يعبر عنها في أشعار لا يحتفظ بها لنفسه .

وقد اضطر أن ينتظر سنين ، ثم وقع الأمر الذي لم يكن هو وحده يترقبه . ذلك أن حكم هشام كان قد طال ، فتنفس الناس الصعداء لما أغمضت المنية عينيه . ولم يكده موت حتى خرج عياض بن مسلم ، كاتب الوليد ، من السجن — وكان الوليد قد خلفه في الرصافة ليكتب له بما يكون فيها من أحداث ، فأخذه هشام وضربه وحبسه — فحتم عياض أبواب الخزان حتى لم يبق قمع لتسخين الماء لهشام ولا شيء يُسكَّن به ، وذلك أن عياضاً أمر بإزالة هشام من على فرشه وبجماله خارج غرفته . وتلقى الوليد مع أخبار هذه الحوادث شارات الخلافة ^(١) . وقد احتفل بتلك الساعة على طريقتة من التمتعش للشراب ، وألف قصيدة مثل فيها لنفسه بنات هشام يندبنه ، وعبر عما يضره لمن ^(٢) ، وأمر أن تمهي أموال هشام وولده في الرصافة وبأن يؤخذ أبنائه وعماله وحشاه إلا مسلمة ابن هشام ، ذلك أن مسلمة ، وإن كان منافساً حقيقياً له وإن كان أيضاً قد سخر منه سخرية قاسية باسم مستعار ، فإنه كان يكثر الكلام مع أبيه في الرفق بالوليد ويكثُر منه . ولم يلبث الوليد أن ذهب إلى دمشق لكي يتلقى البيعة في العاصمة (الأغاني ج ٦ ص ١١١ س ١٢) . وجاءت الوفود من جميع الآفاق ، وكتب إليه العمال الكتب يهنئونه ^(٣) ويخبرونه بأخذ البيعة له في ولاياتهم ويصفون

(١) لا يتكلم الوليد نفسه (الأغاني ج ٦ ص ١٠٩ س ١) عن شيء سوى الخاتم ، ويرد بعد ذلك (ص ١٠٩ س ١٨) ذكر الخاتم والفضيب والطومار ، ولا شك أن الطومار هو الخطاب الذي جاء فيه نعي هشام له . [لكن نجد عند صاحب الأغاني ج ٦ ص ١١٠ ذكر الخاتم والفضيب والخاتم — المترجم] .

(٢) [راجع مثلاً الأغاني ج ٦ ص ١٠٨ فابدها — المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٧٥٢ — ١٧٥٤ المترجم] .

سرور الناس واستبشارهم وتحقق أملهم في خلافته . وكان احتفال كبير . وقد أظهر الوليد ما يدل على تقديره لما كان وعلى عرفانه به ، كما أنه استطاع أن يحقق الآمال التي عُدَّت عليه بفضل الأموال التي ادخرها له هشام فزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة دراهم ، وزاد لكل من أهل الشام خاصة عشرين درهماً وردَّ الأعطيات إلى أهل المدينة ومكة ، بعد أن كان هشام قد منعهما عنهم عقاباً لهم على ميلهم إلى زيد بن علي ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف . وأجرى الأرزاق على زَمَنِي أهل الشام وعميانهم ، وكسام ، وأمر لكل منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام^(١) .

ولكن الوليد انتقم من أعدائه ، غير أنه لم ينتقم من آل هشام مباشرة خشية أن يشير على نفسه الأمويين ، فاكتمى بأن ضرب سليمان بن هشام مائة سوط ونفاه بعد ذلك إلى عمان وحبسه بها ، وحبس الأقمم يزيد بن هشام . لكنه عاقب إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل الحزومي على ما اقترفاه من التخلي عنه والانضمام إلى جانب مسلمة بن هشام ، لأن مسلمة كان ابن أخت لها ؛ فوجههما إلى المدينة أولاً ، وكانا قد فعلا هناك ما بغضهما إلى الناس ، فأقما للناس (يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ١٢٥ هـ = ١٤ يونيو سنة ٧٤٣ م) ، ثم أمر بأن يُبعث بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة ، وأمره أن يبسط عليهما العذاب حتى يتلقا . وقد فعل ذلك ، وكان هذا أيضاً هو مصير بني القعقاع البسيين الذين كانوا قد أيدوا هشاماً فيما أراده من خلع الوليد من ولاية العهد وجعلها في ابنه (ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٨) ، فمزلوا عن ولايتهم في

(١) [جاء عند الطبري أن الوليد لم يقل في شيء يُسأله : « لا » ، فقبل له : « إن في قولك : انظر ، عدة ما يقيم عليها الطالب » ؛ فقال : لا أعود لاني شيئاً لم أعنده » الطبري ج ٢ ص ١٧٥٤ — المترجم] .

قنسر بن وحمص وأسلموا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري لينتقم منهم ، وكان بنو القعقاع قد ضربوا عمر بن هبيرة بأمر هشام قبل ذلك بعشرين عاماً . وهكذا وقع فصل دموي أخير من فصول العداوة بين قبيلتي عبس وفزارة ، وكذلك عزل الوليد جمال هشام في المدينة ودمشق وعين عمالاً غيرهم ، فوجه خاله يوسف ابن محمد بن يوسف الثقفى والياً على المدينة ومكة والطائف ، ووجه إلى دمشق رجلاً من ثقيف أيضاً من سلالة الحجاج مباشرة ، هو عبد الملك بن محمد ابن الحجاج بن يوسف — وهكذا صار الوليد بسبب نسب أمه موالياً لقيس .

أما فيما يتعلق بالمنصبين الكبيرين في العراق وخراسان ، فإنه أقر الواليتين اللذين وجدهما ، وهما يوسف بن عمر في العراق ونصر بن سيار في خراسان^(١) ، بل هو أقر حتى آخر أيامه الأبرش السكلي ، كاتب هشام ، في المنصب الذي كان له من قبل ، وجعله موضع ثقته — فكان خلافه مع هشام ، خلافاً شخصياً فحسب . وكان من حيث التمسك بالدين يختلف في سلوكه الشخصى عن هشام اختلافاً كبيراً ، ولكن اختلافه عنه من حيث المبادئ الأساسية كان أقل من ذلك كثيراً^(٢) . أما الزهرى وأبو الزناد صديقا هشام فكان الوليد يبهض أحدهما^(٣) ، لأنه كان يعيبه مع هشام ؛ فأما الآخر ، وكان قد التزم الحكمة والصمت في أمر يزيد ، فإن الوليد أكرمه ، وهو كان يحبه من قبل . وكذلك عادى الوليد القدرية المبتدعة ، كما عاداهم هشام من قبل ، وأقر ما كان قد صنعه هشام من نفي رؤسائهم إلى جزيرة دهلك (قرب مصوع) ، واعتبر ذلك عملاً ترجى

(١) [لكن الوليد باع في آخر أيامه نصر بن سيار وعماله إلى يوسف بن عمر ، (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤ فابدهما) — المترجم] .

(٢) [ربما قصد المؤلف مثلاً ما يقوله فيما يلى : من أن الوليد لم يغير شيئاً مما فعله هشام بالقدرية (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ — المترجم)] .

(٣) [هو الزهرى ، بحسب الأغاني ج ٦ ص ١٠٦ ، وقد مات قبل تولي الوليد الخلافة — المترجم] .

منه المغفرة لهشام . وامتنع الوليد من الاستجابة إلى من كلمه في أمر القدرية ، فهو لم يرَضَ كما لم يرَضَ هشام من قبل بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العقلي . ويمكن أن يؤخذ من بعض الأخبار التي ذكرها تيوفانيس أن الوليد قد اضطهد النصارى . غير أن هذا لا يبدو متفقاً مع المعروف عن طبيعة الوليد وخليقته . ويظهر أنه في الحقيقة لم يكن له يد فيما عومل به الأسقف بطرس الدمشقي ، و بطرس الميومي الذي كان عاملاً على الخراج . وكل من هذين الرجلين سعى إلى العذاب والاستشهاد من طريق سب الإسلام وشم النبي عليه السلام ؛ أما ما كان في عهد الوليد من نقل بعض أهل قبرس إلى الشام فلم يكن له علاقة بالدين .

ويمكن القول في الجملة إن الوليد بن يزيد إنما كان يعبث بما له من سلطان . فكان ينظر إلى قيامه بشؤون الحكم كما ينظر إلى توع من الرياضة والفروسية ، ولم يشتغل بأمور الحكم اشتغال جد وعناية ، وهو بعد أن تولى الخلافة لم يغير إقامته في برية شرق الأردن (الطبري ج ٢ ص ١٧٩٥ س ١١) ، ولم يزايل روحه ذلك الإحساس المرير المشرب باحتقار الإنسانية وكرهية الناس ، وهو الإحساس الذي تكون في صباه . وهو بعد موت هشام أيضاً تباعد عن الجو الذي كان ينبغي أن يكون فيه ، ونفر من نفسه قرابته وأترابه (أغاني ج ٦ ص ١٣٧ س ٦) . وكان لا يبالي أقل مبالاة بالرأي العام ولا يجعل له سبيلاً على نفسه . وكان له بطبيعة الحال ديوان في قصره ، ولكن كان لا يفارقه الجو الذي كان يرتاح إليه من قبل ، من خيل و كلاب وصيد ومغنيين ومغنيات وشعراء وأدباء ، وكان في أثناء النهار يركب ويمحول في البادية ، وكان الإجهاد البدني بالنسبة له ضرورة أشبه شيء بلعب الأطفال . وقد بلغ من شدة قوته أنه كانت تُؤتد له سكة حديد فيها حبلٌ ويشد الحبل في رجله ، ثم يثب على دابته ، فينتزع السكة ويركب ، ما يمس الدابة بيده . أما الليل فكان يقضيه في الشراب . وكان

الوليد يتميز بشعور جنوني بماله من قوة ؛ ويحكي عنه أنه قال : وَدِدْتُ أَنْ كُلْ
كُلَّ شَيْءٍ مِنْ خَمْرِ بَدِينَارٍ ، وَأَنْ دُونَ كُلِّ امْرَأَةٍ أَسَدًا ، حَتَّى لَا يُشْرَبَ
إِلَّا سَخِيًّا وَلَا يَنْسَكِحَ إِلَّا شَجَاعًا . ولكن الوليد لم يكن منغمساً في الغلظة الوضيعة
كل الانغماس ، بل اجتمع عنده الودُّ لشرار النساء مع العشق الملتهب المرأة
النبيلة ، يسمى طويلاً لوصولها دون أن يظفر بها ، حتى إذا نالها أخذها منه الموت .
وكانت كل مناسبة تبعث الشعر في نفسه قصائد قصيرة يعبر فيها عن إحساس
الساعة تعبيراً رقيقاً سهلاً في صورة مبتكرة . وربما كان يستطيع الإنسان أن
يجمع تاريخ حياته من هذه القصائد ، لو أنها بقيت حتى وصلت إلينا كاملة ،
ولكن نظراً لأنه كان خليفة فلم يكن يليق به أن تجمع أشعاره وتذاع في الناس ،
وإنما كانت تختلس اختلاسا ، بل يُروى أن الوليد كان أحياناً يخطب الجمعة
شعراً^(١) . فهو كان يقدر على أشياء كثيرة ، ولكن كل شيء كان عنده وليد
الحالة النفسية المؤقتة التي يكون فيها ، وكانت أحواله تتغير بسرعة ما ينقلب
كفُّ اليد ، فقد تجده يتعمق في مناقشة دينية مع أحد العلماء ، وتجده بعد ذلك
يشرب خمرًا ويهزأ بما هو مُتَقَدِّس . ولم يكن يرد لأحد رجاء ، وهو لم يكن
سريع الغضب فحسب ، بل كانت فيه أيضاً قسوة الأطفال ؛ ولقد كان من البلاء
أنه تولى الخلافة^(٢) .

وقد أنفق الوليد الأموال التي كان قد جمعها هشام أسرع مما كان يظن ، وكان

(١) [راجع ما روى من خطبه وكتبه شعراً ، وخطبة من على المنبر شعراً بأكملها ،
في الأغاني ج ٦ ص ١١١ ، ١٢٨ — ١٢٩ — المترجم] .

(٢) ثارن ما في الأغاني عن الوليد ج ٦ ص ١٠١ فما بعدها . وكثير من ذلك غير جدير
بالثقة . ولقد قال خالد بن عبد الله القسري لما ذكر أمامه الوليد في معرض المجون والفسق :
أمر الوليد أمر غائب عني ، ولا أعلمه يقيناً ، إنما هي أخبار الناس (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٦ ،
١٧٧٧) .

لا يكفيه دخله العادي، بل كان يحتاج إلى أموال لا تيسر عادة . وقد استفاد يوسف ابن عمر من هذا لكي يشتري نصر بن سيار الذي كان قد أصبح متميزاً عليه بماله من استقلال . فعرض على الخليفة مالا كثيراً لكي يضم إليه ولاية خراسان ، وقد حصل عليها ، فبعث الخليفة في استدعاء نصر بن سيار وعياله أجمعين إلى الشام ، وكلفه أن يُحضّر له معه أشياء كثيرة من بُزاة الصيد والخليل والصيد والبراذين والبرابط والطناوير وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورموس السباع والأيايل وكل صناجة ووصيفة حسناء . ولم يدخر نصر مالا ولا وقتاً في الحصول على ما أراده الخليفة ، وعلى كثير من الجوارى الحسان والماليك بكامل سلاحهم . ولكنه عند ما خرج آخر الأمر من خراسان تلقى خبر مقتل يزيد ، فقفّل راجعاً .

ومن جهة أخرى أفلح يوسف بن عمر ، هذا الشيطان المارد ، في أن يجعل خالد القسري في قبضة يده ، وذلك بعد عناء طويل في عصر هشام ، لم يظفر منه بطائل . ولقد كان لدى الوليد من الأسباب ما يستوجب عليه الشكر لخالد ، ذلك أن خالد أذاع عن الوليد لدى هشام وأنه بعد أن مات هشام لم ينقلب على الوائد ، رغم محاولة أعداء الوليد إيقاعه في شرك الخيانة له ؛ ولكن الوليد ارتاب به ، لأنه كان يعلم أكثر مما كان يستطيع أن يقول^(١) . فقبض عليه الوليد وحاول أن يستخرج منه أشياء ، فلم يكشف عنها لكي لا يوقع غيره في البلاء والحنة . وقد عذبه الوليد ، فلم يتكلم ولم يتأوه ، فعند ذلك باعه إلى عدوه اللدود يوسف بن عمر بخمسين ألف ألف . فحمله يوسف بن عمر إلى الكوفة على أقرسى

(١) [لما أجمع النّامرون على قتل الوليد جاءوا إلى خالد القسري ودعوه إلى أمرهم ، فلم يجيبهم . فلما سألوه أن يكتم عليهم وعدم ألا يسمى أحداً منهم . ثم أراد الوليد الحج ، وخشى خالد أن يفتكوا به في الطريق ، فقال للوليد : يا أمير المؤمنين ! آخر الحج هذا العام ، فلما سأل الوليد خالداً عن السبب لم يجبه ، فأمر الوليد بحبسّه وأن يرد ما عليه من أموال العراق (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٨) ، ويظهر أن هذا هو الذي يريده المؤلف — المترجم] .

صورة ، وعذبه حتى مات دون أن يستطيع كسر كبريائه ، أو حتى أن يبلغ منه أن يتكلم أو يعبس من الألم . ومات خالد تحت العذاب في المحرم سنة ١٢٦ هـ (نوفمبر سنة ٧٤٣ م) ودُفِن في الحيرة .

وقبل ذلك بقليل (الطبرى ج ٢ ص ١٨٢٠) كان يحيى بن زيد بن علي قد قُتِل ، وحُل رأسه إلى الوليد ، فأمر بنصب الرأس أمام طائفة من عليّة القوم كان قد دعاهم إلى وليمة . ثم ازدادت المرارة التي أحدثتها أفعاله في دوائر واسعة النطاق في المشرق ، لأنه أمر بأن يُفعل بقبيلة كلب في العراق ما فعله العبرانيون من قبل في صنم لهم بأن أحرقوه وذرّوا رماده في الماء . ومن البديهي أن يكون السخط الذي أحدثه قتل خالد ، بعد عذاب طويل ، شديداً جداً في حينه ، ذلك أن ما فعله الوليد بخالد كان بمثابة تحديّ لقبائل اليمن . وكان معنى تسليط يوسف ابن عمر على خالد القسرى هو إفراء قبائل قيس بقبائل اليمن . وبدأ أن الخليفة قد صار هو ويوسف بن عمر وبقية آل الحجاج حزبا واحداً لا يفصل بينهم فاصل . ويدل على أن هذا كان هو رأى الناس حقيقة ، أشعارٌ بعضها حقيقي وبعضها موضوع . ولأول مرة حدث تذمرٌ سياسى شامل في العراق وفي الشام ، وألف هذا التذمر بين اليمن هنا وهناك ، وكان أشد الناس تأثراً بذلك هم يمن الشام وخصوصاً كلب ، لأن خالداً كان قد قضى سنين الأخيرة في دمشق ، ونال هناك محبة أصدقاء كثيرين . ولكن التذمر من الخليفة خاصة كان أكثر منه من قيس بوجه عام ، وقد نفخ أعداء الخليفة الشخصيين في نار الفتنة واستغلّوها لأغراضهم الخاصة . ولم يكن الاشتراك في الثورة الصغيرة التي نشأت عن ذلك اشتراكاً إجماعياً ، وهى وإن كانت قد جاءت من جانب قبائل اليمن ، فلم يكن البمانية وحدهم في جانب والقيسيون وحدهم في الجانب الآخر ، بل نجد عبس قيس يقفون في الجانب المعادى للخليفة ، لأنه كان قد أغضبهم بما فعله مع بني

القمع . ومن جهة أخرى لم يأت لنجدة الخليفة البهرانيون^(١) من حص فحسب ، بل جاء أيضاً قومٌ من كلب من قبائل عامر وسليم بن كيسان . ولم تندام النار على الفور في قوة ، لكنها امتدت إلى أوسع نطاق بسبب مقتل الوليد . وكانت كل مناسبة كافية في إثارة الشر الكامن ، وفي إيجاد منزع للصدور المترعة ، وكان كل نزاع قابلاً لأن يتقلب نزاعاً عاماً بين القبائل . وقد لعب الإسلام بطبيعة الحال دوراً في ذلك ، فكان أهل الديانة والورع حائقين على الخليفة الذي لا دين له ، خصوصاً القدرية الذين كانوا أولى الناس بأن يسخطوا عليه (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٧) .

وكان الوقت الذي انقضى بعد تولى الوليد ، وكان فيه خالد بن عبد الله القسري لا يزال بقيم في دمشق ، كافياً لوضع خطة التآمر على الوليد . وكان على رأس المتآمرين أعمامه هو ، فكانوا من أسراء بني أمية ، وإن كان من الجائز أنهم لم يكونوا هم الرؤوس المفكرة المدبرة للمؤامرة (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٣) . وقد كانوا هم نصحاءه الطبيعيين ، لكنه انسحب من زميرتهم ونأى بنفسه عن مشورتهم وإشرافهم ، وأصبح مسلكه مهتدداً بإضاعة ميراث آبائه ، الذي كان لهم هم أيضاً . الحق فيه . وقد أغضبهم أيضاً بأن عقد البيعة من بعده لاثنيين من أبنائه ، من غير أن يُدْخِلَ بينه وبينهما أحداً ، لأنه كان قد لقي في صباه مالتى من دخول هشام بينه وبين أبيه ، وذلك بالرغم من أن ولديه لم يكونا قد بلغا سن الرشد ، وكانا فوق ذلك ابنيين لأم ولد كانت جارية عنده^(٢) ، فلم يكونا لهذين السبيين وبحسب

(١) يخطئ ١ . مولر في اعتبارهم قيسين .

(٢) [لا يتفق هذا مع ما يقوله المؤلف فيما بعد من أن أحدهما شكاً من أن أمه لمن

كلب — فلا شك أن ههنا خطأ — المترجم] .

ما تقضى به العادة العربية والإسلامية أهلاً لولاية الحكم^(١). وقد شعر أبناء الوليد ابن عبد الملك خاصة ، وكانوا كثيرين (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٤) ، أن ما فعله يزيد آذاهم أذى بالغاً ، ذلك أن الوليد بن عبد الملك ، وهو أبوم ، كان أكبر أبناء عبد الملك ، وكانوا يأملون أن يصلوا إلى الخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٥) ، ولكن لم يكن دؤرهم قد جاء بعد ؛ والآن يُنتَجِبهم أبناء يزيد بن عبد الملك عن المكانة التي يطمحون إليها . وقد انضم إليهم أيضاً أبناء هشام وغيرهم من بنى مروان . ولم يكن ابن عمهم الوليد راضياً عنهم ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم أنه قد أعدّ مائة جامعة (سلسلة) من الحديد وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بنى أمية ليقتله بها . وكان من الذين يؤيدونهم ، وربما كانوا أيضاً هم الذين كانوا بحر ضونهم ، قوم من أشرف كلب^(٢) في دمشق ، وكانوا قواداً وعمالاً ساخطين أزيلوا عن مناصبهم ، ويقال إنهم سعوا إلى خالد ابن عبد الله القسرى لكي ينضم إليهم . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٧٧٨) أسماءهم ، ولكن منصور بن جمهور صار أكثرهم ذكراً عند المؤرخين فيما بعد ، وكان طبيعياً أن ينضم أبناء خالد القسرى إلى حزب هؤلاء المتآمرين على الخليفة ؛ وقد ظهر يزيد بن خالد من مخبئه ولعب في ذلك دوراً كبيراً . ومن جهة أخرى وقف السفليانيون إلى جانب الوليد بن يزيد لأنه كان ينتسب إليهم من طريق جدته بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وكان أبرزم أبو محمد زياد بن عبد الله ابن يزيد بن معاوية السفلياني . وكان إلى جانب الوليد أيضاً من بنى مروان العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان موضع ثقة الوليد .

(١) قارن كتابي الوليد إلى نصر بن سيار عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٥ — ١٧٦٤) ، وتاريخهما الثلاثاء ٢٢ رجب سنة ١٢٥ هـ (٢١ مايو سنة ٧٤٣ م) والخميس ١٥ شعبان سنة ١٢٥ هـ (١٣ يونيو سنة ٧٤٣ م) . وقد كتبهما شمال والنضر . وقد رفض خالد القسرى أن يوافق على مبايعة الصبيين قبل أن يلنا — الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٦ .

(٢) وكان يرتبط بكلب بعض قبائل اليمن الخالصة ، وكانوا يسكنون فيما حول دمشق .

ووثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان أكثر إخوته طموحاً ، وكانت أمه إحدى بنات ملوك السغد وقعت أسيرة في يد المسلمين ، فأخذ البيعة لنفسه وصار خليفة إلى جانب الوليد بن يزيد . وقد انضم إليه أولياء وأنصار بما بعثه عليهم من المال (تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٥ من تاريخ الخليفة) ، واستطاع بفضل فصاحته وبما كان يظهره من النسك والتواضع أن يضم إليه أهل الديانة (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧ ، ١٨٦٧) . ولما جاء الوقت الذى واعدهم عليه تشكر وركب حملاً ، وسار إلى دمشق في سبعة نفر ، وأخذ وهو في دمشق يتصل بأنصاره ، ولم يكن معظمهم في دمشق نفسها ، بل كانوا يسكنون في القرى المحيطة بها . وبعوتهم دخل المسجد الجامع في يوم الجمعة^(١) ، وهو يوم الصلاة الجامعة الذى يقع عليه الاختيار عادة لمثل هذه المناسبة ، وكان في المسجد كثير من السلاح وعدة الحرب . وقبض يزيد على عمال المدينة ، كما أمر بالقبض على أميرها الغائب^(٢) وعلى أمير بعلبك . ثم دخل المدينة ، وقد فتحت أبوابها ، ألف وخمسمائة رجل من كلب جاءوا إليه من المزة ، وجاء قوم من غسان ونخلم وكندة وغيرهم من القرى الأخرى المجاورة ، وكان معظمهم من قبائل اليمن خاصة . ولم تقع في أى مكان مقاومة ذات بال ، ويظهر أن الحكومة لم يكن تحت تصرفها عدد يذكر من الجند المستعدين للقتال ، بل كان الجند في الأمصار بعيدين عن الشام . ولم ينتصف اليوم التالى حتى بايع الناس في دمشق يزيد بن الوليد ، وكان فرحاً ، وكان يتمثل بأحد أبيات النابغة ، مما عجب له من كان معه من أهل الدين ، لأنه كان قبيل الصبح يستبح وهو الآن ينشد الشعر . ولكن لما انتدب يزيد المتطوعين إلى قتال الخليفة الشرعى لم يجتمع إليه إلا قليلون ، ولم يستطع رغم ما بذل من عطاء كبير أن يحصل على أكثر من ألفى رجل ، وقد

(١) لا يذكر تاريخ دقيق لذلك .

(٢) كان يخاف على نفسه من هواء دمشق ، فكان يقيم في فطن .

أمر عليهم عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، وأخذوا يتناقصون كلما تقدموا في المسير^(١) .

أما الوليد بن يزيد فإنه فوجئ بأول أخبار الثورة ، وقد حمل إليه الخبر مولى له خرج على فرسه مسرعاً حتى بلغ الوليد من يومه ، وقد نفق فرسه ؛ فكان جزاؤه من الوليد أن ضربه مائة سوط . وقد رفض ما أشار عليه أولياؤه به من المسير إلى حمص أو تدمر أو إلى حصون أخرى كانت قريبة . ولم يترك ماء الأغدف إلا في آخر لحظة عندما كان جيش عبد العزيز في طريقه إليه . ولجأ الوليد إلى حصن البخراء الذي لم يكن بعيداً عنه ، وكان معه مائتا رجل ، وقد أسرمت إليه فرق كثيرة من الفرسان جاءوا من بعيد ومن قريب ، منهم قوم من كلب ، جاؤا من تدمر (وعلى رأسهم الوليد بن أخى الأبرش الكلبي) وبهرانيون أقبلوا من حمص وغيرهم . ونهض عباس بن الوليد أيضاً لنجدته ومعه أبنائه الثلاثون ، ولكن عبد العزيز عرض له قبل أن يباغ الوليد ، فأسره وأرغمه على أن ينضم إلى جيشه .

وجاء الرسل الواحد بعد الآخر ينقلون إلى الوليد أخبار الأعداء الزاحفين إليه ، ولكنه كان لا يلتفت إلى ما يقوله الرسل إلى أن رأى الأعداء أمامه . وكان جنده القليلون معسكرين بحسب العادة العربية أمام الحصن ، وكان قد أعطاهم صكوكاً يةقاضونها فيما بعد لأن المال كان قد نفذ من يديه . وقد رأوا أن حاضرم ليس فيه أمل ؛ وأعطاهم انضمام العباس بن الوليد إلى المعسكر الآخر مثلاً خطراً^(٢) .

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٧ .

(٢) [هذه هي الترجمة الحرفية لكلام المؤلف ، والمقصود إما أنهم قلدوا العباس بن الوليد في عدوله إلى جيش عبد العزيز ، وبدأت الحياة ، ويدل على هذا ما جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٨٠٥ — ١٨٠٦) ؛ وإما أن منع العباس من الوصول إلى الوليد وإكراهه على الانضمام إلى جيش الأعداء (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٨ ، ١٨٠٣ — ١٨٠٤) أظهر المدافعين غلبة الأعداء . وعلى كل حال ، فقد « أسقط في يد أصحاب الوليد وانكسروا » (الطبرى ج ٢ ص ١٨٠٥) — المترجم] .

وزاد الطين بلة أن كلب تدمر لم يريدوا أن يقاتلوا كلب دمشق . ولم يكن أمام عبد العزيز ، لما بدأ الهجوم عند طلوع الشمس ، إلا لعبة سهلة . وقد اشترك الوليد ابن يزيد في المعركة بنفسه وكان أشجع من قاتل ، ولكنه لم يلبث أن وجد أن الجميع تفرقوا عنه ، فرجع إلى الحصن ودخل ، ثم جلس ونشر المصحف يقرأ ، وقال : « يوم كيوم عثمان » . وتلقى الضربات التي قتلت ، وهو على تلك الحال ^(١) . وأقبل أحد موالى خالد بن عبد الله القسري ، فساخ من جلد الوليد قذراً السكت وأتى بها إلى يزيد بن خالد علامة على النار لخالد . أما رأسه فقد حُزَّتْ وحُمِلَتْ إلى يزيد ، وكان الذي حَزَّها رجل يلقب بوجه الفيل ^(٢) فأمر يزيد بنصب الرأس على رمح والطواف به في مدينة دمشق . وبعد شهر دُفِعَ الرأس إلى سليمان ابن يزيد أخى الوليد ، فلم يجرؤ على دفنه جيناً منه ، وأخذ يتهم أخاه المقتول ويذكر ما كان منه من شرب الخمر والمجون والفسق . وكانت هذه الكارثة يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ الموافق يوم الخميس ١٧ أبريل سنة ٧٤٤ م ^(٣) . وإذا أراد المؤرخ أن يصدق يزيد بن الوليد فيما يقوله ، فهو يقول إنه ما تار إلا غضباً لله ورسوله ودينه وإنه وصل إلى الخلافة بإرادة الشعب ، ويقول

(١) تذكر أسماء الذين اقتحموا على الوليد وقتلوه عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٠ — تارن أيضاً ص ١٨٧٨ [والذي يذكره المؤلف عن نهاية الوليد مضمون إحدى الروايتين اللتين ذكرهما الطبرى (ج ٢ ص ١٧٩٥ — ١٨٠١) ؛ وعند الطبرى رواية أخرى : ج ٢ ص ١٨٠٦ — ١٨٠٧ — المترجم] .

(٢) [ليس هذا الرجل هو الذى احتز رأس الوليد ، والروايات مختلفة فيما فعل ذلك — راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٠٠ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ — المترجم] .

(٣) يذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٨١٠ س ٦) والمسمودى فى كتاب التنبيه (ص ٣٢٤) أن القتل كان لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة وأنه كان يوم الخميس . وفى الطبرى أيضاً (ج ٢ ص ١٨٣٦ س ١٤) أن ذلك كان يوم الأربعاء . ويذكر ثيوفانىس (أخبار سنة ٦٢٣٥) الخميس ١٦ أبريل سنة ٧٤٤ م ، على حين أن إلياس النصيبى يذكر يوم الخميس ٢٥ جمادى الآخرة .

إن الوليد إنما قُتل لأنه رفض ما عُرضَ عليه من أن يكون الأمر شورى ، حيث ينظر المسلمون لأنفسهم من يقدّمونه الخلافة ، فلم يجب الوليد إلى ذلك وبادر بالجملة على من أرسلوا إليه لدعوته إلى كتاب الله وسنة رسوله (الطبري ج ٢ ص ١٨٣٤ فا بعدها و ص ١٨٤٣ فا بعدها)^(١) .

ولما علم أهل حمص بمقتل الوليد وثبوا على دار العباس بن الوليد وهدموها ، متهمين إياه بخيانة الوليد والانحياز إلى عدوه . وقصدوا دمشق وعلى رأسهم أبو محمد السفياي بعد أن قال لهم : « لو قد أتيت دمشق ونظرت إلى أهلها لم تُخالفني » ، فأمروه عليهم ظناً منهم أنه لن يكاد يظهر أمام المدينة حتى تقع في يديه ، والكن الذي وقع كان غير ذلك ، فقد هزمهم سليمان بن هشام قريباً من دمشق . وكان مصيرهم الفناء التام لولا أن يزيد بن خالد بن عبد الله الفسري وقوماً من كلب حالوا بينهم وبينه . أما أبو محمد السفياي فأخذ إلى الخضراء ، سجن دمشق . وحبس أيضاً ابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفيايين . واجتمع وأمر أهل دمشق وبايعوا يزيد بن الوليد وقد قامت ثورات أخرى في أنحاء من فلسطين والكن قضى عليهم بالعنف أو بالصلح^(٢) .

٥ — وخطب يزيد بن الوليد بعد أن بايعه الناس خطبة افتتح بها عهده ، فضمنها كثيراً من الممانى ، وتشبه به عمر بن عبد العزيز ، قدس بنى أمية ، فقال إنه إنما خرج غضباً لله ورسوله ودينه ، ثم هاجم الوليد بن يزيد ، وبعد ذلك وعد الناس بأن لا يضع حجراً على حجر ولا كِبَنَةً على لبنة ، وألا يكري نهراً ولا يكثر

(١) [جاء في الطبري أن عبد العزيز قائد يزيد بن الوليد كان معه كتاب معلق في رمح مكتوب فيه : إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يصير الأمر شورى . أما ما يقوله المؤلف فهو مأخوذ من خطاب كتبه يزيد بن الوليد إلى أهل العراق ، راجع إلى جانب الإشارة التي يذكرها المؤلف ما جاء عند الطبري ج ٢ ص ١٨٠٤ — المترجم] .

(٢) [راجع فيما تقدم مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٨٢٦ — ١٨٣٤ — المترجم] .

مالاً ولا يعطيه زوجة ولا ولداً ، ولا ينقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى يسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل شيء نقله إلى البلد الذي يليه ممن هو أخرج إليه ، ولا يُخَمَّرَ الجُندُ في الثغور تجنباً لفتنتهم وفتنة أهليهم ، والأبواب تغلق بابه دون أحد حتى لا يأكل القوي الضعيف ، وألا يحمل على أهل الجزية ما يجلبهم عن بلادهم ويقطع نسلهم ، وكان مما قاله : « وإن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصام كادناهم ؛ فإن وفيت لكم بما قلتُ فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أفِ لكم فلكم أن تخاموني إلا أن تستتيبوني ، فإن ثبت قبلي مني ، فإن علمتم أحداً ممن يُعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته » ، وختم خطبته قائلاً : « أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا وفاء له ينقض العهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وإياكم^(١) . » وكأنما كان الخليفة يعبر بخطبته عن أعماق نفوس القدرية الذين كانوا في مبادئهم السياسية متفقين مع المرجئة وهم الذين كان يزيد يتوود إليهم أيضاً (الطبري ج ٢ ص ١٨٦٧ و ١٨٧٤ و ١٨٩١ ص ١٢) . ولما انتهى يزيد من خطبته قام قيس بن هاني العبسي ، وكان رجلاً صالحاً غوثياً (ديماجوجيا) ، فأثنى على يزيد ثناء ممقوتاً ، لأنه قال : « يا أمير المؤمنين ! إنني والله ودُّم على ما أنت عليه ، فما قام مقامك أحد من أهل بيتك ؛ وإن قالوا : عمر بن عبد العزيز !

(١) [خطبة يزيد عند الطبري ج ٢ ص ١٨٣٤ — ١٨٣٥ . وقد آثرنا اتباع نص الخطبة في النقط التي اختارها منها المؤلف — المترجم] .

فأنت أخذتها بحبل صالح ، وإن عمر أخذها بحبل سوء»^(١) . وقد رأى مروان بن محمد أن هذا المثلوق قد ذم جميع الأمويين وذر عمر بن عبد العزيز منهم . ولما ولي مروان بعث إليه رجلاً فقتله . وإذا كان يزيد قد وعد بدفع الأعطيات في كل سنة والأرزاق في كل شهر فإن ذلك وعد لم يتحقق أكثر مما يتحقق مثله اليوم في تركيا^(٢) ، ذلك أنه نقص الناس الزيادة التي كان الوليد بن يزيد قد زادهم إياها في أعطياتهم ، فسمى لذلك : يزيد الناقص ، أو λευπός^(٣) .

وقد اعتمد يزيد على أهل اليمن وخصوصاً كلب اعتماداً ظاهراً . فلم يكن يرى أحداً من قيس بنشاه أو يقف ببابه (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧) . وعين على العراق منصور بن جمهور السكبي ، وكان «أعرايياً جافياً» مشهوراً ، ولم يكن من أهل الدين . فذهب منصور إلى العراق في اليوم الذي قتل فيه الوليد بن يزيد . وقد تعرض له خمسمائة من كلب وأرادوا أن يأخذوا عليه الطريق . ولكنهم لم يهاجروه ، فانتزع سلاحهم منهم وأدخلهم السكوفة ؛ هذا مع أنه لم يكن معه سوى ثلاثين من رجاله ، وفي روايه أخرى أنه كان معه سبعة نفر^(٤) . ولم يجد يوسف بن عمر من يؤيده بين جند الشام في الحيرة والسكوفة ، ولم يكن من الممكن ، في ذلك الوقت ، الاعتماد على المقاتلة من أهل العراق . وأخفق يوسف في محاولته أن يفرق ما بين قيس وكلب ، فجعل يعمد إلى من يحضرته من البمانية

(١) [راعينا هنا ما جاء في الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٥ — ١٨٣٦ ، غير متقيدين بما يقوله المؤلف مما هو استنتاج من خطبة قيس بن هاني العبسي القصيرة جداً على كل حال — المترجم] .

(٢) [ظهر كتاب المؤلف في سنة ١٩٠٢ — المترجم] .

(٣) [هذه الكلمة اليونانية معناها : النقص ، ولا شك أنها جاءت في كتاب نيوقايس الذي يعتمد عليه المؤلف في بعض الأحيان ، على أن في تسمية يزيد بالناقص أكثر من وجه (الطبرى ج ٢ ص ١٨٢٥ ، ١٨٢٤) — المترجم] .

(٤) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٦ — ١٨٤١ — المترجم] .

فيلقيهم في السجون ، ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المُضَرِّيَّة ، فيقول له : « ما عندك إن اضطرب حبلٌ أو انفتق فتقٌ » ، فيقول : « أنا رجلٌ من أهل الشام ، أبايع من بايعوا وأفعل ما فعلوا »^(١) ، ذلك أن جند الشام لم يكن لهم إمامٌ بعد مقتل الوليد بن يزيد ، فلم يكونوا يعرفون الخليفة الذي عليهم أن يقاتلوا من أجله . وتردد يوسف بين العناد والتعدي وبين الشجاعة والخور ، فكان أحياناً يتمالئ كائناً يقف على أطراف أصابع قدميه ، وأحياناً أخرى ينكش في نفسه . وكان لا محالة واقعاً في يد منصور بن جمهور ، وكان منصور يريد أخذه ، لولا أن سليمان بن سليم الكلبي أنقذه بأن استحثه على الفرار وسهله عليه ، فخرج يوسف إلى البلقاء ، من أعمال شرق الأردن ، وهناك اختبأ . ولكن اختباءه لم يطل ، فقد وجه يزيد بن الوليد محمد بن سعيد الكلبي ، أحد قواده ، للتفتيش عنه في البلقاء ، فأخرجه من بين أهله ونسائه وبناته ، وكان قد لبس ملابس النساء . ثم أخذه فزج به في سجن الخضراء . وكان يوسف بن عمر من أعظم الناس إحياءً ، حتى كانت لحيته تجوز سُرَّتَه ، وكان من أصغرهم قامه ، فأضحك الناس لما بدا عليه من حق وخوف لا معنى له ، ولطول لحيته التي أغرت الحرس ، فأخذ أحدهم بها وعزها ونف بمضها^(٢)

ودخل منصور بن جمهور الحيرة والكوفة في أوائل رجب سنة ١٢٦ هـ (آخر أبريل سنة ٧٤٤ م) ، فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء والأرزاق ، وأطلق من كان ألقى بهم يوسف عمر في السجون من العمال وأهل الخراج^(٣) واستولى عماله على واسط والبصرة دون مقاومة ، ولكنه لم يبق طويلاً على

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٧ — ١٨٣٨ — المترجم] .

(٢) يبعد القارىء خبر عزل يوسف بن عمر وما أصابه عند الطبري ج ٢ ص ١٨٣٦ — ١٨٤٣ مثلاً — المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ — ١٨٥٥ ، على الولا — المترجم] .

إمارة العراق ، فمزله يزيد في رمضان أو شوال سنة ١٢٦ هـ (يولييه سنة ٧٤٤ م) وعين مكانه عبد الله بن عمرو بن عبد العزيز . وكان يزيد يعتقد أنه بذلك يرضى أهل العراق ، لأن عبد الله كان شبيهاً بأبيه ، ولأن أهل العراق كانوا يميلون إلى عمر بن عبد العزيز^(١) .

وقد اعترفت ولايتا سجستان والسند بالخليفة الجديد ، وعين هو عليهم والياً من كلب . وقد خضعت له مصر أيضاً ، فيما يقوله تيوفانيس ، ولكن ليس صحيحاً ما يزعمه المؤرخ الإسباني الذي كتب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور إذ يقول : *Omnes suae patriae (eum) ocius recognoscunt* (= وقد بايحه كل أهل بلاده) ، ذلك أن نصر بن سيار في خراسان وصروان بن محمد في أمينية والجزيرة لم يشعرا أنهما عمال للخليفة الجديد ، واتخذوا موقف تركب^(٢) . ولم يطل انتظارهما ، لأن يزيد مات في يوم الجمعة ١٢ من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٧٤٤ م) ، وكان ذلك بعد أن تولى الخلافة بمائة واثنين وستين يوماً^(٣) . وكان يزيد قبل موته قد أخذ لأخيه إبراهيم بن الوليد البيعة على الناس ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم . ويقول المؤرخون إن القدرية لم تنزل تحته على البيعة لمن يخلفه وتقول له إنه لا يحل له أن يهمل أمر الأمة ، حتى بايع لأخيه ولمن يأتي بعد أخيه^(٤) . وعلى هذا لم يكن تأثير القدرية على يزيد تأثيراً دينياً فحسب .

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ — ١٨٥٥ ، على الولاة — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٨٤٥ ، ١٨٧٦ — المترجم] .

(٣) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبى [وفي الطبري (ج ٢ ص ١٧٨٣ — ١٨٧٤)

أنه توفي سلخ ذي الحجة في رواية ، وامشع بقين منه في رواية أخرى ، وبعد الأضخى في رواية ثالثة ، وأن مدة خلافته خمسة أشهر واثنين أو خمسة أشهر واثنى عشر يوماً أو ستة أشهر وأياماً — المترجم] .

(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٩ — المترجم] .

الفصل السابع

مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة

١ — كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط أسرة بني أمية . وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحاراً سياسياً . وكان عهد الإيمان بحقها الشرعي في الملك وبقداسة خلافتها قد ولى ، حتى في الشام . ذلك أن بلاد الشام نفسها ، وكانت حبر الزاوية في النظام الذي كان قائماً ، قد لفتها دوامة الثورة ، وكان الثوار من أهل الديانة والورع قد ثبتت قدمهم وازدادت قوتهم في الشام أيضاً . أما رجال قبيلة كلب الذين كانوا حتى ذلك الحين أخلص أولياء الدولة ، وكانوا هم الجيش الذي تعتمد به الحكومة كما تعتمد القبيلة برجالها ، فإنهم أيضاً خرجوا على الولاء لها وارتقوا إلى الثورة على الخليفة ، بعد أن كانوا يؤمنون بحقه الشرعي^(١) . ويستطيع الإنسان أن يصور لنفسه مقدار ما كان لتزعزع سلطان الدولة في القلب من تأثير على الأطراف ؛ فأخذت تنحل في كل مكان تلك العرى التي كانت تمسكها القوة المركزية ، وقامت أنواع مختلفة من التمرد والعصيان في كل مكان . وفي وسط ذلك الاضطراب كانت تظهر تجمعات لا تلبث أن تزول . فكانت مختلف العناصر الهائجة تتجمع حول نقطة واحدة ، ثم تتفرق بعد ذلك وتدخل في تنظيمات أخرى ، وكانت تلك الفترة أنسب ما يكون للعناصرين والمتغلبين : وكان الواحد منهم تصبح له في أقصر وقت قوة كبيرة ، ثم كان يختفي من جديد من غير أن يترك أى أثر .

(١) [راجع مثلاً ما قاله مروان بن محمد عما كان من أهل الشام من وفاء وطاعة ، م من نكت وانتقاص — الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٠ — المترجم] .

وقد ظهر على المسرح رجل لم يولد على فراش أبيه^(١)، وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، من فرع جانبي في الأسرة الحاكمة، ليحارب أبناء عبد الملك، وخصوصاً أبناء الوليد وهشام ابني عبد الملك الذين كانوا يحملون الوزر في مقتل الوليد بن يزيد وكانوا هم الذين استفادوا منه. وكان مروان إذ ذاك بين الخمسين والستين من العمر (الطبرى ج ٢ ص ٩٤٠)، وكان يلقب على سبيل الاستهزاء: بالحمار، لأنه كان يحب أكل الفاونيا (Päonie)، وهي تسمى وردة الحمار^(٢).. وكان أبوه محمد، أحد أخوة عبد الملك، أميراً على أرض الجزيرة وأرمينية سنين كثيرة، وكان وهو في هذا المنصب يقود الحرب مع الروم، ثم حل محله مسلمة بن عبد الملك وغيره. وفي سنة ١١٥ هـ ارتفع نجم مروان من جديد، وأُسندت إليه على الأقل أرمينية وآذربيجان، وكان هذا المنصب يتطلب جندياً، وقد كان مروان عند حسن الظن به، فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفاعاً لا يلبس فيه، وأن يقوم بغزوات موفقة في أرض الترك، وكان هذا المنصب الذي لبث فيه اثني عشر عاماً بمثابة مدرسة حربية له. وكان نظام الجيوش في ذلك العصر قد أخذ يتغير شيئاً فشيئاً، وأخذت الجيوش تنظم تنظيمًا فنيًا. ذلك أن نظام المقاتلة القديم أخذ يبدو نظاماً غير صالح للغزوات الطويلة الشاقة البعيدة، كما أخذ يتجلى أن هؤلاء المقاتلة لا يصلحون لتحقيق غايات بعيدة عن نفوسهم، فزُحِزُوا عن مكانهم وحل محلهم جند الدولة من أهل الشام. وكانت الأعطيات المستمرة التي تُعطى لكل عربي قادر على القتال قليلة الجدوى في الأغراض العسكرية، وكان الحاكم إذا أراد رجالاً يخضعون للنظام ويسرون

(١) أنساب الأشراف ص ٢٦.

(٢) هذا ما يقوله مؤرخو الشام، أما أ. مولر (A. Müller, I, 453) فهو يفسر هذه التسمية من عنده على أنها مدح. وهو يشير في ذلك إلى ما يقوله إلياس (II, 658). ويسمى مروان أيضاً بالجمدى، ولا أعرف سبب هذه التسمية — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩١٢ [كان يسمى بالجمدى لأنه تلمذ على الجعد بن درهم — المترجم].

أينما وجههم ، لا بدله أن يجتذبهم بالمال . فمثلاً دفع يزيد بن معاوية إلى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من كان مستعداً أن يذهب في الجيش الذي وجهه إلى المدينة ، وعرض يزيد بن الوليد على من يتقدم لمحاربة الوليد بن يزيد ألفي درهم ، وأعطى الوليد بن يزيد للدفاعيين عنه كلاً منهم خمسمائة درهم ، وأعطى كل من خرج من أهل الشام لمحاربة الخوارج في اليمن في سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) مائة دينار وفرس وحيوان للحمل ، بل يحكى أن الضحاك بن قيس ، وهو أحد الخوارج ، إنما حصل على أتباع له بأن كان يعطيهم أرزاقاً كبيرة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٣٩) . أما الآن فقد بدأت تحل محل القبائل التي كانت تؤلف فرق الجيش في النظام القديم فرقاً بالمعنى الحقيقي لتتكون صلب الجيش ، وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل . وكانت كل فرقة تحمل أحياناً اسم قائدها كالوضاحية والذكوانية نسبة إلى عمر بن الوضاح ومسلم بن ذكوان . وقد سار مع هذا التنظيم جنباً إلى جنب تقدّم في الخطط العسكرية ، ذلك أنه فيما سبق من الزمان كان الجند يحاربون صفوفاً طويلة طبقاً للعادة العربية وللنظام الذي صار سنة بعد أن وضعه النبي عليه السلام . وبين الصفين المتقاتلين كانت تقع المبارزات الفردية ، وكانت نتيجة هذه المبارزات في كثير من الأحيان هي التي تعين مصير المعركة : إما بالتقدم من الجانبين وإما بالفرار . أما الآن فقد انحل نظام الصفوف القديم ، بعد أن تجلّى ما فيه من ضعف وحل محله نظام الكراديس ، أعنى الوحدات الصغيرة التي كانت أكثر تماسكاً فيما بينها وكانت أسرع حركة . وينسب إلى مروان بن محمد إنشاء نظام الكراديس هذا . وهو وإن كان يجوز أن بداياته ترجع إلى ما قبل ذلك فإن مروان هو الذي نفّذه^(١) . وإذا كان مروان يعتبر هو واضع هذا النظام ففي ذلك ما يدل على مقدار كبر شهرته .

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٩٤١ ، ١٩٤٤ — المنجم] .

ولكن مروان كان إلى جانب ذلك عليماً بالأعياب السياسية ودسائسها ، فكانت له علاقات بجميع الجهات ، وكان على علم تام بما يرسم من الخطط في كل مكان^(١) . فلما صارت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بعث يهنئه من كل قلبه ويستبشر بهده . ومع أن هشام بن عبد الملك هو الذي كان قد عين مروان بن محمد في منصبه فإن مروان في كتابه انتقد هشاماً وما كان منه من تصغير بالوليد ومحاولة تنحيته ، وذلك في كتاب مملوء بالجد ، بعث به مروان إلى الوليد^(٢) .

ولكن مروان في الحقيقة كان يرى في الوليد غير ذلك وفعل غير ما قاله له (الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣) . ومهما يكن من شيء فإن قتل الوليد بن يزيد جاء ملائماً لأغراضه ، فقد استطاع أن ينهض للثأر من القاتلين وأن يأخذ من أيديهم الغنيمة مستنداً إلى اعتبارات وجيهة . فلم يكذب بسمع بقتل الوليد حتى أعلن العصيان على يزيد بن الوليد ، فخرج من أرمينية متجهاً إلى الجزيرة ، وكان ابنه عبد الملك قد وثب على حران ومدائن الجزيرة فاستولى عليها (الطبرى ج ٢ ص ٨٧٠) ، لأن واليها من قبل الوليد ، وهو عبدة بن رباح الغساني ، خرج منها إلى الشام لما بلغه قتل الوليد ، ولكنه لم يكذب بسير حتى وثب في ظهره اليمانيون من جند الشام تحت إمرة ثابت بين نعيم الجذامي . وكان مروان قد ترك هؤلاء اليمانيين في أرمينية على أبواب القوقاز لكي يصدوا هجمات الترك ، وخصوصاً أنه لم يكن يطمئن إليهم كل الاطمئنان . فاضطر إلى القبول راجعاً ، وقبل أن تبدأ المعركة أمر منادياً أن ينادى فيسألهم عن سبب انشقاقهم عليه وعما يقومون منه مع حسن سيرته فيهم وولايتهم عليهم ، فأجابوه : « إنا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا ، وقد قُتِلَ خليفتنا وباع أهل الشام يزيد بن الوليد ، فرضينا بولاية ثابت ورأسناه ليسير بنا على

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣ : كان يقول ليس من أهل هوى إلا وقد أعطيتهم الرضا حتى أخبروني بذات أنفسهم — المترجم] .

(٢) [تجد هذا الكتاب عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٢ — ١٧٥٤ — المترجم] .

الوبتنا حتى نرد على أجنادنا » . ولكن مروان أمر متاديه أن ينادى فيهم : وقد كذبتُم ، وإنما أردتم أن تركبوا رءوسكم ، فتغصبوا من مَرَزْتُم به من أهل الذمة أموالهم وأطعمتهم وأعلانهم ، وما بيني وبينكم إلا السيف حتى تنقادوا إلى فأسير بكم حتى أوردكم الفرات ؛ ثم أخلى عن كل قائد وجنده ، فتلحقون بأجنادكم » ، فلما رأوا منه الجِد ، انقادوا إليه وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده الأربعة ، فوضع السلاسل في أرجلهم . وأعطى مروان جند الشام ما أرادوا من العودة إلى بلادهم ، فأخذهم معه وضبطهم عن الاعتداء والظلم . وكانت جنود قيس من أهل الجزيرة يكتوبون نواة جيشه . حتى إذا ورد حرّان خلى سبيل جند الشام . أما هو فقد بقي في حرّان ، ووجد أن من الحكمة أن يبائع يزيد بن الوليد ، وخصوصاً أن يزيد كاتبه على أن يبائعه ويقول في مقابل ذلك جميع البلاد التي كان أبوه محمد بن مروان يتولاها أيام عبد الملك ، وهي الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان .

ولكن يزيد بن الوليد مات بعد أن تولى الخلافة ستة أشهر ، وكان قد عقد البيعة لأخيه إبراهيم بن الوليد خلفاً له ، فلم يتم له أمره ولم يبائع له إلا أهل جنوب الشام^(١) . فعاد مروان إلى خطته القديمة على القور . وعبر الفرات إلى الشام وانضمت إليه قيس قنسرين تحت قيادة يزيد^(٢) بن ممر بن هبيرة ، كما انحاز إليه عرب حمص^(٣) . ولم يجد مقاومة إلا في عين الجرّ عند نهير في سلسلة جبال

(١) | يقول الطبري ج ٢ ص ١٨٧٥ : « وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمرة ... وكانت ولايته سبعين ليلة » — المترجم .
(٢) [يقول المؤلف : يوسف بن عمر ... وهذا خلاف لما في الطبري ج ٢ ص ١٨٧٦ — المترجم] .

(٣) ويجب بطبيعة الحال تصحيح كلمة Edesa التي وردت عند ثيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٥ ، بحيث تصبح Emesa . أعني حمص .

لبنان الشرقية (Antilibanus) ، حيث يلتقي بنهر الليطاني (Lita) ، وهناك كان جيش جنوب الشام يقوده سليمان بن الخليفة هشام^(١) ، وكان سليمان ابن هشام هذا قد قضى كل صباه في حرب الروم ، وكان أحب شيء إليه أن يكون في ميدان القتال على رأس جنوده ، وكان الذكوانية هم الحرس الذي يحميه^(٢) ، ولكنه لم يكن كفؤاً لمروان ، فاشتبك معه عند ذلك الحين لأول مرة ، ثم اشتبك معه بعد ذلك مرات كثيرة ، فهزم سليمان وفر راجعاً إلى دمشق ، وتفرق جيشه الكبير . ولكن مروان بعد أن انتصر اصطامع العفو والهودة ، فلم يقتل سوى اثنين من كلب وقعا في يده ، وكان لهما ضلع في مقتل الوليد بن يزيد . أما بقية الأسرى فقد خلى عنهم بعد أن قوى كل واحد منهم بدينار وألحقهم بأهلهم ، ولكن بعد أن أخذ عليهم البيعة للحكيم وعثمان ابني الوليد بن يزيد ، وكانا عند ذلك محبوبين في دمشق ، وكان من حكمة مروان أنه لم يخرج مطالباً بحق لنفسه ، بل أظهر أنه المدافع عن حق ورثة الوليد بن يزيد . وقد دفع ابنا الوليد حياتهما ثمناً لذلك ، لأنهما كانا في يد الأعداء ، فلما وصل سليمان بن هشام منهزماً إلى دمشق اجتمع إليه وإلى إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج رهوس من معهم ، أمثال يزيد بن خالد القسري والأصبغ بن ذؤالة السكبي ، فقال بعضهم لبعض : « إن بقي الغلامان ، ابنا الوليد ، حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويصير الأمر إليهما ، لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما ، والرأى أن نقتلهما ! » ، فأتوا ذلك يزيد بن خالد القسري ، فأرسل يزيد مولى لأبيه في عدة من أصحابه فدخل السجن وشدخ الغلامين بالعمد ، وقتل يزيد يوسف

(١) ويصف : فانيس ذلك الموضع ؟ وهو يسميه Garis وينجم كلمة Sita كما لو كان معناها : الملعون ؟ أما في السريانية فالموضع يسمى En Gara ، فارن DMZ ، ١٨٩٧ ص ٥٨١ وعين الجر تقع على الطريق بين بعلبك ودمشق (الطبري ج ٣ ص ٤٨) .
(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٩٢ س ١٢ — المترجم] .

ابن عمر ، وكان في نفس السجن . أما أبو محمد السفيناني فإنه تحصّن في بيت من بيوت السجن ولم يمكن أخذه ، حتى دخلت خيل مروان بن محمد دمشق . وقبل أن يصل مروان كان سليمان قد استطاع في الوقت المناسب أن ينهب ما كان في بيت المال ويقسمه فيمن كان معه من الجنود ويخرج من المدينة^(١) ، وذهب مع إبراهيم بن الوليد إلى تدّسر ، مقر قبيلة كلب .

وبعد أن أسعدت الأقدار مروان بن محمد بإزالة ابني الوليد بن يزيد من طريقه أخذ البيعة لنفسه في دمشق يوم الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ ديسمبر سنة ٧٤٤ م^(٢) . وكان أبو محمد السفيناني أول من بايعه . وزعم أن الحكم وعثمان ابني الوليد ، وهما يعالجان الموت ، قد أوصيا بأن يكون مروان هو الخليفة بعدهما . وأنشد أبو محمد السفيناني قصيدة للحكم بن الوليد ، قالها وهو في السجن ، يستغيث فيها بمروان ويصف يزيد بن الوليد بأنه : « الناقص القدرى » الذى أشعل نار الحرب ؛ وهى تنتهى بهذه الأبيات :

أَتُنْكثُ بِيَمْتَى مِنْ أَجْلِ أُمِّي فَقَدْ بَايَعْتُمْ قَبْلِي هَجِينَا
فَلَيْتَ خُوُولَتِي مِنْ غَيْرِ كَلْبٍ فَكُنَّا مِنْ وِلَاةٍ آخِرِينَا
فَإِنْ أَهْلِكَ أَنَا وَوَلِيَّ عَهْدِي مَرْوَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وهكذا يشكو الحكم^(٣) من أنه ينتسب من جهة أمه إلى قبيلة كلب البغيضة ومن أنه قد فقد حقه في الخلافة لهذا السبب . ويَزعم تيوفانيس أن

(١) [راجع في هذا مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٦ — ١٨٧٩ — المترجم] .

(٢) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبى ، غير أنه يجب تصحيح يوم الثلاثاء الذى يذكره بحيث يكون يوم الاثنين ، وذلك طبقاً لما جاء فى كتاب التنبية للسعودى ص ٣٢٥ ، وإن كان التاريخ الذى يذكره السعودى غير صحيح .

(٣) [ظن المؤلف خطأ أن الشاكى هو أبو محمد السفيناني — المترجم] .

سروان ، بعد أن دخل دمشق ، قتل كثيراً من أشرف الناس ومن كان لم ضلع في مقتل الوليد وابنيه الحكم وعثمان ، وأنه قطع أبدى قوم آخرين وأرجلهم ؛ ولكن الأغلب أن هذا ليس صحيحاً . ومن الجائز أن يكون سروان قد أخذ بعض من لم ضلع حقيقى في مقتل الوليد بن يزيد بجريرتهم ، إن كانوا قد وقعوا في يده . ويظهر أيضاً أن سروان قد اشتد مع النافرين من أهل الدين ، فهو قد قتل قيس بن هاني العباسي الذي تكلم عند بيعة يزيد بن الوليد كلاماً جاوز فيه الحدود وأذى به بنى أمية جميعاً ، كما أن سروان تعقب القدرية الذين كان يزيد قد قربهم إليه^(١) . ولكن الروايات العربية تقول إنه دخل دمشق في المرة الأولى دون قتال ، وإنه لم يظهر بمظهر المنتقم . وإذا كان موالى الوليد بن يزيد قد ثاروا إلى عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك قتلوه ، وإلى قبر يزيد بن الوليد فنبشوه وصلبوه ، فإن ذلك لم يحدث بأمر من مروان ؛ بل يحكى أن مروان سمح للعرب في الأقسام الأربعة الكبرى التي كانت تتألف منها الشام^(٢) بأن يختاروا بأنفسهم من يحبون أن يولوه على أجنادهم ، وهو لم يمانع ، عملاً منه بالمبدأ الذي سار عليه ، في أن يكون ثابت بن نعيم الجذامي والياً على أجناد فلسطين ، مع أن ثابتاً كان هو الذي تزعم حركة العصيان التي قام بها جند الشام في أرمينية ، خروجاً منهم على طاعة مروان . وقد أراد مروان بذلك كله أن يبعث الثقة في النفوس وأن يهدى الخواطر ، حتى إذا أتم عمله واستوت له الشام وعاد إلى منزله من حرّان ، طلب الأمان منه خصماء الكبيران : سليمان بن هشام والخليفة إبراهيم بن الوليد ؛ فأمنهما

(١) يصف تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٤١) مروان بأنه جبرى (Fatalist) ، وذلك لإنكاره القول بالاختيار ، والحقيقة أن مروان لم يكن بطبيعة الحال يراعى اعتبارات اعتقادية ، بل اعتبارات سياسية .

(٢) هي فلسطين والأردن ودمشق وحمص . أما قنسرين ، فنظراً لأنها كانت لقيس فهي لاحقة بأرض الجزيرة وكانت تعتبر منفصلة عن الشام .

مصطفياً العفو والفضل . وقد قدما عليه في حرّان وصارافى عسكريه ، وكان يكرمهما ويدنيهما ، وكان يسيران معه في موكبه^(١) .

وكان قتال مروان لأبناء عبد الملك قتالاً لسلب وقضاء ، وقد انضمت إليه قيس وحاربت معه ، وهو أيضاً اتخذ مقر إقامته بين قيس ، في حرّان بأرض الجزيرة ، وهناك كان يقيم أبوه ، وكان وهناك نما هو وترعرع ، وهناك كان يشعر أنه في وطنه^(٢) . ويقول صاحب كتاب التنبيه إن جميع من ملك قبلة من بنى أمية كانوا ينزلون دمشق ، وأن منهم من كان يتبدى^(٣) . ومهما يكن من شيء فإن بعض خلفاء بنى أمية ، وإن كانوا قد آثروا الإقامة بمبدأ عن دمشق ، فإنهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية ، ولم يكن مقصدهم أن يجردوا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة . أما مروان فيظهر أنه كان في الحقيقة يقصد ذلك . فقد نقل مقر حكومته إلى حرّان ، ونقل إليها — كما يقول تيوفانيس — كل الأشياء والخزائن التي كانت في دمشق ، وقد جرّ هذا على مروان عواقب خطيرة ، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحسّ الشام كله — عدا الأجزاء الشمالية — أنه أيضاً قد انتزعت منه السيادة . وقد أخذت الخلافات بين الأحزاب تختفي وسط هذا الشعور شيئاً فشيئاً ، وأخذ الناس يشاققون إلى عودة العهد السابق . وإلى جانب ذلك لم يكن من اليسير بطبيعة الحال القضاء على ما كان هناك من ميل إلى البيت الشرعى الذى أزيل عن العرش وكانت له علاقات وأواصر بجميع البلاد وتحويل هذا الميل إلى غاصب غريب عن أهل الشام ، أمّه أم ولد .

(١) [راجع في هذه الحوادث الطبرى مثلاً (ج ٢ ص ١٨٩٠ — ١٨٩٢) — المترجم] .

(٢) وينسب تيوفانيس ميل مروان إلى مذهب الجبرية بأنه كانت له علاقة وثيقة بالآراميين الذين بقوا في حرّان على وثنيهم .

(٣) [راجع كتاب التنبيه والأشراف السعوى ص ٣٢٤ من طبعة ليدن سنة

١٨٩٣ — المترجم] .

ولم ينقض عام ١٢٧ هـ حتى انتفض الشام على مروان^(١). ويظهر أن الثورة نشأت من جانب أهل فلسطين ، لأن ثابت بن نعيم الجذامي كان هو روح الثورة ؛ ولسكنها امتدت إلى جميع الجهات ووصلت حتى إلى مدينة حمص التي كانت حتى ذلك الحين في جانب الوليد بن يزيد وجانب مروان . وفي الثاني من شوال سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ يولييه سنة ٧٤٥ م^(٢) ، ظهر مروان أمام حمص ، فذهبت عن أهلها شجاعتهم وسمحوا له أن يدخل المدينة ، وغدروا بألف فارس من كلب كانوا قد جاءوا من تدمر مسرعين إلى نجدتهم^(٣). وعند ذلك أرسل مروان جيشاً كبيراً إلى دمشق لكي يفك الحصار الذي ضربه عليها عرب الفوطة تحت قيادة يزيد بن خالد القسري ، فشقت شمل المحاصرين وقتل يزيد ابن خالد القسري ، وأحرقت المزة التي كانت عشاً لرجال كلب . وبعد ذلك اتجه الجيش إلى مدينة طبرية قصبة الأردن ، فطرد ثابت بن نعيم الذي كان يحاصرها ،

(١) يذكر الواقدي (الطبري ج ٢ ص ١٧٤٢) سنة ١٢٨ هـ . بل يذكر إلياس النصيبي سنة ١٢٩ هـ . وأنا أتابع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) كما أتابع الرواية الأساسية عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٠ فما بعدها) . وستبين أسباب ذلك في أثناء كلامنا التالي ، وكان من الممكن الخلط في التواريخ لأن مروان حاصر حمص مرتين : في سنة ١٢٧ هـ ، ١٢٨ هـ .
(٢) بعد عيد الفطر بيومين سنة ١٢٧ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٨٩٣) .

(٣) يقول تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) إلى مروان صلب مائة وعشرين من كلب (Xúλπειροι) . أما الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٣ — ١٨٩٤) فهو يقول إن مروان صلب القتلى حول المدينة . وكان العباس بن الوليد يقيم في حمص . وفي سنة ١٢٦ هـ كان أهل حمص قد هدموا داره لأنه انحاز إلى جانب أعداء الوليد بن يزيد . ولسكن يظهر أنه قد صار له من جديد تأثير على أهل حمص ، وأنه غير اتجاههم السياسي وأثارهم على مروان ، لأن مروان بعد أن استولى على حمص أخذه وحبيه . وجاء زنجي فوضع رأسه في كيس من الجير كان قد حوى به للطبخ . وقد فرح لذلك النصارى ، لأن العباس ، وكان مسلماً متحمساً ، قد أغضبهم على نفسه . وكان النصارى في ذلك الوقت لا يزالون كثيرين في حمص ، ويجوز أنهم قاموا بنصيبهم في تسليم المدينة إلى مروان الذي كان بعيداً عن التمسك الديني — راجع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) ؛ والمعلومات الدقيقة التي يذكرها هذا المؤرخ أجدر بالتقديم على ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ٤٣) من رواية موجزة .

ثم هُزم ثابت مرة أخرى في فلسطين وأسر آخر الأمر^(١)؛ فأمر مروان بثابت وبنيه فقطعت أيديهم وأرجلهم ، ثم أُجِلُوا إلى دمشق فأُقيِمُوا على باب مسجد هـ ، ثم قُتِلُوا وصُلبوا على أبواب دمشق . وأخيراً جاء دور مدينة تدمر ، المقر الأساسي للكلب ، وكانت هي المدينة الوحيدة التي لا تزال قائمة . وقد توجه إليها مروان بنفسه ، ولكن الأبرش بن الوليد امتأذن مروان في استعمال السياسة وطريق المفاوضة والتخويف ، فأفلح في تفادي الحرب ووصل إلى إقناع أهل تدمر بمبايعة مروان . وشخص كبار أهل المدينة أمام مروان ، ولم يهرب إلا أفراد قليلون خافوا على أنفسهم منه ، ففروا إلى بركة كلب^(٢) .

وأخذ مروان البيعة لابنيه . عبد الله وعبيد الله ، في دمشق ، وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك ، رجع للاحتفال بالزواج جميع بني أمية ، وكان هذا الزواج بمثابة حفلة رسمية للدولة . وكان مروان يعتقد في ذلك الوقت أنه قد استطاع أن يصالح ما بينه وبين أسرة بني أمية وأن يضعها إلى جانبه . ثم دعا أهل الشام إلى الخروج في الحملة التي كان ينوي القيام بها على العراق ، ولم تكن العراق قد خضعت له بعد ، فتقدموا ، وأخذوا منهم عشرة آلاف رجل ، وجهزهم بالسلاح والخيول ، وأمرهم أن يلحقوا بالجيش الآخر الذي كان يتألف من عشرين ألف رجل من أهل الجزيرة وأهل قنسرين ، وكان يسير تحت إمرة يزيد بن عمر ابن هبيرة مع الفرات في أبل سنة ١٢٨ هـ (ربيع سنة ٧٤٥ م) . فلما سر جيش العشرة آلاف رجل بالرصافة ، أقبلوا على سليمان بن هشام — وكان قد استأذن مروان ، وهو عائد معه من تدمر ، في أن يقيم في الرصافة أياماً حتى يحتم هو

(١) بحسب رواية الواقدي (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٢) كان ذلك في شوال سنة ١٢٨ هـ ، ويتجلى من تسميته بالاسم القديم : ابن الجذامي ، أن نعيم بن ثابت هو عين ثابت بن نعيم .

(٢) [راجع في هذا الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٨٩٢ — ١٨٩٧) — المترجم] .

ومواليه — ودعوه إلى خلع مروان ومحاربتة ، وقالوا له : « أنت أرضى منه وأولى بالخلافة » . واستزله الشيطان ، فأجابهم . ومع أن مروان كان قد آمنه وأكرمه وأنه كان عنده من الأسباب ما يدعو إلى أن يرعى عهد الولاء له ، فإن سليمان ، وهو القائد المحب للحرب الذي لا يحتمل الحياة الهادئة ، لم يستطع أن يقاوم الفتنة التي جاءت له . فخرج إلى الثوار بإخوته وولده ومواليه واستولى على قنسرين التي كانت مجردة من الجند ، وتدفع إليه أهل الشام من كل ناحية ، حتى أبروى أن سبعين ألفاً كانوا في آخر الأمر تحت رايته . وعند ذلك أسر مروان فربطاً صغيراً من الجيش الذي كان في طريقه إلى الكوفة بالوقوف عند دورين تحت إمرة ابن هبيرة ، وقاد هو الجزء الأكبر من الجيش راجعاً إلى الثائر الذي وثب في ظهره . وهاجم مروان سليمان في معسكره عند قرية يقال لها خساف^(١) ، غير بعيد من قنسرين ، فهزمه ، ولم يعامل العرب الذين أسرم بشيء من العفو ، فكان لا بد لهم من الموت ، إلا من قال منهم أنه عبد مملوك ، ليبقى على نفسه . ويذكر الطبري أن مروان قتل ما يزيد على ثلاثين ألف أسير ، أما عند تيوفانيس فإن عدد القتلى في حملتهم لا يتجاوز سبعة آلاف . أما سليمان بن هشام فقد انحاز مع قائل جيشه إلى حمص ، ولكنه بعد أن اقترب منه مروان فر إلى تدسر ومنها إلى الكوفة . وبقي الجيش في حمص بقيادة أخيه سعيد بن هشام ، فحاصر مروان مدينة حمص المرة الثانية ولم يستطع أن يجبرها على التسليم في هذه المرة إلا بعد حصار أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً^(٢) ، وبعد أن نصب عليها نيفاً وثمانين

(١) [يقول المؤلف : الخفاف ، وهذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٩٠٦ س ١٤]

و ١٩١٣ س ٢ — المترجم] .

(٢) هذا ما يقوله إلياس ، قارن أيضاً تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٧) . ويذكر

الطبري (ج ٢ ص ١٩١٢) أن الحصار دام عشرة أشهر ، ولكن لا مجال لذلك ، ولعل مدة سنة ١٢٨ هـ كلها لم تدم أكثر من عشرة أشهر .

منجنيقاً تقدفها بالحجارة ليلاً ونهاراً ، حتى تتابع على أهلها البلاء ، والذل وطلبوا الأمان . وقتل مروان قوماً من الد أعدائه . أما سعيد بن هشام وأبناؤه فقد أسرم وحبسهم^(١) . ولا يقال متى أخذ أبا محمد السفياي وحبسه ، ولكن أخذته ثابتاً مما جاء في الطبري (ج ٣ ص ٤٣) ، وهو حادث طريف ، لأنه يدل على أن هذا الأموي أيضاً قد جرفه تيار الثورة التي لم تترك أحداً ، وقد هدم مروان أسوار حمص وبلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام الكبرى ، إلا أنطاكية فإنه لم يهدم أسوارها ، لأن أغلب أهلها كانوا نصارى^(٢) . ويدل هدم مروان للأسوار على أنه قد لاقى مقاومة من هذه المدن^(٣) . وفي سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦م) كان مروان قد انتهى من إخضاع الشام ، فوكت ممزقة تحت قدميه^(٤) .

٢ — وفي أثناء ذلك كان كل شيء في شرق الدولة مضطرباً . وكان يزيد ابن الوليد في رمضان أو في شوال سنة ١٢٦ هـ قد أسند الولاية على العراق إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، وذلك مكان منصور بن جمهور السكبي الذي ظل رغم هذا محتفظاً بمكانة لما تأثيرها في الكوفة . أما مقر الحكومة ومقر جند الشام فقد بقي في الحيرة ، وكانت الحيرة بمثابة مفتاح الكوفة . وإلى جانب هذا أمكن القبض على زمامها بفضل القصر الذي كان فيه صاحب الشرطة

(١) يقول تيفانيس إن مروان قتل كل أقارب هشام وآله ، ولكن هذا غير صحيح (فارن بين ما جاء في الطبري ج ٣ ص ٤٣ وبين ما جاء في ج ٢ ص ١٩١٢) . ويذكر نفس الراوية قتل السكبي الذي كان يعتبر فارس أهل الشام مرتين في صورتين مختلفتين (الطبري ج ٢ ص ١٩١٢) . ومن الجائز أنه يجب التمييز بين معاوية السكبي وأبي علفة السكبي ، والآخر منهما يسمى القضاء ، وإن كانت سكك إنما لحقت بقضاة وانضمت إليها من غير أن يرجع نسبها إليها في الحقيقة .

(٢) راجع ما يقوله تيفانيس في أخبار سنتي ٦٢٣٧ ، ٦٢٤١ .

(٣) ربما كان الواقدي غير مخطئ في أنه قد جعل أسير ثابت بن نعيم وقتله فيما جوالى هذا الوقت .

(٤) [راجع في الحوادث المقدمة الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٩٠٨ — ١٩١٣ — المترجم] .

ورجاله . وطبيعى أن يكون أهل الكوفة على غير وُدِّ مع جند الشام الغرباء عنهم . وقد عمل عبد الله بن عمر على ما فيه استرضاؤهم ، وربما كان بعض ما قصده من التمييز المستمر للمال وأصحاب الشرطة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٠٢) هو أن يحقق هذا الغرض نفسه ، ولكن كان المال هو وسيلة الكبرى فى ذلك . فأعاد إلى مقاتلة الكوفة أرزاقهم وأعطياتهم ، بعد أن كانت قد مُنِيت عنهم لأنهم لم يكونوا فى الحقيقة يؤدون واجبات حربية ولم يكونوا يستخدمون السلاح إلا فى الثورة . وبعد أن مات يزيد بن الوليد وتولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد زاد عمر فى الأعطيات . وقد تذر قواد أهل الشام من ذلك ونازعوه فيه قاتلين : « نُقَسِّم على هؤلاء قَتِينًا ، وم عدُّونا »^(١) . ولكن أهل الكوفة لم يرو فيما بدا من روح الخير عند ابن عمر إلا دليلاً على الضعف ، فلما مات يزيد ابن الوليد ظنوا أن مركزه قد تزعزع إلى حد أنهم اجتروا عليه بالثورة^(٢) .

ذلك أنه كان يقيم بين أهل الكوفة فى ذلك الوقت رجل يمكن أن يعتبر من آل بيت النبى عليه السلام ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب . فهو أحد أحفاد جعفر بن أبى طالب أخى على بن أبى طالب^(٣) ، وكان قد وفد هو وإخوته على عبد الله بن عمر يلتبس صِلَتَه ، لكنه بقى فى الكوفة لا يريد عنها رحيلًا ، وتزوج من أسرة ذات نباهة . ونظراً لنسبه

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٤ — ١٨٥٥ لئى أيضاً كيف استطاع ابن عمر أن يتغلب على الموقف بأن أخرج جند الشام من جهة وأراد أن يكبح جماحهم بجند الكوفة من جهة أخرى — المترجم] .

(٢) [وقد جاء هذا من جانب الشيعة بنوع خاص — راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٨٣ — المترجم] .

(٣) [تجد أخبار خروج عبد الله بن معاوية والروايات المختلفة فى ذلك والظروف التى دعا فيها لنفسه أو حسن له غيره أن يفعل ذلك ، وما كان من جميع أمره عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٩ — ١٨٨٧ و ص ١٩٧٦ — ١٩٨١ — المترجم] .

فقد بدا أنه أهل للخلافة^(١) ، وقد أظهر استعدادة للخروج من أجاها ، وكان الزيدية ، أعني الشيعة الذين كانوا قبل ذلك يضع سنين قد ثاروا على حكومة هشام وعلى رأسهم زيد بن علي ، يكوّنون نواة أنصاره ، فجاءوا به وأدخلوه القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبين القصر ؛ وكان بينهم كثير من الموالى ، ولكن بقية أهل الكوفة بايعوه ، ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر في الحيرة . ولم يكن في ابن عمر شيء من التراخي ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرج عن حدوده شيء مهما كان . وكان إذا لم يستطع تغيير مجرى الأمور عام في تتيارها ، وقد ثبت له من التجربة أن ذلك يؤدي به إلى الغرض . وبينما كان يأكل ويشرب ترك لجنده من أهل الشام أن يصدوا المهاجرين ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد فرّ أهل الكوفة عند ما بدأ القتال ، وذلك في المحرم سنة ١٢٧ هـ (أكتوبر — نوفمبر سنة ٧٤٤ م) . ولكن كان الزيدية هم الذين قاتلوا قتال الشجعان ، بل صمدوا في القتال أياماً في القصر وفي شوارع الكوفة ، حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم وابعدهم الله بن معاوية ، يذهبون حيث شاءوا ، لا يمنهم أحد^(٢) .

فخرج ابن معاوية من الكوفة ، ولم يكن قد انتهى الدور الذي أراده ، وقصد إلى المدائن وبلاد الجبل (ميديا) ، فبإيمه أهلها ، وكان قد أتاه قوم من

(١) [قال له أهل الكوفة ، بعد قيام النزاع بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد : أدم لنفسك ، فبنو هاشم أول بالأمر من بني مروان ، الطبرى ج ٢ ص ١٨٨٠ — المترجم] .
 (٢) [يحكى المؤلف القصة كلها في انقصاب ؛ فلا بد من الرجوع إلى المواضع التي أشرت إليها في هامش سابق . أما ما يقوله عن عبدالله بن عمر فليس دقيقاً تماماً ، لأن الذي حصل هو أن ابن عمر كان رجلاً سياسياً غادراً ، فلما جاءه خبر قدوم ابن معاوية إلى الحيرة لقتاله ، وخادمه بين يديه لبأذن له بتقديم الطعام ، لم يترعج ، بل أطرق ملياً يفكر ، وكأنما أراد أن يجهل فترة تناول الطعام فترة رسم الخطة ، فلما انتهى من طعامه استدعى قواده ففرق فيهم الأموال ، وخرج بنفسه مع الجند وأدار المعركة على طريقته الخاصة ، ومضى كما يقول المؤلف (ص ٣٦٩ مما تقدم) يعتمد على المال كوسيلة أساسية — راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٨٥ — ١٨٨٧ .
 مثلا — المترجم] .

أهل الكوفة . ثم خرج إلى بلاد الجبل فغلب عليها ، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري ، وانضم إليه خصوصاً كثير من العبيد والموالي ، أى من الفرس . فاستقر أولاً في أصبهان ، لكنه ذهب إلى أصطخر في فارس سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ - ٧٤٦ م) ، وخضعت له أجزاء كبيرة من بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان ، لأنه بدا بحكم نسبه أملاً للخلافة . وبايعه أيضاً آخرون من صفار الثوار الذين ظهروا في ذلك الوقت في تلك الناحية ، وكانوا يريدون أن يُقرّهم على ما غلبوا عليه ، ومنهم محارب بن موسى وسليمان بن حبيب^(١) . وجاء آخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم في أوطانهم ، فاستتروا تحت جناحه ، طامعين في أن ينالوا منه صِلةً أو ولاية . أما التشيع الذي ارتفع شأن ابن معاوية بسببه فقد كان عنده شيئاً ثانوياً ، وقد التفت حوله كل ألوان الناس . وهكذا قامت فجأة في المشرق الذي لم يكن له سَيِّدٌ دولةٌ شاسعة من الدول السريعة الزوال : وهذا من العلامات التي كان يتميز بها ذلك العصر .

ثم إن ابن عمر أسعده الحظ بالتخلص من عبد الله بن معاوية (في الحرم سنة ١٢٧ هـ) . ولكن ابن عمر لم يعترف بخلافة مروان بن محمد (صفر سنة ١٢٧ هـ) ، بل هو بعد أن سقطت حكومة الأمويين في الشام كان هو الذي يمثيها في العراق دون أن يظهر بمظهر الخلافة ، وكان مُقَوِّله على قبائل البمانية من أهل الشام (قضاة وكتب) ، وهى على كل حال لم تتعاق به إلا لأنه لم يكن هناك خيرٌ منه .. وكان أهل اليمن قبل ذلك بزمان طويل يؤثفون الشطار الأكبر من جند الدولة ، وصاروا يكوِّنون ما يشبه المستعمرة في الكوفة والحيرة ، ولكنهم إذ ذاك برزوا أكثر من ذي قبل ، بعد أن ثقل عليهم العناء والسأم من أمر بلادهم ،

(١) لا شك أن هذا شخص آخر غير الفاضل المسمى بالاسم نفسه والذي كان قاضياً في الشام في عهد الوليد وسليمان وهشام ، أبناء عبد الملك .

وبعد أن أصبحت أبوابها موصدة دونهم . وقد شد من أزرهم مهاجرة آخرون ، لم يستطيعوا ، أو هم لم يريدوا ، أن يسالوا مروان ، كما زادهم قوة إخوة وأبناء الخالد القسرى وقواد من كلب ، من طراز منصور بن جهور ، وآخرون من زعماء أحزاب الأقلية في الشام ، ممن جاءوا بأهلهم معهم . وعندما يرد عند الطبرى ذكر أهل اليمن في حروب ذلك العصر ، فإن المقصود عادة هم يمن الشام في الكوفة .

ولم يستطع مروان في أول الأمر أن يفعل أكثر من أن يعين على العراق أحد كبار رجاله ليكون والياً مُضاداً لعبد الله بن عمر ، وهو النضر بن سعيد الحرشى . وكان النضر قيسياً ، وكان أبوه قائداً وعاملاً نابهاً تخرج في مدرسة الحجاج . وقد أفلح في أن يضم إليه المضريين الذين كانوا في جيش الشام ، ولكن أهل اليمن ، وخصوصاً كلب — وكانوا هم الغالبية وكان منهم الأصبع ابن ذؤالة القائد الكبير وأحد قتلة الوليد بن يزيد — بقوا على ولائهم لعبد الله بن عمر ، والوالى القديم . فاستطاع عبد الله أن يثبت في الحيرة ، على حين نزل الحرشى في دير هند . وقد لبث الواليان المتنافسان أربعة أشهر يتناوشان فيما بين الحيرة والكوفة ولكن لم يكد يحدث في هذه المناوشات اشتباك دوى حقيقى ، ثم اضطرهما إلى الصلح خطر هذّدهما معاً^(١) .

وذلك أن الخوارج ظهروا على المسرح واحتلوا المكان الأول حيناً من الزمان ، وكانوا دائماً فيما قبل قليل العدد . ولذلك كان لابد لهم من الاكتفاء بالحروب الصغيرة . ومع ذلك استطاعوا أن يتعبوا أميراً كبيراً كالحجاج ، بما كلفوه بذله من جهد ، لكنهم لم يكن عندهم اهتمام جدوى بالتوصل إلى تولى الحكم ، بل كانت سياستهم « غير سياسية بحتة » ، وكانت غايتهم أن ينجوا بأرواحهم من شرور هذه الدنيا ، لا أن يسيطروا على العالم الإسلامى ، لأنهم

(١) [راجع الطبرى مثلاً ج ٢ ص ١٨٩٧ فما بعدها — المترجم] .

كانوا يتبرؤون من غيرهم من المسلمين . فأما الآن فقد تَضَخَّمت جماعتهم الصغيرة ، فصارت جماهير كبيرة ، هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدد أخرجهم على الناس وباعد الناس عنهم ، وصاروا يقبلون كل من ينضم إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم . وهم وإن كانوا قد أخذوا من كان ينحاز إليهم بأن يقول بمقاتلتهم في الدين ، فإنهم لم يطردوا حليفاً أراد أن يقاوم في صفوفهم . على أنهم الآن لم يكونوا في الحقيقة يسمون إلى الجنة ، بل صاروا يطعمون في ملك الدنيا ، وصاروا في ميدان التدافع من أجل السيادة المتداعية ينافسون غيرهم بنفس وسائل هؤلاء ، ولم يكن بينهم وبين الظفر إلا قليل ، ولو أنهم ظفروا لما بقوا خوارج النزعة كما كانوا .

وقد بدأت الحركة في أرض الجزيرة ، وهي الولاية التي كانت بمثابة وطن لمروان ، لكنها لم تبدأ بين قيس في الجنوب بل بين ربيعة في الشمال ، وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائماً بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين ، خصوصاً عن مضر ، منافسهم القدماء . وكانت ربيعة قد اضطروا أن يتخلوا لمضر عن أرضهم القديمة ولم تكن نفوسهم راضية بأن تكون في مضر النبوة والخلافة . وكانت شيبان بكر بنوع خاص — وكانوا يقطنون ناحية الموصل على ضفتي نهر الدجلة — هم مقدمة جيوش الخوارج منذ أيام شبيب بن يزيد . وبعد أن قتل الوليد بن يزيد ثار بينهم سعيد بن سهدل الشيباني وبايع لنفسه خليفه على الخوارج ، وهو بعد أن تغلب على بسطام البيهسي — وكان هذا قد خرج منافساً له في وطنه ومفارقاً لرأيه — خرج إلى الكوفة حيث كانت تلوح له آمال في النجاح أكثر مما كانت تلوح في البلاد التي كانت لمروان . ولكن سعيد مات وهو في الطريق ، فخلفه في منصبه شيباني آخر ، هو الضحاك بن قيس ، من بيت مِرَّة النابغة الذي كان منه شبيب أيضاً ، فانحاز إليه الخوارج في شهر زور وأمينية وآذر بيجان ، حتى صارت

تحت لوائه آلاف كثيرة . وتوجه معهم إلى الكوفة ، وقد تضافر عليه الواليان المتنازعان هناك (ابن عمر والحريش) ، ولكنهما لم يستطعا صدّه ، وهُزَمَا في رجب سنة ١٢٧ هـ (ابريل سنة ٧٤٥ م) أقبح هزيمة . وعلى أثرها أخليا الكوفة ، فأما الحريش فإنه توجه إلى مروان في الشام ، وأما ابن عمر فإنه لحق بواسط^(١) ، وكان قد سبقه إليها بعض أصحابه من كلب . وفي شعبان سنة ١٢٧ هـ (مايو سنة ٧٤٥ م) اتبعه الضحّاك وحاصره . وقد تميز في قتال الخوارج منصور بن جمهور ، ولكنه كان أول من جنح إليهم^(٢) وقبِلَ مقاتلتهم في الدين ، وذلك بأن أعلن أنه قد أسلم وامتثل لكلام الله^(٣) . وفي أواخر شوال سنة ١٢٧ هـ (أول أغسطس ٧٤٥ م) سلم لهم ابن عمر أيضاً بعد ثني من التردد ، ودخل في طاعة الضحّاك وصلى خلفه ، فقال أحد الشعراء في هذه البيعة :

المُتَرَّ أن الله أظهر دينه فصَلّت قریش خلف بكر بن وائل

(١) هذا ما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٩) . أما أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩٠٢) فهو يقول إنهما جيئاً هربا إلى واسط وعادا هناك إلى نزاعهما السابق ، ولم يصيرا يداً واحدة إلا بعد أن ظهر الخوارج ، ولكن أبا عبيدة يقول أيضاً إن الحريش في واسط لم يشترك في قتال الخوارج ولا في الصلح معهم . فلا بد إذن من أن يكون قد اختفى سريماً وذهب من واسط إلى الشام (الطبري ج ٢ ص ١٩١٣) ، وفي هذه الحالة يجوز أن يكون قد قتل عامل الكوفة من قبل الضحّاك ، كما يحكي أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩٠٣) ، (١٩١٤) . أما بحسب ما جاء في رواية عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٩) فما بعدها ، (١٩٣٨) فإن الذي فعل ذلك هو عطية النخعي ، وهو يشق طريقه من واسط إلى الكوفة فالشام ، في سبعين أو ثمانين من قومه .

(٢) [كان الخوارج يقاتلون كأنهم الأسد عند أشبالها ، وقد هرب جنود ابن عمر والحريش أمام شدة بأسهم . وقد قاتلهم منصور بن جمهور أشد قتال ، حتى إذا رأى ألا أمل في قهرهم أشار على ابن عمر أن يرضيهم ويجهل بأسهم على مروان بن محمد ، فتردد ابن عمر ، فانحاز منصور إلى الخوارج وناداهم : إني جاني أريد أن أسلم وأسلم كلام الله . وكان لابد أن يريد أن ينضم إليهم من أن يقول ذلك ، وكان ذلك امتحانهم له . وقد لحق بهم منصور وبايعهم — المترجم عن الطبري ج ٢ ص ١٩٠١ ، ١٩٠٧ — المترجم] .

(٣) كان الخوارج يعتبرون أنهم هم وحدهم المسلمون ، وكانوا يعتبرون من عداهم من جماعة المسلمين غير أهل لهذه التسمية .

والشاعر يعبر هنا عن عجزه من أن أحد الأمويين بايع خارجياً من شيبان على الإمامة ، ذلك أن الانتقال السياسي في هذه الحالة كان في نفس الوقت انتقالاً دينياً . والحقيقة أن هذا التغير كان عجيباً ، وفوق هذا لم يألف ابن عمر أن يكون والياً من قبل الخوارج على كسكر وميسان ودستميان وكور دجلة والأهواز وفارس وفي أن يبقى في واسط . ووقع ابن عمر وهو في هذا المنصب في نزاع مع عبد الله بن معاوية ، جاره من جهة المشرق .

أما الضحاك فقد رجع إلى الكوفة ، ومنها صار يحكم النصف الغربي من دولته ، ويرُوى أنه بعد أن بقي بعيداً من وطنه عشرين شهراً^(١) رجع إليه في أرض الجزيرة في وقت كان فيه مروان مشغول بالدين تماماً في الشام . ولكن لا شك أن رجوعه لم يكن قبل منتصف سنة ١٢٨ هـ (ربيع ٧٤٦ م) . جاء الضحاك واستولى على الموصل وأخرج منها عاملها ، وكانت قد التفت إليه جموع كثيرة ، وخصوصاً أنه كان يدفع لهم أعطيات كبيرة . ويقال إن جيشه بلغ مائة وعشرين ألف رجل . وطبيعي أن هذا العدد يستند إلى تقدير شعبي . ولكن تيوفانيس يقول إن الضحاك كان له جيش هائل وكان معه مهاجرة كلب ومغاسروم ، ويمكن أن نَعُدَّ منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان قد أنقذ فرقه الذكوانية من هزيمة معركة يوم خساف وانحاز في أربعة آلاف رجل إلى الخوارج .

و بينما كان مروان يخضع الشام كان يتعرض لخطر ضياع أرض الجزيرة من

(١) هكذا عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٣٨) . أما أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩١٤) فيقول إن الضحاك خرج إلى الجزيرة في ذي القعدة سنة ١٢٧ هـ (أغسطس — سبتمبر سنة ٧٤٥ م) كما يقول أيضاً إن مروان انتهى من إخاد حمص في نفس الشهر من السنة نفسها (الطبري ج ٢ ص ١٩١٣) ، ففرغ للضحاك . والتاريخان مرتبطان ، ولكن السنة غير صحيحة في الحاليين ، أما في التاريخ الثاني فالشهر صحيح .

يده ، وهي القاعدة التي كانت تستند قوتُهُ إليها . ولكنه لم يترك ما كان مشتغلاً به من حصار حمص ، بل اكتفى مؤقتاً بأن كاف ابنه عبد الله — وكان قد خلفه وراءه على أرض الجزيرة — بأن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط بلاد الجزيرة ، بعد أن كان مروان قد غلب على الموصل . فسار عبد الله حتى بلغ نصيبين ، ولكنه بعد قتال لم يمكنه المضي فيه لكثرة جيش الضحاك تقهقر إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك . غير أن الضحاك أخفق في محاولته الاستيلاء على الفرات عند الرقة . وكان مروان فيما بين ذلك قد استطاع أخيراً أن يقهر حمص ، ثم خرج بنفسه إلى الرقة لقتال الخوارج ، والتقى الجيشان عند كَفَرْتُونًا ، قُتِلَ الضحاك في اليوم الأول للمركة ، لأنه كان من عادته أن ينزل الميدان ولا يبالى . وهو في مساء ذلك اليوم ترجل في أهل الثبات من أصحابه — وأكثر جنده لا يعلمون ما كان منه — فأحدثت به خيل مروان فالتحت عليه هو وأصحابه حتى قتلهم عند العتمة ، ولم يكن يعلم بقتله أحدٌ . ولما علم مروان أرسل في البحث عنه على ضوء النيران والشمع ، فوجدوه ، وتبين أنه كان في وجهه أكثر من عشرين ضربة . وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بني شيبان اسمه الخيبرى ، فعاد الهجوم من بعد غده ، وتقدم حتى اقتحم معسكر الأعداء ، ففر مروان في قلب جيشه ، ووصل الخيبرى إلى حجرة مروان وجلس على فرشه . ولكن تكاثر عليه عبيدٌ من أهل المعسكر ، وضربوه بعد الخيام وقتلوه . وكانت ذلك في أواخر سنة ١٢٨ هـ (الموافق حوالى سبتمبر سنة ٧٤٦ م)^(١) .

(١) يتفق تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) مع عبد الوهاب صاحب الرواية الأساسية عند الطبرى ، فهو يقول إن الضحاك ثار سنة ١٢٧ هـ في Persis ، أى في العراق ، وأنه ظهر في أرض الجزيرة سنة ١٢٨ هـ ، وأرسل إليه مروان ابنه في أول الأمر ثم خرج إليه مروان بنفسه بعد فتح حمص وقتل الثوار .

ولكن الخوارج لم يُغلبوا إلا في السنة التالية^(١) ، وكان لا يزال لهم جيش في أربعين ألف رجل ، وقد بايعوا شيبان بن عبد العزيز البشكري (أبا داف) خليفة عليهم . وأشار عليهم سليمان بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة بإزاء الموصل ، ولكن الموصل كانت مازال بأيديهم وكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب . وكان مروان معسكراً قبالتهم على الضفة اليمنى ، وقضى أشهراً طويلة من سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ — ٧٤٧ م) من غير أن يصل إلى انتصار حاسم . ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق ، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذي كان مسرعاً من جهة الكوفة لمساعدة مروان وأرادوا أن يتجنبوا الوقوف بين نارين ، فتخلوا عن مركزهم في الموصل حوالي آخر سنة ١٢٩ هـ (أغسطس ٧٤٧ م) واجتازوا الجبال قاصدين جهة المشرق .

وكان عامل مروان الذي انتزع العراق من يد الخوارج ، فجعل مقامهم على الدجلة مستحيلاً ، هو يزيد بن عمر بن هبيرة ، من قيس قنسرين ، وكان أبوه في عهد يزيد بن معاوية أميراً على الكوفة . وكان قد خرج إلى هناك في أوائل سنة ١٢٨ هـ ، ولكنه اضطر إلى أن يقف طويلاً على الحدود عند قرقيسيا ، ولم يستطع الهجوم إلا في أواخر تلك السنة أو في أوائل سنة ١٢٩ هـ ، وبعد اشتباكات كثيرة موقفة مع المنثى بن عمران — وكان هو من قبل الخوارج الوالي الذي كان منصور بن جمهور يحارب تحت إمرته — أفلح في دخول الكوفة في رمضان سنة ١٢٩ هـ (مايو أو يونيو سنة ٧٤٧ م)^(٢) ، وبعد ذلك استولى

(١) تيوفانيس — في أخبار سنة ٦٢٣٩ = ١٢٩ هـ .

(٢) هذا ما يقوله أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٦) ، وهو وإن لم يكن مؤرخاً طاماً كالواقدي فإنه في هذه الحكاية لا بد أنه كان على علم بالأمر ، لأنه كان في ذلك الزمان يعيش في الكوفة شيخاً كبيراً ، أما أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩١٤) فما بعدها فهو يذكر أخباراً أخرى ، ولكنه ليس أهلاً للثقة ، وهو وإن كان يعرف تفاصيل طريفة ويقتبس قصصاً ممتازاً فإنه من حيث هو مؤرخ لا تصح مقارنته بأبي مخنف .

على مدينة واسط وأمر عبد الله بن عمر . أما منصور بن جهور فقد فرّ مع أصحابه من كلب إلى بلاد عبد الله بن معاوية ، وكان الخوارج الذين كانوا يقاتلون مروان على البصرة قد تنهقروا هم أيضاً إلى هناك ، فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حيناً ، بعد أن لم يكن له كبير شأن ، ولا شك أنه لم يكن يحلم بذلك . فقد اجتمع إليه الشيعة والخوارج وكتب والعباسيون والأمويون . وقد بدا أن كل الفوارق في هذه الكتلة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تفرقت هذه الفلول المختلفة التي ألفت بينها الضرورة ولم تحمل الحياة معها^(١) .

وعاد مروان إلى مقر حكومته في الحيرة ، وكان له أن يعطى نفسه شيئاً من الراحة^(٢) ، ذلك أن أم ولايات الدولة : الجزيرة والعراق والشام ومصر ، كانت قد خضعت له ، وأيضاً كان قد تم القضاء على خوارج حضرموت الذين فتحوا صنعاء ومكة والمدينة في جزيرة العرب ، وكان القضاء عليهم في سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) . وقد لبث مروان في ميدان القتال ما يقرب من ثلاث سنين ، حقق فيها وهو يحارب عالماً معادياً له ، انتصارات غير مألوفة ، وقد فاق كل من كان قبله من ملوك بني أمية بفضل مقدرته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة .

وهو قد ترك محاربة الخوارج ومحاربة ابن معاوية في المشرق لابن هبيرة ، عاملاً على العراق . أما الجيش الذي أرسله إليه ابن هبيرة لمساعدته في حرب الخوارج عندما كانوا على نهر دجلة فقد كان تحت إمرة عامر بن ضبارة ، فكلفه مروان بمطاردتهم ، ففعل حتى دخل بلاد ابن معاوية . وكان معه قائد

(١) [راجع فيما يتعلق بحرب مروان مع الخوارج منذ الضحاك وخافائه الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٨٩٧ — ١٩٠٨ ، ١٩١٣ — ١٩١٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ، ١٩٤٩ — المترجم] .

(٢) ومن الشكوك فيه أنه كان ينوى ذلك . وقد استفاد الروم من الحرب الأهلية ، فوسّروا حدودهم نحو الشرق ، وربما أن مروان كان إذ ذاك يريد أن يتحول لمحاربتهم . على أنه هاجم قبرس من مصر ، لكن دون أن يظهر بما أراد .

آخر من قواد ابن هبيرة هو نباتة بن حنظلة . وقد هُزم ابن معاوية وهو بحارب ابن ضبارة في سره الشاذان سنة ١٣٠ هـ ، فترك دولته وشأنها وفرّ من الأعداء إلى خراسان ، وهناك قتله أصحابه . أما شيبان بن عبد العزيز اليشكري ، قائد الخوارج ، فإنه ذهب إلى الساحل الشرقي من جزيرة العرب ، وقُتل أخيراً ، وهو بحارب بني جاندی أسراء عمان ، وكانوا قد استوطنوها منذ زمان طويل ، وكان قتله سنة ١٣٤ هـ^(١) . وأما سليمان بن هشام ومنصور بن جمهور فقد عبرا البحر متوجهين إلى أرض السند^(٢) .

حتى إذا أفلح قواد ابن هبيرة في نشيت هذه الكتلة ، التي تألفت من مغاسرين ، وكانوا على أحسن أمة لإخضاع العرب في فارس لسيادة مروان إخضاعاً تاماً ، انبرى لهم خصوم جدد لا قبّل لهم بهم ، وهم أهل خراسان تحت اللواء الأسود لبني العباس . وقد حاول نصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان في ثلث سنين طويلة أن يحذرهم من الخطر الدائم ، وهو التحّ أيضاً في طلب المعونة لإخماد النار قبل الضرام ، فذهب سعيه سدى . ذلك أن مروان كان عنده في وسط الدولة من المشاغل ما يكفيه ، وكان لا يريد أكثر من أن يستطيع المحافظة على ما صار في يده . حتى إذا كان مروان في ذروة نجاحه برز له فجأة ذلك الشبح الأسود الذي لم يكن قد فطن إليه . واستطاع أهل خراسان أن يضيعوا عليه ثمرة عمله الشاق ، وذلك في الوقت الذي كان يبدو فيه أنه قد وصل إلى الغرض . والواقع أنه لما ظهر أبو مسلم كان أقوى من مروان .

(١) هكذا عند الطبري ج ٣ ص ٧٨ ، قارن أيضاً ج ٢ ص ١٩٤٥ ، ١٩٤٩ ، ١٩٧٩ ، أ.أ. أبو غنف (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٨) فهو يقول إن شيبان بن عبد العزيز قتل في سجستان سنة ١٣٠ هـ . والأرجح أنه يخاطب بينه وبين شيبان بن سلامة المروزي الذي أمب في ذلك الوقت نفسه دوراً في خراسان وقتل بالفعل سنة ١٣٠ هـ ، لكن لا في سجستان بل في سرخس .

(٢) راجع نهاية أمرها في الأغاني (ج ٤ ص ٩٦) واليعقوبي (ج ٢ ص ٤٣٠) . والطبري (ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٠) .

الفصل الثامن

القبائل العربية في خراسان

١ — كانت ثورة الفرس من أهل النشيع في خراسان هي السبب في السقوط النهائي لدولة بني أمية ، لكن الذي مهد لهذه الثورة هو ما سبق ذلك من أحداث في تاريخ خراسان ، وخصوصاً تلك العداوة المستمرة التي كانت بين قبائل العرب هناك ، وهي عداوة كانت قد بدأت في البصرة من قبل ، وذلك أن خراسان كانت أشبه بمستعمرة تابعة للبصرة ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الموقف في خراسان فإن عليه أن يرجع إلى معرفة الأحوال التي كانت في البصرة من قبل أو تطورت عما كان هناك .

وفي أول العصر الأموي ، أدى التحاسد بين القبائل في الكوفة إلى ضروب من التوتر ، لكنه لم يؤد إلى انفجارات معها أعمال عنيفة ، ولم يكن التطاحن الدموي إلا بين الأحزاب السياسية . أما في البصرة فكانت الظروف في أول الأمر تسكاد تكون شبيهة بما كانت عليه في الجاهلية ، فكانت السخائم في صورتها السكامة والظاهرة تملأ نفوس القبائل ، لكنها كانت بين مجموعات القبائل أكثر مما كانت بين القبائل منفردة . وكانت أكبر مجموعة قبلية تتألف من تميم وربياب ، وكان قد انضم إليها أساورة الفرس ، ودخل الزط والسيابجة من المنود في حماها ، لأنها كانت أقوى مجموعة^(١) . وكان ما بين تميم وربيعة متباعداً منذ الزمن القديم ، ثم انضمت عبد القيس إلى بكر في البصرة ، وكانت عبد القيس

(١) البلاذري (س ٣٧٢ فما بعدها) ، والكمال (س ٨٢ س ١٦ فما بعده) .

قليلة المدد في الكوفة ، وكانت الأزدي هي التي تمثل قبائل اليمن ، على حين أن مذحج وهدان وكندة — وهي القبائل العربية الأصلية النابذة — كانت هي أكبر القبائل في الكوفة^(١) .

ولم تنفوا الأزدي في البصرة إلا من طريق هجرة جاءت متأخرة ، في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد ابنه (الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ والبلاذري ص ٣٧٣) . ولم يرخص الناس أن يكون هؤلاء المهاجرين المحدثين الذين لم يشتركوا في الفتوحات الكبرى في عهد عمر وعثمان ما كان للقبائل القديمة من حقوق (الطبري ج ٢ ص ٧٧٩) . وكان مجيء هؤلاء الأزدي سبباً في تغيير ما كان للقبائل حتى ذلك الحين من قوة ، بعضها بالنسبة لبعض ، وإن كان الأزدي لم يبلغوا أوج عزهم إلا على يد المهلب وأبنائه . وكانت تميم تريد في أول الأمر أن تسلب صداقة الأزدي وأن تجعل منهم حليفاً لها ، ولكنهما لم تخطا الخطوة الأولى في سبيل ذلك ، لأن الأحنف ابن قيس حكيماً الأكر وصاحب الكلمة النافذة ، قال لها إن من يبدأ يطلب الحلف يكون له دائماً الشأن الثاني فيه^(٢) . لذلك سبقتهم ربيعة إلى ذلك ، فخالقوا الأزدي حلفاً أكدته اليهود والمواثيق (الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ ، ١٤٩٧) . ولما كانت تميم حليفة لأهل العالية ، أعني متحدة مع قيس ، فقد نشأ عن ذلك انقسام

(١) ويقابل أرباع الكوفة أخماس البصرة وخراسان وهي : ١ — بكر ، ٢ — عبد النيس ، ٣ — تميم ، ٤ — الأزدي ، ٥ — أهل العالية (أهل المدينة) خصوصاً قيس — الطبري (ج ٢ ص ٤٦١ س ٢١ ، ١٣٨٢) ، ومعنى الربع والخمس معروف ، لكنهما يستعملان كما نستعمل نحن كلمة : الحى أو القسم ، في تقسيم لا يتعتم أن يكون في الحقيقة رباعياً أو خماسياً . ذلك أنه كان يلحق بالقبائل الكبرى التي تسمى الأخماس طبقاً لها ، أجزاء من قبائل أصغر ، مثل لحاق كندة وطى بقبائل بكر في البصرة .

(٢) [لما نزل الأزدي في البصرة قالت تميم للأحنف : بادر إلى هؤلاء قبل أن تسبقنا إليهم ربيعة ! فقال الأحنف : إن أتوكم فاقبلوهم ، وإلا فلا تأتوهم ، فإنكم إن أتيتموهم ، صرتم لهم أتباعاً . ولما سعت ربيعة لمخالفة الأزدي ، قال الأحنف في ربيعة : أما إذا أتوهم فلن يزالوا لهم أتباعاً أذئاباً — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٥٠] .

إلى قسمين ، فكان هناك الأزد (اليمين) وحلفاؤهم من ربيعة في جانب ، وكانت مضر (تميم وقيس) في الجانب الآخر . ولكن لا يصح أن يظن الإنسان أن جميع الأزد لم يهاجروا إلى البصرة إلا حوالى سنة ٦٠ هـ ، بل كان هناك أزد من قبل وكانوا هم وأزد السكونة ينتمون إلى الفرع الغربي ، خصوصاً إلى دوس ، وكان هذا الفرع يقطن جبال الصراة ، لكن لم يكن لهم كبير شأن حتى زادت قوتهم بفضل المدد الجديد الذى لحق بهم وكان أكبر منهم بكثير ، وهو قد جاء من عمان على الساحل الشرقى لجزيرة العرب . وكان أزد عمان ، خلافاً لأزد الصراة ، يسمون مزون ، ولكنهم كانوا يكرهون هذه التسمية لما كان يبدو فيها من إشارة إلى أصلهم المشترك ، فقد كان يقطن عُمان كثير من غير العرب ، وكانوا يُنَبِّزُون بصناعتهم القديمة ، وهى صيد السمك ، كما كان يُنَبِّزُ أزد غرب الجزيرة باشتغالهم بالحياكة .

وفى سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ وَجَّه معاوية إلى البصرة بـابن الحضرمي لسكى يؤاب على على ، مستعيناً بتميم . ولا بد أن يكون قد أفصح أن يضم إليه شطراً كبيراً من تميم ، لأن زياد بن أبيه ، ذلك العامل الشاب الذى كان إذ ذاك حليفاً للأمير البصرة ، طلب من بكر أن ينزلوه فى جوارهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلهم ، فلجأ إلى أزد الصراة فوجد ركناً حصيناً لنفسه وليبيت المال عند رئيسهم صبرة بن شيبان المدائنى (من دوس) . ولكن علياً قام بمحاولات بواسطة أربائهم من تميم لسكى بصرف تميم البصرة عن ابن الحضرمي ، فقتل أول رسول كلفه بذلك ، لكن رسوله الثانى ، وكان جارية بن قدامة ، أصحاب نجاحاً ، فتخلت تميم عن ابن الحضرمي ، وحاصره جارية فى دير سنبل وأحرقه هو وأتباعه . وقد حفظت لنا الأيام أبياناً فى ذم تميم بسبب هذا الحادث الذى ظل عارُهُ لاحقاً بهم زماناً طويلاً (راجع رواية المدائنى عند الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ فما بعدها) .

وكان ذلك هو مبدأ المودة بين الأزد وبين زياد وأسرته ، وكان زياد يحفظ لهم الجليل دائماً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠) ، وأوصى أبناءه بأن يلجأوا إليهم ، إذا ضاقت بهم ضائقة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٠) . وكان الأزد فى أصل الأمر عنصراً محايداً أمام التنافس بين تميم وبكر ، فكانوا لذلك عنصراً من شأنه أن يكون ملائماً لاعتماد الحكومة عليه .

ولم يقع الانفجار الحقيقى فيما كان بين القبائل من سخائم إلا بعد هجرة أزد عمان إلى البصرة وإلا بعد موت يزيد بن معاوية ، وكان هذا الانفجار سبباً فى زلزلة سيادة الأمويين فى كل مكان . وأخبار ذلك مُفَصَّلة تفصيلاً وافياً عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ فما بعدها) ، لكنها لا تخلو من تعقيد . وما يعود على الباعث بالفائدة أن يحمل المقدم ويتبين الخطوط البسيطة ، وخصوصاً أنه لا يكاد بدون ذلك أن يفهم كلمة تقال عن تلك الحوادث بما كان لها من عواقب خطيرة ولا أن يفهم كلمة عنها فهماً صحيحاً . وأكبر رواة الطبرى فى ذلك هو أبو عبيدة ، ذلك الجامع المكثر لأخبار القبائل العربية . وروايته ، وإن لم تكن لدينا كاملة ، فإن من الممكن إكمالها بمساعدة رواية وهب بن جرير ، وهو يوافق أبا عبيدة فى الجملة والجوهر .

عن أبى عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٥ س ١٧ وص ٤٣٦ س ١٥)^(١) :
لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد الحَسينَ بن على وإخوته بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية ، فسُرَّ بقتلهم أولاً وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده . ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم على قتل الحَسين ، فكان يقول : وما كان علىّ لو احتملتُ الأذى وأنزلته معى فى دارى وحكمته فيما يريد . . . حفظاً لرسول الله صلعم ورعاية لحقه وقرباته ، لمن الله ابنَ سرجانة . . . قتله ، فبغضنى بقتله إلى

(١) ونقابل ذلك رواية وهب — الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ س ١٢) .

المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ، فبغضنى البرّ والفاجر وكان لعبيد الله مولى ؛ يُقال له أيوب بن حمران ، قد جعله فى الشام رسولا ليأنيه بأخبار يزيد ؛ فلما كان ذات يوم جاء أيوب إلى البصرة مسرعا ، وأبّغ عبيد الله موت زياد واختلاف أمر الناس فى الشام . فأمر عبيد الله بدعوة الناس إلى الاجتماع فى المسجد ، فأعلن لهم النبأ ، وعرض بثأب يزيد ، ثم تكلم عن أعماله . هو فى أثناء ولايته البصرة . فقال إنه لما نولى البصرة ، كان ديوان المقاتلة (من العرب) يشتمل على سبعين ألفا ، وكان ديوان العمال (من الموالي) يشتمل على تسعين ألفا ؛ أما الآن بعد ولايته فقد صار ديوان المقاتلة يشتمل على ثمانين ألفا ، وديوان العمال على مائة وخمسين ألفا . وقال إنه ما ترك صاحب ظنّة بخاف منه على أهل البصرة — وكان يقصد الخوارج خاصة — إلا سجنه . ثم قال لأهل البصرة : « إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفى ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عداء وأعرضه فناء وأوسع بلادا ، فاختراروا لأنفسكم رجلا ترضونه لدينكم وجماعتكم ! فانا أول راضٍ من رضيتوه ؛ فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جدبيلتكم ، حتى تمطوا حاجتكم ؛ فما بكم إلى أحدٍ من أهل البلدان حاجة ، وما يستغنى الناس عنكم ! » . وكان عبيد الله يقصد أن يرشح نفسه أميراً إلى أن يأتى أمير ، ذلك أنه بموت الخليفة انتهى واجب الطاعة للحكومة ، وهو واجب يلزم بحكم البيعة لشخص الخليفة . فقام أهل البصرة خطباء ، وقالوا له : أيها الأمير ! إنا والله لا نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلم نبأيتك ! فامتنع عبيد الله سهاراً ، فألحوا عليه ، حتى بسط يده وبايعوه ، ثم انصرفوا . فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفهم بالباب والحيطان وهم يقولون : « يظن ابن مرجانة أننا نؤايبه وننقاد له فى القرقة ، كذب والله ! » ثم صاروا بأسرهم

بالأمر فلا يطيعون ويرى الرأي فيردونه عليه ، ويأمر رجاله بحبس المذنب فيحولون بين رجاله وبين هذا المذنب ، ولم يلبثوا أن نبذوا كل طاعة له ووثبوا عليه^(١) .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٧ س ١٥) : كان الذى أعطى الإشارة للثورة هو سلمة بن ذؤيب النميرى ؛ فقد ظهر فى سوق الإبل على فرسه ، وقد تقنّع بسلاح وفى يده لواء ، وهو يدعو الناس لمبايعة العائد بمكة ، يعنى عبد الله بن الزبير^(٢) .

فمئذ ذلك جمع عبيد الله أهل البصرة فى المسجد وأنشأ يقص عليهم أول أمره وأمرهم ويقول إنه قد كان دعاءهم إلى اختيار أمير يرتضونه فبايعة معهم ، ولأنهم رغم ذلك أبوا إلا أن يبايعوه هو . ثم قال لهم : إنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار وقلتم ما قلتم ، وإنى أمر بالأمر فلا يُنفذ ، ويرد على رأبى ، ونحول القبائل بين أعوانى وبين طلبتى ، ثم هذا سلمة بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم إرادة أن يفرّق جماعتكم ويضرب بعضكم حجاباً بالسيف . فقال الأحنف ابن قيس بن تميم والناس جميعاً : نحن نأنيك بسلمة ، فأتوا سلمة ، فإذا جمعه قد كُتف وإذا الفتق قد اتسع على الرائق ، وامتنع عليهم ؛ فلما رأوا ذلك قعدوا عن عبيد الله بن زياد فلم يأتوه .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ٢٠)^(٣) : كان عبيد الله فى

(١) استطاع عبيد الله فى أول الأمر أن يكتب الحجة بأن أمر عماله أن يفرقوا ما فى بيت المال فى القبائل والمقاتلة ليل نهار — وكان ذلك المال بحسب الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٩) ثمانية آلاف ألف درهم أو تسعة عشر ألف ألف (قارن ج ٢ ص ٤٤٣) ، وكان للقبائل والمقاتلة الحق فى مال القى الذى أخذته الحكومة وجمعه بعد ما صرف منه من أعطيات ، ولكنه بعد أن عصوه كف عن ذلك . ولما هرب أخذ معه ما تبقى فى بيت المال ، وكانت نفائس ذلك لا تزال تتردد فى آل بيته — أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ١٠ فابعد) .

(٢) يدعى برونوف Brünnow من عند نفسه أن سلامة كان مبعوث ابن الزبير ، كما يدعى ١ . مولار أنه خليفه . أما الروايات فلا تعرف عن ذلك شيئاً ، فلا يصح أن يخترعه المؤرخ ، ذلك أنه كان من البديهي أن تنجبه أنظار المعارضين لبني أمية إلى ابن الزبير . هذا إلى أنه ليس من شأن من يريد أن يدعو الناس إلى مبايعة خليفة أن يظهر فى السوق على فرس ومعه لواء — قارن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٢ س ١٥ ، ص ٤٦٥ س ٢ .

(٣) تقابل ذلك رواية وهب — الطبرى ج ٢ ص ٤٤١ س ٢٠ .

موقف سيئ، حتى إنه دعا رجال الشرطة^(١)، فأرادهم أن يقاتلوا معه، فقالوا :
 إن أمرنا قوادنا . فقال له إخوته : والله ما من خليفة فتقائل عنه ، فإن هُزِمْتَ
 فثت إليه وإن استمددته أمداً وقد علمت أن الحرب دُول ، فلا ندري لعلها
 تدول عليك ، وقد اتخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً ، فإن ظفروا أهلكونا
 وامتلكوها ، فلم تبق لك باقية . وقال له أخوه عبد الله لأبيه وأمه مرجانة :
 « والله لئن قاتلت القوم لأعتمدنَّ على ظبئة السيف ، حتى يخرج من صلبى » .
 فلما رأى ذلك عبيد الله قرر — كما فعل أبوه من قبل ، وكما أوصاه أيضاً — أن
 يلتجئ إلى الأزدي ، طلباً لحايتهم من ثورة تميم . فلما جاء الليل خرج بخزائنه
 وذهب مع الحارث بن قيس إلى مسعود بن عمرو العتكي . رئيس الأزدي ، وذهب
 معه جميع إخوته^(٢) ، ولم يجسر على الخروج نهراً مخافة أن يقتل ، وكان في الليل
 معرضاً لأن تصيبه سهام الحراس الذين كانوا يخرجون لمطاردة الخوارج . وقد
 عرفه رجل ، فرماه بسهم وقع في كور حمامته ، حتى إذا وصل بسلام إلى مسعود
 ارتاع مسعود وقال للحارث : كان يُتَعَوَّذُ من سوء طوارق الليل ، فنعوذ بالله من
 شر ما طَرَفَتْنَا به . وذلك أن مسعوداً لم يشأ أن يعادى جميع أهل البصرة من أجل
 عبيد الله ، وخصوصاً أن الأزدي كانوا قد آبلوا من قبل في حماية زياد فلم يُكافأوا
 على ذلك وأن مسعوداً وقومه كانوا قد بايعوا لابن الزبير ؛ فهذا الحارث من روعه
 وأفهمه أن إجارتهم لعبيد الله لا تتعارض مع البيعة التي بايعها وأن كل ما يُراد منه
 هو أن يُبْلَغَ زياداً مكاناً آمناً خارج البصرة^(٣) .

(١) يسمون عند الطبري البخارية (فان أيضاً ص ٤٦٤ وخصوصاً البلاذري ص ٢٤١١) ،
 وإلا فيسمون خاصة السلطان ، أعني جند الحكومة خاصة في مقابل المقاتلة .
 (٢) عتيك أنه بطون أزديمان ، وكان مواطنهم القديم في دبا ، ومنهم أيضاً المهلب بن
 أبي صفرة .

(٣) رواية أخرى لأبي عبيدة — الطبري ج ٢ ص ٤٤٥ نس ٧ ، أما بحسب رواية
 وهب فإن مسعوداً أظهر استمداده على الفور — الطبري ج ٢ ص ٤٤١ نس ١٠ .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٦ س ٣)^(١) : لما هرب عبيد الله ابن زياد أصبح أهل البصرة بغير أمير ، واختلفوا فيمن يؤمرون عليهم ، ثم ارتضوا قيس بن الهيثم السلى ونعمان بن سفيان الراسبي لى يختارا أميراً برضيانه لهم ، وتم اختيار رجل له قرابةً بالنبي عليه السلام وبمعاوية ، وهو عبد الله بن الحارث ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأمه هند بنت أبي سفيان ، وكان يلقب بـبَيَّة ؛ ودخل بـبَيَّةُ القصر في أول جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ .

عن أبي عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٧ س ١٢ و ص ٤٤٩ س ٢٠) :
وحدث بعد ذلك أن وفد على بـبَيَّةَ رجلٌ من ولد عبد الله بن عامر القرشى أنياً برسالة من عبد الله بن خازم فيها بيعته . وجلس القرشى في حلقة بالمسجد فيها مالك بن مسمع . وحدث أن قام نزاعٌ ، فأغلظ القرشىً لمالك بن مسمع فقام رجل من بنى بكر بن وائل وأطم القرشى . وهاج من كان هناك من مضر ورييمة ، وكادت تقع حربٌ حقيقية ، لولا تدخل مالك بن مسمع . ثم وقع أن رجلاً من بنى بشكر كان جالساً مع رجل من بنى ضبة في المسجد ، فتذكرا لطمه البكرى للقرشى ، ففخر بها اليشكرى وقال للضبي : « ذَهَبْتَ طِلْفاً » ، يقصد أن القرشى احتمل اللطمة دون أن يثور لكرامته . فعند ذلك غضب الرجل الضبي ؛ وقام إلى اليشكرى فوجأ عنقه ، ووقد الناس ذلك اليشكرى فحُيِّل إلى أهله ميتاً . وعند ذلك ثارت بكرٌ كلها وهبَّت لمحاربة نعيم ، وكان على رأسهم مالك بن مسمع رئيسهم القديم ، لأن أشيم بن شقيق رئيسهم الجديد لم يشأ أن يقودهم إلا بعد أن يرسل إلى نعيم رسولا^(٢) ، واستخفت بكرٌ مالك ابن مسمع ، فَنَحَفَتْ ، ولكنه قبل أن يهاجم نيماً طلب إلى الأزدي أن يحددوا

(١) رواية وهب عند الطبرى ج ٢ ص ٤٤٤ س ٦ و س ١٧ .

(٢) ويتجلى نفس التنافس والحلاف بين الفواد فيما يحكيه الطبرى ج ٢ ص ٣٤١٤ —

قارن ج ٢ ص ٤٤٨ — أما بحسب ص ٤٥٥ س ٥ فابعدهما فإن أشيم ، لا مالك ، كان هو القائد .

الحلف الذي كان عقد قديماً بين الأزد وبكر^(١) . وبلغ عبيد الله ، وهو في بيت مسعود بن عمرو ، ما حدث من تباعد بين بكر وتيم ، فأعان مالك ابن مسمع بأفوال جزيلة ، حتى أمكن التغلب على قوم كانوا معارضين في تجديد الحلف . ولم يرخص الأزد بأن يسيرا إلا أن يكون الرئيس منهم ، فرضيت بكر بأن يتولى الرياسة مسعود بن عمرو الأزدي ، فقال مسعود لعبيد الله بن زياد : *سير معنا حتى نعيدك إلى الدار* — يقصد قصر الإمارة ، فأبى وأمر برواحله فشدت عليها أدواتها وأعد متاعه وتأهب للسفر ، ولكن الأزد ألقوا له كرسيًا على باب مسعود ، فتمدد عليه ، وبعث غلمانًا له على خيل مع مسعود ليأتوه بما يحدث خيراً كان أو شراً ، وانتهى مسعود إلى المسجد فدخله وصعد المنبر وأبى بئمة أن يتمرض له . ولما لم يجز أحد بين مسعود وبين مسعود المنبر خرج مالك بن مسمع فأحرق دور قوم من بني المدوية ، فبينما هو في ذلك إذ أتاه من أبله قتل مسعود .

عن أبي عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٥٢ س ٦) : جاء بنو تميم إلى الأحنف حكيمهم ورئيسهم ، فقالوا له إن ربيعة والأزد قد دخلوا المسجد ، فقال لهم : لستم بأحق بالمسجد منهم ؛ ثم أتوه بعد هنية ، فقالوا : قد دخلوا القصر فقال : لستم بأحق بالقصر منهم . كل ذلك ، والأحنف هادي ، فعند ذلك قام سلمة ابن ذؤيب ونادي : *إلى يا معشر تميم* ! فإنا هذا جيس لا خير لكم عنده ، يقصد الأحنف . وبدرت «ذؤبان بن تميم» ، وانتدب مع سلمة خمسمائة ، وانضم إليهم أربعمائة من الموالى (كانوا من الأساورة) على رأسهم ماء أفريدون . ثم تابعت الأخبار السيئة ، وعند ذلك ارتأى الأحنف ضرورة استعمال السيف ،

(١) أودعت إحدى الوثيقتين عند الصلت بن حريث الحنفي (الطبري ج ٢ ص ٤٤٩

س ١٧ — فارن السكامل ص ٦٢٧ س ١٠) .

فسأل عن عباد بن حصين ، فلم يجده ، فسأل عن عيس بن طلق الصريمي فوجده ، فخلّ عمامته وعقدها في رمح ، وسلم هذا اللواء لعيس بن طلق . وعند ذلك صاح الناس : « هاجت زيرا » ، وزيرا هذه كانت أمة للأحنف ، وإنما كتبوا بها عنه . ولما سار عيس بن طلق جاء عباد بن حصين في ستين فارسا . وسأل عن القائد الذي خرج على رأس القوم ، فلما عرف أنه عيس بن طلق قفل راجعا إلى أهله ، لأنه لم يرض أن يحارب تحت لواء عيس .

عن إسحاق بن سويد (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٤ س ٦)^(١) : وأبلى يماه أفريدون وقومه أحسن البلاء في القتال إلى جانب تميم ، وكان كل واحد منهم يرى خمس نشابات في رميّة ، فلم تثبت بكر أمام هذا الوابل من السهام . ودخلت تميم المسجد وأنزات مسعودا من على المنبر وقتلته . وبادر أشيم بن شقيق من بكر هارباً ، وكان هذا في أول شوال سنة ٦٤ هـ . ويذكر أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٦) أن فرار عبيد الله كان في هذا التاريخ نفسه ، لأنه يرى أن عبيد الله هرب إلى الشام بعد مقتل مسعود (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ س ١٠) .

عن أبي عبيدة (الكامل ص ٨١)^(٢) . قام بالنار لمقتل مسعود أخوه زياد بن عمرو العتكي ، وكان لا يزال غلاماً حدثاً ، فدخل المربد في اليوم التالي وجمع جيشاً وجعل بكراً على ميمته وعبد القيس على الميسرة والأزد في القلب .

(١) أغفل الطبرى رواية أبي عبيدة للاشتباك بين الفريقين فلم يذكر منها (س ٤٥٥ س ٩) سوى ما قاله الحسن البصرى متهماً بمسعود من أنه يدعو الناس إلى السنة وينهى عن الفتنه ، فقد قال له الحسن : « ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يدك » وسوى ما روى من أن القوم لم يلبثوا أن أنزلوا مسعودا من على المنبر وقتلوه . وإسحاق بن سويد عملاً الفجوة ، وهو بالجملة (وأيضاً في التواريخ) بتابع أبا عبيدة ويختلف عنه في تفاصيل صغيرة ، فعنده مثلاً أن القائد لم يكن مالكا ، بل أشيم .

(٢) وهذه القطعة الأخيرة من رواية أبي عبيدة غير موجودة أيضاً عند الطبرى ، وهو يذكر مكانها رواية أخرى لمؤان (س ٤٦١ س ١٨) .

ونظم الأحنف نيمًا وأعد جيشًا ، فوقفت بمحذاة الأزد سعدًا ورباب ، وعلى رأسهم سعد بن طلق الصريمي . ووقفت بمحذاة بكر بنو حنظلة ، وعلى رأسهم حارثة ابن بدر . ووقفت أمام عبد القيس بنو عمرو بن تميم . ولكن لم يقع قتال ، وذلك أنهم لما توافقوا بعث الأحنف إلى الأزد وربيعة يقول لهم : « يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة ! أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة ، وأنتم جيراننا في الدار ويدنا على العدو ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطئتم حريمنا وحرقتم علينا ، قدفعنا عن أنفسنا . ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسالكًا ، فقيموا بنا طريقًا قاصدة ! فوجه إليه زياد بن عمرو : تَخَيَّرْ خَلَّةً مِنْ ثَلَاثَ ، إِنْ شِئْتَ فَانْزِلْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ عَلَى حَكْمِنَا ، وَإِنْ شِئْتَ فَخَلِّ لَنَا عَنِ الْبَصْرَةِ وَارْحَلْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ إِلَى حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَإِلَّا فَدُوا قَتْلَانَا وَأَهْدُوا دِمَاءَكُمْ ، وَلْيُودَ مَسْعُودٌ دِيَةَ الْعَشْرَةِ ، يَقْصِدُ أَنْ تُدْفَعَ لَهُ عَشْرُ دِيَّاتٍ ، شَأْنٌ مِنْ يَوْدى مِنْ مَلُوكِ الْجَاهِلِيَّةِ . فبعث إليه الأحنف : سَمَخْتَارُ ، فَانْصَرِفُوا فِي يَوْمِكُمْ هَذَا ! فَهَزَّ الْقَوْمُ رَأْيَتَهُمْ وَانْصَرَفُوا . فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ بَعَثَ الْأَحْنَفُ إِلَيْهِمْ : إِنَّكُمْ خَيَّرْتُمُونَا خِلَالًا ، لَيْسَ فِيهَا خِيَارٌ : أَمَّا النُّزُولُ عَلَى حَكْمِكُمْ ، فَكَيْفَ يَكُونُ ، وَالْكَلْمُ يَقْطُرُ دِمًا ! وَأَمَّا تَرْكُ دِيَارِنَا فَهُوَ أَخُو الْقَتْلِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْرَحُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ » ، وَلَكِنْ الثَّلَاثَةُ إِنَّمَا هِيَ تَحَلُّ عَلَى الْمَالِ ، فَنَحْنُ نُبْطِلُ دِمَاءَنَا وَنُدِي قَتْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا مَسْعُودُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ . فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى أَنْ يَقْفُوا أَمْرَ مَسْعُودٍ وَيُعَمِّدَ السَّيْفَ وَيُودِيَ سَائِرَ الْقَتْلِ مِنَ الْأَزْدِ وَرَبِيعَةَ ، فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ الْأَحْنَفُ ، وَدَفَعَ إِيَّاسُ بْنُ قَتَادَةَ الْجَاشِعِي رَهِينَةً ، وَقَدْ أُعْطِيَ يَدَيْهِ مَخْتَارًا ، وَتَشْهَدُ بِذَلِكَ آيَاتُ الْفَرَزْدَقِ . وَقَدْ نَهَضَ الْأَحْنَفُ ، عَلَى عَادَتِهِ ، فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ بِأَمْرِ وَاجِبَاتِ السَّيِّدِ الْعَرَبِيِّ ، وَهُوَ حَفِظُ السَّلَامِ ^(١) ، عَلَى نَحْوِ نَادِرِ الْمَثَالِ . وَإِلَى جَانِبِهِ اشْتَهَرَ إِيَّاسُ بْنُ قَتَادَةَ ، أَحَدُ أَثَرِيَاءِ

(١) قد بولغ في بيان فضل الأحنف على كل حال ، ويحكى المدائني (الطبري ج ٢ ص ٤٦٥ س ٥ ، ٦) أن اثنين من قريش كانا هما اللذان توسطتا في الصلح .

تميم ، شهرة كبيرة ، لأنه احتمل الشطر الأكبر من الديات (أنساب الأشراف ص ١٨٧) .

ويمكن تصحيح رواية أبي عبيدة في بعض النقط بالاستعانة بقطع من روايات لرواة آخرين ، لم يكن هروب عبيد الله بعد مقتل مسعود في شوال سنة ٦٤ هـ ، (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٨) ، بل الذى يؤخذ من أبيات لاهيثم بن الأسود (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٣ س ٥) هو أن مسعوداً بنفسه مكث من الخروج إلى الشام . وهذا ما يقوله أيضاً وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٦) . وكذلك يروى عوانة (ص ٤٦١) أن عبيد الله ذهب إلى الشام في منتصف جمادى الثانية أى بعد موت يزيد بن معاوية يوماً . وعلى هذا فلم يكن عبيد الله أمام الحوادث الدامية يقف متفرجاً صامتاً ، بل هو لم يكن حاضراً على الإطلاق ، ولم يقع في أثناء حضوره الاختيار للأمير ، لأن من المسير أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك في مثل تلك الفترة القصيرة ، بل وقع اختيار الأمير نتيجة لعقد السلام بين القبائل بعد انقسامها انقساماً أُنذر بالخطر . وهذا ما يقوله عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٣) : بعد قتل مسعود وحسم النزاع اجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً يصلى بهم ، حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر أميراً ثم أمروا ببيته إلى أن عيّن ابن الزبير عليهم والياً بعد ثلاثة أشهر . وهذا هو الذى يفسر لنا ما جاء في رواية أبي عبيدة من أن بيته ألزم السكوت التام ، لما دخل الأزدي المسجد والنصر ، وما ذلك إلا لأنه لم يكن بعد قد صار أميراً .

ويروى عوانة فوق ذلك (ص ٤٦١) أن عبيد الله بن زياد ، لما هرب ، استخلف مسعوداً على البصرة . ومهما يكن من شأنه ، فإنه لا يمكن أن يكون قد وقع أثناء الفترة التى كان فيها خليفة لعبيد الله ، بعد أن كان هذا قد هرب . فأراد أن ينتصب منصب الإمارة الخالى (ص ٤٥٦ س ١٦) ، فلم يخرج لقتال تميم ، بن

دخل المسجد والقصر ، وأخذ على سبيل التعبير الظاهر عن ذلك مكان الأمير على المنبر ؛ وهو من على المنبر قد أنزل . وكانت تميم قد أخرجت عبيد الله ، فلم تشأ الأزدي أن تترك الأسر في أيدي تميم ، بل شادت أن تستبقي تميمًا وتأخذ الأمر من يدها ، ووقع القتال حول ذلك . ويتجلى من هذا أيضاً أن مسعوداً إنما تدخل من نفسه وإصلاحته الشخصية ، وأنه لم ينتظر حتى تدفعه ربيعة إلى ذلك . فأما حكاية الصفحة فهي مسألة ثانوية تماماً .

ويتجلى الوضع المعنوي الإجمالي من رواية عوانة تجلياً واضحاً : فشلت محاولة قبيلة ورئيس لها ، يجوز أنه كان مفوضاً من قبل الأمير الهارب ، في الوصول إلى الإمارة وتحطمت تماماً بسبب معارضة قبيلة أخرى منافسة لها ، ذلك أن الإمارة لم تكن ممكنة إلا في قريش ، لأنها كانت تقف خارج ما بين القبائل من نزاع وتنافس . ويخطئ عوانة (ص ٤٦١) في روايته : إذ يقول : إن رجلاً من عصابة الخوارج الذين انضموا إلى تميم كان هو الذي قتل مسعوداً . أما عند غيره من الرواة فالذين فعلوا ذلك هم الفرس تحت قيادة ماه أفريدون ، أوهم الأساورة على وجه التدقيق (ص ٤٦٥) ، وكانوا قد انضموا إلى تميم منذ زمان طويل . أما الخوارج فكانوا العدو المشترك لجميع قبائل البصرة ، وهذا الخطر المنتظر من جانب الخوارج هو أكبر ما دعا قبائل البصرة إلى الكف عن السير في طريق الخصام وإلى الاتفاق على أمير . وقد اضطر الأمير الذي اختاروه إلى التنازل عن الإمارة ، لأنه لم يحقق الغرض الذي اختير من أجله ولم يجد في مقاتلة الخوارج . ورواية المدائني حاسمة في هذه المسألة (ص ٤٦٥) فهو يقول : إن الأزدي هم الذين زعموا أن الأزارقة قتلوا مسعوداً ، لأن الأزدي أرادوا أن يحموا عن أنفسهم عار أن تكون تميم قتلت أميرهم وأن يكونوا قد درؤوا عن أنفسهم متاعب الأخذ بثأره بقبولهم الدية . وما يلاحظه عوانة (ص ٤٦١ س ١٠) من أن الخوارج الذين قتلوا مسعوداً كانوا يقطنون عند نهر الأساورة يتم عن عدم اطمئنانه إلى ما يقول .

٢ — وهذا نشأت العداوة بين الأزد وتيم واليمن ومضر من حادثة معينة يمكن تحديد تاريخها ، كما يتجلى من الحكاية المتقدمة التي لها من أجل ذلك أهميتها . ولم يقض الصلح على التوتر الذي كان موجوداً وكاد أن يتفجر بعد ذلك بعامين ، عندما شرع المختار الثقفي في ثورته بالبصرة (الطبري ج ٢ ص ٦٨٠ فما بعدها) . على أن هذا الخصام قد تحول إلى تسابق في محاربة الخوارج ، هذه المحاربة التي كان لها أثر الدواء لما كان هناك من خصام . ولم تشأ تيم أن تتخلف وراء الأزد الذين كان يقودهم المهلب بن أبي صفرة . على أنه إذا كان العداء بين القبائل قد خفت حدته في البصرة ، فإنه أخذ في خراسان صورة أشد خطراً ، وكان ما بين القبائل من عداوة قد انتقل من البصرة إلى خراسان ، لأن فتح خراسان كان من جهة البصرة ، وكان عرب خراسان من أهل العراق ، وكان أغلبهم بصريين وكانوا مقسمين عسكرياً إلى خمسة أقسام ، كما كان الحال في البصرة . وكان والي خراسان في العادة تابعاً لأمير العراق ، رغم أن الخليفة كان في كثير من الأحيان هو الذي يعينه وكان في بعض الأحيان تابعاً للخليفة مباشرة . وكانت خراسان بمثابة ذلك الركن من أركان الدولة الذي لا تزال القلاقل تحدث فيه ، وكان لما يقع فيه من أحداث أثر على قلب الدولة أكثر مما كان لإفريقية أو الأندلس مثلاً . ولم يدُم في خراسان سلام قط ، ولا كانت لها حدود ثابتة . وكان العرب هناك في صراع دائم مع الفرس والترك ، ولكنهم فوق ذلك كانوا يغتنمون فترات الهدوء في إغناء بعضهم بعضاً . ومع أنهم كانوا معرضين للأخطار فإن طريقهم في الحياة كانت غير سياسية وشبيهة تمام الشبه بما كانت عليه في وطنهم القديم . وبالرغم من أنهم لم يذهبوا إلى خراسان من تلقاء أنفسهم فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح إلى أرضهم الجديدة . السعة أرجائها ، لأنها صحراوية من وجوه شتى . وقد كان يهددهم الخطر من الخارج ، لكن ذلك لم يجمع كلهم . بل هو هيجهم وجعلهم أكثر خشونة وأشد غلظة . وكان الإسلام

أيضاً سبباً جديداً من أسباب الثورة والمهاج^(١) . فأصبحت خراسان أشبه شئ بمجزيرة عرب ثانية مع فرق ، هو أن جزيرة العرب الجديدة هذه كانت في أرض الأعداء وأن ظروفها كانت أكثر تعقيداً وأحداثها أوسع نطاقاً وأنها كانت تسمح للنزعات القومية بالظهور على نحو بعيد عن الاكتراث وعن التقيد بالقيود . وروايات المدائني ، وهو الراوية الذي لا يكاد الطبري فيما يتعلق بمحادثات خراسان يعتمد إلا عليه تذكّر الإنسان إلى حد ما بحكايات الأبطال في العصر الجاهلي ، كما هي معروفة من كتاب الأغاني . وفي كثير من الأحيان لا يجد الإنسان سوى مجموعة روايات مفككة تتضمن أخبار القبائل ، أو بعبارة أخرى ، مجموعة من « أيام » العرب (الطبري ج ٢ ص ١٥١٦ ص ١٦) ، يغلب عليها الاهتمام بذكر ما يتعلق بالبطولة والأبطال وذكر ما يدور حول غزوات النهب والسلب . وكان عرب خراسان ، وخصوصاً تميم ، يعتزّون بالتمسك بقوميتهم فضوا في الشرق الأقصى من الدولة العربية على حياتهم القبلية القديمة وعلى تغنيهم القديم وفخرهم بما يفعلون وبه يشعرون . ولكن كان يُعوز ذلك تلك الصبغة الواقعية المنزعة العميقة التي تصطبغ بها الآثار الباقية للعروبة الأصلية القديمة .

وكان فتح إيران من جهة البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر الأموي في عهد عثمان . وكان ذلك الفتح عبارة عن سلسلة من الحملات ، وُجّهت إلى نواح مختلفة في وقت واحد . ولم يتمّ الفتح دفعة واحدة في سنة واحدة ، وكثيراً ما كانت تعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ مَرَازِبَةُ الفرس بمركزهم القديم في صورة مُقَدَّلَةٍ ومُقَيَّدَةٍ ببعض الشئ . وإلى جانب الحملات الكبرى التي وُجّهت تحت إمرة قواد تميم الدولة ، وهي الحملات التي أوقعت الضربات

(١) [يقصد المؤلف ، كما قد تبين من مواضع كثيرة من كتابه وكما سيُبين فيما يلي ، أن الدولة لم تعمل بمبادئ الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، فدعا ذلك إلى الثورة عليها من جانب أهل الديانة ومن جانب المظلومين . وثورة خراسان التي أسقطت الدولة كانت باسم الدين وباسم المساواة التي جاء بها — المترجم] .

الأولى بالفرس ، كانت هناك غزوات صفرى قام بها أهل القبائل من أجل أنفسهم . لا باسم أحد ، وذلك لكي يستقرؤا أينما أمكنهم . وفي غرب إيران ، وفيها كانت تقع العاصمة ، وهى مدينة أبرشهر (نيسابور) كانت قيس هى الغالبة ، خصوصاً فى العصر الأخير (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٩) ، أما فى الشرق فقد كانت أرض بكر وأرض تميم متداخلتين . وكانت هاتان القبيلتان تتنازعان على بعض الأماكن ، تدعى كل منهما أنها هى التى احتلتها قبل الأخرى . وهما لم تكونا تتنافسان فى خراسان وحدها ، بل فى سجستان أيضاً . وهاتان الولايتان المتجاورتان متصلتان ، رغم أن كلاهما فى كثير من الأحيان كان يديرها وال على حدة . وبعد أن كان الشأن الأكبر فى أول الأمر لسجستان انتقل إلى خراسان . وكانت زرنج هى عاصمة سجستان ، كما كانت مرو عاصمة خراسان .

وكان قواد جيوش الفتح بحسب العادة القديمة يكافأون بأن تُسند إليهم إدارة الجهات التى يسعدم الحظ بالغلب عليها . وقد لعب الأحنف فى ذلك العهد دوراً رائعاً من الناحية العسكرية أيضاً ، ولكنه لم يبق فى ولاية البلاد التى فتحها مدة طويلة . ولعله ، بحكم أنه كان سيد تميم فى البصرة ، قد أحس أنه أكبر من ذلك وكان أقدم أمراء خراسان (أو أجزاء منها) الذين يتحدثنا عنهم التاريخ هما قيس بن الهيثم وعبد الله بن خازم ، وكلاهما من سليم إحدى قبائل قيس . وكان للاضطرابات التى أعقبت مقتل عثمان صداها فى أقصى المشرق من الدولة العربية ، فقد استطاع ماهويه ، سرزبان مرو — وكان هو الذى خان آخر شاهانشاه فى فارس — أن يحصل من على بن أبى طالب على الموافقة على أن يؤدى الدهاقنة والأساورة والدهشلارين إليه الجزية . ولكنه رغم هذا التساهل لم يحافظ على احترام سيادة على^(١) . أما كيف أعيد سلطان الدولة

(١) وفى نفس الوقت استولى الحبطات من العرب ، وقد ظهوروا بمظهر المائتين إلى عثمان (أى بمظهر الحياذ) على عاصمة سجستان ولم يخضعهم إلا الحصين بن مالك ، قائد على ، بمد غامبين ، وعلى اسم هذا القائد سمي مولاة المشهور فيروز حصين [البلاذرى (ص ٣٩٢ — ٣٩٦) م المترجم]

العربية في شرق الدولة بعد مقتل عثمان فهذا ما لا نعرفه (قارن البلاذري
 من ٤٠٩) . وفي عهد معاوية عيّن قيس بن الهيثم والياً ، ثم عيّن بعده متناًفسه
 عبد الله بن خازم^(١) . ولما جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والياً عليها (في سنة
 ٤٥ هـ) ضمت إليه ولاية خراسان وسجستان ، فصار هو الذي يعيّن العمال
 عليهم فقسّم خراسان إلى أربعة أقسام مستقلة : مرو ، أبرشهر (نيسابور) ، مرو
 الروذ (ومعهما فارياب والطالقان) ، هراة (ومعهما باذغيس وقادس وبوشنج) ؛
 ولكنه جمعها في سنة ٤٧ هـ تحت إمرة الحكم بن عمرو التغلبي الذي توفي سنة
 ٥٠ هـ . فجاء بعده الربيع بن زياد الحارثي ، وكان آدم أصهب أفوه ، وهو الذي
 فتح سجستان وأرغم المرازبة على طلب الصلح ، فاستقبلهم في ميدان القتال
 حيث جلس هو ومن معه من العرب على أجساد القتلى هادئين^(٢) . وكان الربيع
 مسلماً صالحاً ، ويقال إنه اعتق كثيراً لمقتل حُجْر بن عدى . وفي تلك الأيام كان
 قد هاجر إلى خراسان خمسة وعشرون ألفاً من أهل البصرة ، ومثلهم من
 أهل الكوفة ؛ ولعلهم لم يكونوا أهدأ الرؤوس . وبعد موت زياد (سنة
 ٥٣ هـ) جاءت فترة في أثنائها بدا كأنما قد أصبح شرق الدولة العربية
 ضيقة يستغلها أبناؤه . ففي أواخر أيام معاوية وفي عهد ابنه يزيد كان على خراسان
 عبيد الله بن زياد ، ثم جاء بعده ، بعد فترة انقطاع ، عبد الرحمن بن زياد ، وأخيراً
 جاء سلم بن زياد . أما في سجستان فكان هناك عباد بن زياد ويزيد بن زياد .
 وكانوا جميعاً شباناً ، والسكن كان الذين يقومون بتدبير شئون تلك البلاد القواد
 والعمال القدماء الخبيريون بأحوالها ، أمثال قيس بن الهيثم السلمي وأسلم بن زرعة .

(١) خلافاً لما يقوله البلاذري ، من ٤٠٨ ، قارن الطبري ج ٢ من ٦٥ فما بعدها .

(٢) [كان الربيع بن زياد أول من شرب من نهر بلخ وأول من صلى وراءه ؛ أما ما يقوله

الأئمة عن جلوسه على جثث القتلى فليس موجوداً عند الطبري ولكنه موجود عند البلاذري

من ٣٩٤ — ولا شك أن ذلك كان بقصد إرهاب الأعداء — المترجم] .

الكلابي وغيرها ، وكان بعضهم يتربص ببعض ولا يكف عنه الأذى ، إذا كانت القوة في يده .

ولما مات يزيد بن معاوية بدأت في خراسان أيضاً المنازعات القبلية ، ووثب زنبيل كابل وهزم يزيد بن زياد والى سجستان ، وأسر أخاه أبا عبيدة . وعند ذلك حلّ طلحة الطلحات ، ذلك الخزاعي الثرى ، محل يزيد ، فصالح الزنبيل وافتدى أبا عبيدة من الأسر بمال كثير . ولكنه لم يلبث أن مات ، وجاء بعده وال من قبيلة بكر ، كان قد استخلفه ، فلم تخضع له نعيم ، بل طردته . وعلى أثر ذلك انفجر العداء بين مضر وربيعة ، وجنى الزنبيل ثمرة ذلك (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨٤ والبلاذرى ص ٩٧) . وكان لذلك أثره في خراسان . وأراد سلم بن زياد ، وكان والياً هناك ، أن يكتم عن الناس موت الخليفة وما أصاب إخوته أبناء زياد (في سجستان والبصرة) ، حتى إذا لم يمكن كنم الأمور دعا سلم الناس إلى أن يبايعوه ، على أن يقوم بتدبير الأمور إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فبايعوه . غير أنهم سرعان ما نكثوا به ، فانخفى هارباً ، وخاف على سرو المهاب بن أبي صفرة الأزدي ، وكان سلم قد جاء بالمهاب معه من البصرة . ولكن بعض رؤساء القبائل العربية لم يرضوا عن ذلك فولى سلم سليمان بن مرثد البكري على سرو الروذ والغارياب والطاقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة بن زفر ، وهو من بكر أيضاً ، على هراة ، حتى إذا صار سلم بنيسابور ولقى عبد الله بن خازم السلمي سأله عبد الله . من وليت على خراسان ؟ فأخبره ، فلامه قائلاً : « أما وجدت في مضر رجلاً نستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل ومزون عمان ! » وطلب عبد الله من سلم أن يكتب له عهداً على خراسان ، فتعجب سلم قائلاً : أولي أنا خراسان ! قال : أكتب لي عهداً ، وخلاك ذم ! وكتب سلم العهد لعبد الله ، وأعطاه فوق هذا مائة ألف درهم طلبها منه . فخرج المهاب من سرو ، لأنه لم تكن له قبيلة تؤيده ، وذلك أن الأزدي

لم يكونوا كثيرين بخراسان ، واستخلف رجلاً من بني جُشَم بن سعد بن زيد بن مناة ابن تميم ، وأراد هذا أن يمنع ابن خازم لما أقبل على مرو ، فكانت بينهما مناوشة أصيب فيها النعمي ، ثم تحاجز الفريقان ، ودخل عبد الله مرو الروذ ، ومات النعمي بعد ذلك بيومين (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ — ٤٩٠) .

وقد وقفت تميم إلى جانب ابن خازم بوجه عام ، وإن كان لا ينمى إليهم بل إلى مضر ، وكان معاديا لبكر^(١) وهو بمعونة تميم بدأ يحارب بكراً . وقد خرج أولاً من مرو إلى مرو الروذ ، وحارب سليمان بن مرثد فقتله ، وتوجه بعد ذلك إلى محاربة أخيه عمرو بن مرثد في الطالقان ، فقتله أيضاً . ولجأ الهاربون من بكر إلى أوس بن ثعلبة في مدينة هراة ، وهناك تجتمع عند أوس كلُّ البكرين ، وكانوا قد حنقوا حنقاً شديداً بسبب ضياع مدينة مرو الروذ والطالقان من أيديهم^(٢) ، فأرادوا أن يخرجوا جميع مضر من خراسان كلها ، وقالوا : لا تتسع خراسان لمضرو وربيعة . وقد أكرهت تميم عبد الله بن خازم على أن يفاوض بكراً ، ولكن المفاوضات فشلت ، كما كان يتوقع عبد الله . وكان أحدهم قد اعترض عليه في قتال بكر ، وطلب إليه ألا يقاومهم إلا بعد الإعذار إليهم ، فبعثه رسولاً إليهم ، فلما عاد يائساً بسبب تشدد قبائل بكر^(٣) قال له عبد الله ابن خازم : « لقد أخبرتك أن ربيعة لم تزل غاضبة على ربها منذ بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم من مضر » . ويقال إن القتال قد استمر أمام مدينة هراة

(١) بحسب ما جاء في البلاذري ص ٤١٤ أقر ابن الزبير عبد الله بن خازم على الولاية .

(٢) [يقول المؤلف : بسبب ضياع هراة ، ولكن هراة ، بحسب كلامه لم تكن قد سقطت بعد ، أما الذى كان قد سقط فهو مدينة مرو الروذ والطالقان . على أن الذى أحنتهم أشد الحنق هو قتل سليمان وعمرو ابني مرثد (راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ — ٤٩٧ والبلاذري ص ٤١٤ — المترجم)] .

(٣) [فشلت المفاوضات أمام تشدد بني صهيب من موالى بكر ، حتى سخر البعض من ذلك ، راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٩١ — ٤٩٣ المترجم] .

أكثر من عام^(١) . فجعلت بكر^٢ ظهرها إلى المدينة وخندق رجالها حول المدينة واحتصوا بالخندق أمامهم ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجمات ابن خازم ، حتى نال من شرفهم وشجاعتهم بأن ناداهم قائلاً : « يا معشر ربيعة ! إنكم قد اعتصمتم بخندقكم ، أفرضيتم من خراسان بهذا الخندق ! » . فأحفظهم ذلك وخرجوا من موقعهم الحصين إلى القتال في الميدان الواسع ، فهزموا وخسروا خسائر كبيرة ، وأقسم ابن خازم ليقتلن منهم كل أسير يؤتى به ، حتى تغيب الشمس . وهرب أوس بن ثعلبة إلى سجستان ، وكانت في تلك الأيام في يد الزنيل ، ولكنه مات هناك من جراحاته . وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الحرب دائرة بين قبائل بكر وتميم في المشرق ، كانت هناك حرب أخرى تدور بين قبائل كلب وقيس في المغرب ، وذلك في سنة ٦٤ — ٦٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٤٩٠ — ٤٩٦) . وقد كان من أثرها إضفاف بكر إضفافاً دائماً^(٣) .

أعانت تميم عبد الله بن خازم على من كان بخراسان من ربيعة ، حتى قهرهم وأخضع مدينة هراة وصفت له خراسان . ولكنه جفا نيمياً وأبي أن يمكنهم من الاستقرار في هراة استقرار الفاتحين . فمات على هراة ابنك صغيراً له اسمه محمد وضم إليه بكير بن وشاح^(٤) وجعله على شرطته ، وأمره ألا يمكن

(١) إن حكاية سليمان بن بجاد ، أحد معاصري أبي مخنف ، وأبو مخنف يذكره كثيراً ، هذه الحكاية الموجودة عند الطبرى ج ٢ ص ٤٩٣ س ٦ — ٤٩٤ س ١٧ ، لا تدخل في هذا الموضع ، بل في عصر بعد ذلك بكثير ؛ أما رواية أبي الحسن الخراساني (الطبرى ج ٢ ص ٤٩٤ س ١٨ — ٤٩٥ س ٧) فهي عملاً بخوة في الرواية الأساسية للمدائني .
(٢) [قتلت بكر في هراة قتلاً ذريعاً ، خسروا ثمانية آلاف رجل (الطبرى ج ٢ ص ٤٩٦ — المترجم) .

(٣) كان نيميا من بني سعد ، أما تسميته عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٩٥ س ٧) بالثقفى فهي خطأ — فارق الطبرى ج ٢ ص ٨٦٠ س ١٠ فا بعده و ١٠٢٢ س ١ و ١٠٣٠ س ١٣ و ٢٠ فا بعده و ١٠٤٧ س ١٨ . [وكان عبد الله بن خازم قد جعل شماس ابن دثار الطاردي مع ابنه أيضاً ، وأوصى الرجلين بنصحه وتربيته والعناية بأمره . ثم انشق شماس وانضم إلى تميم ، وكان له شأن في الحصومة القائمة ، كما سيلي ، وقد أسقط المؤلف حكايته هذه — المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٤] .

تيمناً من دخول هراة . وقد عرض بكبر عليهم أموالاً كثيرة على أن ينصرفوا ،
ولكن هذه الطريقة للتخلص منهم زادتهم عناداً وأحدثت سرارة في نفوسهم ،
فاقتحموا المدينة على محمد بن عبد الله بن خازم وشدوه وثاقاً وشربوا ليلتهم ،
وجعل كلُّهم أراد رجلٌ منهم التبول بآل عليه ، ثم قتلوه في الصباح^(١)
وكان معنى هذا أن تيمناً يبدوا هذه الصداقة لوالده عبد الله ، فخرجوا إلى سرور وازدادوا
قوة بعد أن انضم إليهم من كان فيها من قومهم ، وولوا عليهم حُرَيش بن هلال
القريني ، وأرادوا محاربة ابن خازم . وكانت هذه الحرب على الطراز القديم ، فلم
تكن هناك معارك ، بل كان هناك فرسان أبطال ، لم يُذكر مثْلهم ، « الرجل
منهم كتيبة » ، وكانوا يغيرون ويأتون المفاسدات ، فيُحسكي مثلاً أن الأشعث
ابن ذؤيب ، وهو أخ زهير بن ذؤيب العدوي (من نعيم) ، قُتل في تلك الحرب
فسئل ، وكان به رمق : « من قتلك ؟ » فقال : « لا أدري ! طعنني رجلٌ على
برذون أصفر » ، فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلا حمل عليه ، فمنهم
من يقتله ومنهم من يهرب ، فتحمى أهلُ العسكر البراذين الصفر ، فكانت
تُخلّاة في العسكر لا يركبها أحد ، وهذه صورةٌ مُميّزة لأحداث تلك
الحرب ؛ حتى إذا طالت الحرب سنتين وضجرتها الفريقان وملاها تفرّقت
تيم ، فأضمت نفسها بذلك ، فتوجه شماس بن دثار العطاردي إلى سجستان
(الطبري ج ٢ ص ٥٤٦ و ١٠٢٦) ، وحريش بن هلال إلى سرور الروذ واستطاع
أن يثبت هناك زماناً^(٢) ، لكنه اضطر آخر الأمر إلى الخروج من خراسان

(١) [هنا يمزج المؤلف بين روايتين عند الطبري (ج ٢ ص ٥٩٤) . وليس من
المعقول أن يكونوا دخلوا المدينة دون معركة ، ونحن لا نسمع عن هذه المعركة ، بل الأحرى أن
يكونوا دخلوها بعد قتال ، وأنهم قتلوه خارج المدينة : ترصدوا له وأخذوه وهو يتصيد وفعلوا
ما فعلوا . وهذا شطر من إحدى الروايتين . وإن قضاء ليلة شراب على النحو المتقدم لا يتيسر
في مدينة ، حتى ولا بعد معركة — المترجم] .

(٢) يقول حريش (الطبري ج ٢ ص ٥٩٨ س ٣) : حولين ما اغتمضت عيني بمنزلة *
إلا وكنتي وساد لي على حجر . ولا يتحتم من هذا (الطبري ج ٢ ص ٥٩٥ س ١٤) أنه ظل =

(الطبرى ج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٨) . ولجأ الآخرون من فرسان تميم بقيادة زهير ابن ذؤيب إلى قصر قَرْتَنَّا ، غير بعيد من سرو الروذ . وهناك حاصرهم ابن خازم واضطرم إلى التسليم وقتلهم دون رحمة (الطبرى ج ٢ ص ٦٩٦ — ٧٠٠) . ويظهر أنه استطاع أن يحكم مرو حينئذ لا يملك حُكْمُهُ شَيْءٌ ، غير أنه بعد سنين قليلة اضطر إلى إخماد ثورة جديدة قامت بها تميم في أبر شهر بقيادة بحير بن ورقاء الصريمى (الطبرى ج ٢ ص ٥٩٦ س ٩) . واستخلف ابن خازم بمرو بكير بن وشاح ، ولكنه لم يترك ابنه موسى فيها لأنه لم يأمن عليه من تميم ، فأمره أن يخرج منها بكنوزه ويُقْلَهُ فيعبر نهر بلخ ويأجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن يقيم فيه ، ثم تقدم قاصداً أبر شهر . وبينما كان يحارب بحير بن ورقاء هناك أتاه في آخر سنة ٧٢ هـ^(١) كتابُ عبد الملك بن مروان ، يَعِدُهُ بأن تكون خراسان له طعمةً سبع سنين ، إذا بايع له . فتصور ابن خازم أن في ذلك إهانةً له ، لأنه كان يريد أن يكون له الأمر بقوته الخاصة ، وأمر رسول عبد الملك بأن يأكل الصحيفة التي حملها إليه . ولما رفض ابن خازم ما عرضه عليه عبد الملك كتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح ، وكان ابن خازم قد استخلفه على مرو ، بهد إليه بولاية خراسان ويعده ويُمَنِّيهِ ، فقبل الولاية . ولم يستطع ابن خازم أن يتغلب على بكير وبحير مجتمعين ، فحاول أن يذهب إلى ابنه موسى في ترمذ ، ولكن بحيراً لحقه . وقتل ابن خازم بعد أن اعتوره بالطن ثلاثة فرسان ، فدفنهم عن نفسه دفناً شديداً ، حتى صرعوه ، فلما وقع قعد على صدره وكيع بن الدَّورَقِيَّة ، ليذبجه^(٢) . وكان وكيع أحد الموالى

== يقال ابن خازم حَسُولِيْن . ويجوز أنه يدخل في هذين المولدين فترة الحرب مع بكر ، ذلك أننا نجده في سنة ٦٦ هـ خارج خراسان . انظر ما كتبناه عن الحوارج ص ٣٤ ، وقد قتل حريش سنة ٨٢ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٦ س ١٥) .

(١) يذكر الطبرى (ج ٢ ص ٨٣٤) تاريخاً متأخراً عن ذلك .

(٢) يسمى باسم أمه ، وكانت من سبي دورق ، من خوزستان (راجع البلاذرى

ص ٤١٥ — ٤١٦)

الفلاظ الجفافة ، وقد ذكر ابن خازم بثأر أخ له لأمه كان ابن خازم قد قتله ، فعند ذلك تنخم ابن خازم في وجه وكيع مستنكفاً من أن يكون أحد الموالى مساوياً له . وذبحه وكيع ، واحتزّت رأسه ، فاشتصبها بكير بن وشاح من يد بحير وأرسلها إلى عبد الملك ، مدّعياً أنه هو الذى قهر ابن خازم وقتله . أما بحير ، وهو المنتصر الحقيقى على ابن خازم ، فقد قيّده بكير وحبسه حيناً (الطبرى ج ٢ ص ٨٣١ — ٨٣٥) .

وكان هذا سبباً فى حرب بين أخوين من تميم أنفسهم ، وخصوصاً من بنى سعد بن تميم ، وكان بنو سعد فى خراسان ، وخصوصاً فى مرو ، أكثر منهم فى البصرة ، وكان كل من بكير وبحير ينتمى إلى بنى سعد . واختلقت تميم ، فتمصّبت مُقاعِسُ والبطون لبخير ، وتعصب بنو عوف^(١) والأبناء لبكير ، ولكن لما تبين عرب خراسان آخر الأمر أن سيادتهم على خراسان لا محالة زائلة ، إن لم ينقذوها من أخطار التطاحن وإن لم تكتسب صبغة شرعية بفضل تأييد يأتها من قبَل ساطة عايا ، عند ذلك طلبوا من أنفسهم من عبد الملك بن مروان سنة ٧٤ هـ أن يُعين على خراسان والياً قرشياً يكون فوق تباغض القبائل وتحاسدها^(٢) . فبعث عبد الملك أحد الأمويين من أسرته ، وهو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص ، وكان فتى سيداً كريماً وسهلاً ليناً يحب العافية ، فلما بلغ أبر شهر خرج بحير بن ورقاء لاستقباله ، وحاول أن يسعى ببكير عنده وأن يُحدّزه منه ومن غدره ، ولكن بحيراً لم يفلح فيما أراد ، فأقرّ أمية كل عمال بكير فى مناصبهم وعرض عليه أن يوليه شرطته ، فلما زهد بكير أنفةً منه فى هذا المنصب ،

(١) [يقول المؤلف أوس والأبناء ، ويظهر أن هنا تحريفاً ، لأن الذى يؤثر عند المؤرخين هو قبائل بنى عوف ، راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٩ — المترجم] .

(٢) [جاء فى الطبرى ما يأتى : خاف أهل خراسان أن تمود الحرب وتفسد البلاد ويفهرم عدوهم من المشركين ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحدونه ولا يتعصبون عليه — المترجم] .

مع أن صاحب الشرطة كان في نفس الوقت يقوم بخلافة الأمير إذا غاب ، عند ذلك أعطى أمية المنصب لعدوه ببحر (الطبرى ج ٢ ص ٨٥٩ — ٨٦٢) .

وغضب بكير وحنق ، لأنه اضطر أن يخلى المجال أمام الأمير القرشى^(١) ، فاعتزم فرصة خروج الأمير في حملة حربية ، وثار في ظهره بمدينة مرو^(٢) ، وكان أهل الجنود الذين خرجوا في الحملة في قبضة بكير^(٣) ، فسارع أمية بالعودة وتساهل في مفاوضة بكير والبر به ، فقتضى عنه ديونه وأمنه أربعين يوماً حتى يخرج إلى إحدى مدن خراسان إذا شاء . ولكن بكيراً بقي في مرو ، ومضى بحرّض على أمية ، فاتهمه ببحر بالتدبير لأمية ونقل إلى أمية كلاماً لبكير عنه . ولكن أمية كذّبه ، حتى تأيدت له الشكوى من جانب آخر . وعند ذلك قبض الأمير على بكير ، وتبين أن التهمة صحيحة ، لأن شهودها لا مغفّر فيهم^(٤) ، وقتل بكير بسيفه في يوم جمعة ، قتله ببحر ، لأن أحداً لم يرض أن يقتله . وقال ببحر وهو يقتله : لا يصلح بنو سعد مادماً حيين (الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٢ — ١٠٣١)^(٥) .

ولكن آخر فصل من قصة الحرب بين بنى سعد لم ينته إلا في سنة ٨١ هـ .

(١) [إنما أحنق بكيراً سمي ببحر بالوشاية والإفساد بينه وبين أمية سعياً دائماً ، ذلك أن أمية عامل بكيراً معاملة السيد الكريم فقطع أسباب المداوة ، ولكن لم يزل بكير بالأمير حتى صار يتصرف مع بكير تصرفاً أغضبه ، وجعله يشعر بأن الأمير يضارّه ويرتاب به — المترجم نقلاً عن النصوص التي ذكرها المؤلف] .

(٢) من السير أن يكون ذلك لم يقع إلا في سنة ٧٧ هـ آخر سني أمية ، فارتد بين الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٣ وبين ١٠٢٨ ، وبين البلاذري ص ٤١٦ .

(٣) [هدد بكير بأن يرى كل من يرى سهما من المحاصرين له برأس رجل من ولده وأهله ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٧ — المترجم] .

(٤) [لا يؤخذ ذلك من النصوص ، فقد اتهمهم بكير بأنهم أعداؤه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٠ — المترجم] .

(٥) يختصر المؤلف هنا اختصاراً كبيراً ، وليرجم القارىء إلى الموضع المشار إليه عند الطبرى لبرى الرواية مفصلة ، ونحن قد تابعناه في الترجمة محاولين بقدر الإمكان أن نراعى النص العربى — المترجم] .

فتعاقد سبعة عشر رجلاً من الأبناء ، وهم عشيرة بكير ، على قتل بحير . ولكنهم لم يقصدوا إليه مجتمعين ، بل ذهب كل واحد منهم منفرداً معتمداً على يده وحدها ، وقد أفلح أحدهم ، وهو صعصعة بن حرب العوفى ، فى اغتياله . فسار حتى جاور قرابةً لبحير ، ولم يزل يأنسهم ويجالسهم ويلاطفهم حتى أنسوا به . وأعطوه كتاباً إلى بحير ، وفيه أوصوه أن يساعده على الحصول على ميراث كان له . ثم قصد إلى بحير ، ولم يزل عنده حتى أنس به . ثم طعمه غيلةً بمنجبر كان قد غمسه سراراً فى لبن أتان ليزداد حدة ، وكان طعمه له أمام الناس ، كما ينبغي للثأر أن يفعل ، وقد صاح ، وهو يطعمه ، قائلاً : « يا لثارات بكير ، أنا ثأرُ بكير ! » فقبضَ عليه وقتل . فاحتمل الموت صابراً سخيةً بذلك نفسه . وذهب إليه الأبناء فى السجن وقتلوا رأسه . ولكنهم بعد مقتله غضبوا وقالوا : علام قُتل صاحبنا ، وإنما طَلَبَ بثأره ! ولم تهدأ ثأرتهم إلا بعد أن دُفِنت له دية ، وذلك بعد أن مضى وقت ، فيه أوشك الخصام بين الأبناء وبين البطون أن يتور من جديد (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٧ — ١٠٥١)^(١) .

وكانت لا تزال هناك لثورة عبد الله بن خازم القيسى بقية لم يتم القضاء عليها ، ذلك أن سيادته وجدت من يمثلها ويرثها إلى ما بعد مقتله باثني عشر عاماً . ذلك أن ابنه موسى — وكان ثظاً^(٢) — قد استطاع أن ينجو بنفسه من سرور فى الوقت المناسب وأن يخرج ، ومعه بضع مئات من فرسان كانوا معه ومن

(١) [لا يعطى كلام المؤلف حقيقة الوضع ، ونجد عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠٥١) أن التنازع وقع بين عوف بن كعب والأبناء وبين قعاس والبطون ، حتى خاف الناس أن يعظم البأس بينهم ، فقال أهل الحجى : احملوا دم صعصعة واجعلوا دم بحير بواءً بدم بكير ، فودوا صعصعة . ثم وُدَى صعصعة مرة أخرى . ولو أن دفع الدية وحده يكفى فى تسكين نائرة الموتورين ، كما يؤخذ من كلام المؤلف لما بلغ الخصام عند العرب من أجل الأخذ بالثأر المبلغ الذى نعرفه — المترجم] .

(٢) [الثظ الحفيف شعر اللحية ، وهو وصف موسى ، وهو من كلام المهلب بن أبي صفرة عنه مع أولاده — راجع هامشاً تالياً — المترجم] .

صعاليك ضروا إليه ، حتى جاوز نهر بلخ ، وقد حاول المرة بعد المرة أن يجد ملجأً يستقر فيه ، ولكنه كان لا يأتى بلداً إلا كره أهلها مقامه فيهم وسألوه أن يخرج عنهم ، وذلك لما كانوا قد سمعوه من أسره . وأخيراً تمكن بدهاء ومما كرهه وملاطفة ، ثم بحيلة جريئة فيها شيء من الغدر ، من أن يستقر في ترمذ جنوب بلخ على الشاطئ الآخر من النهر ، في حصن يقع على صخرة بارزة تشرف على النهر . وتجمعت له قلوب قيس ، حتى صار تحت تصرفه ألف ومائة رجل ، جعل يغير بهم على من حوله . وكان جيرانه يخافونه هو وفرسانه كما يخافون من الجن^(١) . وقد فشلت حملة وجهها إليه أمية بن عبد الله أمير مرو . فلما جاء بعده المهلب ابن أبي صفرة وابنه يزيد ابن المهلب لم يتعرضا لموسى^(٢) ، ثم زاد جنده بن انضم إليهم من قلوب جيش ابن الأشعث ، حتى بلغوا ثمانية آلاف رجل . وأخذ يقوم بغزوات أخرى أبعد مدى ، وقد شدد أزره في ذلك قائدان من قواد الفرس ، هما حريث بن قطبة وأخوه ثابت ، انحازا إليه بمن كان معهما ، منشقين على الجيش العربي ، جيش المهلب ، وكانا قبل ذلك على صلوات بالأسر الحاكمة من أهل البلاد ، وخصوصاً بطرخون صاحب سمرقند ، واستطاعا بمعونة أهل البلاد أن يُعيدا جيشاً ليقا تل السادة العرب مع موسى . ولم يرد موسى رغم ذلك أن يقدم بيده على مهاجمة يزيد بن المهلب في خراسان ، بل أراد أن يخرج عماله من أرض ما وراء النهر . وقد أمكن أيضاً تطهير أرض ما وراء النهر من بقايا السيادة العربية تطهيراً تاماً ، ولكن حريثاً وثابتاً كانا في أثناء ذلك قد قوى أمرهما ، وصار لهما التدبير الحقيقي ولموسى اسم الإمارة . فتنازل الحسد لهما في

(١) [راجع في ذلك قصة طريفة وحيلة عجيبة لجأ إليها موسى لكي يوقع الرعب في نفوس أهل البلاد ، ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١١٤٨ — ١١٤٩ — المترجم) .]

(٢) [قال المهلب لبنيه : إياكم وموسى ! فإنكم لا تزالون ولاية هذا الثغر ما أقام هذا الشط بمكانه ، فإن قتل كان أول طالع عليكم أميراً على خراسان رجل من قيس — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١١٥١ — ١١٥٢ .]

النفوس ، وأراد بعض أصحاب موسى منه أن يقتلها فأنى أن يغدر بهما ، ولم يزلوا به يُلاحِضُون عليه ، حتى أفسدوا قلبه عليهما . وإنهم لفي ذلك إذ جاء هجومٌ على أرض ما وراء النهر ، فخرجت على موسى الهياطة والتُّبَّت والترك ، وكان موسى قد أفلح قبل ذلك في صد هجوم لهم ، وقد ردم عن ترمذ في هذه المرة أيضاً وأبعدم مسافة كبيرة . ثم بدأ من جانبه في الهجوم ، وألقى بهم عند كفتان^(١) هزيمة شتت جمعهم ، وفي هذه المعركة قتل حُرَيْث بن قطبة ، ولم يجزع موسى لذلك ، بل ربما كانت تفرعينه لو أنه تخلص من أخيه ثابت أيضاً . وقد أراد لذلك أن يغتال ثابتاً^(٢) ، ولكن أحد عيون ثابت أبلغه ذلك ، فهرب إلى مدينة خُشُورَاخ^(٣) ، وخرج إليه كثير من العرب والمجم ، وأقبل لنجدته أيضاً طرخون صاحب سمرقند بجيش كبير وتقدم الرجلان معاً إلى ترمذ فحاصراها وضيقا الخناق على موسى ، ولكن أحد الفدائيين العرب استطاع أن يتسلل إلى ثابت وأن يقتله . وعند ذلك تجرأ موسى ثلى بيات^(٤) معسكر الأعداء ، فتوصل إلى أن رحلوا عنه . ولكن لم يلبث المفضل بن المهلب ، أخو يزيد بن المهلب وخايفته على خراسان ، أن حالف طرخون السغد وسبَّل الختل على موسى ، فلم يستطع موسى أن يثبت أمام هذا النكتل ، وقُتل وهو يحاربهم ، عثرت به فرسه ، فسقط ، فابتدروه فقتلوه . وسلمت ترمذ ، وقُتل الأسرى من جنودها ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ .

٣ — وفي الفترة التي كانت فيها قوة عرب خراسان تتلاشى في هذه الخلافات الدامية ، ضاعت الفتوحات الأولى التي قاموا بها في أرض ما وراء

(١) في بعض النصوص : كفتان ؛ وفي بعضها كفيان — المترجم .

(٢) [يجد الفارسي ، تفصيل حكاية موسى عند الطبري ج ٢ ص ١١٤٥ — ١١٤٦ المترجم] .

(٣) هكذا يجب قراءة الكلمة ، قارن الطبري ج ٢ ص ١٥٩٤ ص ٩ .

(٤) [يعني الهجوم في الليل — المترجم] .

النهر^(١) ضياعاً تاماً ، بل اغتتم الترك ذلك وتجاسروا على الهجوم على خراسان حتى وصلت غارات النهب على أيديهم إلى قرب نيسابور (البلاذري ص ٤١٤) . وبعد أن عاد الهدوء والنظام جدد العرب أيضاً غزواتهم السابقة ، وكان أمية بن عبد الله أمير خراسان هو أول من عبر نهر بلخ . بعد فترة وقوف طويلة . ولكنه لم يكن رجل حرب ، ومن قبل لم يمكن بقاءه على إمرة العراق ، لأنه هرب أمام أبي فديك الخارجي هروبا مخزيا . ولم يستطع في خراسان أن يقيم شرفه المتداعي . وبعد أن أصاب شيئا من النجاح (بلاذري ص ٤٢٦ س ١٠ فما بعده) هُزم أخيراً هزيمة حاسمة ، ولم يستطع أن ينجو بجيشه عبر نهر الشاش منصرفاً إلا بعد جهد وإشراف على الهلاك ، وجلب على نفسه استهزاء الشعراء حتى قال أحدهم :

ومن سَمَّاكَ ، إِذْ قَسَمَ الْأَسَامِي : أُمِيَّةً ، إِذْ وُلِدَتْ ، فَقَدْ أَصَابَا^(٢)
وعلى أثر ذلك عزله عبد الملك من منصبه سنة ٧٨ هـ . فلما أسندت إلى الحجاج مع ولاية العراق ولاية خراسان وسجستان ، عين مكانه المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، وكان المهلب قد انتهى في منتصف سنة ٧٨ هـ من القضاء على الخوارج في كرمان ، ولكنه لم يأت إلى مرو بنفسه إلا في سنة ٧٩ هـ^(٣) . ولم يستطع المهلب ، فيما وراء النهر ، أن يفعل ما فعله أسلافه ، وفي آخر سفي ولايته حاصر مدينة كِشْ فَأَخْفَقَ^(٤) ، ورضى بأن يدفع أهلها إتاوة ، ثم انصرف عنهم ،

(١) وفي عهد عبد الله بن عامر من قبل كانت قد مُوجِّهت حملاتٌ إلى أرض ما وراء النهر ، ثم تجددت على يد عبيد الله بن زياد ، وكان قد جاء إلى البصرة بجيش من أسرى بخارى ثم جدد الحملات سميد بن عثمان خليفة عبد الله . وقد قتله خدمه من السفد ، كما جددوها سلم بن زياد ، وقد ولدت له امرأته ولداً في سمرقند .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣١ — المترجم] .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٠٣٢ — ١٠٣٥ — المترجم] .

(٤) يحكي المدائني حصار كِشْ مرتين في ظروف هي هي ، في سنة ٨٠ ، ٨٢ هـ (الطبري

ج ٢ ص ١٠٤٠ و ١٠٧٧ فما بعدها) . ويمكن تسوية هذا الفرق في التاريخ وتعليقه بأن الحصار دام عامين (من منتصف ٨٠ إلى ٨٢ هـ) .

ومات في زاغول (قرب سرو الروذ) وهو راجع ، وذلك في ذى الحجة ٨٢ هـ ، الموافق يناير سنة ٧٠٢ م . فلم يزد تجذؤه الحربى في خراسان عما كان عليه ، ولكن ذهابه إلى خراسان كانت له أهمية كبيرة ، فقد أخذ قبيلته معه ، وكانت حتى ذلك الحين ، تحارب الخوارج تحت إمرته^(١) . وقد تحالف الأزدي أيضاً في خراسان مع بكر وربيعة^(٢) . وبذلك فقدت مضر (تميم وقيس) ما كان لها من من تغلب وخصوصاً عندما كان الأمير يضع قوة منصبه الرسمى في الجانب المعادى لمضر .

وقد استخلف المهلب في منصبه وفي رئاسة قبيلته المتنوعة في تكوينها ابنه يزيد مؤقتاً ، ثم أقره الحجاج في منصبه ، وقد قام يزيد بحروب في فرغانة وخوارزم ، كما حارب فيما دون النهر أيضاً في بادغيس ، ولكن دون أى كسب جديد ، أو على الأقل دون أى كسب دائم ، وكان يزيد رغم ولعه بالنساء والطعام وضخامة جسمه رجلاً نشيطاً قادراً على النهوض بالأعمال ، ولكن طموحه وزهوه كان أكثر من قدرته على العمل ، وكان يشعر بشيء من المضاضة أن يكون تابعاً للحجاج ، وخصوصاً أنه رئيس الأزدي ، على حين أن الحجاج ، ذلك الرجل المحدث ، كان من قيس . وهو لم يقض على ثوار أهل العراق الذين هربوا إلى خراسان بعد إخضاع ثورة ابن الأشعث إلا كارهاً ، ولما وقع في يده الثوار خلى سبيل اليمنيين منهم ولم يُسلم إلا المضرين ، ولم يغفل الحجاج عن

(١) جاء الشاعر ثابت قطنة والشاعر كعب الأشقرى ، وكلاهما أزدي ، من فارس وكرمان وكان فيهما ميدان القتال ضد الخوارج ، إلى خراسان . ويجوز أن أفراداً من الأزدي كانوا قد هاجروا قبل ذلك ، ولكن شأن قبيلة الأزدي لم يرتفع إلا بمجيء المهلب ، ولا يسمع الإنسان أقل إشارة إلى الحلف بين أزدي وبكر في الحروب السابقة بين تميم وبكر .

(٢) فيما يتعلق بالنسبة بين الأقسام (الأخماس) من حيث العدد (راجع الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١) فقد كان لتيمة عشرة آلاف مقاتل ولالأزدي مثاها ، واقيس (أهل العالية) تسعة آلاف ، وبكر سبعة آلاف ، ولعبد القيس أربعة آلاف . والجملة أربعون ألف مقاتل ، وعلى هذا فإن جملة العرب في خراسان لم تكبد تتجاوز مائتي ألف .

معرفة روح يزيد هذه ، فعزله في ربيع الآخر سنة ٨٥ هـ (إبريل سنة ٧٠٤ م) وعين مكانه المفضل بن المهلب أخا يزيد لأبيه ، وكان المفضل يسمى يزيد . وربما كان أحب شيء إلى الحجاج أن يفتزع خراسان من قبضة المهالبة والأزد جملة ، ولكنه لم يقدم على ذلك طالما كان موسى بن خازم ثابتاً قوى الجانب في ترمذ وبلاد ما وراء النهر . وقد ظن الناس ذلك على الأقل ، والأغلب أنهم في ظنهم كانوا صادقين ، وكان المهلب ويزيد ابنة مقتنعين أنهما لن يطيقا والياً قيسياً إذا ذهب موسى ، لأن موسى نفسه كان من قيس وكانت أهواء قيس إلى جانبه ، ولذلك لم يتعرض المهالبة لموسى ، بل حافظوا عليه كما يحافظ الإنسان على عدو مفيد له ، وذلك لأن الحاجة إليهم ستظل قائمة وشأنهم سيظل مرتفعاً ما دام موسى في مكانه . ولكن المفضل انحرف عن هذه السياسة التي انتهجها المهالبة . وجَد في حرب موسى بن خازم ، وبذلك قوّض الأساس الذي كان يستند إليه ، فإنه لم يكد ينتهي من القضاء على موسى حتى عُزل من منصبه ، بعد أن قضى فيه تسعة أشهر . وكذلك عُزل حبيب بن المهلب وعبد الملك بن المهلب من منصبهما أيضاً ، وحُبس يزيد بن المهلب نفسه ، ثم عين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (سنة ٨٥ أو ٨٦ هـ) . وكان ابناً لمسلم بن عمرو الباهلي البصري الذي كان مخلصاً لحكومة الأمويين موالياً لها ، وبذلك انكسرت شوكة التغلب الذي كان للأزد وربة في خراسان . وكان يسمون خاصة اليمن . وكان العرب في أيام قتيبة يسمون المضربين بوجه عام (الطبري ج ٢ ص ١١٨٥ س ٥) ، أما قتيبة فكان ينتمي إلى قبيلة ممزقة غير ناهية ، هي قبيلة باهلة التي كانت خارج المجموعات الكبرى للقبائل ، وكان من العسير أن تجد مكانها في أنساب القبائل ومناشئها ، ولكنها انضمت إلى قيس بحكم الظروف^(١) ، ولم يكن شيء

(١) وكذلك أيضاً في أرض الجزيرة ، قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ ، وابن الأثير

ج ٤ ص ٢٥٦ فابعدهما وانظر ما تقدم ص ١٩٦ هامش رقم ١ .

أحب إلى الحجاج من أن يكون قتيبة ليست له عشيرة قوية ، فيدعوه ذلك إلى أن يعوّل على الدولة .

ولم يكن العرب قبل عهد قتيبة بن مسلم قد غزوا إلا بعض البلدان الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق من خراسان ، وهي أيضاً لم تكن قد أخضعت إلا إخضاعاً مؤقتاً . وهذا ما يقينه الإنسان من أخبار موسى بن عبد الله بن خازم . وكان قتيبة هو أول من شق الطريق لفتح هذه البلاد ، وأقل ما يمكن أن يقال أنه هو الذي شق طريق الفتح الحقيقي لها . ولكي يتسنى لنا أن نفهم الحملات التي قام بها فهماً جيداً يحسن أن نلّم بشيء موجز من الملاحظات الجغرافية والملاحظات المتعلقة بأحوال الأمم ، وذلك فيما يتعلق بشفرى خراسان .

كان أحدهذين الثغرين هو طخارستان أى أرض بلخ أو البكتريان (Bakterien) القديمة . وطخارستان هي في الحقيقة تلك الأرض الجبلية الواقعة على ضفتي نهر بلخ الأوسط حتى بدخشان ، وتدخل في ذلك أيضاً ، بحسب ما جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١١٨٠ ص ٧) شومان وآخرون . أما في العادة فلا يفهم من طخارستان سوى الأرض الواقعة جنوب نهر بلخ . وكان العرب يعتبرون ذلك جزءاً من إقليم مدينة مرو الروذ ، وكانت أقصى مدن معسكراتهم في جهة المشرق ، وذلك أنهم لم يحتلوا مدينة بلخ (بكترا Baktra) احتلالاً دائماً ، ولكن بلخ كانت لاتزال هي العاصمة الحقيقية لتلك البلاد ، وكان يقع في منطقة بلخ إلى جهة المشرق خلم والطاقان والفارياب وغيرها من المدن ، أما إلى الجنوب وفي أعلى بلاد النور (Paropamisus) فكانت تقع رساتيق جوزجان أو جوزستان وخرشستان أو غرجستان (مع مدينة باميان التي تتحكم في الممر بين الجبال) . وإلى الغرب كانت تقع باذغيس بين وادي مرغاب وهريرود . أما إلى الجنوب الشرقي فكانت غازنين وولشتن تنبعان كابلستان وسجستان .

أما النهر الآخر الذى كان أعظم شأنًا فى خراسان فقد كان أرض ما وراء النهر، ويتبع ذلك بوجه عام من جهة المشرق أرضُ الختلان وأرض جبال (جبل الملح ١٥٩٦) الختل التى تمتد من بذخشان إلى الغرب حتى نهر وخشاب^(١)، ثم تأتى بعد ذلك أرض الصغانيان، أو أرض الصغان^(٢). أما إلى المغرب، فيما بين ترمذ على نهر بلخ وسمرقند على نهر السغد (Polytimetus) فكانت تقع مدن شومان وآخرون، ثم كيش ونسَف؛ والمدنيتان الأخيرتان تلتحقان عند المقدسى (ص ٢٦٧، ٢٨٢ فما بعدها) بأرض الصغانيان، ولكنهما عادة تلتحقان بأرض السغد، وأرض السغد تقع إلى جانبي نهر السغد الأدنى الذى يسير حتى يتلاشى فى واحة بخارى دون أن يبلغ نهر بلخ^(٣). والعاصمة القديمة لأرض السغد هى سمرقند، وإذا ذكر اسم السغد فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو سكان مدينة سمرقند وأرضها. وإلى المشرق من أرض السغد تقع من جهة بلادُ أشروسنه الجبالية على المجرى الأعلى الضيق لنهر السغد، ومن جهة أخرى إلى شمال الجبال تقع أراضى الشاش وفرغانه على نهر الشاش (Jaxartes) عند أبواب بلاد الترك. أما المجرى الأدنى لنهر بلخ فهو بعد أن ينحني نحو الشمال يخترق صحراوات حتى يكون آخر الأمر واحة خوارزم. والمعبر الأكبر فى هذه المسافة يكون عند آمل، ويكون العبور على جسر من السفن.

أما سكان كل هذه البلاد الواسعة ولغتهم وحضارتهم^(٤) فقد كانت إيرانية،

(١) وفى الآن سرغاب، وفى تسمية وخش — آب بقى اسم نهر (Oxus)، وقد صار لا يستعمل فى تسمية النهر الأكبر.

(٢) يسمى ملك هذه البلاد صغان — خُدهاء، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٦ و ١٦٠٠ فما بعدها.

(٣) يسمى الآن زرفشن واسم (Polytimetus) غير مفهوم والأولى أن يكون اسمه (Polytmetus)، ذلك لأن النهر مؤلف من نهيرات كثيرة ينقسم إليها، ونظام الري القديم فى هذه البلاد هائل ومشهور لا يفوقه نظام آخر.

(٤) وإلى جانب نظام الزراعة القائم على نظام الري الفنى كانت التجارة أيضاً (الفراء، الحرير، الماء، الرقيق) مهمة جداً على الطريق إلى الصين.

وأما من الناحية السياسية فقد كان يسودها انقسام كبير ، وهذا الانقسام لم يأت مع سقوط الدولة الساسانية ، بل كان قد وقع قبل ذلك . فكانت هناك طبقة الأشراف الذين يسمون الدهاقنة ، وقد تميز من بينهم حكام ينتمون إلى أسر ويحكمون الأشراف العاديين ، وهم كبار الملاك والحكام في القرى ، ونجد في الرسانيق المتفرقة وفي المدن الكبيرة أمراء فيهم وراثية الحكم ، ولهم ألقاب خاصة بهم^(١) . وليست كل هذه الألقاب آرية ، فمنها ألقاب غير آرية ، وذلك أن الإيرانيين ، وهم قد كانوا ممزقين كل ممزق ، لم يبقوا بنجوة من الاختلاط بغيرهم ولا من الخضوع لهم ، ففي إقليم Paraitacene جاء الختل وكونوا طبقة فوقهم وملكهم يسمى السَّيَل^(٢) . ويظهر أنهم هم الهياطل (Hephthaliten) القدماء ، وكان هؤلاء من قبل يحكمون أرض ما وراء النهر كلها ، ولذلك يسميها المقدسي بلاد الهياطل ، بإطلاق هذه التسمية . ولكن في الفترة التي تعيننا دراستها هنا كان الهياطلة قد اندحروا وراء الترك ، وكان الموطن الحقيقي لهؤلاء يقع إلى الشرق من نهر الشاش ، ولكنهم في أثناء الغارات التي كانوا يقومون بها من هناك ، متوغلين مسافات بعيدة جداً ، كانوا كثيراً ما يتقدمون إلى المدن الإيرانية ويستقرون فيها ويؤسسون أسراً حاكمة ويأخذون إتاوة من البلاد ، ونجد اللقب التركي « طرخون » أو « طرخان » موجوداً فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، وهو يطلق على الأمير التابع للخاقان^(٣) .

(١) كثيراً ما نجد لقب خُدهاء ، ونجد لقب الشاه في خوازم والأصبهيد في فرغانة والشير في غرستان .

أما لقب الإخريد ولقب الفيك في كش ولقب الأشقند في نسف ولقب الأفشين في أشروسنة فهي في الحقيقة أسماء أعلام .

(٢) إن لم يكن هذا اللقب اسم علم — فارن جيش (حفش) بن سَبَل .

(٣) الطبري ج ٣ ص ٦٤٧ ، حيث نجد عبارة الخاقان وطراختته ، فارن لقب الرَجْمَن في رُب والنسيك (التسل) في الفارياب والسمرك (السهراب) في الطالقان والشاذ — وكلها في طخارستان . وسيد الترك يسمى دائماً بالخاقان ، كأنما لم يكن هناك سوى خاقان واحد .

فكان الترك في ذلك الزمان هم في الحقيقة الشعب الحاكم فيما وراء النهر وفي طخارستان ، وكان على العرب أن يحاربوا الترك خاصة في طخارستان على الأقل ، وقد ردّهم العرب وأخرجوهم من خراسان ووضعوا حداً لغارات السلب من جانبهم . وصار العرب ينافسون الترك في السيادة على السكان الإيرانيين منافسة ناجحة . ولكن العرب أيضاً كانوا يكتبون بإخضاع البلاد إخضاعاً سطحياً جداً ، وكانوا في جميع الجهات يتركون السلطة المحلية على ما هي عليه ، ويأخذون إتاوة كانت تسمى فدية ، أي مقابل السكف عن شن الغارات وعن النهب ، فإذا لم تلغ هذه الفدية — وهذا ما كان يقع بمنتهى السهولة — فعند ذلك تبدأ الحروب من جديد . ولم يكن العرب دائماً يكرهون أن تتكرر المناسبات التي تمكنهم من القيام بغارات النهب .

ولم يحدث على يد قتيبة تغيير أساسي في هذا الوضع ، ولكنه وسّع نطاق السيادة العربية إلى ما وراء الثغور توسيعاً أبعد أثراً مما كان لها من قبل ، فلبث سنين كثيرة يخرج للغزو ، وفي كل ربيع كانت تأتي المقاتلة من أبرشهر وأبيورد وسرخس ومن هراة وسرو الروذ إلى سرو ، لكي تخرج في الغزو دون أن يحتاج قتيبة إلى دعوتها . وفي سنة ٨٦ هـ قام قتيبة بحملة على آخرون وشومان كان قد أعدها سلفه (بعد فتح ترمذ) ، وقد تعهد الملك بدفع الإتاوة . وفي السنة التالية توجه قتيبة لغزو المدن الواقعة في واحة بخارى ، وفي سنة ٨٧ و ٨٨ هـ فتح بيكند وتومشكت ورامدين ، وقد غنم في مدينة بيكند ، وهي مدينة تجارية ذات مخازن كبيرة للبضائع^(١) ، مستودعاً غنياً بالأسلحة ، فجهز به جنده العرب ، وكانت عدته الحربية حتى ذلك الحين قليلة ، ولم يكن جنده يملكون إلا ثلاثمائة درع (الطبرى ج ٢ ص ١٨٠ فما بعدها) وفي سنة ٨٩ — ٩٠ هـ غلب على بخارى نفسها ، وقد

(١) ويظهر أن إلياس النصيبي يقصد هذه المدينة فيما ذكره من أخبار سنة ٨٧ هـ .

حَتَّى الحِجَابِ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ الْحِجَابُ قَدْ طُلِبَ أَنْ تُرْسَلَ إِلَيْهِ خَرِيطَةٌ لَتِلْكَ
الْبِلَادِ ، وَتَوَلَّى هُوَ وَضَعَ الْخُطَّةَ الْحَرِيَّةَ . وَفِي سَنَةِ ٨٩١ هـ اشْتَغَلَ قَتِيْبَةُ فِي طَخَارِسْتَانَ
بِاخْضَاعِ ثَوْرَةٍ مَشْعُوبَةٍ تَشْعَبًا كَبِيرًا ، وَكَانَ الطَّرْخَانُ نِزْكٌ هُوَ رُوحُ هَذِهِ الثَّوْرَةِ ،
فَاسْتَدْرَجَهُ قَتِيْبَةُ مِنَ الْحَصْنِ الَّذِي كَانَ قَدْ لَجَأَ إِلَيْهِ بِمَدِينَةِ اسْكِيْمَشْتِ^(١) ، ثُمَّ قَتَلَهُ
غَدْرًا هُوَ وَآخَرِينَ مِنَ الطَّرَاخُنَةِ وَالْدَهَاقِنَةِ ، ثُمَّ عَبَرَ بَعْدَ ذَلِكَ نَهْرَ بَاغِخَ وَافْتَتَحَ
مَدِينَةَ شُومَانَ ، وَكَانَ مَلَاسِكُهَا أَيْضًا قَدْ اشْتَرَكَ فِي الثَّوْرَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الطَّرْخَانُ
نِزْكٌ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ قَتِيْبَةُ عَبْرَ الْبَابِ الْحَدِيدِيِّ^(٢) وَأَخْضَعَ مَدِينَتِي كِشَ وَنَسَفَ^(٣) ،
وَأَقَامَ فِي بَخَارَى حَكُومَةً جَدِيدَةً بَعْدَ أَنْ قَامَ بِقَتْلِ مَنْ اقْتَضَى الْحَالُ قَتْلَهُمْ . وَفِي
سَنَةِ ٩٢ هـ كَانَ فِي سَجِسْتَانَ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ أَرْغَمَ زَنْبِيلَ كَابُلَ عَلَى دَفْعِ الْإِتَاوَةِ .
ثُمَّ أَغَارَ فِي سَنَةِ ٩٣ هـ عَلَى مَدِينَةِ خَوَارِزْمَ بِإِغَارَةٍ لَمْ تَكُنْ مَتَوَقَّعَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ .
وَقَدْ كَانَ دَعَاهُ إِلَى ذَلِكَ سَرَّاشَاهُ خَوَارِزْمَ ، فَأَخَذَ قَتِيْبَةُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَيْضًا
جَانِبَ الشَّاهِ عَلَى أَخِيهِ الْأَصْفَرِ ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجَهُ مِنْ خَوَارِزْمَ وَأَقَامَ
حَكُومَةً عَرَبِيَّةً فِي الْبِلَادِ . وَمِنْ خَوَارِزْمَ تَوَجَّهَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ مُخْفِيًا مَقْصُودُهُ عَنْ
جُنُودِهِ مَا أَمَكْنَهُ ذَلِكَ ، وَكَانَ طَرِخُونُ سَمَرْقَنْدَ فِي سَنَةِ ٩١ هـ قَدْ صَالَحَ قَتِيْبَةَ عَلَى
إِتَاوَةٍ ، وَلَكِنْ رَعَايَاهُ أَسْقَطُوهُ بِسَبَبِ هَذِهِ الذَّلَّةِ وَاضْطُرُّوهُ إِلَى الْإِتْمَحَارِ وَحُلِّ مَحَلِّهِ
إِخْشِيدَ غُوزِكَ . وَقَدْ رَحَّبَ قَتِيْبَةُ بِهَذَا السَّبَبِ لِلتَّدْخُلِ ، وَتَمَّ الصَّلَاحُ بَعْدَ حِصَارِ
طَوِيلٍ ، وَتَمَّ هَذَا الْغُوزِكُ بِدَفْعِ الْإِتَاوَةِ ، وَتَمَّ الْإِتْفَاقُ عَلَى أَنْ يَدْخُلَ قَتِيْبَةُ سَمَرْقَنْدَ
وَيَقِيمَ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدٍ جَدِيدٍ يُؤَسَّسُ لَذَلِكَ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى الْفُورِ .

(١) رَاجِعِ الْأَصْطَلَحِي (ص ٢٧٥) ، وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ تَقَعُ إِلَى الشَّمَالِ قَالِيَا مِنْ خُطِّ عَرْضِ
٣٦° وَإِلَى الشَّرْقِ قَالِيَا مِنْ خُطِّ ٦٩° وَتُسَمَّى فِي الْمَسَوَرَاتِ الْإِنْسْكَايَزِيَّةِ بِاسْمِ اسْكِيْمَشَ ، فَارَنْ
Marpuart : Eranschahr ، ١٩٠١ ، ص ٢١٩ .

(٢) هَذَا هُوَ اسْمُ مَرَضِيْقٍ مَشْهُورٍ يَقَعُ عَلَى فَرْعٍ لِلنَّهْرِ الَّذِي يُسَمَّى الْآنَ نَهْرَ كَشَكْ ،
وَقَدْ صَوَّرَهُ رِيْكَالُوسَ (Reclus, 6, 502) .

(٣) الْمَقْصُودُ مِنْ قَارِيَابٍ عِنْدَ الطَّبْرِى (ج ٢ ص ١٢٢٩ س ٣) هُوَ قَرِيَابُ — فَارَنْ
الطَّبْرِى ج ٢ ص ١٥٦٦ س ٣ .

ولكن قتيبة بعد أن دخل المدينة لم يخرج منها ، بل جعلها مدينة لحاميته العربية وقاعدة لفتوحات أخرى . فمن هناك تقدم في السنين الثلاث الأخيرة لولايته (من سنة ٩٤ إلى ٩٦ هـ) ، فدخل وادي زرفشان الأعلى ودخل أرض الشاش وفرغانة ؛ بل يروى أنه بلغ كشمير حتى اتصل بالصين^(١) . وتتفق رواية المدائني ، كما حكاهما الطبري ، مع رواية البلاذري في الجملة ، غير أن المدائني لا يذكر سجستان وكشمير ، ولكن أشعاراً كثيرة من ذلك العصر تؤيد رواية المدائني^(٢) .

وكان من عادة قتيبة أن يترك الأسراء في البلاد التي يفتحها على حالهم ، إذا صالحوه على إتاوة ، وإنما كان يضم إليهم رقباء أو نواباً من العرب في كثير من الأحيان ؛ أما بعض المواضع التي تكون لها أهمية كبيرة فكانت « تُستَعْمَر » ، إذا ساء أن نعبّر بالتمجير الروماني ، أي أنها كانت تُختار لتكون مقراً للعروبة وللإسلام ، وإن لم يُخرج منها أهلها السابقون وإن بقي لهم أيضاً فوق ذلك شيء من الاستقلال الإداري في ظل حكمهم القدماء . وكان لهؤلاء خاصة فرض الضرائب وجبايتها . وقد جُعِلَتْ سمرقند خاصة مقراً للجيس العربي . فجاءت إليها حامية قوية معدة بكل عدة الحرب ، فاحتلتها وهدمت بيوت النار ومعابد

(١) قارن الأشعار الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٢٧٩) فما بعدها وما ذكره البلاذري

ص ٤٢٦ س ١٨ .

(٢) أهم شعراء خراسان هم ثابت قطنه الأزدي (الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ فما بعدها) وكعب الأشقر الأزدي (الأغاني ج ١٣ ص ٥٦ فما بعدها) ونهار بن توسعة البكري (الأغاني ج ١٤ ص ١١٥) وزباد الأعجم مولى عبد القيس (الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ فما بعدها) والمغيرة بن حَبَشَاء التيمي (الأغاني ج ١١ ص ١٦٢ فما بعدها) ، وثم شعراء آخرون غير معروفين لا يذكرهم إلا الطبري . والفرزدق والكميت والطرماح ، كلهم أيضاً يتناولون بين حين وآخر أموراً من أمور خراسان ، وكان الشعراء يتعصبون دائماً لقبائلهم ، واهتمامهم بالأشياء وحكمهم عليها ينبعان ذلك ، رغم ما يقوله نهار بن توسعة في الكامل (ص ٥٣٨ س ١٥) . وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على ما يقوله الشعراء إلا مع الحذر ، وإن كانت أشعارهم فيما يتعلق بالحوادث المجردة في ذاتها يمكن أن تعتبر شواهد تاريخية لها قيمتها الكاملة .

الأوثان . و يروى أنه صدر الأمر بأن يحلوا عنها كل وثني من أيلته . وكذلك اتُّخِذَتْ فيما يظهر في خوارزم وبخارى إجراءاتٌ مماثلة ، وإن لم تبلغ من الصرامة مبلغ الإجراءات التي اتُّخِذَتْ في سمرقند . وقضى أيضاً على الوثنية في بخارى . أما الرواية القائلة بأنه كان فيها بيت للنار ومعبد وثني كانت الطواويس نوضع فيه فلا بد من إكمالها بالرواية القائلة بأن هذه المعالم الوثنية قد اختفت بعد ذلك^(١) ، وكان يقصد من هذه المدن المتقدمة أن تقوم بالنسبة للبلاد المحيطة بها مقام المدن العسكرية العربية مثل نيسابور وسمرقند وسمرقند وروذ وهراة بالنسبة لأرض خراسان . ولا شك في أن « استعمار » تلك المدن كان خطوة أبعد مما كان يطمح إليه المسلمون وبما كانوا قد وصلوا إليه في تلك الناحية وكان لهذا « الاستعمار » أثره الدائم في جعل بخارى وسمرقند وخوارزم أيضاً حواضر كبيرة انتشر منها الإسلام وصارت حواضر للعناية بالعلوم العربية .

وعلى هذا فلم يكن زهو العرب بما أصابوه من نجاح ، كما تعبر عن ذلك الزهو الأشعار الكثيرة ، زهواً أجوف ، وذلك أن الحرب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم . فقد كانوا في أول الأمر قلةً في العدد ، ولم يكن سلاحهم كافياً ، وكان بعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدراً لعقبات كبيرة قامت في سبيلهم ، وكان لا بد لهم أن يحملوا معهم المؤن والملابس التي تقيهم البرد ، ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزى إلا في الفصل المناسب لذلك من العام ، ولم يكن أعداؤهم بالذين يُستهان بهم . وكان العرب إذا حاصروا مدينة جاءت لنجدتها في معظم الأحيان جيوشٌ جرارة ، وهي كانت تأتي من بلاد بعيدة في الغالب ، وكان معظم هذه الجيوش يتألف من الترك ، وكان يقودها الترك أيضاً . والحق أن العرب كانوا يحاربون الترك من أجل السيطرة على تلك

(١) يجب أن لا يمزج عن البال بوجه عام أن الرعايا الإيرانيين لم يطالبوا قط بالدخول في الإسلام وأنهم قد تركت لهم الحرية في الدين .

النواحي ، وقد انتزعوها من أيدي الترك . وكان هذا في الواقع عملاً كبيراً استحق به العرب السيادة على الإيرانيين ، لأن هؤلاء ما كانوا ليستطيعوا أن يردوا الترك عن بلادهم . ويجب أن يُعزَى الشطر الأكبر من الفضل في ذلك لقتيبة بن مسلم قائد الجيوش العربية ، فقد شأى سلفه جميعاً ، وكان له عند كبار الإيرانيين من الهيبة أكثر مما كان للهلب وابنه يزيد^(١) . ولقد كان يسلك في الحرب مسلكاً قاسياً وخبيثاً ، وكان في سبيل الله وفي سبيل الإسلام لا يهرب الغدر^(٢) ، وكثيراً ما يرجع الفضل في نجاحه إلى قلة مبالاته بالمبادي^(٣) ، ولكنه لم يتميز بذلك عن الطراز المادي لمن تكون بيده القوة من العرب^(٤) .

على أنه لما بلغ قتيبة أوج مجده وقوته جاء سقوطه . وقد أثار هذا الحادث دهشة كبيرة في العالم الإسلامي ، والمدائن يدخل في روايته المفصلة في ذلك أجزاء من رواية لأبي مخنف . مات الوليد بن عبد الملك منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ (أواخر فبراير سنة ٧١٥ م) . وجاء بعده سليمان بن عبد الملك وكان يبعث الحجاج وأتباعه ، لأنهم سمعوا في أن يبعده عن ولاية الخلافة^(٥) . ولكن الحجاج أنقذه الموت من انتقام سليمان ، فاستطاع هذا أن يبرد نار الثأر في قتيبة . ثم جاء يزيد بن المهلب وعبد الملك بن الأهم فخرضاه على قتيبة وزادا من حنقه عليه . ولما بلغ قتيبة خبر موت الوليد وولاية سليمان الخلافة بعده كان مع الجيش في ميدان القتال بأرض فرغانة ، وقد كان يعلم أن مصيره لن يقتصر على العزل ، بل أنه سيتعرض لأن ينزل به ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، فلم يرَ أن يظل ساكناً حتى يحل به هذا

(١) قال الأصمعي : « لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى جحر في الأرض مكبلاً بالحديد ويزيد (ابن المهلب) معنا في بلادنا وإل علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد » ، وافد كان قتيبة في نظر الترك بمثابة ملك العرب — المترجم — الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ .
(٢) كتب الحجاج إلى قتيبة : اختلهم واقتلهم في الله — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ .
(٣) [ومن غير العرب أيضاً — المترجم] .
(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٤ — المترجم] .

كله ، غير أنه لبث حيناً من الزمان قبل أن يتخذ قراراً حاسماً^(١) . وقد أشار عليه أحد أخوته أن يبعث غزوة ويوجه فيها كل من يخافه ، وأن يسير حتى ينزل سمرقند ويقول لمن معه : « من أحب المقام فله المواساة ، ومن أراد الانصراف فخير مُستَكْرَه ولا متبوع بسوء » ، حتى لا يبقى مع قتيبة بعد ذلك إلا مُناصِح . وأشار عليه أخ آخر بأن يخلع سليمان على الفور وأن يدعو الناس إلى ذلك^(٢) . فآثر قتيبة أن يلفت الجيش كله معه في الثورة على الخليفة ، فخطب في مسجد فرغانة وبين لمثلى الجيش من هو ومن سليمان ويزيد بن المهلب ، وذكر للناس ما صنعه من التأليف بينهم والعدل فيهم وقسمه الفىء وإجرائه الأعطيات وتأمينه البلاد ، وقارن بين عهده وعهد الولاة قبله^(٣) ، ثم طلب من الناس أن يؤيدوه . ولكن الناس كانوا إذ ذاك في آخر حملتهم الحربية لتلك السنة^(٤) ، وكانوا يحتمون إلى الأهل والولد ، فلم يشعروا برغبة كبيرة في مشروع خطر بعيد النهاية ، ولم يجبه أحد منهم . ولم يكن قتيبة يتوقع ذلك ، فغضب وقد توازنه حتى صار لا يدرى ما يقول ، وانفجر ، وهو على المنبر ، يتناول باللوم والتقريع الشديد والتشنيع المؤلم جميع القبائل ، وذكر كل ما قيل في التشنيع عليها ولم يُوقر عرض أية قبيلة . ولما نزل

(١) يروى أنه كتب لسليمان ثلاثة كتب ، ولكنه لم ينتظر جوابها ، فعلم رسول سليمان ، وهو في حلوان ، بأخبار ثورة قتيبة ، أما ما يذكره ثابيل (1,555) من أن سليمان كتب لقتيبة كتابين فلا ذكر له عند الطبرى ، وفي ذلك من الخطأ أن قتيبة لا يزال يُعتبر موجوداً في مرو وأنه يؤمر بالخروج إلى فرغانة . وقبيلة باعلة التي كثيراً ما تعتبر هنا عند المدائني صاحبة تراث خاص ، قد حاولوا أن يبرئوا صاحبهم قتيبة ، انظر مثلاً (الطبرى ج ٢ ص ١٣١١) [ويجد الفارى أخبار الكتب الثلاثة التي كتبها قتيبة لسليمان عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٤ — ١٢٨٥ . على أن قيساً تزعم أن قتيبة لم يخلع سليمان ولم يخرج عن طاعته (الطبرى ج ٢ ص ١٣١١ — المترجم .]

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٦ فما بعدها — المترجم :]

(٣) [الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٧ — المترجم .]

(٤) من العسير أن يكون خبر وفاة الوايد قد بلغ فرغانة قبل شهر يولية ، ثم إنه قد مضى وقت بعد ذلك قبل أن يظهر قتيبة بخطته .

عن المنبر ودخل منزله أتاه أهل بيته ونبهوه إلى ما كان منه من إغضاب أعدائه وأنصاره على السواء ، فقال إنه لما لم يجبه أحد غضب حتى لم يذر ما يقول — ثم أعاد تشنيعه على القبائل .

وبذلك أسخط قتيبة كل من في الجيش من العرب واستفزهم بشتائم من شأنها أن تغضبهم أشد الغضب ، فمضى بعضهم إلى بعض سراً يتآسرون على خلع هذا الوالى الخائن للخليفة . وكان الأزد حاقين عليه من أول الأمر ، لأنه أخرج المهالبة . وكانوا أشد الناس ضيقاً به ، فتفاهموا مع حلفائهم من ربيعة وجملوا حُضَيْن بن المنذر البكرى مستشاراً لهم ، ولكن حُضَيْناً خشى منافسة مضر وتميم بما كان لهم من قوة ، وقال لهم : إن أخرجتم مضر من الأمر أعانوا قتيبة . فلما قالوا له إن تمياً موتورة من قتيبة قال لهم : لا تنظروا لهذا ، فإنهم ينعصبون للمضرية . وهكذا ترك الجبال لتميم لتكون هي البادية ، ونصح حُضَيْن قومه أن يجعلوا ارياسة في تميم وأن يختاروا وكيع بن الحسن بن أبى سود ، لأنه مقدم لا يبالى ما ركب ولأن له عشيرة كثيرة وهو مотор من قتيبة . والحق أن تمياً كانت غاضبة من قتيبة ، لأنه وترم بقتله ابن الأهم ، وذلك أن قتيبة كان قبل ذلك بسنوات في أثناء غزوة بخارى قد استخلف عبد الله بن الأهم على مرو ، فاغتم عبد الله ذلك للسمى بقتيبة والدمس له عند الحجاج ، واسكنه أخفق واضطر إلى أن يهرب إلى سليمان بن عبد الملك في الشام ، وكان سليمان إذ ذاك وائياً للهدد ، يصارع من أجل المحافظة على حقه . فانتقم قتيبة من أخى ابن الأهم ومن ابن عمه ، فأنار بذلك على نفسه الترة من جانب تميم^(١) . وفوق ذلك كان قتيبة نفسه قد أغضب وكيع بن الحسن بن أبى سود^(٢) ، سيد تميم ، وذلك أن وكيعاً انتصر مرة على الترك نصراً كبيراً ، فكتب

(١) البلاذرى ص ٤٢٥ فما بعدها ، والأغانى ج ٣ ص ٦١ والطبرى ج ٢ ص ٨١٧ و ١٣٠٩ فما بعدها و ١٣١٢ .

(٢) لا يصح الخلط بينه وبين سمية الذى قتل ابن خازم ، وكان تميمياً أيضاً ولكن من فرع آخر .

به قتيبة إلى الخليفة ولم يجعل مجد النصر لو كيع بن الحسن ، وهو الذي أحرزه واستحقه ، بل هو جعله لأخيه عمرو بن مسلم . ثم أغضب قتيبة وكيعاً أكثر من ذلك بأن أخذ منه قيادة خمس (فرقة) نعيم وجعلها لرجل من بني ضبة ، فتولى وكيع قيادة الثورة على قتيبة وأيده حيان النبطي^(١) ، أحد القواد الإيرانيين ، وكان قلبه مترعاً بالحنق على قتيبة لأسباب لا تحتاج إلى بيان (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٣) ^(٢) . وكان حيان هذا رجلاً خطراً في مركز متوسط بين السادة العرب وبين الموالى ، له تأثير كبير ، وكان يعرف كيف يدبر المؤامرات على نحو غير ما يعرفه العرب ، وكان له شأن خاص بحكم أنه زعيم الموالى ، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام ، وكانوا يؤلفون فرقة خاصة بهم تحارب في الجيش العربي ، وكانوا هم أنفسهم موالين لقتيبة ، ولكن حياناً عرف كيف يصرفهم عنه وينفرهم منه ، فقال للمعجم : هؤلاء — يقصد العرب — يقاتلون على غير دين ، فدعهم يقتل بعضهم بعضاً ؛ فأجابوه إلى ذلك .

وقد أنزل قتيبة في أول الأمر ما وصل إليه من تحذير منزلة كلام أهل الحسد ، ولكنه دهش أخيراً من أن وكيعاً صار لا يحضر مجلسه ، فدعاه إليه ، فتمارض ، فذهب إليه رسول قتيبة ، فوجده قد طلى على رجله مفرقة ، ووجد على ساقه خرزاً وودعاً ، وعنده رجلان يرقيان رجله ، فلما قال الرسول لو كيع : أجب الأمير ! قال : قد ترى ما برجلي ! فرجع الرسول إلى قتيبة ، وانتهى الأمر إلى أن أراد قتيبة تحل وكيع إليه بالقوة . فلما عرف وكيع ذلك قطع الخرز الذي كان على

(١) كان يسمى النبطي لأنه نبطي ، بل لا سكنته ، أى لأنه لم يكن يحسن النطق بالعربية (الطبري ج ٢ ص ١٢٩١) . [وكان حيان قائد جيش الموالى بخراسان ، وكانوا سبعة آلاف ، فعرض على وكيع أن يكف عنه على أن يجعل له وكيع خراج جانب نهر بلخ طول حياته — المترجم .]

(٢) [وكان قتيبة قد أمر بضرب حيان وحاقه — المترجم] .

رجله ولبس سلاحه وانتقل من فراش المرض المزعوم إلى ظهر فرسه . وقد خرج وخذّه ، ولسكنه جعل حوله جماعة كافية ، لكي يستطيع أن يهجم على قتيبة . أما قتيبة فلم يجتمع إليه إلا أهل بيته من إخوته وأبناء عمومته القلائل من باهلة وآخرون من ثقاته . أما الأعاجم وعلى رأسهم قائدهم حَيَّان — وكان قتيبة يعتقد أنه يستطيع أن يُعَوِّل عليهم — فقد انحازوا إلى المهاجرين . ونادى قتيبة في الناس ، فلم يُجِبْهُ أحد حَقّاً عليه ، فتمزى عن اليأس بالصبر ودعا ببرذون له مُدَرَّب ، كان يركبه في الزحوف ، فلما قُرَّب إليه ليركبه جعل يقمص حتى أعياه . فماد قتيبة إلى سريره أمام حصن فرغانة ، ينتظر ، وهو مستسلم ، تلك النهاية التي لا بد أن تنتهي إليها المعركة وشيكاً . فقتل إخوته وأنصاره وقتل هو أيضاً ، واحتز رأسه رجلٌ من الأزد . ولقد أخطأ قتيبة في تقدير ما ظن أنه يقدر عليه من إثارة الجيش معه على الخليفة . ولو أنه كانت له قبيلة تؤيده لجرى الأمر على غير ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها) . ولسكن لم يكن له ما كان يحتاج إليه ، فقد كانت باهلة قبيلة ضعيفة ، وتخلت عن قتيبة قيس التي كان يعتز بها ، كما تخلى عن مساعدته الأعاجم . ورغم قوة تلك الفكرة التي أراد بها أن يؤثر في الجماهير فإنها لم تأت له بأنصار ، لأنه ما كان يريد سوى المحافظة على نفسه وعلى منصبه . وليس من السهل على إنسان مهما كان كفوّاً عظيم القدرة ، ما دام لا يربطه بالعرب إلا منصبه ، أن يستطيع ضمّهم إلى جانبه عند ما يكون ثائراً على الساطة العليا التي يستند إليها في شرعية منصبه . وقد لقي عبيد الله بن زياد في البصرة وأخوه سلم بن زياد ما لقوا من عواقب هذه التجربة ، فقد أخطأ في الحساب ، لما ظنا أنهما يستطيعان المضي في حكم الولايات التي كانا عليها حكماً مستقلاً عن الخلافة ؛ وذلك أن أميراً أياً كان ، ما لم يكن في نفس الوقت رئيس قبيلة ، لا يستطيع شيئاً من غير الخليفة ، وهو أيضاً لا يستطيع شيئاً إذا أراد الخروج على الخليفة ، لأن القيمة الشخصية للأمر ليست كافية في أن تكفل له النجاح . على أن أسراء الأعاجم قد استنكروا مسلك العرب إزاء قتيبة

واعتبروا ذلك أشبه شيء بالانتحار . وقد كانوا على حق ، لأن سقوط قتيبة الحق بالسيادة العربية على النفور التي افتتحها وأسس فيها القواعد العربية ضربة قاسية^(١) .

وقد وقعت الكارثة في سنة ٩٦ هـ ، بحسب ما جاء عند الطبرى^(٢) ، وفي أول سنة ٩٧ هـ ، بحسب ما جاء عند ابن قتيبة . وبعد أن قُتل قتيبة ونال وكيع اعتراف القبائل بالإمارة له مؤقتاً طالب برأس قتيبة المقطوع ، فلما امتنع الأزدي الذي كانت عنده الرأس — لأن الأزدي حرضته على ذلك — أشار وكيع إلى خشب جاء به ونصبه وقال : « إن هذه الخيل (يريد الخشب المنسوب) لا بد لها من فرسان » ، ومعنى ذلك أنه يهدد المعتنمين عن الإنثيان بالرأس بأن يصلبهم . وقد كان لـكلمته تأثيرها ، فحُمِلَ إليه الرأس ، وأرسله إلى الخليفة ، لكنه أرسله مع رجال من قبائل شتى ولم يبعث من بني تميم أحداً ، لأن تميم لم تكن لترضى عن ذلك ، ثم خطب في المسجد^(٣) خطبة قصيرة افتتح بها عهده ، وكانت تتكون من مجموعة من أمثال بذينة تمّ عن روح العنف ومن أبيات من الشعر ، ولكنها كانت كافية للإفصاح عن رأيه ، وقال في آخر خطبته : « والله لأقتلن ولأصابن ثم لأصابن : إني والله دماً : إن مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى عليكم أسعاركم ، والله ليصيرن القفيز في السوق غداً بأربعة (دراهم) أو لأصابته — صلوا على نبيكم ! » . وهو يقصد من ذكر المرزبان ، فيما يظهر ، قتيبة ، كأنما كان قتيبة أحد كبار العلوج من الطراز الإيراني^(٤) . أما وكيع فقد ظهر بمظهر العربي من النموذج الأصلي

(١) [يذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٣٠٠) قول رجل من العجم : يامعشر العرب ! فتلّم قتيبة ؛ والله لو كان قتيبة منافات فينا لجمعناه في تابوت فسكنا نستفتح به إذا غزونا ، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٢ — المترجم] .

(٢) [تجد كل ما يتعلق بقتيبة بن مسلم وبثورته ومقتله عند الطبرى مثلاً (ج ٢ ص ١٢٨٣ — ١٢٩٧) — المترجم] .

(٣) لا شك أن ذلك كان في مرو لا في فرغانة [تجد خطبته عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٩٨ — المترجم] .

(٤) على أنه قد كان في مرو رجل يسمى المرزبان حقيقة ، وربما كان على الشرطة في السوق .

القديم ، وكان جاداً في إسلامه ، ولكنه مثلاً لم يكن يأخذ الناس بعقوبة الجلد التي جعلها القرآن حداً لبعض الجرائم . فقد جرى له يوماً بسكران ، فأمر به فُتِل ، فقتل له : « ليس عليه القتل ، إنما عليه الحد » ، فقال : « لا أعاقب بالسياط ، ولكنني أعاقب بالسيف » . ولما قتل قتيبة أسروكيع رجلاً فنادى . لا يُسلَبَنَّ قَتِيلٌ ؛ فَسَلَبَ رجلٌ من العرب أحد قتلى باهلة ، فضرب وكيعٌ عُنُقَهُ^(١) ؛ ومنع من مثل ذلك العمل منعاً شديداً . وهكذا كانت لو كيع طريقة الخاصة . وقد أقره سليمان بن عبد الملك في الولاية في أول الأمر ، ولكن بعد تسعة أشهر أو عشرة حل محله يزيد بن المهلب ، فتولى خراسان إلى جانب ولايته العراق ، وكان عليها من قبل . وكان ليزيد ، خلافاً لقتيبة ، قبيلة وراءه تشد أزره ، والإنسان يلاحظ ذلك . ولما ولي يزيد وصلت الأزد إلى دفة الحكم وإلى موارد الغنائم ، وأزيلت تميم عن مكانها ، ولقي وكيع من العذاب ما لقي . هذا إلى أن يزيد بن المهلب جاء بجند من جند الدولة في الشام فأدخلهم إلى خراسان ، بعد أن كان الحجاج قد تعمد أن يحملهم بعيدين عن خراسان (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧) ، وكان لا يستعملهم إلا في الهند . وملاً يزيد جميع المناصب بأبنائه وأقربائه كما هي العادة ، وكان يحس في خراسان أنه في بيته ، فكان في خراسان أقل تخرجاً مما كان في العراق . وقد أتاحت له في الولاية الجديدة فرصة أكثر مواناةً للنهب وابتزاز الأموال ، وكان لا بد له من المال في حاجاته الغالية الثمن — مثل الجوارى الحسان — لأنه كان يظهر بمظهر الأبهة الكبيرة .

ويُروى أنه كلما كان قتيبة يفتتح فتحاً ، كان يُسرُّ به سليمان بن عبد الملك^(٢) ، فيقول ليزيد بن المهلب : « أما ترى ما يصنع الله على يدي قتيبة ! » ، فيجيب

(١) [تدل هذه القسوة على شطوط في العقوبة يتجاوز حدود الشرع مبالغة في الردع دون أن تدل على استنكار للحدود الشرعية — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٢٧ — المترجم] .

يزيد بأن هذه الفتوح ليست بشيء وأن الشأن لجرجان التي تحول بين الناس وبين الطريق الأعظم إلى خراسان . والواقع أن البلاد الجبلية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر الخزر كانت منطقة تقطع اتصال الأرض الإسلامية قطعاً يضايق مواصلات الدولة . فلما ولي يزيد بن المهلب خراسان لم يكن له همٌّ غير فتح جرجان ، واسكن لم يدعُه إلى ذلك شعوره بما يوجب عليه الشرف ، بعد أن قال في فتوحات قتيبة ما قال ، بمقدار ما دعت إليه فرصة سانحة أتاحت له فتح جرجان^(١) . وذلك أنه كان في جرجان في ذلك الوقت نزاعٌ على الملك بين الأمير فيروز بن قول مرزبان جرجان وبين ابن عم له يقال له المرزبان ، وكان المرزبان هذا حليفاً لصول التركي صاحب دهستان . فقر فيروز وقصد إلى يزيد ابن المهلب وطلب الممونة منه ، وفي ربيع سنة ٩٨^(٢) هـ خرج يزيد في جيش جرّار لا نظير له من قبل ، وكان الجزء الأصغر منه من أهل خراسان ، أما الأكبر فكان يتألف من أهل العراق ومن أهل الشام . فأعاد فيروز إلى عرشه من غير قتال ، وكان فيروز قد أشار على يزيد باستدراج الصول من معقله في الجبال إلى البحيرة ، ففعل ، وحاصره فغلبه ، ويقال إنه قتل أربعة عشر ألفاً من أسرى الترك صبراً وإنه غنم غنائم لا يمكن إحصاؤها . وبعد أن تمّ ليزيد إخضاع أرض دهستان وبياسان تقدم قاصداً أصهبذ طبرستان ، فبعث إليه الأصهبذ يطلب

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣١٧ فأبعدها ، خصوصاً ص ١٣٢٣ فأبعدها — المترجم] .

(٢) يروى أن ذلك كان في سنة ٩٨ هـ ، ومن البديهي أن تكون الحملة قد بدأت

في الربيع ، وهو يقع في النصف الثاني من هذه السنة ، ولا يمكن أن تكون الحملة قد استمرت إلى ما بعد الخريف ، وفي الخريف كان في الشام موت سليمان بن عبد الملك ، فخلفه عمر بن عبد العزيز ، وقد أعقب هذا التغير في الخلافة سقوط يزيد بن المهلب . وإذا كان هذا هو الثابت ، فإنه لا يمكن أن يكون حصار الصول قد دام ستة أشهر وحصار المرزبان قد دام سبعة أشهر . أما الصحيح فهو أنه لا بد أن يكون يزيد قد خرج إلى جرجان بعد وصوله إلى خراسان بثلاثة أشهر أو أربعة ووصوله كان في النصف الأول من سنة ٩٨ هـ . وكان قد أرسل ابنه مخلداً ليسبقه إلى خراسان .

الصلح ، فأبى يزيد ، رجاء فتح طبرستان عنوة ، لأن ذلك يؤتیه غنائم أكثر .
ولكن يزيد هزم هزيمة كبيرة ، ووجد أنه في نفس الوقت مهدد في ظهره بسبب
ثورة في جرجان ، وعند ذلك لجأ إلى حيان النبطي ، رغم ما كان منه من إساءة
إلى حيان ، لكي ينصح له ويتوسط في الصلح ، فذهب حيان إلى الأصهبذ
وقال له : « أنا رجلٌ منكم ، وإن كان الدين قد فرّق بيني وبينكم ، وأنت
أحبُّ إلى من يزيد . وقد بعث يستمدّ ، وأمدّاهُ منه قربة ، وإنما أصابوا منه
طرفاً ، وأست آمنُ أن يأتيك ما لا تقوم له ، فأرخ نفسك منه وصالحه ، فإنك
إن صالحته صيرّ حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا » ، فصالح
الأصهبذ على إناوة اتفق مع حيان عليها ، ورجع حيان إلى ابن المهلب وأبلغه
شروط الصلح ، فلم يكذب ابن المهلب يصدق ، من سوء ما كان يتوقع . حتى إذا
تخلص ابن المهلب من هذا المأزق رجع إلى جرجان . وكان المرزبان قد ثار فيها
من جديد والتجأ إلى حصن ، فاستولى عليه ابن المهلب بعد حصار طويل . وكان
ابن المهلب ، بعد أن نكث أهل جرجان وغدروا بحنده ، قد أعطى الله عهداً
لئن ظفروهم ألا يُقْلِع عنهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم
ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه ، فبعد أن انتصر أراد أن يبرييمينه ،
فأجرى الماء في الوادي على الدماء ، وكان على الوادي أرحاء ، فطحن واختبز
وأكل . ثم بنى مدينة جرجان ، ولم تكن قبل ذلك مدينة . وكتب يزيد
ابن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بالفتح العظيم الذي تمّ على يديه ،
ويقول إنه كان قد أعياى ملوك الفرس وخلفاء الإسلام ، حتى فتحه الله لسليمان
ابن عبد الملك ، فافتخر بذلك الفتح الذي لم يكن رائعا ولم يكن على كل حال
إلا فتحاً مؤقتاً . غير أنه في كتابه أخبر الخليفة أنه قد صار عليه من خمس الف ،
بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الف والغنيمة ، أربعة آلاف وستة آلاف
ألف درهم ، ووعد بأنه سيحملها إلى الخليفة . وقد نصح يزيد كاتبه ألا يرتبط

مع الخليفة ببيان مقدار المال تجنُّباً للتناجح المتنوعة التي تنتج عن ذلك ، فأبى يزيد ومهد بما فعل إلى نزول القدر الذي يستحقه ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك توفي في صفر سنة ٨٩٩ هـ ، في صيف^(١) السنة التي كانت فيها الحملة الحربية على جرجان ، وجاء بعده عمر بن عبد العزيز ، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال يزيد بن المهلب إنه إنما كتب بذلك إلى سليمان ليستمع الناس به ، فقال له عمر إن تلك الأموال إنما هي حقوق للمسلمين لا يسهه تركها ، وطلب من يزيد أن يؤدِّيها . فلما لم يفعل حبسه حتى يؤدي ما عليه .

٤ — لقد ارتفع شأن الأزدي في خراسان بارتفاع المهالبة ، وهم كذلك سقطوا بسقوطهم ، فتأخروا إلى المحل الثاني وانتقلوا إلى جانب المعارضين للحكومة . وقد كان عمر بن عبد العزيز إنما خالف سلفه من الخلفاء بأن لزم الحياد بالنسبة للأقبائل ، ولم يظهر بمظهر العداء للأزد ، وإن كان قد قضى على سطوتهم بأن عزل رئيسهم يزيد بن المهلب . ولكن لما انتهى عهد عمر بن عبد العزيز وجاء عهد خلفه بدأ ردُّ فعلٍ قوامه التعصُّب على الحزب الذي ملأه سليمان بن عبد الملك ، وخصوصاً بعد القضاء على تلك الثورة الكبيرة التي كان المهالبة قد قاموا بها في العراق ، فلما جاء يزيد بن عبد الملك جعل الانتقام من المهالبة وأنبياءهم شعار حكومته ، وقد ذاق وبال ذلك من كان من الأزدي في خراسان أيضاً ، وإن لم يكونوا قد اشتركوا في تلك الثورة على الإطلاق . فأقصى المهالبة عن جميع مناصبهم وعُذِّب رؤسائهم وأسلموا لجاهل لسي ينتقموا منهم لمقتل قتيبة بن مسلم ، وعادت السيادة لمصر مرة أخرى وعلى رأسهم تميم ، ولكن الأمير نفسه لم يكن من تميم ، وإن كان منها في كثير من الأحيان نائبه صاحب الشرطة ، وهم جنود الحكومة الملازمين لاماصمة ،

(١) سبتمبر سنة ٧١٧ هـ ، وكان الانتقال من سنة ٩٨ — ٩٩ هـ يقع في منتصف أغسطس سنة ٧١٧ م .

بل كان الولاة دائماً من قيس ، وكان منها عمال الدولة منذ أيام الحجاج . ولكن ارتباط أمراء قيس برابطة النسب القبلي وتسكويهم حزبا واحدا لم يكفهم عن العداوة والشرف فيما بينهم ، فكان الخلف منهم في الغالب يعذب سلفه ويبتز منه المال بدعوى أنه يطالب بما كان تحت تصرفه من أموال الدولة ، وكان الأمير يفعل مثل ذلك مع العمال الذين استعملهم سلفه ؛ وكانت هذه هي صورة المسؤولية الوزارية عند العرب . وكان التغير المستمر المفاجئ في الحكومة عائقا دون تنفيذ سياسة متصلة ، وكان الحكم امرا شخصيا محضاً ، وكان بمثابة سياسة نهب يسرع الوالى في استثمارها أو في التهام الغنيمة التهاماً ، إذا صح التعبير . ولم يكن ذلك مقصوداً على خراسان ، لكنه كان يجرى فيها على أرقح صورة وعلى أخطرها أيضاً ، لأن الحاجة إلى حكومة ثابتة الأركان دائمة السلطان في تلك البلاد النائية الممرضة لهجمات الأعداء كانت أشد ما تكون ، وكان من تأثير هذه الظروف أنه لم تلبث أن تزعت أركان الفتوحات التي قام بها قتيبة بن مسلم ، وصارت الحاجة دائماً تدعو إلى إعادة فتح ما فتح . وقد أمكن بطبيعة الحال الاحتفاظ بالقواعد الثابتة التي أسسها قتيبة للعروبة والإسلام في بلاد السند ، خصوصاً سمرقند وبخارى ، كما أن العمل على صبغ تلك البلاد بالصبغة الإسلامية استمر هناك وازداد . ولكن نشأ من ذلك خطر جديد على السيادة العربية لم يكن متوقفاً ، ولم يزل خطبته يتفاقم باستمرار فقد كان الأمير الذي وجهه عمر بن عبد العزيز إلى خراسان ليحل محل يزيد بن المهلب هو الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان من مدرسة الحجاج ، فعزا الختل في أرض Paritacene بعد أن لم يكن قد غزاهم أبداً من قبل غزواً يستحق الذكر ، وكتب الجراح بنخبر الخليفة بذلك^(١) . وأوفد وفداً : رجلين من العرب ورجلا من موالى بني ضبة يُكنى أبا الصيداء . وكان أبو الصيداء هذا رجلاً فاضلاً في دينه ، فتكلم العربيان ، وهو جالس لم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٣ فما بعدها — الترجمة] .

يتكلم ، فقال له عمر : « أمّا أنت من الوفد ؟ » قال : « بلى » ، قال : « فما ينمك من الكلام ! » . وهنا وجد أبو الصيداء — وإن كان عربياً بالولاء^(١) — أن الدين يقضى عليه بأن يقول كلمة طيبة في مصلحة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! عشرون ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة ، يؤخذون بالخراج . وأميرنا عَصِيٌّ جَافٌ ، يقوم على منبرنا فيقول : « أَتَيْتُكُمْ حَفِيًّا ، وأنا اليوم عَصِيٌّ ، والله لرجلٌ من قومي أحبُّ إلى من مائة من غيرهم ... » ، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان » ، فقال عمر : « إِذَنْ مِثْلُكَ فَلْيُوفِدْ » ، وكتب عمر إلى الجراح يأمره بأن يضع الجزية عن كل مسلم ، فسارع الناس إلى الإسلام^(٢) ولما قيل للجراح : إن الناس إنما سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية ، ونصحوه أن يمتحنهم بالختان ، كتب بذلك إلى عمر ، فردّ عليه عمر يقول : « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعثه خائناً . واستدعى عمرُ الجراحَ ثم عزله بعد أن كان قد قضى في الولاية ما يقرب من عام ونصف ، وذلك في رمضان سنة ١٠٠ هـ (أبريل سنة ٧١٩ م) ، وعين مكانه والياً أكثر ليناً ، وكان ضعيفاً يحب العافية^(٣) ، وهو عبد الرحمن بن نعيم الغامدي ، وكان أزدياً ، لكنه لم يكن من أزدي عمان ، أعنى من الحزب الأزدي في خراسان . وقد جمعه عمر على الحرب والصلاة ، وضم إليه على الخراج عبد الرحمن بن عبد الله القشيري من قيس ، وكان رجلاً ذا همة وإقدام . وبقى ابن نعيم بعد موت عمر في منصبه حيناً ، ثم عُيِّن مكانه في سنة ١٠٢ هـ سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص أحد الأسراء الأمويين ، وهو المعروف باسم سعيد خُدَيْفَةَ ، لأنه كان رجلاً

(١) وكان لا يعرف الفارسية (الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧) ، أما إنه كان مولى ، فإن هذا لا يجمله إيرانياً .

(٢) فدخل في الإسلام كثير من الملوك فيما وراء النهر (البلاذري ص ٤٢٦) .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٦ — المترجم] .

لينا سهلاً ممتعاً^(١). وقد زاد بأمر يزيد بن عبد الملك في الإساءة إلى الأزد وفي معاداتهم ، ولكنه لم يشتد في معاملة الأعاجم ، أو على الأقل في محاربة السغد الذين كانوا قد ثاروا على العرب في ذلك الوقت بجهة سمرقند — ولم يشوروا في العاصمة نفسها — ولحقوا بالترك ، بعد أن كانوا قد عادوا إلى الهجوم على ما حولهم ، وساعدوهم على العرب . وبسبب هذا اللين الذي بدا للعرب أنه قد وُضع في غير موضعه عُزل سعيد خديجة عن منصبه ، وعُين مكانه سعيد بن عمرو الحرشي^(٢) . فاشتد سعيد مع أهل الفتنة ، وخافوا على أنفسهم منه ، فأجمعوا على الخروج من بلادهم والهجرة إلى فرغانة . ولم يكن للعرب في فرغانة ما كان لهم في غيرها من سلطان . وقد هاجر منهم خاصة أهل مدن قتي وإشتيخن وبياركت وبنجيكت وبزماجن^(٣) ، وقد خرجوا معهم أسراؤهم وعلى رأسهم كارزنج صاحب مدينة قتي ، وكان في الحقيقة شأنه شأن غيره من أسراء السغد تركي الأصل^(٤) . وقد توجه معظم المهاجرين^(٥) إلى مدينة خجندة (خوكند) على نهر الشاش ، ولكن سعيداً اتبعهم وحصرهم في مدينة خجندة . وكان ملك فرغانة

(١) الطبري ج ٢ ص ١٣٥٧ ، ١٤١٧ ، ١٤٢١ ، ١٨٦٧ ، والبلاذري ص ٤٢٧

وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ .

(٢) ينتمي إلى بني الحريش بن كعب من أهل الجاهلية .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٤٣٩] وكانت إشتيخن وبزماجن تقمان غير بعيد من سمرقند ،

أما بنجيكت فهي ليست مدينة أشروسنه ، بل المدينة المسماة بالاسم نفسه قرب سمرقند ، وكذلك كانت مدينة قتي (الطبري ج ٢ ص ١٤٢٢ س ١٦ و ١٤٤١ س ٤) تقع قريباً من سمرقند على نهر زرفشن . وفيما يتعلق باسم بياركت قارن الاسم العلم بيار عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦ س ١٠) . والمقطع ك هو أشهر مقطع يرد في آخر أسماء المدن .

(٤) في بيت الشعر المذكور عند الطبري (ج ٢ ص ١٢٨١ س ٥) وهو منقوط ،

كتبت كلمة كارازنج بدلا من كلمة كارزنج ، قارن الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦ س ١٠) . وبحسب الطبري (ج ٢ ص ١٤٢٢ س ١٦) كان ملك قتي ، وكان يلقب هناك بلقب ترك خاقان ، في أول الأمر مديناً للعرب .

(٥) خلافا لما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٤١ س ٧) و ص ١٤٤٦ (فابعدا) ؟

قارن الطبري (ج ٢ ص ١٤١٨ س ١) .

قد أخبر سعيداً بأمرهم وأشار عليه بأن يعاجلهم لأنه لم يكن لهم جوارٌ عنده ، ولم يكن قد حل الأجل المضروب لدخولهم في جواره . وهكذا خاب ظن المهاجرين في معونة ملك فرغانة لهم ، فسألوا وطلبوا الصالح والأمان والعودة إلى بلادهم ، على أن يؤدوا ما عليهم من إتاوة وينفذوا شروطاً اشترطها عليهم . وكان من هذه الشروط أن يردوا من في أيديهم من نساء العرب وأن لا يقتلوا أحداً وإلا حلت دماؤهم . ولكن أحد أسرائهم قتل امرأة كانت في أيديهم ، فلما تيقن الحرثي من ذلك قتل أميراً لهم . وخاف كازنج مثل هذا المصير على نفسه ، وكان نازلاً عند العرب ، فاحتال في طلب المعونة من ابن أخيه ، وقال لأيوب بن أبي حسان الذي كان نازلاً عنده : « إني ضيفك وصديقك ، فلا يحمل بك أن يُقتل صديقك في سراويل خالق ؛ فخذ سراويلي » ، ثم قال : « وهذا لا يحمل ، أن أقتل في سراويلاتكم ، فترشح غلامك إلى جلنجج ابن أخي بجيئني بسراويل جديدة » . وكان قد قال لابن أخيه : إذا أرسلت إليك أطلب سراويل ، فاعلم أنه القتل^(١) . فجاء جلنجج وحاول الهجوم على معسكر المسلمين ، ولكنه أخفق . وكان السغد قد قتلوا أسرى من المسلمين في أيديهم ، فعند ذلك أمر الحرثي بقتل جميع جنود السغد ، الأسراء ومن معهم . وقد حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم بالخشب ، لأنه لم يكن معهم سلاح ؛ ولكن ذلك لم يُغن عنهم شيئاً . وفي اليوم التالي قتل الحرثي عدة آلاف من الحرّاثين . على أنه كان في اليوم السابق قد عزل التجار ولم يقتلهم ، وكان معهم مالٌ عظيم قدموا به من الصين ، وكان عددهم أربعمئة ، ورغم ذلك بقي في فرغانة كثير من أهل السغد ، لأنهم لم ينزلوا جميعاً في مدينة خُجَنْدَة (الطبري ج ٢ ص ١٦١٣ فما بعدها و ١٧١٧) .

(١) [نظراً لأن المؤلف يختصر اختصاراً لا يكون معه الكلام مفهوماً تماماً ، فصاننا

الترجمة بعض الشيء طبعاً للطبري ج ٢ ص ١٤٤١ — ١٤٤٩ — المترجم] .

وأخضع الحرشي ، وهو في طريقه راجعاً ، مدناً وقلاعاً أخرى كانت قد شقت عصا الطاعة ، وقد غلب عليها صلحاً وتسليماً في معظم الأحيان . ولكنه كان إذا عرف أن في القلعة مالاً كثيراً صالح أصحابها بعد قبض ما في القلعة^(١) . وقد أراد عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق — وكان الحرشي تابعاً له — أن يجعل من ذلك سبباً للوجدة على الحرشي^(٢) ، ولكن هذا الغضب كانت له في الحقيقة أسباب أخرى ، وذلك أن سعيداً الحرشي كان في كثير من الأحيان يتجاهل ابن هبيرة ، وهو أيضاً لم ينفذ أسراً له باستخراج الأموال من قوم من العرب كانوا في خراسان ، وكانت أهواؤهم مع ابن المهلب^(٣) . هذا إلى أن ابن هبيرة وجه معقل بن عروة إلى هراة ، فلم يمر على الحرشي ، بل قصد إلى هراة رأساً . فأمر الحرشي بحمله إليه وسأله : « ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة ؟ » فأجاب : « أنا عامل لابن هبيرة ، ولأني كما ولأك » ، فضربه الحرشي مائتين وحلقه ؛ ولهذا عزله ابن هبيرة وأمر بأن يحمل من سره إلى الكوفة مقيداً ، وعذبه ونفخ في بطنه النمل . وكان ذلك مظهراً من مظاهر العداء بين رجال قيس الذين كانت لهم السيطرة الكاملة في عهد يزيد بن عبد الملك ، وذلك أن كلاً من ابن هبيرة وسعيد الحرشي كان قيسياً ، وخصوصاً ابن هبيرة نفسه^(٤) ، وهذا في الوقت نفسه مثال يُقنع المتأمل ويبين كيف كان رجال قيس لا يباليون بجميع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٤٧ — ١٤٤٨ — المترجم] .

(٢) [راجع في معرفة أسباب وجدة ابن هبيرة على الحرشي الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦ — ١٤٥٧) — المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٥٩ — ١٤٦٠ — المترجم] .

(٤) [لم تكن أم الحرشي عربية وهذا ما يؤخذ مما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٦ —

١٤٥٧) — المترجم] .

الاعتبارات إذا كان الأمر أمر المناصب وأمر الجشم في طلب المال^(١) — ومع هذا كانوا يبدأ واحدة على من عدا قيس .

، وجاء بعد سعيد الحرشي مسلم بن سعيد بن أسلم الكلابي^(٢) . وهو أيضاً قيسى تخرج في مدرسة الحجاج ، وكان الحجاج قد ضم مسلماً ، بعد أن مات أبوه ، إلى أولاده فتأدب معهم وتبل . وكان عدى بن أرطاة قد ولي مسلماً من قبل ولاية خفيفة لكي يبدأ حياته ويرتفع ، فقام بها وضبطها وأحسن ، فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل مسلم الأموال التي كانت تحت يده إلى الشام . فلما قدم ابن هبيرة على العراق أجمع على أن يوليه ولاية ، فدعاه ليلة إلى سمره ، ويظهر أنه أعجب به ، فعقد له على خراسان وعهد إليه بأخذ أموال من قوم أغنياء كانوا قد اقتطعوها وأنهم مهم أعيان العرب في خراسان بأنها عندهم . ولم يكن ابن هبيرة يبالي من أين يأتي المال ، مادام يصل إليه^(٣) . وواصل مسلم الحرب مع السغد والترك ، ففي ربيع سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) جهز حملة على فرغانة وخرج فيها^(٤) ، ولكن الأزد وربيعة وثبوا في طخارستان وامتنعوا من اللحاق به^(٥) ، وكان

(١) [تدل الروايات المتقدمة في المداوة بين ابن هبيرة والحرشي على أنها نشأت خصوصاً من كبرياء الحرشي واستخفافه بابن هبيرة — المترجم] .

(٢) [راجع فيما يتعلق بولاية مسلم على خراسان الطبري ج ٢ ص ١٤٥٧ — ١٤٦٣ — المترجم] .

(٣) [لا يؤخذ هذا بسهولة مما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٩ — ١٤٦١) ، وقد حاولنا بقدر الإمكان التمسح مع الأصل العربي — المترجم] .

(٤) ليس من الواضح إن كان مسلم قد افتتح أفشينة في هذه الحملة ، أو هو فتحها قبل ذلك ، وأفشينة مدينة تلحق بكور سمرقند (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٢ س ٩ و ١٤٦٣ س ١ و ١٥١٧ س ٨) . أما البلاذري (ص ٤٢٨ س ٣) فهو يجعل اسم الأفشين اسم علم على شخص .

(٥) [(راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٧٣ فما بعدها — المترجم)] .

على رأسهم عمرو بن مسلم الباهلي ، أخو قتيبة بن مسلم^(١) ، فبعث مسلم خليفته نصر بن سيار الكنانى ، فهزمهم عند بروقان ، وكانت مقراً للحامية العربية فى ا بلخ ؛ ولم يكن من شأن ذلك أن يؤلف بين مضر واليمن . وبعد ذلك سار مسلم بنفسه حتى إذا وصل إلى بخارى بلغه الخبر بوفاة يزيد بن عبد الملك ، وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان سنة ١٠٥ هـ — يناير سنة ٧٢٤ م) وأن هشاماً عزل ابن هبيرة القيسى وعين مكانه على العراق خالد بن عبد الله القسرى (من بجيلة) ، فكان من أثر ذلك أن هرب كثير من جنده ، ولكنه مضى فى المسير حتى جاوز خجندة ودخل أرض الترك ، ولكنهم هجموا عليه وهزموه ، فلم يستطع أن ينصرف راجعاً إلى خجندة عبر نهر الشاش إلا بمشقة كبيرة^(٢) . وهناك بلغه خبر عزله (سنة ١٠٦ هـ — صيف أو خريف سنة ٧٢٤ م) ، فجاء بعده أسد بن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق ، وكان أسد لا يزال شاباً .

وكان أسد ، شأنه شأن أخيه ، يميل إلى قبائل اليمن ، وإن لم يكن فى الحقيقة ينتسب إليهم من حيث القبيلة . وذلك أن بجيلة كانت مثل باهلة ، تقف خارج مجموعات القبائل المتنازعة . فغضب^(٣) قوماً من عرب خراسان أصحاب المناصب الكبيرة ، منهم البخترى بن أبى درهم البكرى^(٤) (من جارث بن عباد) ،

(١) كانت باهلة تنير موقعتها من مجموعات القبائل بحسب الظروف لأنها لم تكن بطبيعتها تنتمى إلى مجموعة ما .

(٢) فى رواية قصيرة ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦٢ — ١٤٦٣) . مقدماً ، وفى فى الحقيقة نفس الرواية التى يذكرها فيما بعد (ص ١٤٧٧) ، فابعداً ، نجد أنه يذكر نهر بلخ ، مع أنه لا يمكن أن يكون إلا نهر الشاش ، والعرب يقولون فى كثير من الأحيان : " النهر " غصب ، ويتركون معرفة أى نهر هو المقصود لمعرفة القارىء بالجغرافية .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٧ فابعداً] — المترجم .

(٤) [يسمى ابن درهم وابن أبى درهم الطبرى ج ٢ ص ١٤٧٣ ، ١٤٧٥ ،

١٤٩٩ ، ١٦٠٥ — المترجم] .

فاحتمل العذاب من غير جزع ، لأن نصر بن سيار لقي من العذاب مثل ما لقي .
وكان البختری يتغص نصر بن سيار بسبب يوم البروقان^(١) ، وكان بعض العمال
الذين عينهم أسد بن عبد الله من الأزد ، ولكن فرّح الأزد بخروجهم من الظلام
إلى ضوء الشمس لم يدم طويلاً ، وذلك أن الخليفة أمر بعزل أسد في سنة ٥١٠٩ هـ ،
وكان أسد يوادّ دهاقنة خراسان ، فصحبوه إلى المراق^(٢) .

وكان الوالي الذي جاء بعده هو أشرس بن عبد الله السلمي^(٣) ، وكان أيضاً
من قيس . فحاول أن يهدى* ثائرة السغد المعاندين ، سالكاً في ذلك الطريق
الذي سلكه عمر بن عبد العزيز . وكان الذي دعاه إلى ذلك كاتبه عميرة اليشكري ،
أحد الموالى من الأعاجم ، وبعث أشرس يدعو ذلك الرجل الذي كان ذهب في
وفد من أهل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز وكان سبباً في أن عمر أمر بالمساواة
بين العرب وبين الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام ، وهو أبو الصيداء صالح
ابن طريف مولى بني ضبة ، فوجهه إلى بلاد السغد لدعوة أهلها إلى الإسلام ،
على أن يضع الجزية عن من يدخل منهم في الإسلام ، فذهب أبو الصيداء ، ومعه
قوم من العرب على رأيه وطريقته ، قاصداً سمرقند ، فساعده على ما أراد ابن أبي
العمرطة الكندي ، وهو ابن ذلك الشيعي السكوفي الذي كان قد خرج بسيفه
من قبل يحارب من أجل حجر بن عدي ، وكان ابن أبي العمرطة إذ ذاك والياً

(١) قارن على كل حال الطبري (ج ٢ ص ١٥٣٠) .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٧ فابعدا] . ثم رجع أسد إلى خراسان فيها بعد
والياً ، والبلاذري يجمع ولايته معاً ، ورواية المدائني كما هي عند الطبري مضطربة فيما تضمنته
من ذلك ، وإذا كان أسد قد نقل مقر ولايته إلى بلخ فلا شك أن ذلك كان في أثناء ولايته
الثانية ، لأننا نجد بعد ذلك أن مرو قد صارت مقراً لولايته مرة أخرى ، ولا نجد ذكراً لتغيير
في ذلك ، ويجوز أيضاً أن يكون ضرب نصر بن سيار قد وقع في ولاية أسد الثانية . أما
ولايته الأولى فليس المعروف عنها بكثير .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٠٤ فابعدا و ١٥٠٧ فابعدا — المترجم] .

على حرب سمرقند وصلاتها : وقد نجحت دعوة أبي الصيذاء نجاحاً كبيراً ، فأنشئت مساجد كثيرة وأخذ الوثنيون يدخلون في الإسلام زرافات ، ولكن من العجيب أن الدهاقين الذين كانت الحكومة العربية قد تركتهم على سلطانهم لم يكونوا راضين بذلك ، لأنهم كانوا هم المسئولين عن تحصيل الجزية ، وكان من العسير عليهم أن يحصلوا على الأموال الكبيرة — وكانت مفروضة عليهم بمقدار لا يصح أن ينقص — إذا سقطت الجزية بسبب الدخول في الإسلام عن كان يدفعها حتى ذلك الحين . ولهذا شكروا لأشرس وقالوا له : « بمن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً^(١) ؟ » ويذكر من الدهاقين الذين جاءوا إلى أشرس دهاقين بخارى وخصوصاً غوزك ، أخشىد سمرقند الذي عرفنا أسره أيام قتيبة . فحاول أشرس أن يتخلص من نتائج عمله ، فبدأ بتضييق الطريق على الداخلين في الإسلام ، وذلك بأن أخذ يطالبهم بالاختتان وإقامة الفرائض وقراءة سورة من القرآن ونحو ذلك ، فلما لم يكف هذا عزل ابن أبي العرطه وعين مكانه عمالاً آخرين وأمرهم أن يأخذوا الجزية ممن كانوا يأخذونها منهم ، فأعادوا الجزية على من أسلم ، فامتنع هؤلاء من دفعها ، واعتزل قوم من أهل السغد ، وكانوا سبعة آلاف ، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند ، وكانوا حائقين . وخرج أبو الصيذاء وقوم معه من مختلف قبائل العرب (من تميم والأزد وبكر) لينصروهم ، وكان منهم ثابت قطنة الشاعر وأبو فاطمة الأزدي وبشر بن جرموز وغيرهم ؛ ولكن أمكن صرف هؤلاء العرب بشيء من الشدة وشيء من السياسة عن القضية التي تعصبوا لها ، وبذلك فقد المتمردون في سمرقند من يؤيدهم وأعيدوا إلى خضوعهم القديم ، وألح العمال في جباية الجزية واستخفوا بأشراف العجم وعظماؤهم وعاملوهم معاملة غير كريهة^(٢) .

(١) [يقصدون أنهم قد تعربوا أي أصبحوا مسلمين على دين العرب — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧ — ١٥١٠ — المترجم] .

ولسكن المشكلة لم تنته بذلك ، وكان العدول عن سياسة المسالمة والعودة إلى سياسة الشدة سبباً في إثارة السغد في جميع تلك الناحية وفي إسقاطهم إلى أكبر حد ، وهم لكي يتحرروا من سلطان العرب استجاشوا الترك . و يروى أن خسرو ، أحد أبناء يزدجرد آخر ملوك الساسانيين ، كان معهم . وكان مركز الثورة في واحة بخارى ، وجاء الخاقان إلى هناك ، ومعه جيش كبير من الترك والفرس . وفي سنة ١١٠ هـ ، في أواخر هذه السنة على الأرجح^(١) ، أعنى في ربيع سنة ٧٢٩ م ، خرج أشرس على رأس الجيش العربي من مرو لكي يدرأ ذلك الخطر ، ولسكن الترك سدوا أمامه طريق العبور على نهر باخ ، فلم يستطع أن يعبره ويتقدم إلى بيكند ويمسك فيها إلا بعد فترة جهد وقتال . وعند ذلك قطع الترك عنه الماء وأصاب الجيش من العطش جهداً شديداً ، فمات منه سبعائة ، وعجز الناس عن القتال . وأخيراً قام الحارث بن سريج فحضر الناس وقال لهم : القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً ، وتقدم بعض الفوارس فخطروا بأنفسهم وقتل بعضهم ، ولكنهم قاتلوا الترك فكشفوهم وأزا لومهم عن الماء ، وابتدر الناس فشربوا ، وقتل من فرسان المسلمين ثابت قطنة وعبد الملك بن دثار الباهلي وغيرها . وواصل العرب سيرهم وقاتلوا قتالاً شديداً ، ولحق غوزك سمرقند بالترك ، وشق العرب طريقهم إلى بخارى فمسكروا فيها ، ومن هناك قاموا بحملات أخرى (على خوارزم مثلاً) ، ولسكن بعض فرق الجيش العربي انقطعت ، فذهبت فرقة إلى كمرجة (قرب بيكند) ، فاتجه الخاقان بكل قوته إليهم وحصرهم في كمرجة ، ولكنهم استمأنوا في الدفاع ورفضوا

(١) لم يخرج أسد إلا سنة ١٠٩ هـ (في رمضان) ؛ وبهتة أبي الصياد . وما كان لها من نتائج تحتاج أيضاً إلى حين من الزمان .

كل اقتراح من العدو ، حتى وجد الترك آلا فائدة من الحصار وأعطوهم الأمان على
الآ يتوجهوا للمحاق بالجيش الأساسي في بخارى ، بل على أن يعودوا إلى الدبوسية^(١) .

وهكذا أصبحت يد الخاقان طليقة لكي يتفرغ إلى أشرس في بخارى . ولم
يستطع أشرس أن يفتتح أرضاً جديدة ، ويظهر أيضاً أنه لم يكن قادراً على مثل
ذلك . ولهذا عين الخليفة والياً ليخلفه بعد أن يفك عنه الحصار ، فجاء الجنيد بن
عبد الرحمن المرّمي^(٢) ، وكان حتى ذلك الحين في الهند ورجع منها ومعه خمسمائة
من جند الشام ، وبادر بعد وصوله^(٣) لنجدة أشرس ، فاستطاع بعد مشقة أن
يواصله ، وأفلح في هزيمة الترك عند زرمان وفي فك الحصار عن سمرقند ، وبعد
ذلك نجح في قيادة جيشه سالماً إلى خراسان ، وربما كان هذا هو غرضه
الأكبر^(٤) .

وكان الجنيد في أواخر سنة ١١٢ هـ - ربيع سنة ٧٣١^(٥) قد وجه بعوثاً
من الجيوش العربية في نواح شتى ، خصوصاً إلى طخارستان ، وعند ذلك جاءته
استغاثة سورة بن الحر التميمي من سمرقند ، لأن الخاقان وأمرأه من الأعاجم
تجالفوا معه كانوا قد هاجموا سمرقند ، وعلى الرغم من أن الجنيد لم تكن لديه قوة
كافية ، فإنه نهض على الفور وسار عبر نهر بلخ حتى بلغ كِش ، وكان هناك

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥١٢ - ١٥٢٥ - المترجم] .

(٢) كثيراً ما يذكر في اسمه : الزنى ، وهو خطأ - (مثلاً الطبري ج ٢ ص

١٥٢٧ ص ٣) .

(٣) سنة ١١١ هـ ، لكن لم يأت قبل آخر تلك السنة ، وذلك أن الطريق من بخارى
إلى الشام ومن الشام إلى الهند ومنها إلى خراسان كان طويلاً شاقاً ، ولا شك أن أشرس
بقي في بخارى في الشتاء (سنة ١١١ هـ)

(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٧ - ١٥٣٠ - المترجم] .

(٥) يمكن أن يفهم من قولنا ربيع ١١٢ هـ أول هذه السنة أو آخرها ، لكن
آخرها ، بحسب الظروف ، هو الأرجح هنا ، والتواريخ تختلف فيما يلي سنة ، فهي تردد بين
١١٢ و ١١٣ و ١١٤ ؛ وأنا أعتبر أن الأعداد الكبرى هي الصواب .

طريقان يؤديان من كِش إلى سمرقند : أحدهما طريق المحترقة ، يَخترق منطقة المروج والحشائش والأشجار ، وقد تجنبه الجنيد ، لأن الزمان كان فصل الصيف ولأنه خاف أن يشغل العدو النار في العشب والشجر ؛ وكان الطريق الثاني ، ويسمى طريق العقبة ، يَخترق الجبال ، فاختره الجنيد ؛ ولكن الترك هاجموا في شِعب غير بعيد من سمرقند ، ولولا شجاعة نصر بن سيار ، وخصوصاً لولا شجاعة الغلمان من الموالى الذين كانوا تابعين للجيش ، لَفى الجنيد ومن معه ، ذلك أن هؤلاء الغلمان ، بعد أن طال القتال وسقط الأبطال وكَلَّت السيوف حتى صارت لا تقطع ، قطعوا العمود وصاروا يقاتلون بها ، حتى ملَّ الفريقان وتماجزا^(١) . ولكن الأشرس كان لا يزال في موقفه الخطر ، وهو السكى ينقذ نفسه طالب من سورة أن يأتى إليه من سمرقند ؛ ولو أن سورة ومن معه من جند العرب خرجوا من سمرقند لهلكوا ، ولكن الجنيد استطاع أن ينقذ نفسه وأن يدخل سمرقند . فاتجه الخاقان إلى بخارى ، وكان عليها أحد أبناء قتيبة ، فحاصرها ، ولكن الجنيد أتبعه من أقصر طريق وهزمه عند الطواويس ، وذلك في شهر رمضان ، ودخل بخارى في يوم عيد المهرجانات^(٢) . حتى إذا قرت عين الجنيد بتأمينه بخارى وسمرقند قفل راجعاً قبل دخول الشتاء . أما الجند الذين كان هشام قد أرسلهم إليه من

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٣٢ — ١٥٣٦ — المترجم .]

(٢) لا شك أن ذلك لم يكن في سنة ١١٢ هـ كما تذكر الروايات بل في سنة ١١٣ هـ (نوفمبر سنة ٧٣١ م) ، وعلى هذا فلا بد أن يكون عيد المهرجانات في ذلك الوقت قد احتفل به بعد الانقلاب الحزبى الطبرى ج ٢ ص ١٥٥٢ س ٧ ، وفارن س ١٥٥٠ س ١٣ فابعد . وكذلك كان عيد النيروز بحسب الطبرى (ج ٢ ص ١٨٤٦ س ١٦) بعد الاعتدال الربيعى بكثير ، وعلى هذا فلا بد أن يكون خطأ ما جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٥ س ١٨ . ويظهر أنه فى أيام العباسيين أصلح تقويم الأعياد ، وفى سنة ٢٣٩ هـ وافق يوم النيروز يوم شعبان النصارى الطبرى (ج ٣ ص ١٤٢٠) . وفى سنة ٢٤٥ هـ آخر عيد النيروز أكثر من ذلك (الطبرى ج ٣ ص ١٤٤٨) ، فارن أيضا الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢٤ و ص ٢١٤٣ فابعدا و ص ٢١٦٣ .

البصرة والكوفة ، وكانوا في الصغانيان في طريقهم إليه ، فقد وجههم إلى سمرقند . ولا يذكر عن الجنيد شيء في أخبار سنتي ١١٤ و ١١٥ هـ^(١) . وفي أول سنة ١١٦ هـ (ربيع سنة ٧٣٤ م) عزل عن منصبه وحل محله عاصم بن عبد الله الهلالي^(٢) ، وكان عاصم أيضاً من قيس ، ولكن هشام بن عبد الملك عينه مكان الجنيد لكي يعذبه ويذوق نفسه لأنه كان عدواً للجنيد . وذلك أن هشاماً كان غاضباً على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة ابنة يزيد بن المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٦٣٣) ، وكان في نظر هشام أكبر الثوار ، ولكن الجنيد كان قد مرض بسقي البطن فأتى لحسن حظه قبل أن يصل عاصم إلى مرو ، فلم يستطع هذا أكثر من أن يحبس عمارة بن حريم بن عم الجنيد وخليفته وأن يأخذ عمال الجنيد ويعذبهم^(٣) .

٥ - وقد تزلزلت السيادة العربية في أرض ما وراء النهر زلزلة شديدة بسبب التردد بين الدين والشدة تردداً ليس له ضابط ، وكان عمر بن عبد العزيز قد حاول أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب من طريق الإسلام ، وذلك بأن سوى بين الداخلين في الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط عنهم الجزية ، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن ألغى في عهد خلفه ، وهذا وإن لم تبلغنا عنه رواية صريحة فإنه يمكن أن يؤخذ بلا شك من أنه بعد موته أصبح لا بد من استعمال سياسة العنف مع أهل السغد لإرغامهم على دفع الجزية ؛ وقد امتنعوا عن ذلك بطبيعة الحال ، لأنهم قد صاروا مسلمين . ويمكن أيضاً الاستدلال على مخالفة المبدأ الذي قرره عمر بأن كثيراً من أهل السغد أرادوا أن يتخلصوا من دفع الجزية ، فتركوا البلادهم وأسراؤهم وذهبوا إلى بلاد الترك

(١) [راجع بقية أخبار الجنيد عند الطبري ج ٢ ص ١٥٣٦ — ١٥٥٣ ، ١٥٦٤]

— ١٥٦٥ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٦٤ فابعداً — المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٦٤ — ١٥٦٥ — المترجم] .

ليدخلوا في حمام . ويجب أن نلاحظ في هذا المقام أنه وإن كان المبدأ الذي وضعه عمر كان يجب أن يظل مبدأ مقررًا فإن مسلمي الأعاجم في خراسان لم يثوروا عندما خولف ، وذلك أنهم كانوا منذ سنين كثيرة قد تعودوا التبعية السياسية للعرب ، وأن رابطة الإسلام كانت قد ألفت بينهم وبين العرب ، ولكنهم إلى جانب ذلك لم يكونوا في الحقيقة قادرين على الثورة ، وهذا يصدق أيضاً بالنسبة للذين مثل بخارى وسمرقند ، وكانت قد توطدت فيها قواعد السيادة العربية . أما الثوار فكانوا هم أهل السغد ، أعني أنهم كانوا خارج المدن الكبرى ولم يكونوا قد خضعوا للسيادة العربية إلا خضوعاً مرعزاً للغاية ، وكانوا حديثي عهد بالإسلام ، وهم لم يعتنقوه إلا طلباً لمزايا مادية ونفوراً من دفع الجزية ، فاتبعوا أسراءهم ؛ ولا شك أنهم في نفس الوقت ارتدوا عن الإسلام ، لأنه لم يكن بعد قد رسخت عروقه في نفوسهم . ويتجلى مقدار قلة العمل بالمبدأ الذي وضعه عمر وحاول تطبيقه تجلياً أوضح مما تقدم من أن الأشرس قرره للمرة الثانية^(١) ، وعند ذلك تكرر الموقف من جديد ، وكان أبو الصيداء ومن على رأيه وطريقته — وهم الذين كانوا قد بعثوا عمر بن عبد العزيز على تقرير المبدأ الذي قرره — هم أيضاً الداعين من جديد إلى الإصلاح ، وقد فشل هذا الإصلاح مرة أخرى ، وذلك للأسباب المالية التي لا شك أنها كانت في المرة الأولى أيضاً هي الأسباب الحاسمة . وأيضاً لم يكن عجم خراسان بل عجم السغد هم الذين ثاروا من أجل ذلك . بل يظهر أن الوعد بإسقاط الجزية في عهد الأشرس لم يكن موجهاً إلى الموالى بإطلاق معنى هذه الكلمة ، ولا كان موجهاً إلى موالى خراسان ، بل إلى من

(١) [يقصد المؤلف أن الأشرس أعاد مافعله عمر من دعوة أهل ماوراء النهر إلى الدخول في الإسلام على أن يسقط عنهم الجزية (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٧) ، ويقصد من تكرار الموقف من جديد أنهم دخلوا الإسلام للتخلص من الجزية ، فانكسر الحراج ، فأعاد وضع الجزية على الداخلين في الإسلام ، وكانت الثورة (الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٧) فابعداها — المترجم] .

دخل الإسلام في بلاد السغد فحسب . غير أن ثورة السغد في أيام أشروس كانت أوسع نطاقاً وأشد خطراً من الثورة التي كانت بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وخصوصاً أن الترك كانوا قد دخلوا البلاد وتولوا الزعامة . وقد استطاع العرب أن يثبتوا وأن يحافظوا على سلطانهم في المدن الكبرى وفي نقط أخرى حصينة ، وأمكن القضاء على حركة الثورة في سمرقند نفسها من غير كبير مشقة^(١) .

ثم جاءت محاولة ثالثة ترمي إلى مساعدة مسلمي الأعاجم على المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق الوطنية في الدولة التيوقراطية ، غير أنها لم تأت من أعلى ، بل جاءت من أسفل ، من قبل الحارث بن سريج ، من أهل الدبوسية ، وهو الذي صادفناه محارباً شجاعاً فيما تقدم^(٢) . ويقال إنه كان في أوائل أمره أحد ثوار الخوارج المتشدين في الدين ، ولكنه في الحقيقة لم يكن متشديداً في متابعة الآراء المتطرفة التي تعصب لها الخوارج ، وهو لم يعقد الخلافة لنفسه ، ولا بايع غيره عليها ، وظهر بأنه يرى رأى المرجئة ، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلم لهذه الفرقة^(٣) . وأيضاً كان الحارث نفسه يدخل في مناظرات حول مبادئها الأساسية^(٤) ، وانتهى مذهب المرجئة بالفعل إلى أن صار بمثابة سياسة للتوفيق بين المتخالفين ، فتركت مسائل الخلاف وخصوصاً مسألة الإمام الحق — وهي المسألة التي لم يمكن قط أن يوصل فيها إلى حل — في الحل الثاني ، وهي قد تركت لكي يحكم الله فيها . وفي مقابل ذلك صارت الجماعة النائرة تؤكد شيئاً

(١) راجع في هذا وفيما يلي كتاب O. van Vloten : Recherches sur la domination arabe, Verhandl. der Amsterdamer Akademie, 1894, Letterkunde I, 3.

(٢) راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٢٣ ص ٣ و ص ١٩٢٧ ص ١٢ و قارن أيضاً ص ١٨٩٠ ص ٧ .

(٣) [هذا ما يقوله المؤلف . وليس من السهل معرفة قصده ، والأغلب أنه يقصد المرجئة ، ولكننا نعلم أن الجهم صار فيما بعد رأس فرقة بأكملها — المترجم] .

(٤) [يؤخذ من الطبري ج ٢ ص ١٥٦٧ و ص ١٥٧٠ — ١٥٧١ و ص ١٥٧٧ و ١٥٨٣ ، أن الحارث أراد أن يؤيد ثورته بالدين ، وأنه طلب من يناظره فيما ثار لأجله — المترجم] .

يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة لأهل الديانة من الثائرين ، وهي الدفاع عن الأسس التي تقوم عليها الدولة التيوقراطية ومعارضة الاستبداد الذي كان قائماً ونصر جانب الحق الذي قدسه الدين على جانب الظلم والفساد . وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين من قيس قد أفقدوا هذه الحكومة في خراسان كل ثقة عند الصديق وعند العدو ، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سبباً في جلب خطر خارجي عظيم ، وليس هذا فحسب ، بل هي قد تركت وراءها سخطاً أدبياً عميقاً تجاوز الطائفة التي أصابها نتائج تلك السياسة فبلغ إلى أبعد منها بكثير . وقد بدأ الحارث ثورته^(١) مستنداً إلى هذا التذمر ، فخرض الموالي وأثارهم بأن وعدم بإحقاق حقهم فيما وعدوا به من إسقاط الجزية عنهم كما وعدم بأن يشركهم في الأعطيات التي كانت تعطى للمقاتلة . وانضوى الدهاقنة وأهل القرى تحت رايته السوداء ، وهكذا سار الحارث على أثر أبي الصيداء ، وكان من بقي من أصحاب أبي الصيداء في عداد حاشيته ، مثل أبي فاطمة الأيادي (من الأزدي) وبشر بن جرموز الضبي (من تميم) . وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الحركة لإنصاف الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باعتبارهم مواطنين في الدولة التيوقراطية ، ولكن اشترك في الثورة على الحكومة عدا هؤلاء القادة عربٌ كثيرون من تميم والأزد ، ولم تكن الثورة بوجه من الوجوه مقصورة على المرجئة ، وكان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وكانت البلاد التي ظهر فيها هي أرض « الثغرين » ، وقد رفع الراية السوداء في بلاد ما وراء النهر أول الأمر ، وكان ذلك في السنين الأخيرة من ولاية الجنيد ،

(١) [راجع فيما يتعلق بثورة ابن سريج (الطبري ج ٢ ص ١٥٦٦ — ١٥٧٢ ،

١٥٧٦ — ١٥٧٧ ، ١٥٧٩ — ١٥٨٠ ، ١٥٨١ — ١٥٨٦ ، ١٥٨٩ —

١٥٩١ — المترجم] .

وهي السنين التي لا يذكر فيها من أمره شيء . وعند مجيء عاصم بن عبد الله والياً على خراسان امتدت الثورة فشملت طخارستان أيضاً . وأقبل الحارث من جهة النخذه حتى وصل إلى الفارياب ، وسار منها إلى بلخ بعد أن قاتل حتى عبر النهر قتالاً كئيداً بالنجاح ، ولم يستطع عمال بلخ وسرو الروذ وهراة وغيرها أن يثبتوا أمامه . وخضعت له طخارستان كلها ، كما خضع له أيضاً العرب أنفسهم ، وكانوا هناك يتألفون من الأزدي وبكر بنوع خاص ، وقد انضم إليه أيضاً جبنغويه نائب ملك الترك في طخارستان العليا ، كما انضم إليه أمير الختل .

ولم يكن قد بقي في يد حكومة الأمويين (الطبري ج ٢ ص ١٥٨٢) من مدن لم ينازعها عليها الحارث سوى سرو وأبر شهر ، وكلاهما في غرب خراسان . وقد تضخم جيش الحارث بعد انتصاراته في طخارستان تضخماً كبيراً ، وفي هذا الجيش اجتمع فرسان من العرب ورجالة من جند الأعاجم ، فتقدم الحارث إلى سرو ومعه جيش جرار ، وكان قد كاتب نيمياً في سرو لأن أصله كان من هناك (الطبري ج ٢ ص ١٨٩٠) ، وكان عاصم يريد أن يتقهقر أمامه إلى أبر شهر ، أي إلى أرض قيس ، ولم يفلح رجاله في إقناعه بالثبات إلا بمشقة كبيرة ، وكان قد اطمأن تماماً بعد أن حلفوا له بالطلاق والعناق على الصدق في القتال . واستطاع عاصم أن يرد أول هجوم قام به الحارث ، ولكنه لما بلغه إقبال أسد بن عبد الله القسري ليحل محله على خراسان أوشك أن ينضم إلى الحارث ، ولكن يحيى بن حُصَيْن رده عن ذلك ، وكانت بكر في ذلك الوقت ، مع أنها كانت مع الأزدي في الحزب المعارض ، قد غيرت اتجاهها ورأيها بقيادة هذا الرجل العاقل ، لأن بكرأ قد تبينت أن المصلحة العامة للأمة العربية كانت معرضة للخطر ، وقد تميزت بكر عن غيرها في مقاتلة الحارث ، فهزم الحارث مرة أخرى ورجع عبر النهر ، وحاصر هناك مدينة ترمذ ، وكانت مدينة هامة .

ويذكر أن خراسان كانت في تلك الفترة خاضعة للخليفة مباشرة ، وقد كان الخليفة نفسه قد عين عاصم بن عبد الله والياً عليها ، فعمل عاصم ما كان سبباً في عزل هشام بن عبد الملك إياه عن ولايتها في أول سنة ١١٧ هـ (٧٣٥ م) ، وذلك أنه كتب إلى هشام^(١) على سبيل الإخلاص في النصيحة : أن خراسان لا تصالح إلا أن تضم إلى صاحب العراق فتكون موادها ومنافعها وموتها في الأحداث والنواب قريبة إليها نظراً لبعدها الخليفة عنها ، وتباطؤ غيائه لها . فعزله هشام ، واغتنم ذلك خالد بن عبد الله القسري ، فعين أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان ، ولكن كان قد آن الأوان لكي تنتهي سيادة قيس في خراسان . وفي رواية أخرى^(٢) أن هشاماً نفسه أمر خالداً أن يعين أخاه مكان عاصم ، فاستطاع أسد بن عبد الله أن يعد من الفخر لنفسه أنه أرسل إلى خراسان للمرة الثانية وفي ظروف عصيبة ، وقد أثبت أنه كان أهلاً للثقة التي وضعت فيه ، فاستخلف جديراً الكرماني الأزدي . وهو على كل حال لم يسلم نفسه للأطماع الحزبية لأهل اليمن ، وخلق سبيل عمال الجنيد الذين كان عاصم قد حبسهم ، وإن كانوا بحكم أنهم من قيس أعداء لأسد بن عبد الله (الطبري ج ٢ ص ١٥٨١ س ١٣ — ١٥) .

وبدا أسد قتاله للحارث في أرض ما وراء النهر ، فأخضع هناك كثيراً من المدن التي كانت قد وقعت في يد الحارث ، مستعملاً في ذلك السياسة والصالح أحياناً والسيف أحياناً أخرى — ويجوز أن سمرقند كانت من تلك المدن^(٣)

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٧٣ فابعدا — المترجم] .

(٢) [الطبري ، ج ٢ ص ١٥٨١ فابعدا — المترجم] .

(٣) لا يذكر أن سمرقند سقطت في يد الحارث ولا أن أسداً استردها ، بل يذكر فقط أن أسداً ذهب إلى هناك وقطع الماء عن المدينة . ولكن لا يمكن أن نفهم من ذلك أكثر من عمل عدائي ، ذلك أن الماء كان يأتي من ورغسر حيث كان يوجد مراكز خروج الأنهر ، وكلمة ورغ معناها السكر ، أما كلمة سمر فمعناها هو معنى كلمة رأس في اللغات السامية ، وهي تدل على النقطة التي يبتدى منها توزيع الماء بواسطة السكر [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٨٦ — المترجم] .

غير أن أسداً لم يفعل شيئاً مع الحارث لما كان الحارث أمام ترمذ ، ولكن أهل ترمذ ، مع أنهم عجم ، دافعوا عنها دفاع الأبطال ، حتى رأى الحارث أن ينصرف عنها قاصداً طخارستان ، وتفرق عنه أنصاره وحلفاؤه .

وعند ذلك تحول أسد إلى طخارستان ، وكانت هذه البلاد قد أخضعها قتيبة ابن مسلم من قبل ، ولكن لم يكن فيها — فيما عدا سرو الروذ — قاعدة للسيادة العربية ثابتة ثباتاً ماسوى مدينة بلخ ، فدخلها أسد واتخذها داراً ونقل إليها الدواوين ونقل إليها من كان بالبروقان من الجند ، وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكن بقدر مسكنه ، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً — ويدل هذا على مقدار أهمية طخارستان في نظره . ولكنه خلط بين الجند ولم يجعلهم أقساماً (أخماساً) كما كانوا في البروقان من قبل غير مختلطين بالأعاجم ، وإنما أراد بذلك أن يخلط بين الجند من مختلف القبائل ليتجنب تعصب بعضهم على بعض . وهو قد حافظ على ما كان بينه وبين الدهاقنة من مودة — وكان محبوباً عندهم من قبل — وذلك لكي يستطيع من طريقهم أن يؤثر في الطبقات الدنيا للشعب . وكلف الرعايا الأعاجم بإعادة بناء مدينة بلخ ، ولكنه أسقط قيمة العمل الذي بذلوه في ذلك من الخراج الذي كان مفروضاً عليهم ، وعهد إلى برمك بالإشراف على البناء ، وكان برمك دهقان النوبهار ، وهو جد البرامكة الذين صار لأسرتهم شأن كبير فيما بعد^(١) . وعلى هذا فقد كان أسد يسعى إلى إيجاد روح التفاهم بين العناصر المتعادية وإلى مزجهم شيئاً فشيئاً في حدود معقولة .

وكان الحارث بن سريج قد هرب إلى طخارستان العليا لائذاً بأصهاره التغابيين الذين كانوا في قلعة التبوشكان ، ولكن أصهاره لم يريدوا أن يضحوا

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٠ ، ١٥٩١ س ١٨ — ٢٠ ، والمؤلف لا يذكر

أن قتل الجند كان في سنة ١٠٧ هـ — المرجع] .

بأنفسهم من أجله ، فأخرجوه ومن كان معه ودخلوا في مفاوضات مع أسد .
ولكن أسداً عرف من مفاوضين جاءوا إليه فغدروا بقومهم أن أهل القلعة ليس
عندهم طعام ولا ماء وأن القلعة لا تكاد تصمد للدفاع ، فأرسل الكرمانى لهاجتها ،
فاضطرب من فيها إلى التسليم بعد أن أجهدهم الجوع والعطش ، وقُتل الأسرى
(الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٨)^(١) وبيع النساء والأولاد — رغم أنهم من دم
عربى — فى سوق بلخ على من يزايد فى شرائهم .

وفى سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م)^(٢) قام أسد بغزو الخُتل فى شمال نهر بلخ وفى
مواجهة بلخ نفسها ، وكانوا لم يتم إخضاعهم بعد ، وكانوا أيضاً قد حالفوا الحارث
بن سريج ، وكان أميرهم يقيم فى نواكث ، فاستجاش بخاقان الترك طالباً نجدة ،
ولكن لما خرج الخاقان من سويات متقدماً إلى خُشورَاغ أخبر بذلك أسداً
لكى يحذره ، وكان الخاقان لا يريد النصر للترك بل كان يراحم العرب . وبعد
أن تردد أسد بعض التردد رأى أن يقفل راجعاً ، ولكن بعد أن عبر النهر ظهر
الأعداء على الضفة الأخرى ، ثم ضربوا بكوساتهم وعبروا على دوابهم وهى تنخر
أشد النخير ، ولكنهم لم يهاجموا الجيش الأساسى لأسد ، بل هاجموا فرقة كان
قد سرحها أمامه بالأنقال والغنائم من الشاء والماشية حتى بلغت بطن وادٍ ، فأصابها
العدو واستطاع أسداً أن ينقذ الجند ، وكان ذلك فى آخر رمضان سنة ١١٨ هـ^(٣) .

(١) [راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٩ — ١٥٩١ — المترجم] .

(٢) [يذكر الطبرى ذلك فى أحداث ١١٨ هـ (ج ٢ ص ١٥٩٣) فابمدها — المترجم] .

(٣) ١١ أكتوبر سنة ٧٣٦ م وتاريخ السنة هنا يختلف سنة ، ويذكر أن يوم

الأنقال ، كان فى سنة ١١٩ هـ ، ولكن لو حسبنا السنين من الحلف لتبين أن سنة ١١٨ هـ
هى الصحيحة .

ولا بد أنه قد سُرَّ بالنجاة بجلده إلى بلخ ، فتغنى الصبيان بالفارسية بأغاني
بغيطونه بها^(١) .

ولكن الخاقان لم يدع أسداً يستمتع بالهدوء ، فذهب الخاقان إلى جبغوية
الخرأخى^(٢) في شرق طخارستان ، ويروى أن الحارث بن سريج — وكان يقيم
هناك — قد استجلبه إلى طخارستان ، فخرج في وسط الشتاء ومعه أتباعه وحلفاؤه
متوجهاً إلى الغرب ، وعلم أسد بخبر ذلك في ليلة الأخرى من سنة ١١٨ هـ
(١٩ ديسمبر سنة ٧٣٦ م) ، فأمر برفع النيران على المدينة لكي ينجوا الناس
بأنفسهم إلى بلخ ، واستخلف الكرمانى بن على في المدينة وسار بنفسه من غير
تردد ، وأخذ معه من كان عنده من أهل الشام — لأنه كان قد صرف بقية الجند
إلى أوطانهم في أول الشتاء — وقصد الخاقان . وكان الخاقان مـسكراً غير بعيد
من مدينة جوزجان ، وكان قد بث الفارات في جميع النواحي ، ولم يبق معه
إلا أربعة آلاف رجل ، فهاجمه أسد^(٣) ، فوجه فرقة قادها أمير الجوزجان من

(١) [مثل :

أزختلان آمدى بروتباه آمدى
بيدل فراز آمدى

ومثل :

أزختلان آمديه بروتباه آمديه
آبار باز آمديه خشك نزار آمديه

اسكن هذا أيضاً يذكر في تاريخ سابق (سنة ١٠٨ هـ) . أما ما نحن بصده هنا فهو
من حوادث سنة ١١٩ هـ (راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٢ ، ١٤٩٤ ، ١٥٩٣ ، ١٦١٩)
ويظهر أن ثم خطأ بين حوادث ولائى أسد على خراسان — المترجم] .

(٢) خرج قبيلة تركية (ابن خرداذبه ص ٣١) ويذكر في أيام قتيبة أن جبغوية كان
رئيس الشاذ ورئيس طرخان نيزك الذى كان تابعاً للشاذ أو منضماً إليه — فارتل ما أرسل إلى
الخليفة في ذلك وهو عند الطبرى ج ٢ ص ١٦١٥ .

(٣) كان على ميمنة أسد الأزدي وبنو تميم وبنو الجوزجان وأهل الشام من فلسطين وقنسرين
وكان على ميسرته ربيعة وأهل حمص والأردن ، وكان في المقدمة أهل دمشق والشرطة والحرس
وغلمانة . وكان جند الشام بطبيعة الحال مع الأمير دائماً ، ولم يكونوا يذهبون في الشتاء إلى =

طريق كان يعرفه ، وهاجم الخاقان من الخلف ، فاضطره بذلك إلى الإسراع في الحرب ، وأراد الخصى أن يحمل امرأة الخاقان ، فأعجبه العرب ، فلم يجد طريقاً لتجنب عار وقوعها في يد العرب ، إلا أن يطعن بها بخنجر . وظفر المسلمون بالمسكر ، فوجدوها تتحرك ، ووجدوا القدور تغلي ، فأطلقوا أسرى المسلمين الذين كانوا هناك ووقع في يدهم كثير من سبي الترك وغنائم لا تحصى من الشاء والدواب والدروع وغيرها من آنية الفضة ، فبعث أسد بجواري الترك إلى دهاقين خراسان^(١) ليستنقذ من كان في أيديهم من أسرى المسلمين . وتلقف أسد خيلاً للترك كانت منصرفه لتغير على بلخ ، فارتدت بعد أن كانت قد بلغت بيعة سرو الروذ .

وحال الشتاء دون المضي في مطاردة الخاقان ، فكث الخاقان عند جبنوية في طخارستان حيناً ، ثم عاد إلى بلاده من طريق أشروسنة ومعه الحارث بن سريج . وبعد ذلك بقليل قتله أحد كبار رجاله ، وهو كورصول الترقشى الذي يرد ذكره كثيراً ، وعلى أثر ذلك ظل الترك في خلاف فيما بينهم^(٢) ، وتركوا العرب ينعمون بفترة من الهدوء .

وقد أمر أسد ، بعد أن عاد إلى بلخ^(٣) ، بالصوم شكراً لله لما فتحه عليه ،

= أوطانهم كما يفعل عرب خراسان . وكان مع الخاقان الحارث بن سريج وأصحابه (من أهل السند والباية) وملك السند وأمير الشاش وخرا برة من أشراوسنة (وهو جد أنشبن كاوس المشهور) وصاحب الختل وجبنويه . أما ملك السند فربما أنه صاحب أشتيخن الذي تبع هو وأشكند نفس الخاقان للحرب في بلاد الختلان ، على حين أن صذان — خذاه كان يحارب في صفوف أسد ، وهكذا كان المعجم يحاربون في الجانبين ، ولكن يلوح مما جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٦١٢ س ٢ فما بعده) كأنما لو كان خرابرة قد بقى في وطنه أشراوسنة ، وقد كان في قلبه معادياً للخابان .

(١) يفسر فان فلوتن (س ٢٥ هامش ٢) هذا الخبر البسيط (الطبرى ج ٢ ص ١٦١١) تفسيراً سيئاً — راجع كتابه س ٢٥ هامش رقم ٢ .

(٢) [راجع فيما تقدم الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٣ — ١٦١٤ — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦١٥ فارقن ص ١٦١٤ — المترجم] .

ولما بلغ خبر الانتصار على الخاقان إلى هشام في دمشق لم يكذب بصدقه ، وأيده في ذلك من كان عنده من قيس حسداً منهم لأسد . ولم يكن هشام يتلقى من خراسان من قبل سوى أخبار النكبات ، فطلب توجيه مقاتل بن حيان النبلي من خراسان إليه ، وكان مقاتل رجلاً صادقاً ، تقص على الخليفة أخبار غزو أسد بلاد الختل وما كان من تطور في القتال حتى استباح المسلمون عسكر خاقان وأجلوه عنه ، وكان هشام يستمع إلى مقاتل وهو متكئ ، فلما أخبره مقاتل باستباحة عسكر خاقان استوى جالساً .

وفي صيف سنة ١١٩ هـ (٧٣٧ م) استأنف أسد الحرب مع الختل^(١) ، ولم يكن الترك قادرين على مساعدتهم ، هذا إلى أن الختل كانوا فيما يظهر مختلفين فيما بينهم ، وذلك أن بدر طرخان خرج من أرض الباميان واغتصب الحكم (قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٩٤) وقد وقع هذا الغاصب من طريق غدر شأن في يد أسد ، فأسلمه إلى رجل من الأزد كان له عنده ثأر لسكي يقتله^(٢) . ولكن أسداً مع هذا لم يفعل كثيراً ، بل اكتفى بتوجيه خيله في غارات في أودية بلاد الختل ، وفي الشتاء التالي لذلك ، في أول سنة ١٢٠ هـ ، عاجله الموت بفترة ، ولكن موته نجاه في الحقيقة من الوقوع في عواقب سقوط أخيه خالد^(٣)

(١) [راجع فيما يلي الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ — ١٦٣٣ — المترجم] .

(٢) كان أسد قد أعطاه الأمان وجعل له عهد الله والنبي والخليفة والمسلمين ، فلما لم يحافظ أسد على عهده قذف بدر طرخان بحجر في الهواء وقال : هذا عهد الله ، ثم قذف ثلاثة أحجار أخرى قائلاً : هذا عهد محمد وعهد أمير المؤمنين وعهد المسلمين . [الحقيقة أن أسداً لم يندر القدر الذي يصفه المؤلف ، وكل ما في الأمر أنه تساهل جداً مع بدر طرخان ، فلما أراد أن يتدارك الأمر وأرسل رجلاً وراء بدر طرخان ، ظن هذا أن أسداً نقض العهد فقال ما قال ، فدافبه أسد [المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩] قائلاً : هذا ما وعدتكم .

(٣) عزيل خالد في جمادى الأولى سنة ١٢٠ هـ (مايو سنة ٧٣٨ م) ، ولكنه تاق خبر موت أخيه وهو لا يزال في منصبه (الطبري ج ٢ ص ١٦٥٠) . وفي رجب سنة ١٢٠ هـ خلف نصر بن سيار أسداً على ولاية خراسان ، وكان بينهما فترة أربعة أشهر =

وكان كبار العرب وكبار المعجم يحملونه فيفقدون إليه ويقدمون له الهدايا القيمة ، وقد قدم إليه في يوم المهرجان ، فيمن قدم إليه بالهدايا ، خراسان ، دهقان هراة ، ققام بين يدي أسد خطيباً وبين من كريم صفاته وشجاعته وأعماله العظيمة مارفمه به إلى السماء السابعة^(١) . ثم مرض أسد ، وأفاق إفاقةً ، فخرج يوماً ، فقدّمت له كثرى ، وأراد أن يتلطف بخراسان ، دهقان هراة ، فرمى إليه بواحدة وكان في جوف أسد فيما ذكر ، دُبيلةً ، فانقطعت عند ذلك ومات — هذا ما يحكى ، ولكن ما يذكر من أن ذلك كان بمناسبة عيد المهرجان فهو غير صحيح ، وهو يزيد الشك في القصة التي تشبه في ذاتها ما يقال في الأساطير^(٢) .

٦ — وكان سقوط خالد بن عبد الله القسرى ، الذى ظل أميراً على العراق سنين طويلة ، فاتحة الفترة الأخيرة الحملة بالكوارث والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية ؛ فقد خلفه على العراق والى قيسى لحماً ودماً ، متعصبٌ لقيس ، وهو يوسف بن عمر ، من أسرة الحجاج ، ولا شك أنه لم يكن شيئاً أحب إليه من أن يعين على خراسان واليا من قيس ، لولا أن هشام بن عبد الملك حال دون ذلك وعين نصر بن سيار خلفاً لأسد ، وكان نصر من ذوى الأسنان القلائل جداً الذين ظهروا في تاريخ تلك الحقبة ، ولم تؤثر سنوه الكثيرة في حدة ذهنه ويقظته ، كما تشهد بذلك أفعاله ، بله القصائد التي ظل ينشئها حتى أواخر أيامه . وكان

= (الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٨) . وعلى هذا يكون أسد قد مات في صفر سنة ١٢٠ هـ (فبراير سنة ٦٣٨ م) . أما الرواية القائلة بأنه مات في يوم عيد المهرجان فلا يمكن الأخذ بها ، لأن ذلك العيد وقع في الحريف ، ولا يمكن أن يصلح حريف ١١٩ ولا حريف ١٢٠ هـ تاريخاً لذلك .

(١) [يجد القارىء هذه الخطبة عند الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٦—١٦٣٧ ، ومى تدل على فكرة أحد دهاقنة إيران عن أنفسهم وعن العرب — المترجم] .

(٢) [يؤخذ من الطبرى (ج ٢ ص ١٦٣٨) أنه قد انقضت فترة بين يوم المهرجان وموت أسد — المترجم] .

قد نشأ في أرض خراسان وشاب وهو في خدمة الدولة ، وكان مما دعى الخليفة إلى إشارته على غيره أنه لم تكن له عشيرة قوية يضطر إلى أن يستند إليها^(١) ، وذلك أنه لم يكن ينتسب إلى أي من القبائل الكبرى في خراسان ، بل كان من كنانة التي كانت قليلة العدد هناك . ولما كان كنانياً فقد كان من الطبيعي أن يميل إلى تميم ، لأن تمياً وكنانة ينتسبان جميعاً إلى خندف ، فمزل العمال الذين كانت قد عينهم سلفه وعدوه أسد بن عبد الله — ولكن من غير أن يعذبهم — وعين مكانهم خندفتين ، أي عمالاً من تميم بنوع خاص^(٢) . وإلى جانب المدن الأربعة^(٣) التي كانت في خراسان حواضر للدولة ، كانت هناك بلخ وخوارزم وسمرقند (الطبري ج ٢ ص ١٦٦٤) ، فنقل نصر مقر الحكومة من بلخ وأعادته إلى مرو ، أي من طرف أرض السيادة العربية إلى وسطها .

وقد قام نصر في الفترة الأولى من ولايته بمحاربة الترك ، وكان هو البادئ بهاجتهم . فخرج من بلخ وغزا ما وراء النهر من ناحية باب الحديد . وصر بمدينة ورغسر قاصداً سمرقند ، وهناك وقع في يده اثنان من دهاقنة بخارى كانا قد أسلما على يديه ، ولكنهما ثارا ، اعتقاداً منهما بأن ظلماً وقع عليهما ، وأجمعا على الفتك بواصل بن عمرو القيسي عامل بخارى وبيجار اخذاه رئيس المسلحة . حتى إذا كان نصر يستمع إلى أمرهما من بخار اخذاه ، قالاً : نموت كريمين ؛ فشد أحدهما

(١) [لما استشار هشام بن عبد الملك أصحابه في رجل يصلح لولاية خراسان استبعد ممن رشحوا له من كان صاحب شراب أو فيه نهب وعظمة أو كان مورتوراً أو غير عفيف أو كان منتسباً إلى قبيلة لا يعتمد عليها في سد الثغور وهكذا ، فلما قيل له إن نصر بن سيار ليست له عشيرة ، قال : أنا عشيرته — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٦٦٠ فابعدا] .

(٢) [كان هشام بن عبد الملك لا يميل إلى قيس ولا إلى ربيعة (الطبري ج ٢ ص ١٦٦٢ ، ١٦٦٣) ، وكذلك لم يكن نصر بن سيار يميل إلى قيس . ويذكر الطبري ، (ج ٢ ص ١٦٦٤) أن نصراً ظل أربع سنين لم يستعمل فيها إلا مضرية — المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً ما تقدم من ٣٩٦ — المترجم] .

على واصل فطمته في بطنه بسكين ، فضر به واصل بسيفه ضربة أطارت قحف رأسه ، فمات ومات واصل . وأما الثاني فطمن بخار اخذاه ، ولكن الجوزجان ابن الجوزجان شد عليه فقتله . والمظنون هو أن الظلم الذي شكاه هذان الدهقانان هو إلزامهما بدفع الجزية مع أنهما كانا مسلمين . وبعد أن فتح نصر سمرقند توجه إلى أشروسنة ، وقد زاد جيشه بمن انضم إليه من الأعاجم ، ثم خرج إلى الشاش ، وكان في الشاش في ذلك الوقت كورصول ، قاتل الخاقان ، وكان أميراً على جماعة تبلغ أربعة آلاف قبة ، فوقع في يد العرب بعد اشتباكه ، وقتله نصر وصلبه على شاطئ النهر . وكان الحارث بن سريج يقاتل العرب في صفوف الترك ، وكان معه عرّادتان ، فلم يرض أن ينصبهما تلقاء تميم ، لأن تيمماً كانوا من قبيلته ، وانتهى الأمر بأن صالح نصر أهل الشاش واشترط عليهم أن يخرجوا الحارث بن سريج ، وبعد ذلك سار نصر إلى فرغانة ، ولكنه اكتفى بأن صالح أهلها وقتل راجعاً دون أن يسير إلى ما وراء نهر الشاش . ومن الجائز أن تكون هذه الحملة قد تطلبت أكثر من عام من الزمان ، أما المدائني فهو يجعلها ثلاث حملات ، وهذا غير معقول^(١) ، وهو إنما يتوَّع في الروايات ، ويجمع كل التفاصيل الممكنة ويهتم خاصة بذكر ما هو من قبيل الحكايات العجيبة ؛ أما البلاذري (ص ٤٢٩) فلا يذكر لنصر إلا حملة واحدة ، وهي حملة أشروسنة ، ويقول إنها انتهت نهاية غير موثقة^(٢) . أما الأعمال الرائعة التي ينسبها إلى نصر .

مولر (A. Müller, 1, 412) متابعاً لقابل (Weil, 1, 632) ، فلا شك أن نصر لم يعملها ، ولكنه استطاع أن يرغم الترك في بلاد الشاس على التخلي عن التأثير المهيِّج ، الحارث بن سريج ، وعلى إخراجه من بلادهم ، وإن كانوا لم يسلموه

(١) يقول المدائني إن نصرأ توجه إلى : ١ — باب الحديد ورجع ، ب — وإلى سمرقند ورجع ، ج — وإلى الشاش ، ولكن أ و ب مجرد مراحل لـ ج .

(٢) والقول بأن تاريخ ذلك كان في عهد مروان بن محمد بعيد جداً عن الصواب .

له . وقد خرج الحارث إلى الفاراب وأقام حيناً إلى أن اندامت نار الحرب الأهلية بعد مقتل يزيد بن الوايد . وكذلك سمح نصر لأهل السند الذين كانوا قد خرجوا من ديارهم ، ولم تصبح لهم في بلاد الساش وفرغانة شوكة بعد الاضطرابات التي أعقبت مقتل الخاقان ، بأن يعودوا إلى أوطانهم ، ولكنهم كانوا قد اشتراطوا للعودة شروطاً كرهها وأنكرها أسراء خراسان ، مثل عدم معاقبة من ارتد منهم عن الإسلام وعدم أخذهم بما عليهم لبيت المال ونحو ذلك . ولم يرض نصر بهذه الشروط ، ولم يرض بها هشام بن عبد الملك ، إلا تألفا لأهل السند وتجنباً لنكائتهم في المسلمين (الطبري ج ٢ ص ١٧١٧ — ١٧١٨) .

وإصلاح نظام الخراج الذي قام به نصر من شأنه أن يلقى ضوءاً على سياسته الداخلية ، ويروى المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٦٨٨ فما بعدها) أخبار ذلك . وقد أعلن نصر برنامج هذا الإصلاح في خطبة خطبها في مسجد مرو فقال : « ألا إن بهرامسيس كان مانح المجوس ، يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين ؛ ألا إن إشداد بن جريجور^(١) كان مانح النصارى ؛ ألا إن عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك ؛ ألا إنى مانح المسلمين ، أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين ؛ ألا إنه لا يُقبل منى إلا توفى الخراج على ما كُتب ورفع^(٢) ، وقد استعملت عليكم منصور بن عمر بن أبي الخرقاء ، وأمرته بالعدل عليكم ؛ فأيا رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه

(١) هكذا نجب قراءة الأسماء المسيحية التي يصعب التعرف عليها مكتوبة بالعربية .

(٢) إن القراءة الصحيحة موجودة في هامش ص ١٦٨٨ مع علامة ٧ (توفير بدلا من توفى) ، [نجد في المتن عند الطبري : « توفى » الخراج على ما كتب ورفع » . وبحسب القراءات التي ذكرها الناشر في الهوامش يمكن قراءة المتن هكذا « توفى الخراج على ما كتب ودفع » — ومن البين أن قراءة المتن صحيحة وإن كانت القراءة بحسب الهوامش غير مستحيلة — المترجم] .

أو ثَقُلَ عليه في خراجِه وخُفِّفَ مثل ذلك عن المشركين فَلْيَرْفَعْ ذلك إلى منصور ابن عمر ، يحوله عن المسلم إلى المشرك » . و يروى أنه لم تأت الجمعة الثانية حتى أتى ثلاثون ألف مسلم ، كانوا يؤدون الجزية عن رؤسهم ، وثمانون ألف رجل من المشركين قد أُلقيت عنهم جزيتهم ، فَحَوَّلَ ذلك عليهم وأُلقيَ عن المسلمين ، ثم صَنَّفَ نصر الخراج حتى وضعه مواضعه ، ثم وظَّفَ الوظيفة التي جرى عليها الصلح ، وكان يؤخذ من مرو في أيام بني أمية مائة ألف درهم سوى الخراج .

وعلى هذا صارت الجماعات الدينية غير الإسلامية هي الجماعات التي تدفع الجزية ، وكان رَّبَّان اليهود يأخذ الجزية من اليهود ، وأسقف النصارى يأخذها من النصارى ، والمرزبان^(١) يأخذها من المجوس ، وكان المجوس بطبيعة الحال هم الغالبية الكبرى ، وإن كان عدد النصارى لم يكن قليلاً^(٢) . ولكن كيف كان رؤساء الجماعات الدينية هؤلاء قد استطاعوا أن يحولوا الجزية من المجوس والنصارى واليهود ويلقوها على كاهل المسلمين تحت نظر الحكومة العربية ؟ إن كلام المدائني في هذا الموضوع غير مفهوم ، وعمالا يمكن تصديقه أبداً أن تكون الجزية

(١) وإذن فالمرزبان في هذه الحالة ، هو رئيس المجوس — قارن الطبري ج ٢ ص ١٤٦٢ س ١٣ .

(٢) كان النساطرة السريان قد انتشروا في الشرق انتشاراً بعيداً ، كما هو معلوم ، وقد وضع أسقف أو مطران مرو جسد يزدجرد آخر ملوك الساسانيين في ناووس (الطبري ج ١ ص ٢٨٧٤ فا بعدها و ص ٢٨٨١ و ٢٨٨٣ — قارن ج ٢ ص ١٤٤٨ س ٥ و ص ١٥٤٣ س ١) . وتذكر منازل للرهبان ويذكر مكان للقديس ماسرجسان عند مرو ، وتذكر يعة في مرو أيضاً ويعة عند مرو الروذ (الطبري ج ٢ ص ١٥٧٢ س ٢ و ص ١٩٢٥ س ١٣ و ص ١٩٥٧ س ١٤ و ص ١٥٦٩ س ١٤ و ص ١٦١٢ س ١١) وفي قرية النصرانية خلف نصر بن سيار زوجته المرزبانية ، وهو يحاول الهروب من مرو (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٥ س ١٠ وقارن ١٨٨٩ س ٦) . وكان في طخارستان موضع هام يسمى اليهودية .

قد أقيمت عن ثمانين ألفاً كان يجب عليهم أن يؤدوها ، وأن تُلقى على ثلاثين ألفاً لا يجب عليهم أداؤها ؛ فلا بد أن يكون الموقف هنا بحسب كل ما هو معروف من المواقف المشابهة له ، هو أن دخول غير العرب في الإسلام كان لا يخرجهم عن تبعيتهم للجماعة التي كان عليها أن تؤدي الجزية . وكانت الجزية بحسب ما جرى عليه الصلح من قبل قد تقررت على مقدار ثابت لا يتغير ، بحيث إن لم يدفعها الداخلون في الإسلام وجب على بقية الجماعة التي ينتمون إليها أن تدفعها عنهم حتى انتهى الأمر بأن أصبح جمع ذلك المبلغ المحدد غير ممكن ، وعلى هذا فإن واجب أداء الجزية كان قد صار عبثاً على من وقع على كاهلهم بمقتضى شروط الصلح ، يورثونه أبناءهم من بعدهم ، حتى لو دخل هؤلاء الأبناء في الإسلام بعد ذلك . وكان الرؤساء المحليون من غير العرب يعملون بهذا المبدأ بإذن من الدولة العربية ، وقد تبين أن ما حاوله عمر بن عبد العزيز قبل غيره من إحداث تغيير أساسي في هذا الوضع كان شيئاً لا يمكن تنفيذه ، ولكن تبين في الوقت نفسه أن مما يخالف روح الإسلام أن يبقى الداخلون فيه — وهم بحكم إسلامهم مواطنون في الدولة التيوقراطية — مُثْقَلِينَ بعبء الجزية ، شأنهم شأن غير المسلمين ممن ليسوا مواطنين في الدولة الإسلامية وإنما كانوا يتمتعون بتسامح المسلمين معهم ، فكان لا بد من التمييز بين الفريقين ، ولكن بشرط أن لا ينقص مال الجزية عن المبلغ المقرر لها ، وقد قام نصر بذلك على النحو الذي لا بد منه على كل حال . وكان الخراج من قبل يأتي من ضرائب متنوعة . وكان يشتمل على الخراج الذي يدفعه ملاك الأرض أو من يقوم مقامهم ، ولما كانت كل أنواع الضرائب تسمى خراجاً فلم يكن هناك سوى ضريبة واحدة تسمى الخراج أو الجزية ، وكان معنى هاتين الكلمتين حتى ذلك الحين واحداً (الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٠٧ ، فابعدا) . أما في عهد نصر بن سيار فقد وضع نظام يقضي بأن يجبي الخراج بالمقدار الثابت الذي تقرر على المدن والنواحي ، كل على حدتها ، ومن الأرض وحدها ، وهـ

هذا حدّد مقدار الخراج من جديد ، وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض بحسب ما يملكونه ، سواء كانوا مسلمين أو كانوا رعايا غير مسلمين خاضعين للدولة الإسلامية^(١) . ولما كان الخراج يؤخذ عن عين الأرض لا عن الشخص الذى يملكها ، فلم يكن فى ذلك ما يُشعرُه بالصغار . وقد حدث مع ذلك جنباً إلى جنب فصل تام بين خراج الأرض — فأصبح وحده هو الذى يسمى خراجاً — وبين ضريبة الرأس التى بقى لها اسم الجزية . أما ضريبة الرأس ، التى كانت تختلف فى المقدار وكان ما يتحصل منها يقل عاماً بعد عام كلما زاد عدد الداخلين فى الإسلام ، فقد صارت باباً يمكن الاستغناء عنه فى الخراج الثابت للدولة ، وخصوصاً أنها أسقطت عن المسلمين بالكليّة وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين منهم جميعاً ، بقصد تكليةهم ما يبين قلة قيمتهم الشخصية^(٢) . وتتجلى لأول وهلة صلاحية النظام الجديد الذى وضعه نصر ، إذا قورن بذلك النظام الذى كان من قبل يُعتبر هو النظام المتفق مع الشرع ، والذى بمقتضاه كان المسلمون يُعَفَّون من دفع الخراج . وهكذا ظل الفرق بين معاملة الدولة للمسلمين وغير المسلمين قائماً ، أما المسلمون ، عرباً كانوا أو موالى ، فقد صاروا من حيث المبدأ والقانون يقفون على قدم

(١) انتقلت الأرض إلى أيدي المسلمين ، لا من طريق دخول مالكيها السابقين فى الإسلام فحسب ، بل أيضاً من طريق حصول العرب عليها وشراؤهم لها . ويظهر مما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٠٢٩ س ٦) أنه حتى قبل عهد نصر بن سيار كان على العرب الذين اقتنوا أرضاً أن يدفعوا خراجها ، وأن يعطوه إلى الدهاقين ، وكانوا بطبيعة الحال يدفعون الخراج عنها .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف ، والحق أن مشكلة دفع غير المسلمين للجزية فى الدولة الإسلامية قد قام حولها كلام كثير ، مع أنها ليست شيئاً عجيباً فى عصرها ، وما هى إلا بمثابة ضريبة حماية فى مقابل دفاع الدولة الإسلامية عن غير المسلمين فيها وضمان حقوقهم وإعفائهم من الواجبات الحربية — المترجم] .

المساواة^(١) ، وعلى هذا الوجه أمكن تفادى النقص فى الدخل الثابت للدولة ، وذلك أن تفاوت مقدار ما كان يتحصل من مال الجزية — وهو لم يكن كثيراً — وكذلك تناقصه المستمر شيئاً فشيئاً لم يكن له شأن له كبير . ومن الراجح جداً أن النظم التى وضعها نصر لم تقتصر على ناحية مرو ، بل شملت كل الولاية فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، لأن هذه النظم لم تكن شيئاً خاصاً ، وقد عمل بها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية التى كانت أحوالها مشابهة لأحوال خراسان وما لحق بها ، وصارت هذه النظم هى القانون الصحيح الذى زعم الفقهاء فيما بعد أنه كان موجوداً من أول الأمر ، مع أنه فى الحقيقة لم يتكون إلا شيئاً فشيئاً . وهذا هو السبب فى أن المدائى تأثر بمزاعم المتأخرين فلم يستطع أن يفهم ما وجدده نصر وما ألغاه وفى أنه يتصور فى إصلاحات نصر أشياء عجبية وجد أنها تخالف القانون بعض المخالفة . على أن المدائى يذكر الوقائع صحيحة : وهى أن المقدار الثابت للخراج وظَّف على جميع ملاك الأرض حتى على المسلمين منهم ، أما الجزية فقد أسقطت عن المسلمين وفُرِضت على غير المسلمين وحدهم .

وربما كان من الممكن على أساس هذه المساواة بين المسلمين أن يتحقق توازن دائم بين العرب والأعاجم ، ولكن لم يكن هناك وقت لذلك ، فقد عاد العرب فى خراسان إلى التنازع وإهلاك بعضهم بعضاً ، وكانت الثورة فى الشام التى بعثت فى هذه المرة على الثورة فى خراسان ، وكانت تلك الثورة ردًّا فعل من جانب الحزب الثائر على طغیان حزب قيس فى أيام الوليد بن يزيد . وجاء الوليد بن يزيد بعد هشام فى أول ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م) فأقر نصرأ فى منصبه أول

(١) ولكن بطبيعة الحال كان الأعاجم يدفعون فى الواقع أكثر مما يدفعه العرب لأن معظم الأرض كانت فى أيدي الأعاجم وخصوصاً فى أبدى الدهاقنة الذين كانوا من جانبهم يمتصون دم الزراع . ولكن دفع الأعاجم أكثر مما يدفع العرب لم يكن والحالة هذه ظلماً .

الأمر^(١) ، ولكنه بتأثير رئيس قيس ، وهو يوسف بن عمر^(٢) أمير العراق ، عزله بعد فترة ما ، ودعاه إلى دمشق وكلفه أن يحضر معه أشياء كثيرة من الجوارى والبراذين والخيل والآنية والصنوج والدفوف وغيرها من الأشياء الجميلة ، وأن يقدم عليه في وجوه أهل خراسان . فتباطأ نصر في الاستعداد لذلك متممداً ، حتى كان لا يزال بخراسان في يوم النيروز سنة ١٢٠ هـ^(٣) ، لما بلغه خبر مقتل الوليد ، فلم يعترف بيزيد بن الوليد الذي ثار على الوليد بن يزيد ، ولا اعترف بأمره الذي بعثه إلى العراق ، أو على الأقل لم يعترف نصر اعترافاً عملياً ، بل دعا القبائل إلى مبايعته أميراً على العراق حتى تنتهي الفتنة وتتفق الكلمة على خليفة وحتى يأتي أمير من قبله . وقد انضمت إليه الأزدر بيعة ، مع أنهم كانوا حتى ذلك الحين غير راضين عنه ، وصار نصر لا يقصدهم عن المناصب كما كان يفعل من قبل ، وقد عمل في الحقيقة على جمع كلمة عرب خراسان حتى يعتبروا أن الحكومة حكومتهم جميعاً ولا يعتبروها شيئاً يتنازعون عليه ، وقد ستمل عليه ما أراده من اتخاذ موقف الحياد وعدم الميل إلى حزب دون حزب أنه كان كنانياً لا ينتسب إلى المجموعات الكبرى للقبائل ، ولكن الحكومة كانت في نفس الوقت في يده لأنه على رأسها ، ويروى أن شاعراً موالياً له تغنى باسمه قائلاً : نحن بريعة نكبح جماح

(١) [راجع في هذا وفيما يلي الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤ — ١٧٦٨ ، ١٨٤٥ — ١٨٥٠ ، ١٨٥٥ — ١٨٦٦ — المترجم] .

(٢) وكان يوسف بن عمر نفسه هو وقيس قد دسوا لنصر بن سيار (سنة ١٢٣ هـ) عند هشام بن عبد الملك ولسكنهم أخفقوا .

(٣) قتل الوليد بن يزيد في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٤٤ م) ، وقد علم نصر بقتله سراً من رجل كان من عمال البريد قبل وصول الخبر الرسمي بعشرة أيام ، وذلك أن كلمة « السكك » التي جاءت عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٤٥ س ٢١ — قارن ١٨٤٩ س ١٠) هي سكك البريد — قارن الطبرى (ج ٢ ص ١٧٠٩ واللسان ج ٤ ص ٥٣) . ومن العسير أن يكون الخبر وصل إلى نصر في أقل من شهر ، وعلى هذا فإن النيروز لم يقع في تلك السنة قبل منتصف مايو — انظر ما تقدم ص ٤٣٨ هامش رقم ٢ .

قيس وبالأزد نكسر شوكة تميم فيكون الأمر لكتفانة^(١) . فغضب نصر غضباً شديداً على هذا الشاعر المفسد المجرد من كل فهم سياسى ، لأنه بما قال لا يخدم إلا أغراض خصوم نصر .

ولكنه لم يمض وقت طويل حتى انتقضت الأزد على نصر ومعهما ربيعة ، ويجب ألا ننسى أنهم بحكم أنهم يمانية لا بد أن يقفوا في جانب يزيد بن الوليد ومن يؤيده من قبائل كلب . ولما لم يدفع لهم نصر أعطيائهم نقداً ، بل من آنية الذهب والفضة التي كان قد أعدها للوليد بن يزيد ، جاهروا بالثورة . وكان على رأسهم جذيع الكرمانى من الأزد ، وجهر جذيع بأنه كان يرمى من وراء طاعته للأمويين أن يطلب بثأر بنى المهلب (الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٨ س ١١) الذين قتلهم الأمويون قتلاً لا رحمة فيه وهو بذلك قال كلمة كان لها صدى في قلوب الأزد جميعاً : وذلك أنهم استطاعوا في أيام المهلب وأولاده أن « يأكلوا » خراسان ، ولم يتمكنوا من ذلك بعد أيام المهالبة ، ولم ينالوا في أيام أسد بن عبد الله ما كانوا يريدون . وقد استطاع نصر أن يقبض على الكرمانى نفسه وأن يحبسه في قهندز مرو في آخر رمضان سنة ١٢٦ هـ (منتصف يولييه سنة ٧٤٤ م) ، ولكنه هرب من الحبس بعد شهر وذهب إلى موضع بجهة مرو ، وهناك اجتمع إليه جيش من الأزد وربيعة . وخرج نصر لقتاله ، ولكن لم يشتبك الفريقان وأشفق كل منهما من ذلك ، وبدأت بينهما مفاوضات للصلح ، لكنها لم تؤد إلى نتيجة ، لأن الكرمانى كان يكره نصرأ كرها عميقاً ولم يرد أن يعاهد نصرأ لأنه لم يكن يأمنه .

وكانت الطامة الكبرى خروج الحارث بن سريج من بلاد الترك وظهوره

(١) [هذا معنى ما يذكره المؤلف وهو لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه حتى نستطيع ذكر كلام الشاعر بنصه — المترجم] .

على المسرح من جديد — وربما كان ذلك قبل آخر سنة ١٢٦ هـ ، لأن يزيد ابن الوايد — وكان قد آمنه^(١) — مات آخر سنة^(٢) ١٢٦ هـ ولما كان الحارث عدواً للكرماني فإن نصراً دعاه لكي يخرج من سمرقند^(٣) — وكان قد نزلها أول الأمر — ويأتي إلى مرو ، فأقبل الحارث إلى مرو في آخر رمضان سنة ١٢٧ هـ (أول يولييه سنة ٧٤٥^(٤) م) . وعلى كثرة أنواع التكريم والهدايا التي غمره بها نصر فإنه لم يلزم جانب نصر ، وظل متمسكاً بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية ؛ وهو طالب بها نصراً أيضاً^(٥) . وقد انضم إلى الحارث ثلاثة آلاف رجل من قبيلته تميم . والحق أن نصراً أفرط في التساهل مع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٦ — ١٨٦٩ ، ١٨٨٨ — ١٨٩٠ ، ١٩١٧ قاً بعدها — المترجم] .

(٢) كانت أم يزيد بن الوليد أميرة من أميرات السغد (الطبري ج ٢ ص ١٨٧٤) ، وربما كان من أجل ذلك ميالاً إلى أهل السغد [ولكن الذي يقوله الطبري هنا هو أن أم يزيد كانت أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى — المترجم] .
(٣) [يقول الطبري (ج ٢ ص ١٨٨٨) إن الحارث وافى مرو لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ١٢٧ هـ — المترجم] .

(٤) [وفي رواية أن نصراً أراد مصالحة الحارث دون إذن أمير العراق ودون إذن الخليفة ، وذلك خوفاً من مجيء الحارث إليه هو وأصحابه والترك معه وطعماً في عاقبته ومناصحته — الطبري ج ٢ ص ١٨٦٧ — ١٨٦٨ — المترجم] .

(٥) [أطلق نصر أبناء الحارث ورد له أمواله وأجرى عليه خمسين درهما كل يوم وأنزله قصرأ ، ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه في أصحابه ، وعرض عليه نصر أن يولييه ولاية وأن يعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل ، وأرسل إلى نصر يقول له : « لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل العدل والفضل ، فإن فعلت ذلك ساعدتك على عدوك » ، وأرسل إلى الكرماني يقول : « إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألتك من استعمال أهل العدل والفضل عضدته وقت بأمر الله ، وإن لم يفعل استمنت عليه وأعتك إن ضمنت ما أريد من القيام بالعدل والسنة » . وظل الحارث على مبدئه الذي تار من أجله قبل ذلك ، وقد قال لنصر : « خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجزور ، وأنت تريدني عليه » . ولكن ليس هذا مبدءاً خاصاً للمرجئة ، بل هو أولى أن يكون رأى الخوارج . راجع فيما يتعلق بالنصوص الطبري ج ٢ ص ١٨٨٨ — ١٨٩٠ ، ١٩١٩ — المترجم] .

هذا المنافس الخطر الذي جلبه على نفسه^(١) ، وكان الحارث من أول الأمر وضع نفسه في خدمة قضية الأعاجم في أرض الثغرين ، وكتب لهم كتاباً بسيرته وسياسته وأغراضه في إحقاق الحق والعدل ، وكان رجاله يقرأون ذلك في الطرق والمساجد ، وقد رضى نصر أن يبعث إلى ثغرى سمرقند وطخارستان من يرشاه أصحاب الحارث ، كما عرض على الحارث أن يوليه ما وراء النهر . ولكن ذلك لم يغن نصراً شيئاً ، لأن الحارث لم يكن يطمئن إليه ولا يثق في أنه سيعادى حكومة الأمويين ذلك العداء الحاسم الذي يملأ نفس الحارث ومن تحت رايته السوداء من الأتباع . هذا إلى أن الحارث لم يكن من غير شك يريد بدافع الأنانية أن يسمح لنصر بأن يكون له سلطان إلى جانب سلطانه ، ويروى أن الحارث ونصراً تناظرا افتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان ، فحكما بأن يعتزل نصر ويكون الأمر شوري ، فلم يرش نصر . وعند ذلك بدأ النزاع الصريح ، ونزل الحارث معسكراً أمام مرو ، ومن هناك حاول أن يستولى على المدينة ، وذلك في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٨ هـ آخر مارس سنة ٧٤٦ م . وفشلت المحاولة بطبيعة الحال ، فأسير جهم بن صفوان وقُتل ، وكان الجهم هو الداعى إلى مذهب المرجئة^(٢) وهو المؤلف لكتاب عن سيرة الحارث وبرناجه ، وكان يقرؤه على الناس^(٣) . ولكن الحارث بعد ذلك كتب إلى الكرماني ،

(١) [يجد القارى اعتراف نصر نفسه بذلك عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ ص ١١ قارن ص ١٩٣٠ ص ١٠ — المترجم] .

(٢) [كان جهم في الحقيقة صاحب فرقة فائقة بذاتها لها آراؤها الخاصة بها ، وهى فرقة الجهمية — قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ — المترجم] .

(٣) [المذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩١٨ — ١٩١٩) هو أن الجهم هو الذى كتب كتاباً فيه سيرة الحارث ، وكان يقرؤه على الناس وأنه كان «يقص» في عسكر الحارث . وعند الطبرى أيضاً (ص ١٩٢٠) أن الحارث بن سريج كتب سيرته ، أى سيرة نفسه ، فكانت تقرأ في طريق مرو والمساجد . على أن المشهور أن جهماً كان كاتباً لابن سريج ، ولا يمكن أن يتبادر إلى الذهن أنه كان هناك كتاب بمعنى مصنف ، بل المفصود من الكتاب ما يشبه منشور الدعاية اليوم ، وفيه سياسة صاحب الدعاية وأغراضه ووسائله — المترجم] .

ونحن نسمع عنه الآن من جديد لأول مرة بعد أن اختفى من مسرح السياسة سنة ونصف سنة ، فدخل الكرمانى فى النزاع وغير وجهته ، وبعد قتال دام أياماً رأى نصر أن يرجع إلى نيسابور ، مقر قيس ، وأن يخلى سرباً للناسرين .

ولكن الثوار من أصحاب الحارث والكرمانى لم يلبثوا حتى اختلفوا ، وذلك أن من كان مع الحارث من تميم ندموا على أنهم قد أعانوا الأزد على إخوانهم الذين كانوا فى سرب يحاربون مع نصر ، وهم لم ينسوا للكرمانى أنه فى أيام ولاية أسد بن عبد الله قتل عدة مئات من أصحاب الحارث بعد الاستيلاء على قلعة التبوشكان ، وأنه بقر بطون خمسين رجلاً منهم وقطع أيدي ثلاثمائة منهم وأرجلهم ، إلى غير ذلك مما تقوم عليه^(١) . وكان أول من نبذ هذا التحالف غير الطبيعى بين الحارث والكرمانى هو بشر بن جرموز ، أكبر أنصار الحارث ، فخرج يدعو إلى الكتاب والسنة وقال للحارث إنه إنما قاتل معه طلباً للعدل ، وإن انضمام الحارث إلى الكرمانى معناه القتال لأجل الغلبة والعصبية . فاعتزل بشرفى خمسة آلاف أو أربعة آلاف وخمسمائة ، ولما بدأ القتال بعد ذلك انضم الحارث إلى بشر وانفصل عن الكرمانى ، ولكن الأزد وحلفاءهم غلبوا تيمماً ومضربى آخر رجب سنة ١٢٨ هـ (إبريل سنة ٧٤٦ م) وأخرجوهم من سرب وخربوا عسكرهم ، وقتل الحارث نفسه وصلب جسده عند مدينة سرب بغير رأس ، فنال الجزاء العادل على أعماله ، مهما كانت آراؤه ومقاصده . فهو فى محاولته نصر الإسلام على العروبة ونصر المظلومين على الظالمين قد حالف الموت والشيطان على السلطة القائمة وحشد قوى الخير والشر جميعاً فى محاربة الحكومة الأموية ، وهو فى أول ظهوره قاد الترك لمحاربة العرب ، فلما أخفق ظل لا جئاً عند الترك سنين كثيرة ، فلما ظهر من جديد فرق كلمة تميم ، وكان لاتحاد كلمتهم فى ذلك

(١) [جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٢٨) أن الحارث بعد أن هزم نصرأ بعث إليه أنه سيكف عن قتاله لأن اليمانية عبروه بهزيمة .

الوقت الشأن كل الشأن في المحافظة على السيادة العربية . وقد كان الحارث .
بذلك سبباً في أن اليمانية لم يكتفوا بإسقاط الحكومة ، بل في أنهم أزدوا مضر
كلها ، وبحق ما قيل عنه من أنه رجل مشثوم^(١) ، وأنه كان المههد الحقيقي
لأبي مسلم^(٢) .

وعلى الرغم من أن نصراً كان من قبل قد تعصب على قيس ، فإنهم ، لما
رجع إلى نيسابور ، أحسنوا لقاءه في ذلك الوقت العصيب^(٣) ، كما انحاز إليه
المصريون الذين أخرجوا من مرو . ويروى أنه حاول قبل ذلك أن يستنجد
بالخلافة ، ولكن طالما كانت العراق وما يلحق بها من بلاد العجم في قبضة
الخوارج وفي قبضة عبد الله بن معاوية بن جعفر فإن الطريق كان مقطوعاً بين
نصر وبين مقر الحكومة الأموية في الشام ، ولم تتغير الحال إلا في سنة ١٢٩ هـ ،
لما خضعت العراق لمروان بن محمد ، على يد يزيد بن عمر بن هبيرة ، فاعترف له
نصر بالرياسة باعتبار أنه رئيسه المباشر^(٤) ، ولم يكن من نيته قط أن يخرج على
الأمويين ، وإنما كان ينتظر أن يهدأ الاضطراب والنزاع بين بني أمية حول
الخلافة في الشام . وربما يكون قد بايع مروان بن محمد بعد توليه الأمر بقليل ،
ولكن إمكان اتصال نصر بن سيار بيزيد بن هبيرة لم يُغْنِهِ إلا قليلاً ، فبقي

(١) [راجع أبياناً تنسب لنصر بن سيار وغيره فيما أدخله الحارث على العرب من الذل
والشؤم المردى ، وهي عند الطبري ج ٢ ص ١٩٣٥ — ١٩٣٦ — المترجم] .

(٢) وقد فسر لون علمه الأسود (الطبري ج ٢ ص ١٩١٩ ص ٢ فابده) على هذا
الوجه ، وإن كان ذلك بغير حق كامل ، أما الصحيح فإنه يوصف في الأشعار بأنه أزدى مضرأ
وأنه حالف الكفار على العرب (الطبري ج ٢ ص ١٩٢٤ ص ١٠ ، ١٩٣٥ فابدها)
و ص ١٥٧٥ فابدها . وقد قال له نصر بن سيار :

إرجاؤكم لركم والشرك في قرين فأنتم أهل إشراك ومرجونا

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٢٩ — المترجم] .

(٤) إن الروايات الفائلة بأن ابن هبيرة قد اتصل في أول سنة ١٢٧ هـ بنصر بن سيار
تتضمن خطأ كبيراً في التواريخ .

مضطراً إلى الاعتماد على نفسه ، عندما أراد في سنة ١٢٩ هـ أن يقوم بهمة استرداد مرو^(١) . وبعد أن قام قواده بحملات كثيرة للهجوم لم تجد شيئاً تقدم نصر نفسه ، وكان في الثمانين من العمر ، ووضع كل قوته في المعركة . وخرج الكرمانى لمحاربتة ، وعسكر الفريقان خارج المدينة في « الخندقين » الذين بقيت آثارها زماناً طويلاً ، وظلّا يقتتلان فترة طويلة من غير أن يقع القتال الحاسم . وقد بعث نصر إلى مروان بن محمد وإلى ابن هبيرة يلح في الاستغاثة وطلب العون ويصف الخطر وصفاً يحرك الهمم ، ولكنه لم يظفر من استغاثته بطل^(٢) . غير أن تخوف العرب من عدو لهم جميعاً دعاهم إلى العقل والاتحاد مرة أخرى^(٣) ، وقد رأوا بأعينهم أن شيعة بنى العباس — ومعظمهم من الأعاجم — قد تجمعوا تحت راية أبى مسلم ونزلوا معسكراً حصيناً غير بعيد من مرو ، فدخلت ربيعة — التي مع أنها كانت حتى ذلك الحين حليفة للأزد فقد كان لها بطبيعتها موقف وسط — في الفرجة التي كانت تفصل بين اليمن ومصر ، فاتحد يحيى بن نعيم بن هبيرة ، أكبر سادات بكر ، مع نصر بن سيار ، ووجد أن السبيل الوحيد الممكن لنجاة القبائل العربية هو في موازنة الحكومة^(٤) . وبدأت مفاوضات بين نصر وبين جدبج الكرمانى ، لكنها انقطعت بسبب ابن للحارث بن سريج كان مع نصر بن سيار ، فاغتم الفرصة ليثار من قاتلى

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٠ — ١٩٧٦ .

(٢) وأبيات نصر بن سيار المشهورة التي ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٨٧٣) تدخل في وصف هذا الموقف [غير أنها تشير إلى الخطر الذى جاء من قبل أبى مسلم . والمؤلف لا يشير هنا إلى الدور الذى لعبه أبو مسلم في التفرقة بين نصر والكرمانى . راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٢ — المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٢ فما بعدها و ١٩٧٥ فما بعدها — المترجم] .

(٤) راجع قصيدة نصر التى نادى بها ربيعة ، وهى موجودة عند Nöldeke في Delectus

أبيه ، فاعتال الكرمانى خلسة^(١) . غير أن ذلك لم يكن هو السبب الذى أدى إلى فشل المفاوضات . لكن سقوط مدينة هراة ، تلك المدينة الهامة ، فى يد أبى مسلم راع العرب كثيراً وفتح أعينهم أيضاً ، فحل محل الكرمانى رجلٌ من أنصاره لا نعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين ، وهو شيبان بن سلمة الحرورى الخارجى^(٢) ، فدعاه يحيى بن نعيم^(٣) بن هبيرة إلى موادة نصر بن سيار ، فوادعه سنة ، فاستطاع نصر أن يدخل مرو فى آخر سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) . ولم يكن الأزد وخدمهم الذين دخلوا فى هذه الهدنة ، بل دخل فيها أيضاً على بن زعيمهم المقتول : جديع الكرمانى . ولم يكن من المؤكد أن ينتهى القتال بانتصار أبى مسلم ، غير أن أبى مسلم عرف كيف يقنع على بن جديع الكرمانى بأن قتل أبيه إنما كان بإيعاز من نصر نفسه ، وكان يريد بذلك أن يضم علياً إلى جانبه (أول سنة ١٣٠ هـ — سبتمبر سنة ٧٤٧ م) . وعلى هذا عاد الكرمانى ومن تبعه من الأزد إلى قتال نصر من جديد . ويظهر أن القتال استمر فى ضواحي مرو وفى شوارعها مدة طويلة ، وقد

(١) والروايات تريد على كل حال أن تظهر نصراً بظهور المشترك فى مقتل الكرمانى ، وذلك بأن تقول إن نصراً صلبه ومعه سمكة ، وهى علامة الإزراء بالأزد . ولكن نصراً كان جاداً فى المفاوضات ، ولم تكن هى بقصد اغتيال الكرمانى ، لأن ذلك كان يهددها بالفشل . ولو أنه صلب رئيس الأزد ، وخصوصاً لو أنه صلب معه سمكة ، لما أمكن أن يبقى الأزد بعد ذلك على ود مع نصر لحظة واحدة . وإذا كان ابن الرئيس المقتول قد صالح نصراً بعد قتل أبيه على الفور فلا بد أنه فى ذلك الحين لم يكن مقتنعاً بأن القتل كان بعلم من نصر . أما أول من أوحى إليه بفكرة اشتراك نصر فى قتل أبيه فهو أبو مسلم . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد وجد دليل ثابت يدل على رضاء نصر عن الجريمة ، مثل أن يأمر بصلب جسد الكرمانى ويصلب معه سمكة . ولو أنه فعل ذلك لكأن له نتائج أخرى ولأدى إلى ضرب وجه سياسة التفاهم التى أرادها نصر . أ.أ. القاعدة القائلة بأن نصراً fecit cui prodest (فعل ما يفيد) ، فإنها لو طبقت هنا لكان تطبيقها خطأ .

(٢) قارن س ٣٧٨ — ٣٧٩ مما تقدم .

(٣) [هنا وفيما سبق قبل بقليل يقول المؤلف : يحيى بن حنين ، والغالب أن هنا سهواً — راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٦ و ١٢ و ١٩٦٧ س ٢ — المترجم] .

(٣٠ — الدولة العربية)

انتهى هذا القتال بأن صار أبو مسلم سيد الموقف ، ذلك أنه تدخل في القتال عند ما بدا له أن الوقت مناسب ، وقرر مصير المعركة من غير استعمال السيف ، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة ١٣٠ هـ — ديسمبر سنة ٧٤٨ م^(١) . وفي صباح اليوم التالي هرب نصر إلى سرخس وطوس ومنها إلى نيسابور ، فكان ذلك آخر السيادة العربية في خراسان وبدء نهاية السيادة العربية على الإطلاق .

(١) ستزيد من ذكر التفاصيل والوقائع في الفصل التالي .

الفصل التاسع

سقوط الدولة العربية

١ — إن ما قلناه في الفصل السابق عن العلاقة بين العرب والأعاجم ينصب خاصة على أرض « الثغرين » ، وهو ينصب على أرض السغد أكثر مما ينصب على أرض طخارستان . وهناك كان الفريقان لا يزالان على قدم الحرب ، وكان الإسلام قد صارت له بعض المواقع الحصينة ، ولكن قدمه لم تكن قد رسخت ؛ أما في خراسان الحقيقية فكانت قوى الفريقين قد تعادلت وتكونت من ذلك طريقة في النظام (modus vivendi) . وكان العمل الذي نجده لا يزال سائراً فيما وراء النهر قد تم في خراسان الحقيقية ولا نعرف عنه شيئاً ، لأننا ليس لدينا أخبار كافية عن بداية العصر الذي أعقب الفتح الأول . ولكن يمكن الإلمام إلى حد ما بالنتيجة ، أعني بالأحوال فيما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٣٠ هـ^(١) .

لم يكن العرب والأعاجم منفصلين في الحياة الظاهرة ، أعني أنهم لم يكونوا يسكنون منفصلين . وقد بقي في مدن الجيوش العربية مثل نيسابور (أبيورد ، سرخس ، نسا) ومرو ومرو والروذ وهرات سكانها الأصليون ؛ أما القلاع والحصون فقد احتلها الفاتحون بطبيعة الحال . وأيضاً لم يظل العرب متجمعين في نقاط قليلة خاصة بهم ، وهم لم يكونوا يعيشون فقط في المدن التي كانوا قد اختاروها لتكون بمثابة « مستعمرات عربية » ، بل كانت لهم أملاك وضياع وأهل في القرى ، ومنهم

(١) فان كتاب فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe :

وهو ضمن Verhandelingen der K. Akademie te Amsterdam, Afd. Letterk. 1,3

أمستردام ، ١٨٩٤ .

من كانوا يقطنون هناك، خصوصاً في واحة مرو . وكانت مدينة مرو حاضرة لقرى كثيرة ترتبط فيما بينها بنظام رى موحد ، وكان للعرب بطانة وموالٍ من الأعاجم ، كما أنهم تزوجوا نساءً أعجميات ، وكان لا بد أن يظهر أثر ذلك في أبنائهم منذ الجيل الثانى . وإنه وإن كانت هجرات العرب المتتالية من العراق إلى خراسان قد زادت من قوة العنصر العربى فى بلاد العجم فإن ذلك لم يصل إلى حد أن يجعل العرب من حيث العدد مكافئين للأعاجم ، وخصوصاً أن الحروب التى لم تنقطع كانت تأكل العرب أكلاً فظيماً . وفى بعض الروايات التى ترد بين حين وآخر : أنه كان فى خراسان ما يقرب من خمسين ألفاً من المقاتلة العرب . ومع أن نسبة من يقومون بواجب الحرب بين العرب كانت كبيرة ، بحيث كانت تبلغ نصف مجموع الذكور ، فإن مجموع السكان العرب فى خراسان لا يمكن أن يكون قد تجاوز المئتين ألف نفس بكثير . وقد تأقلم العرب فى وطنهم الجديد ، وكانوا يشعرون أنه لا فرق بينهم وبين أبناء البلاد فى الوطن المشترك بينهم ، فكانوا يحسون أنهم خراسانيون ، وكانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان (الطبرى ج ٢ ص ١٥٣٠) ، وكانوا يشربون النبيذ ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان . وأخذ أشرف العرب يظهرون بمظهر المرازبة وأسلوبهم فى الحياة ، وكان الاشتراك فى الحياة العملية مما دعى إلى التفاهم بين العرب والأعاجم ، حتى كانت الفارسية فى السكوفة والبصرة لغة يتكلمها الناس فى السوق كما يتكلمون العربية على الأقل . وإذا حكى لنا أن رجلاً مثل أبى الصيداء كان لا يتكلم إلا العربية وأنه لذلك لم يكن يصلح وحده رسولاً إلى أهل السغد الذين لم يكونوا يتكلمون سوى الفارسية ، فإن أمر أبى الصيداء يبدو شاذاً . أما فى جيش أبى مسلم فكان العرب يتكلمون الفارسية فى الغالب ^(١) .

(١) الطبرى ج ٣ ص ٥١ س ٤ وس ٦٠ س ١٨ وس ٦٥ س ١٤ و ١٦ .

وكذلك لم يقف الأعاجم من جانبهم إزاء العرب في خراسان كتلة واحدة ، ولا هم وقفوا من العرب موقف العداء أو النفور ، ولم يكن تأثير الأعاجم بعملية المزج بين العنصرين أقل من تأثير العرب بها ، وخصوصاً أن الفتح لم يغير أحوال المغلوبين ، وهو لم يزلها سوءاً . وقد أفلح العرب في حماية البلاد من الخارج ، أعنى من غزو الترك ، أحسن مما أفلح في ذلك ملوك الساسانيين^(١) . ولم يتدخل العرب كثيراً في الأمور الداخلية ، بل تركوا إدارة البلاد في يد المرازبة والدهاقنة ، ولم يكونوا يتصلون بالشعب المغلوب إلا من طريق هؤلاء المرازبة والدهاقنة . وأيضاً ظلت السلطات المحلية السابقة في المدن العسكرية العربية وفي حواضر الدولة باقية إلى جانب السلطات العربية ، وكان للسلطات المحلية جباية الخراج بنوع خاص ، وكانت هي المسئولة أمام الفاتحين عن دخوله بيت المال على المقدار الصحيح المتفق عليه ، أما سواد الشعب البائس الذى عليه أن يدفع (misera contribuens plebs) فلا شك أنه لم يكن في عهد الساسانيين يدفع من الخراج أقل مما كان يدفع في عهد العرب . هذا إلى أن العرب لم يتدخلوا في المسائل الدينية للأعاجم ، وكان الأساس في المعاهدات التى يفرض فيها دفع إتاوات أن يبقى أهل البلاد على دينهم ، بل كان للأعاجم أن يبقوا على دينهم حتى في المدن التى كان يسكنها العرب ، وإن كان ربما تحتم عليهم أن يخفوا المظاهر الخارجية للوثنية . ولكن يظهر أن الأعاجم لم تكن تربطهم بدين زرادشت رابطة جذية ، وكان أهم ما يعنيه هو الشعائر المصطبغة بصبغة المرح والسرور بالحياة ، وكانت هذه الشعائر تتجلى في أعظم صورها في الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان ، وكان للأعاجم أن يحتفلوا بهذين العيدين حتى بعد دخولهم في الإسلام ، لأن العرب أنفسهم كانوا يشتركون في الاحتفالات الدينية للأعاجم ، ما دامت هذه

(١) ولم يستطع الترك أن يصابوا في غاراتهم إلى مقربة من نيسابور إلا في أثناء الحرب بين

قبائل نيم (البلاذرى ص ٤١٤ — ٤١٥ .

الاحتفالات مجالاً للسرور والتساية . وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا في بادي الأمر على الدخول في الإسلام فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام نفسه بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان يُمكنهم منها ، فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللمشاركة فيما كان لها من مزايا ، أي هم اتخذوه وسيلة لكي يستعمروا وينالوا ما كان للعرب من حقوق ومزايا ، ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية وألقوا بالقبائل العربية^(١) . وقد استطاع بعض أهل الطموح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب ، وأن يلعبوا دوراً ذا وجهين في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية ، وكانوا يسمون النصحاء ، وأشهرهم سليم وحيان النبطي

ونظراً لاستمرار الحروب في تلك الحقبة وتلك البلاد ، فقد كانت أكثر المناسبات ملائمة للدخول في الإسلام ما يعرض من النهوض بأعباء الحرب في الجيش الإسلامي . وقد اقتدى السادة من العرب بأشراف الأعاجم ، فكانوا يأخذون معهم إلى الميدان حاشية من الغلمان تكون لهم خاصة (وهم الشاكرية) ، وكان هؤلاء الغلمان أيضاً يشتركون في القتال ، وكانوا يقررون مصير المعركة في بعض الأحيان . وإلى جانب ذلك كانت هناك في الجيش العربي فرقة من الأعاجم خاصة على رأسها قواد منهم ، ومن أمثلة ذلك حريث بن قُتَيْبَة وأخوه ثابت في الحقبة الأولى ، وحيان النبطي وابنه مقاتل في الحقبة الأخيرة^(٢) . فكان الموالي — وهذه هي بوجه عام التسمية التي كانت تطاق على من دخل في الإسلام

(١) فارن البلاذري س ٤٤١ : أسلم بعض الملوك وسموا بأسماء عربية ، على أنهم لا نجد في ذلك الوقت مسلمين أعاجم بأسمائهم الأعجمية ، وكثيراً جداً ما نجدهم يستعملون الكنية ، مثل : أبو داود ، أبو عون ، أبو مسلم ، أبو نصر ، وهكذا ، والكنية عند عرب خراسان هي من وجه ما اسم حرب (بالماضي الحقيقي) راجع الطبري ج ٢ س ١٢٨٩ س ١٥ و ١٤٣٠ س ٣ و ١٥٩٣ س ١٦ (أبو مزاحم) و ١٦٢٧ س ٤ (أبو الموت) و ١٦٣١ س ١٥ وتجد اسماً آخر من أسماء الحرب في س ١٥٣٨ س ٧ .

(٢) وإلى جانب ذلك كانت هناك فرق الأمراء التابعين للدولة العربية ، وكان عليهم أن يحاربوا إلى جانب العرب ، واسكنهم كانوا في الغالب لا يزالون على ونديتهم .

من غير العرب وألحق بالقبائل العربية — يحاربون إلى جانب العرب ويحاربون الأعداء القدماء لوطنهم ، وهم الترك ، ولكنهم أيضاً كانوا من أجل الإسلام يحاربون أبناء وطنهم من السغد ، إذا عادى هؤلاء الإسلام وحالفوا الترك . وهكذا تأصل الإسلام في قلوبهم ، بعد أن كانوا في أول الأمر قد اعتنقوه لأسباب خارجية . واقد كانوا في إسلامهم أكثر إخلاصاً من العرب أنفسهم^(١) .

ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرهم إلى أنفسهم ، فإذا كان الموالى في الجيش فإنهم كانوا يحاربون مترجلين لا على الخيل ، وكانوا إذا برزوا يُنظر إليهم بشيء من الريبة . وهم وإن كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً في الغنيمة فإنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة ، فلم يكونوا مقيدين في الديوان ، أعنى في سجل المقاتلة الذين تُفرض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية ، فإنهم كانوا يسمون «أهل القرى» تمييزاً لهم عن «أهل القبائل» . ومع أنهم كانوا مسلمين ، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية . أما الخراج الذي كان يؤديه كل من يملك أرضاً حتى العرب منهم ، فيظهر أنه على كل حال لم يُحدث من التذمر بين أهل خراسان ما أحدثه بين أهل ما وراء النهر ، لأن هؤلاء لم يدخلوا الإسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية ، ولكن لا شك في أن عدوى التذمر تسربت من أهل السغد إلى أهل خراسان — وقد عمل الحارث بن سريج وغيره على ذلك .

ولو أن العرب عاملوا من دخل في الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١ س ٩ : لم يرد الأعاجم أن يحاربوا في صفوف العرب إلا إذا كان ذلك لأجل الدين [الحقيقة أن استنتاج المؤلف فيه تعسف . وحتى لو فرضنا أن بعض الأعاجم كان أشد تحمساً للدين من بعض العرب فهل كان ذلك لأنهم أعاجم ؟ أما النص الذى يستند إليه المؤلف فهو يتلخص في أنه في أثناء فتنة من الفتن أراد قائد فرقة الموالى في الجيش أن يفتح الفرصة لينال ولاية يأكلها طول حياته واتفق مع أحد قواد العرب على ذلك وقال لواليه : هؤلاء العرب يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً — المترجم] .

لكان من الممكن أن يتحقق مزج بين الأمتين ، لكن العرب بما صنعوه ربّوا في أحضانهم أعداء لأنفسهم ، حتى كبر هؤلاء الأعداء . ثم إن الإسلام لم يساعد على إزالة الخصومة بين الفريقين ، بل جعلها أشد خطراً^(١) ، لأنه أخفى الأعاجم من تجديد وشد أزرم ووضع في يدهم سلاحاً على ساداتهم العرب ، وذلك أن إسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا على عجمتهم وعلى عدائهم للعرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهل خراسان ، وهم إنما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين إلى الإسلام ، والإسلام هو الذي جمع كلهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بني أمية مهتدين بالمبادئ التي يجب أن تقوم عليها الدولة التيقراطية في نظر الإسلام — والعرب هم الذين كانوا أول من أثار الموالى ونظامهم .

والإسلام الأول يجعل المحافظة على وحدة « الجماعة » ، أعنى على وحدة الأمة الإسلامية ، فوق كل شيء ، وهو أيضاً يدعو إلى شد أزرها وحكومتها وإلى طاعتها^(٢) . ولكن بعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيقراطية جاء الإسلام الناثر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذي كان قائماً إذ ذاك ، وجعل يدعو للحرب نصراً لله على بني أمية وعلى عمالهم ، ونصراً للحق على الطغيان والعسف . أما الخوارج فلا نسمع عنهم في شرق الدولة الإسلامية إلا قليلاً ، ولكن لا شك في أنهم كان لهم من الشأن

(١) [يقصد المؤلف أن الإسلام بما تضمنه من تقرير مبدأ المساواة التامة بين المسلمين ، بصرف النظر عن الجنس أو اللغة ، في جميع الحقوق والواجبات كان هو السند الذي استندت إليه الثورة التي أسقطت الدولة الأموية استناداً إلى أنها لم تراع مبدأ المساواة بين المسلمين — المترجم] .

(٢) [يأمر الإسلام بالتمسك بالوحدة في الجماعة الإسلامية وينهى عن الفرقة والشقاق ، كما أنه يأمر بطاعة أولى الأمر أيّاً كان ، ما دام يحكم بالحق والعدل ، وينفذ أحكام الدين . ولكن الإسلام لا يقر الخضوع للظلم ، ولا يقر الحكومة الظالمة ، وقد دخل هذا في مبادئ الفرق السياسية والدينية — المترجم] .

هناك أكثر مما يمكننا أن نأخذه من الأخبار القليلة التي تذكر عنهم . وليس من الممكن أن ينشأ شيبان بن سلمة الحروري وأتباعه الكثيرون من الأرض فجأة ، على ما بدأ عليه ظهورهم في خراسان . ولكن المرجحة كانوا من غير شك أكبر شأنًا من الخوارج [في ذلك الوقت وفي تلك الجهة من الدولة الإسلامية] ، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج في تاريخ تلك الحقبة تدخلًا كان له أثره الكبير . وكل من الخوارج والمرجئة قد استنكروا ، من حيث المبدأ ، كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين . ولكن كلاً من الخوارج والمرجئة تراجعوا آخر الأمر إلى المحل الثاني تماماً أمام الشيعة الذين كانوا قد انتشروا في خراسان في وقت مبكر ، ثم جاءوا بالعمل الحاسم في إسقاط الدولة العربية .

وكان مقر الشيعة في العراق ، شأنها شأن الأحزاب التي كانت تتخذ من الدين سنداً لمقاومة حكومة بني أمية ، على أن فتح شرق بلاد العجم كان من جهة العراق العراق ، ومن العراق كانت قبائل العرب لا تزال تهاجر إلى بلاد العجم . ثم ظل الاتصال بين العراق وبلاد العجم قويا على الدوام ، وكان لا يزال يأتي من جهة العراق سيل القبائل العربية إلى أرض النهر ، ولم يكن هؤلاء المهاجرون أهدأ العرب نفوساً . ويظهر أن أسراء الأمويين في العراق ، ولا سيما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة فيوجهوها إلى خراسان ويستنفدوا توثبها وطاقها على العمل في جهاد المشركين ويتخلصوا بذلك من شرها . وبما له منزاه أن الحجاج كان حريصاً على إبعاد جند الشام عن بلاد الأعاجم لكيلا تنتقل إليهم عدوى روح الشر . أما بدايات ظهور الشيعة في خراسان فليس عندنا عنها روايات دقيقة ، وهذا طبيعي . ويبدو كأنما كانت بذور مبادئهم تطير في الهواء وتنتشر من تلقاء نفسها ؛ أما إلى أي حد كانت أهواء الناس مع الشيعة في خراسان فهذا ما يمكن أن يتبينه الإنسان من أن زيد بن علي لما أخفق في محاولته الثورة في الكوفة أشار البعض

على ابنه يحيى بأن يخرج إلى خراسان . وقد عمل يحيى بهذه المشورة ، وهو وإن كان قد قُتل وهو يقاتل ضد الدولة ، فإن استشهاد أنار سخطاً عند الجميع ، حتى يروى أن كل الصبيان الذين ولدوا في خراسان في تلك السنة سُمُّوا باسمه (المسعودى ج ٦ ص ٣) . وإذا كان أبو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى فإنه كان لا شك يعلم تأثير ذلك في النفوس ، وهو بذلك ضرب نعمة وجدت صدًى عند الجميع (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٥ و ج ٣ ص ٥٠٦ فما بعدها) . وأيضاً كان عبد الله بن معاوية بن جعفر يعتقد أنه إذا خرج إلى خراسان فهو مصيب مكاناً أميناً ، ولكن أخطأ ظنه في أبي مسلم ، لأن أبا مسلم لم يكن عنده مكان لعلوى حتى أكثر مما كان عنده لعلوى ميت ، فدرس على ابن معاوية من قضى عليه سرّاً . ولكن ابن معاوية أيضاً ظل يعتبر في خراسان شهيداً يقدره الناس زماناً طويلاً ، وكان قبره هناك يزار كثيراً .

ولو أن العرب في خراسان اتحدوا فيما بينهم وشدوا أزر الحكومة لما استطاع الشيعة بطبيعة الحال أن يندسوا في القبجوات التي أوجدها الشقاق . ولكن كما أن العرب لم يريدوا أن يقاسموا الموالى الساطان فإنهم أيضاً لم يُمتنع بعضهم به بعضاً . وكانت المناصب والمغانم التي كانت في يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعاً وسبباً للتحاسد الشديد بين القبائل ، وظلت العصبية داء العرب الباقي على الزمان ، حتى إذا بدأ ينزل عرش بنى أمية آخر الأمر اشتدت العصبية اشتداداً مزروعاً ، كما رأينا . وقد استغل الشيعة — بالمعنى الخاص للكلمة — هذا الموقف ، وكان العباسيون قد اتحدوا معهم منذ أن انفصلوا عن العلويين وخرجوا من المدينة إلى الحُمَيْمَةِ في الأرض الجبلية (أرض الشراة) الواقعة بين جزيرة العرب وبين الشام^(١) ، حيث لا يمكن أن ينافسهم العلويون .

(١) يرجع نسب العباسيين إلى عبد الله بن عباس ، المحدث الورع ، ابن عم النبي عليه السلام وابن عم علي ابن أبي طالب رضى الله عنه . وبعد أن قتل على وصالح ابن عباس معاوية =

وكان الشيعة فرقتين كبيرتين ، وإن كان التمييز بينهما لم يكن دائماً تمييزاً دقيقاً : فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا في المبدأ السياسي القائل بأن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي عليه السلام ، وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص في العقائد ، وهو مذهب غريب تماماً عن الإسلام الأول . وقد سمي الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة ، ولكنها لا تدل إلا على فوارق قليلة الشأن . ففي أول الأمر سُموا السبئية ، وفي رأى سيف بن عمر أن هؤلاء السبئية كانوا من أول الأمر أصل الشر والبلاء كله في تاريخ الدولة الإسلامية ، وهم قتلة عثمان وقاتلوا باب الفتنة والحرب الأهلية ، ومؤسسو حزب الخوارج النازحين ، وهم السبب في قتل المسلمين بعضهم بعضاً . والحقيقة أن السبئية لم يصبح لهم شأنهم التاريخي إلا على يد المختار الثقفي ، وإن كانوا قد كانوا موجودين قبل ذلك^(١) ، وكان موطنهم الكوفة وسوادها ، ولم يكونوا من العرب فحسب بل كان معظمهم من الموالى ، وكانوا يؤمنون بما ذهب إليه ابن سبأ من الرجعة ، أعنى رجعة الأرواح في أجساد مختلفة — وخصوصاً رجعة روح النبي عليه السلام في أبنائه . وهذه النقطة الثلاثة هي النقاط الجوهرية التي تتميز . أما أشرف العلويين ، أعنى أبناء السيدة فاطمة بنت النبي عليه السلام ، فإنهم لم يخرجوا عن أصول الإسلام

== ظل على علاقة طيبة مع الأمويين ولم يكن يعمل ضدهم إلا خفية . فلما جاء ابنه علي بن عبد الله بعده ، وكان مثله في الورع وكان يلقب بالسجاد أو بذى الثغفات ، لم يفعل غير ما فعله أبوه . وفي عهد عبد الملك بن مروان انتقل إلى دمشق . ولكن الوليد بن عبد الملك ، بعد أن مات عبد الملك أساء به ، فانتقل في سنة ٩٥ هـ مكرهاً كما يروى ، وسكن الحيمة عند أذرح على طريق الحج الآتي من الشام ، ومات وهو شيخ كبير في سنة ١١٨ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٢) . وكان لابنه محمد بن علي شأن أكبر منه بكثير ، حتى وهو على قيد الحياة ، فظهر أولاً بدعوى إمامة الشيعة ، وكان هو مؤسس الدعوة العباسية السرية ، وجعلها تعمل من أجله في الكوفة وخراسان ، في حين أنه لم يترك مكانه في الحيمة ، ومات في ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٩) ، وبعد وفاته جاء ابنه إبراهيم بن محمد إماماً ثانياً للعباسيين . وقد ولد إبراهيم هذا في سنة ٨٢ هـ .

(١) راجع فيما يتعلق بالمختار ما قلته عن الشيعة في كتابي ، ص ٧٤ فما بعدها .

الأول ولا عن أصول العروبة ، ولذلك نبذوا السبئية ، فتمسك هؤلاء السبئية بأحد أبناء علي من زوجة أخرى له ، وهو يسمى محمد بن الحنفية باسم أمه . فلم يعترض هذا على أن اتخذ السبئية بمثابة الصنم الذي كانوا يحتاجون إليه في مذهبهم ، ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئاً ، لأنه حتى ولو كان ميتاً لما كانت فائدته أقل منه حياً . ولقد قيل حيناً من الدهر أنه لم يموت ، بل كان لا يزال حياً غائباً في جبل رضوى عند المدينة ، مستعداً للظهور في الوقت المناسب . ولكن صار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام ، ولم يكن شأنه من حيث وراثته الإمامة أكبر من شأن أبيه . ولم يجد غلاة الشيعة الكوفيين ما كانوا يريدونه عند زيد بن علي بن الحسين . على أن أبا هاشم انتقل إلى الحيرة وأقام بها واتصل هناك بالعباسيين^(١) ، ويروى أنه لما مات سنة ٩٨ هـ أوصى توصية صريحة بأن تكون الإمامة لمحمد بن علي بن عبد الله ابن العباس .

وقد نبه فان فلوتن (van Vloten) على أهمية هذه الرواية الأخيرة تنبيهاً شديداً^(٢) ، ومهما يكن من شيء فالراجع أنها في صورتها هذه مخترعة^(٣) ، ولكن اختراعها كان منذ زمن مبكر ، لأن لها شواهد قوية^(٤) ، ولولا ذلك لحذر العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس . وهذه

(١) ربما كان هناك قبل العباسيين وانضموا إليه (٩٥ هـ) ولم يكن هو الذي انضم إليهم .

(٢) راجع كتاب فان فلوتن Opkomst der Abbasiden ، لندن ١٨٩٠ ص ١٨ فما بعدها و ص ١٤٨ .

(٣) جاء في الشهرستاني (ص ١١٢ س ١٩) أن أبا هاشم ، في رأى بعض فرق الهاشمية ، أوصى لآخرين منهم عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي .

(٤) انظر رواية الدائني عند الطبري (ج ٣ ص ٢٤) ، ورواية ابن سعد في Wüstenfeld Register ص ١٩ و ١٣٠ ، وعند فان فلوتن في كتابه Opkomst ص ١٤٨ .

الرواية تتضمن أيضاً قدراً من الحق ، فقد كان أبو هاشم في الواقع سلفاً لمحمد بن علي ، وإن كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعييناً حقيقياً . وقد كان لأبي هاشم حزبه الخاص ، وكان أتباعه يسمون الهاشمية^(١) ، وهم بعد أن مات أبو هاشم قد صاروا إلى محمد بن علي (الطبري ج ٢ ص ٢٥٠٠) وبحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٥٨٩) كان علي رأسهم خدّاش ، وهو من أكبر دعاة الشيعة نجاحاً ، وكان في أول الأمر يدعو إلى محمد بن علي . وعلى هذا ففي خبر تلك الوصية شيء من الحق : فالعباسيون والوا أبا هاشم لكي يضموا الهاشمية إلى دعوتهم .

وفي هذا ما يدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يُقَضَّ على السبئية في الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التي كان يكتنمها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستاني ، لا تختلف عن آراء ابن سبأ في شيء . وتأمّر العباسيين يشبه تأمّر السبئية كما يصفه سيف^(٢) شبهاً تاماً ، وكان مقر العباسيين في الكوفة أيضاً ، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم في خراسان ، وفي كلا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الحركة إلى الموالي من الأعاجم وصارت موجهة إلى محاربة العروبة باسم الإسلام . وإذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة ، فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذي كونه . وبستطيع الإنسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث التفاصيل : كانت العمدة الخشبية هي السلاح الوطني عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد

(١) راجع الشهرستاني ص ١١٢ فما بعدها ، أما عند الطبري فلا يرد اسم الهاشمية على أنه تسمية واضحة لفرقة إلا في ج ٢ ص ١٥٨٩ و ١٩٨٧ و ١٩٨٩ . أما في العادة فيستعمل اسم الهاشمية مشتقاً من هاشم لا من أبي هاشم ، ويقصد منه ما يقصد من قولنا الهاشميين ، ويجوز أن العباسيين لم يكرهوا هذا المعنى المزدوج لكلمة الهاشمية . والهاشميات في شعر الكميت قصائد عن أبناء فاطمة .

(٢) راجع كتابنا ... Skizzen ، قسم ٦ ص ١٢٤ ، والكتب اليهودية الأولى في اللاحم تأمل دوراً في الحالين .

المعجم ، وقد سميت هذه العمد باسم كفر كوبات عند خشبية المختار ، فكانت هذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشبية أبي مسلم^(١) . وكان أقدم أتباع المختار هم الموالي الذين كانوا في ضيعته في قرية الخطرنية من سواد الكوفة ، وبحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٠) أن أبا مسلم كان من أهل الخطرنية (راجع المسعودي ج ٦ ص ٥٩) . وإذا شك الإنسان في صحة هاتين الروايتين فإن ذلك لا يفقدهما شأنهما ، لأن الاختراع هو الذي بعث عليهما ، ونحن يكفينا الباعث . أما إذا كان العباسيون بعد أن كانوا قد ارتفعوا على أكتاف الشيعة تنكروا لهم ونبذوهم (ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) فليس ذلك عجيباً ، لأنهم تضايقوا منهم ، وكان على الشيعة أن ينصرفوا بعد أن أدوا مهمتهم .

يدل هذا كله على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التي أخفقت وثورة أبي مسلم التي نجحت . وبالرغم من أن نار الثورة التي قامت في ٦٧ هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر ، فإنها ظلت تومض تحت الرماد ، وانتقلت من الكوفة إلى خراسان . وكانت أرض خراسان أكثر ملاءمة ، لأن الموالي كانوا فيها أكثر تماسكا ، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا في الكوفة بكثير . ولقد كان المختار رجلا من أكبر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وقد توقع ما يحدث في المستقبل . وإذا صحت نظرية الرجعة فإن روح العربي الذي ثار في قرية الخطرنية قد رجعت في أبي مسلم ، أحد موالى هذه القرية .

٢ — وفي سنة ١٠٠ هـ وجه^(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو بأرض الشراة مبصرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج الذي يسمى أيضا أبا محمد الصادق ، وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة ، وكاهن من أهل

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ٦٩٤

(٢) الوجه بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) هو محمد نفسه ، ولكن بحسب

(ج ٢ ص ١٤٣٤) الذي وجه في الحقيفة مبصرة — [قارن الطبري (ج ٢

ص ١٩٨٨ — المترجم] .

الكوفة ، إلى خراسان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته . فلقوا من لقوا ، ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم ، فدفعوا الكتب إلى ميسرة ، فبعث بها إلى محمد بن علي . واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيباً ، واختار سبعين رجلاً غيرهم (من أهل خراسان) ، وأعطاهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثلاً وسيرة يسرون بها . وهذا ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، ولكن كون ذلك كان في سنة ١٠٠ هـ ، كما يقول الطبري (ج ٣ ص ٢٤) ، وكذلك ذكر أن عدد النقباء كان اثني عشر وأن عدد التابعين لهم كان سبعين رجلاً ، كل ذلك يثير الشك^(١) . والروايات المذكورة في حوادث السنوات التالية تتضافر على إثبات أن أمر الدعوة لم يكن بدون تنظيم ، ومعظم الروايات غير مُسندة لأصحابها ، ولا يذكر المدائني أسماء الرواة إلا في ثلاث روايات ، وها أنا ذا كرّ ما تضمنته :

الطبري ج ٢ ص ١٤٣٤ (في أحداث سنة ١٠٢ هـ) : وجه ميسرة رسوله من العراق إلى خراسان ، وظهر أمر الدعوة بها ، فجاء رجل من بني تميم إلى سعيد خديفة ، أمير خراسان من قبيل يزيد بن عبد الملك ، فقال له : ها هنا قوم قد ظهر منهم كلامٌ فيبيع ؛ فبعث إليهم سعيد ، فأُتي بهم ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : لا ندرى ؛ قال : جئتم دعاة ؟ فقالوا : إن لنا في أنفسنا وفي تجارتنا شغلاً عن هذا . فسأل سعيد : من يعرف هؤلاء ؟ . فجاء أناس من أهل خراسان جُلّهم من ربيعة .

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٩٨٨ ، أرسل محمد بن علي في سنة ١٠٢ أو ١٠٣ هـ رسوله (في صيغة المفرد) إلى خراسان . وبعد أن استجاب له سبعون رجلاً أخذ منهم اثني عشر نقيباً ، وتختلف أسماء هؤلاء النقباء في هذا الموضع من كتاب الطبري عنها في الموضع الآخر (ج ٢ ص ١٣٥٨) بعض الاختلاف ، وفي أسماء بعضهم اختلاف أيضاً ، هذا إلى أن ترتيب ذكر الأسماء ليس واحداً ، ويجوز أن يكون ما جاء في كتب الملاحم اليهودية من ذكر رقم المائة قد لبس دوراً . [عند الطبري ، في الموضع الذي يشير إليه المؤلف ص ٢ نجد أن لإرسال الرسول كان في سنة ١٠٣ أو ١٠٤ هـ — المترجم] .

واليمين ، فقالوا : نحن نعرفهم ، وهم علينا ، إن أنك منهم شيء ، تكرهه . فحلى سعيد سيبلهم .^(١)

الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٧ (فى أحداث سنة ١٠٥ هـ) قدم بكير بن ماهان من السند ، وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن ترجاناً له^(٢) ؛ فلما عُزل الجنيد ابن عبد الرحمن قدم الكوفة ومعه أربع آبنات من فضة وابنة من ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خنيس وسالماً الأعين وأبا يحيى مولى بنى سلمة ، فذكروا له أسر دعوة بنى هاشم ، فقبل ذلك ورضيه وأنفق ما معه عليهم ، ودخل إلى محمد بن على . ومات ميسرة ، فوجه محمد بن على بكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة ، فأقامه مقامه .

الطبرى ج ٢ ص ١٤٨٨ (فى أحداث سنة ١٠٧ هـ) وجه بكير بن ماهان أبا عكرمة وأبا محمد الصادق^(٣) ومحمد بن خنيس وعماراً العبادى ، فى عدة من شيعتهم ، معهم زياد خال الوليد الأزرق ، دعاءً إلى خراسان ، فجاء رجل من كندة إلى أسد بن عبد الله ، فوشى بهم إليه ، فأتى بأبي عكرمة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه ، ونجا عمار ، فقطع أسد أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم ، وصلبهم . فأقبل عمار إلى بكير بن ماهان ، فأخبره الخبر ، فكتب به إلى محمد بن على ، فأجابه : « الحمد لله الذى صدق مقاتلكم ودعوتكم ، وقد بقيت منكم قتلى ستقتل » .

الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٢ : نجد هنا نفس الرواية المذكورة فى أحداث سنة ١٠٧ هـ ، مذكورة فى أحداث سنة ١٠٨ هـ ، ولكن مع فرق : هو أن أسد ابن عبد الله أخذ عماراً فقطع يديه ورجليه ، ونجا أصحابه وأخبروا بكير بن ماهان

(١) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٧٢٦ س ١٠ كان بكير كاتباً لبعض عمال السند .

(٢) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٨ س ٤ و س ٤٦٧ س ٧ ؛ أبو عكرمة هو أبو محمد .

بالخبر ، فكتب به إلى محمد بن علي ، فأجاب محمد بن علي : الحمد لله الذي صدق دعوتكم ونجى شيعتكم .

الطبرى ج ٢ ص ١٥٠١ — ١٥٠٣ (في أحداث سنة ١٠٩ هـ) ، رواية المدائني :
 أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان ، في ولاية
 أسد بن عبد الله الأولى ، بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وقال له :
 أدعُ الناس إلينا ، وانزل في اليمن ، والطف بمُضَرٍّ ؛ ونهاه عن رجل من أبرشهر
 (نيسابور) يُقال له غالب ، لأنه كان مفرطاً في حب بني قاطمة . ويقال : أول
 من جاء أهل خراسان بكتاب محمد بن علي ، حرب بن عثمان مولى بني قيس بن
 ثعلبة ، من أهل بلخ ، قال : فلما قدم زياد أبو محمد دعى إلى بني العباس وذكر
 سيرة بني مروان وظلمهم وجعل يطعم الناس الطعام ، فقدم عليه غالب من أبرشهر ،
 فكانت بينهم منازعة : غالب يُفضّل آل أبي طالب ، وزياد يفضل بني العباس ؛
 ففارقه غالب ، وأقام زياد بمرور شتوة ، وكان يختلف إليه من أهل مرو يحيى بن
 عقيل الخزاعي وإبراهيم بن الخطّاب العدوي ... وكان على خراج مرو الحسن
 بن شيخ ، فبلغه أمره ، فأخبر به أسد بن عبد الله ، فدعا به وكان معه رجل يكنى
 أبا موسى ، فلما نظر إليه أسد قال له : أعرفك ؟ قال : نعم ، قال له أسد : رأيتك
 في حانوت بدمشق ، قال : نعم ، قال أسد لزياد : فما هذا الذي بلغني عنك ؟ قال
 رُفِعَ إليك الباطل ، إنما قدمت خراسان في تجارة ، وقد فرقت مالي على الناس ،
 فإذا صار إلى خرجت ، قال له أسد : اخرج عن بلادى ا فانصرف فماد إلى أمره ،
 فماد الحسن أسداً وعظم عليه أمره ، فأرسل إليه ، فلما نظر إليه قال : ألم أهلك
 عن المقام بخراسان ؟ قال : ليس عليك أيها الأمير منى بأس ، فأحفظ ذلك أسداً ،
 وأمر بقتلهم ، فقال له أبو موسى : فاقض ما أنت قاض ا فازداد أسد غضباً ،
 وقال له : أنزلتني منزلة فرعون ا فقال له : ما أنزلك ، ولكن الله أنزلك ا فقتلوا
 وكانوا عشرة من أهل الكوفة ، فلم ينج منهم يومئذ إلا غلامان استصغرها ...

وقال آخرون : عرض عليهم أسد البراءة ، فمن تبرأ منهم مما رُفِعَ عليه خَلَّى سبيله ؛ فأبى البراءة ثمانية منهم ، وتبرأ اثنان ؛ فلما كان الغد أقبل أحدهما ، وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة ، فقال : أليس هذا أسيرنا بالأمس ؟ فأنابه ، فقال له : أسألك أن تلحقني بأصحابي فأشرفوا به على السوق ، وهو يقول : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه نبياً ؛ فدعا أسد بسيف بخاراخذاه ، فضرب عنقه بيده ، قبل الأضحي بأربعة أيام . ثم قدم بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيراً ، فنزل على أبي النجم ، فكان يأتيه الذين لقوا زياداً ، فيحدثهم ويدعومهم ، فكان ذلك سنة أو سنتين ، وكان أمياً ، فقدم عايه خدّاش ، وهو في قرية تدعى سرعم ، فغلب كثيراً على أمره ؛ ويقال كان اسمه عمارة^(١) ، فسمى خدّاشاً لأنه خدش الدين^(٢) .

الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٠ (في أحداث سنة ١١٣ هـ) : سار من دعاة بني العباس جماعة إلى خراسان ، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله ، وقال : من أصيب منهم قدمه هدر !

الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١١٧) : أخذ أسد بن عبد الله جماعة من دعاة بني العباس بخراسان ، فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم ، وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ (من تميم) وخالد بن إبراهيم (من بكر) وطلحة بن زريق ، فأُتِيَ بهم ، فقال لهم : ألم يَقُلْ الله تعالى : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، والله عزيز ذو انتقام ؟ فذكر أن

(١) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٨ س ٩ اسمه عمار بن يزيد ، أما خدّاش فهو يسمى في العادة خدّاش ، لا خدّاش ، ولو أن اسمه كان خدّاشاً لزم استعمال الأداة مع الاسم فقبل الخدّاش [هذا ما يقوله المؤلف ، ولكن يسمى خدّاش بهذا الاسم لأنه خدش الدين — نقلنا عن الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٣ س ١٠ — ١١ — المترجم] .

(٢) زدنا في بعض النصوص التي يذكرها المؤلف مستنديين إلى الأصل — المترجم] .

سليمان بن كثير قال : أتسكلم أم أسكت ؟ قال : بل تسكلم ! قال : نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغير الماء حَتَّى شَرِقْتُ كُنْتُ كَالغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارِي

تدري ما قصتنا ؟ صيدت والله العقاربُ بيدك أيها الأمير ، إنا أناس من قومك ، وإن هذه المَضَرِيَّة إنما رفعوا إليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قتيبة ابن مسلم ، وإنما طلبوا بثأرهم . فتسكلم ابن شريك بن الصامت الباهلي ، وقال : إن هؤلاء القوم قد أخذوا مرة بعد مرة ، فقال مالك بن الهيثم : أصاح الله الأمير ! ينبغي لك أن تعتبر كلام هذا بنيره ، فقال : كأك يا أخا باهلة تطالبنا بثأر قتيبة ، نحن والله كنا أشد الناس عليه . فبعث بهم أسد إلى الحبس ، ثم استشار في أمرهم ، وانتهى الأمر بأن أطلق أسد من كان منهم من خزاعة وبكر وعاقب من كان منهم من تميم . أما موسى بن كعب فأمر به فأُلجم بلجام حمار ، وأمر بجذب اللجام حتى تحطمت أسنان موسى . . . ثم دعا بلاهر بن قريظ ، فاحتج لاهز على ترك الخزاعيين والبكرين ، فأمر أسد بضربه ثلاثمائة سوط ، ثم قال : اصلبوه ، فتدخل رجل من الأزد كان سبيًا في تخلية سبيل لاهز والآخرين^(١).

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ (في أحداث ١١٨ هـ) : وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس ، فنزل مرو وغير اسمه ، وتسمى بخِذَاش ، ودعا إلى محمد بن علي ، فسارع إليه الناس ، وقبلوا ما جاءهم به ، وسمعوا إليه وأطاعوا . ثم غير ما دعاهم إليه وتكذب وأظهر دين الخُرَّمِيَّة ودعا إليه ، ورخص لبعضهم في نساء بعض ، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن علي . فبلغ أسد بن عبد الله خبره ، فوضع عليه العيون حتى ظفر به ، فسأله عن حاله ،

(١) لم يكن يستطيع أن يقتل عرب خراسان ، كما فعل مع الموالي .

فَأَغَظَ خِدَاشَ لَهُ الْقَوْلَ ، فَأَمَرَ بِهِ أَسَدٌ فَقَطَعَتْ يَدَهُ ، وَخَلَعَ لِسَانَهُ ،
وَسُمِّمَتْ عَيْنُهُ .

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٩ : رواية المدائني : لما قدم أسد آمل في سنة ١١٨ هـ
أنوه بخدّاش صاحب الهاشمية ، فأمر به قُرْعَةُ الطبيب . فقطع لسانه وسمل عينه ،
ثم دفعه إلى عامل آمل ، فقتله وصلبه

الطبري ج ٢ ص ١٦٣٩ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٠ هـ) : وجهت
شيعة بني العباس بخراسان سليمان بن كثير إلى محمد بن علي بن العباس ليعلمه أمرهم
وما هم عليه ، وكان السبب في ذلك أن محمد بن علي بن العباس كان واجداً على
من كان بخراسان من شيعته من أجل طاعتهم خدّاش وقبولهم منه ما روى عن
محمد من الكذب ، فترك مكانبتهم . فلما أبطأ عليهم اجتمعوا فذكروا ذلك
بينهم ، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير ليلقاه بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع
إليهم بما يردّ عليه . فقدم سليمان بن كثير على محمد بن علي ، وهو متنكر لمن
بخراسان من شيعته ، فأخبره عنهم ، فعنفهم في اتباعهم خدّاشاً وما كان دماً إليه
وقال : لعن الله خدّاشاً ومن كان على دينه . ثم صرف سليمان إلى خراسان
وكتب إليهم معه كتاباً ، فقدم عليهم ومعه الكتاب مخنوماً . ففضوا خاتمه فلم
يجدوا فيه شيئاً إلا : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فغلاظ ذلك عليهم ، وعلموا أن
ما أبلغهم خدّاش عن محمد بن علي كان عن غير أمر محمد . وبعد ذلك وجه محمد
ابن علي بكير بن ماهان إلى شيعته بخراسان بعد انصراف سليمان بن كثير من
عنده إليهم ، وكتب معه كتاباً إليهم يعلمهم أن خدّاشاً حمل شيعته على غير مناجاه ،
فلما قدم بكير بالكتاب لم يصدقوه واستخفّوا به ، فرجع بكير إلى محمد بن علي
فبعث معه بعض مَضْبِيّة ، بعضها بالحديد وبعضها بالشبه ، فقدم بها بكير وجمع

النقباء والشيمة ودفع إلى كل رجل منهم عصاً ؛ فعلوا^(١) أنهم مخالفون لسيرته ، فرجعوا وتابوا .

الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ (في أحداث سنة ١٢٤ هـ) ، رواية المدائني : قدم جماعة من شيعة بني العباس ، من خراسان ، الكوفة ، وهم يريدون مكة ، وكان معهم بكير بن ماهان ، وكانوا يجتمعون في الكوفة في دار ، ففُوزَ بهم ، فأخذوا ، فحبس رئيسهم بكير بن ماهان ، وكان في الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل المعجلي ، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه ؛ فدعاهم بكير ، فأجابوه إلى رأيه . وسأل بكير عيسى عن الغلام الذي معه ، فقال إنه مملوك له ، ثم اشتراه بكير بأربعمائة درهم . ثم خرجوا ، فبعث ابن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد بن علي ، فدفعه هذا إلى موسى السراج ، فسمع منه وحفظه ، ثم صار إلى أن اختلف إلى خراسان^(٢) .

وانذكر إلى جانب ماتقدم رواية أخرى جاءت عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ فما بعدها و ص ١٧٦٩ : وقال غير المدائني : توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب ، وكانوا نقباء شيعة بني العباس في خراسان ، وهم يريدون مكة في سنة ١٢٤ هـ ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس المعجلي ، وهو في الحبس قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس ، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل — حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله القسري — ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فأروا فيه العلامات فقالوا : من هذا ؟ قالوا : « غلامٌ معنا من السرايين » . وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان في هذا

(١) لابد أنهم فهموا معنى العصي أحسن مما أفهمه أنا ، ولا يمكن أن تكون العصي مجرد علامة تفويض لابن ماهان .

(٢) فيما يتعلق بالعبارة التي ليست واضحة تماماً عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ س ١٧ قارن بقية الرواية ج ٢ ص ١٩٤٩ س ١٤ .

الأمر ، فإذا سمعها بكى ، فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى ما هم عليه ، فأجاب وقبل .
وقدم القوم مكة^(١) ، فلقوا ، في قول بعض أهل السير ، محمد بن علي ، فأخبروه بقصة
أبي مسلم وما رأوا منه ، فسألهم : أحرّ هو أم عبدٌ ؟ قالوا : أما عيسى فيزعم أنه
عبدٌ ، وأما هو فيزعم أنه حر ، قال : فاشتروه وأعتقوه . وأعطوا محمد بن علي
مائتي ألف درهم وكسب ثلاثين ألف درهم ، وقال : ما أظنكم تلقوني بعد عامي
هذا ، فإن حدث بي حدثٌ فصاحبكم إبراهيم بن محمد (ابنه) ، فإني أثق به ،
وأوصيكم به خيراً ، فقد أوصيته بكم ، فصدروا من عنده ، وتوفي محمد بن علي في
مستهل ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة . وكان بين وفاته
وبين وفاة أبيه على سبع سنين .

الطبرى ج ٢ ص ١٨٦٩ (في أحداث سنة ١٢٦ هـ) : وجه إبراهيم بن محمد
الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان ، وبعث معه بالسيرة والوصية ، فقدم
سرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى لهم الإمام محمد بن علي ودعاهم إلى
إبراهيم ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه . ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات
الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم بن محمد .

الطبرى ج ٢ ص ١٩١٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٧ هـ) : كتب بكير
ابن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم
من أيام الدنيا ، وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان بن الخلال مولى
السبيع ، وهو رضى الأمر ، وكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر
أصحابه ، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند الأمر إليه . ومضى أبو سلمة
إلى خراسان فصدقوه وقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع قبيلهم من نفقات الشيعة

(١) في آخر سنة ١٢٤ هـ ، وإذا كان الطبرى يذكر ذلك في أخبار سنة ١٢٥ هـ
فليس لذلك كبير شأن ، لأن الحج يقع في نهاية العام وأول العام الذى يليه .

وخمس أموالهم ، وكانت يلقب : « وزير آل محمد » (الطبرى ج ٣ ص ٢٠ و ٦٠) .

في كل هذه الروايات نجد أن الكوفة مهد دعوة العباسيين ومركزها ، ففي الكوفة كان نواب الإمام الغائب وخلفاؤه ، وهم مبصرة وابن ماهان وأبو سلمة ، وكان بالكوفة أيضاً عدتهم وأعوانهم ، وكلهم موالٍ ومن أمة الأعاجم ، ومهنتهم التجارة والصناعة . ولا شك أنه قد كان هناك عرب في شيعة بنى العباس ، لكنهم لم تكن لهم الرياسة ، وكانت الدعوة تنشر في خراسان ، أعني في مرو آتية من الكوفة . وبعد سنة ١٠٠ هـ بزمان طويل كان الدعاة هناك من أهل الكوفة خاصة ، وكانوا تجاراً غرباء ، وكانت مبادئ الدعوة غير ظاهرة ، وكاد يفضى عليها في مهدها ، وكان أول من نجح في الدعوة خدش ، وأول ما نجد ذكره في سنة ١٠٩ هـ . وينبغي أن يشك الإنسان في أنه في ذلك الوقت كان قد بدأ يقوم بالدعوة فعلاً ، ولكن من البعيد عن الحقيقة أيضاً أن يكون إنما قدم من الكوفة إلى خراسان في سنة ١١٨ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها . وقد تدفق إليه أهل مرو كالسيل ، وقبلوا كلامه واتبعوه ، فالظاهر أنه هو المؤسس الحقيقي لشيعة بنى العباس في مرو . ويظهر أيضاً أنه هو الذى نظمهم ، فلا عجب إذن أن نسمع في سنة ١١٧ هـ ، لأول مرة ، أخبار الدعاة النقباء من أهل خراسان ، وهم الذين كان محمد بن علي بن العباس نفسه قد اختارهم في سنة ١٠٠ هـ ، كما نسمع أن هؤلاء الدعاة النقباء صاروا أكثر تماسكاً بخدش منهم بمحمد بن علي نفسه . وعلى حين كان سواد شيعة بنى العباس في مرو من الموالى كان الدعاة الأولون عرباً ، ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٥٨٦) ستة منهم ، وكان أكبرهم ، وهو الذى صار رئيسهم بعد موت خدش ، سليمان بن كثير . وكان سليمان من خزاعة ، وكان لخزاعة قرى في واحة مرو ، وقد كان فيهم وفيمن كان معهم من الأتكارين الأعاجم طائفة كبيرة جداً تؤيد دعوة شيعة العباسيين ، وكان يربط بين خزاعة وبين آل يد-

النبي عليه السلام حلف قديم ، هذا إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى الأزدي ، وكان الأزدي منذ سقوط المهالبة يقفون على الدوام تقريباً في صفوف الحزب المعارض لحكومة بني أمية ، فكانوا أقرب للنائر بالثورة على هذه الحكومة من قبائل مضر . على أنه كان من بين الدعاة الستة الذين أخذهم أسد في سنة ١١٧ هـ ثلاثة من خزاعة وواحد من بكر واثنتان من تميم . وعلى هذا لا يصح أن يعلق الإنسان كبر شأن على الفوارق بين القبائل . وكان هؤلاء الشيعة ، ومن بينهم العرب أيضاً ، يعارضون روح القومية العربية ، وكانوا يرون أن الإسلام ، لا العروبة ، هو الذي يجعل للإنسان حقوق المواطن في الدولة التيقراطية ، ولم يكن الموالي أيضاً محرمون من أن يكون لهم مكان الزعامة في الحزب ، ونجد من بين الدعاة الاثنى عشر الذين يذكرهم الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، أربعة من الموالي إلى جانب ثمانية من العرب .

ولكن محمد بن علي لم يتنكر لخداش إلا بعد موت خداش ، وهو لم يتنكر له قبل ذلك ، فقل عنه إنه الخارج المضل الذي بذر بذور الفساد في الدعوة وحمل الشيعة والدعاة على غير منهاج الإمام ، كأنما كان خداش قد وجد حزب الشيعة أمامه ، وكأنما كان قد وجده منظمًا قبل أن يدخل هو فيه . وقيل أيضاً إن الخليفة أو الطعم الذي رمى به بين مبادئ الحزب هو مذهب الخرمية ، ولا شك أن الحزب الذي نشر مبادئه خداش وتزعمه كان هو حزب الهاشمية ، أما الخرمية فلم تكن حزباً ، بل كانت نزعة إباحية عامة . وكان الخرمية ، كما يزعمون ، لا يرضون عما في الإسلام من نزعة يهودية ، أعنى أنهم كانوا يعترضون على روح التطهر والتشدد الخزينة في ذلك ، فكانوا يريدون أن يجعلوا للطبيعة والمرح مكانهما في الدين . وهم في ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التي كانت في بلاد العمم من قبل ، ويجوز أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادئ اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالي أحسن ملامة . ويرى أن الخرمية والراوندية قد

جددوا الدعوة إلى الشيوعية في النساء ، وهي الشيوعية التي كان مزدك قد دعى إليها من قبل . وعلى هذا فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خدش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعي ، بل أن يكون قد أيده واستفاد منه . غير أنه يجب على الإنسان أن يستبعد القول بأن يكون ذلك بمثابة حبر العثرة الذي من أجله نفر العباسيون من خدش ، لأن العباسيين في ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم ، وهم لم يندوهم إلا فيما بعد ، ولم يظهروا بمظهر المتمسكين بمذهب الجماعة وأهل السنة إلا بعد أن وصلوا إلى غايتهم^(١) ، أما في أول أمر دعوتهم فإنهم كانوا يحاربون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة لحكومة بني أمية ، أيا كان لون مذهب هؤلاء الشيعة . وكانت الغاية الأولى للعباسيين هي الناحية السلبية ، أعنى إسقاط حكومة الأمويين ، فأما الناحية الإيجابية ، وهي التغلب على الخلافة ، فقد جعلوها في المحل الثاني ، وهم لم يكونوا في الجملية يظهرون أمام أتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ما كانوا يزعمون أنهم الأداة التي أرادها الله لقلب حكومة بني أمية . فهم لم يُقدِّموا أشخاصهم بل قدموا القضية التي أرادوا الدفاع عنها ، وهي الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم . وهم لم يكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وباسمهم ، بل كانوا يأخذونها لمرضى مجهول من آل بيت النبي عليه السلام ، متفق عليه الكلمة فيما بعد . بل إنه في بعض الأحيان لم تفتح أعين أنصارهم الذين اتخذهم وسيلة لذلك ، حتى رأوا الغرض الحقيقي ، إلا في وقت متأخر عن بدء الدعوة . وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنهم كانوا يريدون تنحية بني فاطمة ، بل هم كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجل بني فاطمة . وهم قد ظهروا في خراسان

(١) [إن كلام المؤلف هنا مبالغ فيه دون أي شك ، وسد باب غرض بني العباس أن يصلوا إلى الخلافة ، ولكن أسلوب بني أمية في الحكم وسيرة بعضهم هو الذي مكّنهم بحق من النجاح في دعوتهم ، أما أنهم استعانوا بالزنادقة كما يقول المؤلف ، فليس عليه دليل تاريخي ولا حقيقي — المترجم] .

وفي غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة ، ولذلك لم يكونوا
يستطيعون أن يتنكروا للحزب الآخر من الشيعة^(١) ولا أن ينبذوه ، لأنهم كانوا
لا بد لهم أن يتخذوه عماداً لهم إزاء بني فاطمة . فأما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون ،
وأن تكون سيرتهم في الحياة كما يحبون ، فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة
يمكن حلها فيما بعد . وكان همهم الأول هو أن يتعلق الشيعة بهم ، فلم يعباؤا
بالإباحية التي كانت موجودة عند الهاشمية . أما الذي كان يقلقهم فهو التنظيم
الذي صار للشيعة بخراسان وصار مستقلاً عنهم وجاء على أثر اشتداد أمرهم
اشتداداً كبيراً برئاسة خدش هناك . وقد تكونت في مرو رئاسة محلية من أهل
خراسان ، وهي لم تشأ -- وهذا ما يستطيع الإنسان أن يتبينه بوضوح تام -- أن
تخضع لتوجيه رئاسة الكوفة وتأمر بأمرها ، وإن كان ذلك على كل حال
لا يؤثر على الولاء لمحمد بن علي نفسه . ولكن نشأ أيضاً خطر بالنسبة لمحمد بن
علي ، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان ، ذلك أنه إنما كان يسيطر
عليهم من طريق شيعته في الكوفة ، ولذلك استعمل مكائده وسلطته الشخصية
التي كانت له على دعائه في خراسان في أن يحملهم على النزول عن استقلالهم
والخضوع « للوزير » في الكوفة . وقد أفلح بمشقة في آخر الأمر في أن يضم
إليه رئيسهم سليمان بن كثير . وعلى حين أن أهل خراسان ردّوا « وزير الكوفة »
سنة ١٢٠ هـ ، لما جاء إليهم في مرو ، فإننا نجد أنهم رحبوا به في سنة ١٢٦
و ١٢٧ هـ ، وأعطوه أيضاً ما اجتمع قبيلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ،
وكانوا من قبل يحملون الأموال إلى الإمام نفسه ، وكانوا لا يزورونه في الحجة
بل كانوا يلقونه في مكة : وكان الحج إلى مكة فرصة مواتية لاجتماع العناصر
الشارّة دون أن تلتفت إليهم الأنظار ، وقد صارت العلاقة الشخصية بين الأنباغ

(١) [بقصد المؤلف في التآلب شيعة خدش — المترجم] .

وبين الإمام تأخذ طابعاً أكثر حيوية ، كما صارت من طريق المال تأخذ طابعاً أكثر واقعية .

٣ — وقد اتخذ إبراهيم بن محمد بن علي وخليفته خطوة حاسمة لكي يقبض على زمام الأمر في خراسان قبضاً تاماً ، وذلك بأن وجه أبا مسلم إلى خراسان^(١) . وأصل أبي مسلم غامض والروايات فيه مختلفة ؛ أما الذي لا شك فيه فهو أنه لم يكن عربياً بل كان أعجمياً ، وكان مملوكاً أو مولى في الكوفة . وقد استرعى ، وهو ما يزال في سن الصغر ، انتباه شيعة بني العباس هناك ، مما دعا إلى إرساله إلى إبراهيم ابن محمد ، فأخذه إبراهيم وضمه إلى أسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته . وفي سنة ١٢٨ هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس في خراسان ، فأقام هناك وجعل رئيساً للدعوة ، وكان قد أصبح معروفاً في خراسان بعد زيارته المتكررة إليها . ثم آن الأوان ، فكانت القبائل العربية النائرة في خراسان قد أخرجت نصر بن سيار من مرو وأصبحت أيدي الحكومة الأموية مشغولة بشورات من كل نوع وفي كل مكان^(٢) .

وقد بدا أن مولى يتخذ العباسيون أليق وأجدر بالثقة في خراسان من عربي حر كان حتى ذلك الحين على رأس الهاشمية هناك . ولم يكن المقصود من توجيه أبي مسلم هو أن ينحى سليمان بن كثير عن مكانه ، لأن الإمام إبراهيم بن محمد أوصاه ألا يخالفه ولا يعصيه وأن يكتبي عندما يشكك عليه أمر بالرجوع إليه . ولكن صار لسليمان ، في شخص أبي مسلم ، منافس يهدد مركزه . ومن السهل

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٩٤٧ — المترجم] .

(٢) يحيى نيوفايس (في أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليفة) : « ولا كان بنو أمية منذ مقتل الوليد قد وقعوا في حروب بينهم ، وكانوا مشغولين بذلك إلى أقصى حد ، فقد اغتتم ذلك بنو هاشم وأبناء علي ، وهم أيضاً قرابة للنبي عليه السلام ، ولكنهم كانوا يعيشون مخفيين . وهارين في جزيرة العرب الصغرى ، فاتحدوا تحت رئاسة إبراهيم ، وبعثوا أبا مسلم . ولاحم إلى خراسان ، إلى رجال لهم نفوذ هناك لكي يدعروهم إلى الاشتراك في محاربة مروان » .

أن نفهم أن سليمان ، جرياً على ما فعله غيره من قبل ، لم يستقبل أبا مسلم فاتحاً ذراعيه ، وكان من أثر ذلك أن صعب على أبي مسلم المقام في مرو . وهو لم يفده زواجه من ابنة أبي النجم — وكان هذا من أسرة أحد الدعاة — شيئاً ، وظل أبو مسلم يُقَتَّبَر دخيلاً ، ولم يستطع أن يقف إزاء سليمان ، فرأى أن يخلي الميدان .

فخرج أبو مسلم من مرو راجعاً إلى الكوفة^(١) ، ولكنه لما بلغ مدينة قومس وأوشك أن يخرج من أرض خراسان ، أمره إبراهيم بن محمد بالعودة وأرسل له راية النصر . وذلك أن تغيراً حدث في مرو ، وأبدت شيعة بني العباس استعدادها لطاعة أبي مسلم نائباً مفوضاً من قبل آل البيت . فتولى أبو مسلم إعداد الثورة بنجاح كبير ، ويظهر أن نشاطه في ذلك قد انقطع بسبب رحلة قام بها في جمادى الآخرة سنة ١٢٩ هـ إلى مكة ، ومعه بعض أصحابه ، لياقي الإمام هناك ويحمل إليه ما اجتمع من أموال^(٢) . ولكنه لما بلغ الحدود الغربية لخراسان وجّه قحطبة بن شبيب الطائي إلى مكة^(٣) ، وعاد هو إلى مرو . فهو لم يكن يقصد من الحج سوى غرض ظاهر ، أما ما كان يريده في الحقيقة فهو أن يزور الشيعة المتفرقين ، على اختلاف ألوانهم ، لكي يدعوهم إلى الدعوة العباسية ويهيئهم إلى الثورة القريبة . وهو لكي يتصل بزعمائهم جاب كل خراسان الغربية حتى بلغ حدود جرجان ذهاباً وإياباً ، وكان يقيم في كثير من المواضع الهامة للشيعة بعض الوقت ، حتى إذا عاد إلى مرو بدأ في الظهور جهره . وإني فيما يتماق بالتمييز بين رحلتين قام بهما أبو مسلم أتابع تلك الرواية التي ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٠ فما بعدها) دون أن ينسبها إلى أحد : ففي الرحلة الأولى خرج أبو مسلم من مرو ، لأنه لم

(١) [يجد القارى " تنصيلاً في هذا عند الطبري ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها — المترجم] .

(٢) التاريخ الذي يذكره الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٢) هو بالنسبة للقيام بالحج تاريخ

بكر بعض الشيء .

(٣) [وكان هذا أيضاً بأمر من الإمام نفسه — الطبري ج ٢ ص ١٩٥١ — المترجم] .

يستطع المقام هناك بسبب رد الشيعة له لخدانة سنه وخوفهم ألا يقوى على الدعوة .
وفي الرحلة الثانية جاب غرب خراسان بقصد إثارة الناس ، لكنه كان يظهر
الخروج للحج . أما المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها) فهو لا يعرف
لأبي مسلم سوى رحلة واحدة : هي الرحلة الثانية ، والمدائني لا يذكر شيئاً عما كان
بين أبي مسلم وبين سليمان بن كثير من تباعد يسهل أن يكون سبباً في النزاع . لكن
كل القرائن والأسباب ترجح وجود هذا النزاع ، كما أبرز ذلك فان فلوتن بحق^(١) .
ولكن باستطاع الإنسان رغم هذا أن يكتفي برحلة واحدة ، وأن يفترض أن
أبا مسلم ، بعد أن لم يستطع المقام في مرو ، حاول بمجهوده الخاص أن يوجد لنفسه
مركزاً في غرب خراسان . ولكن خروجه للحج مع قوم من أهل مرو لا يتفق
مع هذا الغرض ، وخصوصاً أن صعوبات ترجع إلى التواريخ تقوم دون ذلك ،
لأن أيام الحج الذي كان هو الغاية من السفر كانت متحل في آخر سنة
١٢٩ هـ ، وأن قحطبة لم يرجع من مكة إلا في سنة ١٣٠ هـ . ولكن في هذا
الوقت كانت الثورة قد نظمت في مرو تحت رئاسة أبي مسلم تنظيمًا تاماً ، وهي قد
بدأت على الفور بعد عودته من رحلته التي قام بها لدعوة الناس ، ولإعدادهم
للاثورة . فلا بد أن يكون خلاف أبي مسلم مع سليمان بن كثير واضطراره إلى
الخروج من مرو على أثر هذا الخلاف قد حدث بعد ذلك ، أي قبل وصوله إلى
مرو لأول مرة سنة ١٢٨ هـ ، وربما كان بلوغ أبي مسلم في تينسكا الرحلتين إلى
الحدود الغربية لخراسان ، ثم عودته من هناك ، قد دعا إلى اعتبار الرحلتين
رحلة واحدة .

وفيما يتعلق بالثورة في قرى خزاعة عند مرو في النصف الثاني من سنة ١٢٩ هـ
(صيف ٧٤٧ م) يذكر الطبري رواية المدائني (ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها ،

(١) قارن نص المقرئ الذي ذكره فان فلوتن عن أهل الكافية وذلك في كتابه

وص ١٩٦٥ فما بعدها ، وص ١٩٨٩ فما بعدها) ورواية أبي الخطاب (ص ٩٩٥٣ فما بعدها وص ١٩٦٧ فما بعدها و١٩٨٤ فما بعدها) وأيضاً رواية لقوم لا يذكر أسماءهم (ص ١٩٦٠ فما بعدها و١٩٧٠ فما بعدها و١٩٩٢ فما بعدها) . وهذه الروايات متفقة في بعض الخطوط الكبرى ، وأيضاً في بعض التفاصيل التي تسترعى النظر ، ولكنها تختلف فيما بينها بعض الاختلاف ، وهي أيضاً ليست متسقة فيما بينها ، وكلها بعيدة كل البعد عن أن تكون كافية .

وأقرب الروايات للصواب وأحقها بالثقة رواية أبي الخطاب ، وهي تبدو عند النظرة الأولى أكثر الروايات تماسكاً ؛ فهو يقول إن أبا مسلم عاد إلى مرو منصرفاً من قومس في يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩ هـ (الثلاثاء ٢٥ إبريل سنة ٧٤٧ م) فنزل أول الأمر قرية تدعى فنين ، وهي قرية أبي داود بن إبراهيم البكري^(١) ، وفي الثاني من رمضان (١٧ مايو) خرج أبو مسلم من هناك إلى قرية سيقذنج ، وهي قرية سليمان بن كثير الخزامي ، وجعل يوم ٢٥ رمضان هو يوم الظهور بالثورة ، وأخبر بذلك الأتباع في مرو الزوذ وطخارستان وخوارزم . وفي هذا اليوم في الحقيقة عُقد اللوامان اللذان كان الإمام قد بعث بهما ، ورفعا في سيقذنج وأوقدت النيران للشيعة من سكان القرى المجاورة ، وكانت هي العلامة بينهم ، فجاءوا في اليوم التالي واجتمعوا أولاً في قرية سقادم في ٢٧ رمضان ، وبلغ عدد العسكر ألفين ومائتين من الرجال وستة وخمسين من الفرسان . وفي يوم عيد الفطر ، وهو يوم الجمعة أول شوال سنة ١٢٩ هـ ، أقيمت في سيقذنج أول صلاة على مذهب العباسيين ، وصلى بالناس سليمان بن كثير . وبعد الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة معه إلى طمام كان قد أعده لهم أبو مسلم ، فطعموا مستبشرين ، وبعد ظهور أبي مسلم بالدعوة الثمانية عشر يوماً^(٢) أقبلت إليه خيل عظيمة بعثها نصر

(١) تارن الطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ — ١٥ .

(٢) ما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٥٧ س ١٧) من ذكر أن نصراً وجه خيله لمحاربة أبي مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره خطأ .

ابن سيار أمير خراسان بقيادة مولى له يسمى زيد ، لقتال أبي مسلم ، فوجه أبو مسلم
أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، فهزم خيل نصر عند قرية آلين ، وجرح زيد
وأسر ، وأسر أبو مسلم أحد رجاله بأن يعالج هذا القائد من الجراحات التي أصيب
بها وأن يحسن تعهده ، حتى إذا اندملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيره بين الإقامة
معه والدخول في الدعوة أو الرجوع إلى مولاة نصر بن سيار ، على أن يُعطى عهد
الله ألا يحاربه أي مسلم وقومه ولا يكذب عليهم ولا يقول فيهم غير ما رأى ،
فاختار الرجوع إلى مولاة وخائى له الطريق ، وإنما كان أبو مسلم يقصد من
حسن معاملة قائد نصر أن يكون شاهداً على أبي مسلم وشيعته في إقامتهم الصلاة
وتلاوتهم القرآن ... الخ . وأن يكون ذلك سبباً في ردّ أهل الورع والصلاح
عند محاربة الثائرين . وقد شهد مولى نصر أمامه بذلك ، وصرّح بأنه لولا
ما يربطه بنصر من رابطة الولاء لما رجع إليه ولأقام عند أبي مسلم^(١) .

وفي أول ذي القعدة استولى خازم بن خزيمة التيمي على مدينة مرو الروذ ،
وقتل عامل نصر بن سيار الذي كان عليها ، ومكث أبو مسلم في الجملة اثنين
وأربعين يوماً في سيقذنج ، وفي يوم الأربعاء ٩ من ذي القعدة (السبت ٢٢
يوليه) نقل عسكره إلى الماخوان التي صارت بعد ذلك مقراً لقوم من كبار
الشيعة ، وهنا أعد أبو مسلم نفسه لمقام طويل ، وعين العمال وحصن المكان .
ولو أنه كان رجلاً من طراز آخر لا تأخذ عند ذلك الحين مظهر الأصرار ، وكان
جيشه يبلغ سبعة آلاف رجل ، فأمر بأن يُقَيَّد في السجل كل جندي بحسب
اسم أبيه واسم قريته ، وكان الرزق الذي يعطيه لكل منهم يتراوح بين ثلاثة
وأربعة دراهم في الشهر ، ووجه أبو مسلم أهل سقادم — وكانوا تسعمائة رجل —
إلى جيرنج ، لكي يخذلوا هناك ويقطعوا مادة نصر بن سيار من مرو الروذ
وكور بلخ وطخارستان . أما العبيد فقد جعلهم في خندق خاص بهم ، ثم وجههم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٥٣ — ١٩٥٩ — المترجم] .

بعد ذلك إلى موسى بن كعب النخعي في أبيورد ، وبعد أربعة أشهر انتقل أبو مسلم من الماخوان ، لأنها كانت سافلة الماء فخاف أن يقطع نصر بن سيار عليه الماء ، وكان يخشى هجوماً من جانب عرب سرور الذين عقدوا صلحاً فيما بينهم لمحاربتة ، فتحول إلى آلين ، واحتفل فيها بعيد الأضحى (٢٢ أغسطس سنة ٧٤٧ م) . وقد صنع ما توقعه ، فجاءت جند الحكومة بالفعل لمحاربتة ، وعانوا في الترى وأفسدوا كل أنواع الفساد ، حتى وجه أبو مسلم إليهم خيلاً هزمتهم . وقد وقع في يده بعض الأسرى مجروحين ، فأمر بأن يعالجوا ، حتى إذا اندملت جروحهم كسأهم وختل سبيلهم^(١) . ولكن اتحاد أعداء أبي مسلم لم يدم طويلاً ، لأن سليمان بن كثير أقنع على بن جذيع الكرمانى بأن ينقض الصلح الذى كان بين القبائل^(٢) . فقد بعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر ، وبعث ربيعة وخطبان إلى أبي مسلم بمثل ذلك ، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين لكي يختار أحدهما ، وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا خطبان وربيعة ، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد خطبان في بستان فأجلسهم فيه ، وقعد هو في بيت ، وأذن لوفد مضر فدخلوا عليه . وكان مع أبي مسلم سبعون رجلاً من الشيعة ، وكان قد أوعز إليهم بما يقولونه ، فقام رجال منهم فقالوا إن مضر قتلة آل النبي عليه السلام وأعوان بني أمية وعمال مروان الجعدي (مروان بن محمد) ، وإن دماء المسلمين في أعناقهم وأموالهم في أيديهم ، وإن نصر بن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعوله ويسميه أمير المؤمنين ، وانتموا بأن اختاروا على بن الكرمانى وأصحابه من ربيعة وخطبان على نصر بن سيار

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٥ — ١٩٧٠ — المترجم] .

(٢) [اتحدت قبائل العرب على عارية أبي مسلم وإلى الوقوف إلى جانب نصر بن سيار ولكن سليمان بن كثير استطاع بتدبير أبي مسلم أن يقنع على بن الكرمانى بالانتفاض على نصر متهماً نصرأ بقتل أبيه جديع الكرمانى وبصلبه ، فأدركت الحفيظة على بن الكرمانى فانشق على الحلف وانتفض صلح العرب (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٤ — ١٩٨٥ — المترجم) .

وأصحابه من مضر . فنهض وفد مضر ، وعليهم الذلة والكتابة ، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين . وبعد أن أقام أبو مسلم في آلين تسعة وعشرين يوماً رجع إلى الماخوان وأمر أصحابه أن يبنوا المساكن ويستعدوا للشتاء ، لأن الله قد أعفاهم من اجتماع كلمة العرب . وكان رجوع أبي مسلم إلى الماخوان في يوم الخميس للنصف من شهر صفر سنة ١٣٠ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ٧٤٧ م) . فأقام أبو مسلم في الماخوان ثلاثة أشهر ، ثم دخل مرو في يوم الخميس ٩ جمادى الأولى^(١) . وكانت مدينة مرو نفسها في يد نصر بن سيار ، فعند ذلك هاجم علي بن جديع مرو من جهة ، وهاجها أحد قواد أبي مسلم من جهة أخرى ، ثم دخلها أبو مسلم والقتال دائرة . ووادع نصر أبو مسلم ، ولكنه هرب في اليوم التالي ومعه أصحابه ، وقتل أبو مسلم أربعة وعشرين من العرب من بينهم سلم بن أحوز التميمي^(٢) .

وليس في هذه الرواية دقة ولا كبير تماسك ، وذلك يتجلى مثلاً في التكرار المتعلق برد هجوم قام به أعداء أبي مسلم على آلين ، وبتهدأبي مسلم للأسرى الجرحى وحسن معاملته لهم . غير أنه يتجلى خاصة في بعض المعلومات المتعلقة بتحديد التواريخ ، وهذه المعلومات هي التي تتضمن أكبر التناقض ، والفترات الطويلة المذكورة خاصة لا تتفق مع تواريخها المحددة لها في تقويم التواريخ : يأتي أبو مسلم إلى سيقذنج في ٢ رمضان سنة ١٢٩ هـ (١٧ مايو سنة ٧٤٧ م) ويمكث فيها اثنين وأربعين يوماً ، أي حتى منتصف شوال (آخر يونيو) .

(١) عند الطبري ج ٢ ص ١٩٨٦ ص ١٨ و ص ١٩٨٧ ص ١٤ ، كان ذلك في جمادى الأولى ، ولكن بحسب ص ١٩٨٤ ص ١٤ كان ذلك في جمادى الآخرة . وإذا كان أبو مسلم قد بقى في الماخوان ثلاثة أشهر تبدأ في منتصف صفر فإن الأصح هو جمادى الأولى ، أما إذا كان دخوله مرو يوم الخميس فإن جمادى الآخرة يكون هو الأصح ، وذلك أن التاسع من جمادى الأولى كان يوافق يوم اثنين ، والتاسع من جمادى الآخرة يوافق يوم الأربعاء ، وفرق يوم واحد ليس له شأن ، لأن أول الشهر كثيراً ما يختلف يوماً .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٨٤ — ١٩٩٥ — المترجم] .

ولكنه لا يخرج من سيقذنج إلى الماخوان إلا في ٩ من ذى القعدة (٢٢ يولييه) .
ومن جهة أخرى يُذكر أن الفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم في الماخوان كانت
أربعة أشهر ، ولكن نجمده في آلين في أول ذى الحجة (منتصف أغسطس)
أي بعد شهر أو أقل ، ثم هو يقيم في آلين ٢٩ يوماً ، أي حتى أول المحرم سنة
١٣٠ هـ (منتصف سبتمبر) ، لكنه لا يرجع إلى الماخوان إلا في منتصف صفر
(آخر أكتوبر) . أما الفترة الثانية التي يقيمها أبو مسلم في الماخوان فهي ثلاثة
أشهر ، أي حتى منتصف جمادى الأولى ، ويتفق مع هذا على وجه التقريب
تاريخ دخوله مرو ، إذا قبلنا القول بأن ذلك كان في التاسع من جمادى الأولى
لا في التاسع من جمادى الثانية .

وعلى هذا لا بد من تصحيح رواية أبي الخطاب بالرجوع إلى رواية المدائني .
أما الرواية التي يذكرها الطبري ولا ينسبها إلى أحد بعينه فهي تقف في موقف
وسط بين الروایتين . فأما المدائني فهو يقول إن أبا مسلم لم يذهب إلى الماخوان
مرتين بل مرة واحدة ، أما الأربعة أشهر التي يذكرها أبو الخطاب للفترة الأولى
التي أقامها أبو مسلم فهي في الحقيقة كل الفترة التي أقامها أبو مسلم هناك ، وعلى
هذا فإن الثمانية أشهر (أربعة أشهر + ٢٩ يوماً + ثلاثة أشهر) ، التي يحسبها
أبو الخطاب منذ أول مجيء أبي مسلم إلى الماخوان حتى خروجه منها نهائياً تنخفض
إلى النصف . على أن مقام أبي مسلم في الماخوان قد قطعت ، بحسب رواية المدائني
أيضاً ، رحلة قام بها أبو مسلم نفسه إلى مرو . ويقول المدائني إنه بعد أن رجع
من هذه الرحلة أقام في الماخوان ثلاثة أشهر ، وهذا ما يتفق مع التسمين يوماً التي
يذكرها أبو الخطاب . وكانت عودة أبي مسلم ، بحسب رواية المدائني وبحسب
بعض رواية أبي الخطاب ، في أول سنة ١٣٠ هـ . فإذا حسبنا ثلاثة أشهر أو تسمين
يوماً مبتدئين بأول سنة ١٣٠ هـ ، فإن أبا مسلم يكون قد خرج بعسكره من الماخوان

في أول ربيع الثاني وتوجه إلى مرو . والواقع أن المدائني يذكر أن أبا مسلم دخل مرو في ٩ ربيع الثاني ، ويوافقه على ذلك صاحب الرواية التي لم يذكر اسمه الطبري^(١) . ويؤيد هذا التاريخ ، إلى جانب ما تقدم ، ما يُذكر من أن النهار كان إذ ذاك قصيراً (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٠ سطر ٢٠) ، وذلك أن يوم ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠ هـ كان يوافق يوم ١٧ ديسمبر سنة ٧٤٧ م . أما اليوم الذي يذكره أبو الخطاب بدلاً من ذلك ، وهو يوم ٩ من جمادى الأولى أو جمادى الآخرة (١٥ يناير أو ١٤ فبراير سنة ٧٤٨ م) فكان بعد الانقلاب الشتوي للشمس بمدة طويلة إلى حد ما أو إلى حد كبير . وإذا رجعنا إلى وراء أكثر من ذلك وصلنا إلى أول ذى الحجة سنة ١٢٩ هـ ليكون أول فترة مقام أبي مسلم في الماخوان ، وهي الفترة التي تبلغ في جملتها أربعة أشهر . وإذا كان أبو مسلم قد عسكر في آلين فإن ذلك لم يقطع فترة الإقامة في الماخوان ، بل كان قبلها . وبحسب رواية المدائني كان أبو مسلم هناك^(٢) في ذى القعدة سنة ١٢٩ هـ ، والروايات متفقة على أنه كان في سيقذنج وفتين في شوال ورمضان . فالإثنان والأربعون يوماً التي يقول أبو الخطاب إن أبا مسلم أقامها في سيقذنج ، يقول المدائني إن أبا مسلم أقامها في آلين ، ولكن لا شك أن أبا الخطاب هو المصيب . ويستطيع الإنسان أن يأخذ بما يقوله أبو الخطاب أيضاً من أن أبا مسلم ذهب إلى فتين قبل أن يذهب إلى سيقذنج^(٣) .

وإذا كان هذا هو الوصف الإجمالي للحوادث استطاع الإنسان أن يحصل

(١) ويذكر أيضاً أن دخول مرو كان في السابع من ربيع الثاني ، وكثيراً ما يحدث الخاط بين السابع والتاسع في الكتابة العربية .

(٢) بالين (الطبري ج ٢ ص ١٩٥٢ س ١٠) هي آلين أو أَلين ، ولعلها نشأت من

بـ + آلين ، أي في آلين .

(٣) قارن كتاب Opkomst der Abbasiden : van Vloten ، ص ٧٩ .

على الصور التالية عن مجراها . إن قرى خزاعة^(١) التي كان أبو مسلم يغير معسكره فيما بينها كانت تقع متقاربة في أرض نهر خرقان ، وكان المهد الأصلي للثورة في قرية سيقذنج التي كان يقيم فيها سليمان بن كثير رئيس دعاة الهاشمية ، وفي قرية سيقذنج عقد اللواءان الأسودان اللذان بعث بهما إبراهيم بن محمد ، وفيها أيضاً أوقدت النيران لتنبية الشيعة ، وفي سيقذنج تجمع هؤلاء الشيعة الذين كانوا في القرى المجاورة ، من قرب ومن بعد ، وفي سيقذنج أيضاً أقيمت في يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أول صلاة جامعة لشيعة بني العباس وعلى مذهبهم ، وأم الناس في ذلك اليوم سليمان بن كثير . أما القول بأنه إنما فعل ذلك بأمر من أبي مسلم فهذا ما لا يصح تصديقه ، بل كان لا يمكن في سيقذنج ، في ذلك الحين ، تنحية سليمان عن المسكنة الأولى ، فكان له مظهر الرئيس على الأقل ، وإن كانت قيادة الثورة قد خرجت من يده . وكان أبو مسلم يشعر بأن سليمان يضيق من سلطانه ، ولذلك خرج من سيقذنج بعد اثنين وأربعين يوماً ، فتوجه إلى آلين أولاً ، ومنها توجه ، قرب آخر سنة ١٢٩ هـ ، إلى الماخوان . وفي الماخوان ظهر بمظهر الرئيس والامر ، وزاد جيشه وزادت بذلك قوته ومكانته . وعند ذلك أثار لأول مرة القلق في نفوس العرب الذين كان يحارب بعضهم بعضاً في سره . وقد زاد قلق العرب بسبب النجاح الذي أحرزته حركة الشيعة في نفس الوقت في مواضع أخرى في ابورد و مرو الروذ ، وخصوصاً في هراة (الطبري ج ٢ ص ١٩٦٦) . وقد دعت بكر أولاً شيبان الحروري ، وكانت بكر تحت إمرته ، إلى مصالحة نصر ، ويظهر أن علي بن جديع الكرمانى هذا حذو شيبان . وكأنما أدرك العرب أخيراً ذلك الخطر الذي كان يهددهم ، فأرادوا أن يواجهوه متحدين ، ولكن الريبة كانت تملأ نفوسهم بعضهم من بعض ، فلم يجدوا في التضافر على حرب أبي مسلم ، وأكثر ما قاموا

(١) هذه هي التسمية المشهورة ، لأن قرينى فنين والماخوان لم تكونا خزاعيتين خاصة .

به أنهم أغاروا مرة على جهة من البلاد التي كانت خاضعة له ، فرد أبو مسلم هذه الغارة من غير مشقة^(١) ، وبعد فترة قصيرة أفلح أبو مسلم في إفساد الحلف بين أولئك الإخوان المتعادين ، فتوجه بنفسه من الماخوان إلى مرو ، واستطاع أن يؤثر على علي بن جديع الكرمانى ومن معه من ربيعة وخطان ، حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه وعلى مضر .

وعاد أبو مسلم في أول سنة ١٣٠ هـ إلى الماخوان ، وكان إذ ذاك آمنا كل الأمن من خطر العرب ، فاستطاع مطمئنا أن يترك بعضهم لبعض ، حتى يحين الوقت الذى يجنى هو فيه ثمرة نزاعهم وقتلهم بعضهم بعضا . وإذا كان قد أفلح في ضم ربيعة وخطان إلى جانبه فإن ذلك لم يفسد علاقته بمضر بأى وجه من الوجوه . فيروى أنهم على خلاف ذلك كانوا قد حاولوا أن يبعدوه عن ربيعة وخطان وأن يضموه إلى جانبهم . وإذن فقد كان الجميع يسمون إلى كسب مودته ورضاه . ومهما كان الأمر فإنهم قد أصبحوا لا يتجامرون على أن يعاملوا أبا مسلم معاملة العدو ، وهكذا أمكن أن يحدث أن أبا مسلم دخل مرو قاضيا وحكما ، وأنه بتدخله أنهى النزاع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها . وقد حكم أبو مسلم ربيعة وخطان على مضر ، وهذا ما بدا لأول وهلة على الأقل . أما المنظر الذى يصفه أبو الخطاب لهذه الواقعة الحقيقية وبيان كيف ظهر وفد ربيعة وخطان ووفد مضر أمام أبى مسلم وهو معسكر فى الماخوان ، وكيف وضعوا أمامه نزاعهم ليحكم فيه ، وكيف قضى بينهم ومعه السبعون رجلا من الشيعة ، فهو تصوير

(١) وقد أشرت من قبل إلى أن أبا الخطاب يذكر روايتين فى الواقعة نفسها (الطبرى ج ٢ ص ١٩٥٨ فما بعدها و ١٩٧٠) فى آئين ، وكل منهما تنتهى بأن أبا مسلم أحسن معاملة الأسرى الجرحى لئلا يكونوا دعاة له ، وكلا الروايتين فيها تكلف ومبالغة . أما بحسب ما جاء فى الطبرى (ص ١٩٧٠) فقد كان القتال يتلخص فى أن بعض جند نصر بن سيار آذوا الفلاحين وعسفهم وذبحوا الدجاج والبقر والحمام وكلفوا الناس الطعام والعلف .

لا يخلو من تحريف ، وأيضاً فإن أبا مسلم لم يفاوض جديماً الكرمانى ، بل هو لم يفاوض إلا ابنه علياً . وذلك فى آخر سنة ١٢٩ هـ أو فى أول سنة ١٣٠ هـ ، وكان أبو مسلم هو البادى وكان الساعى إلى كسب مودة الكرمانى ولم يكن الكرمانى هو الساعى إلى مودته ، وقد لاحظ ذلك فان فلوتن بحق . وكأنما تبين للناس فيما بعد مقدار ما لحق بسمعة أبى مسلم من جراء هذا الموقف ، لأنه لم يكن يتفق مع الفكرة التى كونوها لأنفسهم عنه أن يُذل نفسه على هذا الوجه ، فقالوا إلى أن يعتبروا أن قوة موقف أبى مسلم والسلطان الذى لم يصل إليه إلا فى آخر الأمر قد كانا له فى وقت سابق على ذلك . ولكن إذا قبلنا هذا لم نستطع أن نفهم لماذا انتظر طويلاً حتى تدخل آخر الأمر . فالحقيقة أن أبا مسلم لم يكن له فى أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحدياً صريحاً ، بل هو تصرف بحكمة سياسية ، فاستوقعهم وذر الرماد فى عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مضر إلى حد يجعلهم يعتبرونه عدواً صريحاً لهم^(١) . وإذا كان قد دعا إلى الثورة على حكومة الأمويين فإن ذلك كان فى ذلك الحين شيئاً مألوفاً لا يستنكره أحد . على أن أبا مسلم لم يضع أوراقه مكشوفة على المائدة ، ويحكى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٥) أن فتية نساءً من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا إليه فى معسكره ليسألوه عن نسبه ، فقال لهم : « خبرى خير لكم من نسبي » ، فلما سألوه عن أشياء فى الفقه ، قال لهم : « أمرُكم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خيرٌ

(١) [يجد القارىء فى رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٩٢) أن أبا مسلم بعد أن نزل قرية الماخوان فافوض كلا من على بن جديع الكرمانى ونصر بن سيار وعرس عليهما المسألة واجتماع الكلمة والدخول فى الطاعة ، فقبل ذلك منه على بن جديع الكرمانى . فلما استوثق منه كتب إلى نصر بن سيار أن يبعث إليه وفداً بسمعون مقالته ومقالة أصحابه ، وهذا بما يؤيد رأى المؤلف فى حاجة أبى مسلم إلى السياسة والمصانعة ، حتى قوى مركزه بضم اليمانية وحلفاء من ربيعة إليه ونصرهم على المضربة أنصار الدولة الأموية — المترجم] .

لكم من هذا ، ونحن في شغل ، ونحن إلى معونتكم أحوج منا إلى مساعدتكم ،
فأفونا » .

وكان أكثر أتباع أبي مسلم من الزراع الأعاجم ، من الموالي في قرى مرو .
ولكن كان بينهم بعض العرب ، وكان لمعظمهم مكان الرياسة ، وكانت الرابطة
التي تربط بين أنصار أبي مسلم هي الدين والمذهب ، وكانت نواة جيش خراسان ،
أعني « جند » بني العباس ، تتكون من الهاشمية ، كما يصرح الطبري بذلك (ج ٢
ص ١٩٨٧) . وقد دخل أبو مسلم في مرو على رأس الهاشمية ، ومن الهاشمية أمر أن
تؤخذ البيعة بعد دخوله ، وكان الذي يأخذ البيعة منهم هو أبو منصور طلحة بن
رزيق الخزاعي^(١) — أما هذه البيعة فكانت : « أبايكم على كتاب الله عز وجل
وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه ،
عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعناق والمشي إلى بيت الله ، وعلى ألا
تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدأ بكم ولانكم^(٢) ، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه
فلا تهيجوه إلا بأمر ولا تسكن » . وبما استلقت النظر في البيعة التي كان يأخذها
أبو منصور ، وهو الذي يذكر أنه كان رجلا فصيحاً مفعوها عالماً بحجج الهاشمية
وغوامض أمورهم ، أنها لا تطالع الجند على غايتها الحقيقية ، بل هي بيعة إجمالية في
صيغتها ، وهي لا تصرح بشخص الإمام العباسي من بين أهل بيت الرسول عليه
السلام . وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة العامة لولايتهم ، والواقع أن هؤلاء
الناشرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية ، فلم يكن الرجل العادي بحاجة
إلى أن يعرف أسرار قاداته ، بل كان يكفيهِ الإيمان بالراية السوداء . وكان للأحزاب
الإسلامية قبل ذلك بزمان طويل ألوية من كل لون^(٣) ، ولكن لم يبرز شأن

(١) قارن في هذا ما قاله فان فلوتن عن أهل الكافية (الكفاية ٢) في كتابه :

Recherches ، ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٢) [راجع فيما يلي الطبري (ج ٢ ص ١٩٨٧ — ١٩٨٩ — المترجم] .

(٣) كان لون العلم أحر عند الخوارج (الأغاني ج ٢٠ ص ١١٢ س ٣١) وكان أسود =

اللاء ولونه وأهميته عند أحد بروزه عند شيعة بني العباس في خراسان ، وكانوا يحملون اللون الأسود على أبدانهم ، ويسمى تيوقانيس ^(١) Χουρσάνιοι .
 μαυροφόροι أى : الخراسانيون لابسو السواد ، كما يسمون عند صاحب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (نشرة Mommsen ، فصل ١٣٤) : Persarum pullata demonia ، أى الشياطين السود من أهل فارس : ويقال إن لواء النبي عليه السلام كان أسود ، ولذلك اتخذ العباسيون لواء أسود . وفي كتب النبوءات ورد ذكر الرجل صاحب العلم الأسود الذى يبدأ عصرأ جديداً . ولكن الحارث بن سريج ، وكان أول من قاد ثورة الموالى باسم الإسلام ، كان له أيضاً علم أسود . ويجوز أن أبا مسلم أخذ عن ابن سريج دون غيره العلم الأسود لأن هذا العلم كان قد أصبح محبباً إلى نفوس الموالى .

خاطب نصر بن سيار ، أمير مرو من قبل بني أمية ، العرب بالآيات التالية التى حفظها لنا الدينورى (ص ٣٦٠) :

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتها أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ

== بحسب الأغاني أيضاً وبحسب ص ٩٩ س ٩ ، فارن أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨١ و س ٢٠٠٧ ، ولسان العرب ج ١١ ص ٣٢٩) . أما خصوم العباسيين فقد اختاروا اللون الأبيض ، ولم يقتصر ذلك على أهل الشام الموالين لبني أمية ، بل اختار العلويون أيضاً اللون الأبيض (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٧١ و ٢٩٥ و ٢٩٨ و ٣٦١ و ٥٠٨) . وكان بعض الثوار (الجرمية) فى بلاد الجبل يلبسون اللون الأحمر ، فسموا لذلك بالحمرة (الطبرى ج ٣ ص ٤٩٣ و ٦٤٥ فما بعدها و ١٢٣٥) . وكان مع الحسن بن على بن الحسن المروف بالأفطس علم أصفر فيه صورة حية (الطبرى ج ٢ ص ٢٣٧) . وكان لبعض الرجال العظماء اللون الحامى الذى اتخذوه شعاراً لهم ، وكان يلبسه أيضاً مواليتهم وأتباعهم (الطبرى ج ٣ ص ٥١٦) . أما عند العرب القدماء ، فكان اللون الأسود هو لون الأخذ بالنار (الأغاني ج ٨ ص ٧٥ س ٢٠) .

(١) الكتابة الصحيحة لهذه الكلمة هي Χορσάν أو Χορσάν ، ذلك أن تيوقانيس يجرى على ما جرى عليه السريان من استعمال ον على أنه حرف قصير ، أما كتابة الكلمة هكذا Χορσάν فهي خطأ ، وكلا ال « حرف ممدود .

ما بالسكم تُلَقِّحُونَ الحربَ بينكمُ كان أهل الحِجَبي عن فعلكم غُيِّبُ
وتتركون عدواً قد أظلمكم ممن تأشَب ، لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا ، فتعرفهم ولا صميم الموالى ، إن هم نُسيبوا
قوماً يدينون ديننا ما سمعت به عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم فإن دينهم أن تُقتل العرب

وفي رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٣٧ و ١٩٧٤ وج ٣ ص ٢٥)
أن الإمام إبراهيم بن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة : بأنه إن استطاع
الآ يدع في خراسان من يتكلم العربية فليفعل ، وأن يقتل كل غلام بلغ خمسة
أشبار يتهمه^(١) . ويحكى تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليفة)
أن العبيد الذين أثارهم أبو مسلم في خراسان قتلوا ساداتهم في ليلة وأخذوا أسلحتهم
وخيولهم وأموالهم وتجهزوا بها للحرب . أما فيما يرويه الطبرى من أخبار تاريخية
لدخول أبي مسلم مدينة مرو فلا يجد الإنسان شيئاً من ذلك ، وكل ما يقال هو
أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقات أصحاب نصر وصناديدهم^(٢) بعد أن
هرب نصر . أما جند أبي مسلم فقد أسرم أبو مسلم بالترام أدق نظام ، وحرّم
عليهم أن يقتلوا أحداً من تلقاء أنفسهم . وإذن فمن الجائز أن تكون الروايات
هنا كما في أحوال أخرى قد اطلقت من ذكر الحوادث ، مراعاةً لجانب بنى
العباس وإرضاء لهم ، ومن الجائز أن يكون الموالى قد أطلقوا لغضبهم العنان في
عنف أشد مما يبدو من الروايات التي ذكرها الطبرى . ولكن لا يجوز أن يبالغ
الإنسان رغم ذلك في تأكيد القول بمداوة الموالى للعرب على أساس الشعور
القومى عند الموالى ، وذلك لأن حركة الثورة لم تأت من جانب أمة الأعاجم ،
بل من جانب فرقة ضيقة النطاق إلى حد ما ، ولم يكن العرب يُمنعون من

(١) [فارت أيضاً الدينورى ص ٣٥٨ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٩ ، ١٩٩٥ — المترجم] .

الدخول فيها ، وكانت الثورة تستند إلى مبادئ دينية ذات طابع سياسي واجتماعي ، وأصلها في الإسلام . ولم تكن حركة الثورة من حيث مبادئها موجهة ضد الأجانب ، بل كانت موجهة ضد الزنادقة . ولذلك سميت أسلحة الموالى بأنها كافر كوبات^(١) . وكان أخص أخصاء أبي مسلم ، وهم أبو نصر وأبو داود وغيرهم ، عرباً . ولم يكن القتال موجهاً إلى العرب من حيث هم عرب ، بل إلى العرب الحاكمين وبالإستناد إلى الإسلام ، لأنهم كانوا لا يحكمون بالعدل ولا يستندون في حكومتهم إلى الحق والشرع ، ولأنهم كانوا يؤيدون حكومة بني أمية الخارجة على الدين ، ولا يعترفون بمبدأ المساواة في الحقوق بين المسلمين من العرب وغير العرب في الدولة التيوقراطية . أما الأحزاب العربية التي كانت معارضة لبني أمية كأهل العراق وقبائل اليمن في خراسان فكان الأعاجم يعتبرونهم حلفاء لهم أولاً وقبل كل شيء . على أن محاربة المروبة في الدولة الإسلامية باسم الإسلام قد انتهت في الواقع بأن علا شأن الأعاجم وبأن صار العرب منذ انتهت سيادتهم بانتهاء سيادة بني أمية أمة مضطهدة . وقد تنبأ بذلك نصر بن سيار . وكان ذلك أيضاً مما تقضى به طبيعة الأشياء ، لكنه لم يكن المقصد الأصلي . وقد غلبت قومية الغالبين على الإسلام نفسه ، بعد أن كبرت وترعرعت بين أحضانه . ولكن الإسلام ، لفكرة القومية ، هو الذي كان القوة الدافعة في نهوض أهل خراسان ، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة في نهوض العرب أنفسهم ، وهنا في خراسان كان الإسلام مفهوماً فهماً جديداً حليفاً لأمة جديدة^(٢) .

(١) الأغاني ج ٤ ص ٩٣ والدينوري ص ٣٦٠ ، أما الطبري فهو لا يذكر الكافر كوبات إلا عند الكلام عن خشية المختار ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) [هذا رأى المؤلف . ولكن عداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القوي شيء طبيعي ، ولا شك أنه قد كان له تأثير ، أما الإسلام الجديد الذي يتكلم عنه فهو الإسلام الأول تماماً ، وهو دين المساواة بين معتقيه . ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء ولا مما تقتضيه سياسة الدولة وتمكينها أن يكون العرب دولة ثم يسلموها للأعاجم في أول الأمر — المترجم] .

٤ — وجه أبو مسلم أبا داود خالد بن إبراهيم البكري ، أحد أنصاره المخلصين ، إلى طخارستان . وكان أبو داود في هذه البلاد من قبل يقوم بالدعوة (الطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ فما بعده) . وبعد أن أفلح أبو داود في إخراج زياد بن عبد الرحمن القشيري ، عامل بني أمية ، من مدينة بلخ ، كتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم إليه ، ووجه مكانه يحيى بن نعيم البكري . ولكن يحيى كاتب زيادا في أن « تصير أيديهم واحدة » . وكان زياد لا يزال ثابتا محتفظا بسلطانه في مدينة ترمذ الحصينة ، غير بعيد من بلخ . وعند ذلك أتت كلمة جميع العرب في تلك الناحية ، مضريتهم وبمانيتهم وربيعتهم ، على قتال المسوودة ، شيعة بني العباس ، وانضم إليهم الأعاجم هناك ، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل ابن حيان النبطي ، كراهة أن يكون القائد من الطوائف الثلاث . وإن اتحاد كلمة العرب والأعاجم على قتال شيعة بني العباس يمكن أن يتخذ سنداً لتصورات خاطئة ، ومما يستحق الانتباه أن بعض أعلام هؤلاء المتحالفين كانت سوداء — فلا شك أنها كانت أعلام الحارث بن سريج . فوجه أبو مسلم صاحبه أبا داود إلى الميدان من جديد ، وبعد معركة على نهر السرجنان خرج المتحالفون من بلخ مرة أخرى وتراجعوا إلى مدينة ترمذ . ثم كتب أبو مسلم إلى أبي داود يأمره المرة الثانية بالقدوم عليه ، ووجه النضر بن صبيح المري إلى بلخ ، وقدم أبو داود على أبي مسلم ، واجتمع رأيهما على أن يفرقا بين علي وعثمان ابني جديع الكرمانى ، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ ، ولكنه لم يستطع الثبات هناك لأن المضربة أقبلوا من ترمذ بقيادة مسلم بن عبد الرحمن الباهلي ابن أخى قتيبة بن مسلم المشهور ، فأخرجوه من بلخ ، فكان لا بد أن يعود أبو داود إلى هناك للمرة الثالثة ، لأنه لم يكن عنه غنى . هذه هي الرواية التي يذكرها الطبري

(ج ٢ ص ١٩٩٧ فما بعدها) ، وهي رواية لا يمكن أن تقوم رواية مقامها أحسن منها^(١) .

وصارت في يد أبي مسلم في أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث : وهي سرو و سرو الروذ و هراة ، أما في القسم الغربي من خراسان ، وهو ولاية نيسابور ، فلم يكن في يده سوى مدينتي نسا و ابيورد . وكان نصر بن سيار ، عامل خراسان ، يقيم في مدينة نيسابور . أما في سرخس فكان هناك شيبان ابن سلمة الحروري^(٢) ، وكان قد تنحى هو أيضاً عن سرو بعد هروب نصر بن سيار منها ، ذلك أن شيبان لم يكن يستطيع البقاء هناك ، لأنه كان يرى رأى الخوارج ، وكان من قبل حليفاً لعلي بن جديع الكرمانى على قتال نصر ، لأن نصر كان من عمال مروان بن محمد . فلما صالح عليّ أبا مسلم اضطر شيبان إلى الخروج من سرو ، علماً منه أنه لا طاقة له بحرب أبي مسلم وعليّ بن جديع مجتمعين . فأرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوهُ إلى البيعة ، فأجاب شيبان قائلاً : أنا أدعوك إلى بيعتي . فأرسل إليه أبو مسلم أن يختار بين الدخول في البيعة وبين الرحيل ، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من قبائل بكر ، ولما لم يستجب إلى دعوة وجهها إليه أبو مسلم مرة أخرى بعث أبو مسلم جيشاً إليه فهزمه وقتله ، وفر جند شيبان ، وكان معظمهم من بكر ، إلى نيسابور ، ولحقوا بنصر بن سيار . ثم بدأ أبو مسلم في قتال نصر ، فنشأت الحرب الكبيرة التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين أمام « الشياطين السود » ، ولم يتولّ أبو مسلم نفسه القيادة في هذه الحرب ، بل ولى قطبة بن شبيب ، وكان عربياً من طي^(٣) . وكان قطبة في

(١) فيما يتعلق بثورات عليّ أبي مسلم ، قامت بعد ذلك في بلاد السند ، راجع الطبرى ج ٣ ص ٧٤ و ٧٩ فما بعدها ، وكان للعباسيين يد في ذلك ، ولم يمكن إخضاع ما وراء النهر لسلطان الإسلام إخضاعاً تاماً إلا على يد أبي مسلم والعباسيين .

(٢) [فيما يتعلق بشيiban ومقتله راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٩٥ - ١٩٩٧ - المترجم] ..

(٣) قارن الحماسة ص ٣٠٣ فما بعدها .

أثناء الثورة غائباً في مكة وكان قد ذهب إليها للقاء الإمام إبراهيم بن محمد في أيام الحج ، ولم يعد إلا بعد أن استولى أبو مسلم على مدينة مرو . ولما انصرف لخطبة من عند إبراهيم بن محمد عقد له إبراهيم لواء وجعله على مقدمة أبي مسلم ، وجعل له القيادة والعزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له^(١) . وأقر أبو مسلم ذلك ، وأسند إليه القيادة . فخرج لخطبة في الجيش^(٢) ، ومعه أوتحت أسرته أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي وخازم بن خزيمه التميمي وخالد بن برمك البلخي وغيرهم من القواد^(٣) ، فوجه نصر بن سيار ابنه تميمياً للقاء جيش أبي مسلم . وبعد أن قاتل تميم وقتل في طوس ، خرج نصر من نيسابور في آخر شوال سنة ١٣٠ هـ ، الموافق آخر يونيه سنة ٧٤٨ م (الطبري ص ٢ ص ٢٠١٦) . وبعد ذلك بقليل من الزمان تحول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور فنزلها^(٤) ، وأخذ معه حليفه علي بن جديع الكرمان وقتله في الطريق . وفي نفس الوقت قتل أبوداود البكري عثمان بن جديع الكرمان في طخارستان (الطبري ص ٢ ص ١٩٩٩ فما بعدها) . وهكذا أدى الحلف بين ربيعة وقحطان وبين شيعة العباسيين مهمته ، وهو الحلف الذي أمكن بفضل الاستيلاء على مرو ، وأمكن القضاء على منافسة مقاومة بفضل قتل زعيم ربيعة وقحطان ، لأنه يظهر أنه كان لا يزال له في مرو مكانة قوية توازي مكانة أبي مسلم .

وكان نصر بن سيار قد خرج من نيسابور إلى قومس على حدود جرجان ، وكان معه العرب الذين هربوا من خراسان ، من قبائل تميم وبكر وقيس ، وكتب مروان بن محمد إلى يزيد ابن هبيرة أمير العراق بأن يوجه نُباتة بن حنظلة الكلبي

(١) [راجع في هذا الطبري ج ٢ ص ٢٠٠٠ — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٢٠٠٠ — ٢٠٠٣ — المترجم] .

(٣) نجد عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أنه بضع قحطبة في مكانة ليست أقل من مكانة أبي مسلم .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٣ ، لكن قارن ج ٣ ص ٥٩ .

إلى جرجان^(١). ولكن نباتة لم يتعاون مع نصر، بل زاده ضعفاً، لأن من كان في جيش نصر من قيس انحازوا إلى نباتة، فقصده قحطبة إلى نباتة أولاً، فدخل جرجان في ذي القعدة سنة ١٣٠ هـ، ثم قاتل نباتة في يوم الجمعة مستهل ذي القعدة (الخميس أول أغسطس سنة ٧٤٨ م)، وكانت معركة انهزم فيها نباتة وقُتل. ويظهر أن نصراً كان في أثناء ذلك قد أفلح في مقاومة الحسن بن قحطبة الذي كان قد توجه لقتاله، وذلك أنه لما اقترب الجيش من نصر انحاز إليه أبو كامل — وكان أحد قواد الشيعة — وصار مع نصر وأعلمه مكان الحسن. ولكن مد أن قُتل نباتة لم يملك نصر في قومس طويلاً، فهرب مخترباً المفازة حتى بلغ همدان، ولكنه لم يجد في أي مكان تأييداً من عمال بني أمية^(٢). وفي أحد الشهور الأولى من سنة ١٣١ هـ التقى قحطبة مع ابنه الحسن في قومس، وخرج من هناك متوجهاً إلى الغرب، وأرسل ابنه أمامه، وسلمت له الرى وهمدان. ولكن جند الشام الذين كانوا في همدان فروا منها بقيادة مالك بن آدم، عامل همدان، وكذلك جند خراسان الذين كانوا مع نصر بن سيار، اجتمعوا جميعاً في نهاوند^(٣) وقاتلوا الحسن بن قحطبة قتالاً شديداً لما جاء وحاصرم هناك، ثم أقبل عامر بن ضُبارة المُرِّي، ومعه جيش كبير العدد حسن العدة من أهل الشام، ليفك الحصار عن نهاوند، فدخل أرض كرمان بجيشه، وذلك بعد أن كان قد هزم عبد الله بن معاوية واضطره إلى الفرار، ولكن بينا هو في طريقه إلى نهاوند هاجمه قحطبة بنفسه فهزمه وقتله^(٤). ووقعت هذه المعركة الدامية عند جاباق من

(١) [راجع الطبري ج ٣ ص ٢٠٠٢ — ٢٠٠٦، ٢٠١٦ — ٢٠١٧ — المترجم].

(٢) مات نصر في ساوه قرب همدان في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١ هـ (٩ نوفمبر سنة ٧٤٨ م). وهو ابن خمس وعشرين سنة [راجع في ذلك وفي وفاة نصر الطبري ج ٣ ص ١ — ٢ — المترجم].

(٣) [راجع الطبري ج ٣ ص ٣ — ٩ — المترجم].

(٤) يجب بدلا من كلمة *Ispidaga* عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أن نقرأ كلمة *Ispidagara* بحسب ما جاء عند أنطاسيوس، لأن المقصود هو ابن ضبارة لانيابة، كما يظن رايسك (Abulfeia, I, adn. 238) خطأ.

أعمال أصبهان في يوم السبت اسبع بقين من رجب سنة ١٣١ هـ (الثلاثاء ١٨ مارس سنة ٧٤٩ م) . وبعد ذلك التقى خطبة وابنه أمام نهاوند ، وبعد أن حاصرها ثلاثة أشهر (الطبرى ج ٣ ص ٧ س ١٨) طلب أهل الشام الأمان لأنفسهم ، وأهل خراسان لا يعلمون ، فنالوا الأمان دون زملائهم من أهل خراسان ، فنجوا ، وقتل أهل خراسان .

وعند ذلك أصبح الطريق إلى العراق مفتوحاً أمام خطبة^(١) ، فوجه ابنه الحسن أمامه ، ثم خرج من نهاوند ولحق به ، ماراً بقرماسين ، حتى بلغ حلوان وخانقين . وكان ابن هبيرة ، أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، قد خرج بجيش كبير عبر الفرات للقاء خطبة ووصل إلى جلولاء وعسكر بها ، فتجنبه خطبة بمهارة ، وعبر دجلة وتقدم إلى الكوفة من غير أن يمر بمعسكر ابن هبيرة ، ووقف حيناً عند الأنبار على الفرات . فأسرع ابن هبيرة في اللحاق به وعسكر إلى الجنوب على الشاطئ . الأيسر لنهر الفرات ، عند الموضع المسمى فم الفرات في الفلوجة العليا حيث يتفرع النهر إلى الكوفة ، وأرسل حوثة بن سهيل الباهلي في مقدمة أمامه إلى الكوفة ، ولكن خطبة عبر الفرات عند ديمّا وسار مع الضفة اليمنى حتى بلغ الحائرة ، في مواجهة المكان الذي كان ابن هبيرة قد عسكر فيه . وفي ليلة الأربعاء ٨ المحرم سنة ١٣٢ هـ (الأربعاء ٢٧ أغسطس سنة ٧٤٩ م) عبر خطبة الفرات عند مخاضة ، ومعه فرقة صغيرة ، وهاجم معسكر ابن هبيرة^(٢) . فانهزم جيش ابن هبيرة وأصحابه مأخوذون ، فانسحبوا إلى فم النيل أولاً ، ولكن ابن هبيرة لم يملك هناك ، بل سار مع جدول النيل حتى لجأ إلى مدينة واسط الحصينة التي كانت مقر الحكومة . ولما علم حوثة بذلك ، وكان قد تقدم حتى بلغ قصر

(١) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٠ — ١٨ — الترجم] .

(٢) وكل هذا جاء مشبهاً للخطط الحرية التي عمل بها مسلمة بن عبد الملك ، وهو

يوارب يزيد بن المهلب سنة ١٠١ أو ١٠٢ هـ .

ابن هبيرة^(١)، لم يجرؤ على دخول الكوفة، بل هو لحق بابن هبيرة في واسط، وانتصر قطبة انتصاراً تاماً، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا النصر. وذلك أنه في أثناء اضطراب الليل قُتل على صورة خفية^(٢)، ولا شك أن قطبة قد قام، من الناحية العسكرية، بالعمل الأكبر في نصر العباسيين. ولقد عقد النصر للواء الأسود، ووطد في الأذهان أن هذا اللواء لا يُغلب. وتولى القيادة بعده ابنه الحسن، وكان قد بقي على الضفة اليمنى، فاستطاع أن يدخل الكوفة من غير قتال، وذلك أن محمد بن خالد القسري — وهو ابن خالد بن عبد الله القسري الذي قتله بنو أمية، وجعلوه من الشهداء — كان قد تجاسر، ومعه اليمانية، على القيام بالثورة تأييداً لبني العباس واستولى على القصر^(٣). وبعد أن كان حويزة قد خرج لم يتعرض له أحد. وكتب محمد بن خالد إلى قطبة، ولم يكن يعلم بهلكه، يخبره أنه قد ظفر بالكوفة، فوقع الكتاب في يد الحسن بن قطبة، فجاء ودخل الكوفة في يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٢ هـ^(٤) (٢ سبتمبر سنة ٧٤٩ م). أما في البصرة فقد حاول سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، ومعه اليمانية وحلفاؤهم من ربيعة، أن يقوم بثورة لإسقاط حكومة الأمويين^(٥)، ولكنها أخفقت، وذلك أن أحياء قيس ومضروم من كان معهم من أهل الشام ومن بني أمية ومواليهم ناهضوه تحت قيادة سلم بن قتيبة الباعلي، عامل البصرة، فأخذوا حركة اليمانية وربيعة. فأخذ هؤلاء في كل مكان ينضمون إلى ثورة أهل

(١) [اسم مكان بني فيه ابن هبيرة قصراً، فسمى فيما بعد قصر ابن هبيرة — المترجم].

(٢) [راجع الطبري ج ٣ ص ١٤ — ١٨ — المترجم].

(٣) [راجع الطبري ج ٣ ص ١٨ فا بعدها — المترجم].

(٤) [عند الطبري (ج ٣ ص ٢ س ١) أن الحسن بن قطبة صبح محمد بن خالد في الكوفة يوم الاثنين — المترجم].

(٥) [راجع في ذلك الطبري (ج ٣ ص ٢١ — ٢٣ — المترجم].

خراسان ، على حين ظلت مضر تحارب وحدها من أجل سيادة العروبة^(١) .
وعند ذلك ظهرت الحكومة السريّة لبني العباس أمام الناس في الكوفة^(٢) ،
وخرج أبو سلمة « وزير آل محمد » من مخبئه وتسلم مقاليد الحكومة . فأقام في
حمام أغين ، حيث كان يعسكر جند خراسان . وكان قد آن الأوان لبني
العباس ، لكي يخرجوا من الركن الذي كانوا منزوين فيه ويتقدموا إلى الرياسة .
ولكن كان قد وقع في يد مروان بن محمد كتاب من إبراهيم بن محمد بن العباس
إلى أبي مسلم يوصيه فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان ، فأمر الخليفة
مروان بن محمد بالقبض على إبراهيم بن العباس وبجعله من الحيمة إليه . ويروي
أن إبراهيم بن العباس حين أخذ للمضي به إلى مروان بن محمد نعى نفسه إلى أهل
بيته حين شيعوه ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله
ابن محمد وأمرهم بالسمع والطاعة له ، وأنه أوصى إلى أخيه أبي العباس وجعله الخليفة
بعده . وبذن فلا بد أن يكون القبض على إبراهيم بن محمد قد وقع قبل دخول
أهل خراسان في الكوفة بوقت قصير . وذلك لأنه لم يكدهمضى شهر بعد هذا
الحادث حتى وصل العباسيون إلى الكوفة في صفر سنة ١٣٢ هـ . وكانوا أربعة
عشر رجلاً ، من أجيال مختلفة ، منهم أولاً أبناء علي بن عبد الله بن عباس :
داود وعيسى ومالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد ؛ وموسى بن داود ؛ ثم
أبناء محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : أبو العباس وأبو جعفر ويحيى ؛ وأحفاد
لمحمد بن علي : عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد وأخوه محمد وعيسى بن موسى

(١) أخذت هنا برواية الراوية القديم أبي مخنف ، وهذه آخر رواية على لسانه عند
الطبري (ج ٣ ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ٢٠) . وعلى هذا فإن أبا مخنف قد شهد الكارثة ،
ولكن لابد أنه قد كان إذ ذاك قد بلغ من الكبر عتياً . والمدائني وهو أكبر الرواة الذين
يذكرهم الطبري يخالف أبا مخنف في نقط غير ذات شأن ، وهو يذكر تفاصيل أدق . فارت
المعوى ج ٦ ص ٧٣ واليهقوبى ج ٢ ص ٤١٢ والخامسة ص ٤٠٣ فابعدا .

(٢) [راجع في هذا وفيما يلي الطبري ج ٢ ص ٢٤ — ٣٧ — المترجم] .

ابن محمد ، وأخيراً يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس من أحد فروع بني العباس^(١) .

على أن هؤلاء العباسيين لم يُستَقبَلوا في الكوفة بذراعين مفتوحتين . وذلك أن أبا سلمة « وزير آل محمد » ، بعد موت إبراهيم بن محمد ، لم يعتبر حقهم في الخلافة حقاً بديهيّاً ، وخصوصاً أن أبا سلمة كانت تربطه ببني العباس البيعة التي أعطاهما للإمام إبراهيم بن محمد نفسه . وقد ضاق أبو سلمة بالعباسيين ، وحاول أن يكتنم أمر مجيئهم إلى الكوفة ، فأخفاه نحواً من أربعين يوماً عن جميع القواد والشيعية ، ومع الناس من الاتصال بالعباسيين ، وكان يأمرهم بالاختفاء ، وكان إذا سئل عن ظهور الإمام يدعى أن وقت ظهوره لم يحن بعد ، وأن واسطاً لم تُفتَح بعد ، بل هو لم يبعث لأبي العباس بمائة دينار سألها إياها ليعطيها للجمال كراء الجمال التي حملتهم إلى الكوفة . وكان أبو سلمة يفكر ، بعد موت الإمام إبراهيم بن محمد ، في تحويل الأمر إلى آل أبي طالب . ولكن أبا الجهم ، أحد

(١) داود بن علي وابنه موسى لم يكونا مع الذين جاءوا من الحبيصة ، بل هم لم ينضموا إلى العباسيين الذين خرجوا من هناك إلا وهم في طريقهم عند دومة الجندل . وقد حاول داود أن يثنيهم عن عزمهم في الذهاب إلى الكوفة .

[وخصوصاً أن شيخ بني مروان ، مروان بن محمد ، كان بحران مطلقاً على أهل العراق ومعه أهل الشام وأن شيخ العرب ، يزيد بن عمر بن هبيرة ، كان في العراق في حلبة العرب . ولكن بني العباس لم يستمعوا إليه وساروا وشعارهم كلمة قالها رئيسهم وهي : من أحب الحياة ذل ، وبيت للأعشى وهو :

فما مَيِّتَةٌ إِنْ مِتَّهَا غَيْرَ عاجزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسَ غَوْلَهَا

فعند ذلك التفت داود إلى ابنه موسى وقال له : صدق والله ابن عمك ، فارجم بنا معه نفس أعزاء أو نمت كراماً — الطبري ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤ — المترجم] . على أن الأسرة العباسية لم تكن دائماً بحمة على الإمام إبراهيم بن محمد ، وقد انضم عيسى وعبد الله ابنا علي بن عبد الله بن عباس ، وأيضاً أبو جعفر ، أخو الإمام إبراهيم ، إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر لما خرج علي بن أبي أمية (الطبري ج ٢ ص ١٩٧٧) . ويظهر أن سليمان بن علي أيضاً ، لا داود بن علي وحده — وسليمان لا يذكر بين العباسيين الأربعة عشر — لم يكن في الحبيصة ، بل كان يقيم في العراق — قارن أيضاً اليقوبى ج ٢ ص ٤١٩ .

خاصة أبي مسلم الخراساني ، استطاع أن يتصل بالإمام إبراهيم دون علم أبي سلمة ، وركب معه اثنا عشر من قواد أهل حراسان ، وخرج من معسكر حمام أعين فتوجه إلى الكوفة ودخل على العباسيين وسلم هو ومن معه على أبي العباس بالخلافة . فاضطر أبو سلمة ، بعد أن علم ذلك ، إلى أن يذهب إلى هناك ويسلم هو أيضاً على أبي العباس بالخلافة^(١) . وكان أبوجهم ، بعد أن عاد ، قد خلف بعض أصحابه هناك ليروا ما سيفعله أبو سلمة وايضربوا عنقه إن لم يتبايع الإمام ، فلما فعل قال له أبو حميد أحد القواد : على رغم أنفك يا . . . فقال له أبو العباس : مئة . وفي يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ (الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩ م) تمت البيعة العامة لأبي العباس والأسرة الجديدة في المسجد الجامع بالكوفة . وصعد أبو العباس المنبر وخطب ، وكان موعوفاً ، فاشتد به الوعك فجلس على المنبر . وعند ذلك صعد عنه داود بن علي ، وكان دونه على سراقى المنبر ، فخطب أيضاً ، والخطبتان قد وصلتا إلينا ، لكنهما غير صحيحتين ، وإن كان ما تضمناه يناسب الموقف ، فقد جاء فيهما بيان فضل بيت الرسول وحقوقهم ، وذكر آيات من القرآن في ذلك ، كما أشارت خطبة الإمام إلى الدعوة الباطلة التي يدعيها البعض في أن غير العباسيين أحقُّ منهم بالرياسة والخلافة^(٢) ، والمقصود هنا هم العلويون . وقد تضمنت الخطبتان تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة^(٣) ، فخطبهم الخليفة قائلاً : « يا أهل الكوفة ! أنتم محلُّ

(١) هكذا يروي المدائني (الطبري ج ٣ ص ٢٨ فا بعدها) . وثم رواية أخرى تختلف عن ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٤ فا بعدها) ، قارن المسعودي ج ٦ ص ٩٢ فا بعدها واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) جاء في خطبة الإمام : وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا . الخ . . . (الطبري ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) . [والمؤلف على حق فيما يراه من أن السبئية بكلمة تشفيح تطلق على بعض شيعة عليّ الأولين — المترجم] .

(٣) قارن ما جاء على لسان خالد بن عبد الله القسري (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ س ٧) من تهديده هشام بن عبد الملك بالدعوة إلى « عراقى الهوى شامى الدار حجازى الأصل » ، فقد عمّد بن علي بن عبد الله بن عباس .

محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنيكم عن ذلك تحامل
أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس
بنا وأكرمهم علينا . وخاطبهم داود بن علي قائلاً : « يا أهل الكوفة ! إنا
والله ما زلنا مظلومين مهزومين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعةنا أهل خراسان ،
فأحيائهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به
تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيتض بهم وجوهكم ،
وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومنّ عليكم
بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا
طاعتنا ، ولا تخذعوا عن أنفسكم ، فإن الأسرأسركم ، وإن لكل أهل بيت مضراً ،
وإنكم مضرنا » . وهكذا نجد بني العباس يقولون إن شيعةهم من أهل خراسان ،

وم إذ قضاوا على سلطان بنى أمية حرروا أهل العراق أيضاً من نير أهل الشام .
وهكذا أيضاً انتهى الصراع الذى دام بين أهل العراق وبين أهل الشام قرابة
قرن ، دون أن يصل إلى نتيجة ، بنصر أهل العراق . وعاد مقر الخلافة إلى
الكوفة التى كانت عقر على بن أبى طالب من قبل . والعبارة البارزة فى خطبة
داود بن علي هى قوله لأهل الكوفة : « إن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم
مضرنا » . وكان لابد من ذلك بطبيعة الحال لإرضاء شعور أهل الكوفة ،
ولكن محور النقل فى الدولة الإسلامية قد انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة
والعراق ، وكان ذلك حادثاً له شأن حاسم ^(١) .

على أن أبا العباس لم يكن عظيم الثقة بأهل الكوفة^(٢) ، فلم يجعل مقامه في مدينتهم ، بل أقام في حمام أعين ، بين أهل خراسان . وبعد حين من الزمان

(١) راجع تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤١).

(٢) [راجع في هذا أو فيما يلي الطبري ج ٢ ص ٣٧ ، ٥٨ فما بعدها — المترجم] .

انتقل إلى الحيرة ، ثم انتقل منها إلى الهاشمية ، وذلك ، فيما يذكر ، لكي يبعد بنفسه عن أبي سلمة . وكان أبو سلمة يقيم في حمام أعين ، وظل مابين الإمام وبين أبي سلمة متباعدًا ، فكان أبو سلمة يميل إلى العلويين ، وكان يجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به وثبت أنه لم يكن في ذلك وحده ، وخصوصًا أن أزمة قيادة حزب الشيعة كانت في يده حتى ذلك الحين . ولم يجرؤ الخليفة على أن يفرد بواخذته ، وذلك أن الخليفة لم تكن له قوة وكان في الواقع من صنع القوم الذين كان في الظاهر يستخدمهم في الوصول إلى غاياته — كان من صنع أهل خراسان ، صناع الملوك ، وكان هؤلاء الخراسانيون ، إلى جانب ذلك يعلمون حق العلم ضعف السند الشرعي لخلافته ، فكان الخليفة مفتقرًا كل الافتقار إلى حسن نوايا قوم آخرين كان لهم من النفوذ والقوة أكثر مما كان له ، فأرسل أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد إلى خراسان ليعلم له رأى أبي مسلم ، صاحب النفوذ الأكبر على جيش خراسان ، وليعرف هل كان مسلك أبي سلمة إزاءه عن رأى أبي مسلم أم لا . وكان من حسن الحظ أن أبا مسلم لم تكن له يد فيما صنع أبو سلمة ، ولا شك أنه قد أقر عين العباسيين ، لما بعث لأبي سلمة من قتله . وفي الوقت نفسه قتل أبو مسلم منافسه القديم سليمان بن كثير رئيس النقباء ، وذلك أن أبا مسلم بلغه عن سليمان كلام يدل على ميله مع أبي سلمة إلى العلويين ، فاغتنم أبو مسلم ذلك وقتله ، شفاء لما كان في قلبه من بغض له . وكان أبو جهم ، وهو من خاصة أبي مسلم ، عند الخليفة أبي العباس ليراقب ما يصنع ، وكان غالبًا على أبي العباس^(١) .

وبينما كانت هذه الأمور تجري في المشرق ، كان المغرب أيضًا مسرحًا لحوادث تهز النفوس^(٢) . فبعد سقوط نهاوند في ذى القعدة سنة ١٣١ هـ ، وجه

(١) البغوي ج ٢ ص ٤٣٣ والطبري ج ٣ ص ٦٧ و ٨٨ .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٩ فابعدا و ص ٣٨ فابعدا قلا عن المدائني في الغالب .

قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور ، وبعد معركة كان له فيها النصر في ذي الحجة سنة ١٣١ هـ (١٠ أغسطس سنة ٧٤٩ م) أخرج أبو عون جند الشام من شهرزور ، ونزل أرض الموصل إلى شمال نهر الدجلة وثبت أقدامه هناك ، وبعد الاستيلاء على الكوفة جاءت إمدادات من هناك ، لكنه اضطر إلى أن ينزل عن القيادة إلى عبد الله بن علي بن العباس . وسار الخليفة مروان بن محمد من حرّان ومعه جنود الجزيرة والشام من العرب وتقدم عبر الفرات لقتال أهل خراسان . ووقعت المعركة على ضفة نهر الزاب الكبير ، وبدأت في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ . وانتهت في يوم السبت ١١ جمادى (الأحد ٢٥ يناير) بهزيمة مروان هزيمة قبيحة . ويقول تيوفانيس إن جيش مروان كان يتألف من ثلاثمائة ألف رجل ، وإنه قد فرّ من جيشه آلاف أمام ألف واحد وعشرة آلاف أمام ألين من جيش أعدائه . ونجد في روايات أخرى ذكر الفارق الكبير بين عدد كل من الجيشين المتقاتلين . ومن السهل أن نفهم المقصود من ذلك ، وهو إثبات القاعدة الكبرى ، وهي أن النصر من عند الله ، فهو الذي يلقي الرعب في قلوب الفئة الكبيرة من الكافرين أمام الفئة القليلة من المؤمنين . أما بحسب رواية المدائني (الطبري ج ٣ ص ٤٧) فلم يكن جيش مروان يزيد عن اثني عشر ألف رجل ، وكانت كفة مروان في أول الأمر هي الراجحة ، ولكن الهزيمة القبيحة جاءت من أن قيساً لم تشأ أن تقاتل دون قضاة^(١) . على أنه مما لا شك فيه أن الثقة في النصر وصدق العزم على القتال كانا في جانب أهل خراسان ، وكان العرب قد فقدوا الثقة ، ولم يريدوا أن يضحوا بأنفسهم . وقد أخرج مروان الأموال ووعدهم أن يعطيها لهم ، إن

(١) [لما هجم أهل خراسان قال مروان لقضاة : انزلوا ! فقالوا : قل لبني سليم فليزلوا . فأرسل إلى السكاسك أن احملوا ، فقالوا : قل لبني عامر فليحملوا ... وهكذا (الطبري ج ٣ ص ٤٠ - ٤١) — المترجم] .

صبروا وقتلوا ، ولكنهم مالوا على الأموال فأخذوها ، حتى إذا قيل : « الهزيمة » ، انهزموا . وغرق كثير من الهاربين في نهر الزاب ، لأن الجسر كان قد قطع .
وعبر مروان نهر الدجلة راجعاً إلى حران ، فبقي هناك نيفاً وعشرين يوماً ،
ومما يحسب له من الفضل والنبيل أنه عند ذلك خلى سبيل المعتقلين السياسيين^١ الذين وجدهم في الحبس أمامه ، أما الذين كانوا قد حاولوا الهروب قبل وصوله فقد قتلهم أولياؤه من أهل حران . وذهب مروان من حران إلى قنسرين ومنها إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى حصن أبي فطرس عند Jope (يافا ؟) ، ونزل هناك في جوار رجل من أمراء جذام بني روح بن زنباع ، وذلك لأن أرض فلسطين كانت قد خرجت من يد حكومة بني أمية . ومن أبي فطرس هرب مروان إلى مدينة الفرما من ساحل مصر ، لما اقترب مطارذوه مهديين له . وتبعه عبد الله ابن علي ، في جند خراسان ، وانضم إليه في أثناء الطريق أخوه عبد الحميد وأخوه صالح ، فسار إلى الموصل ومنها إلى حران فنبج قنسرين فبعلبك فعين الجر ، حتى بلغ المزة قرب دمشق ، وهناك نزل ، فاستولى على مدن الشام من غير قتال . وطبيعاً أن هذه المدن لم تكن متعلقة بمروان (المسعودي ج ٦ ص ٨٤ فما بعدها) ، ولكن عبد الله اضطر أن يحاصر دمشق ، وكان مروان قد استخلف فيها الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم ، وكانت له القيادة . غير أن أهل دمشق لم يلقوا إلى جانبه بقوى متحدة ، ثم تمصب الناس فيها ، فقتل بعضهم بعضاً . وأخيراً قتلوا مروان وفتحوا أبواب المدينة لعبد الله بن علي في يوم الأربعاء العاشر من رمضان^(١) سنة ١٣٢ هـ . وبعد أربعة عشر يوماً سار عبد الله إلى فلسطين ، ومنها ارتحل إلى الأردن . ثم أتى نهر أبي فطرس ، وبعد ذلك وجه أخاه صالح بن علي في طلب مروان في مصر ، ومعه أبو عون . فخرج صالح ف. ذ. ، القعدة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) قاصداً مصر ، وفر مروان أمامه من مكان إلى مكان حتى انتهى إلى بوسير عند

(١) [يقول المؤلف في ١٤ رمضان ، وفيه تابعنا الطبري ج ٣ ص ٤٨ — المترجم .

الروضة في جهة الأشمونين من بلاد الصعيد ، وهناك عُرف مكان مروان ، وتفرق عنه أصحابه بعد قتال شديد (تيوفانيس) وقتل^(١) . وقد هاجمه عربيٌّ من أهل خراسان من بلحارث اليميني في جماعة من أصحابه ، وكان هذا الخراساني وهو يهاجم مروان يقول لأصحابه بالفارسية : دهيد يا جوانگان ، أى ضربوا أيها الفتيان ! وقتل مروان ، وكان ذلك في آخر سنة ١٣٢ هـ — أول أغسطس سنة ٧٥٠ م^(٢) — وأرسل برأسه وشارات الخلافة أيضاً ، بحسب رواية المسعودي ، إلى أبي العباس . وفي بيت شعري ذكره ابن الأثير (ج ٢ ص ٣٢٧) أن لسان مروان قد أكله هرث . وبقي أبو عون في مصر ، وكان هو في الواقع القائد الحقيقي للحملة .

أما مدينة واسط ، وهي الحصن الذي كان الحجاج قد بناه في أرض القصب من وادي دجلة ، فإنها لم تكن قد غلبت بعد . وكان ابن هبيرة ، ومعه أهل الشام ، قد لاذ بها ، بعد أن هزمه قحطبة عند بابل . وقد اجتمع إليه أيضاً بعض عرب خراسان ، خصوصاً من بكر ، تحت قيادة يحيى بن نعيم^(٣) ، فأنبعه الحسن ابن قحطبة وحاصره هناك . وبعد حين أمر الخليفة أبو العباس أخاه أبا جعفر أن يتوجه إلى واسط مع الحسن وأن يتولى القيادة ، ولكن الحسن كان في الواقع هو المدبر للعسكر . ولم يكن الحسن في الحقيقة تابعاً للخليفة ، بل لأبي مسلم ، وقد

(١) [أخبر أسرى من جند مروان وقعوا في يد الخراسانيين بمكان مروان على أن يؤمنهم الخراسانيون ، وبلغه الخراسانيون في آخر الليل ، فنهزب الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير فأحاطوا به فقتلوه . راجع الطبري ج ٣ ص ٤٩ ، وتجد تفاصيل مايقوله المؤلف من أمر قاتل مروان في ص ٤٩ — ٥١ — المترجم] .

(٢) فارن الأغاني ج ٤ ص ٩٢ والمسعودي ج ٦ ص ٧٦ فابعدهما ، والتنبية ص ٣٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٦ فابعدهما ، واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٤ ، وياقوت ج ٤ ص ٦٧٠ ، ويوم الاثنين (٢٧ الحجة) ، الذي يذكر هنا لا يتفق مع يوم الأسبوع ، لا الأحد ولا الاثنين .

(٣) لا يصح الخلط بينه وبين يحيى بن حنين .

أرسل أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، ومعه جند من أهل خراسان ، لشدة أزر الحسن . ولم يكن الاتحاد سائداً بين أهل المدينة المحصورين ، وتشاجرت اليمن ونزار (أي مضر وربيعة) ، ولكن المدينة رغم ذلك قاومت الحصار أحد عشر شهراً . ولم يدخل ابن هبيرة في مفاوضات إلا بعد أن علم بمقتل مروان ، أي في أحد الشهور الأولى من سنة ١٣٣ هـ (خريف ٧٥٠ م) ، ودامت المفاوضات أربعين يوماً ، إلى أن وضع العلماء الأمان الذي كتب على نحو يرضى الطرفين^(١) . وقد أقره أبو العباس ، ولكن بني العباس لم يفوا بما جاء في كتاب الأمان الذي كتب لابن هبيرة ، فقتلوا القواد الذين كانوا أسرى في أيديهم ، وكانوا يحملون الخواتيم دلالة على مناصبتهم ، وقتلوا النزاريين دون اليمانيين ، وأخيراً لقي ابن هبيرة نفس المصير ، بعد أن جرد من حرسه وأخذ ما كان في يده من أموال^(٢) .

ويروى الطبري أيضاً هذا الحادث الذي تتجلى فيه القسوة والغدر الشائن . على أن الطبري يؤثر السكوت عن رواية الاحتفالات الدامية التي جعلها بنو

(١) [لما طال الحصار على ابن هبيرة تجسّى عليه أصحابه ، فقال اليمانية : لا نعين مروان وآثاره فينا . وقالت النزارية : لا تقايل حتى تقايل معنا اليمانية . وكان إنما يقايل معه الصعاليك والفتيان . وهم ابن هبيرة بأن يدعو إلى أحد العلويين ، فكتب إليه ، لكنه أبطأ في الجواب . ثم كاتب أبو العباس أصحاب ابن هبيرة من اليمانية وأطمعهم ، وخرج إلى أبي العباس بعضهم ، ووعدوا ابن هبيرة أن يصلحوا له ناحية أبي العباس ، لكنهم لم يفعلوا . ووجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة ، حتى جعلوا له أماناً ، وكتب به كتاباً مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ابن هبيرة ، ثم أنفذه إلى أبي جعفر ، فأنقذه أبو جعفر إلى أبي العباس ، فأمره بإمضائه . وكان رأى أبي جعفر الوفاء لابن هبيرة ، ولكن أبا العباس اضطر أن يأخذ رأى أبي مسلم ، لأنه كان لا يقطع أمراً دونه ، فقال له أبو مسلم : « إن الطريق السهل إذا ألفت فيه الحجارة فسد . لا والله ! لا يصالح طريق فيه ابن هبيرة » . (الطبري ج ٣ ص ٦٧) . وتجد قصة الغدر بابن هبيرة وقتله في ص ٦٧ — ٧٠ — المترجم] .

(٢) تجد مرثي لابن هبيرة عند الطبري ج ٣ ص ٧٠ وفي الخامسة ص ٣٧٢ فما بعده والأغاني ج ١٦ ص ٨٣ فما بعدها .

العباس من مظاهر الاحتفال بانتصارهم^(١) . ولقد كان الأمويون عاملوا بني العباس بكرم وعفو لم يكن لهما داع^(٢) ، فشكر لهم بنو العباس ذلك بأن استأصلوا شأقتهم واستصبقوا أموالهم ولم يراعوا في ذلك أى اعتبار إنسانى ، بل صبوا أجام الغضب الإلهى والانتقام الشرعى على رءوس بنى أمية . ولما كان ليس لديهم من موجبات الأخذ بالنار إلا قليل ، فإنهم استعاروا شيئاً من أسباب النار التى كانت عند العلويين وظهروا بظهر النافرين لهم^(٣) ، فآتاهم ذلك فى الوقت نفسه وسيلة لتنجية العلويين ، وذلك لأن الذى يمهّد الطريق إلى الرياسة ، بل الذى يزيد الحق فيها^(٤) ، ليس هو أن يكون عند الإنسان ما يوجب الأخذ بالنار ، بل هو الأخذ بالنار بالفعل . أما الباعث الحقيقى للعباسيين فقد كان سياسياً بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا يريدون أن يقضوا على شر الأسرة الأموية بعد أن أسقطوها قضاء تاماً . وكل ما فعله العباسيون يعيد إلى الأذهان ما صنعه « الأنبياء » من إفتاء بيت عمرى^(٥) .

وكان المسرح الأكبر للفظائع التى ارتكبتها العباسيون مع بنى أمية هو بلاد الشام ، وكان عبد الله بن على هو الذى تولى القيادة فى الشام . أما وزير هذه

(١) تجد أخبار ذلك عند اليعقوبى والمسدودى وابن الأثير وفى كتاب الأغاني . ومن الأهمية بمكان أيضاً قصيدة من ذلك العصر لرجل من العبلات أو لمولى لهم ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة عند ياقوت ج ٤ ص ٢٣٩ و ٣٣٦ و ٨٣١ ، وفى كتاب الأغاني ج ٤ ص ٩١ وج ١٠ ص ١٠٥ ، والعبلات أحد فروع بيت بنى أمية .

(٢) [لم يقتل بنو أمية من العلويين والعباسيين إلا من تار على دولتهم ، وقد أحسن عمر بن عبد العزيز إلى آل البيت كما كان سليمان بن هشام يقضى حوائج العباسيين ويربهم — الأغاني فى ج ٤ ص ٩٣ — ٩٦ — المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً اليعقوبى ج ٢ ص ٤٢٥ — ٤٢٦ والمروج للمسدودى ج ٢ ص ٢٠٧ ط القاهرة ١٣٤٦ هـ — المترجم] .

(٤) [مما يقصده المؤلف استناد بنى أمية فى محاولتهم الوصول إلى الخلافة ، إلى أنهم أصحاب النار لقتل عثمان — المترجم] .

(٥) [فى تاريخ بنى اسرائيل — المترجم] .

الفظائع فلا يتع على كاهل أهل خراسان ، ويدل على ذلك ما جاء في كتاب الأغاني (ح ٤ ص ٩٤ و ٩٦) . وذلك أن أهل خراسان كانوا جنداً يلتزمون روح النظام البقيق ، ولم يكونوا يفعلون شيئاً إلا إذا أمروا به ؛ بل وقعت الأعمال الفظيعة بأمر من العباسيين (اليعقوبي ح ٢ ص ٤٢٧) . ومما له مغزاه أنه لم يفلت من العقاب موتى الأمويين أنفسهم ، فنُذِشت قبور الخلفاء وغيرهم من بني أمية في دمشق ودابق والرصافة وفي قنسرين وغيرها من الأماكن ، وأُحرقت جثثهم بالنار ، إن كان قد بقي في قبورهم شيء منها . ومما يستلفت النظر أن عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان لم يُعَسَّأ بسوء ، وقد صبّ بنو العباس جام غضبهم على هشام بن عبد الملك ، وكان هشام قد فعل ما دعا بني العباس إلى ذلك^(١) ، ولم يكن قد مضى على موته وقت طويل ، فنُبش عبد الله بن علي قبره وأُخرج جثته ولم يكن قد بلى منها إلا أرنبة أنفه ، وضربها بالسوط وصلبها ، ثم حُرقت بعد ذلك وأُذرى رمادها في الريح (المصمودي ج ٥ ص ٤٧١ فما بعدها) . وقد فعل عبد الله بن علي بمن كان على قيد الحياة من بني أمية أفظع فملة في أبي فطرس ، وكان قد أقام هناك حيناً بعد أن كان قد أُخرج مروان . فقد استدرج ، فيما يذكر ، أكثر من ثمانين من بني أمية ، فأمرهم أن يحضروا لأخذ الجوائز والعطايا ، ثم دعاهم إلى طعام ، كأنه قد أخذ Juhu (ياهو) مثلاً له يحتذيه ، ثم ألقى بعض موالى العباسيين وبني هاشم أبياناً من الشر ، يحرصون بها عبد الله على الفتك بيني أمية والنار لمقتل العلويين والإمام إبراهيم بن محمد ، فلما سمع عبد الله بدا كأنما التهب قلبه بنار النار ، فأمر بالأمويين فشدّخوا بالعمد وبُسيّط الأنطاع على جثث القتلى ونصبت عليها مائدة الطعام ، فأكل ، وهو

(١) [جاء في كتاب اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧ — ٤٢٨ أن هشام بن عبد الملك كان قد ضرب على بن عبد الله بن العباس ستين سوطاً ، فلما جاء ابنه عبد الله بن علي نأراً لأبيه ، فنُبش قبر هشام وضربه مائة وعشرين سوطاً ، وهو يتناثر ، ثم جمعه وأُحرقه — المترجم] .

يستمع إلى أنبن الضحايا^(١) حتى ماتوا جميعا . وهذا المنظر ، بما فيه من استدراج الضحايا بدعوتهم إلى وليمة ومن إنشاد قصيدة تدعو إلى انفجار غضب يبدو غير مصطنع ، يتكرر في مناسبة أخرى تُضاف إلى أبي العباس أو داود بن علي بدلا منه^(٢) — وهذا مما يدعو إلى الشك في صحتها . أما وقائع المذابح والتمثيل نفسها فهي لا شك فيها . وقد بقيت في نفوس عرب الشام ولم تنمح ذكراها ، كما لم تنمح من ذاكرة الإسرائيليين القدماء تلك المذبحة التي قُضِي فيها على بيت عمرى . وقد وضع يوم أبي فطرس طابعه في جبهة بنى العباس ، كما وضع يوم عزربل طابعه في جبهة بيت Jehu . ويذكر المسعودى (ج ٦ ص ٧٦) أن ذلك الحادث المروع كان في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يونيو سنة ٧٥٠ م) . أما نيوفانيس فهو يخطئ في جعله بعد ذلك بمائين^(٣) . ولكن إشارته القصيرة التي لم يلقبها إليها أحد حتى الآن لها أهميتها ، لأنه يتضح منها أن الموضع المسمى بأبي فطرس هو المكان القديم الذى كان يسمى باسم أنتيباس (Antipatris) .

أما في المدينة ومكة فقد كان داود بن علي هو جلاّد بنى أمية^(٤) ، وكان

(١) الكامل ص ٧٠٧ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٩ فا بعدها ، وثم رواية أخرى عند اليعقوبى ج ٢ ص ٤٢٥ فا بعدها ، وفي الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ فا بعدها .

(٢) الأغاني ج ٤ ص ٩٤ ، وقتل الأعداء ، وهم مدعوون إلى طعام ، ظاهرة تروى كثيرا .

(٣) يقول نيوفانيس : « في سنة ٦٢٤٣ ، قتل الحاكمون الجدد معظم (المسيحيين باعتبارهم) أقرباء الأسيرة السابقة ، وذلك بأن قضا عليهم في انتيباتريس في فلسطين بحيلة دبروها » . والذى يدل على أن الموضع المسمى عند العرب بأبي فطرس هو نفس المكان القديم الذى كان يسمى انتيباتريس هو اسم فطرس (Futrus = Patris) والحادث نفسه . والموضع القديم الذى كان يسمى انتيباتريس أو كفسربا Kapharsaba (راجع Josephus Ant. 16, 142. 13, 390) . كان يقع في وادى العوجا عند الموضع الذى يجب أن نلتصق فيه حصن أبى فطرس بحسب وصف العرب . أما الشيء الذى لا يفهمه الإنسان فهو وصف الأمويين بأنهم نصارى فلا بد أن يكون هناك خطأ أو إدخال كلمة أضيفت إلى النص فيما بعد .

(٤) نجد مناظر مذابحهم في كُندا عند صاحب الأغاني ج ٤ ص ٩١ فا بعدها وعند بافوت ج ٤ ص ٢٤٤ .

سليمان بن علي جيلادهم في البصرة ، أما في الحيرة فقد أمر أبو العباس نفسه بقتل من حُبل إليه من بني أمية أو من جاء إليه يلتبس الأمان . وكان من هؤلاء سليمان بن هشام ، الذي كان ألد أعداء مروان بن محمد ، فكان لذلك يعتقد أنه سينال الأمان التام . بل إنه بعد أن كفّ العباسيون آخر الأمر عن تعقب بني أمية كان من بقي من هؤلاء لا يأمنون على أنفسهم لو ظهروا ، فظلّوا متسترين ، وقضوا حياتهم في الشدة والضر ، وكانوا دائماً يخشون أن يؤخذوا فيقتلوا إن عرفهم الناس . ولم ينجُ منهم إلا حفيدّ لهشام بن عبد الملك ، هرب إلى إسبانيا ووصل هناك إلى الرياسة .

ولكن أهل الشام الذين كان ملكهم حتى ذلك الحين ملكاً سليماً أحنتهم آخر الأمر قتل أسرهم السابقة واستئصال شأفتها على هذا النحو الفظيع ، ولم يكن حتى قيس على ذلك بأقل من حتى كلب . فثارت قيس في قنسرين خاصة ، وكان على رأسهم أشرف رجل فيهم ، وهو أبو الورد نجزأة بن كوتر ، أحد أحفاد زفر بن الحارث . وقد انضمت إلى قيس قبائل كلب في تدمر ، كما انضم إليهم عرب حمص ، فبايعوا لأبي محمد السفيناني الذي كان مروان بن محمد قد خلى سبيله في آخر لحظة . وقد بايعه أبو الورد على أنه الوارث الشرعي للخلافة ، ولكن هؤلاء الثأرين هُزموا وشُتت شملهم على يد عبد الله بن علي عند مرج أخرم قرب قنسرين ، وذلك في آخر سنة ١٣٣^(١) هـ ، أي في آخر يولييه سنة ٧٥١ م ، وقتل أبو الورد ومعه خمسمائة رجل من أهل بيته وقومه . وهرب أبو محمد السفيناني في أنصاره من كلب ، فتوجّه إلى تدمر أولاً ، ثم هام في أرض الحجاز هارباً ،

(١) بحسب الطبري ج ٣ ص ٥٥ كان ذلك في آخر يوم من ذي الحجة سنة ١٣٣ هـ ،

لكن ذلك اليوم لم يكن يوم الثلاثاء كما هو مذكور ، بل كان يوم الخميس . أما تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٢) فهو لم يكن يذكر أن ذلك في قنسرين بل في حمص — ومن الجائز أن يكون قد وقع هناك قتال أيضاً .

حتى قبض عليه آخر الأمر ، وقتل في أيام أبي جعفر المنصور ثانی خلفاء بني العباس . وما استلقت النظر أن أهل الشام انصرفوا عن بني مروان الذين كانت فيهم الخلافة إلى السفينيين الذين كانوا قد أزيلوا عنها ، وذلك أن المكانة التي وصل إليها أبو محمد السفيناني بعد مقتل الوليد بن يزيد على الفور ، لم تكن ترجع إلى صفاته الشخصية ، بل كانت ترجع إلى أنه لم يكن من أبناء مروان بن الحكم وعبد الملك ، بل من أبناء معاوية ويزيد ابنه . وهو لم يشتهر باسمه الخاص به بل بنسبته إلى بيت أبي سفينان ، فكان يسمى السفيناني ، بإطلاق هذه التسمية . ولم يختلف شأنه بموته ، بل هو زاد ، فكان السفيناني يعتبر في أدل الأمر ، عند أهل الشام ، المهدي المنتظر ، وكان أهل الشام يعلقون آمالهم السياسية على عودته إلى انظهور من جديد . وفي آخر الأمر ، لما آلت الرياسة إلى أعداء أهل الشام ، صار يقال إن السفيناني هو الرجل الذي سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال ، وعلى هذا فإن شبح بيت الأمويين قد بقي بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب نهاية الدنيا^(١).

٥ — وسمى العباسيون حكومتهم باسم الدولة ، أعني العهد الجديد^(٢) .
والواقع أن الانقلاب الذي كان قد تم في ذلك العصر كان هائلاً .

وبسقوط بني أمية اندحر أهل الشام أيضاً إلى الوراء ، وقد كانوا قبل ذلك قد أسلموا مروان بن محمد الذي كان بنيفضاً إليهم ، إلى مصير المقدرة له . وهم لم

(١) راجع كتاب Snouck Hurgronje, Mahdi, p. 11 ومجلة DMZ ، سنة ١٩٠١ م ٦٩٠ فابعدا .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٥ س ١٦ و ص ٩٦ س ١٩ س ١٤٥ س ٩ ، وأبناء الدولة هم أهل خراسان الذين كانوا في خدمة بني العباس ، وكتاب الدولة — الطبري ج ٣ ص ٤٩٧ س ١ — اسم لكتاب كانت فيه نبوءات عن مستقبل بني العباس . أما فيما بعد فإن كلمة الدولة أصبحت تدل بوجه عام على الأسرة المالكة ، أو على المملوكة . ويوجد شبيه لذلك في تغير معنى كلني نوبة وعقبة (Hudh. 74, 38) ، ولكن المعنى الأصلي للكلمة ظل باقياً إلى جانب ذلك ، فكان يقال مثلاً : صار المال دولة ، أي انتقل من يد إلى يد أخرى .

يحتجوا لمقاتلة بني العباس قبل قوات الوقت المناسب ، وهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يغيروا الموقف ، فانتصر السواد وقد البياض ملكه . ولكن أهل الشام ظلّوا في الحقيقة على محبتهم لأسرنتهم السابقة^(١) ، وقد عبروا عن ذلك بالفعل أيضاً ، ولكن جهودهم ذهبت سدى ؛ لأنه كان يعوزهم التنظيم ، ولم يبصروا الحقيقة إلا فيما بعد ، وهي أن القضية كانت قضيتهم وأنهم هم الذين خسروا ، فانتقل مقر الحكومة من دمشق إلى الكوفة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد ، وفقدت الشام سيادتها ، وتحررت العراق من نير السيادة الأجنبية ، بعد أن ظلت تحاول أن تطرحه عن عاتقها مائة عام فذهبت جهودها سدى . وبدأ الآن أنها قد استعادت السيادة التي كانت لها في أيام علي بن أبي طالب . وقد صرح بنو العباس في وصف نزعتهم السياسية بأنها عراقية مضادة للسياسة الشامية .

ولكن انتهت في الوقت نفسه سيادة العرب بالمعنى الحقيقي ، تلك السيادة التي كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام ، وخرب وطن العرب القديم ، وأوحش إبحاشاً تاماً ، حتى صار الحج غير آمن ، ولم تصبح القبائل العربية هي العناصر التي تتكون منها الدولة التيوقراطية . وفقدت القبائل مكان الصدارة فبدأ تاماً ، وتحرر الموالي ، وزال الفارق بين المسلمين من العرب ومن غير العرب . وبعد أن نُحيت العروبة عن مكانها الذي كان يستند في الأصل إلى قانون الحرب ، هذا القانون الذي لم يكن فيه محل لغير العرب ، تراجعت العروبة إلى الميدان المدني المسالم ، وصارت حضارة عالمية يشترك فيها كل المسلمين — وكان أساس تلك الحضارة هو الدين . ولكن دين العرب لم ينهدم بانهيار الأمة العربية ، بل هو ازداد قوة ، وظلت اللغة العربية لغة الإسلام وابتلعت لغات أهم الأمم النصرانية في

(١) ومن الطريف تلك الأخبار التي ذكرها الطبري (ج ٣ س ٢١٦٤ فابعدا) ، وكانت الذكريات تتصل بمعاوية خاصة ، وقد رأينا أن قبره ظل يزار إلى ما بعد وفاته بقرون .

آسيا القريبة وإفريقية ، وإلى جانب ذلك رسخت قدمها بين الكتاب والعلماء من أهل إيران ، أما شعرهم فقد ظل باللغة الإيرانية وبلغ بها مكانة رفيعة .

بل قد رجح شأن الموالي على شأن العرب ، لا بوجه عام بطبيعة الحال بل من بعض الوجوه . وكان أهل خراسان قد أعانوا العباسيين على النصر ، فقاسمهم الغنيمة ، وصاروا من وجه ما هم الورثة لسلطان أهل الشام ، وإن كان موقفهم من رئاسة الدولة موقفاً غير موقف أولئك . فكانوا يسمون الشيعة والأنصار ، أو أبناء الدولة^(١) ، وكانت في يدهم القوة الظاهرة ، وكانوا منظمين تنظيمياً حريباً ، وكانت في أيديهم مناصب القيادة ، واستطاع قوادهم أن يظهروا بمظهر السادة الكبراء . وكان يتألف منهم الجيش المرابط حول الخليفة ، وكان الخليفة يقيم بين حرسه هذا ، ولم يكن ابتداءً بغداد في الحقيقة لكي تكون حاضرة عالمية ، بل لتكون معسكراً لجند خراسان ، وقد أراد الخليفة أن يقيم في هذا المعسكر بعيداً عن الكوفة . ولكن أهل خراسان كانوا ، وهم في معسكرهم ، على صلة بوطنهم ، ثم صار رُجحان شأنهم ، من حيث هم حزب وجيش في خدمة بني العباس ، رُجحاناً لأمتهم وبلادهم ، أي أن الكفة الراجحة صارت لبلاد المعجم الشرقية ، وانتصرت العجمة (الإيرانية Iranismus) على العروبة تحت ستار الإسلام ، لا باعتباره ديناً للعرب ، بل ديناً للأمم .

وقد تغيرت بتغير الأسرة الحاكمة طريقة الحكومة الداخلية أيضاً . أما إن النفوذ الفارسي كان هو الراجح في ذلك فهو غير مؤكد ، فأما الذي لا شك فيه فهو أن نظام الحكم الداخلي لم يصبح عربياً على الإطلاق ، وكان العرب يحكمونهم الأمة الفاتحة قد أصبحوا طبقة أرستقراطية حاكمة ، وكانت شبكة القبائل بما كان بينها من أنساب تمتد في الظاهر على البلاد التي تكونت منها دولة العرب ، وظل

(١) فارن إنجيل مني ، الأصحاح السابع عشر ، الفقرة الخامسة والعشرين .

هذا النظام القديم موجوداً في خطوطه الكبرى أيام الأمويين ، وإن كان قد تبين بعد قليل أنه نظام لا يمكن الاحتفاظ به ، أما في أيام بني العباس فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات ، ولم يكن بنو العباس ، كما كان الأمويون قبلهم ، يتفون على رأس طبقة أرستقراطية واسعة النطاق وينتسبون إليها ؛ وذلك أن أهل خراسان الذين كان بنو العباس يستندون إليهم لم يكونوا بمثابة عصبية لبني العباس أسامها وحدة الدم والاشتراك في النسب ، بل كانوا مجرد أداة لهم . وكان جميع المسلمين أمام بني العباس سواء ، ليس بينهم تفاوت طبيعي في الحقوق السياسية ، وكان للعباسيين وخدم الحق المقدس في الرئاسة باعتبار أنهم ورثة النبي عليه السلام ، ولم يكن أمامهم عقبات في سبيل تنظيم الحكومة طبقاً للاعتبارات الفنية ، التي يبدو أنها تلائم طبيعة الأشياء وتلائم مصالحهم الخاصة ، فأصلحوا من نظام الإدارة إصلاحاً كبيراً وأصلحوا خاصة نظام الخراج والنضاء . وقد أبدوا عناية كبيرة في الاستماع إلى شكوى من يلجأ إليهم باعتبارهم السلطة العليا وفي إزالة أسباب هذه الشكوى . ولكن بني العباس أخذوا في الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة ، بعد أن كان هذا من قبل جزءاً من الدين ، وأفلحوا في إضعاف هذا الاهتمام أكثر بكثير مما أفلح الأمويون ؛ فأصبح المسلمون جميعاً ، العرب منهم وغير العرب ، مجرد رعايا ، ولم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا بنصيبهم في تدبير الأمور العامة للدولة ، فاندحروا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون ، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التأسر سرّاً . وانكشفت الدولة حتى أصبحت مقصورة على بلاط الخليفة ، وكان يحيط بالخليفة في أول الأمر عدد كبير متنوع من الخدام من الأمتين العربية والفارسية ، ثم أصبح محوطاً بطائفة كبيرة جداً أيضاً من أبناء الأسرة من الهاشميين . ولكن كان ينتمي لبلاط الخلافة إلى جانب ذلك الجيش أيضاً ، وكانت نواة الجيش متجمعة دائماً في مقر الخليفة ، فكانت بغداد من هذا الوجه لا تختلف عن مدينة الرسول

فحسب ، بل عن دمشق أيضاً . وكان في بلاط الخليفة بعد هذا عدد كبير من الموظفين المدنيين ، ليسوا من قواد الجيش ، ومعظمهم كانوا صنائع للخليفة وأصحاب حظوة عنده ، وكانت غالبيتهم من الموالى ، وكان لهم في أول الأمر تأثير من طراز تأثير أهل البطانة والمشورة الخاصة ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى أعلى المناصب الرسمية ، وكان الخليفة يرفعهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم يخفضهم فلا يجعل لهم شأنًا . وكانت الكوارث والفسائس التي تؤدي إلى ذلك شيئاً جارياً في بلاط الخليفة ، وكان الخليفة لا يقرب إليه رجالاً من ذوى النباهة ، لم شأنهم ونباهتهم التي لا ترجع إلى مجرد المنصب ، إلا على كره منه ، ولم يكن العباسيون يهتمون بالأرومة والنسب حتى فيما يتعلق بنسائهم ، فلم يكن كرم المختد هو السبيل إلى الرفعة ، بل كان الخليفة هو الذى يرفع من يشاء ، فكان يمنع المكانة والجاه والكرامة بأنواع الكسب والحلل المبيزة (الطراز) ، فكان الخياطون والذين يوشون الحلال يجدون ما يشغلهم . وقد حل محل الأرسطوقراطية السابقة موظفون في بلاط الخليفة بعضهم فوق بعض ، وكان بعضهم يتميز عن البعض ويشرف على عمله ، وكان على رأسهم جميعاً وزير يدبر الديوان ، وقد صار هذا الوزير في عصر متأخر هو الممثل المرئى للخليفة غير المرئى ، بحيث صار الخليفة لا يظهر على المسرح إلا أشبه بممثل بين حين وآخر ، وصار يوضع على عرش الخلافة بعد عاصفة من النزاع والتوتر الشديد . ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً نظامٌ يجعل أمراء الأمصار ينيبون عنهم من يدبر أمور الولايات التي تسند إليهم ، أما هم فكانوا يقيمون في بلاط الخليفة ، خصوصاً إذا كان لهم ما يميزهم من انتساب إلى بيت الخلافة . وكان صغار الموظفين في الديوان من اليهود والنصارى ، وكان من السهل أن يجلبوا على أنفسهم بغض جمهور المسلمين وحسدهم ، وربما كان السياف هو أبرز شخص بين الموظفين في بلاط الخليفة بعد الوزير ، ولم يكن

العرب يعرفون هذا السياف ، ولا كان الأمويين سياف . أما بنو العباس فلم يكن لهم عنه غنى ، وكان النطم^(١) الذى يوضع إلى جانب كرسى الخلافة ويقوم مقام خشبة الصليب من شارات الخلافة ، وكان القتل الذى ينفذ على الفور ، وكذلك تعمّد التعذيب القاسى ، بما يزيد فى الرهبة من جلال الخلافة . وإذا كان العباسيون قد فعلوا ذلك فهم إنما كانوا يحذون حذو الفرس ، وذلك أن شاه الفرس كان له الحق فى أن يقتل رعاياه أو يبيعهم على قيد الحياة . وكذلك قلد العباسيون الفرس فى اتخاذ المنجّم الذى كان للبلاط ، فكان يُسأل فيما يراد الشروع فيه من الأعمال الهامة ، بل كان يصحب الجيش فى الحملات الحربية . وأخيراً يجب التنبيه إلى أن استعمال عمال البريد كان من مميزات حكومة بنى العباس ، وكان أصحاب البريد فى الأمصار بمثابة حواس مرسلّة من دار الخلافة إلى جميع النواحي ، وكانوا يُختارون من بين أهل الثقة ، وكانوا أيضاً عيوناً تراقب أمراء الأمصار دون أن يشعروا . فكان البريد فى خدمة الجاسوسية ، وكان نقل الأخبار فى تلك الدولة المترامية الأطراف منظماً أحسن تنظيم ، حتى نجد الطبرى فى أواخر كتابه لا يكتفى بذكر تاريخ الحوادث ، بل هو يهتم بأن يذكر تاريخ بلوغ أخبارها إلى دار الخلافة .

وأهم ما يميز بين العهد الجديد وبين العهد القديم هو العلاقة بين الدولة وبين الدين ، فكان العباسيون يستندون فى حقهم فى الخلافة إلى أنهم جعلوا كلمة الإسلام هى العليا بعد أن عطل الأمويون أحكامه فى زعمهم ، وكانوا يقولون إنهم يريدون إحياء السنة النبوية التى قد درست ، فدعوا علماء الشريعة من المدينة ، وكانت مقرّاً لهم حتى ذلك الحين ، إلى بغداد ، وكانوا دائماً يسألونهم رأيهم ، وذلك بأن كانوا يحرصون على وضع المشكلات السياسية فى ثوب فقهي

(١) الأنطاع هى فرش تتخذ من الجلد ، كان يوضع عليها من يراد قتله .

ويعملون على أن يكون الحكم فيها طبقاً للقرآن ولل سنة . أما الحقيقة فهي أنهم كانوا يستغلون الإسلام في أغراضهم الخاصة ، وكانوا يربون علماء الشريعة في قصورهم ، وكانوا يحصلون منهم على الإفتاء بصحة أشد الإجراءات بعداً عن الحق . وهكذا تخلص العباسيون من متاعب المعارضة من جانب أهل الديانة بأن ساعدوهم على النصر وجملوهم مرجعاً لهم . ولما كانت معارضة أهل الديانة قد وصلت بإسقاطها حكومة الأمويين إلى غايتها فهي تستطيع الآن أن تطعن ، وذلك أن السياسة قد أصبحت في أيدي أمينة ، وإيس على المسلمين بعد هذا أن يشتغلوا بها . ولما كان قد تحقق قيام الدولة التيوقراطية فيجب أن يزول مبدأ الثورة على السلطة القائمة . وقد أفلح العباسيون في أن يوجهوا الرأي العام هذه الوجهة ، وقد ساعدوا على ذلك حاجة أهل ذلك العصر إلى الراحة بعد ثورات وحروب لم تنقطع ، وذلك أن العرب كانوا قد استفرغوا في القتال كل طاقة كانت لهم واستنزفوا دماء أنفسهم .

ويجب أن يتوقع الإنسان من العباسيين أن يحابوا الشيعة ، بعد أن كانوا حلفاء لهم في أصل الأمر ، ولكن العباسيين غيروا سياستهم . وبعد أن كانوا يهتبرون الملوين وأنفسهم حزباً واحداً صاروا يعادون العلويين تفادياً لأطمائهم . وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم ، وهم الشيعة الغلاة (الراوندية) الذين كانوا منتشرين في فارس بنوع خاص . وعلى هذا فإن العباسيين فيما يتعلق بالدين قد انصرفوا عن الفرس إلى العرب ، وتنكروا لأصل نشأتهم في طرف من الدولة بعد أن استقروا في وسطها وأصبحت في أيديهم السيادة على أرض الدولة كلها ، وانقادوا لمذهب الجماعة التي ليس لها آراء خاصة ، بل تأخذ الدين بالقبول على أنه مأثور منقول ، وتكتفي بالمأثور المنقول الذي ينظم الحياة العامة لجميع الناس على نحو واحد من طريق أداء العبادات وتطبيق أحكام الشريعة .

على أن العباسيين من هذه الوجهة صاروا في الطريق الذي سار فيه الأمويون ، رغم ما يبدو بخلاف ذلك ، غير أنهم كانوا أشد من الأمويين تمسكاً بما عليه الجماعة وأشدّ ضرباً على أيدي الفرق التي تنحرف عن مذهب الجماعة وتفسد الوحدة الدينية والسياسية . ولما كان العباسيون ورثة الرسول عليه السلام فإنهم استفادوا أكثر مما استفاد الأمويون من الفكرة القائلة بأن واجبهم لا يقتصر على النهوض بأعباء الرياسة الدنيوية بل هو يشمل الرياسة الروحية ، أعنى الإمامة . وعلى حين أن أكبر ما اعتمد عليه الأمويون هو القومية العربية ، فإن بني العباس أقاموا سيادتهم على الدين وعلى حرس اتخذوه لهم . ويستطيع الإنسان أن يصف خلاقتهم بأنها سيادة الدولة على الدين (Cäsareopapie) . وقد استعملوا من يطارد الزنادقة ، وأنشأوا نظاماً في امتحان عقائد الناس ، وذلك بقصد تعقب الزنادقة في أول الأمر ، ويظهر أن هؤلاء كانوا من نابتة الشيعة الغلاة في فارس .

وكذلك آل أمر أهل خراسان إلى أن صاروا فيما بعد قذى في أعين العباسيين ، فنخلص المنصور من وصاية أبي مسلم بعد أن أصبح غير محتاج إليه . ولم يكن للمنصور من الصفات الكبيرة ما يداني به ما كان لأبي مسلم ، ولكن المنصور عرف كيف يكيد لأبي مسلم حتى قتله . على أنه في أول الأمر لم يكن لبني العباسيين من الناحية الحربية غنى عن أهل خراسان ، بل لم يكن القضاء على أهل خراسان أو تفحيتهم جانباً ، حتى فيما بعد . وقد حاول العباسيون بعد موت الرشيد محاولة من هذا النوع ، ولكنها لم تؤد إلا إلى تثبيت أقدام الخراسانيين وزيادة قوتهم . وكذلك لم يفلح بنو العباس في أن يتحرروا من سلطان أهل خراسان باتخاذهم عدداً كبيراً من الجند المرتزقة من البربر والصقالبة وأهل السغد والترك وتسليحهم وتنظيمهم للاستعانة بهم على الخراسانيين . وكل ما أفلحوا فيه لا يعدو أنهم أوقعوا أنفسهم تحت رحمة هؤلاء المالك واستبدادهم ، خصوصاً

الترك من بينهم ، وانتهى الأمر بأن فقد العباسيون كل حول وقوة
وانحلت دولتهم .

وقد احتفظ الأعاجم بمركزهم الذي جماعهم أصحاب السلطان في الدولة نحواً من
قرنين . ولكنهم لم يستطيعوا ، على ضرور الزمان ، أن يحتفظوا بسلطانهم في
وطنهم ، ولم يستطيعوا أن يصدوا تقدم الترك في أرض ما وراء النهر وفي طخارستان
وخراسان ، هذا التقدم الذي كان العرب قد ردوه ووقفوا سداً منيعاً في مسيله
حقبة من الدهر . وهكذا صار الترك آخر الأمر ورثة الدولة الإسلامية ، بعد أن
كانوا قد عششوا فيها ممالك من قبل . ويستطيع الإنسان بالإجمال أن يعتبر المغول
منهم ، هؤلاء المغول الذين لم يتوطنوا على كل حال في بلاد الإسلام توطناً حقيقياً ،
بل اجتاحتها كالعاصفة المدمرة دون أن يتركوا وراءهم سوى آثار الخراب .

(انتهى الكتاب بحمد الله)

فهرس الأشخاص

(١)

ابن سبخت : انظر فيروز حصين
ابن السوداء : انظر عبد الله بن سبا
ابن شريك بن الصامت الباهلي : ٤٨٣
ابن عائذ : ٢٨٠
ابن عباس : انظر عبد الله بن عباس
ابن مرجانة : انظر عبيد الله بن زياد
ابن أبيه
ابن مفرغ (المقي) : ١١٥
ابن ملجم : انظر عبد الرحمن بن ملجم المرادي
أبو الأسود الدؤلي : ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٥
أبو الأعور السلي : ٩٣
أبو أمامة : ٧٦
أبو بكر (رضى الله عنه) : ٣٣ : ٣٤ ،
٣٩ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٩ ،
١٣٤ ، ١٤١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ،
٢٨٧
أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : ٢٥٦
أبو بكرة : ١١٣
أبو بلال الخارجي : ١٢٢
أبو جعفر (المنصور) : ٩٩ ، ٢٤٥ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ ، ٣٣٥ ،
٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ،
٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٣٣
أبو الجهم : ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧
أبو حميد : ٥١٥
أبو خراش : ٥٤
أبو داود البكري : انظر خالد بن إبراهيم
البكري
أبو الدرداء : ٧٦

أبان بن عقبة بن أبي معيط : ١٨٧
إبراهيم (عليه السلام) : ١ ، ٣ ،
١٧ - ١٩
إبراهيم بن الأشتر : ١٨٢ ، ١٨٧ ،
١٩١ ، ١٩٢
إبراهيم بن الخطاب العدوي : ٤٨١
إبراهيم بن سلمة : ٤٧٨
إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٢٨٧
إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :
٤٧٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩١ ،
٤٩٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ،
٥١٣ - ٥١٥ ، ٥٢٣
إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزوي :
٣٤٠
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك : ٣٥٥ ،
٣٦٠ - ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
الأبرد بن قرة التيمي : ٢٣٠
الأبرش الكلبي : ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ،
٣٤٩
الأبرش بن الوليد : ٣٦٦
ابن أبي العرصة الكندي : ٤٣٤ ، ٤٣٥
ابن أبي مياس المرادي : ٩٨
ابن أثال (الطبيب) : ١٣١
ابن الأشعث : انظر عبد الرحمن بن محمد
ابن بحدل : انظر حسان بن مالك
ابن الحضرمي : ١٢٠ ، ٢٨٢
ابن الزبير : انظر عبد الله بن الزبير

أبو دلف : انظر شيخان بن عبد العزيز
البشكري
أبو ذر النفاري : ٤٢
أبو روبة : ٣٠٨
أبو الزناد (الفقيه) : ٢٦٣ ، ٢٣٤ ، ٣٤١
أبو سعيد الهمداني : ٢٣٩
أبو سفيان بن حرب بن أمية : ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ١١٥ ، ١٥٨ ، ١٧٨ ، ٥٢٦
أبو سلمة الخلال : ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥١٣ - ٥١٥ ، ٥١٧
أبو صخر (الشاعر المذلي) : ١٩٥
أبو الصيداء (مول بني ضبة) : ٢٨٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٨
أبو العاص : ١٧٠
أبو العباس (السفاح) : ٥١٣ - ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥
أبو عبيدة بن زياد بن أبيه : ٣٩٧
أبو عكرمة السراج : انظر أبو محمد الصادق
أبو عكرمة : ٤٨٠
أبو العمرس : ٣٢٤
أبو علاقة السككي : ٣٦٨
أبو علاقة القضاعي : انظر أبو علاقة السككي
أبو عون : انظر عبد الملك بن يزيد الأزدي
أبو فاطمة الإيادي الأزدي : ٤٣٥ ، ٤٤٢
أبو فديك الخارجي : ٤٠٧
أبو قليفة : ١٥٩
أبو كامل (أحد قواد الشيعة) : ٥١٠
أبو لؤلؤة : ١٠٩
أبو محمد السفيناني : انظر زياد بن عبد الله
ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
أبو محمد الصادق : ٤٧٨ - ٤٨٠

أبو مسلم الخراساني : ٤٦٦ - ٤٦٣ ، ٣٧٩
٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥
٤٨٦ ، ٤٩١ - ٥٠٩ ، ٥١٣
٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
أبو موسى : ٤٨١
أبو موسى الأشعري : ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٩
٨٤ - ٨٨ ، ١٠٣ ، ٣١٨
أبو النجم : ٤٨٢ ، ٤٩٢
أبو يحيى (مول بني سلمة) : ٤٨٠
الأحنف بن قيس التميمي : ١٢٠ ، ١٢٢
١٣٦ ، ٢٠٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٥
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥
الأخطل (الشاعر) : ١٩٩ ، ٢٠١
٢٠٢ ، ٢٠٩
أخو مراد : انظر عبد الرحمن بن ملجم
المرادي
إدريس بن معقل العجل : ٤٨٥
أرتقيل : ٢٢٣
أرميا (النبي) : ٣٠٥
إسحق بن محمد بن الأشعث : ٢٢٥
أسد بن عبد الله القسري : ٣١٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٣ - ٤٥١
٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٨٠ - ٤٨٤
أسلم بن زرعة الكلابي : ٣٩٦
أسماء بنت أبي بكر الصديق : ١٩٤
إسماعيل (عليه السلام) : ١٧
إسماعيل بن الأشعث : ٢٣٧ ، ٢٣٨
إسماعيل بن جرير بن عبد الله القسري : ٣٢٣
إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر : ٢٦٢ ، ٢٨٥
إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣
إسماعيل بن عياش : ٢٨٠
إشبوشتا : ١٦٦
إشداد بن جريجور : ٤٥٣

أشروس بن عبد الله السلمي : ٤٢٤-٤٢٨

٤٤٠ ، ٤٤١

الأشعث : ١٥٩

الأشعث بن ذؤيب العلوي : ٤٠٠

الأشعث بن قيس الكندي : ٨٠ ، ٩٩

أشيم بن شقيق : ٣٨٧ ، ٣٨٩

الأصبغ بن ذؤالة الكاسي : ٣٦١ ، ٣٧٢

اصطفان (الراهب) : ٢٣٥

أعشى همدان (الشاعر) : ٢٣٩ ، ٢٤٠

الأفشين : ٤٣٢

أفشين كاوس : ٤٤٨

الأفقم : انظر يزيد بن هشام

الله (جل جلاله) : ٢٤٢ ، ٨ ، ١٠-١٣

أماة بن قحطبة : ٥١٠

أم أيوب بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط :

١٢١

أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب :

٢٥٩

أمين سلامة : ١٦٦

أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن الميمس :

٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧

أودو (قائد الفرنج) : ٣٢٩ ، ٣٣٠

أوس بن ثعلبة بن زفر : ٣٩٧ - ٣٩٩

أوكوبا : انظر عقبة بن الحجاج السلوي

إياس بن قتادة الجعاشي : ٣٩٠

أيوب بن أبي حسان : ٤٣٠

أيوب بن حمران : ٣٨٤

أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٢٥٦

(ب)

ببه : ٣٩١ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣١١

بحير بن ورقاء الصريمي : ٤٠١ - ٤٠٤

بخار اخذاه : ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٨٢

البخترى بن أبي درهم البكري : ٤٣٣ ،

٤٣٤

بدر طرخان : ٤٤٩

برمك : ٤٤٥

البريق بن عياض : ٥٤

بسر بن أرطاة : ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١١١ ، ١١٣

بسطام البيهسي : ٣٧٣

بسطام بن مصقلة بن هيرة الشيباني : ٢٣٩

بشر بن جرموز الضبي : ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،

٤٦٢

بشر بن مروان : ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ،

٢٢٠

بشر النصراني : ٣١٤

بطرس الدمشقي (الأسقف) : ٣٤٢

بطرس الميومي : ٣٤٢

بكير بن حمران : ١٤٤

بكير بن ماهان : ٤٨٠ ، ٤٨٣ - ٤٨٧

بكير بن وشاح : ٣٩٩ - ٤٠٤

بلج بن بشر : ٣٣٢

برامبيس : ٤٥٣

بهلول بن بشر : ٣١٧ ، ٣١٩

بيان بن سيمان : ٣١٧

بيلاتوس : ٣١٦

(ت)

تميم بن نصر بن سيار : ٥٠٩

(ث)

ثابت بن قطبة : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٣٦ ،

٤٧٠

ثابت قطبة الأزدي (الشاعر) : ٤٠٨ ،

٤١٥ ، ٤٣٥

ثابت بن نعيم الجذامي : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨

ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمي :

١٦٩

(ج)

جابر بن وهب الراسبي : ١٢٠

جارية بن قدامة : ٩٦ ، ٣٨٢

الجايشنار : ٩٠

جيفويه الحرلحي : ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨

جيلة بن زحر : ٢٤٠

جيلة بن مسروق : ٩٣

الجمام بن حكيم المليمي : ٢٠١ ، ٢٠٢

جديع الكرمانى الأزدي : ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧

٤٥٩ - ٤٦٢ ، ٤٦٤

٤٦٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢

الجراح بن سنان : ١٠٢

الجراح بن عبد الله الحكيم : ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٨٤

٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٩ ، ٤٢٨

جرينور (البابا) : ٢٨٩

جرير (الشاعر) : ٢٤٩

جرير بن سميد بن قيس : ٢٣٩

جرير بن عبد الله البجلي : ٧١

جعفر بن أبي طالب : ٣٦٩

جنيد بن عبد الرحمن المرسي : ٤٣٧ - ٤٣٩ ، ٤٤٢

٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢

الجهم بن صفوان : ٤٤١ ، ٤٦١

الجوزجان بن الجوزجان : ٤٥٢

جوسنيان (الثاني) : ٢٠٩ ، ٢١٠

(ح)

الحارث الأصغر النساني : ١٢٨

الحارث بن بدر الندائي : ١٢٤

الحارث بن سريج : ٤٣٦ ، ٤٤١ - ٤٤٨ ، ٤٥٢

٤٥٣ ، ٤٥٩ - ٤٦٤ ، ٤٧١

٤٧٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧

الحارث بن عبد الله الأزدي : ١١٢

الحارث بن قيس : ٢٨٦

حارثة بن بدر : ٢٩٠

حبابة (المفضية) : ٢١٣ ، ٢١٤

حبيب بن عبد الله بن الزبير : ١٩٤

حبيب بن المهلب : ٣٠٦ ، ٤٠٩

الحثات بن يزيد : ١٢٠

الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفي :

٥٨ ، ١٠٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٣

١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤

٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١١

٢١٣ ، ٢١٦ - ٢١٨ ، ٢٢٠

٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤

٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢

٢٦٤ - ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥

٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧

٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٠

٣٢٢ - ٣٢٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٧٢

٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧

٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

٤٣٢ ، ٤٥٠ ، ٤٧٣ ، ٥٢٠

محجر بن عدي الكندي : ١١٠ ، ١١٨ ، ١١٩

٣٩٦ ، ٤٣٤

مخزيفة المدائني : ٧٨

حرب بن عثمان : ٤٨١

الحرب بن عبد الرحمن الثقفي : ٣٢٩

حريث بن قلبية : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٧٠

حريش بن هلال القريمي : ٤٠٠ ، ٤٠١

حسان بن مالك بن بحدل الكلبي :

١٦٧ - ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧

١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٢١

٢٢٠ ، ٢٤٤ ، ٢٧٥

الحسن البصري : ٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٩

٣٠٦ ، ٣٠٥

(خ)

خازم بن خزيمه التميمي : ٤٩٥ ، ٥٠٩
خاقان : ٣٠٩
خالد بن ابراهيم البكري (أبوداود) :
٤٨٢ ، ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩

خالد بن برمك البلخي : ٥٠٩
خالد بن جرير بن عبد الله القسري : ٢٠٧ ،
٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٣٠٥ ،
٣١١ ، ٣١٦ - ٣١٩ ، ٣٢١ - ٣٢٥ ،
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ - ٣٤٧ ،
٣٥٠ ، ٣٧٢ ، ٤٣٣ ، ٤٤٤ ،
٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٨٥ ، ٥١٢ ، ٥١٥

خالد الحرثي : انظر خالد بن جرير بن عبد
الله القسري
خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد : ٢١٥ ،
٢١٩

خالد بن الوليد : ١٣١
خالد بن يزيد بن معاوية : ١٦٩ - ١٧١ ،
١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ،
٢١٠ ، ٢١٥
خدأش : ٤٧٧ ، ٤٨٢ - ٤٨٤ ،
٤٨٧ - ٤٩٠

خرابنرة : ٤٤٨
خراش بن جابر : ٢٧٤
الخرثي بن راشد : ٨٠ - ٨٢ ، ٨٦ ،
٨٧ ، ٩٤

خسرو بن يزدجرد : ٤٣٦
الخيبري : ٣٧٦

(د)

داود (عليه السلام) : ١٦٦
داود بن سليمان بن عبد الملك : ٢٥٧

الحسن بن شيخ : ٤٨١
الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٧ ،
٩٩ - ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٧٨

الحسن بن علي بن الحسن (الأفلح) :
٥٠٤

الحسن بن قحطبة : ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥٢٠ ،
٥٢١

الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٠١ ، ١٣٦ ،
١٣٩ - ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ،
١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ،
٣٨٣

الحسين بن تميم التميمي : ١٥٦
الحسين بن مالك : ٣٩٥
الحسين بن حمير السكوني : ١٤٧ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،
١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢

الحسين بن المنذر البكري : ٤١٩
الحطيئة (الشاعر) : ١٣٤
حفص بن سليمان بن الحلال : انظر أبو سلمة
الحلال

الحكم بن أيوب الثقفي : ٢٧٥
الحكم بن عمرو الففاري : ٣٩٦
الحكم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك :
٣٦١ - ٣٦٣

مهران بن أبيان : ١١١
هزة بن عبد الله بن الزبير : ١٩٤
محمد بن حريث بن بحدل : ١٩٧ - ٢٠١ ،
٢٠٤

حميد بن عبد الملك بن المهلب : ٣٠٥
خوثره بن سهيل الباهلي : ٥١١ ، ٥١٢
حيان المطار : ٤٧٨
حيان النبطي : ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ،
٤٧٠

٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥

٢٤٦ ، ٢١٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٤٧٣

زياد الأعجم (الشاعر) : ٤١٥

زياد بن عبد الرحمن القشيري : ٥٠٧

زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ابن

أبي سفيان (أبو محمد) : ٢٤٧

٢٥١ : ٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦

زياد بن عمرو التكي : ٢٨٩ ، ٢٩٠

زيد (مول نصر بن سيار) : ٤٩٥

زيد بن ثابت : ٤٤

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب :

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٧٠

٤٧٣ ، ٤٧٦

زيرا (أمة الأحنف بن قيس) : ٢٨٩

(س)

سالم الأعين : ٤٨٠

سرجون بن منصور : ١٢٨ ، ١٢٩

٢١٢

سعد بن أبي وقاص : ٢٩ ، ٤٠ ، ٨٤

سعد بن طلق الصريمي : ٢٩٠

سعد بن عباد : ٨٩

سميد بن بهدل الشيباني : ٢٧٢

سميد مخدنة (خلينة) : ٤٢٨ ، ٤٢٩

٤٧٩ ، ٤٨٠

سميد بن الماص : ٤٥ ، ١٣٠

سميد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم ابن

أبي الماص : انظر سميد خدينة

سميد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان :

٢٩٩

سميد بن عثمان : ٤٠٧

داود بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٣ - ٥١٦ ، ٥٢٤

(ر)

الربيع بن زياد الحارثي : ٢٩٦

رجاء بن حيوة الكندي : ٢٠٩ ، ٢٥٦

٢٥٧ ، ٢٥٨

الرشيد (هارون) : ٥٢٢

روح بن زنباع الجلاصي : ١٧٨ ، ٢٠٥

(ز)

زاذان فروخ بن بيري : ٢١١ ، ٢٢٧

زائدة بن قدامة : ١٩٢

الزبير بن العوام : ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ - ٥٣

٥٥ ، ١٢٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠

زرادشت : ٤٦٩

زفر بن الحارث الكلبي : ١٥٢ ، ١٦٧

١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٥ ، ١٩٦ - ١٩٩ ، ٢٠٥

٣١١ ، ٥٢٥

الزقيليل : ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ - ٢٣٤

٢٣٨ ، ٢٥٣ ، ٣٠٩ ، ٣٩٧

٣٩٩ ، ٤١٤

زفكييل النبي : ٢٢٣

الزهري (المحدث) : ٢٣٤ ، ٢٤١

زهير بن ذؤيب المدني : ٤٠٠ ، ٤٠١

زياد (خال الوليد الأزرق) : ٤٨٠

زياد أبو محمد (مول همدان) : ٤٨١

٤٨٢

زياد بن أبيه : ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٧

١١٢ - ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٥

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٧

سليمان بن يزيد بن عبد الملك : ٣٥٠
السمح بن مالك الخولاني : ٢٨٥ ، ٢٦٢ ،
٢٢٩ ، ٢٨٦
سمرة بن مجندب الفزاري : ١٢٢ ، ١٢٥
السميدع الكندي : ٣٠٨
سمية (أم زياد) : ١١٣
سورة بن الحر التميمي : ٤٣٧ ، ٤٣٨
سولون : ٢٢

(ش)

شارل مارتل (قارلة) : ٣٣٠
شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار
ابن كسرى (أم يزيد بن الوليد) :
٤٦٠
شاول (مقت اليهود) : ٨ ، ١٦٦
شبت بن ربيع الرياحي : ٧٨ ، ٨٠
شبيب بن يزيد : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ،
٣٧٢
شريح بن حاني الخارثي : ٨٤
شريك بن الأعور الخارثي : ١٢٢
الشعبي (القاضي) : ٢٢٩ ، ٢٤٧ ،
٢٦٢
شماس بن دثار المطاردى : ٣٩٩ ، ٤٠٠
شمر بن ذي الجوشن : ١٥٦
شنيل الألماني (الدكتور) : ١٤
شيبان بن سلمة الحروري الخارجي : ٣٧٩ ،
٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٨
شيبان بن عبد العزيز البشكري : ٣٧٧ ،
٣٧٩

(ض)

صالح بن طريف : انظر أبو الصياد
صالح بن عبد الرحمن : ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢٥٤ ، ٢٥١

سعيد بن عمرو الحرشي : ٣١٠ ، ٣١١ ،
٤٢٩ - ٤٣٢
سعيد بن مالك بن يحدل الكلبي : ١٦٧
سعيد بن المسيب : ٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
سعيد بن هشام بن عبد الملك : ٣٦٧ ، ٣٦٨
سفيان بن الأبرد الكلبي : ١٦٩ ، ٢٢٧ ،
٢٣٠
سفيان بن عوف : ٩٥
سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب : ٥١٢
سكينة (السيدة حفيدة الرسول) : ١٥٩
سلامة (المغنية) : ٣١٣
سلم بن أحوز التميمي : ٤٩٧
سلم بن زياد : ١٦٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
٤٠٧ ، ٤٢١
سلم بن قتيبة الباهل : ٥١٢
سلمة بن ذؤيب التميمي : ٣٨٥ ، ٣٨٨
سليمان بن حبيب : ٣٧١
سليمان بن سعد : ٢١٢
سليمان بن سليم الكلبي : ٣٥٤
سليمان بن مضر : ١٨١
سليمان بن عبد الملك : ٢١٧ ، ٢٤٩ -
٢٥١ ، ٢٥٣ - ٢٦١ ، ٢٧٩ ،
٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ،
٣٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٤١٧ -
٤٢٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦
سليمان بن عتبة : ٢٨٠
سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس :
٥٢٥ ، ٥١٤
سليمان بن كثير : ٤٨٢ - ٤٨٥ ، ٤٨٧ ،
٤٩٠ - ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ،
٥١٧
سليمان بن مرثد البكري : ٣٩٧ ، ٣٩٨
سليمان بن هشام بن عبد الملك : ٣٢٧ ،
٣٤٠ ، ٣٥١ ، ٣٦١ - ٣٦٣ ،
٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
٣٧٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥

عاموس (النبي) : ٢٠٣ ، ٢
عائشة بنت أبي بكر (أم المؤمنين) : ٤٠ ،
٩٣ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٥٢
عائشة بنت عثمان بن عفان : ١٥٢
عباد بن حصين : ٢٨٩ ، ٢٢٧
عباد بن زياد بن أبيه : ٣٩٦
العباس بن الوليد بن عبد الملك : ٣٤٧ ،
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٥
عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي : ٢٦١ ،
٢٦٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
عبد الرحمن بن أبي بكر : ١٣٦ ، ١٣٩ ،
١٤٠

عبد الرحمن بن أبي ليل : ٢٢٨
عبد الرحمن بن أم الحكم الثقي : ١٢٥
عبد الرحمن بن الحكم : ١١٥ ، ١٨٦
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الخزومي :
١٣٠ ، ١٣١

عبد الرحمن بن زياد بن أبيه : ٣٩٦
عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي :
٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩
عبد الرحمن بن عبد الله الغافق : ٣٢٩ ،
٣٣٠

عبد الرحمن بن عبد الله القشيري : ٤٢٨
عبد الرحمن بن عديس البلوي : ٤٩
عبد الرحمن بن عوف : ٤٠ ، ٥١
عبد الرحمن بن قطن الفهري : ٣٣٠

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٢٢٤ ،
٢٢٦ - ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
٢٥٢ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٩ ،
٣١١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨

عبد الرحمن بن ملجم المرادي التجوي :
٩٨ ، ٩٩

عبد الرحمن بن موسى بن نصير : ٢٥٢
عبد الرحمن بن نعيم الغامدي : ٤٢٨

صالح بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣ ،
٥١٩
صبرة بن شيمان الحداني : ١٢٠ ، ١٢١ ،
٣٨٢
الصحاري بن شبيب : ٣١٧
صمصعة بن حرب العمري : ٤٠٤
صفية (زوجة عبد الله بن عمر) : ١٤٢
الصلت بن حريث الحنفي : ٣٨٨
صموئيل (ملك اليهود) : ٠٨
صول التركي : ٤٢٤

(ض)

الضحاك بن قيس الفهري : ٩٥ ، ١٢٥ ،
١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٦٧ - ١٧٧ ،
٣٥٨ ، ٣٧٣ - ٣٧٦

(ط)

طارق بن عمرو : ١٩٣
الطرماح : ٤١٥
طلحة بن الزبير : ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ -
٥٣ ، ٥٥ ، ١٢٩ ، ٢٦٦ ، ٢٩٩
طلحة بن زريق الخزاعي (أبو منصور) :
٤٨٢ ، ٥٠٣
طلحة الطلمحات الخزاعي : ٣٩٧

(ع)

عائكة بنت يزيد بن معاوية : ٢١٥ ، ٣٠٢
عاصم بن عبد الله الهلال : ٤٣٩ ، ٤٤٣ ،
٤٤٤
عاصم بن يونس العجلي : ٤٨٥
عامر الشعبي : انظر الشعبي القاضي
عامر بن ضبارة المري : ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
٥١٠

عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني (اللقوى) :

٢٢٧

عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٩ ، ٥١٣

عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك :

٢٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦١

٣٦٣

عبد العزيز بن مروان : ١٧٩ ، ١٤٦ ، ١٧٩

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٦

٢١٩ ، ٢٥٩ ، ٣١٠

عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك : ٢٤٩

٢٥٠ ، ٢٥٨

عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٧٦

عبد الله البطلال : ٣٢٨

عبد الله بن الحارود : ٢٣٦

عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث

ابن عبد المطلب : انظر به

عبد الله بن حنظلة الأنصاري : ١٥١

١٥٣ ، ١٥٤

عبد الله بن خازم السامي القيسي : ٦٥

٣٨٧ ، ٣٩٥ - ٤٠٢ ، ٤٠٤

٤١٩

عبد الله بن خالد بن أسيد : ١٢٥

عبد الله بن جناب بن الأرت : ٧٩

عبد الله بن الزبير : ٦٥ ، ٨٤ ، ١٣٦

١٣٧ ، ١٣٩ - ١٤٢ ، ١٤٤ -

١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ -

١٦٤ ، ١٦٧ - ١٧٥ ، ١٧٧ ،

١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٣ -

١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٨ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٣٩١

عبد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨٦

عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) : ٤٢

٤٨ ، ٦٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٤٥ ، ٤٦

٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠

عبد الله بن عامر الأموي القرشي : ١١١

١١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧

عبد الله بن عباس : ٨٦ - ٨٤ ، ٧٦ ، ١٨

٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ - ١٠٦

١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٣٨

١٤٢ ، ٤٧٤

عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ٢٢٩

عبد الله بن عضاء الأشعري : ١٤٦

١٤٧

عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٢٣

٥٢٥

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٨٤ ، ٨٥

١٣٦ ، ١٣٩ - ١٤٢ ، ١٧٨

٢٠٢

عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : ٣٥٥

٣٦٨ - ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

٣٧٨

عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي : ٤٧٦

عبد الله بن عمرو الحضرمي : ٩٥

عبد الله بن عمرو بن غيلان : ١٢٥

عبد الله بن الكواء اليشكري : ٧٨

عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو هاشم) :

٤٧٦ ، ٤٧٧

عبد الله بن محمد بن علي بن عباس

(أبو العباس) : ٥١٣

عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :

انظر أبو جعفر المنصور

عبد الله بن مروان بن محمد : ٣٦٦

٣٧٦

عبد الله بن مسعدة الفزاري : ٩٥ ، ١٤٦

عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

ابن أبي طالب : ٣٦٩ - ٣٧١

١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ - ١٧٥ ،
 ١٨١ - ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ،
 ٢١٣ ، ٢٨٣ - ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ،
 عبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري : ١٨٥ ،
 ١٩٠ ، ١٩٢ ،
 عبيد الله بن عباس : ١٠٢ - ١٠٦ ،
 عبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي :
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ،
 عبيد الله بن كعب النهري : ١٣٥ ، ١٣٨ ،
 عبيد الله بن مروان بن محمد : ٣٦٦ ،
 عتاب بن ورقاء النخعي : ١٩٢ ،
 عتبة بن غزوان : ١٠٩ ،
 عثمان بن جديع الكرمانى : ٥٠٧ ، ٥٠٩ ،
 عثمان بن حيان المري : ٢٤٣ ،
 عثمان بن عفان (رضى الله عنه) :
 ٣٩ - ٥٣ ، ٥٥ - ٥٧ ، ٥٩ ،
 ٦١ : ٦٢ ، ٧٠ - ٧٢ ، ٨٤ - ٩٠ ،
 ٩٢ - ٩٤ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٩ ،
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ،
 ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ،
 ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩١ ، ٣٠٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ - ٣٩٨ ،
 ٤٧٥ ، ٥٢٢ ،
 عثمان بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك :
 ٣٦١ - ٣٦٣ ،
 عدى بن أرساة الفزارى : ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٣٠٣ - ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٤٢٢ ،
 عروة بن المنيرة : ١٣٥ ،
 عروة بن هاني المرادي : ١٤٤ ،
 عطية التغلبي : ٢٧٤ ،
 عقبة بن الحجاج السلول : ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 عقبة بن زرعة : ٢٦٢ ،
 عقبة اليهودى : ٤٥٣ ،

٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٤٦٣ ،
 ٤٧٤ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ،
 عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي : ٧٩ ،
 عبد الله بن يزيد : ٢٨٠ ،
 عبد الله بن يزيد بن معاوية : ١٦٩ ، ١٧٨ ،
 عبد الملك بن الأهم : ٤١٧ ، ٤١٩ ،
 عبد الملك بن دثار الباهلي : ٤٣٦ ،
 عبد الملك بن عبد الله بن عامر : ٣٩١ ،
 عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف
 الثقفى : ٣٤١ ،
 عبد الملك بن مروان (الخليفة) : ٩٥ ،
 ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ،
 ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٨٨ ،
 ١٩٠ - ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ١٩٩ - ٢٠٢ ، ٢٠٤ - ٢٢٠ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٥ ،
 ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٧٥ ، ٥٢٦ ،
 عبد الملك بن مروان بن محمد : ٣٥٩ ،
 عبد الملك بن المهلب : ٤٠٩ ،
 عبد الملك بن يزيد الأزدي (أبو عون) :
 ٥٠٩ ، ٥١٨ - ٥٢٠ ،
 عبد المؤمن بن شعث بن ريمى : ٢٣٩ ،
 عبدة بن رباح النساني : ٣٥٩ ،
 عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي
 ابن عبد الله بن عباس : ٥١٣ ،
 عبس بن طلق الصريمى : ٣٨٩ ،
 عبيد الله بن أبي بكرة : ١١٣ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٨ ،
 عبيد الله بن الحر الجعفى : ١٨٥ ،
 عبيد الله بن زياد بن أبيه : ١٢٢ ، ١٢٥ ،
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

عمر بن عبد العزيز : ٢٠٨ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ،
٢٥٥ - ٢٦٤ : ٢٧١ - ٢٧٣ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ -
٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ - ٣١٦ ،
٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ،
٣٥١ - ٣٥٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ -
٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ - ٤٤١ ،
٤٥٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣

عمر بن هيرة الفزاري القيسي : ٢٦١ ،
٢٦٢ ، ٣١٠ - ٣١٢ ، ٣١٤ ،
٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤١ ، ٤٣١ -
٤٣٣

عمر بن الوضاح : ٣٥٨

عمرو بن الحريث : ١٨٨

عمرو بن الزبير : ١٤٨

عمرو بن سعيد بن العاص : ١٤٢ ، ١٤٥ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٧٠ -
١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
١٨٤ - ١٨٦

عمرو بن سعيد بن مروان : ٢١٤

عمرو بن العاص : ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١ ،
٧٢ ، ٧٤ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٩٠ ،
٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠١ ،
١٢٩ ، ١٣١

عمرو بن عثمان بن عفان : ١٥٣ ، ١٥٨

عمرو بن مرثد : ٣٩٨

عمرو بن مسلم الباهلي : ٢٦٢ ، ٤٢٠ ،
٤٣٣

عمرو بن يزيد الحكمي : ١٦٩ ، ٢٠٥

عمير بن الحباب : ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ،
١٩٧ - ١٩٩ ، ٢٠١

عميرة البشكري : ٤٣٤

عنبه بن سميم الكلبي : ٣٢٩٠

عوف بن كعب : ٤٠٤

(٣٥ - الدولة العينية)

عتيل بن أبي طالب : ٧٧

علقمة النخعي : ٧٨

عل بن أبي طالب (رضى الله عنه) : ٣٧ ،
٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤٨ ،
٥١ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٧٠ - ٧٤ ، ٧٦ - ٨٢ ، ٨٤ -
٩٩ ، ١٠١ - ١٠٦ ، ١١٠ ،
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٢٩ ، ١٣١ ، ٢٦٦ ، ٢٨٢ ،
٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٥٠ ،
٣٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ ، ٤٧٤ ،
٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٧

عل بن جديع الكرمانى : ٤٦٥ ، ٤٩٦ ،
٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ، ٥٠٧ -
٥٠٩

عل بن الحسين بن عل بن أبي طالب : ١٥٢ ،
١٥٨

عل بن عبد الله بن عباس : ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،
٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٢٣

عمار العبادى : ٤٨٠

عمار بن ياسر : ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٩

عمارة بن تميم النخعي : ٢٣١ ، ٢٣٢

عمارة بن حريم : ٤٣٩

عمارة بن عقبة بن أبي مبيط : ١٢١

عمارة بن يزيد : انظر خدائش

عمر بن أبي ريعة : ٣١٩

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : ٢٣ ،
٢٦ ، ٢٩ - ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ،
٥١ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٥ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤١ ، ١٥٧ ،
٢٠٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ -
٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣٥ ، ٣٨١

عمر بن شبة : ١٢٢ ، ٢٢٠

(ق)

قارله : انظر شارل مارتل
قيصة بن جابر الأسدي : ١٢٣
قتيبة بن مسلم الباهلي : ٢٤٤ ، ٢٥٠ ،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،
٤١٣ - ٤١٥ ، ٤١٧ - ٤٢٤ ،
٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ،
٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٨٣ ،
٥٠٧

قحطبة بن شبيب : ٣٠٧ ، ٤٨٥ ، ٤٩٣ ،
٥٠٨ - ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥٢٠

قرعة (الطيب) : ٤٨٤

قطام (بنت الشحنة) : ٩٨ ، ٩٩ ،
القطامي : ٢٥

قيس بن سعد بن عبادة : ٧١ ، ٧٦ ،
٨٨ - ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٩ - ١٠٢ ،
قيس بن هانيء المبيسي : ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
٣٦٣

قيس بن الهيثم السلمي : ١٩٠ ، ٣٨٧ ،
٣٩٥ ، ٣٩٦

(ك)

كارزنج (صاحب مدينة ق) : ٤٢٩ ،
٤٣٠

كثير (من أهل الكوفة) : ٨٢ ،
الكرماني (بن علي) : انظر : جديع الكرماني

كسرى أنوشروان : ١١٣ ، ٢٤٤ ،
كسرى برويز : ٢٤٤ ،
كسرى قباد : ٢٤٤

كعب الأشقرى الأزدي (الشاعر) : ٤٠٨ ،
٤١٥

كعب بن جميل : ٧٨

معيص الطائي (الشاعر) : ٢٠٤

عياض بن مسلم : ٣٣٩

عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣ ،
٥١٤

عيسى بن مصعب : ١٩٢

عيسى بن معقل العجلي : ٤٨٥ ، ٤٨٦

عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله
ابن عباس : ٥١٢ ، ٥١٤

عينة الفراري : ١٠٧

(غ)

غالب (من أهل نيسابور) : ٤٨١

غوزك (الأخشيذ) : ٤١٤ ، ٤٣٥ ،
٤٣٦

(ف)

فاخته (أرملة يزيد بن معاوية) : ١٧٢ ،
١٧٩

الفاضلة بنت يزيد بن المهلب : ٤٣٩

فاطمة بنت النبي عليه السلام : ٣٨ ،
٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،
٤٨٩

الفرزدق : ١٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ،
٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٣١٠ ، ٣٩٠ ،
٤١٥

فروة بن نوفل : ٨٠

الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن
عبد المطلب : ١٥٤

فيروز حصين : ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٣٩٥

فيروز قول : ٤٢٤

فيلكان اسكوياذ : ١٠٩

٢٩ ، ٤٣ - ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ،
٥٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ - ٦٤ ،
٧٦ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ،
١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ -
١٥٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ،
٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ ،
٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ،
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٩ ،
٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٤٢٨ ،
٤٤٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨٢ ،
٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ،
٥٠٣ - ٥٠٥ ، ٥٢٩ ، ٥٣٣

محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله
ابن عباس : ٥١٣
محمد بن أبي بكر : ٤٦ ، ٥٠ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩٢ - ٩٤
محمد بن أبي حذيفة : ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٢ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤
محمد بن أبي سفيان : ١٤٩
محمد بن الأشعث : ١٤٣
محمد بن الحنفية : ٤٧٦ ، ٤٧٧
محمد بن خالد بن عبد الله القسري : ٥١٢
محمد بن خنيس : ٤٧٨ ، ٤٨٠
محمد بن زريق : ٢٨٠
محمد بن السائب الكلبي : ٢٣٩
محمد بن سعد بن أبي وقاص : ٢٣٩
محمد بن سعيد الكلبي : ٢٥٤
محمد بن عبد الله بن خازم : ٢٩٩ ، ٤٠٠
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٣٢٤ ،
٤٧٥ - ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ،
٤٨٦ - ٤٩٠ ، ٥١٣ ، ٥١٥

كلثوم بن عياض القسري : ٣٢٤ ، ٣٢٣ ،
٣٢٦

الكيت (الشاعر) : ١٣٢ ، ٢١٧ ،
٤١٥ ، ٤٧٧

كتانة بن بشر التجيبي : ٩٣ ، ٥٠
كوثر بن زفر بن الحارث : ٢١١ ، ٢٠٥
كور صول الترقشي : ٤٤٨ ، ٤٥٢
كونتانس (الهرقل) : ٤٦ ، ٩٥

(ل)

لاهر بن قريظ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥
لوذريق : ٢٣١
ليو (قيصر الروم) : ٢٨٩ ، ٣١٤

(م)

ماسر جسان (القديس) : ٤٥٤
مالك بن آدم : ٥١٠
مالك الأشتر : ٤٥ ، ٥٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ،
٩٤ ، ١٣١ ، ٣٠٩
مالك بن مسمع : ٣٨٧ - ٣٨٩
مالك بن هبيرة : ١٧١
مالك بن الهيثم الخزاعي : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
٤٨٥ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢١
المامون (الخليفة) : ٢٠٦
ماني : ٢٨٩
ماه افريلون : ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢
ماهوش : ٢٢٤
ماهويه : ٣٩٥
المثنى بن عمران : ٣٧٧
مجزأة بن كوثر (أبو الورد) : ٥٢٥
محارب بن موسى : ٣٧١
محمد (صل الله عليه وسلم) : ١ ، ١٣٠ ،
١٥ - ٢٥ ، ٢٨ - ٣٦ ، ٣٨

محمد بن عمرو بن حزم : ٢٥٦
 محمد بن عمير بن عطار : ٢٢٠
 محمد بن القاسم الثقفي : ١٠٨ ، ٢٤٤
 ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 محمد بن مروان بن الحكم : ١٨٦ ، ١٩٢
 ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٥٧
 ٣٦٠
 محمد بن المهلب : ٣٠٣
 محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي : ٣٤٠
 محمد بن هشام بن عبد الملك : ٢٣٥
 محمد بن يزيد (مولى الأنصار) : ٣١٣
 محمد بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ ، ٣٠٢
 المختار الثقفي : ٦٤ ، ١٠٨ ، ١٨١
 ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢
 ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦١
 ٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧
 ٤٧٨
 محمد بن يزيد بن المهلب : ٤٢٤
 مردان شاه بن زاذان فروخ : ٢١١
 المرزبان (من أهل مرو) : ٤٢٢
 المرزبانة (زوجة نصر بن سيار) : ٤٥٤
 مروان بن الحكم : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨
 ٩١ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٣٦
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦
 ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧
 ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦
 ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٠٦
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٨٧ ، ٢٢٦
 مروان بن محمد (الخليفة) : ٣٢٨ ، ٣٥٣
 ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩
 ٤٥٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩١
 ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢١
 ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦
 مروان بن المهلب : ٣٠٥

مريم (السيدة) : ٩٧ ، ١٢٨
 مزدك : ٤٨٩
 المستورد بن علفة التيمي الخارجي : ١١٠
 ١١١
 مسعر بن قدكي التيمي : ٧٩
 مسعود بن عمرو العتكي الأزدي : ٢٠٣
 ٣٨٦ ، ٣٩٢
 مسلم بن ذكوان : ٣٥٨
 مسلم بن سعيد بن أسلم الكلابي : ٤٣٢
 مسلم بن عبد الرحمن الباهلي : ٥٠٧
 مسلم بن عقبة المري : ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٥٩
 ١٦١ ، ١٧٥
 مسلم بن عقيل بن أبي طالب : ١٤٣
 ١٤٤
 مسلم بن عمرو الباهلي البصري : ٤٠٩
 مسلمة بن عبد الملك : ٢٤٤ ، ٢٦١
 ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
 ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٨
 ٣٥٧ ، ٥١١
 مسلمة بن محمد الأنصاري : ٨٨ ، ٩٢
 مسلمة بن هشام بن عبد الملك : ٣٢٨ ، ٣٤٠
 المسيح (عليه السلام) : ٢ ، ٢١٠
 المسيح (الدجال) : ٥٢٦
 مصعب بن الزبير : ١٨١ ، ١٨٨
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨
 ٢١٨ ، ٢١٩
 مطر بن ناجية التيمي : ٢٢٨
 معاوية بن أبي سفيان : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠
 ٥٥ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٤
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٨ ، ١١٠
 ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٥٩
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠
 ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٠

المهدي (الخليفة) : ٣٠٠

المهدي المنتظر : ٥٢٦

المهلب بن أبي صفرة الأزدي : ٦٥ ، ١٩١

٢٠٣ : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣

٢٢٦ : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٨٦

٢٩٣ : ٢٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

٤٠٧ : ٤٠٨ ، ٤١٧ ، ٤٥٩

موسى بن داود بن علي بن عبد الله ابن

عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

موسى السراج : ٤٨٥

موسى بن عبد الله بن غازم : ٢٤٢

٤٠١ : ٤٠٤ - ٤٠٦ ، ٤٠٩

٤١٠

موسى بن كعب التميمي : ٤٨٢ ، ٤٨٣

٤٩٦

موسى بن المنيرة : ١٣٥٠

موسى بن نصير : ٢٥٢ ، ٢٨٦

موفقوزا البريري : ٣٢٩

ميسرة الصغري : ٣٣١ ، ٤٧٨ - ٤٨٠

٤٨٧

(ن)

النابغة (الشاعر) : ١١ : ١٢٨

نائل بن قيس الحزامي : ١٦٧ ، ١٦٩

١٧٢ ، ١٨٢

ناغضة الكلبي : ١٦٨

نائلة الكلبي (أرملة عثمان رضي الله عنه) :

٥٠ ، ٧٠ ، ١٢٧

نباتة بن حنظلة الكلابي : ٣٧٩ ، ٥٠٩

٥١٠

النجاشي (الشاعر) : ٧٦

نجدة بن عامر الخارجي : ١٦٢ ، ١٩٥

نصر بن سيار الكناني : ٦٩ ، ٢٧٢

٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧

٢٠٣ : ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤

٢٢٢ : ٢٢٤ ، ٢٤٤ - ٢٤٦

٢٥٩ : ٢٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

٢٨٧ : ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

٢٣٥ : ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧

٢٩٦ : ٤٧٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦

٥٢٧

معاوية بن حديج السكوني الكندي : ٨٩

٩٢ ، ٩٣

معاوية السكسقي القضاعي : ٣٦٨

معاوية بن هشام بن عبد الملك : ١٣٣

٣٢٧

معاوية (الثاني) بن يزيد : ١٦٦ - ١٦٩

١٧٣ ، ١٧٨

معاوية بن يزيد بن المهلب : ٢٥١ ، ٣٠٩

معقل بن سنان الأشجعي : ١٥٤ ، ١٥٧

معقل بن عمرو : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٤٣١

معقل بن قيس التميمي : ٨١

المغيرة بن حبياء التميمي (الشاعر) : ٤١٥

المغيرة بن زياد بن أبيه : ١٢١

المغيرة بن سميد (الساحر) : ٣١٧

المغيرة بن شعبة : ١٠٢ ، ١٠٦ - ١١٥

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥

١٣٨

المغيرة بن عبد الله الثقفي : ٢٠٣

المفضل بن المهلب : ٤٠٦ ، ٤٠٩

مقاتل بن حيان النبطي : ٤٠٩ ، ٤٦١

٤٧٠ ، ٥٠٧

المنذر بن أسد بن جرير بن عبد الله القسري :

٣٢٣

منصور بن جمهور الكلبي : ٣٤٧ ، ٣٥٢

٣٥٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤

٣٧٧ - ٣٧٩

منصور بن عمر بن أبي الحرقاء : ٤٥٣

٤٥٤

الميثم بن الأسود : ٢٩١
الميثم بن عبد الكافي : ٢٢٩
الميثم بن واقد : ٢٥٦

(و)

واصل بن عمرو القيسي : ٤٥٢ ، ٤٥١
وجه الفليس : ٣٥٠
وزير السخثاني : ٣١٧
وكيع بن الحسن بن أبي الأسود : ٤١٩ ،
٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
وكيع بن الدؤقية : ٤٠١ ، ٤٠٢
ولادة بنت العباس العبسي : ٢١٨
الوليد (ابن أخى الأبرش الكلبي) :
٣٤٩
الوليد الأزرق : ٤٨٠

الوليد بن عبد الملك : ٢٠٦ - ٢٠٨ ،
٢١٢ ، ٢١٦ - ٢١٨ ، ٢٤٣ - ٢٤٥ ،
٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٧٨ ،
٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤٧ ،
٣٥٧ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٧٥
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : ١١١ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ،
١٦٨ ، ١٦٩
الوليد بن عتبة بن أبي معيط : ٧١
الوليد بن مسلم : ٢٨٠
الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم :
٥١٩

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ٣٠٢ ،
٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ -
٣٥١ ، ٣٥٣ - ٣٥٥ ، ٣٥٧ - ٣٥٩ ،
٣٦١ - ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧١ - ٣٧٣ ،
٤٥٧ - ٤٥٩ ، ٤٩١ ، ٥٢٦

٢٥٥ ، ٣٧٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
٤٣٨ ، ٤٤٩ - ٤٦٦ ، ٤٩١ ،
٤٩٤ - ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ -

٥١٠

النضر بن أنس بن مالك : ٢٠٦
النضر بن سعيد الحرثي : ٣٧٢ ، ٣٧٤
النضر بن صبيح المري : ٥٠٧
النعمان بن بشير الأنصاري : ٧٠ ، ٩٥ ،
١١١ ، ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٤٦ -
١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٧٢
نعمان بن سفيان الراسبي : ٣٨٧
نهار بن تومعة البكري (الشاعر) : ٤١٥
نوح بن دراج : ٢٧٥
نيزك (الطرخان) : ٤١٤ ، ٤٤٧

(هـ)

هاشم بن عتبة : ٧٦
هذيل بن زفر بن الحارث : ١٨٧ ، ٢٠٥ ،
٣٠٣ ، ٣١١
هشام بن إسماعيل المخزومي : ٢٠٨ ،
٢١٦ ، ٢١٥
هشام بن عبد الملك : ١٣٣ ، ٢٤٤ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٩ ،
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ - ٣٢٩ ،
٣٣١ - ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ،
٣٥٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ،
٤٤٩ - ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ،
٤٥٨ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥

هضاب بن طروق : ٢٨٠
هيمان بن عدى السدوسي البكري : ٢٢٤
هند بنت أبي سفيان : ٣٨٧
هند بنت معاوية بن أبي سفيان : ١١٢
هوفان قون فالرزلبين : ١٤

(ى)

ياهو الإسرائيلي : ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس : ٥١٤ .

يحيى بن حُضَيْن : ٤٤٣ ، ٤٦٥ ، ٥٢٠ .

يحيى بن الحكم : ١٨٦ .

يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي

ابن أبي طالب : ٣٢٧ ، ٣٤٥ ،

٣٧٤

يحيى بن عقيل الخزاعي : ٤٨١

يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٣

يحيى بن نعيم البكري : ٥٠٧ ، ٥٢٠ .

يحيى بن نعيم بن هبيرة : ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

يزدجرد (آخر ملوك الساسانيين) : ٤٣٦ ،

٤٥٤

يزيد بن أبي سفيان : ٣٩

يزيد بن أبي مسلم : ٣١٢ ، ٣١٣

يزيد بن أبي النمس الفسافي : ١٦٩ ، ١٧٠ .

يزيد بن الحارث الكتافي : ٨٨

يزيد بن خالد بن جرير بن عبد الله القسري :

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ،

٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٦٥

يزيد بن زمة : ١٥٧

يزيد بن زياد بن أبيه : ٣٩٦ ، ٣٩٧

يزيد بن عبد الملك : ٢٥٣ ، ٢٥٦ ،

٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ ، ٣٠١ ،

٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ،

٣١٠ ، ٣١٢ - ٣١٥ ، ٣١٩ ،

٣٣٧ ، ٣٤٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ،

٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٧٩

يزيد بن عمر بن هبيرة الفزازي : ٣٤١ ،

٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ - ٣٧٩ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،

٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢١

يزيد بن قيس الأرجسي : ٧٨

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ٢٦ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،

١٣٣ - ١٤١ ، ١٤٥ - ١٥٤ ،

١٥٦ - ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٧ ،

١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ ، ٢٠٢ ،

٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ،

٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٥٢٦

يزيد بن المهلب : ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،

٢٤٢ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥١ -

٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ٢٠٥ - ٢٠٩ ، ٣١١ ،

٣١٢ ، ٣١٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،

٤٢٣ - ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٥١١

يزيد الناقص : انظر يزيد بن الوليد ابن

عبد الملك

يزيد بن هبيرة : ٣١٧

يوسف الثقوف (والد الحجاج) : ١٨١
يوسف بن عمر الثقوف القيسي : ٢٢٢-٢٢٤ ،
٢٢٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ،
٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٥٠ ،
٢٥٨ ، ٢٨٥
يوسف بن محمد بن يوسف الثقوف : ٢٤١
يونس بن عاصم : ٢٨٥

يزيد بن هشام بن عبد الملك : ٢٤٠
يزيد بن الوليد بن عبد الملك : ٢٤٨ ،
٢٥٠ - ٢٥٥ ، ٢٥٨ - ٢٦٠ ،
٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٥٣ ، ٢٥٨ - ٢٦٠
يعقوب (مولى هشام بن عبد الملك) : ٢٢٥
يوحنا (القديس) : ٢٩٠

فهرس الأماكن والمواضع

(١)

- أبرشهر : ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٨١ ، ٤٤٣ ، ٤١٣ ، ٤٨١
الأبرق = الأزرق (مكان) : ٣٣٨
أبو فطرس (حصن) : ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤
أبو فطرس (نهر) : ٥١٩
أبيورد : ٣٠٥
أحد (جبل) : ١٦
إدوم : ٨٣
أذربيجان : ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٧٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٧
أذرح : ٨٣ ، ٤٧٥
أربوة = تربوة : ٣٢٩
الأردن : ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢١٢ ، ٣١٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٥١٩
أرض الترك : انظر الترك (بلاد)
أرض الثغرين : انظر : الثغران
أرض الختل : انظر الختل (بلاد)
أرض الروم : انظر الروم (بلاد)
أرض الشراة : انظر : الشراة (أرض)
أرمينية : ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٣٠٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣
الأساورة (نهر) : ٣٩٢
أسبانيا : ٢١٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٩ ، ٥٢٥ - انظر أيضاً :
الأندلس
- إسكندرية : ٢٢٦
إسكبيث : ٤١٤
أسوس : ٢١٧
آسيا : ٥٢٨
آسيا الصغرى : ٢٠٩ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢
إشتيخن : ٤٢٩ ، ٤٤٨
أشروسة : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢
الآشموئين : ٥٢٠
إصطخر : ١١٣ ، ٢٧١
أصفهان : ٧٨ ، ٩٩ ، ١٩١ ، ٢٧١ ، ٥١١
الأغاف (ل) : ٣٢٨ ، ٣٤٩
أفريقية : ٣٢٨
إفريقية : ٢٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٩٣ ، ٥٢٨
أفنة : ٤٣٢
أكرونيوس (مكان) : ٣٢٨
ألمانيا : ٢٩٣ ، ٢٩٤
آلين (قرية) : ٤٩٥ - ٥٠٠
آمل : ٤١١ ، ٤٨٤
الأنبار : ٩٥ ، ٣٠٧ ، ٥١١
أنتياتريس : ٥٢٤
الأندلس : ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ - ٣٣٢ ، ١١٦ ، ٢٦١ - انظر أيضاً : أسبانيا
أنطاكية : ٣٣٤ ، ٣٦٨

١٩١ ١٩٢ ٢٠٣ ٢١٤
٢١٥ ٢١٨ - ٢٢٠ ٢٢٢
٢٢٧ ٢٢٨ ٢٣٠ ٢٣١
٢٣٢ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٨
٢٤٠ - ٢٤٢ ٢٤٨ ٢٦١
٢٦٣ ٢٦٩ ٢٧٢ ٢٧٥
٢٨٨ ٢٠٣ - ٢٠٦ ٢٠٩
٣١٠ ٣١٨ ٣٢٥ ٣٥٤
٣٨٠ - ٣٨٤ ٣٩٠ ٣٩١
٣٩٣ - ٣٩٧ ٤٠٢ ٤٠٧
٤٢١ ٤٣٩ ٤٦٨ ٤٧٣
٥١٢ ٥٢٥

بطنان حبيب : ١٨٣ - ١٨٥
بمليك : ٢١٧ ٢٨٠ ٢٤٨ ٣٦٨
٥١٩
بنداد : ٥٢٧ ٥٢٩ ٥٣١
البيع : ٥٠
البكريان : انظر بلخ
بكة (وادي) : ٢٣١
بلخ : ٣٢٧ ٤٠٥ ٤١٠ ٤١٢
٤٣٣ ٤٣٤ ٤٤٢ ٤٤٥ - ٤٤٨
٤٥١ ٤٩٥ ٥٠٧
بلخ (نهر) : ٣٩٦ ٤٠١ ٤٠٥
٤٠٧ ٤١٠ - ٤١٢ ٤٢٠
٤٣٦ ٤٣٧ ٤٤٦ ٤٥٧
البلقاء : ٣١٥ ٣٥٤
بلقين (أرض) : ٣٣٨
البليخ (نهر) : ١٩٩
بنجيكت (مدينة) : ٤٢٩
براتي : ٣٢٩
بوشنج : ٣٩٦
بوصير : ٥١٩
بورب (مكان) : ٧٢
بياركت : ٤٢٩
بياسان : ٤٢٤
بينكت : ٤١٣ ٤٣٦

الأهواز : ٨٠ ٨١ ٩٤ ١٠٩
٢١٩ ٢٢٢ ٢٤١ ٣٠٦
٣٧١ ٣٧٥
أوروبا : ٣٢٨ ٣٣٠
إبيريا : انظر : أسبانيا
إيران : ٣٩٤ ٣٩٥
إزقباد (مكان) : ٢٣١
آيلة : ٢٩١
إيليا (بيت المقدس) : ٩٧

(ب)

الباب الحديدي : ٤١٤ ٤٥١ ٤٥٢
بابل : ٣٠٧ ٥٢٠
باجيرا : ١٨٤ ١٨٥ ١٨٨ ١٩٠
بادغيس : ٣٩٦ ٤٠٨ ٤١٠
باميان (مدينة) : ٤١٠ ٤٤٩
البحرين : ٨١ ١١٥
بخاري : ٤٠٧ ٤١١ ٤١٣ ٤١٤
٤١٦ ٤٢٧ ٤٣٣ ٤٣٥ - ٤٣٨
٤٤٠ ٤٥١
البخراء (حصن) : ٣٤٩
بدر (مكان) : ١١ ١٦
بذخشان : ٤١٠ ٤١١
البرانس (جبال) : ٣٢٩ ٣٣٠
براونشفيج - لونبرج : ٢٩٣
بردي (مكان) : ٢٨٠
البروقان : ٤٣٣ ٤٤٥
بزماجن : ٤٢٩
بست (مكان) : ٢٢٦
بشر = الرهوب (مكان) : ٢٠٢
البصرة : ٢٥ ٥٢ ٥٩ ٦٥ - ٦٧
٨٦ ٩٥ ١٠٣ ١٠٥ - ١٠٩
١١٢ - ١١٥ ١١٨ ١٢٠
١٢٢ ١٢٤ - ١٢٦ ١٢٨
١٦٦ ١٦٨ ١٧٢ ١٨٥

(ت)

التبوشكان (قلعة) : ٤٦٢ ، ٤٤٥

تلمر : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠

٣٦٢ ، ٣٦٥ - ٣٦٧ ، ٥٢٥

الترك (بلاد) : ٤٢٩ ، ٤٢٣ ، ٣٥٧

تركيا : ٣٥٣

ترمذ : ٤٠٦ ، ٤٠٥ ، ٤٠١ ، ٢٤٢

٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٤٣

٤٤٥ ، ٥٠٧

تستر (مكان) : ٢٢٧ ، ٢٢٤

تكرت : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٣١

تور : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢

تولوشة = تولوز : ٣٢٩

تومشكت (مدينة) : ٤١٣

تيما : ٩٥

(ث)

الثرثار (نهر) : ١٩٩

الثفران : ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٧

الثفور : ٢٨٨

(ج)

الجاية (مكان) : ١٦٩ - ١٧١

١٧٣ - ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤

جابلق (مكان) : ٥١٠

الجارون (نهر) : ٣٢٩

الجل (بلاد) : ١٠٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١

٥٠٤

جيل (مكان) : ٣١٧

جرجان : ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٣٠٣

٤٢٤ - ٤٢٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠

الجزيرة : ٢٣ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٠

٩٩ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ١٨٤

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣

٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

٢٥٢ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٥٥

٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤

٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨

٤٠٩ ، ٥١٨

جزيرة العرب : ٦ ، ٧ ، ١٦ ، ١٧

١٩ - ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٥٢

٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٥

١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩

٢٨٢ ، ٢٩٤ ، ٤٧٤ ، ٤٩١

جسر القرات : ٢٣٧

جسر منيج : ١٨١

جسر النهران : ٧٩

المطبعة (جبل) : ٩٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

جلنج : ٤٣٠

جلولا : ٥١١

جليقية : ٢٤٤

جوخى : ٧٩ ، ٢٢٢

الجوزجان : ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٤٤٧

جوزستان : ٤١٠

جيتسان : ٩٧ ، ٢٠٧

جيرنج : ٤٩٥

جيرون : ١٧٤

(ح)

الحائرة (مكان) : ٥١١

الحبشة : ٢١٤

الحجاز : ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٢٨

١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢

١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٤

٢٤٨ ، ٢٥٩ ، ٥٢٥

حران : ١٦٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣

٣٦٤ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩

الحرة (مكان) : ١٥٣ ، ١٥٤

٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢١٨ ، ٢١٠
٢٥٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤١ ، ٢٢٤
٢٩٩ - ٢٩٢ : ٢٨١ - ٢٧٩
٤١١ - ٤٠٧ ، ٤٠٣ - ٤٠١
٤٢٠ ، ٤١٦ ، ٤١٥ ، ٤١٣
٤٢٨ - ٤٢٦ ، ٤٢٤ - ٤٢٢
٤٣٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣١
- ٤٤٨ ، ٤٤٤ - ٤٤٢ ، ٤٤٠
- ٤٦٦ ، ٤٥٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥١
- ٤٧٧ ، ٤٧٥ - ٤٧٣ ، ٤٦٩
- ٤٨٩ ، ٤٨٧ - ٤٨١ ، ٤٧٩
٤٩٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٦ - ٥٠٤ ، ٥٠٩

٥٢٤ ، ٥١٧ ، ٥١٣ ، ٥٠٩
خربتا (قرية بمصر) : ٨٨
خرقان (مكان) : ٢٢٧
خرقان (نهر) : ٥٠٠
الخزرد (بحر) : ٢٦١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤
الخزرد (بلاد) : ٢٦١
خساف (قرية) : ٢٦٧
خشورأغ (مدينة) : ٤٠٦ ، ٤٤٦
الخضراء : ٣٥٤ ، ٣٥١
الخطرفية (قرية) : ٤٧٨
خلم : ٤١٠
المناصرة (مكان) : ٣٠١
خوارزم : ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤
٤١٦ ، ٤٣٦ ، ٤٥١ ، ٤٩٤
خوزستان : ٤٠١

(د)

دابق : ٢٥٥ - ٢٥٨ ، ٥٢٣
دارابجرد : ١٠٢
دار الهجرة : انظر : المدينة
الدبوسية : ٤٢٧ ، ٤٤١
الدجلة (نهر) : ٧٣ ، ٧٩ ، ٩٥

حروراء (مكان) : ٥٦ ، ٧٨ ، ٨٠
الجشاك (مكان) : ١٩٩
حشر كوكب : ٥٠
حلب : ٣٠٩
حلوان (المشرق) : ٤١٨ ، ٥١١
حمام أعين : ٥١٣ ، ٥١٥ - ٥١٧
حص : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٦٧
١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٧
٣١٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩
٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧
٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٥
الحميمة : ٤٧٤ - ٤٧٦ ، ٤٩٠ ، ٥١٣ ، ٥١٤

خوارزين : ١٦٥
الخيرة : ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦
٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٨
٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٥١٧ ، ٥٢٥

(خ)

الخابور (بلاد) : ١٩٨
الخابور (نهر) : ١٩٩
خانقين : ٥١١
الختل (بلاد) : ٤١١ ، ٤٤٩
الختل (جبال) : ٤١١
خجندة = خولند : ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٢٩
خراسان : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩
٩٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠
١٦٦ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥
٢٢٣ ، ٢٢٢ - ٢٣٤ ، ٢٤١
٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢
٢٥٤ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٨
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧
- ٢٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

(ر)

رامدين : ٤١٣
 رامهرمز : ٨١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
 رُب : ٤١٢
 رشتا باد : ٢٢١ ، ٢٢٧
 الرصافة : ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨
 ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩
 ٢٦٦ ، ٥٢٣
 رضوى (جبل) : ٤٧٦
 الرقة : ٧٢ ، ٧٣ ، ٣١٥ ، ٣٧٦
 الرملة : ٢٤٩ ، ٢٥٥
 الرهوب (مكان) : انظر : بشر
 الروضة : ٥٢٠
 الروم (بلاد) : ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨
 البرى : ٧٨ ، ٩٤ ، ٣٧١ ، ٥١٠

(ز)

الزاب الأكبر (نهر) : ٥١٨ ، ٥١٩
 زابل (مكان) : ٢٢٣
 زاغول (مكان) : ٤٠٨
 الزاوية (مكان) : ٢٢٧
 زرفشان (وادى) : ٤١٥
 زرفشن (نهر) : ٤٢٩
 زرمان (مكان) : ٤٣٧
 زرنج (مدينة) : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢
 ٣٩٥
 زمزم (بئر) : ٣٢٠
 الزيتونة (مكان) : ٣٠٩
 زيزاء (منزل) : ٣٢٨

(س)

ساباط (قلعة) : ١٠٢

٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٩

٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٠

٢٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨

٥١١ ، ٥١٨ - ٥٢٠

دجيل (نهر) : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣١

الدردوني (نهر) : ٣٢٩

دستميان : ٣٧٥

الدسكرة : ٨٠

دمشق : ٥٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٩٧

١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٢٧

١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩

١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٥ -

١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٤

١٨٦ - ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١

٢٠٣ ، ٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢١٥

٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠

٣٠١ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣٢١

٣٢٣ - ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩

٣٤١ ، ٣٤٥ - ٣٤٨ ، ٣٥٠

٣٥١ ، ٣٦١ - ٣٦٤ ، ٣٦٦

٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨ ، ٤٧٥

٤٨١ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٣

٥٢٧ ، ٥٣٠

دسا (مكان) : ٥١١

دمستان : ٤٢٤

دعلك (جزيرة) : ٣٤١

دورق : ٤٠١

دورين (مكان) : ٣٦٧

دومة الجندل : ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠٣

١٠٩ ، ٥١٤

دير الجاثليق (مكان) : ١٩٢

دير الجماجم (مكان) : ٢٢٩ ، ٢٣٧

دير سنبل : ٣٨٢

دير قرعة : ٢٢٩

دير هند : ٣٧٢

(ش)

الشاذ : ٤١٢ ، ٤٤٧
 الشاش (بلاد) : ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٤٨ ،
 ٤٥٢ ، ٤٥٣
 الشاش (نهر) : ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،
 ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٢
 الشام : ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٨ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٧١ - ٧٣ ، ٩٠ ، ٩٦ ،
 ١١٠ ، ١٢٦ - ١٣١ ، ١٣٧ ،
 ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ،
 ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٨ - ٢٨٠ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ،
 ٣٥٩ - ٣٦١ ، ٣٦٣ - ٣٦٥ ،
 ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩١ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ،
 ٤٥٧ ، ٤٦٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ،
 ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧
 شذوثة : ٣٣١
 الشراة (أرض) : ٤٧٤ ، ٤٧٨
 شهرزور : ٣٧٣ ، ٥١٨
 شومان : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٤

سابور (مكان) : ٢٣١
 ساوة (مكان) : ٥١٠
 سباسبول (مدينة) : ٢٠٩
 سبته : ٣٣٢
 السبيع : ٤٨٦
 سبستان : ١١٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ - ٢٣٤ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٥ - ٣٩٧ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ،
 ٤١٥
 السرجنان (نهر) : ٥٠٧
 سرخس : ٢٧٩ ، ٤١٣ ، ٤٦٦ ،
 ٤٦٧ ، ٥٠٨
 سرقسطة : ٣٣٠
 السند (بلاد) : ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤١ ،
 ٥٠٨
 السند (نهر) : ٤١١
 سقادم (قرية) : ٤٩٤
 السبابة : ١٩٨ ، ٢٠٠
 سمرقند : ٢٨٥ ، ٤٠٥ - ٤٠٧ ،
 ٤١١ ، ٤١٤ - ٤١٦ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ -
 ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦١
 السند (بلاد) : ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٨٤ ،
 ٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٤٨٠
 السند (نهر) : ٣٠٩
 السواد (أرض) : ٣٠ ، ٣١ ، ٤٥ ،
 ٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٤٧٨
 السوس : ٢٣١
 سويات : ٤٤٦
 سيقذنج (مدينة) : ٤٩٤ ، ٤٩٥ ،
 ٤٩٨ - ٥٠٠

المجم (بلاد) : ٤٧٣ ، ٤٦٨ ، ٤٦٣ : ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٧٨ ، ٥٢٨
 المراق : ٤٠ ، ٣١ — ٢٩ ، ٢٥ : ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٢ ، ٦٣ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٩٤ — ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ — ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٨٤ ، ١٨٢ — ١٨٠ ، ١٦٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢١٩ — ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ — ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٢٨٦ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ — ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٥٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦ — ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٤٠٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٤ ، ٤٥٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧٨ — ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٧ —
 انظر أيضاً : السواد

مركة (جبل - سهل) : ١٩٣
 المريش : ٩٠
 العقبة (طريق) : ٤٣٨
 عقر (مكان) : ٣٠٧ — انظر أيضاً : قصر
 عمان : ١١٥ ، ٢٨٧ ، ٣٤٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢

الموجا (وادي) : ٥٢٤
 عين التمر : ٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٨٢

(ص)

الصراة (جبال) : ٢٨٢
 الصيد : ٥٢٠
 صنان - صتانيان : ٤٣٩ ، ٤١١
 صفين (موضع) : ٧٢ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ٨٠ ، ٧٩
 صنماء : ٣٧٨
 الصين : ٤٣٠ ، ٤١٥ ، ٤١١

(ط)

طارق (جبل) : ٣٣١
 الطائتان : ٣٩٨ — ٣٩٦ ، ٤١٠ ، ٤١٢
 الطائف : ٤ ، ٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٥٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤١
 طبرستان : ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٣٠٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥
 طبرية : ١٥٤ ، ٣٦٥
 طخارستان : ٤١٠ ، ٤١٢ — ٤١٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥٣٤

طرابلس : ٢١٤
 طوالة (حصن) : ٢١٦
 الطلواويس (مكان) : ٤٣٨
 طوس : ٤٦٦ ، ٥٠٩

(ع)

عادم (سجن) : ١٤٨
 العاء (مكان) : ٢٠٠

١٨٢ - ١٨٠ ، ١٧٦ ، ١٧٢

٢٢٨ ، ٢٥٥ ، ٢٤٩ ، ١٩٨

٤٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٢ ، ٢٥١

٥٢٤ ، ٥١٩ .

الفلوجة : ٥١١

قم القرات (موضع) : ٥١١

قم النيل (مكان) : ٢٠٧ ، ٥١١

قنين : ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠

(ق)

قادس (المشرق) : ٢٩٦

قادس (المغرب) : ٢١٤

قا : ١٥٤

قبرس : ٢٧٨ ، ٢٤٢ ، ٢٣٦ ، ٢٩١

قرقيسيا (مكان) : ٧٣ ، ١١٠ ، ١٦٧

١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٧٢ ، ١٧١

٢٧٧ ، ١٩٧ ، ١٩٦

قرماسين : ٥١١

القرية : ٢٢٢

القسطنطينية : ١٦٥ ، ٢١٦ ، ٢٤٩

٢٩٦ ، ٢٦١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥

٢٢٧

القصب (أرض) : ٥٢٠

قصر : ٣٠٧ - انظر أيضاً : مقر

قصر ابن هيرة (مكان) : ٥١١ ، ٥١٢

قصر فرتنا : ٤٠١

القسطانة : ٩٥

قطن : ٢٤٨

القلزم : ٩٠

قندايل (مكان) : ٣٠٩

قنبرين : ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٠

٢٦٠ ، ٢٤١ ، ٢١٦ ، ١٨٢

عين الجر : ٣٦٠ ، ٥١٩

عين وردة : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧

(غ)

غازنين : ٤١٠

الغال - قاليس (بلاد) : ٢٢٠

غرجستان - غرشتان : ٤١٠ ، ٤١٢

النور (بلاد) : ١٩٨ ، ٤١٠

الغولة : ٢٨٠ ، ٢٩٠

(ف)

فارس : ٢٧ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١١٣

٢٢٦ ، ٢٢٣ ، ٢٠٦

٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥

٤٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣

فارط (قرية) : ٣٠٧

الفارياب : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٤١٠

٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣

فلك (أرض) : ٢٨٧

القرات (نهر) : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨

١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩

٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠٧

٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦

٣٧٦ ، ٥١١ ، ٥١٨

فرغانة : ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٥

٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٥٢

٤٥٣

لقرما : ٥١٩

فرنسا : ٢٦١

القسطاط : ٢٥

الفلايج (مكان) : ٢٢٩

فلسطين : ٨٨ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٦٩

١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٣٥ ، ١٣٤
 ١٨٨ ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ١٥٦
 ١٩٩ ، ١٩٣ ، ١٩١ ، ١٩٠
 ٢١٤ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠١
 ٢٢١ - ٢٢٨ ، ٢٢٣ - ٢٢١ ، ٢١٩
 ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٣
 ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٠
 ٢٧٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦١
 ٢٩٣ - ٢٩١ ، ٢٨٨ ، ٢٧٦
 ٣١٩ ، ٣١٧ ، ٣١٠ - ٣٠٧
 ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢
 ٣٥٤ ، ٣٥٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٠
 ٣٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ - ٣٦٧
 ٤٦٨ ، ٤٣٩ ، ٤٣١ ، ٣٨١
 ٤٧٨ ، ٤٧٧ ، ٤٧٥ ، ٤٧٣
 ٤٩٢ - ٤٩٠ ، ٤٨٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٠
 ٥٢٧ ، ٥١٨ ، ٥١٦ - ٥١١
 ٥٢٨

كوم شريك : ٩٣

(ل)

اللاذقية : ٣١٤
 لبنان (جبال) : ٣٦١ ، ٣٦٠
 اللصاف = اللصف (ماء) : ٢٢٢
 اللكام (جبال) : ١٨٢
 اللوار (نهر) : ٣٣٠
 لوقية : ٤٦
 الليطاني (نهر) : ٣٦١

(م)

الماخوان (مدينة) : ٤٩٥ - ٥٠٢
 مادون النهر (أرض) : ١٢٠ ، ٤٠٨

٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٤٤٧ ، ٥١٩
 ٥٢٥ ، ٥٢٣

قنطرة دجلة : ٢٢١

القوقاز : ٣٥٧ ، ٣٥٩

قوس (مدينة) : ٣٧١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤

٥١٠ ، ٥٠٩

ق (مدينة) : ٤٢٩

القيروان : ٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

(ك)

كابل - كابلستان : ٢٢٣ ، ٢٢٢

٤١٠ ، ٣٩٧

كابة (أرض) : ١٩٨

الكحيل (مدينة) : ١٩٩

كربلاء (مكان) : ١٤٤ ، ٣٠٧

كرمان : ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٣٠٦

٣٠٩ ، ٣٧١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨

٥١٠

كسكر : ٢٤٤ ، ٣٧٥

كش (مدينة) : ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٢

٤١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨

كشفر : ٤١٥

كشكة (نهر) : ٤١٤

كفرتوثا : ٣٧٦

كرجة : ٤٣٦

الكوفة : ٢٥ - ٢٧ ، ٤٤ ، ٤٥

٥٦ - ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧

٦٨ ، ٧٢ ، ٧٨ - ٨٢ ، ٨٨

٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣

١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٣ - ١١٥

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ - ١٢٦

مرو : ٣٩٥ - ٣٩٨ ، ٤٠٠ - ٤٠٤ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
 ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ،
 ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ -
 ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٨١ ،
 ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ -
 ٤٩٤ ، ٤٩٧ - ٥٠١ ، ٥٠٣ -
 ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩

مروالروز : ٣٩٦ - ٣٩٨ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،
 ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ،
 ٤٥٤ ، ٤٦٧ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ،
 ٥٠٠ ، ٥٠٨

مرو الشاذان : ٣٧٩

المزة : ٢٨٠ ، ٣٤٨ ، ٣٦٥ ، ٥١٩ ،
 مسكن : ٩٩ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
 ٢٣١

المناة (مكان) : ٩٣

المشلل (مكان) : ١٥٥

مصر : ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٨٧ - ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
 ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٨٠ ،
 ٢٠١ ، ٢١٠ - ٢١٢ ، ٢١٤ -
 ٢١٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٩٥ ،
 ٣١٠ ، ٣٥٥ ، ٣٧٨ ، ٥١٩ ،
 ٥٢٠

مصوح : ٣٤١

المصينح (مكان) : ١٩٧

المصينة : ١٨٢

المغرب (بلاد) : ٢٨٥ ، ٣٢٢

مناوراء النهر (أرض) : ٢١٦ ، ٢٤٤ ،
 ٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٣٦ ،
 ٤٠٠ - ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ - ٤١٣ ،
 ٤٢٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٤ ، ٤٥١ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ،
 ٥٠٨ ، ٥٣٤

مخترقة (طريق) : ٤٣٨

لدائن : ٧٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٤١ ،
 ٣٧٠

الدينة : ٥ ، ٧ ، ١١ - ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥ ،
 ٣١ ، ٣٦ ، ٣٦ - ٤٦ ، ٥٢ - ٥٤ ،
 ٥٩ ، ٦٩ ، ٨٨ - ٩١ ، ٩٧ ،
 ١٠٣ ، ١٠٧ - ١٠٩ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤٠ - ١٤٢ ،
 ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ - ١٥٠ ،
 ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ،
 ١٧١ - ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٣ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٣ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
 ٣٥٨ ، ٣٧٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ،
 ٥٢٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣١

الذار (طريق) : ٨٠

مراكش : ٣٣١

مرج أخرم : ٥٢٥

مرج بردى : ٢٨٠

مرج زاهط : ١٦٩ - ١٧٢ ، ١٧٦

مرج شعبان : ٢٨٠

مرغم (قرية) : ٤٨٢

مرغاب (وادي) : ٤١٠

نصيبين : ٩٠ ، ١٨٧ ، ٢٧٦
 قفلورة (موضع) : ٢٢٢
 نهاوند (مدينة) : ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٧
 النهروان (مكان) : ٧٩ ، ٢٢٢
 نواكث : ٤٤٦
 نوام (نهر) : ٢٢٢
 التوبهار : ٤٤٥
 نيسابور : ٢٩٥ - ٢٩٧ ، ٤٠٧
 ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦
 ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٨١ ، ٥٠٨
 ٥٠٩
 نيل الفرات : ٢٠٧ ، ٥١١ - انظر
 أيضاً : قم النيل

(ه)

هاربورج : ١٨٣
 هجر (مكان) : ٢١٩
 هراة (مدينة) : ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٩٦ - ٤٠٠
 ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٢
 ٤٥٠ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٥٠٠
 ٥٠٧
 هريرود (وادي) : ٤١٠
 هذان (مدينة) : ٥١٠
 الهند : ١١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٥
 ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٢٢٣
 ٤٢٧
 الهندية (مدينة) : ٣٠٧
 هيت : ٩٥

حكة : ١ ، ٤ - ٨ ، ١٧ - ٢٢ ، ٢٦
 ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٨٦ ، ٩٨
 ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧
 ١٤٠ ، ١٤٢ - ١٤٨ ، ١٥٣
 ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٢ - ١٦٤
 ١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٥
 ٢٠٢ ، ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٨
 ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٨٧
 ٣١٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٧٨
 ٣٨٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠
 ٤٩٣ ، ٥٠٩ ، ٥٢٤

الملح (جبال) : انظر : الحتل (جبال)
 ملطين (بلاد) : ٣٢٨
 منبج : ٥١٩

الموصل : ٩٩ ، ١٨١ ، ٢٢٢ ، ٢٣١
 ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣
 ٣٧٥ - ٣٧٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩
 ميديا : انظر : الجبل (بلاد)
 ميسان : ١٠٩ ، ٢٧٦ ، ٣٧٥

(ن)

نجران : ٢٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٦
 النجرانية (قرية) : ٢٩١
 النخذ : ٤٤٣
 النخيلة (مكان) : ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٣
 ٣٠٧
 نربونة (مدينة) : انظر : أربونة
 نسا (مدينة) : ٤٦٧ ، ٥٠٨
 نسف : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٨
 النصرانية (قرية) : ٤٥٤

(و)

واسط : ٥٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ،
 ٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٢ ، ٣٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ،
 ٣٧٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ،

٥٢٠

وخشاب (نهر) : ٤١١

ورغسر : ٤٤٤٠ ، ٤٥١

ولشتن : ٤١٠

(ى)

يانا : ٥١٩

يئرب : ٢٠ ، ٥٠

الين (بلاد) : ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٢ ،

٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٥٨

اليهودية (موضع) : ٤٥٤

فهرس الموضوعات والمواد

(١)

أبناء الدولة : ٥٢٦

الأبناء (من تميم) : ٤٠٢ ، ٤٠٤

الاتحاد (الألمان) : ١٤

الاجتماعات العامة : ١٠

الاحتلال العسكري (نظام) : ٣١

الأحزاب (دينية - سياسية - قبلية) :

٦٩ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٧٧ ،

١٨١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٣١٨ ،

٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ،

٤٧٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦

الأجاء : ٤٣

الاختيار (ضد الجبر) : ٢ ، ٢٣٤

الاختيار : ٢٣ ، ٢٨

الاخريد (لقب) : ٤١٢

الاغشيد (لقب) : ٤١٢

الآداب الإسلامية : ٣٠٩

إدارة الدولة : ٢٦ ، ٣١ ، ٢٦٣ ،

٢٩٦ ، ٣٣٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٥ ،

٤٥٤ ، ٤٦٩

الأذان : ٢١

الآراميون : ٣٦٤ ، التأثير الآرامى : ٦

الأرزاق : ٣١ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ٢٧٨ ،

٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ ،

٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٤٢٨ ، ٤٧١ ،

٤٩٥ - قازن أيضاً : أعطيات

الأوستقراطية (عربية ، إسلامية) : ٢٧ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،

١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،

٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ،

٣٦٣ ، ٤٦٨ ، ٥٢٨ - ٥٣٠

أرض الخراج : انظر : الخراج

أرض العشر : انظر : العشر

أرض العنوة : انظر : العنوة

أرض الفتح : انظر : الفتح

الأزارقة : ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٢٣

الأزد (قبيلة) : ٣٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

٩٥ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٢٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ ،

٢٤٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،

٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٨١ -

٣٨٣ ، ٣٨٦ - ٣٩٣ ، ٣٩٧ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٧١ - ٤٧٣ ،

٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ،

٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،

٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٨٣ ،

٤٨٨

الأساقفة : ٢٧ ، ٤٥٤

الأساورة (من الفرس) : ٣٨٠ ، ٣٨٨ ،

٣٩٢ ، ٣٩٥

الاستعمار (بالمعنى الرومانى) : ٤١٥

استغلال (النفوذ) : ٣٢١

الاستقلال (الإدارى) : ٤١٥

الأعاجم : ٦٦ ، ٤٠٦ ، ٤٢٠ - ٤٢٣ ،

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،

٤٣٧ ، ٤٣٩ - ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،

٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ،

٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ -

٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٧ ، ٥٠٣ ،

٥٠٥ - ٥٠٧ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،

٥٣٤

الأعراب : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩١

الأعطيات : ٣١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ،

٥٨ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ،

١٦٠ ، ١٧١ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ،

٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،

٢٧٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ - ٢٨٩ ،

٣٠٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ،

٣٥٢ - ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٤١٨ ،

٤٢٨ ، ٤٤٢ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ -

قارن أيضاً : الأرزاق

الأعياد : ٥

الأعياص : ١٧٠

الأفريقيون : ٢٨٩

الأفشين (لقب) : ٤١٢

الأقباط : ٢١٠

الأقباط (بمعنى غير المتحضرين) : ٢٤١

أكرونيوس (موقعة) : ٣٢٨

كسفورد (جامعة) : ٣٣٠

الإكليل (موقعة) : ١٩٧

إله : الذات الإلهية : ٢ - ٣

السلطة الإلهية : ٨ - ١٠ ، ١٣

العدل الإلهي : ٣ ، ٩

القدرة الإلهية : ٢ ، ٣

إله الإسلام : ٢

لأسرة : ٣ ، ٤ ، ٧

الأسرى : ٢٠

إسقاط الديون : ٢٢

الإسلام : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١١ ،

١٣ ، ١٥ - ٢٥ ، ٢٣ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٥١ ، ٥٣ - ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٦١ - ٦٤ ، ٦٦ - ٧٨ ، ٨١ ،

٨٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ،

١١٦ ، ١٢٦ - ١٢٩ ، ١٣٤ -

١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ،

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٦ ،

٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،

٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ -

٢٦٥ ، ٢٦٧ - ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،

٢٨١ - ٢٨٥ ، ٢٨٧ - ٢٩٢ ،

٢٩٤ ، ٢٩٧ - ٣٠٠ ، ٣٠٥ ،

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ -

٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٩٣ ،

٣٩٤ ، ٤١٥ - ٤١٧ ، ٤٢٠ ،

٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ،

٤٣٥ ، ٤٣٩ - ٤٤٢ ، ٤٥٣ ،

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧ ،

٤٦٩ - ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ،

٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ،

٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ،

٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤

الأسواق : ٥

أشجع (قبيلة) : ١٥٥

الأشعريون : ١٤٧

الأشقند (لقب) : ٤١٢ ، ٤٤٨

الإصبيد (لقب) : ٤١٢

١٤٧ ، ٩٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٥٦ ،
٣١٣

أهل الأردن : انظر : عرب الأردن

أهل الإسكندرية : ٣٣٦

أهل الأمصار : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣

أهل الأهواز : ٨٠

أهل إيران : ٥٢٨

أهل أيلة : ٢٩١

أهل البحرين : انظر : عرب البحرين

أهل البصرة : انظر : عرب البصرة

أهل بلخ : ٤٨١

أهل (آل) البيت : ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٠ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٧٨ ،

٢٣٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٣٦٩ ،

٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ،

٥١٥ ، ٥٢٢

أهل تدمر : انظر : عرب تدمر

أهل ترمذ : ٤٤٥

أهل جرجان : ٤٢٥

أهل الجزيرة : انظر : عرب الجزيرة

أهل الجزية : ٣٥٢

أهل الحجاز : ١٣٧ ، ١٣٩

أهل حران : ٥١٩

أهل الخطوة والخط : ٣٢١

أهل الحل والعقد : ٣٣

أهل حمص : انظر : عرب حمص

أهل خراسان : ٦٨ ، ٢٨٤ ، ٣٧٩ ،

٤٠٢ ، ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥٨ ،

٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ ،

٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ،

٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،

٥١٣ ، ٥١٥ - ٥١٨ ، ٥٢٠ ،

إله الفلاسفة : ٢

الإمام : ١١ ، ١٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ،

٥١ ، ٦١ ، ١٦٤ ، ٤٤١ ،

٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ،

٤٩١ ، ٥١٤

إمام الصلاة : ١٠ ، ٢٦

الإمامة : ٣٧٥ ، ٤٧٦ ، ٥٣٣

الأمّة : ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١١ - ١٥ ،

٢٦ ، ٢٠

الأمّة (سيادة الأمّة) : ٩ - ١٤

الأمّة الإسلامية : ١٥ ، ٥٩ ، ٨١ ،

٩٨ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٤٢ ،

١٧٣ ، ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ ،

٤٧٢

أمة الله : ٧

الأمصار : ٢٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ ،

٥١ - ٥٣ ، ٥٨ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ،

١٦٦ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،

٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ،

٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٤٨ ، ٥٣٠ ،

٥٣١

الأمويون : انظر : بنو أمية

أمير المؤمنين (لقب) : ٣٥

أنباط القرى : ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،

أنبياء إسرائيل : ٥٢٢

الانتخاب : ٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٨٥

الإنجيل : ١ ، ٢ ، ١٨ - الاتجاه الإنجيلي :

٥٩

الإنسانية الموحدة : ٥

الأنصار : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٢٥ - ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ،

٨٨ ، ١٠٧ ، ١٣١ ، ١٤٦ ،

أهل اللاذقية : ٣١٤
 أهل ماوراء النهر : ٤٧١ ، ٤٧٢
 أهل المجون والفسق : ٢٤٣ ، ٣١٣ ، ٣٣٨
 أهل المدينة : ١٢ ، ١٥ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٦ - ٤٨ ، ٥١ - ٥٣ ، ٨٣ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٤٦ ، ١٥٠ - ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢٥٩ ، ٢٤٠
 أهل مرو : ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٩٣ ، ٥٠٢
 أهل مصر : انظر : عرب مصر
 أهل مكة : ٣ ، ٦ ، ١١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣١٩
 أهل المياه : ٥٢
 أهل النجاة والفضل : ٢٦٦ ، ٣٣٥ ، ٤٠٤ ، ٤٦٠ ، ٥٠٥
 أهل نجران : ٢٩١ ، ٢٩٢
 أهل الهند : ٢٥١
 أهل اليمن : انظر : عرب اليمن
 الأوس : ٧ ، ١٦ ، ٣٦
 أيام العرب : ٢٩٤
 الإيرانيون : ٢٢٣ ، ٤١٢ ، ٤٢٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٠
 الإيمان (رباط الاتحاد) : ١ ، ١٢ ، ٢٩

(ب)

البابية : ٤٤٨
 الباب المفتوح (ثمان رضى الله عنه) : ٥٠
 باهلة (قبيلة) : ١٩٦ ، ٢٥٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٨٣
 البراء (خطبة زياد) : ١١٦ ، ١١٨
 بجيلة (قبيلة) : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٣٣
 البخارية : ٣٢٦

٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٣ ، ٥٢٩
 أهل خربت : ٨٩
 أهل دمشق : انظر : عرب دمشق
 أهل الديانة والورع : ٣٧ ، ٥١ ، ٥٤ - ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ١٢٢ ، ١٩٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٩٤ ، ٤٤٢ ، ٤٩٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ -
 أهل الذمة : ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣١٩ ، ٣٦٠ ، ٤٢٨
 أهل الردة : ١٦٠
 أهل الرها : ١٢٨
 أهل سقادم : ٤٩٥
 أهل سمرقند : ٢٨٤ ، ٢٨٥
 أهل السواد : ٢٨٢ ، ٣٢٦
 أهل الشاش : ٤٥٢
 أهل الشام : انظر : عرب الشام
 أهل الشرك : ٣٢٤
 أهل الشقاق والفتنة : ٣١٦
 أهل العالية : ٣٨١ ، ٤٠٨
 أهل العراق : انظر : عرب العراق
 أهل عين التمر : ٢٨٢
 أهل فارس : ٩٤ ، ٥٠٤
 أهل فلسطين : انظر : عرب فلسطين
 أهل فينيقية : انظر : عرب فينيقية
 أهل قبرس : ٢٩١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢
 أهل القرى : ٤٤٢ ، ٤٧١
 أهل قنسرين : انظر : عرب قنسرين
 أهل الكافية (الكفاية) : ٤٩٣ ، ٥٠٣
 أهل الكتاب : ٢٤
 أهل كرمان : ٩٤
 أهل الكوفة : انظر : عرب الكوفة

٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨ ،
 ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨١ ،
 ٣١٠-٣٠٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢-٣٠٠ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢١ ، ٣١٩ ، ٣١٢ ،
 ٣٤٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٣٢٧ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٥٦ ،
 ٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧١ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٠٢ ، ٤٢٨ ،
 ٤٥٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٧٢-٤٧٥ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ،
 ٥١٦ ، ٥٢٢-٥٢٧ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣١ ، ٥٣٣-انظر أيضاً : الدولة
 الأموية

بنو جشم (بن معد بن زيد بن مناة بن تميم) :
 ٣٩٨

بنو جندب : ٣٧٩

بنو الحوزجان : ٤٤٧

بنو حارثة : ١٥٤

بنو حرب : ١٢٩

بنو الحريش بن كعب : ٤٢٩

بنو حنظلة : ٣٩٠

بنو سعد : ٢٧٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣

بنو سلمة : ٤٨٠

بنو سليم : ٥١٨

بنو شيان : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٧٦

بنو صبيب : ٣٩٨

بنو ضبة : ٣٨٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧ ،
 ٤٣٤

بنو عامر : ٥١٨

(٣٧- الدولة المروية)

يذر (موقعة) : ١١ ، ١٥ ، ١٦ ،
 ١٨ ، ٢٩ ، ١٣٠

البراءة (من الشركين) : ٢١
 البرامكة : ٤٤٥

البربر : ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣٢٩-٣٣٢ ، ٥٣٣

البروقان (موقعة) : ٤٣٤

البريد : ٥٣١

البصريون : انظر : عرب البصرة

بطارقة الروم : ٢٧٨

البطانة : ٥٣٠

بطانة عثمان رضي الله عنه : ٤٠ ، ٤٤

البطون : ٤ ، ١٠

يكر (قبيلة) : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ،

٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٣٩ ، ٣١٧ ،

٣٧٤ ، ٣٨٠-٣٨٢ ، ٣٨٧-٣٩٠ ،

٣٩٥ ، ٣٩٧-٣٩٩ ، ٤٠١ ،

٤٠٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ ، ٤٦٤ ،

٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠٠ ،

٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٢٠

بلاط الخليفة : ٥٢٩ ، ٥٣٠

بلاط دمشق : ٢٠٥

بلاط الشهداء (موقعة) : ٢٣٠

بلعارث (قبيلة) : ٥٢٠

بنات فين (موقعة) : ٢٠٠ ، ٢٠١

بنو إسرائيل : ٥٠٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣

بنو أمية : ٢٠ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ،

٤٦-٤٨ ، ٥٠ ، ٥٧-٦٠ ،

٦٢-٦٨ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٢٤ ،

١٢٦ ، ١٢٩-١٣١ ، ١٤٢ ،

١٤٥ ، ١٤٩-١٦٠ ، ١٦٤ ،

١٦٦ ، ١٦٨-١٧٥ ، ١٧٧-١٧٩ ،

١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤-٢٠٦ ،

٢٠٨ ، ٢١٣-٢١٦ ، ٢١٩ ،

بيت المال : ١٣ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤١ —

٤٣ ، ٥٨ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٥ ،

١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٧٠ ،

٢٥٨ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٦٩ ،

٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،

٢٨٦ — ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،

٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،

٣٤٤ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ،

٤٢٧ ، ٤٥٣ ، ٤٦٩

بيت المقدس : ١٨ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٧ ،

١٢٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ،

٣١٦ ، ٣٦٨

البيعة (بولاية العهد) : ٢٨ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٩٧ ، ١١٠ ، ١٣٤ — ١٤٢ ،

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ،

١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ — ١٧٣ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٦ — ٢٥٨ ، ٣١٥ ،

٣٢٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ — ٣٤٨ ،

٣٦٠ — ٣٦٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨٤ ،

٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٨ ،

٥١٤ ، ٥١٥

البيعة النبوية : ٢٢

(ت)

التابعون (للنقباء) : ٤٧٩

تألف القلوب : ٢٠

التبت (قبيلة) : ٤٠٦

التحالف السياسي : ١٢٧

التحكيم (بين علي ومعاوية) : ٧٨-٨٧ ،

٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٩

بنو الغساس : ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٣٢ ،

٢١٣ ، ٢٤٥ ، ٢٣٦ ، ٢٧١ ،

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٤٣٨ ، ٤٦٤ ،

٤٧٤ — ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،

٤٨٩ — ٤٩١ ، ٤٩٤ ، ٥٠٤ ،

٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ — ٥١٧ ،

٥٢١ — ٥٣٤

بنو عبد المطلب : ٣ ، ٣٩

بنو عبد مناف : ٣٩

بنو العدوية : ٣٨٨

بنو عمرو بن تميم : ٣٩٠

بنو عوف : ٤٠٢

بنو فاطمة : ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠

بنو فزارة : ٣١١

بنو القمقاع : ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ،

٣٤٦

بنو قيس بن ثعلبة : ٤٨١

بنو مروان : انظر : المروانيون

بنو المهلب : ٤٥٩

بنو هاشم : ٣ ، ٣٩ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،

٣٧٠ ، ٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٣ ،

٥٢٩

بنو يشكر : ٣٨٧

البرانيون : ٣٤٦ ، ٣٤٩

بويب (موقمة) : ٧٢

بيت عمرى (الإسرائيلي) : ٥٢٢ ، ٥٢٤

البيت الحرام : ١٧ — ١٩ ، ١٤٥ ،

١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٩٣ — ١٩٥ ، ٢٠٢ ،

٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٢٤٧ ، ٣١٦ ،

٣٢٠

٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ،

٥٠٩

التبجد : ٣

التوحيد : ١٨ ، ١٩ ، ٢١

التوحيد : الإسلامى : ٢ ؛ السامى : ١٩ ،

٢١ ؛ العربى : ١٩ ، ٢١

التوراة : ١ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥٧

التوسع الخارجى : ٢٣

(ث)

النار : ٧ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ١٩٦ -

٥٢٢ ، ٢٠٢

ثقيف - ثقيفون : ٤ ، ٥ ، ٦٤ ،

٦٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٢٢ ، ٢٤١

الثورة : ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ،

٥٥ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ١١٠ ، ١١٣ ،

١١٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٣ - ٢٢٧ ، ٢٤٠ ،

٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،

٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ ،

٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ،

٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ،

٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ،

٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ،

٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ - ٤٤٣ ،

٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،

التدريب المسمى : ١٠

التراث (الدينى الإسلامى) : ٢٧ ، ٥٤ ،

١٥٩ ، ٢٥٩

التراث (المسيحى) : ١٢٨

التراث (النبوى) : ٢٠٨

الترسل : انظر : التسيك

الترك : ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ،

٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٩٣ ، ٤٠٦ ،

٤٠٧ ، ٤١١ - ٤١٣ ، ٤١٦ ،

٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

٤٣٢ ، ٤٣٦ - ٤٣٨ ، ٤٤١ ،

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،

٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٥٢٣ ،

٥٢٤

التسيك (لقب) : ٤١٢

تستر (موقعة) : ٢٣٣ -

تغلب (قبيلة) : ٢٣ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ،

٤٤٥

تسيم : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٩٥ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

٢٠٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ،

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،

٢١٨ ، ٢٨٠ - ٢٨٢ ، ٢٨٦ ،

٢٩٥ ، ٢٩٧ - ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،

٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ،

٤٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٠

الجماعة الدينية : ١ ، ٥ ، ١٠ ، ١١

٤٥٤

الجماعة السياسية : ٨ ، ٥

جماعة الله : ١٢

الجماعات القديمة المقدسة : ١٠ ، ١١

الجل (موقعة) : ٥٢ ، ٥٥ ، ٨٠

الجمعة (يوم) : ١٧ ، ٢٦

الجمهورية : ٩

الجنس : ٤١ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٨٦

٢٢٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧

٤٩٦

جند احتلال : ٥٨ ، ٩٤ ، ٢٤١

جند - جيش البصرة : ١١٣ ، ٢٢٠

٢٢٦

جند - جيش بني العباس : ٥٠٣

جند - جيش خراسان : ٥٠٣ ، ٥١٠

٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٨

جند - جيش الشام : ٤٩ ، ٥٦ ، ٧٣

٩٣ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢

١٦٤ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧

٢٢٢ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ ، ٢٣٢

٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ -

٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٠٣

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩

٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٢

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢

٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٤٤٧ ، ٤٧٣

٥١٠ ، ٥١٨

٤٧٨ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤

٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦

٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥٣٢

(ج)

جابلق (معركة) : ٥١٠

جار - جوار : ١٢ - ١٤ ، ٤٣٠

الجاموسية : ٥٣١

الجاملية : ٦٥ ، ١١٧ ، ٣١٨ ، ٣٨٠

٣٩٠ ، ٤٢٩ - انظر أيضاً :

الشرك .

الجب (ضد الاختيار) : ٢

الجبرية : ٣٦٤

جذام (بنو روح بن زنباع) : ٥١٩

الجراجة : ١٨٢

الجزية : ٥ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ -

٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ -

٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٢

٣٩٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥

٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ -

٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٧١

الجفرية (جماعة) : ١٨٥ ، ١٨٦

الجماعة : ٣ - ٨ ، ١٠ - ١٤ ، ٢٦

٤٨٩

الجماعة الإسلامية - المحمدية : ١ ، ٣

١٠ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٥

٥٩ ، ١٠٦ ، ١٥١ ، ١٩٥

(ح)

حارث بن عباد (قبيلة) : ٤٣٣
 الحبطات (قبيلة) : ٣٩٥
 الحجج : ١٨ ، ٢١ ، ٥١ ، ١٠٣ ، ٢٨٩ ، ٢٠٦ ، ١١٠
 حجة الوداع : ٢١
 الحبر الأسود : ١٨
 الحديث : ٤ ، ٢٤ ، ٦٠ ، ٢٦٣
 الحرب : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦١ ، ٢٨٥ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، ٣٨٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٥٠٦
 الحرب (المادة العربية في الحرب) : ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠
 الحرب الأهلية الأولى : ٥٧ ، ٧٠ ، فابعدھا ،
 الثانية : ١٠٧ ، فابعدھا : ١٨٢ ،
 الثالثة : ٣٥٦ ، فابعدھا : ٣٧٨ ، ٤٥٣ ، ٤٧٥
 الحرس الخاص : ١٦
 الحرم : انظر : البيت الحرام
 الحرة (موقعة) : ٢٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢
 حروب الردة : ٢٣ ، ٣٧
 الحرورية : ٥٦ ، ٧٩
 الحشونيون : ٦٠
 الحصار اليونانية الرومانية : ١٢٦
 حق الرياضة : ٣٨
 الحق الشرعي : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥
 الحقوق الوطنية : ٦٧ ، ٤٤١ ، ٤٨٨
 الحكومة الإسلامية الأولى : ١٠
 الحكومة الأموية : ٣٧١ ، ٤٠٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٢
 الحكومة النيوقراطية : ٦ ، ٨ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٧

جند - جيش العراق : ١٠٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٤٠
 جند - جيش على : ٥٦ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٠
 جند - جيش الكوفة : ١٤٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٣٦٩
 جند محليون : ٥٨
 جند - جيش مروان بن محمد : ٥١٨ ، ٥٢٠
 جند - جيش معاوية : ١٠٤
 الجنة : ٢٤
 الجهاد : ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١
 الجهمية : ٤٦١
 جيرون (موقعة) : ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣
 الجيش : ٨ ، ١٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٥٠٩ ، ٥٢٩ ، ٥٣١
 قارن أيضاً : جند
 جيش الطواويس : ٢٢٤ ، ٢٢٧
 جيش الله : ٨

خولج (قبيلة تركية) : ٤٤٧
 الخرمية : ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠٤
 خزاعة : ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠
 الخزرج : ٧ ، ١٦ ، ٣٦
 خفاف (موقعة) : ٣٧٥
 خشبية أبي مسلم : ٤٧٨
 خشبية المختار : ١٨٧ ، ٤٧٨
 خطبة الجبل : ٢
 الخلافة : ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ - ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ - ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ - ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ - ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ - ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤٤١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨٩ ، ٥١٤ - ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣١
 الخلافة الجديدة : ٥٣ ، ١٥٨
 الخلافة الشرعية : ١٥٨
 الخلافة القديمة : ٥٣

٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٢٧ ، ٢٠٨ ، ٢٤٠ ، ٢٦٧ - انظر أيضاً : الدولة
 النيقراطية
 الحكومة الجمهورية : ٩
 الحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة : ٨ ، ١٠
 حكومة القديسين : ١٠
 الحنفية : ١ ، ٢
 الحياة العامة والسياسة : ١١

(خ)

خازر (موقعة) : ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٧
 خاقان الترك : ٣٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ - ٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣
 الخسل - الختلان : ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩
 خشم : ٩١ ، ٢٣٠
 خداه (لقب) : ٤١٢
 الخراج : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٦٦ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ - ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ - ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٤٢٠ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ - ٤٥٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٥٢٩
 الخراسانيون : انظر أهل خراسان

ربيعة (قبيلة) : ١٠٢ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ١٨٥ ، ٢٤٢ ، ٢٠٣ ، ١٩١ ، ٣٠٤ ، ٣٨٠ ، ٣٧٣ ، ٣٠٧ ، ٣٨٢ ، ٣٩٠ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٣٩٩ ، ٤٣٢ ، ٤٥٨ ، ٤٥١ ، ٤٤٧ ، ٤٥٩ ، ٤٩٦ ، ٤٧٩ ، ٤٦٤ ، ٥٠١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٤ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢١

الردة : ١٠٧ ، ٣٧ ، ٢٣

الرسل : ١

الرسول : ٥

الرعية : ٦٤ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٣١ ، ٤١٦ ، ٤٥٦ ، ٥٢٦

الرقيق : ٣ - قارن أيضاً : عبيد

ركوع : ٣

رمضان (شهر الصوم) : ١٧

الرمضان : ١٠

الروح الإسلامية : انظر : الإسلام

الروح الوثنية : انظر : الوثنية

الروم : ١٠٧ ، ٩٥ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٨٤ ، ١٨٢ ، ١٦٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٢٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٥٧

رومان (التأثير الروماني) : ٥٤ ، ٦ ، ١٢٦ ، ٢١١

الرئاسة : ٥١٣ ، ٣٨ ، ٢٠ ، ٨ ، ٦ ، ٥١٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٩

الرئاسة الإنسانية : ١٢٦

الدين : ١٥ ، ١٠ ، ٨ ، ٦ ، ٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٥٣١ ، ٥٢٣

دين إبراهيم : ١٨ ، ١٧ ، ٣ ، ١ ، ٢١

دين الأنبياء : ٩

دين الكائنات : ٩

الدية : ٣٩٠ ، ٢١ ، ١٣

الديوان (تعريب الديوان) : ٢١١ - ٢١٣

ديوان الأعطيات : ٢٣٥

ديوان البصرة : ١٠٩

ديوان الجيش : ٢٤

ديوان دمشق : ٢١٢

ديوان الماء : ٣٨٤

ديوان الكرة : ٢١٢

ديوان المال : ٢١١

ديوان المقاتلة : ٤٧١ ، ٣٨٤ ، ٢٨٨

(ذ)

ذبيان (قبيلة) : ١٧٧

الذكوانية : ٣٧٥ ، ٣٦١ ، ٣٥٨

(ر)

رابطة الإسلام : انظر : الإسلام

رابطة الدم : ١٣ ، ١٠ ، ٧ ، ٤ ، ٣٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ ، ٥٢٩

رابطة الدين : ٣٥ ، ١٥ ، ٧ ، ٤ ، ٥٢٣ ، ٥٠٣

رابطة النسب : ٣٥ ، ١١ ، ٧ ، ٤ ، ١٧٧ ، ٤٢٧ ، ٥٢٩

الراوندية : ٥٢٢ ، ٤٨٨

رباب (قبيلة) : ٣٩٠ ، ٣٨٠

ربان اليهود : ٤٥٤

الربنجن (لقب) : ٤١٢

الربنجن : ٢١

سكك (قبيلة) : ١٧٠ ، ١٧٧ ،
٥١٨ ، ٣٦٨

السكون (قبيلة) : ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٧

السلام : ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ١٤ - ٣٩٠ ،
٣٩١

السلطة المحلية : ٤١٣ ، ٤٦٩

سليم (قبيلة) : ١٧٢ ، ١٧٧ ،
١٩٦ - ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٤٦ ،
٤٧٠ ، ٣٩٥

السنة : ٥ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٣ ،
١٥٧ ، ٢٢٦ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٥١ ،
٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ، ٥٣١ ،
٥٣٢

السرك = السهرب (لقب) : ٤١٢
السيابجة (من الهنود) : ٣٨٠

السيادة العربية : ٢٥ ، ٦٧ - ٦٩ ،
٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ،
٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،
٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ،
٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٧

السياسة : ٦ ، ٥٩ ، ٦٨

السياسة الدنيوية : ٦

السياسة الدينية : ٦

السياف : ٥٣٠ ، ٥٣١

السيد (العربي) : ١٣٢ ، ٣٩٠

(ش)

الشاكزية : ٤٧٠

الشاميون : انظر عرب الشام

الشاه (لقب) : ٤١٢

الشرك (الجاهل) : ١ ، ١٧

الشورى : ١٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٥١

التراسة الدنيوية ، السياسة : ٥ - ٨ ،
٥٣٣

التراسة الدينية : ٧ ، ٥٣٣

(ز)

الزاوية (موقعة) : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
٢٤٨

الزراع المصريون : ٢٩

الزط : ٣٨٠

الزكاة (الصدقات) : ٢١ ، ٢٧ ، ٨١ ،
٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٢

الزنادقة : ٤٨٩ ، ٥٠٦ ، ٥٣٣

زنبل كابل : ٣٠٩

الزيدية (فرقة) : ٣٧٠

(س)

السادة : ٦٤

السامانيون : ١٣٤ ، ٤٦٩

السنية : ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٢٢٦ ،
٢٣٦ ، ٤٧٥ - ٤٧٧ ، ٥١٥

سجود : ٣

السريان : ٤٥٤

سعد (قبيلة) : ٣٩٠

السفد : ٢٨٥ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨

٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٢٩ ،

٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ،

٤٣٩ - ٤٤٢ ، ٤٥٣ ، ٤٤٨ ،

٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ ،

٥٣٣

السفانيون : ١٠٧ ، ١٦١ ، ١٦٦

١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

٢١٣ ، ٢٠٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ،

٥٢٦

الصقابة : ٥٣٣
 الصلاة : ٣ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
 ٣٣ ، ٤٥ ، ١١٩ ، ٤٢٣ ،
 ٤٣٥ ، ٤٩٥
 الصلاة الخامسة : ١٧
 الصلح : ٢٣ ، ٢٩
 الصواري (موقعة) : ٤٦
 الصواني (الأملاك) : ٢٨ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٣٠٠ ،
 ٣٣٦
 صوم عاشوراء : ١٧
 صوم النفران : ٢٧
 الصور المقدسة : ٣١٤
 صيام رمضان : ١٧ ، ٢٤
 صيام الأربعين : ١٧

(ض)

الضرائب : ٢٩٣ ، ٤١٥ ، ٤٥٥
 الضرائب الجمركية : ٢٩٣
 ضريبة الرأس : ٤٥٦

(ط)

الطالبيون (آل أبي طالب) : ٤٨١ ، ٥١٤
 طرخان — طرخون — طراخنة : ٤٠٥ ،
 ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٦
 طلي (قبيلة) : ١٧٧ ، ٣٨١ ، ٥٠٨

(ع)

العادة (الضرائب المتنوعة) : ٢٩٣
 عاشوراء : ١٧
 عامر (قبيلة) : ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٤٦
 العباسيون : انظر : بنو العباس

٨٥ ، ٨٧ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ٣٥١ ،
 ٤٦١
 الثوري (أصحاب الثوري الستة) : ٣٨ ،
 ٤٠ ، ١٠٩
 شيان (قبيلة) : ٣٧٣ ، ٣٧٥
 الشيعة : ٣٧ ، ٦٢ - ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢١ - ١٢٣ ، ١٤٤ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٧٣ - ٤٧٨ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ،
 ٥٢٢ ، ٥٢٣
 شيعة بني العباس : ٤٨٣ - ٤٨٧ ،
 ٤٩٠ - ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٧ ، ٥٠٩
 الشيوعية (الزدكية) : ٤٨٩

(ص)

الصائبون : ٣
 الصحابة : ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٥١ - ٥٣ ، ٧٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ،
 ١٥٠ ، ١٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
 ٢٨٠
 الصحيفة : انظر : الكتاب بين النبي
 وأهل يثرب
 الصخرة (قبة) : ٢٠٦
 صدر الإسلام : ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤
 الصدقات : انظر : الزكاة
 صفان — خداه (لقب) : ٤١١ ، ٤٤٨ ،
 صفين (موقعة) : ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٠ ،
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ،
 ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٣ ،
 ١٩٢ ، ٣٠٨

٤٥٢ ، ٤٥٧ — ٤٥٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢
 ٤٨٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٥ — ٤٦٢
 ٤٨٨ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ — ٥٠٧ ، ٥٠٩
 ٥١٨ ، ٥١٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧
 ٥٢٩ — ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤
 — انظر أيضاً : أعراب
 عرب الأردن : ١٧٠ ، ١٧١ ، ٤٤٧
 عرب البحرين : ٩٤
 عرب البصرة : ٥٣ — ٥٥ ، ٧٢ ، ٨٦
 ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩
 ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧
 ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ — ٢٨٧
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦
 عرب قدير : ٣٦٦
 عرب الجزيرة : ٣٦٦
 عرب الجنوب : ١٧٦
 عرب حمص : ١٧٣ ، ٢٨٠ ، ٣٥١
 ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٤٤٧ ، ٥٢٥
 عرب خراسان : ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٢
 ٤٠٦ ، ٤٢٣ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨
 ٤٧٠ ، ٤٨٣ ، ٥٢٠
 عرب دمشق : ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٨٠
 ٢٩٠ ، ٣٥١ ، ٤٤٧ ، ٥١٩
 عرب سمرقند : ٢٨٥
 عرب الشام : ٥٥ — ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١
 ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ — ٧٥
 ٧٧ — ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ — ٩٠
 ٩٦ — ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤
 ١٢٥ — ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١
 ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥١
 ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ — ١٦٤
 ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
 ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢

عبد القيس (قبيلة) : ٨١ ، ٢١٩
 ٢٨٠ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٤١٥
 عبد ود (قبيلة) : ٢٠٠
 الميرانيون : ٢٤٥
 عبيس (قبيلة) : ٢٥٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٥
 المبلات (قبيلة) : ١٧٠ ، ٥٢٢
 المييد : ٣ ، ٥٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٦
 ٤٩٥ ، ٥٠٥
 عتيك (قبيلة) : ٢٨٦
 المعجم : انظر : الأعاجم
 المعجمة (الإيرانية) : ٥٢٨
 المراقبون : انظر : عرب العراق
 العرب : ٣ ، ٨ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ —
 ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥
 ٣٧ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤
 ٥٨ ، ٦٣ — ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨
 ٨٠ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢١
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧
 ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩
 ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٠
 ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ —
 ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧
 ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ — ٢٧٤ ، ٢٨٤
 ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨
 ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ —
 ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧
 ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢
 ٣٨٤ ، ٣٩٣ — ٣٩٦ ، ٤٠٤ —
 ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٥ — ٤١٧
 ٤١٩ — ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩
 ٤٣٢ ، ٤٣٤ — ٤٣٦ ، ٤٣٨
 ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠

عرب نرو : ٤٩٦
 عرب مصر : ٤٥ - ٤٩ ، ٥١ ، ٧١ ،
 ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢
 عرب اليمن : ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ١٠٢ ،
 ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٢ ، ٢٨٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٢ ،
 ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٤٤٤
 العرش : ١٢٧ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢٦٤ ،
 ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٦٤ ،
 ٤٧٤ ، ٥٣٠
 العروبة : ٢٣ ، ٢٤٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧ ،
 ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٦٢ ،
 ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦ ،
 ٥١٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
 العشر : ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩٣
 عشيرة - عشائر : انظر : قبيلة
 العصية : ٤ ، ٥ ، ٢١ ، ٤٧٤
 عصر الفتوحات : ٢٩
 العطاء : انظر الأعطيات
 عقاب المثل : ١٣
 عقر (موقعة) : ٣١٠ ، ٣١٢
 علماء المذنية : ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٢
 الملويون : ٢٧ ، ٨٦ ، ٢٥٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥٠٤ ،
 ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢١ - ٥٢٣ ،
 ٥٣٢
 عليم : ٢٠٠
 عمرى : انظر : بيت عمرى
 العملة (الدينار والدراهم) : ٢١٠ ،
 ٢١١ ، ٢٤٦
 المنايس (قبيلة) : ١٧٠
 العناصر الأجنبية : ١٥
 المنوة (فى الفتح) : ٢٣ ، ٢٨ - ٣٠ ،
 ٢٦٥

٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٨٩ ،
 ٣٠٥ - ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ،
 ٣٦٦ - ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤٢٤ ،
 ٤٤٧ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ - ٥١٢ ،
 ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ - ٥٢٨

عرب الشمال : ١٧٦

عرب العراق : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ - ٥٨ ،
 ٦١ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
 ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ،
 ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ،
 ٢٣٦ - ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ - ٢٥٤ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٩٣ ، ٤٠٨ ،
 ٤٢٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٤ ، ٥١٦

عرب النوبة : ٣٦٥

عرب فلسطين : ١٧٦ ، ٣٦٥

عرب فينيقية : ١٧٦

عرب قسرين : ٣٦٦

عرب الكوفة : ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ،

٧١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٤ ،
 ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،
 ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ،
 ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٩١ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٩ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٦ ، ٢٦٩ - ٢٧١ ، ٢٩٦ ،
 ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،
 ٥١٥

٣٨٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٥ - انظر

أيضاً : غنية

الفيك (لقب) : ٤١٢

(ق)

القبائلية (موقعة) : ٧٤

قبالة - قبالات : ٢٧٨ ، ٢٨٢

القبائل المربية : ٤ ، ٥ ، ١٠ - ١٦ ،

٢٦ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٣ - ٦٥ ،

٦٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ٢٠٤ ،

٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ - ٢٥٣ ،

٣١٨ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٨٠ -

٣٨٥ ، ٣٩١ - ٣٩٤ ، ٣٩٧ ،

٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٣ ،

٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ،

٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ،

٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ،

٥٢٧

القبائل اليهودية : ١١

القبلة : ١٨

القبيلة : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ -

١٤ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ١٣٤ ،

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،

قحطان : ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ،

التشيرية : ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣ ،

القرآن : ١ - ٦ ، ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ،

٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ،

٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٠ ،

٦٣ ، ٧٤ ، ١١٦ ، ١٢٥ ،

١٢٧ ، ١٥٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ،

(غ)

غرق (شجر) : ١٥٦ ، ١٥٨ ،

ضان (قبيلة) : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،

٣٤٨

النانيون : ٥٤

غطافان : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ،

غنى (قبيلة) : ١٩٦

الغنية - الغنائم : ٢٥ ، ٢٨ - ٢٢ ،

٣٥ ، ٤١ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،

٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ،

٢٩٥ ، ٤٧١

(ف)

الفاروسيون : ٦٠

الفتح (قانون الفتح) : ٢٨ ، ٢٩ ،

٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٩٥ - انظر أيضاً :

حرب

فتح مكة : ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ،

فداء الأسرى : ١٣

الفرس : ٣١ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٦٨ ،

١٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،

٣١٧ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ - ٣٩٥ ،

٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦ ، ٥٢٩ ،

٥٣١ ، ٥٣٢

فرعون : ٢٩ ، ٢٣١ ، ٤٨١ ،

الفرنج : ٣٢٩ - ٣٣١

فزارة (قبيلة) : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٤١ ،

٣٣٨

الفقهاء (علماء الشريعة) : ٦٠ ، ٢١١ ،

٢١٧ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

الفرس : ٢٥ ، ٢٩ - ٣١ ، ٤١ - ٤٣ ،

٦٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ٢٨٢ ،

٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٢٦ ،

— ١٧٥ ، ١٧٣ ، ١٧١ ، ١٦٩
 ، ١٨٤ ، ١٨٢ — ١٨٠ ، ١٧٧
 ، ٢١٨ ، ٢٠٥ — ١٩٦ ، ١٨٥
 ، ٢٦٢ ، ٢٥٢ — ٢٥١ ، ٢٤٢
 ، ٢١٢ — ٢١٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣
 ، ٢٢١ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٦
 ، ٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤١ ، ٢٢٣
 ، ٢٧٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٠
 ، ٢٩٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٧٧
 ، ٤١٨ ، ٤٠٨ ، ٤٠٥ ، ٣٩٩
 ، ٤٣١ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢١
 ، ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٢
 — ٤٥٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٠ ، ٤٤٨
 ، ٥٠٩ ، ٤٦٣ ، ٤٦٢ ، ٤٥٩
 ٥٢٥ ، ٥١٨ ، ٥١٢ ، ٥١٠

القياقية (جماعة) : ٢٢٦

قين (قبيلة) : ١٧٧

(ك)

الكاثوليك : ٢٨٩

الكتاب (الصحيفة) بين النبي وأهل

يثرب : ١١ — ١٣

كتاب الديوان : انظر : الديوان

الكحيل (موقعة) : ٢١٧

كربلاء (موقعة) : ١٥٢

الكمة : انظر : البيت الحرام

الكفار — الكافرون : ٥١ ، ٤٦٢

٥١٨

كلب (قبيلة) : ٣٧ ، ٦٥ ، ٦٦

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٦٠

١٦٧ — ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٧

٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠

٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٥١

٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢

٤٩٥ ، ٥١٥ ، ٥٢٢

القرآن (علماء القرآن) : ٦٠ ، ٧٦

٧٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠

٢٧٥ ، ٢٠٦

القرشيون : انظر : قریش

قریش : ٣ — ١٢ ، ١٣ ، ١٥

١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٧ —

٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٨٤ ، ١٠٧

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٩ — ١٤١

١٥١ — ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٠٤

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٧٨ ، ٣١١

٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٠

٣٩٢ ، ٤٠٢ ، ٤٤٢

قصر (قبيلة) : ٣١١ ، ٣١٧

القضاء : ١٠ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٥٢٩

قضاة : ٦٦ ، ١٢٦ ، ١٧٦ ، ١٧٧

١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٤١

٣١٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧١

٥١٨

القطائع = الإقطاعات : ٢٦٦ ، ٢٧٧ —

٢٨٠ ، ٢٨٧

القليفة (خلعة) : ١٧٠ ، ١٧١

القهرمان : ٢٨٢

القوط : ٣٣١

القومية العربية : ٤٧٠ ، ٤٨٨ ، ٥٢٣

القومية الفارسية : ٤٧٠

قيس (قبيلة) : ٦٥ ، ٦٦ ، ١١٠

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٦٧ —

المحيرة : ٥٠٤
 المحيط الأطلسي : ٦٩
 المحيط الهندي : ٢٩
 مخزوم (قبيلة) : ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٩
 مدن المسكرات : ٢٥ ، ٢٨ ، ٥٣
 ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٤٦٧
 ٤٦٩
 المدنيون : انظر أهل المدينة
 المدينة الدولة (Polis) : ٤
 مذبح (قبيلة) : ٧٧ ، ٢٤٠ ، ٣٨١
 مرج راعط (موقعة) : ١٦٨ ، ١٧٢
 ١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٦
 المرجنة : ٣٠٨ ، ٣٥٢ ، ٤٤١
 ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٣
 مرزبان - مرازية : ٣٩٦ ، ٤٥٤
 ٤٦٨ ، ٤٦٩
 ممرقة : ٣٧٣
 المروانيون : ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٧
 الأولون ١٩٦ فابعدا : المتأخرون
 ٣٠٢ فابعدا ٣٠٦ ، ٣٤٧
 ٣٧٠ ، ٤٨١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦
 مزدكية : انظر : شيوعية
 مزون (قبيلة) : ٣٨٢ ، ٣٩٧
 مساعدات اجتماعية : ٢١٧ ، ٢٨٩
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٤٠
 الساراة : ١١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
 ٢٦٩ ، ٢٩٤ ، ٤٤١ ، ٤٥٧
 ٤٧٢ ، ٥٠٦
 المستشار الأول (لقب) : ٢١٣
 المسجد : ١٠

١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٦ -
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤١
 ٣١٢ ، ٣٤٥ - ٣٥١ ، ٣٥٣
 ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ - ٣٦٦
 ٣٧١ - ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩
 ٤٥٩ ، ٥٢٥
 كنانة (قبيلة) : ٤٥٩ ، ٤٥٩
 كندة (قبيلة) : ٣٧ ، ١٧٧ ، ٢٢٤
 ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٨١
 ٤٨٠
 الكنيسة المسيحية : ١٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩
 الكوفيون : انظر عرب الكوفة

(ل)

اللائات (صنم) : ١٠٨
 لثم (قبيلة) : ٣٤٨

(م)

المارونية : ١٢٨
 ماكس = ماكسين (موقعة) : ١٩٨
 مال الله : ٤٢
 المجرمون السياسيون : ٢٩٩
 مجلس الرسول : ٢٣
 مجلس الكرادلة : ٣٨
 المجوس : ٢٧٣ ، ٣١٩ ، ٤٥٣
 ٤٥٤
 المحاربون : ٣٠ ، ٤١ ، ٦٢ - انظر أيضاً :
 مقاتلة
 المحصول (تأخير بيعه) : ٣٢١ ، ٣٣٦
 المحكم والمتشابه : انظر : القرآن

مكن (موقعة) : ٢٢٢

المسلمون : ٢ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ،

١٦ ، ٢٥ ، ٢٧ - ٣١ ، ٣٣ ،

٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

٨٥ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،

١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ - ٢٦٧ ،

٢٧١ - ٢٧٢ ، ٢٨٦ - ٢٨٧ ،

٢٨٨ - ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ،

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ،

٣٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ،

٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥٣ ، ٤٥٥ - ٤٥٧ ، ٤٧٠ ،

٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦ ،

٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢

المسودة : ٥٠٧

المسولية الوزارية : ٤٢٧

المسيحية : انظر : النصرانية

المسيحيون : انظر : النصارى

المشركون : ١٢ ، ١٥ - ١٧ ، ٢١ ،

٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٠ ، ٤٠٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٧٣

المشيء الإلهية : ٣

المشيئة الإنسانية : ٢

المصادرة : ٤٣

مصحف دمشق الأعظم : ٧٥

المصريون : انظر : عرب مصر

مضر (قبيلة) : ٦٦ ، ١٠٢ ، ٢٠٣ ،

٢٠٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ،

٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٢ ،

٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،

٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٦٢ -

٤٦٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ،

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ،

٥٠٧ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢١

المطلق : ٢

المعارضة الدينية والسياسية : ٦ ، ٣٧ ،

٤٠ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ،

٦٤ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٢٤ ، ١٥٩ ،

٢٣٥

المستعمرات الحربية : انظر : مدن المعسكرات

المنزل : ٥٣٤

المقاتلة : ٢٤ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٥ ،

٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،

٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٩ ،

٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٤١٣ ، ٤٤٢ ،

٤٦٨ - انظر أيضاً : جند - جيش

مقاس (قبيلة) : ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،

المكايل : ٢٤٦

المكيون : انظر : أهل مكة

الملاحم اليهودية : ٤٧٩

٤٨٨ ، ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٥٢٧ ،

٥٢٨ ، ٥٣٠

الموظفون الدينيون : ١٢

المؤمنون : ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ،

١٥ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٥١ ،

٦١ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٣٠٦ ، ٥١٨

(ن)

ناجية (قبيلة) : ٨٠ ، ٨١

النبط : ١٢٢

النوبة : ٢٢ ، ٦٤ ، ٢٠٩ ، ٢٧٣

النبي : ٥ ، ٨ - ١٠

نخع (قبيلة) : ٧٧

نزار (قبيلة) : ٥٢١

النساطرة : ٤٥٤

النسب : انظر : رابطة النسب

النصارى : ٨١ ، ١٢٨ ، ٢٠٩ ،

٢١٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ،

٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،

٤٢٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٣٠ ،

نصارى أيلة : ٢٩١

نصارى الحيرة : ٣٢٢

نصارى قبرس : ٢٩١

نصارى خيران : ٢٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

٢٩٦

النصحاء : ٤٧٠

(٣٨ - اللوحة العربية)

الملكانية : ٢٣٤

الملك الديوى : ٨

ملكية الأرض : ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،

٢٨٦

ماليك : ٥٣٣

المنافقون : ١٥

المنجم : ٥٣١

المهاجرون (المهاجرة) : ٨ ، ١١ ،

١٢ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٨٤ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ،

المهالبة : ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٣٠٣ -

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ،

٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٥٩ ،

٤٨٨

المهرجان (عيد) : ٤٢٨ ، ٤٦٨ ،

٤٦٩

المواطن : ٥ ، ٢٣ - ٢٥ ، ٤٨٨

الموالى : ٣ ، ٦٧ - ٦٩ ، ٢١٨ ،

٢٣٥ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ،

٢٥٩ ، ٢٦٩ - ٢٧٥ ، ٢٨٤ ،

٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،

٣٠٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٨٤ ،

٣٨٨ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،

٤٢٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ،

٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ،

٤٧٠ - ٤٧٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ،

(و)

- الواجبات الحربية : ٥
 الوثنية : (العربية) : ١٩ ، ١٧ ، ١ : ٢٠٧ ، ٢١
 (المعجمية) : ٤٦٩ ، ٤١٦ : ٤٨٨
 الوثنيون : (العرب) : ١٥٨ ، ٤٠ : ٢٨٣ ، ٢٧٧ : ٤٣٥
 (الأعاجم) : ٢٨٣ ، ٢٧٧ : ٤٣٥
 الوحي : ١٨ ، ١٧ ، ١ : ٢١٠
 الورق (القراطيس) : ٢١٠
 الوزير : ٥٣٠
 وصفاء الكوفة : ٣١٧
 الوضاحية : ٣٥٨
 الولاء : ١٣
 الولايات الفارسية : ١٠٣ ، ٩٤ : ١١٨

(ي)

- اليحافة : ١٢٨
 اليمين (قبائل) : ١٧٧ ، ٧٣ ، ٣٧ : ٢٠٣ ، ٢٤٠ ، ٢٢٦ ، ٢٠٤ : ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٥٣ — ٢٥١ : ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٤ : ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ : ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨١

- النصرانية : ١٩ ، ١٧ ، ٧ ، ٦ ، ١ : ٢٠٢ ، ١٢٧ ، ٩٤ ، ٨١ ، ٢١ : ٢٠٧
 النصرانية (التأثير النصراني) : ٦ : ١٢٦
 النقباء : ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٧٨ : ٥١٧
 نهاوند (موقعة) : ٧٤ ، ٧٣ : ١٠٩
 النهروان (موقعة) : ٩٨ ، ٨٢ ، ٨٠ : ١٠٥
 نوام (معركة) : ٣٣٢
 التبروز (عيد) : ٤٦٩ ، ٤٦٨

(هـ)

- الهائية (فرقة) : ٤٧٧ ، ٤٧٦ : ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ : ٥١٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٠
 الهجرة : ٦١ ، ٢٥ ، ٥ : ٤٥٠
 الهدايا للحكام : ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ : ٤٥٠
 الحرير (ليلة في صفين) : ٧٣
 همدان (قبيلة) : ٧٨ ، ٧٧ ، ٣٧ : ٣٨١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
 الهنود : ٣٨٠
 هوازن : ١٧٧ ، ٢٠ : ٤١٢ ، ٤٠٦
 الهياطة : ٤١٢ ، ٤٠٦

٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٣١٩ ، ٤٥٣ ،	٣٩٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ،
٤٥٤ ، ٥٣٠	٤٦٢ - ٤٦٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،
اليهودية : ١ ، ٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١	٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٢ ،
اليونان : ٣١	٥٢١
اليونان (التأثير اليوناني) : ٦ ، ٥٤ ،	الينيون : انظر : عرب الين
١٢٦ ، ٢١١	اليهود : ٨ ، ١٠ - ١٢ ، ١٥ - ١٩ ،
	٢٢ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٢٠٧ ،

استدراكات

صفحة	سطر	اقرأ
٢	٣	صبغة خلقية كاملة
٢	١٣	يخص به النبي [عليه السلام]
٣	١١	أما [الدولة] من حيث هي نظام
٢٤	٣	من الدولة العربية
٢٥	١٠	(مصور ، جميع مصر)
٢٦	٢٣	تزداد على الهامش العبارة الآتية : وفي طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٩١ أن شريحاً كان قاضياً عينه عمر ابن الخطاب على الكوفة .
٢٨	٧	أما إذا سلموا عنوة
٣٠	٤	في مقابل إتاوة
٣٢	١٠	يؤخذ هذا القانون
٣٤	١٢	فإن أبا بكر وعمر
٣٦	١٣	وكانوا يسمون أيضاً : مهاجرة .
٣٩	١٢	وما كان لهم من نفوذ
٤٠	١٥	والتمسك بالخير والحق
٤٤	٢٢	إنما خرجتم أن تجاهلوا
٤٦	٦	بنوراً بنوراً خطيرة
٤٦	٢٤	عبد الله بن سعد
٤٧	١٢	فقالوا إنهم
٥١	٨	الناس في آرائهم
٥٦	١٩	المفهوم عند إطلاق هذه التسمية
٥٨	٤	سبق السيف العذل
٥٩	٥	من حيث أصوله
٦١	٧	بل هو قه وحده
٦١	٢١	لا عن سائر المسلمين
٦٥	١٢	تقع القبيلة المخلومة
٦٩	١٢	على حدته ومن زاويته
٧٠	٣	(الأغاني ج ١٥ ص ٧١)

صفحة	سطر	اقرا
٧٠	١٨	قتل عثمان وآوى قتلته
٧١	٣	جرير بن عبد الله البجلي
٧٢	٢٢	هي Balla
٧٣	١٠	ذا الحجة
٧٤	١٧	أما إن أساء الأشخاص
٧٦	٦	وقد خالط المسكر المسكر
٧٦	١٦	لا يميلون إليه
٧٦	٢١	وتدخل في سبيل الوصول إلى حل
٨١	١٨	هذا ما يحكيه
٨٥	٨	عبد الله بن عمر فأبى عليه
٩٣	١٥	مناوية بن حديج
٩٣	١٧	جيلة بن
٩٥	١	عبد الله بن عياس
٩٥	١٠	عبد الله بن عمرو بن الحضرمي
٩٧	١	بيت المقدس
٩٧	١٤	aldori
٩٩	١٩	الأشعث — المقصود به هو الأشعث بن قيس
١٠٥	٢	لاحقاً بمجد العباسيين
١٠٥	١٠	وأنه عند ذلك
١٠٧	٣	قام معاوية بن أبي سفيان
١٠٧	٢١	جارية يتبطنها
١٠٧	٢١	يبنى أنهم دماء
١٠٩	٧	في البصرة أ لا
١٠٩	١٣	كان التحقيق
١١٠	١٢	من الحماة
١١٠	٢١	بين ظهري قيس
١١١	١٥	حمران
١١٤	١٤	خبر التعذيب
١١٦	١٧	فأبى ودلج الليل
١١٦	١٧	وإبى ودعوى
١٢١	٢	في نفس زياد
١٢٤	١٢	مزدحمة بالسكان
١٢٥	٢	إنجاد الرخاء في الحياة العامة
١٢٧	٦	حماستهم وحميتهم

صفحة	سطر	اقصراً
١٣٦	١٥	إحصاء خدمه
١٣٧	٢٠	σύμβουλοι
١٣٧	٢٣	Ὁ δεύτερος
١٣٨	١٨	ويذكر أن ذلك كان في سنة ٥٩ هـ
١٤٣	٧	ولم يلبث حين وصل أن دب إليه أهل الكوفة
١٤٤	٦	وأرسل عبيد الله بن زياد
١٤٤	١٦	وهكذا انتهت خطة الثورة
١٤٧	٤	قاتلا حماسة من حمام مكة ؟
١٤٧	١٠	أو لتعرفن راية
١٤٩	١٠	وذلك بأن كتب إلى يزيد بن معاوية
١٥٠	٦	أنصرفوا عن شئهم
١٥٠	٨	فقالوا إنهم قدموا
١٥١	٦	عبد الله بن حنظلة
١٥١	١٥	بأنه ابن الشهيد
١٥١	٢١	قد سخر من بني أمية
١٥٢	١	
١٥٣	١٣	الدخول في الطاعة
١٥٣	١٦	وخاطبوا مسلماً وجيشه
١٥٤	٢٢	وقال له مسلم :
١٥٤	٢٢	من عند يزيد
١٥٥	٢٣	دوزي ومولر
١٥٨	٢٦	ويجب عليه
١٦٠	٢	فقد أظهر حليماً كبيراً
١٦٤	١	أن خبر موت يزيد
١٦٨	٦	موت معاوية الثاني
١٦٩	٧	تدخل خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية
١٦٩	١٢	انقلب في آخر لحظة
١٦٩	٢٠	النعمان بن بشير
١٧٢	١٠	ووافق عبيد الله بن زياد على رأيه
١٧٣	٣	واستولوا له
١٧٣	١٨	لأنه كان غلاماً حدثاً
١٧٩	١٧	قتله
١٨٠	٥	أنه مات بعد عام
١٨١	٦	وأنه أمره

صفحة	سطر	اقصراً
١٨٦	١٥	فهو يصرح بذكر ثلاث حملات
١٨٨	٢	وادمجوا في الجيش
١٩٢	٥	عتاب بن ورقاء التميمي
١٩٢	١٥	لأن مصعباً نفسه
١٩٢	١٦	أخن مصعب
١٩٣	٤	لمعاربة عبد الله بن الزبير
٢٠٦	١٥	في النقش الأصل
٢٠٧	١١	بالنسبة للأمة الإسلامية
٢١٥	٨	التي نشره آ الثابت
٢١٥	١٢	وعن نسائه
٢١٧	١٠	فوق الصخرة المقدسة
٢١٧	١٦	إقليم المستنقعات عند خليجان إسوس
٢١٨	٢٣	Schia
٢٢٠	١٢	وأذنه !
٢٢٤	١	ملوك كندة
٢٢٥	١٢	أمنى إذا أمضيت
٢٢٦	١٧	مثل السيل المنحط من عل
٢٢٧	١٣	وانضم إليه
٢٣٠	٦	على حماسهم
٢٣١	٩	دجيل ودجلة
٢٣٢	٢٠	جيش ابن الأشعث
٢٣٣	٦	إلى درجة الكمال
٢٣٣	٢١	يوم عرفة
٢٣٥	٢٢	Culturgeschichtliche
٢٣٦	٢٧	راجع الديوان ص ٢١١ ب ٣ ، ١٠ ، ١١
٢٣٨	٩	وبلغ ابن الأشعث
٢٣٨	٢٥	وابن الأشعث
٢٤٤	١٨	ومنها أدخله إلى جليقية
٢٥٠	٣	يستطيع سليمان بن عبد الملك
٢٥١	١٩	ولو كنت أجسمت الفرار
٢٥٦	٨	يستمتع لرجاء بن حيوة
٢٥٩	٩	إلى المدينة
٢٥٩	١٧	عنده لمكرماً
٢٦٥	١٣	المشرق والمغرب

صفحة	سطر	اقرأ
٢٦٦	١٨	Wagner
٢٧٤	٢٢	وكان الذي تول ذلك رجلا من بني سعد
٢٧٧	١	الأرض
٢٧٩	١٩	عبد الله بن محمد أمير المؤمنين
٢٨٠	٢٠	شراء أو ميراثا
٢٨٠	٢	أو مهرا
٢٨٥	٣	فيكون صلح جديد
٢٨٥	٤	أو ظفر وعذوة
٢٨٧	٥	إلى ولي الأمر
٢٨٧	٣	جزيرة المغرب (٢)
٢٨٧	١٧	(٢) هكذا الأصل لكن المقصود بالبلاد : البلاد التي كانت خاضعة
٢٨٧	—	لسلطان الدولة العربية . (المترجم) .
٣٠٣	١	ويقول الواقدي
٣٠٥	٦	أراد أن يتخذ من الإسلام قوة
٣٠٦	١٥	صديقا لعمر بن عبد العزيز
٣٠٧	٤	يسمى عقرا
٣٠٨	هامش (١)	إن الآراء التي ذكرها المؤلف لأحد المرجئة هي التي تضمنتها قصيدة
		الشاعر ثابت قنطة ، وقد أوردها المرحوم أحمد أمين في كتابه
		« ضحى الإسلام » ؛ وفي :
		يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا
		ترجي الأمور إذا كانت مشبهة
		المسلمون على الإسلام كلهمو
		ولا أرى أن ذلبا بالغ أحدا
		لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا
		من يتق الله في الدنيا فإن له
		وما قضى الله من أمر فليس له
		كل الخوارج غلط في مقاله
		أما علي وعثمان فإنهما
		وكان بينهما شغب وقد شهدا
		يجزى عليا وعثماناً بسميها
		الله يعلم ماذا يحضران به
		أن نعبد الله لا نشرك به أحدا
		ولصدق القول فيمن جارا وعندا
		والمشركون استووا في دينهم قددا
		م الناس شركا إذا ما وجدوا الممندا
		سفك الدماء طريقا واحدا جددا
		أجر التقى إذا وقى الحساب غدا
		رد وما يقض من شيء يكن رشدا
		ولو تعبد فيما قال واجتهدا
		عبدان لم يشركا بالله مد عبدا
		شق العصا وبين الله ما شهدا
		ولست أدري بحق أية وزدا
		وكل عبدا سيق الله منفردا
		(المترجم)

صفحة	سطر	اقرأ
٣٠٩	٤	لم يتحقق
٣٠٩	١٩	الآداب الإسلامية
٣٠٩	٢٠	ولكن مسلمة لم
٣١٣	٣	يبلنونه ذلك رسياً
٣١٩	٣	بل على كره من
٣١٩	١٦	و'ينكح' أهل اللمة المسلمات
٣١٩	١٨	من موال عبد القيس
٣٢٤	١٧	يعني محمد ابن
٣٣٠	١٢	بجاسة شديدة
٣٣٠	١٥	طريق جبال البرانس (جبال البرنات)
٣٤٠	١	وكان احتفال كبير
٣٤٤	٥	بزة الصود والحيل والبراذين
٣٤٤	٩	خبر مقتل الوليد ، فقتل راجعاً
٣٥٠	١١	من شرب الخمر
٣٥٢	٣	والأ'ينعمر' الجند
٣٥٣	٧	وخصوصاً كلباً ، امتداداً ظاهراً
٣٦١	١٥	والأصبغ بن ذواله الكلبى
٣٦٨	٢٣	وقتل حوال
٣٧٢	١٠	وخصوصاً كلباً
٣٧٧	١٤	في عهد يزيد بن عبد الملك ، (النص الألمانى : يزيد : الثاني)
٣٧٩	٢١	شيبان بن سلمة الحرورى
٣٨٤	٤	موت يزيد واختلاف أمر الناس
٣٨٤	١٥	على جديلتكم
٣٨٥	٢٢	أن سلمة كان مبعوث ابن الزبير
٣٨٦	١٨	أن يبلغ عبيد الله بن زياد مكاناً آمناً
٣٨٧	٢٣	لأن أشيم ، لا مالكا ، كان هو القائد
٣٩٠	١١	شأن من كان يودى من ملوك الجاهلية
٣٩٠	٢٤	أن اثنين كانا هما الذين توسطوا في الصلح
٣٩٨	١٤	إلا بعد الإغذار إليهم
٣٩٨	١٨	بحسب ما جاء في البلاذرى
٣٩٩	٤	أفرضيتم
٤٠٣	١	يقوم بخلافة الأمير إذا غاب
٤٠٥	٢٠	وحيلة عجيبة
٤٠٩	١٧	وكانوا يسمون خاصة اليمن

صفحة	سطر	اقرا
٤١٠	٤	الشمال وإلى الشرق
٤١١	٤	أما إلى الغرب
٤١٤	٢١	Marquart
٤١٥	٦	من ذلك المعبر تؤيد
٤١٧	١٧	بل إنه سيتعرض
٤٢٨	١٢	ولم يبعث خاتناً
٤٢٩	٦	عزل سعيد خدينة
٤٢٩	٢٢	في بيت الشعر المذكور
٤٣٢	١٢	حملة على فرغانة
٤٣٣	١٦	(من نسل حارث بن عباد)
٤٣٤	١٥	الممرطة الكندي
٤٣٤	١٦	الممرطة
٤٣٦	٧	الجيش العربي
٤٣٨	٣	أن يشعل العدو النار
٤٣٩	٩	هارة بن حريم ابن عم الجند
٤٤٢	١٢	وبشر ابن
٤٤٦	١٣	ضربوا بكوساتهم
٤٤٧	٨	الكرمان بن علي : المقصود هو جديع بن علي الكرمان ، وكلمة « بن علي » غير موجودة في الأصل الألماني ، ولكنها موجودة في الطبري ج ٢ ص ١٦٠٥ (المترجم)
٤٤٧	١٤	آمدى
٤٤٨	١٧	من أشروسة
٤٥١	١٥	بيخاراخذاء رئيس المسلحة
٤٥٣	١	إلى الفارياب
٤٦٠	٦	وظل متمسكاً بمطالب المرجنة
٤٦٢	٣	يخلى برواً
٤٦٥	٧	ظلي ابن زعيمهم المقتول
٤٧٠	١٥	حريث بن قطبة
٤٧٢	١	لكن العرب بما صنعوه وبوا
٤٧٢	٢٢	بطاعة ولي الأمر أياً كان
٤٧٢	٢٣	في مبادئ
٤٧٣	١٢	العراق ، ومن العراق كانت قبائل العرب

صفحة	سطر	ألف
٤٧٤	١٢	وشدوا أزر الحكومة
٤٧٦	٥	حتى لو كان
٤٧٦	٦	اللهم إنه لم يمت
٤٧٦	١١	أوصى وصية صريحة
٤٧٩	٢١	بعض الاختلاف
٤٨٠	١٩	ولكن مع فرق :
٤٨١	١٤	ابن شيخ
٤٨٨	٢٣	الحرية
٤٩١	٩	بنو العباس
٤٩٣	١٣	تحت رئاسة أبي مسلم
٤٩٥	١	يسمى زيدا
٤٩٧	٧	هاجم على بن جديع مروا
٤٩٧	٢١	دخوله مروا
٥٠٠	١١	يفضيق بسلطانه
٥٠١	١٣	أن أبا مسلم دخل مروا قاضيا وحكما
٥٠٩	١١	على بن جديع الكرماني
٥١٠	١٢	في همدان
٥١٠	٢٠	قرب همدان
٥١٢	٢	ثمنا لهذا النصر
٥١٣	١٠	بيته
٥١٤	٨	ومنع الناس من الاتصال
٥١٦	٦	وإليه تتشوفون
٥١٩	١٨	قاتلوا مروان
٥٢٠	٤	أي : اضربوا أيها الفتيان
٥٢١	٢١	ولكن أبا العباس
٥٢٤	١٢	يسمى باسم انتيياريس
٥٢٤	٢٢	أو كافر سبا
٥٢٥	١١	بأقل من حلق كلب
٥٢٦	١	حتى قبض عليه
٥٢٧	١	لم يستطيعوا
٥٣٣	١٦	أبني العباس

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل

